جغرافية العالم المعاصر

جغرافية الدول الكبرى

منقحة

الدكتور عبد الرحمن حميدة

دار الفكر



جغرافية الدول الكبرى



جغرافية العالم المعاصر

جغرافية الدول الكبرى

منقحة

الدكتور عبد الرحمن حميدة

تصوير ١٩٨٧
عن الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م



طبع بأجهزة (C. T. T. السويسرية) للصف التصويري ،
وبالأوفست في دار الفكر هاتف (٢١١١١٦٦/٢١١٠٤١) ، برقياً (فكر)
ص.ب(٩٦٢)دمشق-سورية Tx FKRMGS 411745 Sy

بين يدي الكتاب

يتصدى هذا الكتاب لدراسة جغرافية الدول الكبرى في العالم آخذاً بعين الاعتبار وزنها الاقتصادي أو عدد سكانها أو كليهما معاً ، دون الاهتمام كثيراً بأبعادها بحيث يضم بين دفتيه بحوثاً تشتمل أكثر دول العالم أهمية على الصعيد الدولي ومن هذه الزاوية فقط لم أعمد لتسميته « جغرافية الدول العظمى » التي تعني الدول المتقدمة الكبيرة .

هذا وقد حاولت أن تكون دراسة الدول المذكورة من زوايا مختلفة ، أو بالأصح حسب مدارس جغرافية متعددة ، دون التقيد والالتزام بمنهج واحد اتقيد به عند دراسة كل دولة ، وذلك تجنباً للرتابة المملة والمخططات الصلدة التي لم تعد مستساغة في مطالعة الكتب الجغرافية التقليدية .

وقد عمدت إلى إغناء كل مبحث بأكبر قدر ممكن من الخرائط والأشكال ، بعضها معرب وبعضها نصف معرب ، كي أترك فرصة للقارئ لمعرفة أسماء المواقع والمعالم والمدن بأسمائها الحقيقية ، كما تكتب وتلفظ باللغة الإنكليزية أو الفرنسية .

ويصدر هذا الكتاب كطليعة لسلسلة « جغرافية العالم المعاصر » والتي تشتمل على المؤلفات التالية :

١ ـ جغرافية الدول الكبرى
٢ ـ جغرافية أوروبا الغربية
٣ ـ جغرافية أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي

٤ ـ قارة آسيا
٥ ـ الوطن العربي في آسيا
٦ ـ الوطن العربي في أفريقيا
٧ ـ أفريقيا السوداء
٨ ـ العالم الجديد : امريكا وأستراليا .

والله أسأل التوفيق للنهوض بمثل هذه المهمة وتحقيق هدفي المنشود ، وهو تقديم بضعة مؤلفات توفر المعلومات الرصينة عن العالم الذي نعيش فيه ونتفاعل معه بأشكال متفاوتة .

المقـدّمة

كل مـا في العـالم في حركـة دائبـة . فبين عـام وآخر ، لا تتغير المعطيـات العددية فحسب ، بل هناك البنى الدولية التي تتبدّل ، فإذا اقتصرنـا على شريحـة ما عبر اللحظة الحالية ، فإن ذلك سيقودنا إلى أكثر التقاويم وقتيّة وسأماً . . . .

ومن الأفضل أن تقـدم الوقـائع ضمن منظـورهـا التطـوّري ، وأن نستخلص الخطوط الكبرى المتحكّمة في كل شعب والمستمدّة من مـاضيـه ، وأن نُحلّل جهـده لمواءمة تراثه مع العصر الحاضر ، وهكذا يكون الطـالب الجـامعي أفضل استعـداداً وتهيئـة لإدراك الأصـالـة العميقـة لـدى كل شعب ، وأن يفهم ، من خـلال عـالم الأمس واليوم ، عالم الغد .

ولن نخفي رغبتنـا الشـديـدة في تفسير وتبسيـط ، وتخفيف العرفيّـة والإحصـائيـات . ولكن في هـذا الربع الأخير من القرن العشرين ، ولـد عصر جديد . فبعد البحبوحة التي كانت تسود فيه ، بعد الحرب العالمية الثانيـة ، لـدى الدول الغنية المتقدمة ، ظهر الإحساس بالحقائق القاسية ، وظهر قلق مفاجىء على مصير العـالم . وقـد أصبح بـؤس التخلف أكثر إيـلامـاً ، وعلى الجـانب الآخر من الأفق ، ظهر أن الآليّة المتزايدة الإحكام ، لدى الدول الغنيّـة ، قـد أصيبت فجـأة بـالسقم . ويتمخّض العـالم الآن عن يقظـة عسيرة ، كانت أزمـة النفـط في ١٩٧٣ نذيرها العنيف ، والذي كانت ترجمتـه على شكل ارتفـاع في الأسعـار ، وتضخم ،

وبطالة بلغت ١٠٪ لدى عدة دول متقدمة عظمى ، وإحساس بأن الوقت قد حان للكفّ عن هدر مجتمع الاستهلاك ، ورفض التقنية التي لا يكون الإنسان هو المسيطر عليها ، وأشكال الرعب المنتظرة من عام ٢٠٠٠ ، أمام تهديدات المجاعة ، والتلوث الجوي والمائي المتعاظم ، وتخريب التوازنات البيولوجية ، والخوف من قيام قيامة نووية .

وتطرح في كل مكان أسئلة رهيبة ، كما أن الإجابة تكون باستمرار عسيرة ، شاقة ، عويصة . ومنذ عهد قريب ، كان يبدو من العبث ، بالنسبة لبلد صناعي ، كانت الطبيعة شحيحة عليه ، أن يستغل دون مصاعب موارد أرضه ذاتها : غير أن اليابان أقامت قواعد ثروتها الباهرة فوق ركائز « التقسيم الدولي للعمل » . ويعزو مصدّرو المواد الخام كل مشكلاتهم إلى هذا الكيان الهش . . . ومن الميسور تعداد أمثال هذه الملاحظات .

ومنذ بداية القرن العشرين ، أي خلال فترة لا تمثل أكثر من مدة حياة إنسان ، تغير العالم كثيراً . فقد نكب بحروب عديدة ، كانت اثنتين منها حربين عالميتين ، لا تنفصلان عن بعضها بأكثر من عشرين عاماً ، وأدت إلى تغيرات عميقة ، فانحطت دول كبرى أو تلاشت ، وصعدت أخرى . ولكن ذلك يعود ، على الخصوص ، إلى التقنيّات الوثّابة ، وراح العالم يتطور بصورة مفرطة في عمقها وفي سرعتها حتى لقد دعيت هذه الفترة « فترة تسارع التاريخ » . وهكذا ظهرت في عالمنا مشكلات على درجة من الخطورة ، طرحت مسألة وجود الإنسان ذاته على بساط البحث . ويتعلق المستقبل ، الذي يسوده السلام ، أو الحروب الخارجية ، أو الأهلية ، بحل هذه المشكلات ، التي لم يتفق عليها بنو الإنسان بعد .

تلك هي التوضيحات الجديدة ، التي سنجهد في أن نجعلها محسوسة ، في دراسة المشكلات الكبرى في العالم المعاصر ، كمشكلات الطاقة ، وفي دراسة

أوروبا ، وفي حيرتها وترددها ، ودراسة العالم الثالث وحاجاته الذاتية الملحّة ، وفي دراسة اليابان المنخورة بالتلوث ، والمهددة في أساسات قوتها الصاعدة ، وفي البروز التظاهري الذي تجلّى فيه العملاق البرازيلي الناشئ ، وفي المشكلات المؤلمة التي تعاني منها بنغلادش التي تنوء بسكانها ، وفي اللولب المعقّد للتنمية الصينية . . إلخ .

ذاك هو منحى سعينا الحثيث ، ونتمنى أن يكون القرّاء الكرام على مستوى الإحساس بالمسؤولية الجماعية لبني الإنسان .

ويؤلف هذا الكتاب الذي نضعه في طليعة سلسلة « جغرافية العالم المعاصر » ، بداية متواضعة لعدة كتب جغرافية إقليمية ، تلقي نظرة موضوعية وشاملة على العالم الذي نعيش فيه ، وستجد دراسة الوطن العربي مكانها اللائق ، قبل الفراغ من التعرف على العالم القديم الذي نؤلف واسطة عقده : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطاً ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وعلى الله التكلان وهو نعم المولى ونعم النصير .

عبد الرحمن حميده

رئيس قسم الجغرافيا في كلية الآداب بجامعة دمشق سابقاً

دكتوراه الدولة في الآداب من السوربون

دمشق في ١٥ / ٣ / ١٩٨٤



الفصل التمهيدي

أولاً ـ العالم في ١٩٨٠

يوجد في العالم ١٧٠ دولة .

ولكل دولة حيّز ذو ثلاثة أبعاد :

رقعة أرضية ، شديدة التباين ، فأكبر دولة هي الاتحاد السوفيتي الذي يمتد على ٢٢,٤ مليون كم٢ ، وأصغرها دولة الفاتيكان ومساحتها ٠,٤٤ كم٢ .

وهناك بين الدول العظمى دول واسعة ، عدا الاتحاد السوڤيتي :

الولايات المتحدة	٩,٣٦ مليون كم٢	البرازيل	٨,٥١ مليون كم٢
كندا	٩,٧٨ مليون كم٢	الهند	٣,٢٧ مليون كم٢
الصين	٩,٥٦ مليون كم٢	الأرجنتين	٢,٧٨ مليون كم٢

وهناك أصغر رقعة بكثير مثل :

اليابان	٠,٣٧ مليون كم٢	المملكة المتحدة	٠,٢٤ مليون كم٢
جمهورية ألمانيا الاتحادية	٠,٢٥ مليون كم٢	بلجيكا	٠,٠٣ مليون كم٢
إيطاليا	٠,٣٠ مليون كم٢	هولندا	٠,٠٣ مليون كم٢

رقعة بحرية لكل الدول التي تملك واجهة ساحلية. ففي السبعينات امتدت المياه الإقليمية إلى ٣ أميال ثم إلى ٦ ، ثم إلى ١٢ وأخيراً إلى ٢٠٠ ميل بحري ، أو ٣٧٠ كم ، مع حقوق صيد خاصة بها . هذا كما تمت السيطرة على الأرصفة القاريّة Schelfs حتى عمق ٢٠٠ م ، أو حتى تخوم حدودية مع دول أخرى واقعة تجاه سواحلها ، مثلما حدث في بحر الشمال أو في الخليج العربي ، بالنسبة لحقول النفط البحرية .

مجال جوي لا يحق للطائرات الأجنبية أن تعبره إلا بعد اتفاق يتم بعد تعاقد متبادل .

ولم يبق في العالم سوى منطقتين غير مقسومتين بين الدول :

- القارة القطبية الجنوبية ، التي أصبحت بموجب معاهدة ١٩٥٩ ولمدة ٣٠ سنة قارّة مجردة من السلاح ومفتوحة أمام البحث العلمي الدولي .

- المساحات البحرية التي تقع فيما وراء ٢٠٠ ميل بحري . وترى بعض الدول جعلها مجالاً دولياً يعهد بتسييره للأمم المتحدة ، من أجل استغلال موارده من جديد ، معادن القاع ، والبحث عن النفط والغاز ، في حين تفضل دول أخرى أن تظل هناك (حرية الوصول) إلى ثرواته .

تطور عدد سكان الأرض

العام	عدد السكان	العام	عدد السكان
١٦٥٠	٤٧٥ مليون نسمة	١٩٦٤	٣٢٠٠ مليون نسمة
١٧٥٠	٦٩٠ مليون نسمة	١٩٧٥	٤٠٠٠ مليون نسمة
١٨٥٠	١٠٨٦ مليون نسمة	١٩٧٨	٤٢٠٠ مليون نسمة
١٩٠٠	١٥٥٠ مليون نسمة	١٩٨٠	٤٣٣٦ مليون نسمة
١٩٢٥	١٩٠٧ مليون نسمة	١٩٨١	٤٥٠٨ مليون نسمة
١٩٥٠	٢٤٩٧ مليون نسمة		

أكثر دول العالم سكاناً بالملايين في ١٩٨١

١ ـ الصين	٩٥٠ (١٠٢٥ في ١٩٨٢)	٢ ـ الهند	٦٨٤
٣ ـ الاتحاد السوفيتي	٢٦٨ (١٩٨١) ٢٧١ (مطلع ١٩٨٣)	٤ ـ الولايات المتحدة	٢٣٠
٥ ـ أندونيسيا	١٥٠	٦ ـ البرازيل	١٢١
٧ ـ اليابان	١١٧	٨ ـ بنغلادش	٩٠
٩ ـ باكستان	٨٤	١٠ ـ نيجيريا	٨٠
١١ ـ المكسيك	٧١	١٢ ـ ألمانيا الاتحادية	٦١
١٣ ـ إيطاليا	٥٧	١٤ ـ المملكة المتحدة	٥٦
١٥ ـ فرنسا	٥٤ (١٩٨٢)	١٦ ـ فيتنام	٥٥
١٧ ـ فيليبين	٤٩	١٨ ـ تايلاند	٤٨
١٩ ـ تركيا	٤٦	٢٠ ـ مصر	٤١ (٤٤ في ١٩٨٢)
٢١ ـ كوريا الجنوبية	٣٨	٢٢ ـ إسبانيا	٣٧
٢٣ ـ إيران	٣٩	٢٤ ـ بولونيا	٣٦
٢٥ ـ بيرمانيا	٣٦	٢٦ ـ أثيوبيا	٣٢
٢٧ ـ أفريقيا الجنوبية	٣٠	٢٨ ـ زائير	٢٨
٢٩ ـ الأرجنتين	٢٨	٣٠ ـ كولومبيا	٢٨

مجموع الأقطار المذكورة ٣٦٣٦ أو ٨٠٪ من سكان العالم

مجموع العالم ٤٥٠٨

ثروة الدول حسب الناتج القومي الخام بمليارات الدولارات (حسب تقديرات البنك الدولي) في ١٩٨٠ :

١ ـ الولايات المتحدة	١٨٧٤	٤ ـ ألمانيا الاتحادية	٥٠١
٢ ـ الاتحاد السوفيتي	٧٨١	٥ ـ فرنسا	٣٨٧
٣ ـ اليابان	٦٤٢	٦ ـ الصين	٣٤٦

٧ ـ المملكة المتحدة	٢٤٧	١٩ ـ بلجيكا	٧٤
٨ ـ كندا	١٩٧	٢٠ ـ المكسيك	٧١
٩ ـ إيطاليا	١٩٥	٢١ ـ سويسرا	٦٣
١٠ ـ البرازيل	١٥٨	٢٢ ـ تشيكوسلوفاكيا	٦١
١١ ـ إسبانيا	١١٦	٢٣ ـ تركيا	٤٧
١٢ ـ بولونيا	١١٠	٢٤ ـ النمسا	٤٦
١٣ ـ أستراليا	١٠٣	٢٥ ـ العربية السعودية	٤٦
١٤ ـ هولندا	٩٩	(٨٦ في ١٩٨١ و ١٠٠ في ١٩٨٢)	
١٥ ـ الهند	٩٧	٢٦ ـ الأرجنتين	٤٥
١٦ ـ ألمانيا الشرقية	٨٣	٢٧ ـ يوغوسلافيا	٤٣
١٧ ـ السويد	٧٦	٢٨ ـ الدانمارك	٤١
١٨ ـ إيران	٧٥	٢٩ ـ أندونيسيا	٤١
		٣٠ ـ أفريقيا الجنوبية	٣٦

مجموع الأقطار المذكورة ٦٧٠٠أو ٨٨٪ من ثروة العالم
مجموع العالم ٧٥٠٠

الإحصائيات العالمية في ١٩٨٠

إنتاج القمح	٤٢٦ مليون طن و ٤٥٨ في ١٩٨١
إنتاج الرز	٣٧٩ مليون طن و ٤٠٣ في ١٩٨١
إنتاج السكر	٩١ مليون طن و ٩٢ في ١٩٨١
إنتاج الصيد البحري	٧١ مليون طن و ٧٣ في ١٩٨١
قطعان الأبقار	١٢١٢ مليون رأس و ١٢٢٥ في ١٩٨١
قطعان الخنازير	٦٦٤ مليون رأس
قطعان الأغنام	١٠٣٢ مليون رأس
إنتاج الفحم الحجري	٣٥٠٠ مليون طن
انتاج الكهرباء	٨١٣٤٠٠٠ مليون ك وس

إنتاج البترول	٣٠٥٦ مليون طن و ٢٨٥١ في ١٩٨١
إنتاج الغاز الطبيعي	١٤٩٠ مليار متر مكعب و ١٥١٣ في ١٩٨١
إنتاج خامات الحديد	٤٧٣ مليون طن و ٤٨٢ في ١٩٨١
إنتاج الفولاذ	٦٧٣ مليون طن و ٧٥٥ في ١٩٨١
إنتاج الألمنيوم	٨٥ مليون طن و ٨٨ في ١٩٨١
إنتاج الذهب	١٤١١ طن و ١٢٧٠ في ١٩٨١
إنتاج السيارات	٤١ مايون و ٣٧ في ١٩٨١
عدد السيارات في العالم	٣٥٦ مليون و ٤١٢ في مطلع ١٩٨١
قيمة التجارة الدولية	١٢٩٥ مليار دولار
حمولة البحرية التجارية	٣٩٤ مليون طنة حمولة خام و ٤٢٠ في ١٩٨١/٧/١
الحمولة المنقولة بالسفن	٣,٥ مليار طن
عدد الطيارات المدنية	٨٨٨٧

ثانياً ـ الكتل العالمية الكبرى

لقد انقسم العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بصورة تقريبية ، إلى ثلاثة مجموعات : « الكتلة الأمريكية » ، « الكتلة السوفياتية » ، والعالم الثالث .

وقد عملت الثروة الديموغرافية على تسهيل **صعود أمريكا** . فقد تلقت الولايات المتحدة موجات من المهاجرين المتشوقين لتحسين أوضاعهم ، والذين يترك لهم النظام الاقتصادي الليبرالي أكبر قدر من المبادرات والتطلعات إلى النجاح . وقد كان التاريخ مفيداً للولايات المتحدة : فقد أمكن التغلب بسهولة على الصدامات الداخلية وعلى نزاعات الحدود مع المكسيك في القرن التاسع عشر ، مثلما عملت الحربان العالميتان على إثرائها وعلى تقويتها صناعياً أكثر مما

أضعفتها ديموغرافياً لأن ميادين المعارك كانت بعيدة عن أراضيها ، كما كان تدخلها متـأخراً ، وفي خـلال ربـع القرن الـذي أعقب نهـايـة الحرب الأخيرة ، أي بين ١٩٤٥ ـ ١٩٧٠ ، أصبح نفوذها العالمي أمراً واقعياً . ويستند هـذا النفوذ على بعض الأسلحة الناجعة :

ـ المظاهر الإيجابية في الليبيرالية الاقتصادية ولا سيما تلك الإرادة الخارقـة في الإقدام والتجديد .

ـ الدولار ، الـذي عرف الأمريكيون كيف يعملوا منـه أداة قـدرة ، وذلـك عندما كان عملة صعبة ، حتى نهاية الستينات ، أو بعـد أن أصبح وافراً للغـايـة في الأسواق العالمية .

ـ سبق تكنولوجي لا مرية فيه لا ينازعها عليه سوى اليابان .

ـ أسلحـة اقتصـاديـة حيث يكون للفوائض الزراعيـة قيمـة أكبر ، مـا دامت حالات العوز الغذائي متزايدة في الأقطار المتخلفة ، أو في الدول الاشتراكية .

ـ صورة إيديولوجية عن ديموقراطية متعددة الأحزاب وحرية .

ـ وسـائل عسكريـة ذات امتـداد من مستوى عـالمي استنـاداً إلى معـاهـدات متعددة الجوانب مع حماية نووية وقواعد استراتيجية .

وقـد كان **بلوغ الاتحـاد السوفيتي مستوى دولـة عظمى** أكثر تـأخراً وأكثر صعوبة ؛ فقد حصل في دولة شديدة التـأخر اقتصـاديـاً وذات بنى اجتماعيـة غير مشجعـة . وقـد كان للتـاريـخ هنـا دور منـاهض بكل جـلاء : فقـد كانت السنوات الثلاثـون ، بين ١٩١٤ و ١٩٤٥ حـافلـة بـالمجـازر الـديموغرافيـة : الحرب العالمية الأولى ، الحرب الأهلية التي أعقبت الثورة ، ضحايا السيـاسـة الستـالينيـة التي تلت جماعية الأراضي والتصفيات الجسدية ، وأخيراً الحرب العالميـة الثـانيـة ،

مما كلف هذه البلاد أكثر من ٣٠ مليون قتيل . كما لم تكن التخريبات المادية وانعدام النظام بأقل أضراراً . ولكن وجود انضباط ايديولوجي صارم ، يرمي لجعل الاتحاد السوفيتي أول بلد في التجربة الاشتراكية ، والمدعوم بسلطة الحزب الشيوعي المهيمنة سواء في الداخل أم في الخارج ، وتكوين قوة عسكرية جبارة ، سمح لهذه البلاد بأن تخرج من اقتصادها المتأخر .

ولقد استطاع النظام السوفياتي أن يفرض نفسه معتمداً على مصادر معدنية وطاقية ضخمة ، وهادفاً لجعل التقدم عن طريق التصنيع ، ومانحاً الأفضلية لأنشطة التجهيز أكثر من سلع الاستهلاك الدارجة . وكان ربع القرن التالي لموت ستالين ، في الوقت نفسه فترة تحسين مستوى المعيشة الداخلي ، وانتشار النفوذ العسكري والايديولوجي على مستوى عالمي ، ولكن وحدة العالم الشيوعي تعرضت للتصدع : فقد أصبحت الصين قطباً آخر للنفوذ وللتوجيه الشيوعي .

أما عبارة **العالم الثالث** فقد ظهرت لأول مرة على قلم العالم الفذ (آلفرد سوفي كي يشير) ، في نهاية الأربعينات ، إلى الدول التي ترفض الانخراط في حلبة تنافس الدول العظمى ، تلك هي دول الحياد في المجموعة الأفريسية ، وبلدان أمريكا الجنوبية والهند . وهناك علامة أخرى تستخدم أحياناً لتعريفه : وهي أن العالم الثالث يتألف ، في غالبيته ، من دول ذات قاعدة اقتصادية هزيلة وناقصة النمو ، أي متخلفة . وفي هذا المعنى فهي تتنافر نوعياً مع الأقطار المتصنّعة ، أو الصناعية ، وذات المستوى المعاشي المرتفع . ولكن تعرّض كل من هذين المعيارين لتشوه عميق خلال ثلث القرن الأخير .

فقد أصبح عدد الدول التي استطاعت أن تحتفظ بحيادها المبدئي زهيداً جداً : فقد أدت المواجهات الايديولوجية والنزاعات المسلحة بين هاتين الدولتين الامبرياليتين المسيطرتين إلى اضطرار الكثير من الدول الصغرى إلى الانضمام ،

بصورة أو بأخرى ، إلى هاتين الكتلتين . وقد كشف مؤتمر هافانا في عام ١٩٧٩ للعيان ، ذلك الانشطار بين الاتجاه الموروث عن الأصول ، أي عن (مقررات باندونغ) في عام ١٩٥٥ ، والذي كان يمثله مارشال يوغوسلافيا الراحل « تيتو » ، وبين مجموعة (عدم الانحياز) التي تسير خلف موسكو وراء « كاسترو » زعيم كوبا .

هذا كما أن زيادة الإنتاج النفطي وارتفاع أسعاره بشكل استعراضي ، عملا على تهشيم وحدة العالم الثالث ، المعروف بأنه عالم متخلف . فقد أصبحت بعض الدول القليلة السكان وذات الإنتاج الضخم كدول الخليج العربي ، وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية ، أصبحت غنية خلال عدة سنوات (شكل ١) في حين كانت الدول الأخرى ، المحرومة من هذا المن تتخبط في فقر متزايد أيضاً ، حتى لقد ظهرت عبارة العالم الرابع ، التي تشمل الدول المتخلفة المتوسطة الفقر ، مثل سورية وتونس وإيران وتركيا ، وبوليفيا ، ودول العالم الخامس مثل الصومال وأيثيوبيا وموريتانيا وبنغلادش .

هذا في حين حققت بعض الدول عملية الإقلاع وخرجت من مستنقع

تطور
سعر البترول الخام العربي
الخفيف بالدولار

34,00
32,00
30,00
28,00
26,00
24,00
18,00
14,54
13,33
12,70
12,09
11,51
10,46
9,80
8,66
4,02
2,03

1973 1974 1975 1976 1977 1978 1979 1980 1981

الشكل ١

التخلف مثل كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة ، كما أن البعض من الدول تتراوح بين بين مثل يوغوسلافيا وإسبانيا والبرتغال والبرازيل .

☆ ☆ ☆

أعملاقان فوق ساقين من طين ؟!

١ ـ « لقد أصبحت حركات التمرد في العالم المتأمرك ـ أي العالم الواقع مباشرة تحت وصاية الولايات المتحدة ـ هي التي تثير حفيظة هذه الدولة . فابتداءً من كندا إلى أمريكا اللاتينية ، ومن أوروبا حتى اليابان ، أخذت الشعوب الخاضعة بشكل واضح أو مُقَنّع للنفوذ الأمريكي ، أخذت تتجرأ لترفع رأسها لتحاول استرداد شخصيتها . وهكذا أخذ المجال الأمريكي ـ أي العالم ـ الذي تسلّل إليه نفوذ أمريكا بحذق ، وانتظم حسب إرادتها ، راح يتصدّع بنيانه ، ويطمح إلى الاستقلال الذاتي ، وأحياناً إلى الاستقلال التام .

ترى هل يستغل العالم الاشتراكي هذا الوضع ، كما سبق أن توصّل إليه ، كي يمد هيمنته بزيادة أكبر ؟ لقد انتشرت بقعة الزيت التي انطلقت من روسيا لتغطي أوروبا الشرقية ، والشرق الأقصى بما في ذلك الصين وجنوب شرق آسيا ، إلى أن بلغت إفريقية الشرقية بما في ذلك كوبا ، التي أصبحت تشكل تهديداً للقارة الأمريكية ذاتها . وفي سبيل توقيف هذا الزحف ، تكرس الولايات المتحدة كل قدرتها العسكرية كما فعلت في كوريا وفي ڤيتنام .

وفي هذه المعركة المكتومة الصوت ، تكون المهارة أحياناً أفضل من القوة ، كما قد يلعب الحظ دوره . ويبرهن على ذلك انقسام العالم بين هذين الجبارين . وقد أصبح ذلك ممكناً ، وسيصبح ضرورياً أكثر في أعقاب تصاعد قوة الصين . وإذا كانت الصين قد أصبحت ورقة رابحة ، ولوقت ما ، في اللعبة الأمريكية ، فإن هذا لا يجوز أن يحجب عنا المشكلة الأساسية : أي هل ستستطيع قوة أمريكا ، المرتكزة على الاقتصاد الحر ، أن تظل دوماً قادرة ، رغماً عن جهازها العسكري الهائل ، على احتواء اندفاعة اشتراكية ، تبرهن اختلافاتها الداخلية ذاتها على ضعفها ، مثلما تدل أيضاً على حيويتها . »

٢ ـ تعتبر أعناق الاختناق الجرح الدامي في الاقتصاد السوفيتي . . . والواقع أن كل منظومة التخطيط هي التي تقف في قفص الاتهام . وهذا التخطيط نفسه يتخذ صفة عنصر لا يقهر في الاشتراكية السوفياتية ، وياله من معضلة تواجه المسؤولين ! ترى هل يستدعي الانفلات من التخلف إعادة نظر موجعة للطرائق المتبعة نظراً لتعذر التخلي عن النظام كله ؟

وها هي الصين تنادي بأن الاتحاد السوفياتي قد خان الاشتراكية . والواقع لقد كبّل الاتحاد السوفياتي نفسه في العقائدية ، والبيروقراطية وفي نهاية المطاف في « التبرجز » . وقد حصل « التعايش السلمي » على حسابه مما أنعش الغرب ، وساعد الامبريالية الأمريكية بطريقة مباشرة ، وهكذا قيل : « الدب الروسي يكسر الجوزة ، والنسر الأمريكي يأكلها » . وقد قفزت التجارة بين البلاد الرأسمالية الغنية من ١٥٪ في ١٩٥٥ إلى ٣١٪ في ١٩٧٤ . وهذا يعني وقوع الاتحاد السوفياتي تحت تبعية هذه الدول في تموينه بالغذاء أو بالمواد الصناعية[1] . وعندما يشتري الاتحاد السوفياتي مصانع « مفتاح باليد » فلا يعني ذلك الاعتراف بتأخره التكنولوجي ، بل يدل ذلك أيضاً على تبعيته في تجهيزه لرغبة الرأسماليين . وقد اضطر الاتحاد السوفيتي للاستدانة من الأقطار الليبرالية ومن سوق الأورو دولار .

وفي الوقت الذي يخضع لضرورات التضخم الغربي ، حيث يتجه نحو الولايات المتحدة للحصول على حاجته من الغذاء ، أو نحو الولايات المتحدة واليابان ، للاستعانة بها من أجل استغلال موارده النفطية في سيبريا ، ونحو الدول المذكورة أو أوروبا ، كي يحصل على التجهيزات التي لا غنى له عنها ، ألا يحق لنا أن نطرح السؤال التالي : هل يمكن اعتبار الاتحاد السوفيتي سيد مصائره الاشتراكية ؟

(عن تروتينيون . عالم القرن العشرين . دار فايار ١٩٧٨)



---

(١) وأكبر دليل على ذلك حاجته الماسة لأنابيب نقل الغاز السيبري إلى أوروبا الغربية في ١٩٨٢ ومناهضة دول أوروبا الغربية لسياسة أمريكا التي تعارض ذلك .

تقلبات الظروف في أوروبا

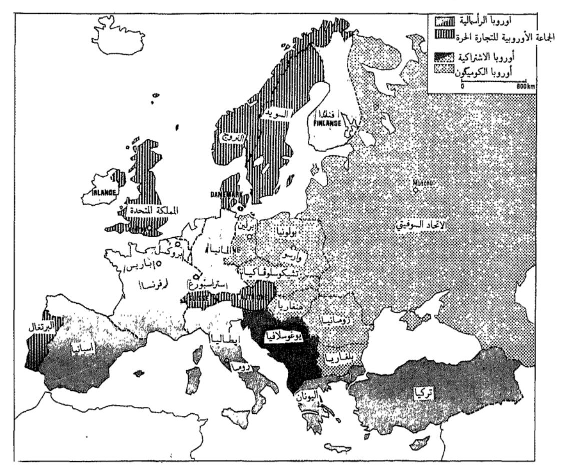
لقد وهب التفوق التجاري ، والثورة الصناعية ، من بعده ، قارة أوروبا ، وضعاً مهيناً وذلك منذ مطلع الأزمنة الحديثة حتى فجر القرن العشرين . فقد أصابت الحربان العالميتان ، اللتان دارت معاركهما في الغالب ، فوق الأراضي الأوروبية ، بويلاتها معظم دول هذه القارة . فتعرضت قوى الدول المتحاربة إلى خسائر جسيمة في الأرواح ، فضلاً عن تخريب مادي رهيب أصاب وسائل الإنتاج .

وهكذا ظهر منافسان جديدان : ففي الربع الأول من هذا القرن ظهرت الولايات المتحدة كدولة صناعية جبارة ، كي تنافسها اليابان ، بعد قليل ، على الزعامة الصناعية .

كما تواترت المصاعب في الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية انتهت بتلاشيها وتحرر المستعمرات ، حرباً أو سلماً . فلم تخسر الدول الاستعمارية السابقة الإشراف السياسي على مستعمراتها السابقة ، التي نالت استقلالها بشتّى الوسائل من ثورية ودبلوماسية ، بل حرمت أيضاً من امتيازاتها الاقتصادية ، كالأسواق المحمية ، كي تحلّ مكانها أشكال جديدة من التنافس ، كمحاولات التنمية ، هذا رغم بقاء الكثير من الارتباطات ، من مالية وثقافية ، والتي يسميها الكثيرون : الاستعمار الجديد .

ولقد تمخّض انهيار روسيا القيصرية عن نشوء أول دولة اشتراكيـة مـاركسيـة في عـام ١٩١٧ ، هي الاتحـاد السـوڤيتي ، وتشكلت بين عـامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ في أقطار أوروبا ، التي اجتاحتها جحافل الجيوش الروسية ، جمهوريات جـديـدة ، هي الديموقراطيات الشعبية .

وهكذا أدت الحربان العـالميتـان إلى **انشطـار أوروبـا إلى قسمين** : فبعـد الكتل التي كانت قائمة قبل حرب ١٩١٤ على أساس من منافسات قوميـة ، قـامت مكانها اليوم كتلتان مرتكزتان على خصومات ايديولوجية (شكل ٢) .



الشكل ٢

أوروبا المنقسمة على نفسها

وخرجت أوروبا من الحرب في ١٩٤٥ مدمّرة : فقد قضيَ على ثلث قدرتها الصناعية . كما أصيبت طرق المواصلات بالشلل ، ولم يعد الإنتاج الزراعي كافياً لتأمين تموين صحيح . أما التجارة الخارجية فقد منيت بعجز ضخم ، وتعرضت العملات الأوروبية إلى تخفيض في قيمتها . وقد شعر سكرتير الدولة الأمريكية ، (مارشال) ، بخطورة الوضع ، فاقترح بتاريخ ٥ حزيران ١٩٤٧ تقديم معونة كثيفة لأوروبا ، لم تقبل بها سوى دول أوروبا الغربية ، في حين قابل الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية هذا العرض برفض جماعي .

وهكذا نشأت **المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي** OECE لإعداد برنامج لاستخدام المعونة الأمريكية على الصورة الأفضل . وبعد توزيع هذه المعونة أمكن إنقاذ أوروبا اقتصادياً في سنة ١٩٥٢ . وظلت هذه المنظمة تعمل لتشجيع تنمية أعضائها : كحرية التجارة عن طريق تخفيض الرسوم الجمركية ونظام الحصص ، وتحرير المدفوعات بفضل الاتحاد الأوروبي للمدفوعات ، وبفضل بنك التسديدات الدولية ، وابتداء من أعوام الستّينات ، تخلّت المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي عن مكانها لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE ، وهي جماعة من دول متقدمة وجدت دول أوروبا ضمنها مكانة سامية .

هذا كما ضاعف الأوروبيون الغربيون جهودهم في التنظيم ، سواء على الصعيد السياسي (المجلس الأوروبي) ، أو على المستوى الاقتصادي (الجماعات) ، وذلك لرد شيء من الإشعاع السابق لهذه القارة القديمة .

أما دول الديموقراطيات الشعبية ، فقد تبنّت أهدافاً وطرائق سوفياتية . وأصبح مجموع أوروبا الوسطى يؤلف كتلة سياسية وعسكرية (حلف وارسو) واقتصادية ، وذلك منذ أن أصبح كل أعضائها شركاء في **مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل** ، الذي أنشئ في عام ١٩٤٩ ، والذي يحاول جاهداً التنسيق بين مختلف البرامج الوطنية وتحسين التعاون الاشتراكي .

منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية

بتاريخ ٣٠ ايلول ١٩٦١ ، حلّت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية مكان المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي ، والتي أصبحت تضم الولايات المتحدة وكندا ، والتي انضمت إليها اليابان في ٢٨ نيسان ١٩٦٤ . وأخذت هذه المنظمة الجديدة على عاتقها كل التزامات المنظمة السابقة ، واتخذت لنفسها رسالة ترمي لتنمية اقتصاديات أعضائها ، وذلك بإقامة علاقات تبعيّة متبادلة فيا بينها . ولكنها تختلف عن المنظمة السابقة بنقطتين : أولاً اهتمامها بالتنمية وليس بإعادة بناء ، وثانياً بإنشائها لجنة العون على التنمية ، لتشجيع نمو الأقطار الناقصة النمو (الدول المتخلفة) والذي ينـدر أن يتجاوز ١٪ من دخلها الوطني وغالباً مايكون عوناً عسكرياً أو غذائياً لا يسد الرمق والهدف منه الدعاية قبل كل شيء

وهكذا لا تلعب منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية دوراً أساسياً في الميدان التجاري ، لأن تسعة أعشار المنتجات أصبحت حرة التبادل ، ليس بين الأعضاء الأوروبيين فحسب ، بل بين الأعضاء المذكورين وبين الولايات المتحدة . وتلعب المنظمة على الخصوص دور تنسيق وإعلام واستشعار . وتنشر بصورة منتظمة دراسات عن وضع أعضائها الاقتصادي ، وتخمّن تطور الأوضاع المستقبلية ، وتوصي بالعلاجات، وتلعب دور موزع للاستثمارات ، أو تقديم العون للبلاد القليلة التصنيع .

مجلس العون الاقتصادي المتبادل

لم يعمل الرفض الذي قوبل به برنامج (مارشال) من جانب الاتحاد السوفيتي ، ومن خلفه الجمهوريات الشعبية ، أكثر من التأكيد على انفصام قارة أوروبا إلى كتلتين : فقد رفضت كل هذه الدول الاشتراك في المنظمات الاقتصادية المتعلقة بمنظمة الأمم المتحدة ، مثل مؤسسة الغذاء والزراعة F.A.O ، والبنك الدولي لإعادة التعمير والتنمية . وقام الاتحاد السوفيتي بتأسيس مجلس (العون الاقتصادي المتبادل) ، كجواب مباشر على مخطط مارشال الأمريكي ، وذلك بتاريخ ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ . وهكذا التف حول الاتحاد السوفيتي كل من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وبلغاريا ، ورومانيا ثم ألبانيا ، وانضمت ألمانيا الديمقراطية في عام ١٩٥٠ . ولا يبدو أن هذا المجلس قد قام ، حتى عام ١٩٥٩ على الأقل ، فوق أنظمة واضحة ، كما لم يحاول أن يخلق مؤسسات متعددة الجنسيات . ويتألف المجلس من ممثلي الأقطار الأعضاء ، ولم يلعب أكثر من دور استشاري وتنسيقي ، دون أن يفكر مطلقاً بتخطيط شامل مفروض . وكل ما قام به في البداية هو تعاون حقيقي ، كما أن شدة تباين القوى بين الاتحاد السوفياتي وبقية دول أوروبا الشرقية أدت بصورة لا محيد عنها ، إلى نوع من وصاية سوفياتية .

من آمبروازي « التاريخ والجغرافيا الاقتصادية للدول العظمى » نشر دولاغراف ١٩٦٧

الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية

من المألوف موازنة الأقطار الرأسمالية مع البلدان الاشتراكية الماركسية . فبعد أن كانت المركنتيلية[1] هي السائدة ، ظهرت الرأسمالية مع الثورة الصناعية في أقطار أوروبا الغربية ، ثم في أمريكا الشمالية حيث استقرت فيها ووطّدت أركانها ، ولكنها انتقلت لمناطق أخرى ، هذا إذا لم يمنعها النظام الاشتراكي الماركسي : وهكذا تحولت روسيا إلى الاشتراكية في عام ١٩١٧ ، وأقطار أوروبا الاشتراكية في سنة ١٩٤٥ ، والصين في ١٩٤٩ ، وتقوم هذه الموازنة على نظريات اقتصادية متخاصمة .

الرأسمالية والاشتراكية الماركسية : مخططان نظريان لعلم الاقتصاد

لما كانت الحرية هي أساس الديمقراطية السياسية ، فإن الرأسمالية تطالب بالحرية ذاتها في المجال الاقتصادي ، سواء بالنسبة للأفراد ، أو بالنسبة للجماعات . وتؤلف المنشأة أو المؤسسة entreprise قلب هذا النظام . فهي التي تعمل على تلاقي مختلف الأطراف الاقتصادية ، مثل المقاول الذي يقدم الخدمات والممتلكات ، والمقرض الذي يقدم الأموال ، والشّغيلة الذين يقدمون قوة العمل . وتقوم المؤسسة بتوزيع عوائد العمل ، أي الأجور ، وعوائد رأس المال ، أي الأرباح ، وتقتطع أرباحها الخاصة . وتؤدي المنافسة الحرة إلى مجابهة المؤسسات فيما بينها ، وقد يؤدي صراع القوى الاقتصادية إلى تلاشي أضعف المؤسسات وإلى تمركزها . وليس من الضروري أن يحدث ضمّ جغرافي لوحدات الإنتاج ، بل

---

(١) نظام اقتصادي نشأ في أوروبا خلال تفسخ الإقطاعية لتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن الثمينة ثروة الدولة الأساسية ، أو المذهب التجاري .

يحدث تمركز اقتصادي لوسائل الإنتاج ، وضمّ أفقي إذا كان للمؤسسات النشاط ذاته ، وضم عمودي (شاقولي) إذا كانت الأنشطة متكاملة ، وعندها يسمى الوضع الجديد **دمجاً** . ولكن قد تنبثق مؤسسات جديدة ، دون توقف ، وتحتفظ بطابع متعدد الأقطاب بين المبادهات الاقتصادية .

وعندما تكون الأرجحية **لحرية** المبادهة والتعاقد ، يدعى النظام **ليبرالياً** . أما إذا كانت الأرجحية لامتلاك **رأس المال** في إدارة المؤسسات ، فيدعى النظام **رأسمالياً** .

أما **الاقتصاد الاشتراكي** فيستند على نظريات ماركس ولينين . ويبدو كردّ فعل ضد الرأسمالية المتهمة باستغلال الشغّيلة . ويرغب دعاة الاشتراكية في إقامة اقتصاد وخدمات مكان اقتصاد الكسب ، مثلما يحلّ مكان الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ملكية جماعية لتجعل منها رأسمالية الدولة . ويصدر التنظيم الاقتصادي عن الحزب الوحيد المسيطر هو **الحزب الشيوعي** الذي يعتبر الممثل الديمقراطي للطبقة الحاكمة - أي البروليتاريا أو الطبقة الكادحة - . وتعتبر الاشتراكية كمرحلة انتقالية نحو مجتمع جديد هو الشيوعية . ولكن يجدر بنا أن نوضّح الاشتراكية الماركسية أو الجماعية ، لتحاشي أي التباس مع « الاشتراكية على النمط الغربي » ، التي تحلم بقيام ديموقراطية اقتصادية دون التضحية بالديموقراطية السياسية المتعددة الأحزاب .

ولكن **الحقيقة الرأسمالية** تبدو متباينة جداً . ففي كل الدول العظمى أوجدت التنمية الاقتصادية الثراء ورفع مستوى معيشة الناس . ولم يحدث الافتقار الجماهيري المتزايد ، بل حدث تشكل طبقة وسطى . وتستطيع غالبية الناس أن تقوم بالتوفير ، وبالتالي توظيف أموالها .

ولا تقوم الفوارق الكبرى بين الطبقات ، بل بين المؤسسات ، وبين المنتجين

والمستهلكين ، وبين الناس الذين يمارسون عملاً وبين العاطلين عن العمل ، وتقوم الدولة بالتدخل أكثر فأكثر لتقوم بدور الحَكَم الذي يحسم النزاعات . وفضلاً عن ذلك تقوم بدور رب العمل ، وبدوْر المؤسس الصناعي ، حتى لتحتل أحياناً دور أكبر رب عمل في البلاد . ويؤلف هذا التنظيم ما يدعى **بالليبيرالية الجديدة** . وتكون المشكلة الاجتماعية الرئيسة هي مشكلة تأمين العمل وليست مشكلة تأمين الموارد . وتلجأ بعض المؤسسات للتخلص من وصاية الدولة ، لإقامة مقرّها في نوع من « جنة ضرائبية » حيث تدير منها فروعها المبعثرة في العالم : ذاك هو **نظام تعدد الجنسيات** transnationale **أي ما وراء الوطنية .**

هذا وتكون **الحقيقة الاشتراكية** متعددة الأشكال أيضاً . ففي عام ١٩٢٨ دخل **الاتحاد السوفيتي** فعلاً في عصر التخطيط ، بيد أن محتوى المخططات ، وتشغيل المؤسسات خضعا للكثير من التطور . هذا ويكون التردد كبيراً بين الإدارة المتمركزة والموحَّدة للاقتصاد وبين الحاجة للمرونة وروح المبادهة تجاه البيروقراطية .

وقد اقتفت **الديموقراطيات الشعبية** مثال الاتحاد السوفيتي . غير أن الفلاحين البولونيين نجحوا في الاحتفاظ بأراضيهم . أما في يوغوسلافيا فقد قامت تجربة التسيير الذاتي وتطورت ، وذلك على خلاف التمركز المستبد في النظام الستاليني . واستطاعت **الصين** ، في خلال ثلاثين عاماً أن تنتقل عبر ثلاث مراحل مختلفة جداً . فقد ظلت تقلد النمط السوفيتي مدة عشرة أعوام ، وبعد عام ١٩٥٨ ظهرت الطريقة الماويّة التي تقوم على تحقيق التوازن بين الزراعة والصناعة في إطار الكومّونات الشعبية ، وظهر اتجاه جديد جداً بعد عام ١٩٧٧ راحت تتفوق فيه آراء رجال الاقتصاد على أرباب ايديولوجية الثورة الثقافية .

وهكذا يبدو الواقع الاقتصادي شديد التنوع ، ويتمخّض كل نظام عن صِيَغ متباينة . ففي كل كتلة توجد أنظمة اقتصادية مهينة وأنظمة أخرى خاضعة ،

وهذه المفارقات على المستوى العالمي هي تعبير عن حقيقة جوهرية أخرى هي : اختلافات في مستويات التنمية .

☆ ☆ ☆

الرأسمالية الجديدة

إن الانصهار والامتصاص هو أصل **التروستات** الأمريكية . فقد توسعت شركة فورد بالقضاء على المنافسين الصغار ، وتشكلت شركة جنرال موتورز G.M.C ، عن طريق تشارك بويك وباكّار واولدزموبيل وبونتياك . وقد أصبحت هذه التروستات الآن مستقرة ، ولكن رغبة منها في الحفاظ على منافسة حرة ، فقد عمدت لجنة التجارة الفيديرالية إلى منع توسعها عن طريق القوانين المعادية للتروستات . وهكذا يبدو التركز الأفقي والعمودي الآن من خصائص الشركات الصغيرة والمتوسطة . غير أن التركز المالي من نمط **هولدنغ** أو شركة المستندات ، فإنه يقاوم بشكل أفضل لأن مكافحته تبدو أكثر صعوبة . ومن المؤكد أن بعض المجموعات المالية الضخمة مثل مورغان وروكفلر ودوبون نيور وميلّون وكليفلند ، التي تدعها أم المصارف ، هي التي تسيطر على أكبر المؤسسات الأمريكية ؛ وهكذا نجد أم المؤسسات الأمريكية وعددها ٣٢٤ تخضع لإشراف ثمانية مؤسسات مالية .

ولكن الظاهرة الأكثر جدّة هي **الكونغلوميرا** والشركات المتعددة القوميات . فالكونغلوميرا هي شركة صناعية خاضعة لإدارة واحدة ، ولكنها ذات أنشطة متعددة وشديدة التنوع . فأضخم كونغلوميرا هي ITT(التلغراف والتلفون الدولي) ، والتي كانت تستخدم في عام ١٩٧٢ / ٤٢٨٠٠٠ شخصاً . ويجب البحث عن أسباب نمو هذه الكونغلوميرات : أولاً في الرغبة في التحايل على القوانين المعادية للتروستات . ولكن هناك أيضاً فكرة التخفيف من مخاطر المؤسسة وذلك بتنويع أنشطتها إلى الحد الأقصى . وأخيراً هناك ، على الخصوص ، حاسّة القرن العشرين ، وهي أنه يجب إشباع رغبات المستهلك . . . أي أن الكونغلوميرا هي ظاهرة مدنيّة .

وقد كانت هناك شركات ضخمة ، أمريكية أو غير أمريكية ، توظّف بالخارج على شكل شبه استعماري . أما الشركات **المتعددة الجنسيات** فهي أكثر من ذلك ، حتى ولو كنا نطلق هذا الاسم في اللغة الدارجة ، على كل شركة ذات مصالح في الخارج . والميزة الأكثر وضوحاً في الشركة المتعددة القوميات هي الاستراتيجية العالمية ، فهي تبيع محلياً ، في قلب السوق ، وهي طريقة طيبة للتخلص من الرسوم الجمركية ، وتناور بحذق من بلد لآخر ، في سبيل الاستثمارات المالية ، وفي استخدام الأيدي

العاملة الرخيصة كما في هونغ كونغ مثلاً ، وفي الصيرفة ، وكل ذلك حسب المصالح الحالية أو المستقبلية .

وهناك ظاهرة أكثر حداثة أيضاً وهي أن الرأسمالية الجديدة تجعل من المؤسسة القطعة الرئيسية في « **البنية التقنية technostructure** » ، كما أظهر ذلك غلبريت في كتابة « الدولة الصناعية الجديدة » ، ذلك أن المؤسسة الحديثة الكبرى لا تحوي أيّ شبه مع الشكل الذي يهين فيه رب العمل ، ولا مجال هنا للرواد العصاميين من أمثال روكفلّر أو للمنظّمين من أمثال فورد ، من الذين كانوا يفرضون آراءهم . ومن الآن فصاعداً لم يعد البحث عن الربح الأقصى في المؤسسة العصرية هو الحافز ، بل تكون التقنية هي المهينة ، ففي داخل المؤسسة هذه يعمل البحث العلمي والاستثمار المالي والتخطيط في خدمة هذه التقنية .

عن تروتينيون « القرن العشرين الأمريكي »
دار نشر بورداس ١٩٧٤

الاقتصاد الاشتراكي والتخطيط : على قدر ما يكون إغفال موقف كارل ماركس في موضوع مبدأ التخطيط واضحاً ، بقدر ما يكون من العسير أن نجد في كتابه ، مستندات واضحة في هذا الموضوع . وكل ما تسمح به تفاسير مؤلّف ماركس هو مشروعية التخطيط في المجتمع ، دون أن يكون من المستطاع توضيح النمط الذي يجب أن يكون عليه التخطيط المذكور : متمركزاً ، لا مركزياً ، أو يتم بالاستعانة بمخطط وحيد إلخ . . .

وقد اقتضى الأمر أن يشهد العالم توسع الاقتصاد السوفيتي السريع ، في الوقت الذي كانت الأقطار الأخرى تتعرض لشللٍ لا مثيل له في أعقاب الأزمة الاقتصادية الكبرى في عام ١٩٢٩ ، كي يمكن أخيراً طرح مشكلة الإدارة العقلانية بصورة جدّية ورصينة .

ومنذ فترة شيوعية الحرب ، تبنّى الحزب الشيوعي مبدأ المخطط الوحيد في عام ١٩١٩ ، وكان لينين ضد ذلك . . . ففي مقالة نشرتها جريدة البرافدا في ٢٢ شباط ١٩٢١ عنوانها « مخطط وحيد للاقتصاد » راح ينتقد فيه انعدام الواقعية لدى دعاته ، ومفاهيمهم الأدبية والبيروقراطية والتقليدية التي تفتقر لأى عمل حيّ .

ولكن في عام ١٩٢٤ أي بعد موته مباشرة ، شاعت فكرة المخطط الاقتصادي الوحيد . . . وابتداء من هذه الفترة ، أي ابتداءً من الوقت الذي أصبحت فيه البرامج الاقتصادية من النمط السوفيتي عبارة عن برامج تصنيعية ، راح التخطيط السوفياتيّ النمط يصطدم بمشكلات ستكون متشابهة ، سواء

في الاتحاد السوفيتي ذاته أو في تشيكوسلوفاكيا ، أو في هنغاريا وبولونيا الخ . . . والاتجاه الطبيعي (للنمط) يكون ، في الواقع ، هو تبنّي طرائق مفرطة في تمركزها ، والاستسلام لبيروقراطية معتدّة برأيها وسادرة فيه ، ومتشعّبة ، على أمل أن تحل أوائل المصاعب الكبرى التي ستجابهها .

ومهما كان عليه الأمر فإن مبدأ التخطيط المتمركز يظل هو الساري المفعول ، حتى أنه ليعتبر كأداة من صميم الاقتصاد الاشتراكي ، ولكنه ليس بالقانون الاقتصادي كما لَفَتَ ستالين الأنظار إلى ذلك .

عن بو بروسكي « نشوء النظام السوفياتي في التخطيط »
دار نشر موتون١٩٥٦ ، وعن شامبر في كتاب « الاقتصاد المخطط » P.U.F ١٩٦٨

☆ ☆ ☆

مستويات التنمية

في جملة الأسباب التطويرية المتعددة في مجال التنمية ، هناك مُعْطَيتان يُنظر إليهما على أنهما أساسيتان : وهما الوضع الديموغرافي ومستوى التنمية العلمية والتقنية .

لقد تجاوز عدد **سكان العالم** قمة ٤,٥ مليارات نسمة في عام ١٩٨١ ، ويتزايد سكان الأرض حالياً بمقدار ٦٥ مليون نسمة كل عام . وقد أصبح سكان الكرة الأرضية اليوم ثمانية أضعاف ما كانوا عليه عام ١٦٥٠ ، وقد تضاعف عددهم ثلاث مرات منذ قرن واحد ، وتسارع هذا التقدم حسب وتيرة هندسية خلال القرن العشرين . فبين عام ١٩٠١ وعام ١٩٢٥ كان تزايد سكان العالم بمعدل ٨ بالألف سنوياً ، وارتفع إلى ١١ بالألف بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٥٥ ، وإلى ٢٠ بالألف بين ١٩٥١ و ١٩٧٥ ، وإذا استمر سكان العالم في تزايدهم حسب النسق الحالي ، فإن

سكان عالمنا سيتضاعفون خلال ٣٥ سنة فقط . أما سكان البلدان العربية فسيتضاعف عددهم في مدة لاتزيد عن ٢٥ سنة ، أي سيبلغ عدد سكان الأقطار العربية ٣٠٠ مليون نسمة في نهاية القرن العشرين ، منهم ٨٠ مليوناً في مصر لوحدها دون أن يرافق ذلك نمو موازٍ في التنمية ولاسيا في الإنتاج الغذائي .

وينجم هذا الانفجار الديموغرافي عن هبوط شامل في نسبة الوفيات ، التي بلغت وسطياً ١٣ بالألف . ولكن في الوقت الذي تهبط فيه نسبة الولادات في البلدان الصناعية بنسبة لاتقل عن معدل هبوط الوفيات ، لأن عدد سكان هذه الأقطار الذي يبلغ ١١٠٠ مليون ، أو أكثر من ربع سكان العالم بقليل ، لم تسجل أكثر من ١٧ مليون ولادة في سنة ١٩٧٥ أو ١٥٪ من مواليد العالم في تلك السنة ،

فإننا نجد أن الدول الأخرى لاتزال تحتفظ بنسبة توالد شديدة جداً ، إذ كان عدد المواليد فيها في تلك السنة ٩٤ مليون أو ٨٥٪ من مواليد العالم كله .

وقد أدى هذا النمو السكاني إلى تفاسير متشائمة ، كتلك التي صدرت عن أعضاء « نادي روما » ولاسيا عن منظمة الغذاء والزراعة الدولية في ١٩٨١ (تشرين الأول) ، إذ ظهر أن العالم العربي يستورد نصف المواد الغذائية التي يستهلكها ، لأن ٧٪ من أرض الوطن العربي هي المنتجة زراعياً : أي هناك تكاثر

الدولة العام	بلجيكا	فرنسا	المملكة المتحدة	الاتحاد السوفييتي	الولايات المتحدة	إيطاليا	هولندا	ألمانيا الغربية
١٩٥٧	١٧	١٨,٥	١٦,٦	٢٥,٤	٢٥	١٨,١	٢١,٢	١٧
١٩٦٨	١٤,٨	١٦,٦	١٧,١	١٧,٤	١٧,٤	١٧,٦	١٨,٦	١٩,٧

تطور النسبة الخام للتوالد في الأقطار الصناعية : عدد الولادات لكل ألف من السكان بين ١٩٥٧ و١٩٦٨

مفرط في أعداد الناس بالموازنة مع المواد المتوفرة في كرتنا الأرضية ، مما يجعل المستقبل أمام الأقطار الفقيرة حالكاً . ومع ذلك يبدو الآن نوع من تباطؤ في النمو الديموغرافي أخذت ملامحه تظهر للعيان ، فبعد أن كان نمو سكان العالم بمعدل ٣٤ بالألف عام ١٩٦٠ إذ به يهبط إلى ٢٨ بالألف في ١٩٧٥ . وتعتبر الصين المسؤولة الرئيسة عن ذلك الانخفاض ولكنها ليست الوحيدة ، لأن الأسرة الصينية الجديدة لم يعد مسموحاً لها بإنجاب أكثر من مولود واحد ، ويتعرض المخالفون للغرامات المالية كحسم نسبة محددة من مرتب الزوجين وهكذا هبطت نسبة تزايد سكان العالم في فترة ١٩٧٥ـ١٩٨٠ إلى ١,٧٥ بالمئة سنوياً مقابل ٢٪ بين ١٩٦٠ـ١٩٦٥ .

وهكذا أصبح معدل النمو السكاني في الأقطار المتخلفة ، نتيجة تحسّن الأوضاع الصحية انفجارياً . ففي السلفادور ، التي تخوض حرباً أهلية ، يبلغ هذا النمو السنوي ٣٧ بالألف ، و٣٥ بالألف في المملكة المغربية والجزائر وأكثرية الأقطار العربية والمكسيك وكوستاريكا ، كي يضرب الرقم القياسي العالمي في الكويت وهو ٦,١ بالمئة عام ١٩٧٥ و ٧,٩ بالمئة في ١٩٨١ أو ٧٩ بالألف .

جدول التزايد السكاني زمنياً حسب النمو السكاني الخام

التزايد الطبيعي السنوي٪	عدد السنوات اللازمة لتضاعف عدد السكان	في قرن واحد ١٠ ملايين نسمة يبلغون
٠,٥	١٣٩	١٦مليون
١	٧٠	٢٧ مليون
١,٥	٤٧	٤٤ مليون
٢(المعدل العالمي)	٣٥	٧٢ مليون
٢,٥	٢٨	١١٨ مليون
٣	٢٣	١٩٢ مليون
٣,٥ (العالم العربي)	٢٠	٣١٢ مليون
٧,٩ (كويت)	١٠	٦٠٠؟

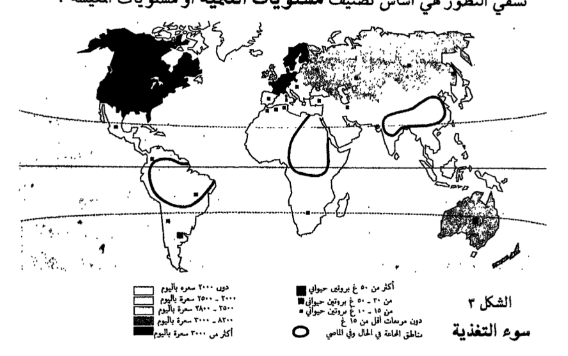
أما في الأقطار الصناعية في أوربا الغربية ، فيتراوح بين ٢ بالألف كما في الأقطار الاسكندينافية وألمانيا الاتحادية والنمسا و٧ بالألف كما في إيطاليا .

وإذا كان من العسير معرفة أيّ من الاختراعات هو الذي كان له الأهمية العظمى في تاريخ البشرية ، فإن من المؤكد أن **نسق المكتسبات التقنية** ، قد تسارع خلال القرنين الفائتين . فقد كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر متميزاً في بريطانيا بأول ثورة صناعية على أثر اكتشاف الماكنة البخارية واستخدام الفحم الحجري الخ .. وقياساً على ذلك راح العلماء يتكلمون عن ثورات ، مثل ثورة الكهرباء ، وثورة المحرك الانفجاري ، وثورة الطاقة النووية والالكترونيك . والحقيقة نحن نعيش عصر الاكتشافات وأشكال التقدم التقني المستمر . وإذا كان الاختراع في الماضي نتيجة مصادفة ، فإن اكتشافات اليوم تكون منسّقة حتى أنها لتحدث في عدة أقطار راقية في وقت متقارب : فقد أصبح العالم أكثر من أي وقت مضى مرتبطاً بنمو البحث التطبيقي .

هذا ولا يمكن فصل هذا التقدم التكنولوجي عن **التكوين الثقافي وعن الوسائل المالية** المخصصة للبحث العلمي ، أو بعبارة أخرى ، ينحصر هذا التقدم بشكل خاص في الأقطار التي تتمتع بصورة مسبقة بوضع اقتصادي متميز ، مما يزيد في استفحال اختلال التوازن بين الأقطار الفقيرة والأقطار الغنية ، أي هناك بلدان تزداد ثراءً كاليابان التي يقل النمو السكاني فيها سنوياً عن ١٪ مقابل تنمية اقتصادية تزيد عن ٧ ٪ وبلدان يكون النمو الاقتصادي فيها معدوماً كالسودان ، أو متقهقراً مثل الصومال مع نمو سكاني يزيد عن ٣ ٪ .

ولقياس **الثراء الاقتصادي** في قطر معيّن وغنى سكانه ، يمكن استخدام قرائن لها قيمة الروائز tests مثل : قرينة المتوفّرات الغذائية وتحسب بالسعرات (حريرات) شكل (٣) ، واستهلاك الطاقة ، واستهلاك الفولاذ ، ولكنها تكون قرائن جزئية . ومنذ أن أصبحت الحسابات القومية تسمح بتقدير مداخيل الدول فقد

أصبح الاعتماد أكثر فأكثر على قرينة إجمالية ، وهي دخل الدولة الموزع على سكانها . وهكذا نجد أن **الناتج الخام للفرد** يكون في اتحاد الإمارات العربية وهو ٣٠٠٠٠ دولاراً في عام ١٩٨٠ أكثر ارتفاعاً من مثيله في الحبشة (أيثيوبيا وهو ١٥٠ دولاراً) بمقدار ٢٠٠ مرة . ولا يبدو أن التطور يسير في اتجاه توازن قريب منظور ، لأننا كثيراً ما نجد أن الأقطار التي يكون النمو الديموغرافي فيها وثّاباً ، هي التي يكون التقدم الاقتصادي فيها بطيئاً جداً ، باستثناء دول الخليج الصغيرة التي لا تمثل أكثر من رقعة من المخمل البراق ، فوق ثوب من الأسمال ، هو رداء الفقر الذي ترتديه معظم الأقطار العربية . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ (بيار جورج) ، رئيس المؤتمر العالمي للسكان الذي عقد في بخارست عام ١٩٧٤ ، والأستاذ في السوربون ، عندما ذكر في محاضرة له عام ١٩٥٦ : لا تسير الأقطار المتخلفة نحو الفقر الذي بلغته منذ زمن طويل ، بل تسير قُدماً نحو التسوّل ، أو كما يقول المثل الأوربي : الأغنياء ينتجون المال والفقراء ينتجون الأطفال . وإذا كانت نظرية ماركس عن دكتاتورية الطبقة العاملة لم تتحقق في البلدان الصناعية ، فإن نظرية مالتوس قد تحققت في الدول المتخلفة . وتكون موازنة نَسَقيْ التطور هي أساس تصنيف **مستويات التنمية** أو مستويات المعيشة :



الشكل ٣

سوء التغذية

فالأقطار المتقدمة تتصف بتقدم اقتصادي أعلى من نسق توسعها الديموغرافي ، فهنا تكون السلع الاستهلاكية وفيرة فيها وجيدة التوزع نسبياً ، مما يدفع بعض العلماء إلى القول بأن نبحث عن « نوعية أو كيفية المعيشة » أكثر من البحث عن النمو الكمّي .

أما **الأقطار السائرة في طريق النمو** فقد تعرّفت على التقنيّات الحديثة متأخرة ، ولكن وضعها آخذ في التحسن بمجرد أن يكون التقدم الاقتصادي أكثر تسارعاً من النمو الديموغرافي . وقد حقق كل من اليابان والاتحاد السوفيتي ، ضمن إطار نظامين اقتصاديين مختلفين ، مثالين ناجحيْن عن عملية « الإقلاع » ولحقت بها كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة ، وربما تكون تلك هي حالة الأقطار النفطية القليلة السكان مثل ليبيا ودول الخليج العربي .

أما **البلدان الناقصة النمو أو المتخلفة أو الأمم الكادحة أو أمم الجنوب** ، فتتميز بحيوية ديموغرافية عدّاءة تتقدم كثيراً على التنمية الاقتصادية . وهنا نلاحظ أن الكفاح في سبيل التقدم يكون عسيراً ، حتى ولو كانت هناك ثروات قابلة للتصدير ، كحال الجزائر التي تنفق نصف قيمة نفطها وغازها على استيراد المواد الغذائية ، وحال إيران وفنزويلا والمغرب ، وإذا ظلت الأمور على هذا المنوال فيها فإن وضعها سيأخذ في التدهور بسرعة .

وهكذا نجد العالم اليوم في حالة سباق بين خلق الثروات وبين التطور الديموغرافي . ومنذ القرن الثامن عشر كان العلماء يرتعدون فَرَقاً من هذا المصير . وهذا ما دعا مالتوس (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) البريطاني إلى تخفيض عدد المواليد . وهكذا تكون المجابهة ليست بالجديدة بين « أنصار تكاثر السكان » وبين « المالتوسيين » الذين رجحت كفة آرائهم حتى في أكبر قطر ماركسي ؛ هو الصين الشعبية .

التقدم التقني ومجالات الاستخدام

بعد أن كان الجهد التقني يستهدف في البداية زيادة الإنتاجية ، عن طريق تدخل الآلة ، أصبح يقوم بالتالي على تحسين وسائل العمل : كالعمل المتسلسل ، أو البساط الدائر ، والتايلورية في الولايات المتحدة ، والستاخانوفية في الاتحاد السوفيتي ، والأتمتة ، والتي كانت تمثل المراحل الكبرى في طريق هذا التطور ، في العمل الصناعي واليدوي . وقد أصبح هذا التحول فيما بعد يدخل حيّز التطبيق في القطاع الثلاثي ، أو قطاع الخدمات ، من خلال الحاسب الألكتروني والمحرّك من بُعد télématique .

غير أن هذه الإنجازات العلمية لا تخلو من محاذير. وندين للعالم الفرنسي الكبير ألفرد سوفي بالتمييز بين أشكال التقدم (التقدمي) التي تزيد في المواد المتوفرة أمام الإنسان ، كاستخدام المواد الأولية بصورة اقتصادية أكثر، واستغلال تعديني أكثر نجاحاً ، واستصلاح الأراضي البور، والحماية ضد انجراف التربة والملوحة ، وبين أشكال التقدم (التراجعي) كإحلال الآلة مكان الإنسان دون أن توفّر له مجالات عمل أخرى ، والأتمتة ، والتي تقلّص مجالات الاستخدام ، بحيث قد تؤدي لنتائج اجتماعية مأساوية . ومنذ أكثر من قرن أصبحت الزراعة في البلدان المتقدمة تنتج أكثر مع أيدٍ عاملة أقل ، ففي الولايات المتحدة لا تزيد نسبة العاملين في الزراعة عن ٦٪ من الأيدي العاملة . وقد كان هذا قليل الخطورة ما دامت الهجرة الريفية تجد في مجالات العمل الحضرية ضمن القطاعين الثانوي والثلاثي وظائف جديدة . ولكن هذه الحالة ليست صحيحة تماماً الآن إذا لم يبلغ النمو الاقتصادي نسبة مرتفعة . وهكذا نجد منذ عام ١٩٧٤ أن هناك أزمة في مجالات العمل ، أو بطالة ، في الأقطار المتقدمة ، إذ ارتفع عدد العاطلين عن العمل في بريطانيا إلى أكثر من مليونين في عام ١٩٨٠ ، لأن النمو الاقتصادي يتراوح في الأقطار الصناعية بين ٢ و ٤٪ سنوياً ، ولكنه يصل إلى ٧٪ في اليابان ، في حين يكون دون الصفر كما في الصومال والسودان ونيبال كما سبق ورأينا ولكن البطالة لاتعني في البلاد المتقدمة البؤس المطلق.

تسمية غير دقيقة : الأقطار السائرة في طريق النمو : لقد ظل خبراء الأمم المتحدة يرجحون دوماً في تقاريرهم الكلام عن « الأقطار السائرة في طريق النمو » ، بالمقابلة مع الأقطار المتقدمة أو المتطورة ، عوضاً عن القول : الأقطار الناقصة النمو أو المتخلفة . ولكن يبدو أنه من التناقض أن نطلق عبارة بلد سائر في طريق النمو ، على قطر تتناقص فيه الموارد ، بالنسبة للواحد من السكان بمعدل ٣ أو ٤٪ في كل عام ، مثل بنغلادش وموريتانيا والسودان والحبشة ولا سيما إذا كان هذا الاتجاه مستمراً منذ فترة طويلة نوعاً ما .

عن لامبير في « القرن العشرين الثاني » دار نشر كولان ١٩٧٧

اكتظاظ السكان والمالتوسية الجديدة

قبل بضعة أعوام خلت ، كانت الأوضاع العالمية تدفع للاعتقاد بأن سكان العالم يتجهون نحو جموح انتحاري . وراجعت الأمم المتحدة إسقاطاتها السكانية الصاعدة لعام ٢٠٠٠ ، وقدمت رقم ٦٤٩٤ مليون نسمة . وسار على دربهم رجال الفكر والإعلام ، دون تردد ، والذين دعمتهم الأطروحات الايكولوجية ، ذات الرواج المتصاعد ، حتى ولو كان ذلك على حساب تقريبات خارجية واهية ، فقدموا رقماً يثير الذعر ، وهو ٧ مليارات إنسان في نهاية القرن العشرين ، وعلى أساس تضاعف سكان العالم كل ٣٠ سنة تقريباً ، فإن البشر سيبلغون ١٠٠ مليار نسمة في مطلع القرن الثاني والعشرين ، وستصل الكثافة إلى نسمة واحدة في كل آر من الأرض العائمة (١٠٠ م^2) في عام ٢٢٢٥ أو كثافة تصل إلى ١٠٠٠٠ نسمة في الكيلو متر مربع ، أو عشرة أضعاف ما هي عليه الآن ، في أكثر دول العالم ازدحاماً . ويصل الأمر إلى درجة تقشعر لها الأبدان ، عند تصور عدد من السكان بمثل هذا التكدس ، بحيث لا يمكن لهم العيش إلا في محطات شاقولية . وقد تمّ تتويج هذا التيار بنشر تقرير نادي روما في عام ١٩٧٢ ، والذي يقول أن استنزاف معظم المصادر المعدنية من سطح الأرض سيقع قبل ١٠٠ عام ، ويقترح نمواً مقداره صفر على الصعيد الاقتصادي والديموغرافي ، على أساس أنه السبيل الوحيد لإنقاذ المدنيّة الغربية . وعلى أساس هذا الاندفاع فقد كان من المنطقي أن تدعو الأمم المتحدة كل أقطار الأرض للتوقيع سوية على نصٍ تتعهد فيه أكثر الدول تكاثراً بتحديد نموها السكاني . وعلى هذا الأساس ظهرت ورقة العمل ، التي اقترحت في مؤتمر بخارست لعام ١٩٧٤ . غير أن معظم الأمم الفقيرة ثارت على هذه الرؤية المالتوسية : أي أن السيطرة على التوالد لا يجوز أن يكون شرطاً مسبقاً للتنمية ، بل على العكس « فالتنمية الاقتصادية والاجتماعية هي العامل الحاسم في حل المشكلات الديموغرافية » . وهكذا أجابت الأقطار المتخلفة على القومية وعلى الأنانية الاقتصادية بقومية أخرى ، وبترك الحبل على الغارب على الصعيد الديموغرافي ، وهو جواب لا يقل غموضاً عن اقتراح الدول المتقدمة .

ج . ڤيريير « السياسات السكانية »

١٩٧٨ P.U.F

على نقيض سياسة الحماية الجمركية المتشددة خلال الثلاثينات من هذا القرن ، فإن دول العالم دخلت تدريجياً ، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، في **عصر الانفتاح الاقتصادي وتسارع المبادلات التجارية .**

وقد قامت بلدان الاقتصاد الليبرالي بتمهيد الطريق . فقد انضمت على شكل مجموعات كبرى ، كي تؤلف **مناطق التجارة الحرة** ، تمنح الدول الأعضاء بعضها بعضاً شروط الأفضلية التجارية على منتجاتها : سواء كان ذلك بين الدول المتقدمة (الرابطة الأوربية للتجارة الحرة التي أنشئت في أعقاب اتفاق استوكهولم في عام ١٩٦٠) أو بين دول العالم الثالث (الرابطة اللاتينية الأمريكية للتجارة الحرة ، التي تأسست في العام ذاته على أساس معاهدة مونتيفيديو) . واندفع هذا الاتجاه لأبعد من ذلك أحياناً ، لأن صيغة **السوق المشتركة** ، هي عبارة عن اتجاه جمركي حقيقي ، مع أهداف اقتصادية منسجمة ، كالسوق المشتركة للسوق الأمريكية الوسطى ، **والاتحاد الاقتصادي والنقدي** ، وهو هدف اللجنة الاقتصادية الأوروبية ، وهو المرحلة النهائية لمثل هذا التطور .

أما **على الصعيد العالمي** ، فقد أنجز مؤتمر جنيف لعام ١٩٤٧ ، الذي كان مؤتمراً تحضيرياً لمنظمة التجارة الدولية ، وبمبادرة من منظمة الأمم المتحدة ، أقول أنجز نظاماً دعي « الاتفاق العام على التعرفات والتجارة » .

وتحت كنفه جرت المفاوضات التجارية الكبرى ، مثل اتفاق (كندي) لفترة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧ ، واتفاق (طوكيو) ابتداءً من عام ١٩٧٣ .

وبعد أن ظلت الأقطار الاشتراكية مترددة لفترة طويلة ، راحت تنفتح

تـدريجيـاً فيا بينهـا ، بموجب اتفـاقـات مثـل مجلس العـون الاقتصـادي المتبـادل (كوميكون) ، أو مع دول العالم الثـالث ، كاتفـاق يوغوسلافيـا ومصر والهنـد في عام ١٩٦٧ ، أو ثنائياً مع العديد من الدول الرأسمالية المتقدمة .

وكانت حصيلة مثل هذا التطور ، **بلوغ مستوى عالمي في المبـادلات لم يسبق له مثيل إطلاقاً** : فقد بلغت قيمة المبادلات العـالميـة ١٢٩٥ مليـار دولار في ١٩٧٨ . ويعود النمـو السنـوي الـذي بلـغ ١٣٪ ، إلى زيـادة في الحجم بلغت ٤٪ وإلى غلاء أسعار المنتجـات بمعـدل ٩٪ سنويـاً ، والتي ازدادت على الخصوص منـذ عام ١٩٧٣ . وتكون حصة كل كتلة شديدة التفـاوت : فـالأقطـار المتقـدمـة ذات الاقتصاد الليبرالي ، تحقق أكثر من ثلثي التجارة العالمية أو ٦٧,٤٪ يعود ٤٢,٣٪ إلى أوروبة الغربية لوحدها . أما الأقطار الاشتراكية فلا تقوم بأكثر من عشر التجارة العالمية أو ٩,٧٪ ، في حين تقوم دول العالم الثالث بأقل من ربع التجارة المـذكورة أو ٢٢,٩٪ ، مع أن شعوبهـا تؤلف ثـلاثـة أربـاع سكان الأرض ، لأن « المتسـولين لا يؤلفون سوقـاً » كما يقـول رجـال الاقتصـاد . وتنـدر المجمـوعـات ذات الـوضـع التجـاري المتوازن ، فـلأوروبـا الغربيـة معـدل تغطيـة للمستـوردات عن طريـق الصادرات يبلغ ٩٢,٤٪ ، والولايات المتحـدة ٧٦,٧٪ ، والأقطـار غير النفطيـة في العالم الثالث ٨٨٪ ، والبلدان الاشتراكية بنسبـة ٩٣,٩٪ ، ولكن اليـابـان وألمـانيـا الغربيـة ولا سيا الأقطـار المصـدّرة للبترول ، والقليلـة السكان ، هي التي تكـون ذات فائض تجاري كبير . ولاختلالات التوازن هذه صداها على قيمة النقد ، الذي تم بواسطته هذه المبادلات .

ويفترض نمو المبادلات التجارية وجود تنظيم للتسديـدات الـدوليـة ، يعمل ضمن إطار **منظمة نقدية** . وقـد ظلت هـذه المنظومـة المتفق عليهـا في (بريتو نوودس) في عام ١٩٤٤ معمولاً بها ، وظلت هي السائـدة خلال ٣٠ سنـة من قبل ٤٥ دولـة ، لأن الاتحـاد السـوفيتي لم يكن فيهـا أكثر من مراقب . وكانت هـذه

المنظومة استمراراً لمنظومة **السعر الثابت للصرف الذهبي** ، التي أنشئت في عام ١٩٢٢ والذي كان ينصّ على وجوب تسديد فائض وعجز ميزان المدفوعات بالذهب أو بعملة قابلة للتحويل إلى ذهب . وقد كانت كل العملات مرتبطة بتعادلات ثابتة ، وكان الدولار يلعب دور العملة « المرجع » على أساس أن الأونصة من الذهب تعادل ٣٥ دولاراً . ومن ثم أنشئ صندوق النقد الدولي ، الذي تغذّيه مساهمات الدول الأعضاء ، ومهمته التحكيم ومنح حقوق السحب .

ولما أصبح الدولار بدءاً من نهاية الستينات يفقد استقراره بسبب العجز المستمر في ميزان المدفوعات الأمريكي ، فإن هذه المنظومة لم تعد قادرة على الاستمرار . وقد زاد التضخم العالمي الناتج ، بعد عام ١٩٧٣ ، عن ارتفاع أسعار النفط ، وأدى ذلك إلى تعميق الهوّة بين العملات النادرة القوية ، كالفرنك السويسري والمارك الألماني والين الياباني وبين العملات الأخرى ، وهكذا جاءت اتفاقيات جامايكا في سنة ١٩٧٦ كي توجد منظومة جديدة تقتضي بأن :

ـ العملات لم تعد مرتبطة بالذهب وعلى صندوق النقد الدولي أن يتخلّص من مخزونه من هذه المادة .

ـ تصبح القاعدة « المرجع » هي حقوق السحب الخاصة ، وهي عملة حسابية تعود لعام ١٩٦٩ ، ومحدّدة بالنسبة إلى « سلّة » من العملات لايشكل الدولار فيها أكثر من الثلث ، والتي تلعب دوراً مزدوجاً ، أي دور وحدة قيمة قياسية وأداة ادّخار .

تحل أسعار العملات القائمة مكان التعادلات الثابتة . إذن تتغير أسعار العملات من يوم لآخر . وقد سمح لبعض الدول بأن تقيم بين عملاتها تعادلات مستقرة وقابلة للتسوية . وذاك هو مبدأ المنظومة النقدية الأوربية .

وعلى كل حال فإن دور الذهب لازال هاماً ، والاعتمادات بالدولار التي

يحتفظ بها الأوربيون الغربيون (أورو دولار) ، ولدى الدول المصدّرة للنفط (بترو دولار) ، لاتزال عملياً بمعزل عن أي إشراف أو رقابة .

☆ ☆ ☆

التجارة العالمية لعام ١٩٧٧ بمليارات الدولارات الأمريكية

	الصادرات	الواردات
١ ـ المناطق المتقدمة	٧٣٦	٧١٠
يخص منها أوروبا الغربية :		
الجماعة الاقتصادية الأوروبية	٣٧٥,٧	٣٨٢
الأقطار الأخرى	٨٦,٩	١١٨,٨
المجموع	٤٦٢,٦	٥٠٠,٨
الولايات المتحدة	١٢٠,٢	١٥٦,٧
كندا	٤٣,٢	٤٢
اليابان	٨٠,٥	٧٠,٧
الأقطار الأخرى	٢٩,٥	٢٨
٢ ـ الأقطار السائرة في طريق النمو :	٢٨١	٢٤٠
يخص الأقطار المصدّرة للنفط	١٤٨	٨٩
الأقطار الأخرى	١٣٣	١٥١
٢ ـ الدول الاشتراكية	١٠٧	١١٤
المجموع العام	١١٢٤	١١٥٢

التيارات الكبرى للمبادلات التجارية الدولية

بلغت قيمة التجارة ١١٢٢ مليار دولار في ١٩٧٧ ، مقابل ١٢٩٥ مليار دولار في ١٩٧٨ ، وكانت المنتجات الأساسية تؤلف ٣٩٪ منها ، منها منتجات زراعية ١٧٪ ، ومنتجات معدنية ٢٢٪ ، ومجموعها ٤٢٧ مليار دولار ، والمنتجات المصنوعة ٦١٪ أو ٦٧٦ مليار دولار .

الذهب

هناك ٢٤٩٠٠ طن من الذهب مملوكة بصورة خاصة شخصية . ويملك الفرنسيون ١٨٪ أو ٤٦٠٠ طن ، أي أكثر من كل الأوروبيين الآخرين ، الذين يتصرفون بمقدار ٤٤٠٠ طن ، أو ما يعادل تقريباً كل ما يملكه سكان القارة الآسيوية ، الذين يختزنون مقدار ٥٣٠٠ طن ، ويكتنز الأفارقة ٣٢٠٠ طن ، والأمريكيون ٤٩٠٠ طن .

وتبلغ الاحتياطات العامة مقدار ٣١٩٠٠ طن في الأقطار غير الاشتراكية ، مودعة في خزائن الدول والبنوك المركزية وفي صندوق النقد الدولي . ويعتقد بأن وزارة الإشراف tutelle في الاتحاد السوفيتي تشرف على إنتاج سنوي يقارب ٤٤٠ طن ، وتستهلك الصناعة من الكترونية وفضائية مقدار ٣٠ إلى ٥٠ طن ، ويباع في سوق لندن مقدار ٣٤٠ ، ويذهب مقدار ٦٠ طن لخزائن الدول لدعم نقدها ، وقد تبلغ هذه المدخرات مقدار ١٠٠٠٠ طن ، أي تعادل ما لدى الولايات المتحدة.

وإذا جمعنا الاحتياطات العامة وهي ٣١٩٠٠ طن ، والخاصة هي ٢٤٩٠٠ طن لدى البلاد الغربية ، والاحتياطات المحتملة لدى الاتحاد السوفيتي وهي ١٠٠٠٠ طن ، ولدى بعض دول شرق أوروبا فإننا نصل إلى مقدار إجمالي من الذهب يزن ٧٠٠٠٠ طن من أصل ١١٠٠٠٠ طن ، استخرجت من أحشاء الأرض منذ فجر الأزمنة التاريخية .

أما الباقي وهو ٤٠٠٠٠ طن فقد تحول لأغراض صناعية ، وفنية ، وطبية ، وأسنان واختفى الباقي في المدافن أو في قيعان المحيطات مع السفن التي كانت تحمله .

وعلى كل يظل ثلثا الذهب محفوظاً وعقيماً .

عن ر . سيديو . بريس . ١٩٧٨

☆ ☆ ☆

عالم متعطش للطاقة

لقد ظلت الحياة الاقتصادية العالمية ، خلال آلاف السنين ، تجري حسب نسق بطيء ، بقدر ما كانت تسمح به مصادر الطاقة الضئيلة المتوفرة . فاستخدام الفحم الحجري الذي عرفته أوروبا ، والصين منذ العصر الوسيط ، لم يأخذ مكانته الحقيقية إلاّ بعد ظهور الآلة البخارية . وعندئذ بدأ عصر الطاقة الذي شهد عدة مراحل فيما بعد على أثر اكتشاف واستغلال النفط ، ثم إنتاج وازدهار الكهرباء ، ثم الهيمنة على الطاقة النووية الانشطارية ، وأخيراً بدء الخطوات الأولى نحو استغلال الطاقة الشمسية والحرارية الأرضية والريحية الخ . . .

وإلى جانب موارد الطاقة الضعيفة المردود كالخشب ، وروث الحيوانات ، والنباتات ، التي تبدو مساهمتها ضئيلة ، فقد أصبح الاعتماد من الآن فصاعداً ، على ثلاثة مصادر حرارية هي : الفحم الحجري ، والوقود السائل ، والكهرباء الأولية ، من كهرمائية ونووية . وقد كان **التقدم في هذا المجال مدهشاً** : ففي عام ١٩٠٠ كان الإنتاج يعادل ٧٦٠ مليون طن من معادل الفحم (ط.م.ف) ، وفي عام ١٩٢٠ بلغ ١٥٠٠ ، وفي ١٩٥٠ بلغ ٢٨٠٠ وتضاعف الإنتاج في خلال ١٥ سنة ، فبلغ ٥,٨ مليار عام ١٩٦٥ ، ويقارب الإنتاج مقدار ٩,٢ مليار في ١٩٨٠ . بيد أن إنتاج هذه المصادر الثلاثة لم يتطور بصورة متوازية : فبين ١٩٠٠ و ١٩٦٠ تضاعف مقدار إنتاج الفحم ، ولكن تزايد إنتاجه يبدو الآن ضعيفاً نسبياً ، هذا مثلما تباطأ أيضاً إنتاج الفحم الأبيض في حين إنتاج الكهرباء النووية بشكل مثير للإعجاب . أما إنتاج النفط فقد تعرّف على اندفاع كالسهم . فبعد انتظار بلغ القرن وصل الإنتاج إلى ملياري طن سنوياً في عام ١٩٦٠ ، ولكن منذ ١٩٦٩ تجاوز الإنتاج ملياري طن ثم تباطأ بعد ١٩٧٤ ، ويتوازى إنتاج النفط مع إنتاج الغاز الطبيعي .

ويعتبر **استهلاك الطاقة** كمعيار لدرجة التنمية والرقي . وتكون الفروق في هذا المجال مدهشة ومذهلة ، إذ تتراوح بين ١ و ١٠٠ . فالأقطار الفقيرة لا تستهلك من الطاقة أكثر مما يستهلكه الفرنسي في أواسط القرن الماضي ، أو ما يعادل ١٥٠ كغم من (ط م ف) ، في حين يستهلك الفرد الأمريكي قرابة ١٢ طن . وهكذا تستهلك الولايات المتحدة ٣٠٪ من الطاقة العالمية المستهلكة سنوياً ، مع أن سكان الولايات المتحدة لا يؤلفون سوى ٦٪ من سكان الأرض . وهكذا نميز ثلاث فئات من الأقطار في العالم من هذه الزاوية :

ـ الأقطار المفترسة للطاقة : وهي أمريكا الشمالية وأوروبا الشمالية الغربية ، والتي تستهلك ٥٠,٥٪ من الإنتاج العالمي ، مع أن عدد سكانها لا يزيد عن ١٢٪ من سكان العالم أي نسبة ٤ إلى ١ .

ـ الأقطار المتوسطة الاستهلاك : وتمثلها بقية دول أوروبا والاتحاد السوفيتي واليابان وأوستراليا ونيوزيلندة وتستهلك ٣٤٪ من الطاقة ، مقابل ١٧٪ من سكان العالم أي نسبة ٢ إلى ١ .

ـ الأقطار الضعيفة الاستهلاك : التي تنال ١٥,٥٪ من الطاقة مع أن سكانها يعادلون ٧٠,٥٪ من سكان العالم ، أي نسبة ٠,٢٢ إلى ١ وتظل متأخرة جداً في هذا المجال .

هذا وتختلف نسبة أنواع الطاقة المستهلكة من قطر لآخر بدرجة عظيمة . فكل دولة تمنح أنواع القدرة الأربعة الأساسية درجة مختلفة جداً ، حسب ثرواتها الخاصة أو حسب شروط تموينها . وهذا هو أحد مظاهر **الحصيلة الطاقيّة** وتمنح الحصيلة العالمية حالياً مقدار ٣٣٪ للفحم ، و ٤٤,٥٪ للنفط ، و ١٥,٥٪ للغاز الطبيعي و ٧٪ للكهرباء الأولية .

هذا وعلى الرغم من وجود **أنواع فحم** جديثة كفحم الليغنيت الثلاثي ،

وفحم الطورب (الخث) الرباعي فإن أهم **المكامن الفحمية** هي العائدة للعصر الفحمي (الكاربونيفير) ، أي في عصر الالتواءات الهرسينية .

ولهذا السبب نجدها موزعة في الكتل الجبلية العائدة للحقب الأول في نصف الكرة الشمالي ، أي أمريكا الشمالية ، وعلى الأخص ، في الولايات المتحدة ، وفي أوروبا الشمالية الغربية ، وأوروبا الوسطى ، والاتحاد السوڤيتي والصين وتقدم جميعاً ٩٠٪ من الإنتاج العالمي .

هذا وهناك ٣٠ سنة من التأخر بين نهضة إنتاج النفط ، وبين تقدم إنتاج الغاز الطبيعي . فبعد أن كان إنتاج النفط محدوداً ، في مطلع القرن الحالي ، بدولتي الولايات المتحدة وروسيا ، أصبح **إنتاج النفط** عالمياً غداة الحرب العالمية الأولى . وهكذا أضافت الأقطار الجديدة في منطقة البحر الكاريبي والشرق الأوسط أسماءها إلى لائحة منتجي النفط التي أصبحت طويلة جداً في الوقت الحاضر ، في حين أصبح التكرير والاستهلاك شاملين في الأقطار المحرومة من مصادر نفط وطنية . وهكذا أصبحت جغرافية النفط عالمية بعد أن استفادت من سهولة النقل البري بواسطة الأنابيب أو البحري بواسطة الناقلات العملاقة التي بلغت حمولة البعض منها نصف مليون طن .

وعلى خلاف ذلك فقد ظل **إنتاج الغاز الطبيعي** حتى عام ١٩٤٠ إنتاجاً أمريكياً بحتاً ، حيث كان إنتاجها يعادل ٩٦٪ من الإنتاج العالمي . أما في المناطق الأخرى فكان يتم إحراق الغاز في مشاعل جهنمية أو يعاد حقنه للحفاظ على ضغط النفط في المكامن المختلطة . أما الآن فقد انضمت أوروبا الغربية والاتحاد السوڤيتي وكندا والجزائر وليبيا ودول الخليج إلى قائمة منتجي الغاز . وبعد أن كانت تجارته محدودة جداً خلال فترة طويلة ضمن مسافات محدودة ، فقد أصبحت الآن ممكنة بفضل تمديد أنابيب هائلة feeders بعيدة المدى ، مثل الأنبوب الذي يمتد من الاتحاد السوڤيتي حتى فرنسا مروراً بدول أوروبا الشرقية

والخط الذي يمتد من إيران إلى الاتحاد السوفيتي ، وأخيراً بفضل تمييع الغاز ونقله بالسفن الناقلة للغاز أو méthaniers .

وبينما لا تكون الكهرباء الحرارية أكثر من تحويل طاقة استخرجت من مكان آخر كالفحم أو المازوت (سولار . فويل) والغاز المحروق في مراكز حرارية ، فإن **الكهرباء الكهرمائية والذرية** (النووية) أصبحت تضيف مساهمتها إلى الحصيلة الطاقية العالمية . وعلى كل فإن الدول الصناعية تحتل هنا مكاناً مهيمناً في كلتا الحالتين ، نظراً لضخامة الاستثمارات ومتطلبات التكنولوجيا ، لأنها تملك شبكات نقل بعيدة المدى ومترابطة .

الفحم في العالم : الاحتياط العالمي ١٠٧٥٤ مليار (بليون طن)

الاحتياط :	
الاتحاد السوفيتي	٥٣٪
الولايات المتحدة	٢٧٪
الصين	٩٪
أوروبا	٥,٥٪
بقية العالم	٦,٥٪

الإنتاج في ١٩٨٠	
الولايات المتحدة	٢٦,٨٪
الصين	٢٤,٩٪
الاتحاد السوفيتي	٢٢,١٪
أوروبا الغربية	٢٠,٣٪

ملامح تطور مزدوج في الأحواض الفحمية

ـ من ناحية ، هناك **المناجم الفحمية** « المريضة » في أوربا الغربية ، وهي مناجم مستغلة منذ فترة طويلة وذات بنية غير ملائمة ، واستغلت على عمق كبير ، وتسير هذه الأحواض نحو الانحطاط . ولا يتجاوز مردود العمل اليومي ، وهو ٨ساعات ، مقدار ٤طونات إلاّ فيا ندر ، وغالباً ما يكون المردود نصف هذا الرقم . ورغم جهود التحديث المبذولة ، وإعادة تنظيها ، فإن الفحم الناتج غير أهل للمنافسة في السوق العالمية .

ـ ومن ناحية أخرى ، هناك **مناجم فحم « في صحة طيبة »** كا في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والصين ، والتي تعتمد على ذخر ضخم يكون أحياناً في بداية استغلاله . وهنا لايجري سوى استغلال المكامن القليلة العمق ، وأحياناً على المكشوف بواسطة جرافات جبارة . وهكذا يبلغ مردود العامل في اليوم ١٤,١ طن في المناجم الباطنية و٢٥ طن في المناجم المكشوفة ، أما في الاتحاد السوفيتي ، حيث يكثر الفحم القَرِط ، فإن اقتلاع الفحم يتم بواسطة دفقات المياه المضغوطة .

الذهب الأسود يفرض قانونه

تغطّي كل دولة حاجاتها من الطاقة ، بصورة شديدة التفاوت ، وذلك حسب نوعية وطبيعة مواردها الخاصة ، وتؤلف النسبة التي يجب طلبها من الخارج درجة **التبعيّة الطاقيّة** . فقد تكون هذه التبعية كلية ، كحال الدانمارك أو المملكة الأردنية ، أو معدومة مثل الكويت ، كما يمكن أن تختلف كثيراً في الزمان ، كالولايات المتحدة التي كانت من مصدّري الطاقة في الماضي ، والتي أصبحت اليوم أكبر مستورد للبترول .

وقد أدّى الانفتاح المتزايد ، الذي شهدته التجارة الدولية ، إلى توسيع أبعاد المبادلات الطاقيّة . فالدول التي **تصدر الفحم** لا تستطيع تصدير سوى النوعيات الجيدة ، وبسعر مرتفع ، مما يسمح بتغطية نفقات النقل . ولا زالت هذه التجارة على مستوى عام ١٩١٣ ، إذ لا يدخل تيار التجارة العالمية سوى ١٠٪ من الإنتاج العالمي ، أو ٢٠٠ مليون طن ، تقدم ثلثها الولايات المتحدة باتجاه أوروبا واليابان ، ويتألف الباقي من مبادلات قصيرة المدى أو متوسطة ، صادرة من بولونيا ومن الاتحاد السوفياتي وأستراليا وأفريقيا الجنوبية .

أما الغاز الطبيعي والنفط : فيتم نقلها لمسافات بعيدة بالأنابيب فوق مسارات قارية ، وبواسطة الناقلات على الطرق البحرية ، ولكن نظراً لشدة انخفاض كلفة نقل النفط ، مع تعادل المردود الطاقي ، ونظراً إلى أن السيطرة على التقنيّات التي استدعاها الغاز لم تكتمل إلا في وقت متأخر ، لأن أول عملية نقل للغاز المميّع بواسطة ناقلات الغاز لم تتم إلاّ في عام ١٩٥٧ بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، فإن التجارة العالمية للنفط ، تظل ، ولمدى بعيد ، هي الأكثر نمواً بالموازنة مع المادتين المذكورتين أي الفحم والغاز ، وتشمل ٥٥٪ من الإنتاج العالمي للنفط .

وقد ظل النفط حتى مطلع السبعينات يباع بأسعار بخسة جداً . وبذلك استطاع استبعاد كل مصادر الطاقة السابقة ؛ التي يمكنها أن تحل مكانه ، ولا سيا الفحم . هذا كما سد اندفاع النقل بالسيارات والاعتماد عليها ، وازدهار صناعة البتروكيمياء ، على نجاح النفط في المنافسة على نطاق واسع . وهذا ما برّر نشوء أسطول نفطي قفزت حمولته من ٣٠ مليون طن في عام ١٩٥٢ إلى ٢٨٢ مليون طن . كما ساعد تزايد حجم السفن الناقلة الذي أعقب أول إغلاق لقناة السويس في عام ١٩٥٦ ، بعد العدوان الثلاثي ، على هبوط سعر نقل الطن الواحد . وهكذا أصبح عدد **متزايد من الأقطار في حالة تبعية تجاه مصدّري النفط .**

ولقد ظل السوق العالمي للنفط ، ولمدة طويلة ، تحت هيمنة **كارتل دولي مؤلف من الشركات الخاصة الكبرى** ، مؤلف من شركات تجارية أمريكية : ثلاث من مجموعة ستاندارد أويل هي : نيوجرسي ، وكاليفورنيا وموبل ، وتكساس أويل غولف ، ومن شركتين : إنكليزية هولندية هما : رويال دوتش شل ، وبريتيش بتروليوم . ولكن في الوقت الذي كانت هيمنة كبريات الكارتل تتعرض في الولايات المتحدة ذاتها للنهش من قبل شركات أخرى ، هي الشركات المستقلة ، وفي الأقطار الأوربية من جانب شركات حكومية ، مثل شركتي : شركة البترول الفرنسية ، والف ايراب ، وشركة ينّي الإيطالية ، كانت الأقطار السائرة في طريق النمو والغنية بالنفط تحاول استلام أمور استغلال مواردها الخاصة ، إلى أن استطاعت في عام ١٩٦٠ أن تؤلف كارتل جديد مُدَوْلَن étatique ،**هو منظمة الأقطار المصدرة للنفط (الأوپك)** . وفي نهاية عام ١٩٧٣ وبداية ١٩٧٤ ، قررت هذه المنظمة فجأة مضاعفة سعر بترولها الخام أربع مرات ، مما أدّى إلى زعزعة الاقتصاد العالمي ، ولا سيا بالنسبة للدول الفقيرة المستوردة للنفط كالهند ، حتى أن بعض دول إفريقيا السوداء عجزت عن شراء البنزين اللازم لسيارات الإسعاف . وفضلاً عن ذلك لجأت الدول العربية المصدرة للنفط (أوپيپ) ودعماً لحرب رمضان (تشرين ١٩٧٣) ، إلى فرض حظر كلي

أوجزئي على تصدير نفطها ، أو حدّت من مجال الامتيازات النفطية الممنوحة للشركات الأجنبية من أمريكية وإنكليزية وفرنسية ، أو أممتها ، وهكذا أصبح النفط سلاحاً اقتصادياً أكثر من أي وقت مضى .

وقد كان لهذه القرارات **نتائج عظيمة** ، لأنها قذفت العالم قاطبة ، بما في ذلك الأقطار الاشتراكية ، في أزمة التضخم ، وعزلت الأقطار المتخلفة نهائياً ، وزادت من ضعف أقطار العالم الرابع ، في حين وفّرت لأعضاء منظمة البلدان المصدّرة للنفط ، الوسائل المادية اللازمة للإقلاع ، ولكن كان لذلك مخاطر اقتصادية وسياسية ، بسبب فجائية العملية وتكدس البترو دولار لدى البعض ، دون أي استعداد مسبق لتوظيف هذه الأموال الهائلة ، حتى لقد بلغت ودائع الأقطار العربية في بنوك أمريكا وأوربا الغربية أكثر من ٢٠٠ مليار دولار في ١٩٨٠ . أو أدّى ذلك إلى زعزعة كيان بعضها ، مثل إيران التي لجأت إلى « عصرنة » مفرطة في تسارعها ، أو إلى تبذير سفيه ، وهدر ، واهتزاز في القيم الأخلاقية نتيجة الثراء الفجائي . وفي عام ١٩٧٤ كانت كل الظروف مواتية لرفع الأسعار بزيادة ، وبما أن الدولار هو العملة التي يتم بها شراء النفط ، فإن أي انخفاض في سعر هذه العملة الأمريكية يؤدي فوراً إلى « تعويض » ذلك بارتفاع سعر النفط ، وبالتالي إلى ارتفاع أسعار المواد المصنوعة المستوردة من الدول المتقدمة ، وراحت الدول المنتجة تزيد من إنتاجها أحياناً لتمويل مشاريعها ، مثل إيران والمملكة العربية السعودية في حين لجأ البعض لتخفيضه ، حفاظاً على هذه الثروة المحدودة والسريعة النفاد . وأخيراً أتخمت الأسواق العالمية بعد أن أخذت الدول المتقدمة تجنّد قواها العلمية والتكنولوجية لتخفيض استهلاكها وترشيده ، واللجوء لمصادر طاقة أقل كلفة ، إلى أن اتفقت دول الأوپك أخيراً على تخفيض أسعارها في خريف ١٩٨١ ، وتوحيد سعر البرميل وجعله ٣٤ دولاراً . كما راحت تحاول تثبيت إنتاجها عند مستوى معيّن ، أو تخفيضه تدريجياً ، حفاظاً

على احتياطيها لأطول مدة ممكنة ، لأن معظم الدول المصدّرة للنفط ستتعرض لنضوب مخزونها في نهاية القرن العشرين ، إذا استمر الإنتاج على هذا المنوال ، باستثناء المملكة العربية السعودية التي تملك ٤٧,٥٪ من الذخر النفطي العربي ، والتي سيستمر إنتاجها ، حسب المستوى الحالي ، حتى منتصف القرن القادم ، وجاءت الحرب العراقية الإيرانية لتعمل على تخفيض إنتاج الدولتين بنسبة ٧٠٪ عما كانت عليه سابقاً .

هذا وقد ارتفعت أسعار كل مصادر الطاقة الأخرى ، دون أن يكون ذلك موازياً للنفط . وهكذا طويت صفحة جوهرية في التطور الاقتصادي ، فبعد حقبة من نمو سريع قائم على طاقة رخيصة ، جاءت **حقبة الطاقة الغالية** ، التي تحث على الاقتصاد حتى أقصى حد ممكن في الاستهلاك والتنمية ، مما لا يسمح بأكثر من تنمية بطيئة وحذرة .

استهلاك النفط وإنتاجه في ١٩٧٩ بملايين الأطنان

المنطقة أو الدولة	الاستهلاك	الإنتاج		الاستهلاك	الإنتاج
أمريكا الشمالية	٩٨٢	٥٥٤	آسيا الجنوبية الشرقية	١٨٠	١٣٧
أمريكا اللاتينية	١٩٤	٢٤٠	أوروبا الشرقية	٩٥	٢٤
أوروبا الغربية	٧١٢	٨٣	الاتحاد السوفيتي	٤٢٠	٥٧٢
إفريقيا السوداء	٦٨	٢٧٧	الصين	٨٠	١٠٥
الشرق الأوسط	٦٠	١٠٦٢	اليابان	٢٦٠	١

الأقطار المنتجة للبترول في ١٩٧٩ ملايين الأطنان

الولايات المتحدة	٤٨٥	ليبيا	٩٥	الاتحاد السوفيتي	٥٧٢
كندا	٦٩	مصر	٢٤	الصين	١٠٥
المكسيك	٦٣	المملكة العربية السعودية	٤١٠	أندونيسيا	٨٢
فنزويلا	١٠٨	العراق	١١٥	أستراليا	٢٠

الأرجنتين	٢٣	الكويت	١١٠	سورية	٨
الجزائر	٥٧	الإمارات العربية	١٢٧	المملكة المتحدة	٥٤ (١٠٠ في ١٩٨٢)
نيجيريا	٩٥	إيران	٢٥٥	النروج	١٨
				رومانيا	١٥

١٩٦٠ - ١٩٧٠ بروز منظمة الأوبك

لقد تمخضت فكرة تنظيم مشترك للأقطار المصدرة للنفط عن أول مؤتمر عربي للبترول ، انعقد في القاهرة في شهر نيسان (إبريل) من عام ١٩٥٩ مع وجود مراقبين غير عرب ، ولا سيا من إيران وفنزويلا . وجاء حدث آخر كي يؤدي إلى تسارع ردود أفعال الدول المنتجة ، ففي عام ١٩٦٠ قررت الشركات الدولية تخفيض أسعار النفط المعلنة ، بسبب هبوط أسعار السوق ، والناتجة عن المنافسة الحادة التي كانت تقوم بها الشركات المستقلة الأمريكية ، تجاه شركات البترول العملاقة الأمريكية ، وتجاه الشركات الحكومية الأوربية . ففي خلال الستينات كان العرض من النفط أكثر من الطلب ، وكانت أسعار النفط لا تكف عن التدني .

وعندما وصل العقيد معمر القذافي إلى الحكم في الفاتح من أيلول ١٩٦٩ ، بدأ عصر جديد في العلاقات البترولية . فقد طالب النظام الجديد شركات البترول برفع الأسعار المعلنة بصورة محسوسة ... كا كانت قناة السويس مغلقة منذ حرب ١٩٦٧ بين العرب واليهود ، كا توقفت شركة التابلاين ، التي تفرغ شطراً من البترول الخام السعودي حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، عن الضخ . وقد حصلت ليبيا على مطالبها . وعلى كل يمكن القول أن « الانتصار » الليبي على الشركات المستغلّة يؤلف توقيتاً تاريخياً .

عن ميخائيلو ڤيتش وبلوشار
كتاب : الطاقة العالمية ، الاستراتيجيات الجديدة
دار نشر آرمان كولان ١٩٧٨

المستقبل الطاقي

إذا كان ينظر إلى الخشب وماء السدود الكهرمائية على أنها من مصادر الطاقة القابلة للتجدد ، فإن الغالبية العظمى من أنواع الوقود الطاقي ، تنتسب إلى الطاقات المستحاثة (الاحفورية) وغير المتجددة . هذا وبينما تكون بعض الصناعات ، كالتعدين ، أو الدِباغة ، قادرة على استرداد جزء من المواد الأولية بعد الاستعمال ، كالخردة ، فإن هذه الحالة لا تنطبق على فرع الطاقة . وهكذا تطرح مشكلة **الاحتياطيات** ، أو الذخر ، إذن ، على مستوى مزدوج : قومي وعالمي .

ولا يمكن توضيح هذا المفهوم المعقد إذا لم يكن مصحوباً بنعت . **فالذخر أو الاحتياطيات الجيولوجية** تتعلق بدرجة معرفة فنون التنقيب : فنقول هناك احتياطات مؤكدة بالنسبة لما هو معروف ، ومحتملة بالنسبة لما ينتظر العثور عليه ، والممكنة بالنسبة للتقريب الخارجي extrapolation ، ولكن لكي يمكن أن يكون أحد مصادر الطاقة قابلاً للاستغلال ، فلا يكفي أن يكون موجوداً ، بل يجب أن يكون مربحاً ، وذلك حسب السعر المتوسط للطاقة الذي يمكن أن يتبدل بسرعة كبيرة جداً . وهكذا يمكن تعريف **الاحتياطيات الاقتصادية** .

ومن وجهة النظر هذه ، فإن للزيادة الكبيرة في سعر الطاقة نتائج إيجابية . فهي تسمح بتغطية نفقة تنقيبات وأبحاث باهظة التكاليف عن مصادرها ، فضلاً عن أنها تزيد حجم المدّخرات الاقتصادية ، مثلما تجعل مصادر الطاقة الجديدة ذات عائدية اقتصادية ، والتي كان لها دور ضئيل في التنمية والتطوير بسبب كلفتها المرتفعة .

كيف يمكن أن يحصل التواؤم مع المرحلة الطاقية الجديدة :

ـ أولاً بكبح جماح الاستهلاك ، أو ترشيده ، أو إنقاصه . وإذا كان من العسير مواجهة نقص في الفعالية الاقتصادية إرادياً ، فإن من المؤكد أن إبطاء النمو الاقتصادي يرتبط بغلاء الطاقة . فاتباع سياسة **« الاقتصاد في الطاقة »** هي سياسة بنّاءة أكثر من سواها ، رغم أنها لا تجلب أي نفع في البداية بسبب تكاليف العزلة ، والنفقات التكنولوجية .

ـ ومن ثم **بتحسين استغلال مصادر الطاقة التقليدية :** فكثيراً ما يجري استغلال ٣٠٪ فقط من ذخر مكامن البترول . ومن المأمول التوصل إلى نسبة تبلغ ٦٠٪ وسيصبح من الممكن قريباً تجنب خسارة مقادير هائلة من الغاز المحروق في مشاعل الغاز الهائلة عند تجهيز المكامن المختلطة . كما سيكون من الممكن استغلال مناجم الفحم العسيرة ، عن طريق السيطرة على إحراق الفحم تحت الأرض وتحويل الطاقة الناتجة إلى غاز .

ـ **وعن طريق توسيع مجالات التنقيب والاستغلال :** فبالنسبة للفحم فهناك أقطار كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، لا تستغل مكامن الجبال الصخرية ، أو مكامن سيبريا الوسطى التي تعتبر مع ذلك أغنى بكثير من المناجم المستثمرة في جبال الأپالاش ، أو في أوكرانيا . أما بالنسبة للوقود السائل ، فإن استغلال العتبات القارية ، الذي ابتدأ في خليج المكسيك وفي ڤنزويلا ، وفي بحر الشمال ، وفي بحر قـ .وين ، وفي أندونيسيا ، يمكن أن يبلغ ٣٠٪ من إنتاج حقول النفط المستغلة في العالم ، كما أن استغلالها حالياً يقدم خمس إنتاج العالم من النفط .

ـ **وباستغلال الثروات المعروفة والتي ما زالت مهملة** حتى الآن : إذ تستطيع الصخور البيتومية والزفتية في الولايات المتحدة أن تقدم ما يعادل ١٢٥ مليار (بليون) طن من النفط ، أو ٣٠ مرة احتياط هذا القطر من النفط أو

ثلاثة أمثال الاحتياط العالمي من البترول ، وإذا أضفنا إلى ذلك الموارد المماثلة التي تم اكتشافها في كندا وفي البرازيل ، وفي ڤنزويلا وفي السويد وفي سيبريا ومنشوريا ، فإن من المتوقع حدوث ثورة ثانية في ميدان أنواع الوقود السائل .

ـ كما حظيت **الطاقة النووية** باندفاعة عظيمة نتيجة غلاء الطاقة : فإلى جانب استعمالاتها الثانوية ، في مفاعلات السفن ، إنتاج البخار ، فإنها برزت في ميدان الإنتاج الكهربائي . وعلى الرغم من طابعها الحديث فإنها اجتازت عدة مراحل تقنية . ويستخدم اليورانيوم الطبيعي في عملية الانشطار كوقود ، والذي لا يفتقر العالم لفلزّاته لوفرتها ولرخص سعرها على المستوى العالمي ، أو يستخدم البلوتونيوم المشتق منه ، غير أن تشغيل المراكز الحرارية يطرح مشاكل بالنسبة للبيئة ، وخاصة مشكلة التخلص من الفضلات المشعّة . أما تقنيّة الصهر ، التي ستؤدي لتجنب هذه المحاذير فلم تزل عاجزة عن السيطرة على درجات الحرارة العالية . وعلى كل فإن الطاقة النووية توفر الآن أكثر من ٢ بالمئة من الطاقة العالمية ، كما أن البرامج الجارية ، أو المتوقعة ، سترفع هذه النسبة إلى ١٥٪ في عام ٢٠٠٠ .

ـ وهناك أيضاً الطاقات « **الكامنة** » : من العسير القول بأن الطاقة الريحية أو طاقة المد والجزر ، التي كانت الطواحين الريحية أو المائية تستغلها منذ قرون عديدة ، هي مصادر طاقة جديدة ، أو طاقات جديدة . ففي هذه المجالات لا تزال النتائج المكتسبة مخيّبة للآمال . هذا كما أن الطاقة الحرارية الأرضية لا تقدم أكثر من موارد محدودة جداً مكانياً كما في إيطاليا . غير أن الطاقة الشمسية لوحدها ، نظراً لاحتياطاتها المذهلة ولشموليتها على سطح الأرض ، تستطيع أن تؤلف قاعدة لثورة في الطاقة ، ولكن لا تزال مشكلة عائديتها اقتصادياً تنتظر الحل .

ولا يبدو أن مستقبل الطاقة يشتمل على خطر الشح الكمّي على المدى

المتوسط وعلى مستوى الكرة الأرضية . غير أن ضمان سلامة توفيرها لكل النـاس ؛ فهو أمر أقل توكيـداً بكثير . غير أنـه يبـدو من الـواضـح أن كل مصـادر الطـاقـة الحالية تكلف غالياً : نعم لقد مضى وانقضى عصر الطاقة الرخيصة .

☆ ☆ ☆

هل هناك ندرة في الطـاقـة : لقـد كان نـادي رومـا ، هو أول من كشف للعيـان المشكلات والمخاطر الطاقية التي لا بـد أن يقود إليهـا النمو الاقتصـادي الجموح . ولكن ظهر فيما بعـد أن دراسـات نادي روما قد ساهمت كثيراً في دعم الأقطار المنتجة للبترول في رغبتهـا بتخفيض إنتـاجهـا ، للاحتفـاظ باحتياطيها لأطول مدة ممكنة ، ولكي تستفيد مالياً من ثروتها أكثر بكثير مما استفادت فيما سبق .

وطبعاً لن تكون ندرة النفط ، التي يخشاها الناس على المدى البعيد،اصطناعيـة ، لأن مـدخرات النفـط تقـدّر بحوالي ٣٠٠ مليـار طن ، منهـا ١٣٥ تحت سطح البحـار ، مقـابل استهلاك سنوي يبلغ ٣ مليارات طن ، والذي قد يبلغ ٤ مليارات طن في نهاية القرن الحالي . إذن سيظل هنـاك نفـط يغطي الحـاجـات خلال بضـع عشرات من السنين ، ولكن كلمـا اقتصـد النـاس في استهـلاكـه ، كلمـا أمكن الاحتفاظ به لاستعمالات ذات أرجحية فيما بعد كالنقل والبتروكيمياء .

وإذا كان من الصحيح القول بأن البحث عن مصادر طاقة بديلة يجب أن يبـدأ من التوّ ، فليس من الضروري ترويع الناس ، فهناك الكثيرون الذين عرفوا الكتّاب المتشائمين ، في الموقف الذي سـارع في انحطاط مكانة الفحم ، بسبب انخفاض سعر النفط عام ١٩٦٠ ، هذا في حين أن مـدخرات الفحم تبلغ خمسة أو ستة أضعاف احتياطي النفط ، هذا فضلاً عن كونها ، على العموم ، موزعة بشكل أكثر عـدالـة على سطح الأرض ، وقابلة للاستغلال بصورة تنافسية ، أي تقبل المزاحمة . ويجب علينـا أن نقبل الآن بأن الصعوبة هي سياسية قبل أن تكون تقنية .

عن ل . لامّر
« الطاقات » كانون أول ١٩٧٨

يبدو استعمال **الطاقة الشمسيـة** قـديمـاً قِـدَم العـالم . وإذا كان أرخميـدس قـد استطـاع إحراق الأسطول الرومـاني في سيراقوزة ، فـأصبح أكثر الأبطـال شهرة في هـذا المضمار ، فـإن هنـاك استعمالات سلمية شهدت بعض النجاح على كرّ القرون . فقد أمكن صنع مكائن بخـاريـة شمسيـة في أوروبـا ، وفي الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر ، كما أمكن تشغيل مضخات شمسيـة بهـدف ريّ الأراضي في

ولاية آريزونا وفي مصر ، في حدود العام ١٩٠٠ . ولكن العلماء لم ينكبّوا فعلاً على ترويض هذا المصدر الآ منذ عام ١٩٧٤ ، أي على هذا المورد المتجدد ، والذي لا ينضب له معين ، والمجاني ، وغير الملوّث .

وجهة نظر عربية عن تزويد العالم بالنفط :

تعنى عبارة « استقرار التموين النفطي » بالنسبة للأقطار المستهلكة ، استمرار منظمة الأقطار المصدّرة للنفط (الأوپك) بالقيام بدورها التقليدي ، كمورِّدة للبترول لإشباع حاجات العالم . أما من وجهة نظر الأوپك ، فإن الدور الموكل إليها يكون على خلاف الاستقرار لأنه يستدعي استجابة هذه المنظمة إلى انخفاض الأسعار وإلى زيادات طلب العالم الصناعي ، دون أي اعتبار للنتائج التي قد تتمخض عن مثل هذه التبدلات على المصلحة الوطنية للأقطار الأعضاء في هذه المنظمة .

الواقع ليست منظمة الأوپك ملتزمة بالاستمرار في تقديم الكمية التي يطلبها العالم من هذه المادة . فالمصلحة الخاصة للأقطار المنتجة تملي عليها وجوب عدم تقديم كمية من البترول لا تستدعيها حاجاتها المالية . وعلى كل حال إذا كانت لهذه المقاربة معنى من وجهة النظر الاقتصادية ، فإنها تثير من وجهة النظر العلمية مشكلات اجتماعية وسياسية ضخمة ، ذلك أن تخفيضاً فجائياً وعنيفاً في التموينات النفطية قد تكون لها آثار خطيرة على الاقتصاد العالمي ـ وعلى منظمة الأوپك بحسبانها عنصراً في الاقتصاد العالمي ـ وعلى ازدهار العالم في التنمية مستقبلياً .

وقد حان الوقت الآن كي يعقد المستهلكون والمنتجون اتفاقاً جديداً . وإذا كان من الممكن تحاشي أزمة عالية في الطاقة ، فذلك يعود لفضل استمرار منظمة الأوپك في القيام بوظيفتها كمصدّر عالمي للنفط ، ولكن إذا كانت منظمة الأقطار المصدرة للنفط ، تعطي ضماناً ـ مع كل النتائج التي ستنجم عن هذا التعهد على نسق نضوب احتياطياتها النفطية ـ فإن على المستهلكين قبول بعض المسؤوليات الجديدة . كضرورة زيادة الأسعار ، ونقل التكنولوجيا ، وإعادة الاستقرار النقدي العالمي .

عن : آيت لاوسّين ، الجزائري .
بريسّ . آذار ١٩٧٩

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

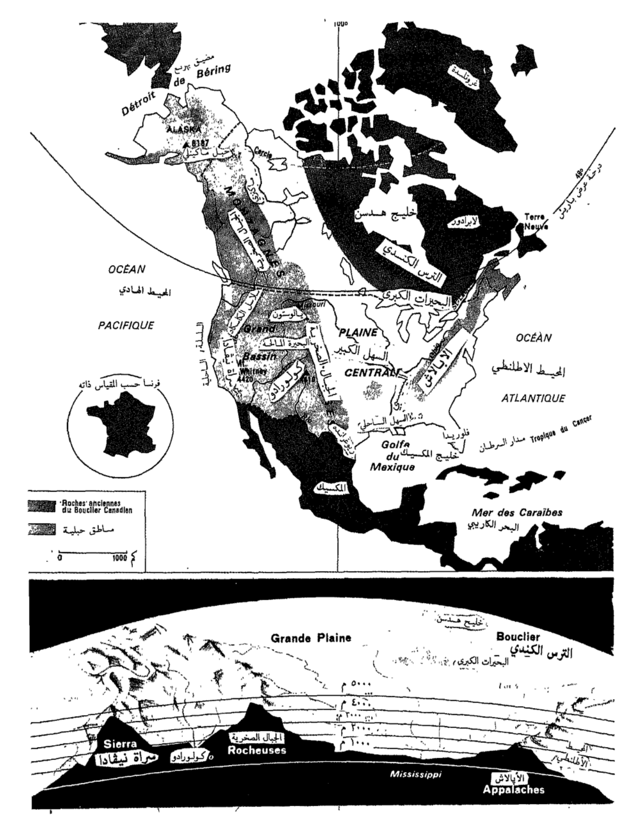
أمريكا الآنكلوسكسونية

أو أمريكا شمال ريوغرانده

تؤلف الولايات المتحدة وكندا في شمال نهر ريوغرانده مجموعة تختلف عن الأقطار الأمريكية الأخرى ، فهما دولتان غنيّتان ، صناعيتان ، وعلى مستوى تكنولوجي عالٍ ، تخضعان لثقافة آنكلوسكسونية طاغية .

وتغطّي أمريكا الشمالية مساحة تبلغ ١٩,٥ مليون كيلو متر مربع ، أو ٢٠ مرة مساحة جمهورية مصر العربية ، وقد تكوّنت حسب مخطط بسيط وفضفاض ، ولكن تكون من الشمال مغلقة بقساوة المناخ ، كما تبدو عسيرة المدخل من الشرق أو من الغرب ، حيث تتعثّر المصبّات النهرية الخليجية estuaires بعوائق تضريسية . أما الأراضي الواقعة إلى الشمال من خط يمتد من نيويورك وشيكاغو وسيتل فقد غشيتها خلال الدور الرابع جموديّات واسعة ، تركت بصماتها بعمق على شكل توضّعات مورينية وبحيرات وشلالات .

فالترس الكندي shield الذي يقع في الشمال الشرقي ، يتألف من صخور قديمة متمعدنة ، ويحمل شبه السهل pénéplaine المشوّه هذا تأثير الجموديات بشكل خاص : فتكون تضاريسه مشوّشة ، وصرف المياه غير منتظم . وتؤلف البحيرات الكبرى أكبر رقعة من المياه العذبة في العالم ، غير أنها تنفصل مستوياتها بشلالات مثل شلالات نياغارا وسولت سانت ماري (شكل ١) .



Détroit de Béring
مضيق بيرنج
ALASKA
8187
جبل ماكينلي
غرونلندة
خليج هدسن
لابرادور
Terre Neuve
درجة عرض باريس
التِرس الكندي
OCÉAN
المحيط الهادي
PACIFIQUE
البحيرات الكبرى
PLAINE
السهل الكبير
CENTRALE
OCÉAN
المحيط الاطلنطي
ATLANTIQUE
الأبالاش
Grand
Bassin
البحيرة المالحة
يالوستون
كولورادو
Mt. Whitney 4420
فرنسا حسب القياس ذاته
السهل الساحلي
فلوريدا
Golfe du Mexique
خليج المكسيك
مدار السرطان Tropique du Cancer
المكسيك
Roches anciennes du Bouclier Canadien
مناطق جبلية
0 1000 كم
Mer des Caraïbes
البحر الكاريبي
خليج هدسن
Grande Plaine
Bouclier
الترس الكندي
البحيرات الكبرى
٥٠٠٠ م
٤٠٠٠ م
٣٠٠٠ م
٢٠٠٠ م
١٠٠٠ م
Sierra
سيراة نيڤادا
كولورادو
الجبال الصخرية
Rocheuses
المحيط الأطلنطي
Mississippi
الأبالاش
Appalaches

الشكل (١)

وتؤلف السهول الوسطى ميزاباً بين المحيط المتجمد الشمالي وبين خليج المكسيك . وتتألف من توضعات لحقية ومن صخور رسوبية تنهض بلطف نحو الغرب حتى ارتفاع ٢٠٠٠ متراً . ويخترقها نهران من أكبر أنهار العالم ، هما الميسيسبي ونهر ماكنزي اللذان تنتشر دلتاهما على شكل لاغونات ومستنقعات .

وتتألف **الأراضي العليا في الغرب** من سلسلتين : جبال الروشوز « الروكي » في الشرق ، وسروات نيڤادا والسلاسل الساحلية في الغرب . وتطيف هذه الجبال بهضاب وحوضات حيث يقع كل من البحيرة المالحة الكبرى وخانق الكولورادو . وتنتسب جبال الغرب إلى « حزام النار » الباسفيكي ، وتحمل براكين ناشطة باتجاه الشمال ، وتخترقها صدوع مثلما تعتريها الزلازل (شكل ٢) .

☆ ☆ ☆

صعوبة فتح الرقعة الأمريكية : عندما اقتحم الملاحون القارة الأمريكية من الشمال الشرقي ؛ لم يستطيعوا أبداً أن يجتازوا الممرات الكندية في الشمال الشرقي باتجاه الباسفيكي . أما في الجنوب فقد كانت الأراضي أو الممتلكات الاسبانية في الشرق ، أي التكساس ، وفي الغرب ، أي كاليفورنيا ، مفصولة بصحاري يستحيل اجتيازها . ولقد اصطدم المعمّرون الانكليز ؛ الذين أقاموا في السهول الساحلية في الشرق ، أقول اصطدموا في أثناء اتجاههم غرباً بالحاجز الآپالاشي الذي تحاشوه مروراً بنهر الهدسن ، وبالبحيرات الكبرى . غير أن الفرنسيين ، الذين احتلوا وادي السان لوران ووادي الميسيسبي ، عثروا على أفضل الممرات نحو الأراضي الطيبة في السهول الكبرى وفي اتجاه الغرب حيث سبقوا الانكليز ، ومن هذا نشبت الحروب الانكليزية الفرنسية .

☆ ☆ ☆

أبعاد الرقعة الهائلة : يسمح لنا رسم مخطوط مزدوج لكرة أرضية منبسطة من مرتسم مركاتور ، أقول يسمح لنا بمقارنة أبعاد وموضعي قارتي أوروبا وأمريكا . ففضلاً عن اتساع الرقعة الأمريكية نجد أن أكثر الملامح جذباً للانتباه هي زحزحة أكثر المناطق كثافة سكانية في أمريكا نحو

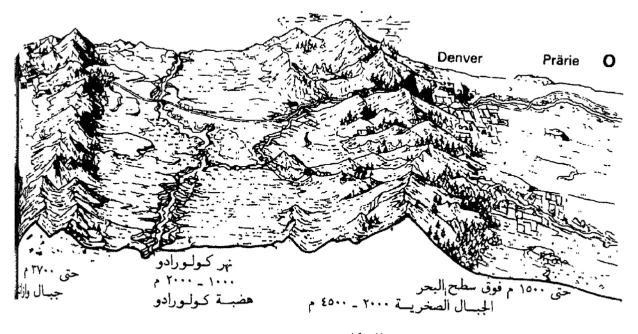
الجنوب : فتقع لندن على عرض الشمال الكندي ، في حين تقع ميامي على عرض بغداد . ولقد طرح اتساع الرقعة مشكلات عسيرة أمام الاستعمار ولا تزال حتى اليوم أيضاً ، لأن اختراق أراضي الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب بالسيارة على مسافة ٦٠٠٠ كم يعتبر نوعاً من مغامرة باهرة .

☆ ☆ ☆

المناخ : يتصف المناخ الأمريكي **بالقارية** . فعلى درجة عرض واحدة تكون فصول الشتاء أكثر برداً والصيف أكثر حراً مما هو عليه في أوروبا . وهكذا يمر خط العرض ٤٥ من بوردو ومن مونتريال ، التي نتصور أنها واقعة إلى الشمال من ذلك ، وحيث يتجمد نهر السان لوران شتاءً ، مع أن معدل كانون الثاني في بوردو في الحرارة يماثل متوسط الشهر المذكور في حلب الواقعة على عرض ٣٦° تقريباً .

☆ ☆ ☆

ويفسّر **انفتاح القارة شمالاً وجنوباً** أيضاً سبب صعود المؤثرات الجنوبية بعيداً نحو الشمال صيفاً ، في حين تهبط المؤثرات الشمالية في الشتاء حتى خليج المكسيك . وهكذا يزرع القطن حتى عرض مدينة ڤينيپيغ في كندا ، ولكن يحدث الصقيع في مدينة أورليئان الجديدة الواقعة على درجة عرض القاهرة وآغادير ، اللتين يقصدهما الكثير من الأوروبيين للتمتع بدفء الشتاء فيهما .



الشكل (٢)
مقطع مجسم للولايات المتحدة الغربية

الجموع أو المتوسط			ك٢	ش	آ	ن	أ	ح	ت	آ	إ	ت١	ت٢	ك١
١٠,١	ديوان	ح	-٥,٩	-٣,٩	-١,٧	٩,٩	١٦,٦	٢٢,٢	٢٥	٢٣,٦	١٨,٨	١٢,٦	٣,٣	-٣,١
٧٧١		م	٣٣	٢٨	٥٣	٦٤	١٠٣	١٢٠	٧٨	٩٣	٧٣	٥٢	٤٥	٢٩
١٧,٢	سان دييغو	ح	١٣,١	١٣,٧	١٤,٧	١٦,١	١٧.٥	١٨,٧	٢٠,٩	٢١,٥	٢٠,٨	١٨,٧	١٦,٣	١٤.٢
٢٦٤		م	٥١	٥٥	٤٠	٢٠	٤	١	—	٢	٤	١٢	٢٣	٥٢
٢٠	نيواورليان	ح	١٢,٣	١٣,٤	١٥,٨	١٤,٤	٢٣,٣	٢٦,٤	٢٧,٣	٢٧,٤	٢٥,٤	٢١,١	١٥,٣	١٢,٧
١٣٧١		م	٩٨	١٠١	١٣٦	١١٦	١١١	١١٣	١٧١	١٢٦	١٢٨	٧٢	٨٥	١٠٤

ح = حرارة م = مطر

مقاييس أمريكية

١ فدان	= ٠,٤ كم٢
١ ميل	= ١,٦ كم
ميل مربع	= ٢,٥٨ كم٢
غالون أمريكي	= ٣,٧ ليترات
صاع قمح	= ٢٧ كغم
صاع ذرة صفراء	= ٢٥ كغم
طن قصير	= ٩٠٧ كغم
برميل نفط	= ٤٢ غالون أمريكي أو ١٥٨,٩ ليترات

البيئة والقسر المناخي الأمريكي

لا تـزال نطـاقـات الغطـاء النبـاتي الطبيعي الكبرى تستر رقعـاً واسعــة ، ظلّت ، ولمدة طويلة ، تترك انطباعـاً عن الاتسـاع وعن الغنى . أمـا في المنـاطق التي تكون أكثر مواءمة للمؤسسات البشرية ، فقـد تم القضـاء على الغطـاء النبـاتي بـواسطـة فـأس ونيران معمّري الأراضي . ومـع هـذا علينـا أيضـاً أن نـأخـذ بعين الاعتبـار ، تطرف المنـاخ الـذي يفرض العـديـد من أشكال القسر على الإنسـان . وتفسّر تأثيرات هذه العوامل المتناقضة ، المنظر الحالي للمشاهد الطبيعية .

ولكن لا تزال هناك نطاقات منـاخيـة طبيعيـة ، أو لم يظهر عليهـا تأثير الإنسان كثيراً :

التوندرا : وتكون الأرض متجمّدة هنا أبـديـاً بـالعمق . وينكمش النبـات على شكل حزازيات وطحالب وأشجار قزمية .

الغابات : لم تعد الأشجار الكبرى في الغابة الباسفيكية ماثلة إلاّ في كنـدا ، كما أن أواخر أشجار السيكويا تحاط بعناية فائقة وحماية وكأنها أوابد تاريخية . غير أن الغابة الشمالية لا تزال تشغل مساحات شاسعـة في كنـدا . أمـا في الشرق فـإن الأشجار النفضية مثل شجر القيقب الكندي تختلط مع الراتنجيات .

وتؤلف **سهب الصبّـاريـات** أو ذات **دغيلات الشيح** بهجـة جنوب غرب الولايات المتحدة وتكون هنا متوائمة مع قحولة المناخ .

أمـا **المنـاطق التي أخضعت للزراعـة** ، فلم تكفّ عن التوسع منـذ قـدوم الأوروبيين ، وذلك في المناطق التي تكون التربة والمناخ فيها أكثر مواءمة .

فالغابة الأطلنطية ذات الأوراق الساقطة ، لم تعد موجودة إطلاقـاً إلا في

جنوب كندا . أما في الولايات المتحدة فقد تلاشت أمام الأراضي المحروثة والتي استفادت من الترب الرمادية الجيدة النوع .

وكانت **المروج** تحتل مناطق أكثر جفافاً . وكانت تربها المتنوعة والتي كانت أحياناً من النوعية الممتازة ، لا تطرح أمام إخضاعها للزراعة أية مشكلة . بيد أن هذه الترب كانت أحياناً سريعة العطب أمام ظاهرة الانجراف .

وتتراجع **مستنقعات** النطاق شبه المداري ، كما في فلوريدا ودلتا الميسيسبي وساحل الخليج بسرعة أمام الاستغلال الحالي ، كمزارع الفراسكين « الكريفون » Grapefruit والتصنيع والسياحة .

غير أن **القسر المناخي** عمل على تحديد التوسع البشري وأوجد حدوداً للمعمور :

فالبرد يمنع أي نشاط زراعي في الجبال الصخرية « الروشوز » وعلى القسم الأعظم من الأراضي الكندية حيث تكون التربة جافة ومتجمدة شتاءً .

كما **أن الجفاف** ، وذلك في المناطق التي تنال أقل من ٤٠٠ مم من المطر في العام ، في ولايات الجنوب الغربي مثل آريزونا والمكسيك الجديدة ، يكون عائقاً أمام أي نشاط زراعي باستثناء المناطق الخاضعة للري .

وتجعل **التقلبات المناخية** ، كمخاطر البرد الشديد ، والتهطالات المتفاوتة بين عام وآخر ، تجعل من الزراعة ممارسة غير مضمونة وذلك على مساحات واسعة ، واقعة غرب خط الطول ١٠٠ أو « خط الكوارث » ، هذا كما لا تنجو ولايات الجنوب من موجات برد تدمّر حقول القطن .

وقد أعطت أشكال القسر المناخي هذه ، شعور **التحدّي** الذي تقيه الطبيعة في وجوههم ، وتفسّر ما يمكن أن تكون عليه النفسية الرائدة . وعلى كل فإن المساحة المزروعة تظل واسعة جداً ، بحيث تستطيع أن تؤمن غذاء ٤٠٠ مليون نسمة دون صعوبة تذكر شكل (٣) .

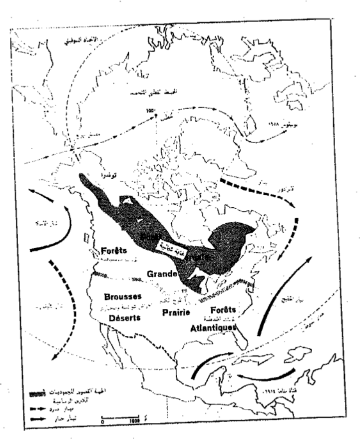
مشكلات المياه

أ ـ موارد غير كافية

ب ـ مخاطر فيضانات كارثية أو خطيرة

جـ ـ عدم انتظام الموارد

هذا ويؤلف العنف أكثر السمات بروزاً في البيئة الطبيعية الأمريكية . وتظهر الوثائق الخرائطية أن منطقة ما قد تتعرض للجفاف ، وللفيضانات ، وللبرد ، ولعدم انتظام مقادير المطر . وتمر السيطرة على المجال الزراعي من خلال استخدام تقنيات متخصّصة كالري والصرف والحراثة حسب خطوط التسوية (كنتورية) والزراعة الجافة dry farming ، ولا سيما اصطفاء الأنواع النباتية المتوائمة ، مثل قمح مانيتوبا الربيعي ، وتطرح قساوة برد الشتاء أيضاً مشكلات خطيرة أمام المواصلات والتدفئة المنزلية .



الشكل (٣)

أمريكا الشمالية : الموقع والمشاهد الطبيعية

الإعمار السكاني : بلد استقبال المهاجرين

في خلال ٤٠٠ سنة أصبحت هذه القارة شبه الخالية ، أكثر بؤر العالم قوة . فقد وفد إليها الناس على شكل موجات متعاقبة ضمن حركة فضفاضة بسيطة .

الهنود الحمر والأسكيمو : وهم الأمريكيون الأصليون الذين قدموا من آسيا منذ ٤٠٠٠٠ عام . ولما كانوا عبارة عن قنّاصين وصيادي أسماك ، فقد كانوا بحاجة لمساحات شاسعة . بيد أن هذه المجموعات القليلة العدد سرعان ما تعرضت للغمر العددي ، ولقوة الوافدين الجدد وكذلك بسبب تلاشي نمط حياتهم . ولا يعيشون الآن إلاّ على شكل أقليات ، محصورة غالباً ضمن « محتجزات » خاصة .

عصر المعمّرين : لقد بدأ قدوم الأوروبيين ابتداءً من القرن السادس عشر ، فوصل الفرنسيون إلى لويزيانا وإلى ضفاف نهر السان لوران ، والإسبان إلى فلوريدا ونحو الجنوب ، في حين استوطن الهولنديون والإنكليز الساحل الشرقي . ولما كان هؤلاء الآخرون أفضل مساندة من قبل حكوماتهم فقد استطاعوا التخلص من منافسيهم ولا سيا من فرنسيي كندا ، الذين تخلت عنهم حكومتهم في سنة ١٧٦٣ . أما المستعمرة الإنكليزية فقد استقبلت جماعات مختلفة جداً من حيث عقليتها وآرائها ، وعلى غرار ما فعله آباء مايفلوور[1] الحجاج ، في ١٦٢٠ ، فقد حملت هذه الجماعات الصغيرة ، المبعثرة ، والمتمسكة بإيمانها ، حملت معها مثالية الحرية . ولكن مما يثير الاستغراب ، هو أن بعض هؤلاء هم الذين استقدموا

(١) Mayflower (أو زهرة أيار أو الزعرور) هو اسم سفينة انطلقت من بلايموث في ٦ أيلول ١٦٢٠ ، وحملت إلى أمريكا المعمرين أو « الحجّاج » الذين أسّسوا أول مدينة في ولاية إنكلترا الجديدة ، وهي نيوبلايموث (٢١ / ١٢ / ١٦٢٠) وكتبوا قبل نزولهم إلى البر ما يسمى Convenant أو أول دستور أمريكي .

الرقيق الأسود في القرن السابع عشر إلى مزارع التبغ والقطن التي كانت تزدهر وتتوسع في الجنوب .

عصر المهاجرين : منذ ١٨٢٠ وحتى أيامنا هذه دخل الولايات المتحدة أكثر من ٤٥ مليون منهم ٥ملايين من كندا . فبعد أن قذفتهم أوروبا العاجزة عن توفير فرص العمل ، والغذاء ، والكرامة لهؤلاء ، فقد راحوا يبحثون عن الأراضي ، وعن الأجور الأكثر ارتفاعاً ، عن كيان المواطن . وكان معظمهم من اللاجئين السياسيين ومن فلاحين بلا أرض ، أو من حرفيين ممن قضت الآلة على مصادر رزقهم .

وهكذا اندفعوا في رحلة عسيرة دون أمل في العودة على شكل ثلاث موجات متعاقبة من المهاجرين :

- ١٨٥٠ قدم الإيرلنديون الذين اجتاحتهم المجاعة الناجمة عن أزمة البطاطا ، والإيقوسيون ومن سكان بلاد الغال في جنوب غرب بريطانيا .

- ١٨٦٥ - ١٨٩٠ وفد الإنكليز والألمان والاسكندينافيون .

- ١٩٠٠ - ١٩١٠ جاءت أقوام من أوروبا الجنوبية كالطليان ، ومن أوروبا الشرقية ، كالروس والبولونيين والمجريين . وكان بين هؤلاء حوالي مليوني يهودي من الذين هربوا من المذابح في روسيا أو Pogroms .

عصر الحصص : وفي عصر مبكر ظهرت أشكال تمييز صحي أو عرقي ، كالآسيويين ، وهكذا عمد الجمهوريون في الولايات المتحدة عام ١٩٢٠ ، إلى تحديد الهجرة متخذين أساساً لذلك التوزع النسبي للوافدين الجدد ، وحسب الوضع القائم في ١٨٩٠ (قانون الكوتا) . وزاد تقليص عدد المهاجرين بسبب أزمة عام ١٩٢٩ الاقتصادية وبسبب الحرب .

وفي الوقت الحاضر يدخل إلى الولايات المتحدة سنوياً ما بين ٣٠٠ ٠٠٠ و ٤٠٠ ٠٠٠ مهاجر ، ولكن يجب أن ندخل بالحسبان الهجرة غير الشرعية القادمة من المكسيك . أما كندا فهي أكثر انفتاحاً ، ولكنها لا تكون أحياناً أكثر من نقطة عبور إلى الولايات المتحدة . ومنذ ١٩٦٥ جاء التشريع الجديد في الولايات المتحدة ، والذي يشجع على الخصوص دخول العمال المختصّين المؤهلين .

☆ ☆ ☆

قدماء المهاجرين والجدد : أخذت المكائن البخارية في التحسّن والإحكام ، يوماً بعد يوم ، مما جعل شروط العمل لدى أصحاب المصانع الصغيرة متردّية بسرعة في بلدة دنفرملاين الإيقوسية . وبدأت فترة عسيرة بالنسبة لنا . وأخيراً قررنا كتابة رسالة إلى خالتيّ المقيمتين في بيتسبورغ في الولايات المتحدة لإعلامها عن عزمنا على اللحاق بها . وكان الجواب مشجعاً ، وقررنا بيع أثاثنا وأموالنا بالمزاد العلني وكان والدي ينشد :

To the west, to the west, to the land of free
where the mighty Missouri rolls the sea

عن ديل كارنيجي . السيرة الذاتية . بوسطن ١٩٢٠

وقد غادر كارنيجي إيقوسيا عام ١٨٤٨ وعمره ١٣ سنة

☆ ☆ ☆

لقد أصبح بلدي . محظوراً عليّ . أما إنكلترا فهي بالنسبة لي أرض أجنبية . إذن إلى أين الذهاب ؟ قلت لنفسي إلى أمريكا . فهناك سأجد المثل الأعلى الذي أحلم به والذي من أجله ناضلت ، إنه عالم جديد ، عالم حر ، عالم مليء بالأفكار وبالأهداف الرائعة .

ك . شوتز . نيويورك ١٩٠٧

وشوتز هو ثوري ألماني في ١٨٤٨ وهاجر إلى الولايات المتحدة

في سنة ١٨٥٢ .

☆ ☆ ☆

إن اتساع مدى تدفق المهاجرين المكسيكيين يسبب القلق للسلطات الأمريكية . وقد خصصت مجلة « أخبار الولايات المتحدة » مجالاً فسيحاً للكلام عن السكان « التهريب » الحاليين . والذين يتراوح عددهم بين ٣ و ١٢ مليون نسمة ، ويؤلف المكسيكيون ٦٠٪ منهم . ويبدو أن رقم ٥ ملايين مقبول عموماً ، وتقدر المجلة أن المهاجرين غير المسجلين يبلغون ٨٠٠٠٠٠ مهاجراً أكثرهم مكسيكيون ، دخلوا الولايات المتحدة عام ١٩٧٨ . وتبدو أوضاعهم المعاشية ، إلا فيا ندر ، مثيرة للرثاء ، فهم يعيشون في خوف دائم من الإبعاد ، ومن البطالة ومن الوشاية بهم إلى السلطات الحكومية .

عن دومينيك دومبر . جريدة لموند

١٦ / ٤ / ١٩٧٩

☆ ☆ ☆

توزع المهاجرين في الوقت الحاضر ونسبتهم المئوية في كل ولاية

بعض الأمثلة :

ماين	١٤٪ من كندا	كاليفورنيا	٦٪ من المكسيك
رود آيلند	٧,٧٪ من إيطاليا	أريزونا	٦,٧٪ من المكسيك
	٧٪ من كندا	فلوريدا	٧٪ من كوبا
	٣,٦٪ من المملكة المتحدة	داكوتا الشمالية	٦,٣٪ من النروج
نيويورك	٧,٣٪ من إيطاليا		٥,٣٪ من الاتحاد السوفيتي
	٣,١٪ من الاتحاد السوفيتي		٣,٤٪ من ألمانيا
	٣,١٪ من بولونيا	ميشيغان	٤٪ من كندا
نبراسكا	٤,٢٪ من ألمانيا	مونتانا	٣٪ من كندا
	١,٣٪ من تشيكوسلوفاكيا	واشنطن	٤٪ من كندا
	١,٢٪ من السويد	هاواي	١٤٪ من اليابان
تكساس	٦,٩٪ من المكسيك		٣٪ من الصين

☆ ☆ ☆

الحدود : تكوين رقعة أرضية

لاتعني كلمة حدود لدى الأمريكان تخماً بين قطرين ، بل هامشاً طلائعياً . فمن الممكن متابعة **تنقلات الهامش الطلائعي الأمريكي** على الخارطة . فقد كان التقدم بطيئاً حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كما أن حدود « الغرب القديم » لم تكن تتجاوز السفح الغربي من جبال الآبالاش في عصر (داڤي كروكّت) . وابتداءً من عام ١٨١٢ ، انقطعت كل العلاقات مع أوروبا ، أصبحت الحركة أكثر سرعة نظراً إلى أن وادي المسيسبي والمروج « البراري » تقدم تسهيلات أكبر أمام المواصلات . ومنذ ١٨٨٠ حصل تقدم مزدوج قادم من سواحل الأطلنطي ومن ساحل الباسفيكي ، وعلى الأخص من كاليفورنيا ، تمخضت عن احتلال كل رقعة الولايات المتحدة الحالية : تلك هي نهاية الحدود وخاتمة مغامرة كبيرة . أما في كندا فقد كانت الحركة أكثر تأخراً ، ولاتزال حتى الآن مستمرة في زحفها نحو الشمال .

وقد كانت أسباب هذا التوسع عديدة :

ـ **أسباب اقتصادية** : ففيما عدا الأزمات الاقتصادية والضغط الديموغرافي الأوروبي ، كان الافتقار إلى الأراضي الخصيبة في الشرق سبباً في نزوح المزارعين الشبان ، كما أدى اكتشاف مناجم الذهب والفضة ؛ إلى حصول هجمات كما حدث في عام ١٨٤٨ في كاليفورنيا ، وأخيراً فإن استغلال أراضي جديدة وإعمارها كان عبارة عن صفقة ممتازة بالنسبة للمصارف ولشركات الخطوط الحديدية .

ـ **أسباب سياسية** : وقد كانت هامة جداً لدى الولايات المتحدة مع ظهور

فكرة « أمريكا للأمريكيين » والرغبة في تنظيم الاستمرارية الإدارية والسياسية من ساحل لآخر . وجاء قانون هومستيد Homestead Act في عام ١٨٦٢ ، كي يسارع في عملية الاستغلال الزراعي والذي كان ينص على منح ٧٥ هكتاراً بالمجان لمن يقوم باستغلالها مدة خمسة أعوام متواصلة .

ـ **أسباب عقائدية** : هناك الكثيرون الذين رأوا في الغرب أرضاً جديدة ، حيث كان من الممكن للإنسان أن يعيش فيها على هواه . كما كان ذلك أيضاً أرض حرية للمغامرين . وأخيراً عملت طائفة المورمون Mormons[1] من الغرب أرض ميعاد . وجعلوا من مدينة سولت ليك سيتي عاصمة لهم ولا زالت .

ويفسّر هذا التنوع في الدوافع شدة **تنوع الجبهات الطلائعية** : من جبهة زراعية مثل انفتاح أوكلاهوما في ١٨٨٩ ، وتعدينية كالهجات نحو الذهب في كاليفورنيا أو الكولورادو ، وغابيّة في كندا ، وعسكرية في التكساس ، وقلعة آلامو في ١٨٣٦ . وقد تدخل أشخاص مختلفون في الملحمة الأمريكية كالحطّاب الكندي ، والمزارع ، والباحث عن الذهب ، وحتى قاطع الطريق ورجل القانون . وكانوا جميعاً في معركة مع « الهندي الخبيث » الذي لم يرد اعتباره إلا في وقت متأخر جداً .

وقد كان دور طرق المواصلات أساسياً : فقد استخدمت الأنهار مثل سان لوران والميسيسبي في وقت مبكر جداً ، ثم تكاملت بالقنوات . أما في الغرب فقد كانت العربات والدروب هي الوسيلة الأولى مثل Pony Express ، ودرب

(١) لقد ظهر مذهب المورمون في ١٨٣٠ في الولايات المتحدة ، على يد جوزيف سميث ، الذي نشر كتاباً منسوباً إلى نبي يهودي يحمل اسم مورمون « كتاب مورمون » ، باعتباره كتاباً سماوياً ، وكان ينسب الهنود الحمر لأصل يهودي . وتكون العقيدة المورمونية مزيجاً قريباً من عناصر بوذية ، غنوصية ، وإسلامية ونصرانية . وبعد أن اغتيل في ١٨٤٤ ، خلفه بريغهام يونغ ، الذي أسس مستعمرة على ضفة البحيرة الكبرى المالحة . وهذه المستعمرة التي اتخذت اسم أوتا تحولت إلى ولاية في عام ١٨٤٩ ، ومات يونغ في ١٨٧٧ وتلاشت من بعده نهضة هذه الحركة ، وصدر مرسوم في ١٨٩٠ يمنع تعدد الزوجات على أعضاء هذا المذهب .

سانتافيه ، ثم دعمتها وحلت الخطوط الحديدية مكانها ولاسيا خط Union Pacific و Canadian Pacific إلخ .

كما لعبت **فكرة الحدود** دوراً جوهرياً في تكوين العاطفة القومية الأمريكية . ويعتبر الكثيرون تلك الفترة نوعاً من العصر الذهبي ، متناسين مدى قساوة تلك الحقبة ، ويردد العديد من رؤساء أمريكا في خطبهم . « روح الحدود » هذه .

☆ ☆ ☆

حقيقة كوخ مهاجر نروجي في ١٨٣٨ : « يجب أن نضيف إلى كل تلك المحن مشكلة الكوخ المفتوح لكل الرياح ، إذ لا يمكن أن يجد الإنسان فيه الدفء والعزاء ، إلا بالالتصاق بالنار . وليس هذا الكوخ أكثر من ملتقى لتيارات الرياح . ومع هذا يجد الإنسان نفسه سعيداً عندما يعثر على سقف في هذه المنطقة الخالية من البشر . فقد بنى كل منا كوخه بنفسه وقدر استطاعته ، مستعيناً بالبلطة وعلى العموم دون نوافذ .

ت . بليغن : أرض اختاروها مطابع جامعة مينسوتا : ١٩٥٥

العصر الذهبي : الغرب : كما يظهر في كتاب وزعته دوائر الإعلام الأمريكية في عام ١٩٥٣ :

كلما ازداد التقدم في هذه المناطق التي كانت في حالة وحشية ، يتحوّل المعمّر إلى مزارع وصياد في الوقت ذاته . وعوضاً عن الكوخ البسيط فقد راح يبني بيتاً بديعاً من جذوع الأشجار مع نوافذ وزجاج ، ومدخنة جيدة ، وغرف منفصلة عن بعضها بعضاً . وحفر بئراً بدلاً من أن يعتمد على النبع . وجاء الأطباء بعد المزارعين ، ثم التجار والمحامون والمبشرون ، أي كل الذين كانت الحاجة ماسة إليهم لبناء هيكل اجتماعي صلب . ومن هذا الشعب ينحدر أبراهام لنكولن الذي ولد في كوخ من جذوع الشجر في ولاية كنتوكي .

مخطط تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية

الحدود الجديدة : أقول لكم إننا أمام حدود جديدة سواء أردنا ذلك أم لا . ففيما وراء الحدود تمتد مجالات بكر لم تكتشف بعد هي مجال العلم والفضاء ، ومشكلات لم يتم حلها بعد ... وأعتقد أن عصرنا يتطلب العزم ، والتجديد ، والتصوّر والقرار . أطلب منكم أن تكونوا الرواد الجدد ، أمام الحدود الجديدة .

الرئيس جون كنيدي تموز ١٩٦٠



الولايات المتحدة

تلعب أمريكا الشمالية وخاصة الولايات المتحدة ؛ دوراً متزايد الأهمية منذ مطلع القرن الحالي في الحياة الاقتصادية العالمية .

ففي خلال (٧٥) عاماً استطاعت الولايات المتحدة أن تؤكد سبقها وتفوقها في مضمار الإنتاج والعلم والتقنية . وكان دورها خلال الحربين العالميتين وخاصة خلال الثانية أروع برهان على ذلك .

وتؤلف سعة أراضيها ، ووفرة وتنوع مواردها ، وشعبها « الديناميكي » العناصر الأساسية في ازدهارها وفي قوتها . وتشتمل الولايات المتحدة على مناطق واسعة جداً سبق أن فتحها واستعمرها الإنكليز والهولنديون والفرنسيون والإسبان . فبعد أن كانت مقتصرة على (١٣) ولاية بريطانية ، أعلنت استقلالها في ١٧٧٦ ثم ضمت إليها تدريجياً مناطق شاسعة :

١ ـ المنطقة الواقعة بين جبال الأبالاش والبحيرات الكبرى والمسيسبي وقد تخلت عنها بريطانيا في عام ١٧٨٣ .

٢ ـ لويزيانا التي باعتها فرنسا عام ١٨٠٣ مع كل المناطق الواقعة بين المسيسبي والروشور .

٣ ـ فلوريدا التي تخلت عنها إسبانيا في سنة ١٨١٩ .

٤ ـ المناطق الشمالية الغربية الباسفيكية ، وحصلت عليها الولايات المتحدة عندما اعتبرت بريطانيا خط العرض (٤٩) كحد جنوبي لكندا .

٥ ـ المناطق الممتدة من المكسيك حتى المحيط الباسفيكي (تكساس ، المكسيك الجديدة وكاليفورنيا) ، التي انتزعتها من المكسيك بعد حرب (١٨٤٦ و ١٨٤٨) ، فاضطرت المكسيك أن تقلص حدودها حتى نهر ريوغرانده .

٦ ـ آلاسكا وقد اشترتها من روسيا عام ١٨٦٧ .

وبعد أن تشكلت (١٣) ولاية ألفت الاتحاد عام ١٧٨٨ ، أضيفت إليها تدريجياً الأراضي الواقعة إلى الغرب من جبال الأبالاش ، بعد أن أعمرت بالسكان وقامت فيها ولايات جديدة . وهكذا نجد أن للولايات المتحدة الأميركية تنظيماً سياسياً اتحادياً (فيديرالياً) ، يضم خمسين ولاية ، لكل منها تشريعها ، وحكومتها ، وعاصمتها ، ومحافظة اتحادية (تدعى محافظة كولومبيا) حيث تقع العاصمة واشنطن ، وحيث يقوم الكونغرس المؤلف من مجلسين تشريعيين والمقر الرئيسي لرئيس البلاد .

الولايات المتحدة كقارة

تحتل الولايات المتحدة حوالي خمس مساحة أمريكا الشمالية أو (٩,٣) ملايين كم^2 مع آلاسكا ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مناطق كبرى .

آ ـ الآبالاش :

وهي جبال تمتد على مسافة (٢٥٠٠) كم من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ، أي من جزيرة الأرض الجديدة حتى جوار خليج المكسيك . ويعود تاريخها لآخر الزمن الأول ، مثل السلاسل الهرسينية الأوروبية ، وقد تعرضت للتسوية تماماً ، ولكنها نهضت من جديد في الزمن الثالث ، واستأنف الحت عمله فيها ، وترتصف سلاسلها حسب اتجاه الطيات القديمة المتوازية ، وتنتج عن بروز شرطان من الصخور القاسية والمفصولة عن بعضها بمنخفضات محفورة في الصخور الطرية .

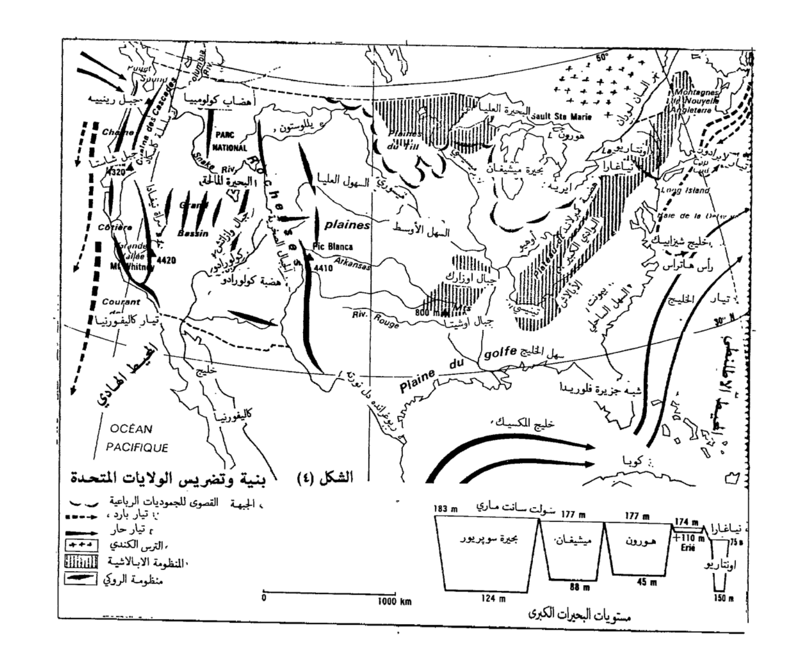
والتضريس الجبلي القديم الذي انبعث بفعل الحت ، أصبح شكلا تقليدياً نموذجياً تحت اسم التضريس الأبالاشي . ولا تؤلف جبال الأبالاش أكثر من عارض نسبي أمام المواصلات لأن ارتفاعها يندر أن يتجاوز (٢٠٠٠) م . كما أن الأنهار التي تصب في الأطلسي أو ترفد نهر المسيسيبي استطاعت أن تحفر وديانـاً عميقة عرضانية تسمح باجتياز السلسلة الجبلية بسهولة ، كما أن هناك سلسلة من المنخفضات الطولانية التي استخدمها أوائل الأميركان أثناء توسعهم نحو خليج المكسيك . وإلى الشرق من جبال الأبالاش نجد سهلاً ساحلياً يبدأ من جنوب نيويورك ويتسع باتجاه الجنوب حتى خليج المكسيك (شكل ٤) .

ب ـ السهل الأوسط :

ويتألف من صخور رسوبية تراكمت فيه ، ابتداء من الدور الثاني حتى الآن . ويحتوي هذا السهل على جانبي نهر المسيسيبي سهلاً ضيقاً نسبياً بالشرق ، وسهلاً أكثر سعة بكثير في الغرب ، يصعد على شكل درجات عريضة متعاقبة كي يصل إلى ارتفاع ١٨٠٠ م عند أقدام جبال الروشوز . واستطاعت الأنهار التي تأتي من هذا السهل أن تحفر أخاديد عميقة وعريضة متوازية وأن تؤلف بالتعاون مع نهر المسيسيبي ، عند خليج المكسيك ، سهلاً لحقياً واسعاً جداً استطاع أن يربط شبه جزيرة فلوريدا الكلسية بالقارة . وإلى الغرب من النهر تظهر جبال أوزارك ذات الصخور الأولية ، على شكل هضبة متفاوتة التضاريس المتراوحة بين (٧٠٠ و ٨٠٠) م ، وهي تشابه الكتلة المركزية في أواسط فرنسا .

جـ ـ الجبال الغربية :

وقد تشكلت بفعل سلسلة من الحركات التي تعاقبت منذ أواسط الدور الثاني حتى نهاية الدور الثالث . وكل المظاهر تشهد هنا على أهمية الحركات الشاقولية والبركنة ، لأن أعلى القمم هي عبارة عن مخاريط بركانية ، كما تغطي أغشية


جبل رينييه
هضاب كولومبيا
Columbia Riv.
Chaîne des Cascades
سلسلة كاسكاد
جبل شاستا
4320
PARC NATIONAL
Snake Riv.
البحيرة المالحة
Grand Bassin
جبال وازاتش
كولورادو
هضبة كولورادو
Côtière
Grande Vallée
Mt Whitney
4420
Courant
تيار كاليفورنيا
المحيط الهادي
OCÉAN
PACIFIQUE
يللوستون
السهول العليا
plaines
Pic Blanca
4410
Arkansas
Riv. Rouge
ميسوري
السهل الأوسط
Plaines du Till
البحيرة العليا
Sault Ste Marie
هورون
بحيرة ميشيغان
اونتاريو
نياغارا
ايريه
أوهيو
الوادي الكبير
الأبالاش
جبال اوزارك
800 m
جبال اوشيتا
تينيسي
السهل الساحلي
Montagnes de la Nouvelle Angleterre
Long Island
خليج شيزابيك
رأس هاتراس
تيار الخليج
30° N
50°
Plaine du golfe
سهل الخليج
ريوغرانده دل نورته
خليج كاليفورنيا
شبه جزيرة فلوريدا
خليج المكسيك
كوبا
المحيط الأطلنطي
الشكل (٤)
بنية وتضاريس الولايات المتحدة
الجبهة القصوى للجموديات الرباعية
تيار بارد
تيار حار
الترس الكندي
المنظومة الابالاشية
منظومة الروكي
0
1000 km
183 m
سولت سانت ماري
177 m
177 m
174 m
بحيرة سوپريور
ميشيغان
هورون
+110 m
Erié
نياغارا
75 m
اونتاريو
124 m
88 m
45 m
150 m
مستويات البحيرات الكبرى

اللابات الكثير من الهضاب . وتبدو النافورات الحارة إحدى عجائب البارك الوطني في يلّلستون (شكل ٥) وتشابه هذه الجبال المتكتلة في آسيا الوسطى أكثر من شبهها للقوس الألبي . وتتألف من ثلاث حزم من السلاسل تطيف بهضاب عالية أو بحوضات داخلية .



الشكل ٥

خانق نهر يللوستون (الولايات المتحدة ، المنتزه الوطني) عن ديمارتون

ففي آلاسكا تنتشر الجبال على شكل مروحة ، وتبلغ ارتفاعات شديدة جداً مثل جبل القديس إيليا (٥٤٨٦) م ، على حافة الباسفيكي وجبل ماك كينلي وارتفاعه (٦١٨٧) م ، حيث تثقب الاندفاعات البركانية المنطلقة من قمته الإطار المحيط به والمؤلف من درع من الجليد والثلوج .

أما في الولايات المتحدة فإن المنظومة الجبلية تأخذ أكبر اتساع لها ، فعلى مسافة تبلغ (١٥٠٠) كم من الشرق إلى الغرب نجد أربع سلاسل :

آ ـ الروشوز الرئيسية وفيها جبل هارفارد (٤٣٨٣) م .

ب ـ جبال وازاتش الممتدة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .

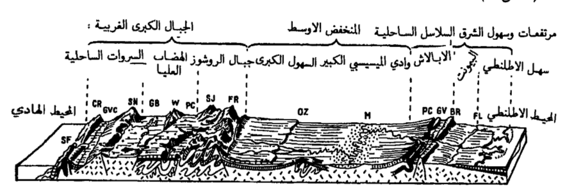
جـ ـ سلسلة الكاسكاد وهي عبارة عن تعاقب براكين جسيمة خامدة مثل جبل رينيه (٤٣٧٧) م ، شاستا (٤٣٨٣) م ، وتتمدد جنوباً بجبال سييرا نيفادا (شكل ٦) التي يسمو فيها جبل ويذني وارتفاعه (٤٤١٩) م .



الشكل ٦

مجسم لجزء من جبال سييرا نيفادا في كاليفورنيا

ونجد بالداخل حجرات واسعة قد نهضت بالماضي إلى ارتفاع يزيد عن (٢٠٠٠) م ، وتظهر على شكل هضاب أفقية تقريباً مثل هضبة الكولورادو ، التي يحفر فيها نهر كولورادو خانقاً رائعاً عمقه (١٨٠٠) م على مسافة (٣٠٠) كم طولاً ، أو على شكل أحواض تتعاقب فيها سلاسل جانحة (مثل الحوض الكبير) . بينما انهارت حجرات أخرى على شكل منخفضات مثل وادي كاليفورنيا الكبير أو على شكل حفر دون مستوى سطح البحر كما في وادي الموت (شكل ٧) .

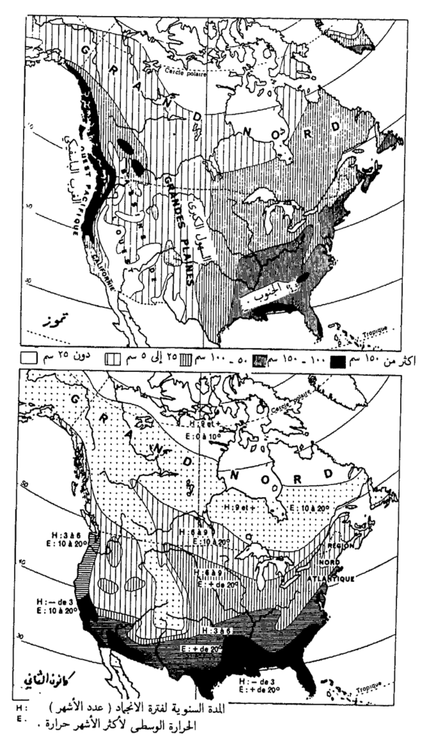


الشكل ٧ تضريس أمريكا الشمالية . مقطع من الشرق للغرب

الشرائط المناخية العامة

إن الشكل المتكتل للولايات المتحدة ؛ يفرض عليها **قساوة المناخ القاري** مع حدوده القصوى الحرورية وأمطاره العاصفية القليلة العدد ، ولكنها عنيفة . كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار مفعول **مراكز العمل الجوي** الكبرى ، الواقعة فوق المحيطات ، ففي الشتاء تتقدم الضغوط المنخفضة شبه القطبية نحو الجنوب في حين تتقهقر الضغوط المدارية الشديدة . أما فوق القارة المتبردة فيتشكل مركز ضغوط قوية تنطلق منه رياح شمالية غربية جافة وباردة تهب على المنطقة الأطلنطية ، وتبعث أحياناً طليعة لها حتى خليج المكسيك تدعى موجات البرد Cold Waves . أما على السفح الباسفيكي فيحدث العكس ، إذ تأتي من الجنوب الغربي رياح بحرية دفيئة ورطيبة . أما في الصيف فإن مراكز الضغط الشديد شبه المدارية تمدد باتجاه الشمال ، في حين تظهر ضغوط خفيفة واضحة في داخل القارة المتسخنة ، فتهب على الشرق من البلاد رياح مدارية قادمة من الجنوب الشرقي ، وتكون حارة ورطبة ، بينما يتمتع غرب البلاد برياح قادمة من الشمال الغربي ، منعشة . وهكذا نجد هنا التضاد المناخي ذاته الملحوظ في العالم القديم ، أي في آسيا ، إذ تجنح العوامل الملطفة للمناخ نحو التفوق على الواجهة الغربية للقارة ، بينما تتفوق المؤثرات المناخية القارية على الواجهة الشرقية (شكل ٨) .

وتزيد **التيارات البحرية** شدة هذا التضاد بين الواجهتين ، فنجد في المحيط الأطلنطي تيار الخليج (Gulf Stream) الحار بالجنوب ، كما نلاحظ تيار لابرادور بالشمال . أما في الباسفيكي فهناك تيار يؤدي إلى تسخن سواحل كندا وآلاسكا وتيار بارد يحاذي ساحل كاليفورنيا .



الشكل ٨

التهطالات والحرارة في أمريكا الشمالية

بيد أن مؤثرات الباسفيكي الملطفة ، تتوقف فوراً بفعل **التضاريس** الناتجة عن السلاسل الغربية المرتفعة . فبعد السفوح الغربية الممطرة والمستورة بغابات رائعة ؛ تأتي وبسرعة بعدها ، باتجاه الداخل ، هضاب شديدة الجفاف تتحول جنوباً إلى صحارى حقيقية مع نباتات متباعدة شوكية من نوع الصبّاريات الضخمة . ولا تستطيع السهول الشرقية المفتوحة الصدر للشمال أن تصد زحف المؤثرات القطبية باتجاه الجنوب بالشتاء ، أو اندفاع المؤثرات المدارية خلال الصيف . وبفعل هذين الاجتياحين المتناوبين يتضاءلّ النطاق المعتدل إلى حده الأدنى .

المناخات

نجد في الغرب مناخات تشابه أوروبا الغربية ، ولكن مجالها ينحصر في شريط ساحلي ضيق ، فنجد المناخ النروجي في آلاسكا ، والمناخ الرومي أو المتوسطي في كاليفورنيا .

وفي الشرق يمتد على رقعة (٢٠٠٠) كم من الشمال للجنوب مناخ معتدل ولكنه قاري موائم لقيام الغابة والمراعي ، فمدينة نيو يورك الواقعة على درجة عرض نابولي ، تتعرض لفصول شتاء أشد قسوة من شتاء برلين ، وإلى عواصف ثلجية أكثر عنفاً من موسكو ، وإلى فصول صيف أشد حرارة من صيف مدينة الجزائر ؛ مع موجات حر أكثر ثقلاً من التي تحدث في دكار بالسنغال .

وتكون كل المنطقة الجنوبية الشرقية شبه مدارية . فنحو الغرب تنحط هذه المناخات تدريجياً فتصبح درجات الحرارة شاذة إذ تهبط الحرارة في فينيبيغ بالشتاء إلى مستويات سيبيرية (– ٢٠°) ، وتندر الأمطار وتتخلى الغابة عن مكانها للمروج ، وبعدئذ إلى الصحارى الحقيقية بجوار جبال الروشوز (الروكي) .

البحيرات والأنهار

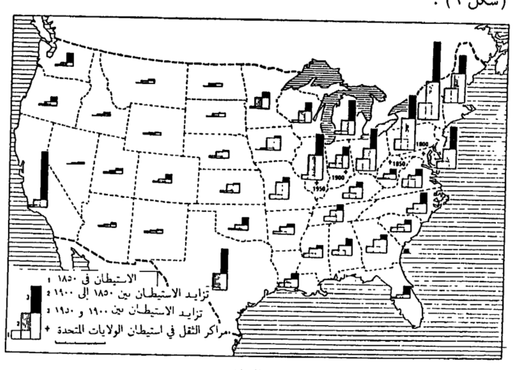
يضم السهل الأوسط أهم البحيرات والأنهار ، فتشكل **البحيرات الخمس الكبرى** في قلب أميركا الشمالية بحراً داخلياً حقيقياً مساحته (٢٥٠٠٠٠) كم٢ ، أو ما يعادل مساحة سورية والأردن . ويؤدي وجود شلالين هامين ناتجين عن بروز صخور قاسية بفعل الحت الجمودي الرباعي ؛ إلى تجزئة مياه البحيرات إلى ثلاثة مستويات ، فنجد شلالات سولت سانت ماري بين البحيرة العليا وهورون ، وشلالات نياغارا بين بحيرتي ايريه وأونتاريو . وبعد أن أصبحت الأقنية تتحاشى الشلالات ، أضحت البحيرات الكبرى تؤلف على مسافة (١٥٠٠) كم من الغرب للشرق ؛ طريقاً ملاحياً داخلياً رائعاً ينفتح على المحيط الأطلسي بواسطة نهر السان لوران . والمأخذ الوحيد عليه هو تجمده خلال الفترة الواقعة بين منتصف كانون الأول حتى أواسط نيسان .

ويقوم نهر **الميسيسيبي** بتصريف مياه كل المنطقة الوسطى بين الأبالاش والروشوز . ويبلغ طوله لوحده (٤٠٠٠) كم ولكنه يتمدد برافد نهر الميسوري ، فيؤلف طريقاً نهرياً لا مثيل له بالعالم من حيث الطول (٦٨٠٠) كم ، ويتغذى هذا النهر بالربيع من روافد تنحدر إليه من الروشوز ، مثل الميسوري وإركنساس والنهر الأحمر ، وفي الخريف يدعمه نهر الأوهيو وطوله (٢٠٨٠) كم والذي يعادل صبيبه صبيب الدانوب ، وبذلك يقذف نهر الميسيسيبي الغزير (٢٠٠٠٠) متر مكعب بالثانية أو أكثر من ٢٥ مرة من غزارة الفرات . وهو نهر سهلي ذو جريان بطيء فلا يؤلف بذلك طريقاً ملاحياً ممتازاً . ويتباطأ جريانه على شكل عقفات ضخمة وينتهي بدلتا غير مستقر . ويتعرض هذا النهر لفيضانات مخيفة بالربيع ، تنفرش على مسافة مئات الكيلو مترات بالسهل ، وذلك عندما تتضخم مياه نهر الأوهيو فجأة بتأثير الأمطار العاصفية الهاطلة فوق الأبالاش ، بالإضافة إلى موجة مياه عارمة تقدمها في الوقت نفسه أنهار الغرب .

الزحف نحو الغرب

في مطلع القرن التـاسع عشر كان معظم سكان أمريكا الشماليـة متمركزين في وادي الســان لوران وفي النطــاق الســاحلي الأطلسي . وفي وســط القرن العشرين ظلت هـذه المنـاطق أكثر منـاطق الولايـات المتحـدة سكانـاً ، ولكن كان السكان يتكاثرون في الوسط وفي الغرب بسرعة أكبر .

ويميز الزحف نحو الغرب الاستيطان الأميركي منـذ (١٧٠) عـامـاً ، ذاك أن ملايين المهـاجرين تحولوا إلى رواد بفضل تمـديدالخطـوط الحـديـديـة ، فـاستغلـوا وأحيـوا مسـاحـات شـاسعـة في الغرب الأوســط ، أي منطقــة البحيرات الكبرى والميسيسيبي ، والغرب البعيـد Far West وحتى الجبـــال والنطـــاق البـــاسفيكي (شكل ٩) .



الشكل ٩

تزايد الاستيطان في الولايات المتحدة بين ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠

المدن الكبرى

يجنح عدد سكان المدن هنا نحو التفوق على عدد سكان الريف الذين لا يشكلون حالياً أكثر من ٨٪ من المجموع ، أو (٢٠) مليون ، ولكن كل مزارع أمريكي ينتج من الغذاء ما يكفي لأربعين شخصاً .

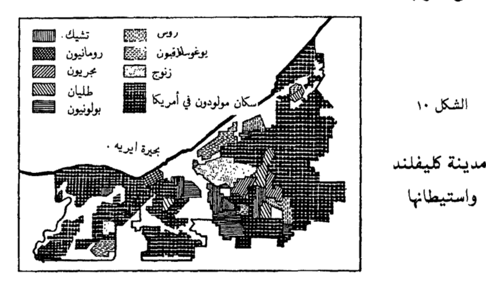
أما في المناطق الصناعية الكبرى أو مناطق التجارة الناشطة وخاصة حول البحيرات الكبرى ووادي السان لوران وفي النطاق الأطلسي وحتى على الساحل الباسفيكي فإن سكان المدن يتجاوزون ثلاثة أرباع مجموع السكان .

ويجتمع في المدن التي يزيد تعداد سكانها عن (١٠٠٠٠٠) نسمة ، أكثر من ربع سكان الولايات المتحدة . ويبلغ عدد هذه المدن في الولايات المتحدة حالياً (١٧٠) . وأصبحت بعض هذه المدن عبارة عن تجمعات هائلة من البشر مثل نيويورك التي تضم أكثر من (١٦,٧) مليون نسمة ، أي ما يعادل سكان العراق ولبنان معاً ، في حين يزيد عدد سكان محافظة نيويورك عن (١٩,٥) مليون أي ما يزيد عن عدد سكان كل شبه جزيرة العرب .

وهناك (٢٠) مدينة تتجاوز المليون وأهمها شيكاغو وفيها (٧,٦) ملايين نسمة ، وفيلادلفيا ٥,٦ ملايين وديترويت ٤,٧ ولوس انجلوس ويسكنها (١٠,٤) ملايين ، كيفلند ٣ ملايين (شكل ١٠) وسانت لويس ٢,٤ وبيتسبورغ ٢,٣ إلخ ، وتضم جميعاً أكثر من (٦٠) مليون أميركي وحوالي (٣٠) مدينة يزيد عدد سكان كل منها عن نصف مليون .

وكثير من هذه المدن لم تكن قبل قرن مضى أكثر من مدن صغيرة أو لم تكن قائمة أبداً . ففي ١٨٣٠ لم تكن شيكاغو تضم أكثر من بضعة بيوت ولكنها تجاوزت (١٠٠٠٠٠) عام ١٨٦٠ ، ووصلت إلى المليون عام ١٨٩٠ وإلى المليونين في ١٩١٠ ،

وتضم الآن مع ضواحيها أكثر من (٧) ملايين . لذلك يطلق الأميركان على مثل هذه المدن اسم المدن الفطور Villes Champignons أي تنمو بسرعة كنبات الفطور أو « عش الغراب » .



الشكل ١٠

مدينة كليفلند واستيطانها

وتقدم المدن الأميركية نموذج المدن الحديثة بشوارعها المتقاطعة بزوايا قائمة وبأحياء البساتين « غاردن سيتي » الواسعة على أطرافها وخاصة في أواسطها ، وبناطحات السحاب Skyline فيها ، وهي عبارة عن خلايا هائلة من المكاتب ، وهي مدن حقيقية باتجاه الأعلى ، حيث يعيش بين الساعة ٩ والساعة ١٨ في كل منها عدد يتراوح بين (١٥ ـ ٢٠) ألف نسمة ، ولكنها لا تحوي سوى الحرس ليلاً . وأضخم هذه الناطحات هي عمارة امبايرستايت في نيويورك ، التي تضم (١٠٢) طابقاً يثقبها (٦٤٠٠) نافذة ، وترتفع (٣٨٥) متراً ، أي أكثر ارتفاعاً من برج إيفل ، ويستعمل سكانها (٦٣) مصعداً كهربائياً تساعد على المواصلات الداخلية فيها والصعود إلى السطوح وإلى الحدائق المعلقة والمطاعم ومشارب الشاي في الطوابق العليا .

كما تكون ناطحة السحاب عبارة عن مدينة تحت الأرض لأنها تحوي عدة طوابق تحت الأرض ، تضم المكائن ومواقد التدفئة المركزية والقاعات الفسيحة ،

التي تحتلها المخازن الحاوية على كل السلع والبضائع . وقد بدأ ظهور ناطحات السحاب في نيويورك المحصورة في جزيرة مانهاتان ، وحيث كان المكان ضيقاً فبحث الناس عن المكان باتجاه الأعلى . ولكن تتمتع كل المدن الأميركية الآن بأرض فسيحة ومع هذا تملك عدداً من ناطحات السحاب .

أسلوب الحياة الاميركية

تدهش الحياة الأميركية الغريب نظراً لعصريتها والاستعمال المنهاجي للأدوات والآلات الميكانيكية والأتوماتيكية ، ولتطبيق أحدث المخترعات فيها على نطاق واسع . فالبساطة العملية في كل تفاصيل الحياة اليومية والعلاقة المباشرة في المعاملات العامة تثير عجب القادم من أقطار العالم القديم . وهكذا لا يضطر الإنسان للانتظار الطويل أمام كوات المراجعة التي يقبع خلفها موظفون مرهقون . ويكفي للركوب في القطار الأرضي أن يدس الإنسان قطعة معدنية سبق له أن اشتراها في فتحة صغيرة كي تفتح له الأبواب التي قد لا يجد خلفها أي موظف .

ويبلغ متوسط المعيشة في أميركا مستوى لا تزال تجهله معظم المجتمعات الأوروبية ، بل سكان العالم الثالث مما يسمح بالحصول على أجور مرتفعة ، والاستفادة من القروض بشكل ميسور وعلى نطاق واسع فالأميركي المتوسط ، والعامل أو المستخدم في المكاتب ، يسكن في بيت صغير خشبي مطلي بلون أبيض وتتقدمه حديقة ومرج أخضر رائع ، يبتعد نوعاً ما عن المدينة المزدحمة أو Downtown ، ويعيش في بيته الحاوي على الرفاهية كإنسان ميسور . فهو يعتني بقص مرجه الأخضر ، وينظم بيته ويتابع برامج التلفزيون ، كما تستخدم زوجته عدداً لا يكاد يحصى من أجهزة المطبخ الكهربائية وغير الكهربائية .

ويملك الشعب الأميركي ، الذي يشعر جيداً بوضعه المادي الممتاز بين شعوب

العالم ، ثقة مطلقة تلامس الغرور في التقدم الذي يخفف متاعب الإنسان ، كما يعمد إلى زيادة إنتاجيته مثلما يعمد إلى رفع مستوى رفاهيته فنجده يتصدى لأعقد مشاكل عصرنا بثقة لا تعرف التردد .

ويظهر استخدام الطاقة الذرية للرأي العام الأميركي بالنهاية كأداة للتقدم شأنه شأن استعمال المكائن الألكترونية تماماً .

ولكن هذا لا يجب أن يخفي عنا وجود طبقات فقيرة بائسة ، مثل البيض الفقراء وغالبية الزنوج وذلك لسوء توزيع الثروات . وشدة غرور أمريكا التي تنتج (٣٠٪) من الإنتاج الصناعي العالمي ، يجعلها تشعر بأنها المسؤولة عن شؤون الدول الأخرى ، فراحت تتخذ لنفسها وظيفة الشرطي العالمي وتتدخل في قضايا الدول الأخرى ، وتشن الحروب على بعض الشعوب المستضعفة ، مثل كوريا وفيتنام ، مما أثار سخط شعوب العالم والمواطن الأميركي العادي نفسه .

المواصلات

تبلغ المسافة بين نيويورك وسان فرنسيسكو (٥٠٠٠) كم ، فضلاً عن ضرورة اجتياز جبال الأبالاش ، لا سيما سلاسل جبال وهضاب الغرب ، كي يمكن الوصول إلى الباسفيكي . وهكذا ندرك أهمية وجود وسائل هامة لتأمين المواصلات والصعوبات الضخمة التي تعرض لها الأميركان خلال فترة بناء هذه الخطوط . غير أن السفر في الولايات المتحدة يعتبر أسهل ما يكون بالعالم بفضل تأمين شروط الرفاهية ووجود أسرع القاطرات .

آ ـ **شبكة الملاحة الداخلية :** تضم شبكة الملاحة الداخلية طريقين رئيسيين :

أولاً : من الشرق للغرب : وهي شبكة السان لوران والبحيرات الكبرى ،

التي تؤلف أهم طريق ملاحي بالعالم ؛ إذ تصعد السفن البحرية فيه حتى مدينة مونتريال الواقعة على مسافة (١٠٠٠) كم في داخل القارة . وبين المدينة المذكورة وصدر البحيرة العليا يتجوّل أسطول من البواخر ، تزيد حمولته عن مجموع الأسطول الفرنسي التجاري . ويبلغ وزن البضائع المنقولة على البحيرات الكبرى أكثر من (١٥٠) مليون طن بالسنة ، أي تقارب حركة الملاحة على كل من قناتي السويس وبناما ، بالرغم من أن الجمد الشتوي يحول دون المواصلات فوقها مدة خمسة شهور كاملة . وإلى هذه الشبكة يجب أن نضيف نهر الهدسن وقناة إيريه ، اللذين يصلان بين نيويورك والبحيرات الكبرى ، وتتراوح حمولة السفن التي تعمل في الشبكة الداخلية بين (٥٠٠ و ٣٠٠٠) طن وتسير على شكل قوافل عدد كل منها (١٢) تدفع من الخلف بواسطة towboats تزيد قوته عن ٣٠٠٠ حصان .

ثانياً : من الشمال للجنوب : أي فوق نهر المسيسيبي الذي هو نهر سهلي ويصلح للملاحة حتى مدينة اورليئان الجديدة . ويرتبط بشبكة البحيرات الكبرى بفضل رافديه ايللينوا ونهر أوهيو وثلاث أقنية . وهنا تكون الملاحة محدودة بفعل منافسة الخطوط الحديدية ، فضلاً عن أن اتجاه النهر يعاكس اتجاه تيارات المواصلات الكبرى الداخلية المتجهة من الشرق للغرب ، فبينما يبلغ وزن النقليات على نهر الأوهيو (٢٥) مليون طن ، نلاحظ أن كل البضائع المنقولة فوق نهر المسيسيبي لا تزيد عن (١٠) ملايين من الأطنان .

ب ـ الخطوط الحديدية العابرة للقارة :

يعود فضل فتح ولايات الغرب وأوائل المواصلات العابرة للقارة إلى الخط الحديدي . فقد سبق الخط الحديدي أحياناً الاستيطان البشري ، وسمح بفتح « الغرب البعيد » . ومنذ ١٨٦٩ أمكن ربط نيويورك بسان فرنسيسكو ، وبعد قليل تمّ مدّ أربعة خطوط عابرة للقارة في الولايات المتحدة . وهناك خطوط

حديدية هامة تؤمن الربط بين الشمال والجنوب ، وبذلك تؤلف شبكة الخطوط الحديدية الأميركية شبكة واسعة متصالبة يبلغ طولها (٣٤٥٠٠٠) كم ، أي أكثر طولاً من مجموع الشبكة الحديدية الأوروبية أو ثلث الشبكة العالمية . وتستعمل معظم قطاراتها القاطرات الديزل أو المكهربة ذات السرعة الوسيطة (١٥٠) كم / ساعة وتدعى Aerotrain .

جـ ـ السيارات :

تتعرض الخطوط الحديدية اليوم لمنافسة السيارات والطائرات . وكل عائلة في أميركا تقريباً تملك سيارتها ويبلغ مجموع السيارات في الولايات المتحدة أكثر من (١٠٧) مليوناً أو سيارة لكل ثلاثة أشخاص ، أو سبعين بالمئة من سيارات العالم ، تتجول فوق شبكة الطرق المعبدة التي يزيد طولها عن (٦,١) ملايين كم ، أو (١٣٠) مرة طول محيط الأرض عند خط الاستواء ، وأصبحت السيارة هناك من ضرورات الحياة العادية في المدينة أو في الريف .

وهناك شبكة من الطرق الجوية فضلاً عن وسائط المواصلات الآنفة الذكر . ففي خلال (٦) ساعات فقط يقطع المسافر المسافة الفاصلة بين نيويورك وسان فرنسيسكو . كما تملك الولايات المتحدة أكبر أسطول جوي تجاري يؤمن المواصلات على ثلاثة اتجاهات رئيسية هي :

١ ـ مع الشرق عن طريق أوروبا وآسيا .

٢ ـ مع الشرق الأقصى عن طريق آلاسكا ، أو بواسطة الباسفيكي (هاوائي) .

٣ ـ مع أمريكا الجنوبية نحو ريودوجانيرو وبونس آيرس أو نحو بانامـا أو نحو ليما وسنتياغو في الشيلي .

هذا ويتزايد استعمال الطائرة أكثر فأكثر . فالخطوط الجوية تنقل عدداً من

الركاب يعادل ضعف ركاب الخطوط الحديدية أو أكثر . كما أن المؤسسات الصناعية والتجارية والزراعية تملك أسطولاً جوياً أكبر من عدد الطائرات العاملة على الخطوط المنتظمة . والواقع نلاحظ في المطارات الأميركية حركة كثيفة لا تعرفها مطارات أوروبا .

إن مواصلات كهذه تنقل كتلة من البضائع هائلة وجماهير من الركاب كبيرة ، وتكون مصحوبة باستخدام عام لكل وسائل الاتصال الحديثة (كالهاتف والتلغراف والإذاعة والتلفزيون والسينما) . كما تساهم في توزيع « طريقة الحياة الأميركية » في كل مكان وتمنح الولايات المتحدة طابع انسجام وتجانس يدهش الأوروبي ، كما يدخل الذهول في نفس القادم من أقطار العالم الثالث .

المناطق الطبيعية :

آ ـ المنطقة الأطلسية الشمالية :

وهي منطقة جبلية قاسية . فهنا نجد جبال الأبالاش التي تعرض باتجاه الجنوب الغربي ، وحيث تحتوي على خطوط ذرى متوازية يتراوح ارتفاعها بين (١٥٠٠ و ٢٠٠٠) م ، ويطيف بها من ناحية المحيط الأطلسي هضبة بيمونت Piemont وسهل ساحلي يضيق باتجاه الشمال الشرقي ، وهنا تهيمن جبال الأبالاش على وادي نهر السان لوران ، الواقع إلى الغرب منها وتشرف شرقاً على المحيط مباشرة . كما أن الطيات الأبالاشية ترسم هنا حركة انعطاف حول جبال آديرونדايك ، التي هي عبارة عن كتلة متقدمة من المجن الكندي بجنوب نهر لوران . وفي هذه المنطقة تنفتح الممرات الرئيسية عبر هذه السلسلة التي وسّعها حت الأنهار والجموديات الرباعية ، مثل وادي كونكتيكوت ووادي هدسن الذي يتمدد شمالاً بحفرة شامبلان ، وفي الغرب بواسطة وادي موهاوك المؤدي لبحيرة إيريه .

وسواء أكان الساحل يلامس الجبل أو السهل ، فإنه يبدو ساحلاً شديد التقطيع ، تنفتح فيه مصبات خليجية عميقة (مثل وادي هدسن) التي تصبح ، عبر السهل الساحلي ، عبارة عن خلجان طويلة متشعبة مثل خليج ديلاور ، وخليج شيزابيك الذي لا يقل طوله عن (٣٠٠) كم وتؤلف بذلك مواقع رائعة لقيام الموانئ الممتازة .

وهي منطقة قاسية من ناحية مناخها الشديد البرودة بالشتاء ، والمصحوب بعواصف ثلجية مفاجئة وعنيفة ، وحار جداً صيفاً حيث تسود أحياناً ، وخاصة على الساحل ، حرارة رطبة شبه مدارية . وتكثر بالمنطقة الغابات المؤلفة من مخروطيات بالشمال الشرقي ، ومن أشجار بلوط وكستناء وحور بالجنوب الغربي ، وتقطعها البحيرات والأنهار وحيث لم تستطع الزراعة أن تحتل الأراضي المتوسطة الخصوبة إلا بصعوبة كبرى .

ولكن سواحل المنطقة هذه كانت أقرب المناطق في أمريكا إلى أوروبا ، وهنا نزل في عام ١٦٢٠ أوائل المعمّرين . وهنا استقرت وتشبثت أول « جمعية من المتطهرين » ، التي استطاعت بفضل روحها التقيّة والعملية ، وبفضل قوة إرادتها وتعشقها للحرية أن تمنح العبقرية الأميركية بعض صفاتها الثمينة وأكثرها خصباً . إذ وجب الأمر وجود عرق من الرجال الأقوياء والشديدي التنظيم ، للتغلب على المصاعب واستغلال الموارد ولجعل تلك المنطقة من العالم بؤرة حضارية حقيقية في القرن العشرين . وهكذا تؤلف هذه المنطقة المجال الرئيسي الحضري والصناعي والتجاري في الولايات المتحدة .

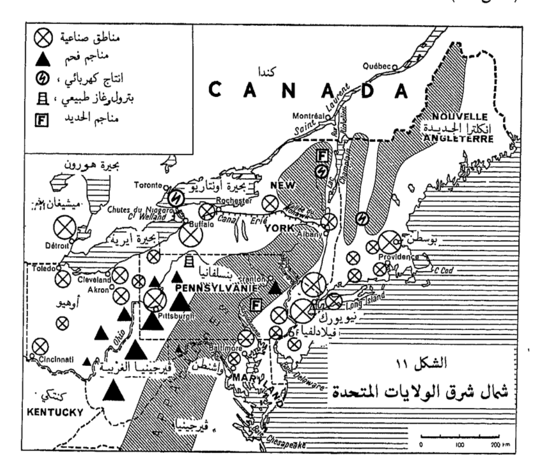
موارد المنطقة : تبدو موارد المنطقة المذكورة متعددة . فمنذ قرن مضى أخذ الريف يفقد سكانه تدريجياً لفائدة المدن الساحلية . وترك الناس زراعة الحبوب التي هاجرت نحو الجنوب ونحو السهول الغربية فتخصصت المنطقة في تربية الماشية الكبيرة لإنتاج الألبان كما اهتمت بزراعة البستنة (الخضار) .

وإذا كانت الأرض هنا قليلة الخصب فإن البحر المجاور الذي تختلط فيه مياه تيار الخليج وتيار لابرادور ، يحتوي على ثروات لا ينضب معينها : كالأسماك الطرية ، وسمك المورو والرنجه والمحار . كما تقدم الخلجان ومصبات الأنهار ملاجئ ممتازة بالنسبة للملاحة . وقد نتجت ثروة نيويورك وفيلادلفيا وبوسطن من التجارة البحرية ، ولا زالت هذه الموانئ اليوم أكبر موانئ الولايات المتحدة . وتؤلف الوديان عبر جبال الأبالاش مروحة من طرق مؤدية إلى بلاد الغرب . وهكذا أصبحت تلك الواجهة الأطلسية باب دخول للبلاد والمنفذ الجوهري لحاصلات المناطق الوسطى .

وأضيفت إلى موارد التجارة هنا موارد الصناعة بفضل الرساميل المتكدسة بواسطة التجارة البحرية ، وبفضل موارد الغابات والقوة المحركة لأنهار الجبل أو خط الشلالات Fall Line ، وبفضل حوض فحم الانتراسيت قرب سكرانتون في قلب الأبالاش ، وحوض الفحم البيتوميني الواقع على الطرف الآخر من الجبل ، وقامت هنا الصناعات التحويلية المتنوعة جداً ، والمشهورة بجودة صناعتها مثل صناعات نسيج القطن والصوف والحرير ، ومصانع الألبسة والأحذية ، ومعامل قاطرات الخطوط الحديدية وشاحناتها ، وترسانات بناء السفن ، ومختلف الصناعات الميكانيكية وماكينات النسيج وآلات الكتابة والحساب وأجهزة التصوير والراديو والتلفزيون والأسلحة والساعات الخ ..

وتتصف هذه المنطقة بكثافة سكانها نظراً لأنها كانت أول منطقة أميركية تطؤها أقدام غالبية المهاجرين الأوروبيين . فهي تحوي أشد الكثافات البشرية في أمريكا . ويبدو أنها لا تمثل سوى رأساً متقدماً باتجاه الشرق ، تزيد مساحته قليلاً عن (٤٠٠٠٠٠) كم مربع أو (٦٪) من مساحة البلاد ، ولكن يتمركز فيه (٦٠) مليون من السكان أو حوالي ربع سكان الولايات المتحدة الذين بلغ عددهم ٢١٨,٤ مليون في ١٩٧٧ ويقاربون حالياً ٢٣٢ مليوناً .

وتشتد الكثافات فوق مناجم فحم الأبالاش ، وفي المنخفض المؤلف من وادي الموهاوك حتى بحيرة إيريه ، فنجد مدناً هامة مثل ، اوتيكا ، روشستر ١ مليون ، سيراكوزه ٦٥٠٠٠٠ نسمة ، وعلى طول الساحل الممتد بين واشنطن ٣ ملايين نسمة ومدينة بورتلاند (١ مليون) (ولاية ماين) . وكل هذه المدن المذكورة ، عدا واشنطن ، التي هي عاصمة سياسية واقعة على التخم الفاصل بين الشمال والجنوب ، يقارب سكانها المليون ، هي عبارة عن موانئ ومراكز صناعية وتجارية من الدرجة الأولى ، وخاصة بالتيمور ٢,٢ ملايين وفيلادلفيا وعدد سكانها (٥,٦) ملايين ، بوسطن ٣,٦ ملايين ونيويورك ١٦,٧ مليون نسمة (شكل ١١) .



الشكل ١١
شمال شرق الولايات المتحدة

ولا نجد بالعالم مدينة كمثل المدينة الأخيرة تطورت بسرعة واحتلت مكانة رفيعة في شتى الميادين . وتقع في صدر خليج فسيح وتبعد عن عرض البحر حوالي (٣٥) كم ، أي في موقع رائع عند مخرج وادي الهدسن حيث تهيمن وتشرف على أهم طريق يوصل إلى السان لوران والبحيرات الكبرى . وتلعب دور عاصمة في كل المجالات باستثناء الوظيفة السياسية .

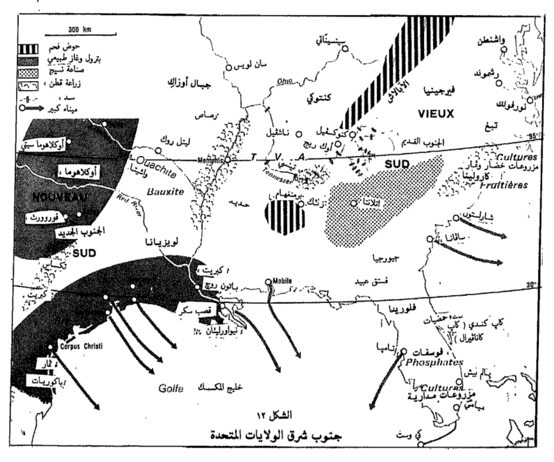
فهي عاصمة اقتصادية من حيث كثافة طرقها البرية والحديدية والنهرية والخطوط الجوية التي تتلاقى فيها ، وبمينائها الذي يعتبر بحق أهم ميناء بالعالم (حوالي ١٦٣ مليون طن بضائع بالسنة و ٣٣ مليون طن من مشتقات النفط وتدخلها سنوياً أكثر من ١٠٠٠٠ باخرة) . والذي انتزع من لندن وظيفتها السابقة ، بحسبانه أول عنبر للبضائع . وهي عاصمة صناعية بفضل معامل الصناعات الحديدية والكيماوية والنسيجية والغذائية ، وبمصانعها المتنوعة النشاط جداً . وهي عاصمة ثقافية بجامعاتها إذ فيها أكبر جامعتين في أمريكا . وبمتاحفها ، ومكتباتها ومسارحها ودور السينما . وهي تطمح أن تكون عاصمة العالم ، لاسيا بعد أن آوت إليها منظمة هيئة الأمم المتحدة .

وفي ١٨٥٠ كان عدد سكانها نصف مليون نسمة ، وبعد قرن واحد بلغ (٧,٥) ملايين ، كما أنها أصبحت تضم مع ضواحيها في العام نفسه (١٢) مليوناً . وقد قامت بالبدء عام ١٦٢٩ فوق جزيرة مانهاتان ، التي أصبحت اليوم بؤرة ناطحات السحاب وحي الأعمال ، ثم أخذت أحياؤها الصناعية وأحياء السكن فيها تتمدد حسب خطوط المترو الهوائي والأرضي وبفضل الجسور وعددها (٧) والأنفاق وعددها (١٧) ، ولاسيا التي تمر من تحت ومن فوق نهر الهدسن وإيست ريفر ، والتي يزيد طول بعضها أحياناً عن الكيلو مترين وبفضل السفن والسفن الناقلة للقطارات إلى أن أصبحت مع أحيائها تشغل رقعة تعادل ثلث لبنان .

ب ـ الجنوب :

وتكون تضاريسه متنوعة لأنه ليس عبارة عن سهل منسجم . ويؤلف وادي الميسيسيبي اللحقي محوره ، والذي يبلغ عرضه (١٠٠)كم ، والذي تجري فيه الروافد الموازية للنهر المذكور مسافة طويلة قبل أن تصب فيه ، وذلك في تيه من العصائب الجانبية والمنخفضات والبحيرات والمستنقعات . وفي شماله تنتصب تلال الأوزارك وسلسلة الأبالاش (شكل ١٢) .

وفي الشرق تنخفض هذه السلسلة باتجاه السهل الساحلي ، على شكل هضبة تدعى هضبة البيدمونت ، والتي تجتازها الأنهار الغنية بالمساقط المائية (وتسمى المنطقة خط الشلالات) على شكل وديان عميقة . وأخيراً على الخاصرة الجنوبية الشرقية من السهل نجد شبه جزيرة مؤلفة من صخور كلسية ملتصقة بجسم



الشكل ١٢

جنوب شرق الولايات المتحدة

الجنوب ، وهي ذات أرض متشققة حيث تظهر فيها الأغشية المائية الكارستيه على شكل بحيرات في المناطق المنخفضة . وعلى الساحل الشرقي المعرّض لموجات الأطلسي العاتية ، نجد جبالاً ساحلية تضم خلفها لاغونات متطاولة (بحيرات ساحلية مالحة المياه) ورصيف من المرجانيات يمدد شبه الجزيرة المذكورة بمقدار (١٥٠) كم باتجاه كوبا .

وتزيد حرارة المناخ تدريجياً باتجاه الجنوب ولكن موجات البرد الشتوية تؤدي لتخفيض ميزان الحرارة فجأة ، ولا ينجو من الصقيع سوى شبه جزيرة فلوريدا . وتسود الرطوبة الثقيلة في كل مكان هنا وتضفي أمطار الربيع والصيف على هذه المنطقة طابعاً شبه مداري .

وقد استطاعت طبقة ارستوقراطية بيضاء مؤلفة من كبار المزارعين ، والتي كانت تستخدم الزنوج الرقيق أن تهيمن مدة طويلة على الجنوب . ولكن بعد إلغاء الرق وحرب الانفصال ١٨٦٠ ـ ١٨٦٥ ، تجزأت المزارع وأصبح الزنوج عمالاً زراعيين أو ملاكين صغار . ويبلغ عددهم اليوم أكثر من ٢٣ مليون ويمثلون ٣٠ وحتى ٦٠ بالمئة من مجموع السكان في بعض المناطق ، وتعتبر المشكلة الزنجية « صداع » الولايات المتحدة ، ولا يعرف الزنوج طريقة للتخلص من هذا التمييز ، اللهم إلا إذا حدث تطور في العقلية يقبل التهجين ، أما لجوؤهم إلى الملاكمة أو إلى الموسيقى الجاز فلا يسمح لهم بالانعتاق من عقدتهم النفسية ومعاناتهم لمركب الحِطّة .

لقد كان عنده ابن يحبه حباً جماً . غير أن هذا الولد لم يلبث أن توفى ، فقرر أن يذهب به ليدفن هذا الجسم الصغير في الشمال ، حيث تكون النزاعات العرقية أخف حدّة : « بينما كنا نحمله إلى المحطة كان الرجال والنساء يتزاحمون بالمناكب ، شاحبي الوجوه ، في قلب المدينة الصاخب ، وكانوا يلقون علينا نظرة عجلى قائلين : « إنهم زنوج ... وفي خلال كل الوقت الذي أعقب ذلك ، كان قلبي ممتلئاً بفرح شنيع . لاتلوموني ... فقد كانت نفسي لاتنفك تهمس قائلة لي : إنه لم يمت ، نعم ، إنه لم يمت ، ولكنه نجا ... لم يعد مكبّلاً ، بل أصبح حراً طليقاً »

(أدوين امبري Against the odds) .

وقد ظل الجنوب مدة طويلة زراعياً بالدرجة الأولى ، فكان يقدم الحاصلات المدارية قبل كل شيء . ونميز ابتداء من الشمال أربع مناطق متتابعة :

أولاً - نطاق التبغ : ويقع رأساً جنوب نطاق الذرة ولكن إلى الشرق من نهر الميسيسيبي فقط في ولايات كنتوكي ، وتينيسي ، ولاسيا ماريلاند وفيرجينيا . ويكون الإنتاج كبيراً لدرجة يعادل ٢٠ مرة إنتاج فرنسا من التبغ ، وتصدر الولايات المتحدة نصف محصولها على شكل تبغ أو سكائر .

ثانياً - نطاق القطن : ويمتد من كارولينا ومن جورجيا حتى التكساس ، حتى أصبحت الولايات المتحدة بفضله أكبر منتج بالعالم . ولما كان مجال القطن يتسع تدريجياً نحو أراض يتزايد جفافها فقد اكتسب صفة مقاومة الحشرات والطفيليات ، ولكن مردوده ونوعيته في تناقص . وهكذا تنتج الولايات المتحدة أليافاً من النوع المتوسط تقع بين الأنواع المصرية الممتازة والأصناف الهندية الرديئة . وهناك عوائق عديدة تضر بالإنتاج مثل تعرض المحصول للحشرات وقلة الأمطار التي قد تخفض المحصول إلى النصف ، والأسعار العالمية التي قد تتفاوت بنسبة ٣ إلى ١ وهكذا أدت زراعة القطن الوحيدة في الجنوب إلى بؤس كما أوجدت غنى . ومنذ ١٩٣٠ تناقصت المساحات المزروعة قطناً بنسبة ٣٥٪ لفائدة زراعة فستق العبيد وزراعات الخضار ومزارع الخوخ والمشمش . ولكن لاتزال الولايات المتحدة تنتج أكثر من ٤٠٪ من قطن العالم أو ٢,٢ مليون طن من الألياف و ٣,٥ مليون طن من بذرة القطن كما لاتزال أكبر دولة مصدرة له .

ثالثاً - وعلى حافة ساحل خليج المكسيك تمتد حقول الرز ، ٥,٢ ملايين طن وقصب السكر .

رابعاً - فلوريدا وتمتلك مزارع واسعة للأناناس ، فضلاً عن حقول واسعة شاسعة تنتج مقادير هائلة من الحمضيات (الموالح في مصر والقوارص في تونس) ، وخاصة الليمون والبرتقال والكريفون .

هـذا وتجتـاح غـابـات الصنوبر كل منطقـة الجنـوب الـواقعـة إلى الشرق من الميسيسيبي . وبعـد أن تفصـد الشجرة كي تعطي الراتنـج إلى أن تمـوت ، يقطعهـا الحطـابـون والعـاملـون في نشر الأخشـاب . وهـذه الصنـاعـة تـؤدي إلى استنزاف الغـابـات بسرعـة ، حيث يستخرج منهـا الراتنـج الـذي يقطر ليعطي روح التربنتين .

الصناعة بالجنوب : لقد انتبه صنـاعيو الشمال إلى الفـائـدة الكامنـة والتي يمكن استخدامها بالجنوب نفسه ، وخاصة الموارد الأوليـة فضلاً عن اليـد العـاملـة الزنجية الرخيصة . وهكذا قفز الإنتاج الصناعي قفزات جبارة منـذ نهـايـة القرن الماضي في هذه المنطقة . ففي أسفل هضبـة البيـدمونت تستثمر مسـاقـط الميـاه من أجل غزل ونسج القطن ، وهكذا أصبحت أتلانتا عاصمة هذه الصناعة المبعثرة على شكل معامل صغيرة ومتوسطة ، ابتداء من كارولينا حتى آلابـامـا . وفوق منـاجم الحديد والفحم المتقاربة عند النهاية الجنوبية لجبال الأبالاش ولدت مدينة هـامـة تعدينية اتخذت اسم بيرمنغهـام ، ٨٠٠٠٠٠ ، نسمـة وهو اسم شقيقتهـا البريطـانيـة الكبرى . أما على ساحل الخليج فقد تضاعف عدد الترسانـات البحريـة . هـذا كما يستخرج من فلوريدا أكبر كمية من الفوسفـات بـالعـالم ، كما يستثمر الكبريت من لويزيانا وفي التكساس والبوكسيت من جبال اوزارك ومن الأبالاش الجنوبية .

أمـا في غرب الميسيسيبي ، من الكنسـاس إلى خليـج المكسيـك ، فقـد أدى البترول إلى جذب عنيف للسكان يماثل ماأحدثه الذهب بالمـاضي ، فقـامت مـدن جديدة مثل تولزا ، وهي المقر العام للشركات البترولية والتي تضم حاليـاً أكثر من ٥٠٠٠٠٠ نسمة ، في حين لم يكن بها أحـد عـام ١٩٠٠ ، ومـدينـة أوكلاهومـا سيتي وفيها ٧٥٠٠٠٠ نسمة وقد تزايد سكانها أكثر من ٣٥ مرة منذ مطلع القرن الحـالي . ففي عـام ١٩٠٠ اكتشفت طبقـة من البترول على عمـق ٢٠٠٠ متر تحت المـدينـة ، وبعد قليل أصبحت أرض المدينة مثل الغربال ، وحتى في أواسـط أعرض الشوارع

المؤدية إلى قلب المدينة . وهكذا كانت البلدة تحتوي عام ١٩٥٠ (١٣٠٠) بئر مع أبراجها المعدنية . ويرسل البترول للمصافي الجبارة على الساحل . ولكن القسم الأعظم يرسل بواسطة الأنابيب إلى الولايات في الشمال الشرقي . وهكذا يقدم الجنوب ٦٠٪ من إنتاج البترول في البلاد .

وقد أعطت تجارة القطن لهذه المنطقة فعالية بحرية كبرى في حين انحطت موانئ الساحل الأطلسي ، مثل شارلستون وسافانّاه . بيد أن موانئ الخليج الأحسن تجهيزاً تعتمد على موارد وفيرة للتصدير ، وهكذا أصبحت تامبا ميناء الفوسفات ، موبيل : ميناء القطن ، وأصبحت هوستون ٢ مليون نسمة والتي تبعد عن البحر بمسافة ٨٠ كم وميناؤها غالفستون مهمتين بتصدير القطن والكبريت ولاسيا البترول نحو نيويورك وفيلادلفيا . لكن مدينة نيوأورليئان تظل العاصمة السياسية والاقتصادية للجنوب وفيها ١,٥ مليون نسمة . وينافس سوق القطن فيها سوق نيويورك أو ليفربول . أما ميناؤها الذي يبعد مسافة ١٧٠ كم عن البحر فيصدر القطن والحبوب والبترول ويستورد السكر والبذور الزيتية والقهوة والنترات .

وقد اختار الأميركيون الأثرياء منذ **١٩٢٥** فلوريدا كبلد سياحة شتوية ، وبذلك نالت كلّ من ميامي ٢,٣ مليون نسمة وبالم بيش شهرة عالمية . وقد تمكن مهندس أميركي أن يصل بين الجزر المرجانية المتناثرة باتجاه كوبا ، بواسطة جسور من الإسمنت المسلح فوق طريق (فريد من نوعه بالعالم من حيث تقدمه في البحر) حتى جزيرة كي وست وهي ميناء يتجه نحو كوبا وميناء صيد إسفنج وسلاحف وقاعدة بحرية بمثابة قاعدة جبل طارق .

جـ ـ منطقة الميدل وست :

ينحصر سهل الميدل وست بين نهري ميسوري وأوهيو على شكل هلال واسع حول البحيرات الكبرى .

فقد تركت الجموديات الرباعية فيها سلاسل تلال من المورينات ، كما حفرت وعمقت فيها حوضات البحيرات الكبرى ، وبذلك أوجدت على حافتها جروف الضلوع الكلسية (الجالات) التي يجتازها مصرفا البحيرة العليا وبحيرة إيريه ، على شكل شلالين هما سولت سانت ماري وشلالات نياغارا . ويكون المناخ هنا عسيراً ، شديد البرد بالشتاء ، وحاراً جداً بالصيف ولكنه يتلطف بجوار البحيرات الكبرى التي تلعب دوراً معدلاً وكأنها بحر صغير داخلي . وكانت غابة المخروطيات في الشمال وذوات الأوراق بالجنوب تستر كل هذه المنطقة الجديدة التي نهضت منذ أواسط القرن الماضي نهضة جبارة بفضل استصلاح الطرق المائية ومد الخطوط الحديدية . ويعتبر الميدل وست أكبر منطقة زراعية بالاتحاد . وينقسم إلى ثلاثة نطاقات متميزة بوضوح :

أ ـ نجد حول البحيرات الكبرى **نطاق الشوفان والعلف المزروع المخصص** لتربية الماشية بشكل كثيف ، سواء من أجل الذبح أو من أجل إنتاج الحليب والزبدة والجبن .

ب ـ وإلى الجنوب من ذلك أي بين ذراعي الميسوري والأوهيو يمتد **نطاق الذرة** حيث يكون الصيف حاراً ورطباً . وبعد أن يتم قطاف عرانيس الذرة في تشرين الأول والثاني يعمد المربون إلى إدخال أبقارهم كي ترعى سوق الذرة . وتستخدم حبوب الذرة لتسمين الخنازير . وهنا تتزايد زراعة الصويا تدريجياً .

جـ ـ أما القمح فقد هاجر نحو المناطق الغربية الأكثر جفافاً ، وهنا نجد **نطاق القمح** الذي ينقسم إلى شطرين : شطر شمالي (أي داكوتا الشمالية والجنوبية) ، حيث يكون الشتاء قارساً جداً فلا يسمح إلا بزراعة القمح الربيعي ، وشطر جنوبي (كانساس وأوكلاهوما) ، حيث يمكن زراعة القمح الشتوي . وهنا يأتي المزارعون بقمحهم إلى الصوامع (سيلو) وهي مخازن شيدتها شركات الخطوط الحديدية أو مؤسسات تجارية قرب المحطات .

الصناعة في الميدل وست : يعتبر الميدل وست منطقة صناعية من الطراز الأول . وإذا كان بترول المنطقة قد نضب معينه فإن المعامل الكهربائية المقامة بجوار نياغارا وعلى نهر الميسيسيپي الأعلى تقدم الكهرباء الوفيرة . كما أن هضاب السفح الغربي لجبال الأبالاش تملك مكمن فحم واسع يمتد على مسافة (٣٠٠) كم ، أي من بنسلفانيا حتى آلاباما . وهنا تجد طبقات سميكة تتراوح بين متر ونصف و (٣) أمتار ، ومنتظمة تتتابع بلا صدع على مسافة تتراوح بين (٨٠ وحتى ١٠٠) كم . ويمكن استغلال هذه الطبقات بسهولة من سفوح الوديان التي يكفي حفر أنفاق مائلة نحو الخارج فيها لتسهيل تصريف المياه وتفريغ الفحم وتتم عمليات الاقتلاع ميكانيكياً والنقل كهربائياً ، وهكذا يتم إنزال الفحم مباشرة من فوهة المنجم إلى الباخرة النهرية أو إلى عربات القطار . وبذلك يكون مردود عامل المنجم في أمريكا أعلى مردود بالعالم فيتراوح بين (٥ أو ٦) طونات باليوم ، أي ما يعادل (٤) مرات مردود العامل البريطاني و (٥) مرات مردود العامل الفرنسي ، والإنتاج السنوي الذي يبلغ (٦٠٠) مليون طن وهي ثاني منتج بعد الصين يحتوي على كل أصناف الفحم الصناعي . أما في أحواض ايللينوا ، في الغرب ، فيتم الاستخراج من آبار قليلة العمق أو من مناجم مكشوفة ويبلغ حوالي (١٥٠) مليون طن بالسنة .

هذا كما تملك هذه المنطقة أهم مناجم الحديد بالعالم ، الواقعة في منطقة سلاسل من التلال على ضفاف البحيرة العليا . وهنا يستخرج نوع من الهماتيت ، يكاد يكون نقياً ، غني جداً بالمعدن إذ تعادل نسبة غناه (٦٠٪) في مدرجات واسعة مكشوفة تسير فوقها خطوط حديدية ، وتعمل هناك جرّافات جبارة من أجل تحميل العربات التي تهبط نحو الموانئ التي يعتبر ميناء دولوث أهمها .

أما الطريق الملاحي فوق البحيرات الكبرى فيسمح بنقل كثيف لفلزات الحديد نحو الفحم ، مما ساعد على نمو الصناعة التعدينية الثقيلة بجنوب

البحيرات ، وخاصة في بيتسبورغ (٢,٥) مليون نسمة الملقبة بعاصمة الفولاذ وفي بوفالو (١,٤) مليون نسمة وكليفلند (٢,٢) مليون وديترويت التي تسمى عاصمة السيارات بفضل معامل فورد وجنرال موتورز الضخمة ، ويزيد سكانها عن (٤) ملايين وغاري وشيكاغو وتضم ٧,٧ ملايين نسمة . هذا وتنتج الصناعات الميكانيكية إنتاجاً ضخماً من السيارات والطائرات في منطقة ديترويت وتجهيزات السكك الحديدية والمكائن الزراعية في شيكاغو وميلووكي وفيها مليون ونصف نسمة وسانت لويس ، التي تضم (٢٥٥٠٠٠٠) من السكان ، وتعتبر شيكاغو أهم مدينة في الميدل وست . فإلى جوار أرصفة الميناء ، القائمة على ضفاف بحيرة ميشيغان والتي تستقبل الفحم والبترول والفلزات والأخشاب والحبوب ، تتعاقب معامل صهر الفولاذ ومصافي النفط والمطاحن ومعامل الورق . وشيكاغو هي أول عقدة للخطوط الحديدية وأهمها . فهي تقوم بوظيفة سوق كبير للحاصلات الزراعية وعاصمة لحم (مجازر ومعامل معلبات) ، وبوظيفة مركز تجاري وصناعي متزايد الأهمية .

هذا ويمتد معمل فورد في مدينة ديترويت على مساحة تزيد عن (٥٠٠) هكتار ويستخدم حوالي (٦٥٠٠٠) عاملاً . ويضم هذا المعمل أفراناً عالية ومصانع فولاذ وصفائح حديدية ومصاهر ومعامل زجاج ومركزاً كهربائياً فضلاً عن سلسلة من المعامل التي تنتج كل لوازم السيارة . وقد كانت هذه المؤسسة مدرسة لأنجع طرائق الإنتاج الصناعي .

أما الصناعات الكيماوية فتصفي البترول وتصنع الأسمدة في كليفلند وشيكاغو ، والمطاط الطبيعي والاصطناعي في آكرون وكليفلند . هذا وتتوزع الصناعات الغذائية في كل أنحاء الميدل وست ، وهكذا تعتبر سان بول وفيها (١,٥) مليون نسمة ومينابوليس وفيها أكثر من مليون عاصمتي الدقيق ، وكانساس سيتي وفيها مليون نسمة ، وسان لويس وسكانها أكثر من (٢,٥) مليون

وشيكاغو عاصمتي اللحم البقري ولحم الخنزير الناتج عن حيوانات تربى على مستوى الصناعة الكبيرة .

وأخيراً ليس هناك من مدينة كبيرة أو صغيرة إلا وتملك معملاً لإنتاج الأدوات الزراعية ، ومعمل قرميد ، ومصنع للسجاير ومطحنة ومعمل صابون الخ . .

هذا ويتصف الميدل وست بأنه منطقة ذات كثافة سكانية متوسطة ومدن كبرى لأنه يلعب ، بصفته عنبر الولايات المتحدة وبؤرة صناعية كبرى ، دوراً عظيماً في الحياة الاقتصادية وفي الحياة السياسية أيضاً لأنه يصوّت تارة لجانب الديموقراطيين وتارة لجانب الجمهوريين فيؤدي لترجيح الميزان الانتخابي . وإذا كانت مساحة المنطقة تعادل (٢٠٪) من الولايات المتحدة ، فإن السكان يؤلفون (٣٣٪) من المجموع أي كثافة تعادل (٥٥) نسمة في الكيلو متر المربع . ولكن المنطقة جيدة العمران حتى في المناطق التي تتفوق فيها الفعالية الزراعية فنجد أن المدن قد اتخذت أهمية كبرى على ضفاف البحيرات وعند المواصلات الرئيسية النهرية والأرضية على نهري الأوهيو والميسيسيبي ، وعند تخوم الميدل وست مع السهول العليا مثل مدينة أوماها ومدينة كانساس سيتي . وعلى كل نجد هنا حوالي (٦٤) مدينة في كل منها أكثر من (١٥٠٠٠٠) نسمة منها (١٠) مدن تزيد عن نصف مليون مثل بوفالو ، وكليفلند ، وميلووكي الواقعة على ضفاف البحيرات وبيتسبورغ على الأوهيو ، وسان لويس والمدينتين التوأمين مينابولبس وسان بول على نهر الميسيسيبي . وهناك مدينتان تتجاوزان المليون هما ديترويت وشيكاغو التي تعتبر عاصمة الميدل وست والتي قفز عدد سكانها من (٤٠٠٠٠) إلى أكثر من (٧) ملايين في خلال مدة (١٣٥) سنة .

د ـ السهول العليا أو الفاروست (الغرب البعيد) :

تعتبر السهول العليا امتداداً للميدل وست حتى سفوح جبال الروشوز .

وابتـداء من خـط الطول (٩٩) نحو الغرب يتلو السهول منطقـة هضـاب تتزايـد ارتفاعاً من (٣٠٠ حتى ١٨٠٠) م ، وكأنها منحـدر لطيف حتى جبـال الروشوز . وهنا يشتد برد الشتاء إذ تهبط الحرارة حتى (ـ ٢٠ أو ـ ٣٠) درجة ما عدا حـافـة جبـال الروشوز ، حيث تهب ريـاح الشينـوك السـاخنـة فترفـع الحرارة في أواخر الشتاء وفي مطلع الربيع . وتكون فصول الصيف حارة فترتفع درجة الحرارة فيهـا وسطياً حتى (٢٥°) . وتأخذ الأمطار بـالتنـاقص تـدريجيـاً حتى يصبح الغطـاء النباتي عبـارة عن عشب قصير سهبي يستر الهضـاب . ويؤدي الجفـاف إلى تخريب مناطق برمتها ، وعندما أخضعت الأرض للزراعة هنا أضحت الرياح العنيفة تثير الغبار وتحمل التربة الزراعية الجـافـة كي تحول الأراضي إلى حقول مقفرة جرداء أو مـا يسمى (bowl dust) . وهكـذا تجـد هنـا صحـارى حقيقيـة تسمى الأراضي الرديئة (بادلاندس) تتألف من كتل من الصخور الكلسية المارنية التي تجزأت إلى تلاع وإلى أهرامات وإلى خشوم وإلى مسلات تكون قاعدتها على شكل مصـاطب متعاقبة .

وتعتبر السهول العليا مجال التربية الواسعة للماشيـة ذات القرن والأغنـام قبل كل شيء . لكن زراعـة الحبوب والنبـاتـات العلفيـة تزدهر فيهـا بفضـل أسـاليب الزراعة الجافة (دراي فارمينغ) ، التي تقضي بحراثة الأرض وعزقها بعد كل زخـة مطر ، بحيث تتسرب الرطوبة للتربة وكيلا يتشكل على سطحها قشرة قـاسيـة أو شقوق تلائم التبخر . ونجد هنا أنهاراً عديدة تغذيها ثلوج الجبال الصخريـة وتجري في وديان عريضة أخضعت للزراعـة بفضل الري وأصبحت خصيبـة تنتج الحبوب والعلف والشوندر السكري .

ويسود في السهول العليا انطباع العزلة والوحشة ، لأن كل مزرعة تبعـد عن الأخرى أكثر من (٣٠) كم وكلها تتماثل بصوامع قمحها المبنية على شكل أسطوانات جبارة ، وبحظائر ماشيتها ، وبمعاملها الصغيرة التي تصنع اللحوم المحفوظة ، ونجـد بين منطقة وأخرى مدينة يتراوح سكانها بين (٥ حتى ١٠) آلاف نسمة عدا مدينة

هامة وحيدة هي دنفر (١,٣) مليون نسمة ، وهي مدينة تماس عند أقدام جبال الرشوز تؤلف مرحلة على طريق الباسفيكي .

هـ ـ الجبال الغربية :

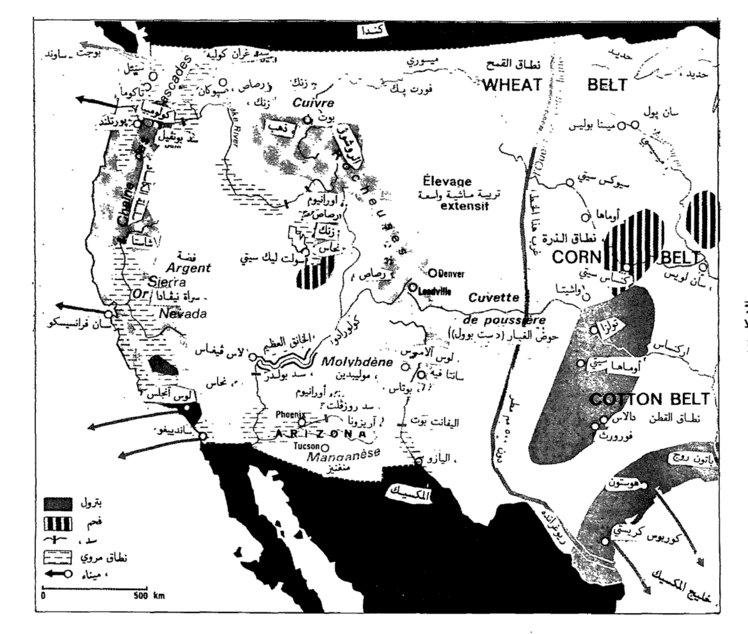
تؤلف الجبال الغربية منطقة العقبات الكبرى المعادية للإنسان . فعلى مساحة قدرها (٢,٥) مليون كم٢ أي تعادل مساحة شبه جزيرة العرب كلها لا نجد سوى (١٠) ملايين نسمة . وتتألف العقبة الكبرى من سلاسل جبلية متتابعة على مسافة (١٥٠٠) كم عرضاً ، واقعة بين السهول العليا وبين المحيط الباسفيكي . وهناك عقبة المناخ أيضاً لأن قحولة الهضاب الداخلية تتزايد باتجاه الجنوب الغربي حتى الوحشة الصحراوية .

ورغم كل شيء فقد استطاعت مناجم الذهب والفضة المبعثرة في كل الأمكنة ومناجم النحاس في ولايات مونتانا ، أوتاه ، آريزونا ، ومناجم الرصاص والتوتياء في نيفادا وأريزونا أن تجذب الناس . وبغية تأمين أقواتهم وجب اللجوء إلى ري الأراضي أو ممارسة الزراعة الجافة . (شكل ١٣)

ويمكن تمييز ثلاثة نطاقات هامة :

١ ـ عند أقدام السفح الغربي لجبال وازاتش ، في شمال وجنوب بحيرة سولت ليك سيتي . تمتد على مسافة (٣٠) كم واحة مساحتها (٣) ملايين هكتار وهناك نفق محفور تحت الجبل من أجل جر مياه الري القادمة من السفح المقابل .

٢ ـ بالجنوب ، في أريزونا ، يملك وادي (جيلا) المراعي وحقول القطن البديعة ومزارع الأشجار المثمرة والخضار . أما مياه نهر الكولورادو المحجوزة خلف سد (بولدردام) ، فقد حولت وادي الموت (Death valley) الذي ينخفض إلى (٨٠) م دون مستوى البحر ، إلى مزارع متواصلة .



الشكل ١٣

غرب الولايات المتحدة

٣ ـ وفي الشمال الغربي أي في ولاية كولومبيا وفوق الهضاب البركانية الخصيبة والجافة في الوقت نفسه سمحت الزراعة الجافة بقيام حقول القمح الفسيحة ، ونلاحظ هنا القاطرات الهوائية وهي تهبط بأكياس القمح حتى الموجودة في الوديان ، التي تزيد أعماقها عن (٦٠٠) م . وأهم المدن هنا سيتل (١,٥) مليون نسمة وتاكوما ويزيد سكان كل منهما على المليون . وقامت هنا صناعة الألمنيوم والفولاذ بعد قيام سد (غران كوليه) على نهر كولومبيا الذي ساعد أيضاً على ازدهار الري وتوسيع الزراعة .

و ـ منطقة الباسفيكي :

على خلاف منطقة الجبال الصخرية نجد أن كل العوامل المشجعة تتجمع هنا لتجعل من الساحل الباسفيكي أحد أجمل المناطق وأغناها في الولايات المتحدة ، مثل جمال وعظمة الجبل والبحر ، وعذوبة المناخ وتنوع الموارد . ويعتبر ازدهار هذه المنطقة حديثاً . حقاً لقد حدث هنا في أواسط القرن الماضي إقبال بشري شديد على ذهب كاليفورنيا ، ولكن الازدهار الحقيقي والازدهار العام يعود للقرن العشرين ، وكان التطور سريعاً ، ابتدأ زراعياً وتجارياً ثم تحول إلى تعديني وصناعي . ولا تحتل ولايات الشرق أو الميدل وست قصب السبق في سرعة تزايد السكان بل منطقة الساحل الباسفيكي بحيث تضاعف عدد سكانها (٣) مرات بين (١٩٠٠ و ١٩٥٠) . وتعتبر كاليفورنيا أول ولاية أميركية من حيث عدد السكان .

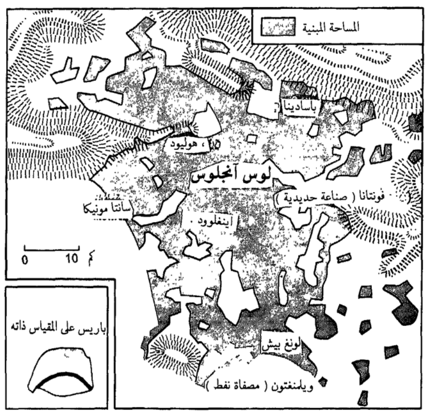
وهناك منخفض يفصل سلسلة جبال الكاسكاد عن السلسلة الساحلية ، ولكنه يغيب في الشمال ويغرق في خليج بوجت ساوند **Puget Sound** ، وهنا يسود مناخ محيطي ، ذو درجات حرارة متقاربة ، قليلة التفاوت وذو أمطار سخية ، فتقوم غابة رائعة من شجر الشوح والايبيسيئا والأرز فتغطي السفوح الجبلية . أما ميناءا سيتل **Seattle** وبورتلاند فيعيشان من صناعة الخشب ومن التجارة مع الشرق الأقصى وآلاسكا .

وإلى الجنوب من ذلك ، أي بين سلسلة سيرا نفادا وبين السلسلة الساحلية يتسع المنخفض ، لأن وادي كاليفورنيا الكبير يمتد على طول قدره (٧٥٠) كم وعلى عرض يتراوح بين (٤٠ و٨٠) كم . ولا تستمد كاليفورنيا رخاءها من ذهبها بل من مناخها الحار المضيء والجاف ومن زراعاتها المروية التي تمتد على أكثر من مليوني هكتار . كما أصبحت جنة من أعناب ومن أشجار مثمرة ، وقد استوردت فسائل التين والنخيل من افريقيا الشمالية لزراعتها هناك . وتقوم القاطرات المبردة وحتى الطائرات بنقل الثار الطرية نحو المدن الكبرى بالشرق ، ولكن قسماً كبيراً من الإنتاج يتوجه نحو معامل التجفيف مثل العنب والخوخ والمشمش ونحو معامل المحفوظات .

هذا وتساهم حقول البترول الغنية في ثراء المنطقة أيضاً . كما أن الصناعات التعدينية والكيماوية والترسانات البحرية تقوم هنا على قدم وساق . وهكذا أصبحت مدينة لوس أنجلوس مع ضاحيتها الفخمة هوليود عاصمة العمليات المالية والسياحة والسينما ، وفيها (٧) ملايين نسمة وفيها أعلى مستوى معاشي في أمريكا لأن فيها (٣,٥) ملايين سيارة أو سيارة لكل شخصين (شكل ١٤) . ولكن سان فرانسيسكو الواقعة عند مخرج الوادي الكبير والمطلة على الباسفيكي والحارسة لباب الذهب Golden gate الرائع ، لا تزال رغم أن عدد سكانها أقل من لوس أنجلوس عاصمة كل الساحل الباسفيكي ، فهي مدينة صناعية وميناء عظيم تشع منه التجارة الأميركية نحو الشرق الأقصى ونحو كل الباسفيكي ويسكنها أكثر من (٤,٦) ملايين نسمة .

ز ـ الملحقات الخارجية : آلاسكا :

وقد اشترتها الولايات المتحدة عام **١٨٦٧** من روسيا ، وتتميز بتضاريس جبلية وبموقع شمالي جداً جعلا مجال استغلالها محدوداً على صيد أسماك السومون



الشكل ١٤

لوس آنجلوس ـ نمط من المدن العملاقة (مينا بوليس)

واستثمار بعض مناجم الـذهب والنحـاس ومكامن النفـط والغـاز . ومن هـذا كان عدد سكانهـا قليلاً لا يتجـاوز (٣٥٠٠٠٠) نسمـة منهم (٥٥٠٠٠) من الأسكيمو . وقد أدت الحرب العالمية الثانية فجأة إلى دخولها في تيارات المبادلة العامـة الكبرى إذ يمر ، بواسطـة سـاحلهـا الجنوبي وجزر آلوشيـان ، الطريق الجـوي المتجـه نحـو الشرق الأقصى ، لأنـه طريق أقل طولاً وأكثر ضمانـاً بسبب أن السماء هنـا تكـون أقل ضبـابـاً من سواه ، وهكـذا يمر الخـط الجوي المنطلق من ادمنتون في كنـدا في مطاري هوايت هورس ومن فيربانكس كي يتجه نحو سيبريا ومنشوريا .

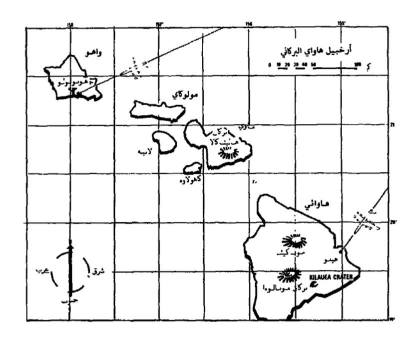
ورغبة من الولايات المتحدة في الإشراف على طرق التجـارة العـالميـة ، فقـد وضعت يدها على ممتلكات أخرى كي تجعل منها نقـاط استنـاد بـالنسبـة لتوسعهـا

السياسي والاقتصادي . وهكذا وجدت نفسها بحاجة إلى الإشراف على قناة بناما ، وهي طريق حيوية بالنسبة للمواصلات بين الساحل الباسفيكي والساحل الأطلسي للولايات المتحدة ذاتها . وفي عام ١٩٠٠ تنازلت دولة بناما عن منطقة عرضها عشرة أميال على جانبي القنال . وفي خلال حرب قصيرة مع إسبانيا عام ١٨٩٨ استطاعت أن تحتل جزيرة بورتوريكو ، التي يسكنها (٣,٥) مليون نسمة من أصل إسباني والتي تنتج السكر والقهوة والتبغ والفواكه . وفي ١٩١٧ اشترت من الدانمارك الجزر العذراء المجاورة . وبذلك وبفضل هذه الجزر الواقعة في وسط القوس المؤلف من جزر الآنتيل استطاعت أن تراقب مداخل بحر الآنتيل وقناة بناما .

كما استحوذت الولايات المتحدة أيضاً على قواعد ضرورية على طريق الشرق الأقصى ، فاحتلت جزر هاوائي (شكل ١٥) عام ١٨٩٨ التي يقطنها اليابانيون والصينيون والفيليبيون وعدد سكانها (٨٥٠٠٠٠) نسمة وفي عاصمتها هونولولو (٧٠٠٠٠٠) نسمة وتنتج مقادير ضخمة من السكر والأناناس والتي تحتل مركزاً ممتازاً في وسط المحيط الباسفيكي (فيها ميناء هونولولو وقاعدة بيرل هاربير البحرية) . كما احتلت جزر وايك وغوام عام ١٩١٨ وتعتبر مفتاح الشرق الأقصى ، وجزر صاموا وهي مفتاح أستراليا . وعلى أثر الحرب العالمية الثانية انتزعت من اليابان جزر ماريان ، بالو ، كارولين ، مارشال وضمتها إلى ممتلكاتها .

وفي عام ١٩٦٠ اعتبرت جزر هاوائي ولاية ، وشبه جزيرة آلاسكا ولاية أخرى من الوطن ، وهكذا أصبحت الولايات المتحدة تتألف من خمسين ولاية ممثلة بخمسين نجمة على العلم الأميركي .

وإجمالاً يبلغ مجموع مساحة الأراضي الأميركية في خارج الولايات المتحدة (١,٥) مليون كيلو متر مربع .



الشكل ١٥

الولايات المتحدة كدولة اقتصادية عظمى

تملك هذه الدولة (٦٪) من مساحة القارات وتضم (٦٪) من سكان الأرض . ولكنها تنتج على أرضها (٢٠٪) من قمح العالم أو (٥٨) مليون طن و (٦٦٪) من الإنتاج العالمي للذرة أو (١٥٨) مليون طن و (٣٠٪) من القطن و (٣٥٪) من الفحم الحجري و (٢٠٪) من البترول و (٣٥٪) من الحديد و (٥٠٪) من النحاس .

وإذا كانت الولايات المتحدة لا تملك بعض المنتجات بصورة كافية فذلك يعود لاستهلاكها الهائل وخاصة من الصوف والكتان والخشب ومعجونة الورق ، لأنها تستهلك (٦٠ ٪) من إنتاج العالم من المعجونة ، والسكر لأن إنتاجها منه لا يزيد عن ثلث الاستهلاك وحتى البترول لأن إنتاجها منه لا يزيد عن نصف استهلاكها . ولكن عندما تكون محرومة من بعض المنتجات كلياً ، فذلك يعود لأسباب مناخية محلية مثل المطاط والقهوة والكاكاو والأناناس والموز ، وهي مواد

تستوردها من الأقطار الاستوائية ، أو لأسباب اقتصادية مثل الحرير والشاي وهي من حاصلات الأقطار المزدحمة السكان كالشرق الأقصى ذات اليد العاملة الرخيصة وذلك لأن الولايات المتحدة هي قطر غني جداً ، وصناعته وزراعته آلية واليد العاملة ذات أجور باهظة . وهكذا نجد أن الفرد الأميركي استطاع أن يحتل في كل المجالات : أي الزراعية والصناعية والتجارية مستويات معيشة لامثيل لها بالعالم .

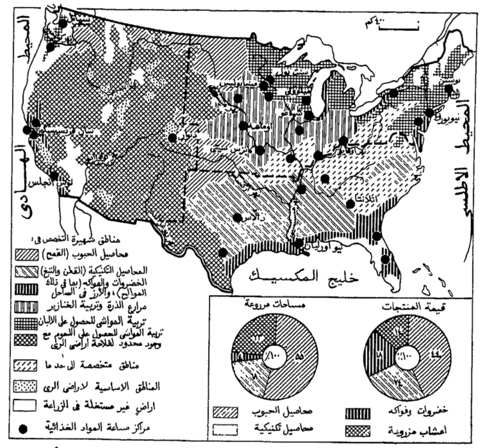
أ ـ الزراعة :

لا تحتل المكانة الأولى في الاقتصاد الأميركي لأن ٦٪ من السكان العاملين فقط ينصرفون إليها . ولكنها تعتبر مع ذلك أكبر دولة زراعية بالعالم ويليها الاتحاد السوفياتي ، وإذا استثنينا ملكية الأرض الجماعية في الاتحاد السوفييتي ، فإن الزراعة في هذين القطرين تتصف بصفات مشتركة هي :

١ ـ تنتج الولايات المتحدة حاصلات المناطق المعتدلة والمناطق المدارية (شكل ١٦) ، وتكون هذه الحاصلات ، شأنها في الاتحاد السوفييتي ، ضخمة ومتنوعة بآن واحد .

٢ ـ غير أن المردود يكون هنا ضعيفاً لأن إنتاج القمح في الهكتار هنا لا يزيد عن (١٣) كنتالاً مقابل (٢٠) في فرنسا و (٢٦) في إنكلترا و (٤٦) في الدانمارك ، كما أن مردود القطن يبلغ كنتالين بالهكتار مقابل خمسة كنتالات في مصر ، أي أن الزراعة هنا تتصرف بمساحات هائلة ولا تزال زراعة واسعة .

لقد سخت الطبيعة على الولايات المتحدة بالوفير من التربة الخصبة ، بالإضافة إلى المناخ الذي هو في معظمه معتدل ، وتقدر نسبة الأراضي التي تزرع بـ (٦٠٪) من مساحة الولايات المتحدة القارية . ويستخدم (٢٥) بالمئة من هذه المساحة أي (١٦٠) مليون هكتار في زراعة المحاصيل كما أن نصفها يشكل



الشكل ١٦ المناطق الزراعية الرئيسية في الولايات المتحدة الأمريكية

أرض مراع دائمة . وفي الولايات المتحدة (٤٧٥٠٠٠٠) مزرعة بمعدل (٩٧) هكتار للمزرعة الواحدة ولكن مساحة المزارع في القسم الشرقي من البلاد أصغر من ذلك بكثير . ومعظم المحصولات تغلها مزارع عائلية صغيرة يقوم بها أفراد العائلة بجانب كبير من العمل .

٣ ـ لقد اندفع الأميركيون نحو الميكانيكية . ففي ١٩٢٠ كان لديهم (٢٥٠٠٠٠) تراكتور و (٢٢) مليون حصان ، وحالياً يبلغ عدد الجرارات (٤) ملايين والخيول (٣) ملايين . ولا تقوم الحاصدات الدراسات (كومباين) بأكثر من قطع السنابل وتدرسها وهي سائرة . وعندما يتم حصاد الحقل توقد النار في

الحصيد ثم يعقب ذلك المحراث المتعدد السكك الذي يجره التراكتور ، وذلك استعداداً للموسم القادم .

٤ ـ هناك تخصص في الإنتاج الزراعي حسب المناطق . فعلى المزارع الواسعة التي تتراوح بين (١٠٠ و ٤٠٠) هـ . تصبح الزراعة زراعة وحيدة صناعية . ففي نطاق القمح تعتبر المزرعة كمعمل قمح ، وفي منطقة نطاق الذرة تبدو المزرعة كمعمل ذرة ولحم وفي نطاق القطن معمل قطن . أي أن المزارع الأميركي يتعلق إذن بشكل وثيق وكلياً بالتجارة ، فالأسعار المرتفعة تغنيه بسرعة وانهيار الأسعار يدمره اقتصادياً بسرعة أكبر . وشدة الأزمات الاقتصادية المعاصرة أوجدت بعض العلاجات . وهكذا ظهر الكتان في مجال القمح ، كما بدأت زراعة الشوندر السكري في منطقة الشوفان ، والصويا وفستق العبيد في مجالي القطن والذرة الصفراء ، والخضار في كل مكان تقريباً .

٥ ـ أخذت الزراعة تتقدم تدريجياً أو تتوسع باتجاه الغرب ، مثل زراعة القمح التي استقرت حالياً إلى الغرب من نهر الميسيسيبي وزراعة القطن المزدهرة كثيراً بالتكساس .

٦ ـ لقد نتج عن التخصص في الزراعة وميكانيكيتها ، وعن هجرتها نحو الترب ، تلاؤم مع شرائط التضاريس والمناخ اللذين يتصفان بالتنوع والوضوح في أمريكا . وهكذا أصبحت المناطق الزراعية متميزة ومتباينة وتضم الولايات المتحدة منطقتين زراعيتين أساسيتين ، الأولى معتدلة وتشمل مناطق الوسط الشمالي أو الميدل وست ، والأخرى مدارية وتشمل الجنوب . وهناك مناطق ثانوية مثل الشمال الشرقي والجبال الصخرية والساحل الباسفيكي .

المزروعات : يمكن اعتبار الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أكبر عنبرين في العالم للحبوب ، ولكن الولايات المتحدة أول سوق عالمي للمحاصيل الزراعية ، فالأميركان يزرعون كل أنواع الحبوب ، مثل الشوفان والشعير وحتى

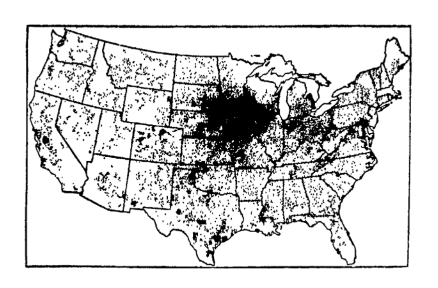
الذرة البيضاء لكن الذرة الصفراء والقمح يحتلان المكانة الأولى . وتضارع الولايات المتحدة الاتحاد السوفييتي تقريباً في إنتاج القمح وذلك في منطقة نطاق القمح وفي هضبة كولومبيا وقد أصبحت ثاني مصدر للقمح بعد كندا ، ولكن كمية الحبوب أو الدقيق القابلة للتجارة العالمية تتبدل بشكل كبير بين عام وآخر ، لأن القمح الذي أصبح يزرع في تخوم المناطق المزروعة قد يتعرض للجفاف المتطاول الأمد . وتنتج الولايات المتحدة ثلث المحصول العالمي من الذرة ، ولكن صادرات الأرجنتين من هذه المادة تتفوق لأن تسمين الأبقار والخنازير يستهلك كميات كبيرة من الذرة .

ومنذ القرن الثامن عشر أخذ الجنوب على عاتقه تموين الصناعات النسيجية بالعالم بالقطن ، ولكن ظهر الآن منافسون جدد صدعوا التفوق الأميركي في هذا المجال ، مثل الهند والباكستان ومصر والبرازيل والصين والاتحاد السوفييتي ، ولكن لا تزال الولايات المتحدة أكبر مصدر للقطن . هذا ويمثل محصول التبغ الأميركي حوالي ثلث الإنتاج العالمي ويجود في ولايات تينيسي وكنتوكي وماريلاند وفيرجينيا .

وفي الوقت الذي تظل فيه المزروعات التقليدية مثل الحبوب والقطن ثابتة أو تتقهقر قليلاً فإن زراعات أخرى تتقدم بشكل كبير . وبالنسبة لفترة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) توسعت زراعة الكتان في منطقة القمح بنسبة (٤٠٠٪) . والصويا في منطقة الذرة بنسبة (٤٥٠٪) وفستق العبيد بنسبة (٢٠٠٪) بالجنوب . ويبذل الأميركان جهوداً جبارة للتوسع في زراعة الحبوب الزيتية . كا يلاحظ أيضاً توسع في زراعة الخضار في الشمال الشرقي وفي الجنوب ، وفي زراعة الأشجار المثمرة والفواكه في الجنوب وفي كاليفورنيا . وتملك جورجيا اليوم أجمل مزارع الخوخ بالعالم ، ولكن نصف وزن الفواكه الأميركية هو من الحمضيات . وأخيراً بعد أن ظلت الولايات المتحدة مستوردة للسكر من الأقطار المدارية أصبحت اليوم من أكبر منتجي سكر الشوندر في الميدل وست .

تربية الماشية : إذا كانت الولايات المتحدة لا تحتل المرتبة الأولى اليوم بالنسبة لعدد رؤوس الماشية ، فهي تحتل أول مكانة بالنسبة للنوعية فهي تحتل الدرجة الثانية بالنسبة لعدد خنازيرها (٥٠) مليون ، والأبقار التي يقارب تعدادها (١٢٨) مليون رأس (شكل ١٧) . ففي الوسط والشرق والجنوب يمكن اعتبار تربية الأبقار والخنزير ؛ كحصيلة لزراعة الحبوب ولا سيما الشوفان والشعير وخاصة الذرة الصفراء . وبعد أن كانت الولايات المتحدة منتجة للّحم تتجه اليوم أكثر فأكثر نحو منتجات الألبان .

ويقدم الغرب والسهول العليا والجبال مراعيَ واسعة لتربية الأبقار والأغنام . ويتم تسمين الثيران والأبقار المولودة في منطقة الفاروست في منطقة نطاق الذرة . ويجب أن نشير إلى التناقص العظيم في عدد الخيول والبغال بسبب توسع نطاق استعمال الميكانيك في الزراعة .



الشكل ١٧

توزع الأبقار في الولايات المتحدة

كل نقطة في الشكل ترمز إلى (٢٠٠٠) رأس من البقر

ب ـ القوى المحركة :

الفحم الحجري : تعتبر الولايات المتحدة أكثر أقطار العالم غنى بالقوى المحركة ، وقبل كل شيء الفحم الحجري . فهي تملك ثلاثة أحواض فحمية تقل جودتها من الشرق نحو الغرب تدريجياً :

أولاً ـ حوض الانتراسيت في سكرانتون على السفح الشرقي لجبال الأبالاش . وينتج وسطياً بحدود (١٥٠) مليون طن في السنة .

ثانياً ـ حوض بنسلفانيا وفيرجينيا وآلاباما على السفح الغربي لجبال الأبالاش ، وهو أغزر الأحواض إنتاجاً وينتج حوالي (٤٠٠) مليون طن بالسنة . وقد نتج عن ثخانة عروق الفحم ، وعن الاستغلال السهل للمكامن على عمق قريب ، واقتلاع الفحم بصورة ميكانيكية بحتة ، مردود شديد الارتفاع ، أي أن العامل ينتج هنا باليوم أكثر من أي عامل آخر بالعالم ، فضلاً عن إنتاج عام ضخم جداً يقارب (٢٢٪) من إنتاج العالم أو ٦١٦ مليون طن من مجموع ٢٧٥٥ مليون طن في ١٩٨١ . ورغم بعد مناجم بنسلفانيا عن البحر فهي ترسل الفحم بواسطة القطارات حتى ميناء هامبتون رودس ، المعد خصيصاً لتصدير الفحم نحو الموانئ الأميركية في شمال الأطلسي ونحو موانئ أوروبا وأميركا الجنوبية .

وعلى كل يتراوح إنتاج الفحم في الولايات المتحدة حالياً بين (٥٠٠ و ٦٠٠) مليون طن .

البترول : منذ أكثر من (١٢٠) سنة أخذ إنتاج البترول يزحف نحو الجنوب الغربي ونحو الأعماق . ففي عام ١٨٥٩ نبع البترول لأول مرة في بنسلفانيا على عمق (٢٠) م . وفي أواخر القرن الماضي أصبحت أهم حقول البترول هي الواقعة في الميدل وست ، وبين (١٩٠٠ ـ ١٩١٠) ظهرت أهمية ولاية كنساس ، وبعد ١٩٢٠ انتقل مركز الثقل نحو التكساس وكاليفورنيا ، واليوم تستغل حقول ساحلية تحت مياه الباسيفيكي . وزاد عمق بعض الآبار عن (٥٠٠٠) م .

وهكـذا يعطي الشمال الشرقي أي ولايتي أوهيو وإيللينوا حـوالي (٣٪) من الإنتاج ، والوسط أي كنسـاس وأوكلاهومـا والتكسـاس (٥٠٪) والبـاقي تقـدمـه كاليفورنيا ومـا جـاورهـا . وهنـاك حوالي (٢٥٠٠٠٠) كم من خطوط الأنـابيب تربط بين حقول البترول في الوسط مع المنـاطق الصنـاعيـة بـالشمال الشرقي ، التي تستهلك معظم إنتاج البترول والتي احتفظت بالمصافي التي شيدت منذ البدايـة في شيكاغو وكليفلنـد وفيلادلفيـا ونيو يـورك وتقـذف بعض الأنـابيب البترول الخـام والبعض منتوجات بترولية بعد التصفية والبعض الآخر الغاز الطبيعي .

ويمثل الإنتاج الكلي للولايات المتحـدة ٣٠٪ من إنتـاج العـالم أو ٤٦٨ مليون طن وتحتـل المكانـة الثـانيـة بعـد الاتحـاد السـوفيتي . ولكن في هـذه الـدولـة التي يتجول فيها ١٢٤ مليون سيارة سيـاحيـة ، يكون استهلاك المواد البتروليـة هـائلاً بحيث تضطر الـولايـات المتحـدة لاستيراد البترول من الخـارج ، ممـا أدى لظهـور امبراطورية حقيقيـة قـائمـة على البترول ، تتمثل في شركات هـائلـة جبـارة ، مثل ستاندارد أويل هدفها السيطرة على المنطقتين العظيمتين لإنتاج البترول في العالم ، وهمـا منطقـة خليج المكسيـك وتضم المكسيـك وكولـومبيـا وفينزويلـلا ومنطقـة الشرق الأوسـط ، وتشمل إيران والعراق وكل شبـه جزيرة العرب ، أي السعوديـة والكويت والمنطقة المحايدة واتحاد الإمارات العربية (الشارقـة ، دبي ، أبو ظبي) والجـزائر وليبيـا ، عـدا الامتيـازات التي حصلت عليهـا للبحث عن البترول في صحراء مصر الغربية . وقد أنتجت الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ مقـدار ٣٥٩ مليون طن بترول ، وفي عـــام ١٩٧٣ (٤٥٣) مليــون طن ، و٤٠١ في ١٩٧٦ و ٤٦٨ في ١٩٨١ وسينضب بترولهـا خـلال ٢٠ عـامـاً إذا استمر الإنتـاج على هـذا المنـوال وتستورد الآن ما يقارب خمسي ونصف استهلاكها من النفط .

الكهرباء : وهنا أيضاً تحتل الولايات المتحدة المكانة الأولى بالعـالم ، وتنتج حوالي ٢١١٤ مليار كيلواط ساعي عـام ١٩٧٦ و ٢٣٦٨ مليـار في ١٩٨١ أو ٧٦ مرة إنتاج الهند ، أو ما يعادل ١٠ مرات إنتاج فرنسا و٦ مرات إنتاج بريطـانيـا ، التي

تحتل المكانة الثالثة بالعالم و٥ مرات إنتاج كندا ، التي تحتل المكانة الرابعة بالعالم . وليست الصناعة وحدها هي التي تستهلـك الكثير من الطـاقـة الكهربـائيـة ، بل دخلت هـذه في كل الاستعمالات المنزليـة المـألوفـة ، كالتـدفئـة والمطبـخ والمكانس والبرادات وعصارات الفواكه وطواحين القهوة الخ .. ويلاحظ الإنسان بالليل أن المدينة الأميركية تكاد تلتهب من الأنوار المنطلقة من الإعلانات الكثيرة الألوان .

ومن الطبيعي أن يصدر نصف الإنتاج الكهربائي من المعامل الحرورية التي تتحرك على الفحم والمازوت والغاز الطبيعي . ولكن الولايـات المتحـدة تملـك في الأبالاش وفي الجبال الغربية احتيـاطـات ضخمـة من الفحم الأبيض ، لم يستعمل إلا قسم ضئيل منهـا وأصبحت تنتـج من الطـاقـة النـوويـة قسماً من استهـلاكهـا الكهربائي .

١ ـ في الشرق : حيث توجـد الوديـان العميقـة والأنهـار الغـزيرة في جبـال الأبالاش ، تكون المنطقة ملائمة جداً للمنشآت الكهرمائية . وفي عام ١٩٣٣ لجـأت حكومة الولايات المتحدة إلى مكافحة البطالة ، فأوجـدت مشروع استغلال وادي نهر التينيسي وذلك ببناء ٢٦ سـداً مع منظومـة لشبكات الري تروي ٧٠٠٠٠ هـ . أو مايعادل مساحـة الغـاب وإنتـاج هـذه المعـامل يعـادل إنتـاج فرنسـا كلـه من الكهرباء .

٢ ـ في الوسط : أمكن استثمار مسـاقـط البحيرات الكبرى مثل شلال سـانت ماري ونياغارا ومسـاقـط الميسيسيبي الأعلى ، وخـاصـة عنـد مـدينـة مينـابوليس وروك آيلاند وكيوكوك .

٣ ـ في الجبال الغربية : وهنا نجد مجال السدود الكبرى والخزانات التي تقـدم المياه لري الأراضي البعيدة ولتحريك المعامل المشيدة عنـد أسفلهـا . وهنـا تتزايـد قوة المعامل المنشأة تدريجياً . وقد تم بنـاء سـد بولـدر على نهر الكولورادو الأدنى ، الذي يبلغ ارتفـاعـه ٢٢١ م ويخزن ٤٠ مليـار متر مكعب من الميـاه في بحيرة ميـد Mead الاصطنـاعيـة ويروي ٨٠٠٠٠٠هـ . أو ٢٠ مرة مسـاحـة الغـاب ، ويبـدو

معمل بولدردام بانتاجه البالغ ٥ مليار كيلواط ساعي ، أول معمل وسد من نوعه بالعالم ولا يفوقه إلا السد العالي الذي ينتج ١٠ مليارات ك وس بالسنة وسد أنغارا في سيبريا ، ويوفر سد بولدر مياه الشرب لمدينة لوس أنجلوس على مسافة ٤٢٤ كم ، كما أوجد حديقة وطنية يمارس فيها صيد السمك وسباق القوارب والاصطياف في المعسكرات . كما تم بناء سد على نهر كولومبيا يروي ٥٠٠٠٠ هكتار . كما تم بناء سد آخر على النهر المذكور يجعل من النهر طريقاً ملاحياً طوله ٦٠٠ كم .

جـ - الصناعة :

يمكن تفسير جبروت الصناعة الأميركية وقوتها قبل كل شيء بضخامة سوق الإنتاج الذي تؤلفه الولايات المتحدة . فهي أول قطر زراعي ، وأول قطر في إنتاج القوة المحركة بمختلف أشكالها ، كما تملك أكثر مناجم المعادن إنتاجاً وتنوعاً بالعالم .

فنجد **الحديد** في جبال الأبالاش وخاصة في الجنوب (آلاباما) وفي جبال الروشوز ، ولكن فلزات البحيرة العليا هي أكثر مثيلاتها أهمية . كما احتلت الولايات المتحدة المكانة الأولى في إنتاج البوكسيت ٢ مليون طن الذي يستخرج من جنوب الأبالاش ومن جبال أوزارك غرب الميسيسيبي ، بحيث أصبحت الولايات المتحدة تقدم ٣٦٪ من إنتاج الألمنيوم بالعالم . كما أصبحت مناجم النحاس في منطقة البحيرة العليا ابتداء من ١٨٥٠ ومناجم الروشوز منذ مطلع القرن الحالي (من مونتانا ، أوتاه ، آريزونا) ، تؤمن للولايات المتحدة إنتاجاً ضخماً يعادل ربع إنتاج العالم أو ١,٥ مليون طن .

كما تحتل الولايات المتحدة الذروة في إنتاج التوتياء ٤٠٠٠٠٠ طن والرصاص الذي تؤمن منطقة جبال أوزارك نصف الإنتاج والباقي من جبال الروشوز . كما تكثر لديها المعادن النادرة التي تلعب دوراً عظيماً في الصناعة المعدنية الحديثة ، وخاصة في صنع أنواع الفولاذ الخاصة ذات المقاومة الشديدة والمرونة الكبيرة مثل

الكروم والمولبيدين والفاناديوم والتنغستين . ولا تفتقر إلا إلى المنغنيز والنيكل والقصدير . وإذا كانت الولايات المتحدة تأتي بالدرجة الرابعة في إنتاج الذهب (من جبال الغرب وكاليفورنيا) والدرجة الثانية في إنتاج الفضة (جبال الغرب) ، فهي تملك احتياطاً نقدياً من هذين المعدنين الثمينين يعادل ثلاثة أخماس الموجود بالعالم .

هذا كا تقدم منطقة خليج المكسيك للصناعة الكيماوية الفوسفات ٤١ مليون طن (من فلوريدا) والكبريت (لويزيانا وتكساس) ٨ مليون طن والمغنزيوم . ويستخرج الملح من مناجم مبعثرة بالبلاد أو من بحيرات مالحة في الجبال الغربية أو من ممالح البحر في كاليفورنيا بإنتاج يزيد على ٤٢,٢ مليون طن .

الولايات المتحدة كسوق استهلاكي عظيم : تؤلف هذه الدولة التي تضم ٢٣٢ مليوناً من السكان ، الذين بلغوا مستوى من المعيشة رفيعاً جداً سوقاً استهلاكياً هائلاً . ففي هذه الدولة التي يكون من المألوف أن يملك الإنسان فيها بيته المجهز بحمام ، وسيارته وبراده وكل الأدوات الكهربائية من تلفزيون وسواه ، تستطيع المعامل مهما كثر عددها ومهما كانت ضخامتها أن تنتج بشكل كتلي . وهناك عوامل ثلاثة تحث على الإنتاج الضخم .

١ ـ التجانس ـ لأن الولايات المتحدة الأميركية متماثلة . فعلى مساحة ٨ ملايين كيلو متر مربع يعيش ٢٣٢ مليون من البشر ، الذين يتكلمون اللغة ذاتها ولهم نفس العادات المعاشية . وتجهد الصناعة كي تنتج لكل شيء عدداً قليلاً من النماذج ولكن بكميات ضخمة .

٢ ـ الدعاية والإعلان ـ وهي موجودة في كل مكان ، في الصحف ، وعلى الجدران وفي اللوحات الملونة ، أو المطبوعة ، أو اللوحات المنيرة . وهكذا يجذب الإنتاج المشتري بصورة مستمرة ويزيد الاستهلاك .

٣ ـ الإقراض : ويستطيع الأميركي أن يشتري ما يشاء ولو لم يكن مالكاً للعدد الكافي من الدولارات لأن البيع بالتقسيط هو المألوف[1] .

وهكذا تجد الصناعة الأميركية في وطنها ذاته أساساً اقتصادياً عريضاً ومتيناً يساعد على الإنتاج والاستهلاك . وقد نتج عن ذلك نهضة جبارة . وفضلاً عن ذلك ظهر في أمريكا نوعية فريدة من رجال الاقتصاد الأفذاذ والجريئين ، فأصبحوا رواد الصناعة أمثال كارنيجي وروكفلر وبيربونت ومورغان ، واستطاعوا أن ينشئوا مؤسسات ضخمة هي التروستات ، التي تحاول دوماً توسيع مجالها . فهي تضم تحت إدارة اقتصادية ومالية واحدة سلسلة كاملة من المعامل المختلفة ، وحتى مناجم عديدة مما يسمح لها أن تشرف على صنع منتوج معين ، من الوقت الذي يكون فيه عبارة عن مادة خام حتى يصبح مادة استهلاكية جاهزة .

الصناعة المعدنية والصناعات الميكانيكية : تظهر منطقة البحيرات الكبرى وكأنها نطاق الصناعة المعدنية الأولى . فإلى الشرق منها والجنوب أي في جبال الأبالاش وفي ولاية إيللينوا تقع أكبر أحواض الفحم ، وفي الغرب على ضفاف البحيرة العليا تقع أغنى مناجم فلزات الحديد وبينهما يقع أجمل طرق المواصلات المائية المؤلف من البحيرات الكبرى ، وإلى الجنوب من الأبالاش تقع ولاية آلاباما التي تملك الفحم والحديد والأفران العالية ومعامل الفولاذ وابتداء من ١٩٤٤ ظهرت معامل جديدة لصناعة المعادن في الجبال الصخرية ولاسيا في أوتاه وكاليفورنيا.

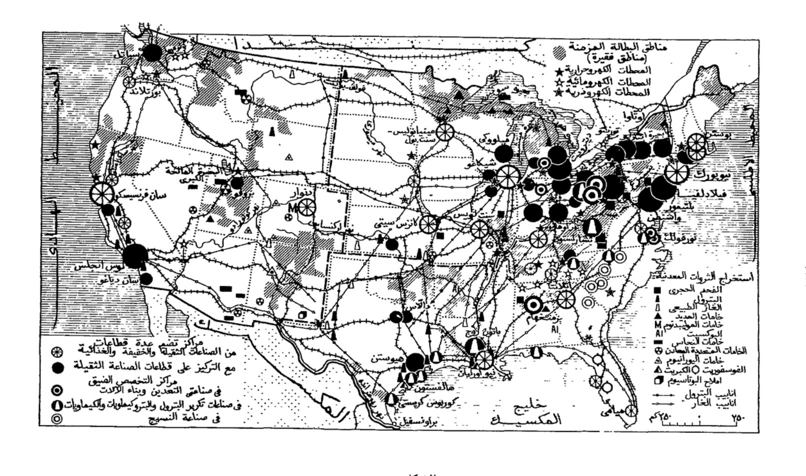
---

(١) لا ينجو الفرد الأميركي المتوسط من هموم الميزانية العائلية : فإذا كان الغذاء والكساء لا يكلفان كثيراً ، فإنه من اللازم تسديد الأقساط الشهرية مع فوائدها ، أي أقساط البيت والسيارة والبراد وجهاز التلفزيون الخ .. كما يجب دفع أقساط التأمين ، وحتى إلى متعهد الجنائز إذا أراد الأميركي أن يكون موكب جنازته محترماً . وهكذا تجد أن الرفاه الأميركي يتطلب الكثير من النفقات وفي عام ١٩٨٠ كان دخل الفرد الأمريكي المتوسط ٢٠٠٠٠ دولاراً ينفق منها ٥٠٠٠ على الطعام و ٤٦٠٠ على المواصلات و ١٨٠٠ للملابس و ١٢٠٠ للعناية الطبية و ١١٨٠ كتأمين اجتماعي وضرائب ضد العجز والشيخوخة و ١٢٥٠ دولاراً على الدخل الشخصي و ٣٠٠٠ للعناية الشخصية والترفيه والباقي نثريات أخرى .

ومنذ ١٩١٠ تفوقت الصناعة المعدنية الأميركية على ألمانيا التي كانت أقوى دولة بهذه الصناعة في أوروبا ، وساعدت الحربان العالميتان على زيادة تفوق أميركا ، وهكذا أصبحت تنتج حالياً حوالي ٣٥ بالمئة من صهير وفولاذ العالم إذ أنتجت ٨٩ مليون طن فولاذ عام ١٩٦١ و١٢٥ مليون طن في عام ١٩٧٢ و١١٦ مليون في ١٩٧٦ و ١٠٨ في ١٩٨١ . كما عرف إنتاج الألمنيوم فيها نهضة مثيرة وبعد أن كانت ألمانيا تفوق الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية الأولى ، أخذ إنتاج هذه الدولة يتضاعف كل سنة إلى أن أخذ بالوقت الحاضر يزيد عن ٤ ملايين طن بالسنة .

وفي شرائط كهذه نستطيع أن ندرك لماذا تكون الصناعة الميكانيكية الأميركية متصدرة مثيلاتها بالعالم . فهي تتمركز في منطقة البحيرات العليا مثل شيكاغو وديترويت وكليفلند وبوفالو ، وفي شمال شرق البلاد حيث يقع مركز الرساميل ومهد الصناعة القديمة كما في مدينة بيتسبورغ وبوسطن ونيويورك وفيلادلفيا وبالتيمور . ومن هذه المعامل الأميركية الرائعة التجهيز والنظام ، تخرج الماكنات الصناعية المتنوعة والماكنات الزراعية كالجرارات ٧٥٠,٠٠٠ والآلات الكاتبة ٨٠٪ من إنتاج العالم ومكائن وأدوات السكك الحديدية ، فأنتجت أكثر من ٢٠٠٠ قاطرة و٧٥٠٠٠ عربة عام ١٩٦١ . وتخصصت منطقة ديترويت في صناعة السيارات وتعادل ٤٠٪ من إنتاج العالم أو ٩ ملايين سيارة بالسنة عام ١٩٧٦ والطائرات ٦٠٪ من إنتاج العالم . وقد صنعت الترسانات البحرية على الساحل الأطلسي والباسفيكي في أحد أعوام الحرب عدداً من السفن حمولتها تعادل كل الأسطول التجاري . وتقتدي كل صناعات العالم بصناعة الولايات المتحدة من أجل التجهيز واستمداد ما تحتاج إليه من آلات (شكل ١٨) .

الصناعات الكيماوية : وتتمركز في الميدل وست والشمال الشرقي وهي مناطق تنتج الفحم وصناعية أي أنها تقدم نصف إنتاج الحامض الكبريتي بالعالم ،



الشكل ١٨

صناعة الولايات المتحدة الأمريكية

والصودا ، والأسمدة أو ٤٠٪ من إنتاج السوبر فوسفات بالعالم والمواد الملونة . وهي تعالج الخشب كي تصنع منه الورق الذي تستهلكه الصحف والمجلات بمقادير عظيمة . وتصنع مئات الملايين من الكيلو مترات من الأفلام التصويرية والسينمائية . كما تنتج حوالي ٤٠٪ من كاوتشوك العالم وخاصة في مدينة آكرون بولاية أوهيو ، ومنذ عام ١٩٤٠ أخذت تستعين بفحم الشمال الشرقي وببترول التكساس وكاليفورنيا لصنع المطاط التركيبي الذي فاق كثيراً إنتاج المطاط الطبيعي .

الصناعات النسيجية : لقد احتفظت إنكلترا الجديدة خلال مدة طويلة بحصر الصناعة النسيجية . ففيها تتمركز تقريباً كل صناعة الصوف ولاسيا في مدن (بوسطن ، لورنس ، لوول ، بروفيدانس) . أما نيويورك وباترسون وفيلادلفيا فهي مدن الحرير والحرير الاصطناعي . وكانت صناعة القطن متمركزة كلياً في منطقة بوسطن مع أنه يزرع بالجنوب . وبعد حرب الانفصال أخذ صناعيو الشمال ببناء معامل بالجنوب بجوار الشلالات المنحدرة من سفوح الأبالاش الشرقية ، بغية الاستفادة من القطن المحلي ومن اليد العاملة السوداء الرخيصة . وتنتج صناعة النسيج الأميركية أكثر من الصناعة البريطانية التي لا تزال تحتفظ بمكانة هامة بالنسبة لتصدير الأصواف والقطنيات .

الصناعات الغذائية : على الحاصلات الغذائية أن تجتاز آلاف الكيلو مترات ، قبل أن تصل أسواق الاستهلاك ، مثل لحم ومنتجات ألبان الميدل وست وفواكه الجنوب وكاليفورنيا مثلاً ، وذلك قبل أن تصل مدن الساحل الأطلسي . ومثل ذلك الإنتاج الضخم بالنسبة للمحفوظات الغذائية . وتستخدم هذه الصناعة حوالي مليون عامل أو أكثر من صناعة السيارات .

ويملك الميدل وست الصناعات الرئيسية كالمطاحن وصناعة الألبان واللحم .

ويتمثل غنى كاليفورنيا بمحفوظات الفواكه والخضار . وتصنع الولايات المتحدة جزءاً من السكر الذي تستهلكه بفضل شوندر منطقة الميدل وست ، ولكنها تستورد كميات ضخمة من السكر من كوبا ومن جزر هاوائي ومن الفيلبين .

د ـ تجارة الولايات المتحدة الخارجية :

لقد ظلت أوربا تحتل المكانة الأولى في ميدان التجارة الخارجية العالمية حتى عام ١٩١٤ . ولكن الحربين العالميتين سمحتا للولايات المتحدة بانتزاع الدرجة الأولى ، وفضلاً عن ذلك كانت أوربا التي خربتها الحرب تركز قواها في ساحة المعارك فبقيت الولايات المتحدة سليمة واندفعت لتقدم لدول العالم ما تحتاج إليه[1] .

وهكذا تملك الولايات المتحدة كل الشرائط الضرورية للهيمنة تجارياً على العالم :

أولاً ـ إنتاج ضخم .

ثانياً ـ أسطول تجاري من الدرجة الأولى تعادل حمولته ١٨٪ من الأسطول العالمي أو ١٥ مليون طنة ، فضلاً عن بواخر ترفع أعلام دول مختلفة مثل باناما وليبريا وهندوراس وغيرها .

ثالثاً ـ قروض تجعل الدول المستقرضة تلغي حواجزها الجمركية أمام البضائع الأميركية .

---

(١) لاتلعب التجارة الدولية في الفعاليات الاقتصادية الأميركية الدور نفسه الذي تلعبه في دول أوروبا ، لأن التجارة الداخلية في السوق الداخلي الأميركي تفوق بعشر مرات التجارة الخارجية الأميركية . ومع هذا فإن الولايات المتحدة تقدم ٢٠٪ من الصادرات العالمية وتنال ١٥٪ من الاستيراد العالمي .
وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة عبارة عن عملاق صناعي راحت تصدر السلع المصنوعة ابتداء من مسحوق الحليب حتى الماكينة الألكترونية . كما تستورد في غالب الأحيان المواد الخام مثل الحاصلات الزراعية المدارية ، والمطاط الطبيعي ، ومعجونة الورق ، والصوف ، والفلزات ، والبترول .

ومـع أن التجـارة الخـارجيـة الأميركيـة لاتمثـل أكثر من عشر الإنتـاج والاستهلاك الأميركي غير أنها أهم تجارة خارجية بالعالم .

إنها تجارة قطر صناعي عظيم يستورد بعض المحاصيل الغـذائيـة والمواد الخام كالنفط ويصدر أشياء مصنوعة ومنتوجات نصف مصنوعة .

وتتجه هذه التجارة نحو التصدير باتجـاه أوروبـا وأمريكا الجنوبيـة وآسيـا ، ولا تلعب أفريقيا أكثر من دور ضعيف جداً وتزداد التجارة الأميركيـة بـاضطراد مع تزايد قروضها ومساعداتها للدول المتخلفة أو الدول المتحالفة معهـا عسكريـاً . ولا ريب في ذلك لأن معظم شعوب الأرض تجنح لتقليد نمط الحيـاة الأميركي ولو في الأشياء الظاهريـة على الأقل ، لأن هـذه الشعوب إذا كانت أحيـانـاً تعجز عن الاقتـداء بـالـولايـات المتحـدة من حيث الازدهـار العلمي والتفـوق الصنـاعي والإنتاج ، فهي تقلدها بنجـاح من حيث محـاولتهـا مجـاراة الأميركيين في حيـاتهم واستهلاكهم ولبـاسهم ولهوهم وهـذا ممـا يزيـد شعـورهـا بفقرهـا النسبي أو المطلـق ولكن أخذ الأمريكيون يعانون من أزمة الثمانينات والركود الاقتصـادي ففي آخر عام ١٩٨٢ كان هنـاك ١٢ مليون عـاطلاً عن العمل أو ١١٪ من القوى العـاملـة في البلاد .

☆ ☆ ☆

هل توجد مدنيّة أمريكية ؟

هنـاك جواب جـاهز فـوراً يقـدمـه أولئـك الـذين يلعنـونهـا ، سـواء في « اليسـار » الـدولي أو « أحزاب اليمين » الوطنية . فهم يتبارون في شجب أمريكا ، ومنجزاتها وفخفختها وتخريبها للثقـافـات التي تحيـط بهـا سواء في كنـدا أو في أمريكا اللاتينيـة ، ونشر تلوثهـا في أوروبـا وحتى في العـالم الثـالث والبلدان الشيوعية . صحيح أن الأمريكي عندما يهبـط من طـائرة جـامبو جت في مطـار رواسّي قرب بـاريس ، ويستـأجر سيـارة فورد من مكاتب هرتـز أو آفيس ، ويقـود في الطريـق العريض كي يبلـغ

فندق هيلتون ، حيث ينطلق منه بعد قليل من أجل موعد في ناطحة سحاب في حي الديفانس ، ويلتهم عند عودته وجبة همبرغر في مطعم ماكدونالد في شارع الشانزيليزيه ، قبل أن يشهد فيلماً من إنتاج هوليود في ڤيديو ، أقول أنه لن يشعر بالغربة في باريس .

والواقع سيعثر الأمريكي على المعايرة ، والتسويق والسوقيّة Vulgarité والانحطاط والعنف . وتفتقر المدنية الأمريكية ، كما تظهر ، للمثل الأعلى . ففيها الكثير من مظاهر القبح : غير أن هذه العيوب ليست الوحيدة التي تقدم تعريفاً عنها ، فالعرقية وعدم المساواة ، والبطالة ، وانعدام الأمن ، والمتاجرة ، والفساد والعنف هي أمور توجد في أماكن أخرى ، وربما كانت أسوأ مما هي في الولايات المتحدة . ولكن لا نجد في أي مكان آخر ذلك النسيج من القيم المتصالبة على شكل سدى ولحمة .

المدنية الأمريكية . أ . كاسپي . P.U.F

☆ ☆ ☆

الولايات المتحدة أو أمريكا تملك أهم نظام اقتصادي في العالم : لنعرف كيف نحدد تدخلات الحكومة وكيف يعطي هذا النظام فرصة للتحرك والعمل .

لقد ساهمت الحكومة بدعم من الشعب الأمريكي ، وذلك خلال العقود الأخيرة ، في القضاء على الحواجز العرقية ، كما قدمت عونها للعاطلين عن العمل والمتقاعدين ، كما قدمت الغذاء للذين يفتقرون للغذاء ، ودافعت عن الأمن ، والصحة ، وحقوق العمال في التفاوض ، مثلما ساهمت في الحفاظ على التراث الطبيعي . . .

ولقد استرد بلدنا مكانته المتميزة الذي هو أهل لها على رأس أولئك الذين يكافحون في سبيل حقوق الإنسان في العالم . وعمد الأمريكان البواسل في سبيل فرض هذه القيم خلال الجيل الحالي وقبل قرنين إلى المخاطرة بأموالهم وبوضعهم الاجتماعي وحتى بحياتهم . ونحن ورثتهم . وهم يوجهون لنا رسالة خلال القرون .

ولا تجد الكلمات التي كانت تعطي مثل هذا البريق اليوم ، إلاّ صدى ضئيلاً لأن هذه الكلمات لا ينصت الناس إليها في كثير من الأحيان . وتذكرنا هذه الكلمات : عدالة ، مساواة ، وحدة ، تضحية ، حرية ، إيمان ، حب بأن المهمة الملقاة على عاتق الأمريكان اليوم هي إحياء الآمال الواثقة في أمتنا والتي لا يجوز أن تتركز فقط على الكفاح ضد التهديدات الأجنبية ، بل مكافحة الأنانية والصفاقة والخمول .

مقتبس من رسالة « عن وضع الاتحاد »
جيمي كارتر ٢٣ / ١ / ١٩٧٩

عندما تنجز أمريكا ما وعدت به . فإني أتنبأ بنصر العدالة .

وأتنبأ بالحرية وبالمساواة بلا تحديد . وأتنبأ بتبرير الإخلاص وتبرير الفخار ، وأتنبأ بأن هوية الولايات المتحدة ستكون هوية واحدة وحيدة .

وأتنبأ بأن الاتحاد سيكون أكثر تلاحماً أكثر فأكثر بين الدول ولن تنفصم عراه . وأتنبأ بحب الناس للناس ، وأقول بأنه سيكون بلا حدود ولا تحفّظ .

وأقول بأنك لا زلت قادراً على أن تجد الصديق الذي تبحث عنه . . . وأتنبأ بحياة ستكون رخية وفيرة ، ملتهبة ، مليئة بالروحانية ، وجريئة .

أناشيد الوداع . ويت وايتمان .
دار نشر فلامّاريون . باريس

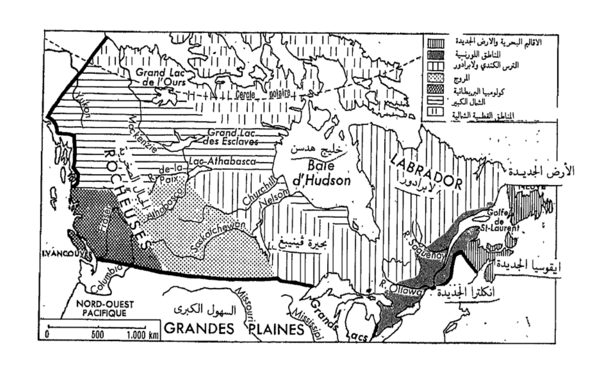
☆ ☆ ☆

الولايات المتحدة والمدنية الأمريكية

تتألف القوة الأمريكية من ٥٪ من سكان العالم ولكنها تمثل :

٢٥٪ من الناتج القومي الخام العالمي
٣٠٪ من الكهرباء الناتجة في العالم
٤٠٪ من حظيرة السيارات العالمية
٨٥٪ من الحاسوبات (الكومبيوتر)
ـ أول مصدّر ومستورد عالمي من البضائع والخدمات
ـ أول مصدّر عالمي للمنتجات الزراعية
ـ انخفاض نسبي تدريجي ناتج عن المنافسة اليابانية والأوروبية
ـ الدرجة العاشرة من حيث الناتج القومي الخام لكل مواطن
ـ تبعية متزايدة نحو الخارج ٤٢٪ من النفط مستورد
ـ عملة مزعزعة : أونسة الذهب = ٨٢٠ دولاراً عام ١٩٨٠ و ٣٢٠ دولاراً في ١٩٨٢ و ٥٠٠ دولاراً في ١٩٨٣
ـ تضخم يعادل ١٣,٨٪ في عام ١٩٧٩

☆ ☆ ☆



الشكل ١

المناطق الجغرافية في كندا

كندا

على تخوم المعمورة

لا تبدو المساحة الزراعية في هذا القطر الواسع كبيرة جداً ، فهي تبلغ ٦٤ مليون هكتار ، مقابل ٣٢ مليون هكتار في فرنسا ، أو ٦٤٠٠٠٠ كيلو متر مربع ، أو ٦,٥٪ من مساحة البلاد . وتقف الكوابح المناخية دون أي توسع زراعي إضافي ، بالرغم من التقنيات المتوائمة كالقمح الربيعي والزراعة الجافة (شكل ١) .

ويؤلف المزارعون ، الذين يشكل الملاكون المستغلون ٧٠٪ منهم ، أقل من ٥٪ من السكان العاملين وعددهم في تناقص . ولا يوجد في هذه البلاد أكثر من ٣٠٠ ٠٠٠ مزرعة ، ارتفعت مساحتها الوسطى من ١٥٠ هكتار عام ١٩٦٧ إلى أكثر من ٢٠٠ هكتار في عام ١٩٧٧ ، هذا في الوقت الذي زادت فيه إنتاجية الزراعة الكندية بفضل ارتفاع مستواها التكنيكي .

المشاهد الزراعية القديمة والجديدة :

البلاد اللورانسية : بعد أن ظلت منطقة كيبك متأخرة لمدة طويلة فقد حسّنت إنتاجيتها . وينصرف المستغلّون الذين تبلغ المساحة الوسطى لمزارعهم ٨٣ هكتاراً نحو منتجات الألبان ، وتقدم منطقة مونتريال نصف إنتاج الحليب واللحم والثمار والخضروات . بيد أن الزراعة تتقهقر في أراضي الشمال .

ويكون **إقليم أونتاريو** متميزاً بسبب جودة تربته ومناخه الملطّف ، لوجود كتلة المياه البحيرية المجاورة ، فهنا يمكن زراعة الفواكه الحساسة كالدراق

والأعناب . وتكون الزراعة هنا متنوعة وحثيثة وذات أرباح عالية ، وتتجه نحو الأسواق الحضرية في الولايات المتحدة المجاورة.

أما أراضي **البراري** المؤلفة من دبال أسود ، والمتصفة بجفافها النسبي فتناسب زراعة الحبوب التي تتناوب مع البور المحروث حسب أسلوب **الزراعة الجافة** dry farming فوق مستغلاّت كبيرة الأبعاد . وبعد أن عزفت منطقة البراري عن زراعة الحبوب الوحيدة ، أصبحت الآن تنّمي تربية الأبقار والزراعات المهيأة للماشية ، كالشعير والأعلاف ، والذرة الصفراء العلفية .

أما **كولومبيا البريطانية** فتمارس على الخصوص تربية الأبقار الواسعة Ranching فوق الهضاب العليا الداخلية . ولكن تظهر مزارع الأشجار المثمرة ، البديعة المنظر في الأراضي المروية .

المحاصيل الكبرى :

القمح : وتتجه ثلاثة أرباع محصوله للتصدير . وتنظم الحكومة التسويق والتخزين وفتح أسواق خارجية . ويلعب القمح الكندي دوراً استراتيجياً هاماً على الصعيد العالمي . وتكون تربية **الأبقار الحلوبة** في تراجع . بيد أن تربية أبقار اللحوم والتي تباع من الولايات المتحدة فتتقدم على الخصوص في إقليم البراري .

ولا تقدم تربية **الحيوانات ذات الفراء** (الثعلب الفضي والفيزون) سوى ٤٠٪ من إنتاج الفراء . وتنتج كندا ربع جلود الفرو في السوق العالمية ، ولكن الحكومة نظمت حملات الصيد للحفاظ على الوحيش faune المعرض للتهديد بالفناء مثل صغار الفقمة .

ولا يزال **الصيد البحري** حرفياً على السواحل الأطلنطية ، ولكنه أصبح

ضمن إطار الصناعة الراقية على سواحل المحيط الهادي ، مما جعل مردوده يتناقص بسبب الإفراط في استغلال قيعان البحار . وتمارس الحكومة سياسة نشيطة للحفاظ على الوحيش البحري . ويصدّر قسم كبير من الأسماك المصادة نحو الولايات المتحدة .



الصادرات الزراعية في ١٩٧٦ بملايين الدولارات : البذور الزيتية ٣٣١ ، الشعير ٥٤٢ القمح ١٧٠٨ ، حبوب أخرى ٤٢٥ ، لحوم ٢٠٧ ، فراء وجلود ١٢٤ ، حيوانات حية ١٢٠ ، خضار ١١٥ ، تبغ ٦٣ ، منتجات ألبان ، وتمثل جميعها ١٢٪ من جملة الصادرات الكندية .

الإحصائيات الزراعية لعام ١٩٧٧

المادة	المجموع بآلاف الأطنان	كولومبيا البريطانية	البرتا	ساسكاتشفان	مانيتوبا	اونتاريو	كيبك	الأقاليم البحرية
القمح	١٩٦٥١	٠,٥	١٦	٦٥	١٤	٤	٠,٥	—
الشعير	١١٥١٥	١,٥	٤٦	٣١	١٨	٢	١	٠,٥
الصويا	٩٢٠٠	—	—	—	—	١٠٠	—	—
بذور زيتية	٢٦٢٤	١٥	٣٣	٢٣	٢٨	—	—	—
ذرة صفراء	٤٣٠٢	—	—	—	١٥	٩١	٤	—
شوندر سكري	١٠٠٨	—	٥٣	—	٤٤	—	٣	—
أبقار (مجموع)	١٣١٥٤	٧	٢٤	١٠	١٣	٢٥	٢٠	٢
منها حلوبة	٢٠٤٨	٦	—	١٤	—	٣٠	٥٠	٤
حليب	٨٠١٧	٦	—	١٥	—	٣١	٤٤	٤
بطاطا	٢٤٨٧	٥	٦	٢	١٠	٢٠	١٤	٤٣
دجاج	—	—	—	—	—	٤٠	—	—



كندا : الموارد الطبيعية
(مصدّرة كبرى للمواد الأولية)

تماثل كندا ، باعتبارها قطراً واسعاً ، وقليل السكان ، تماثل السويد ، أو سيبيريا ، من حيث شدة ثرائها بالموارد الطبيعية الخاصة بالعروض العليا ، كالأخشاب وبالتروس shields القديمة المتعدنة ، أي الفلزات . ويمثل استغلال هذه الموارد ٦ ٪ من الناتج القومي الخام و ٣٠ ٪ من قيمة الصادرات في الوقت الذي تسمح فيه بنمو الصناعة في البلاد ، **بيد أن وضع هذه الثروة الكامنة في موضع الاستغلال يكون عسيراً .**

فالمسافات **الكبيرة** بين مواقع الإنتاج وأمكنة الاستغلال كالمحطات والموانئ ، أو مراكز الاستهلاك ، تتطلب استثمارات جسيمة في سبيل إنشاء البنية الأساسية من طرق ، وخطوط حديدية ، ممدَّدة خصيصاً لذلك وأنابيب . هذا كما أن المسافات لا تسمح إطلاقاً بتنظيم توزيع الموارد بصورة عقلانية بين شرقي البلاد وغربها . وتكون هذه المشكلة محلولة جزئياً بالتعاون مع الولايات المتحدة ، فيباع بترول البرتا في كاليفورنيا ، في حين تشتري البلاد الواقعة على نهر السان لوران فحم الأبالاش من الولايات المتحدة .

وتعيق **قساوة المناخ** عملية الاستغلال ، وتقسر أحياناً على إغلاق المناجم الواقعة في أقاصي الشمال من البلاد

ويتعلق **الإنتاج** بالأسواق الخارجية وبتقلباتها ، ومنذ مدة قريبة أدى كساد النيكل إلى إغلاق مناجم منطقة سادبوري (شمال بحيرة هورون) .

كما أن **الاستثمارات** الضرورية لاستغلال ثروات البلاد تكون من الجسامة بحيث تضطر كندا للاستعانة برؤوس أموال أجنبية ، ولا سيما الأمريكية منها ، وينتج عن ذلك نوع من تبعية اقتصادية وسياسية .

وقد لعبت **وفرة الموارد الطاقيّة** دوراً حاسماً في استغلال ثروة كندا ، حيث تكون الحصيلة الطاقيّة فائضة . غير أن ذلك يستدعي حلّ مشكلات عويصة .

فالطاقة الكهربائية تقدم طاقة متجددة ، بيد أن الإنتاج يتقلّص في فصل الشتاء ، بسبب تجمد الأنهار ، لا سيما وأن المواقع الكبرى التي هي قيد التجهيز حالياً ، مثل خليج جيمس ، مانيكواغان ، ونهر السلام Peace ، تكون واقعة في الشمال ويجب تحقيق ارتباطها بمناطق الاستغلال بواسطة خطوط نقل ذات توتر عال . وتشكل هذه المشاريع أيضاً محذوراً لأنها تؤدي لاختلال التوازن الايكولوجي الضار بالهنود الأصليين . وتذلّل هذه المصاعب بالاستعاضة **بمراكز** حرارية يكون معظمها من النمط النووي .

كما أن **الموارد النفطية** الواقعة في ولاية آلبرتا محدودة المخزون على خلاف ما كان يؤمّل منها قبل بضعة أعوام ، كما تكون نفقات الإنتاج مرتفعة جداً ، مثل حوض الماكنزي مثلاً .

ولا تمثل **الموارد المعدنية** المستغلة سوى قدراً ضئيلاً من المدخرات . والواقع تملك كندا على الخصوص احتياطاً من اليورانيوم يضعها في المرتبة العالمية الثانية .

ويؤلف **الخشب** ثروة عظيمة لأن ربع رقعة كندا تعتبر منتجة ، أو ٢,٥ مليون كيلو متر مربع ، ولكنها ثروة سريعة العطب بسبب الحرائق واستئصال الغابة ، وتنظم الدولة عملية الاستغلال والإشراف على عملية التحريج .

ويؤلف استغلال الثروات المعدنية ، أو الطاقيّة ، أو الغابيّة ، جبهة طلائعية تظل غير متصلة . فهي تتألف في أغلب الأحيان من خلايا منعزلة ، وتجهد الدولة حالياً لفك طوق عزلتها بإنشاء الطرق أو بالاستعانة بشبكة من الخطوط الجوية .

☆ ☆ ☆

مصادر الثروة الكندية في عام ١٩٧٧

	المجموع	المرتبة العالمية	الإنتاج العالمي
إنتاج الطاقة الأولية	١٧٠	-	-
استهلاك الطاقة الإجمالية	١٥٥	-	-
الكهرباء الكلية . مليارك و س	٣١٦	٥	-
الكهرباء الهيدروليكية مليارك و س	٢٢٠	٢	-
الكهرباء النووية مليارك و س	٢٦	-	-
الفحم : ملايين الأطنان	٢٣	١٣	-
البترول	٧٣	١٣	-
غاز طبيعي : مليار م^{٣}	٧٤	٤	٥٪
أورانيوم	٥,٧	٢	٢٠٪
نحاس	٧٨٠	٥	-
حديد	٣٣٢٠٠	٦	-
نيكل	٢٣٥	١	٣٣٪
ذهب (طن)	٥٣	٣	٣,٦٪
رصاص	٣٢٧	-	-
زنك	١٣٠٠	١	١٨٪
أميانت	١٥٣٦	٢	٢٩٪
فضة (طن)	١٣٠٠	٣	١٣٪
استهلاك الفرد من الكهرباء بالعام	١٢٢٥٠	٢	
استهلاك الفرد طن معادل بترول	٦,٥٨	٢	

الصناعة والمواصلات

كيف يمكن بعث النشاط في الرقعة الكندية ؟

تطرح تنمية مجال اقتصادي على مقياس كندا مشكلات قد تستعصي على الحل : فالمناطق النشيطة شديدة التباعد عن بعضها بعضاً ، كما أن بؤر النشاط الصغيرة المنعزلة تكون عديدة ، ومن ناحية أخرى ، تتعرض كل المناطق الكندية لجذب المناطق المجاورة للولايات المتحدة . ويعاني الاقتصاد الكندي الكثير في سبيل إثبات ذاته تجاه جارة قوية للغاية .

المواصلات : استثمار ضروري ومرتفع الكلفة

تجعل قساوة الشتاء الكندي ، كالأنهار المتجمدة ، والمدن والمطارات المحاصرة بالعواصف الثلجية ، والطرق الخافسة خلال الربيع ، تجعل من الخط الحديدي الوسيلة الوحيدة للنقل الدائم . بيد أن هذا الخط فقد بعض أهميته بحيث لا يحقق الآن سوى ٣٠٪ من حركة نقل البضائع ، مقابل ٤٠٪ للطرق المائية ، و ٢٠٪ للأنابيب . أما الطائرة فلا تحقق نشاطاً هاماً على خطوط منتظمة فحسب ، بل تقوم أيضاً بفك طوق عزلة المراكز الصغيرة المنعزلة في الشمال .

صفات الصناعة الكندية :

لقد ظلت كندا ، ولمدة طويلة ، عبارة عن دولة تصدر المواد الخام بعد معالجة بسيطة . ولم يقم التجهيز الصناعي فيها إلا خلال الحربين العالميتين بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، ولا سيا الأمريكية منها . ولكن نظراً لافتقارها إلى التقاليد الصناعية فقد كانت الإنتاجية فيها دون مثيلتها في الولايات المتحدة ، كما

كانت الأجور فيها متدنّية بالتالي . أمـا في الوقت الحـاضر فتوفر الصنـاعـة العمل لحوالي ٢٨٪ من السكان العاملين ، وهذه نسبـة لا تزال منخفضـة نسبيـاً ولا تقـدم سوى ٣٢٪ من الناتج القومي الخام PNB .

لائحة صناعات كاملة نوعاً ما :

تحتل الصناعات المرتبطة بالثروات الوطنية مكانة هـامـة : فتستغل الطـاقـة الكهرمائية لإنتاج الألمنيوم حيث بلغ إنتاجها منه مليون طن ، مما بوّأهـا المرتبـة الثانية في العالم ، اعتماداً على البوكسيت المستورد ، والخلائط الحديدية ، ومعجونة الـورق وورق الصحف الـذي منحهـا الـدرجـة الأولى في العـالم . وبلغت كندا في مضمار إنتاج الصناعة الحديديـة أهميـة دوليـة إذ أصبحت تنتج ١٥ مليون طن في ١٩٨١ حيث تقوم المصانع في الموانئ البحرية أو الداخلية . وقد أدّى تطور الإنتـاج البترولي البـالـغ ٧٢ مليـون طن حـديثـاً إلى قيـام صنـاعـات كيماويـة طلائعية .

هذا وتكون الصناعات التحويلية متفاوتة في تطورها : فتقوم كنـدا بتجميع سيـارات ولكنهـا لاتصنـع سـوى سيـارات ثلجيـة auto-neiges . ويكـون إنتـاج الصناعات الجوية دقيقة التخصص أيضاً ، وتتمثل في شركـة هـافيللانـد كانـادير ، شأن صناعات الأدوات الكهربائية كالعنفات والأفران الكهربـائيـة . هـذا ويقوم فيهـا أيضـاً عـدد من مصـانع سلع الاستهلاك المبعثرة فوق رقعـة أرضهـا ، وتصنع منتجات استخدام عادي من أجل السوق المحلية (شكل ٢) .

مشكلات إقليمية :

تظل الصناعة في كل الغرب والوسط الكندي صناعة شديـدة التخصص مثل صناعة الألمنيوم الحرارية في كيتيمات Kitimat على سـاحل المحيـط الهـادي ، أو لا تصنـع سـوى مـا هـو ضروري للحـاجـات المحليـة . وعلى العكس فـإن أونتـاريـو



صناعة كندا

الشكل ٢

وكيبك تنتجان في الوقت ذاته للأسواق الإقليمية وللسوق الوطنية ، وحتى الدولية بالاتفاق مع الولايات المتحدة . وإذا كانت مقاطعة أونتاريو هي الأكثر أهمية فهي لا تحاول مثل كيبك إقامة قائمة كاملة من صناعات تحقق لها الاستقلال الاقتصادي .

☆ ☆ ☆

الكنديون

كثافات ضعيفة :

لا تعني الكثافة الوسطية وهي ٢,٥ نسمة في الكيلو متر المربع شيئاً تجاه اتساع رقعة الأراضي الشاغرة . فمعظم السكان أو ٢٤,٥ مليون نسمة ، يقيمون في شريط جنوبي يدعى كندا المفيدة . غير أن شبه الجزيرة الأونتارية ، ووادي السان لوران هما الوحيدان اللذان يتصفان بكثافة شبه أوروبية .

استيطان سكاني نشيط :

لقد تضاعف سكان كندا أربع مرات منذ ١٩٠٠ ، ولكن نسبة النمو لا تتوقف عن الاسترخاء منذ ١٩٦٠ . ويبلغ النمو الطبيعي حالياً ٨,٤ بالألف أو ٠,٨٪ مقابل ٧,٩٪ في الكويت في ١٩٨١ ، أي عشرة أضعاف كندا . وتكون نسبة الوفيات ضعيفة جداً ، ٧,٣ بالألف ، وهو طبيعي في قطر فتيّ ذي مستوى صحي عال . ولقد تعرضت نسبة التوالد إلى انخفاض عظيم : فبين ١٩٥٥ و ١٩٧٨ هبطت من ٢٨ بالألف إلى ١٥,٧ بالألف . ولم نعد نلاحظ ، كما في الماضي ، خصوبة أكثر شدة لدى الكنديين الفرنسيين بالموازنة مع الكنديين الناطقين بالإنكليزية . وتكون حصيلة الهجرة إيجابية أيضاً لأن عدد الداخلين كان ١٥٠٠٠٠ سنة ١٩٧٦ مقابل ٨٠٠٠٠ من المغادرين . ولكن حركة الهجرة إلى كندا تبدو أقل نشاطاً مما كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية ، لأن كندا تحاول اجتذاب العمال المختصين الذين يستقر نصفهم في ولاية أونتاريو .

حركات داخلية معقدة :

هناك ثلاث حركات تحدث في وقت واحد :

من الأرياف نحو المدن : ففي عام ١٩٠١ كان ٣٧٪ من الكنديين يعيشون

في المدن . أما الآن فإن المدن تضم ٧٧٪ من سكان البلاد . وهناك ثلاث مدن مليونية عملاقة تستفيد أكبر استفادة من هذا التمركز وهي : تورنتو وفيها ٣ ملايين نسمة حالياً ، ومونتريال ٣ ملايين أيضاً ولكن بسرعة أقل تسارعاً ، وأخيراً فانكوفير وهي المدينة الكبيرة الوحيدة في الغرب الكندي وفيها ١,٣ مليون نسمة .

ومن سائر أنحاء كندا باتجاه ولاية أونتاريو : ذلك أن الاقتصاد الشديد الحيوية في هذا الإقليم ، ومناخه الأكثر عذوبة ، لأن الكرمة تجود على ضفاف البحيرات الكبرى ، ومجالات العمل في مدينة تورنتو ، تتضافر جميعاً على جذب المهاجرين الجدد ، والريفيين ، وحتى من أهل منطقة كيبك . وتحوي ولاية أونتاريو حالياً ٨ ملايين نسمة مقابل ٦ ملايين في مقاطعة كيبك ، بعد أن كانتا متعادلتين في بداية هذا القرن .

ومن مختلف القطاعات الاقتصادية نحو القطاع الثلاثي : والذي يضم حالياً ٦٣٪ من العاملين مقابل ٤٤٪ في عام ١٩٥١ .

إعمار سكاني متنوع : يميز على المستوى الرسمي أربع مجموعات عنصرية هي :

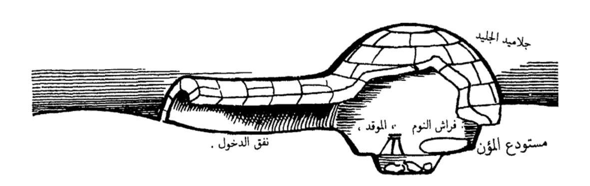
البريطانيون : وكانوا يؤلفون ٤٤,٦٪ من السكان عام ١٩٧٦ .

الفرنسيون : ويشكلون ٢٨,٧٪ .

الكنديون الجدد : ٢٥,١٪ منهم ٢٣٪ من أصل أوروبي .

الأسكيمو (شكل رقم ٣) والهنود الحمر : ١,٥٪ .

والواقع هناك كتلتان تحاولان التشكل والتكتل ، وهما الناطقون بالإنكليزية ، ويؤلفون ٧١٪ من السكان والناطقون بالفرنسية ٢٩٪ . ولا تبدو



مخطط للإيغلو : بيت الأسكيمو

الشكل ٣

ازدواجية اللغة التي يريدها الفرنسيون غير ذات معنى بالنسبة للكنديين الجدد ، الذين يفضلون تعلّم الإنكليزية التي تمثل الثقافة السائدة في القارة الأمريكية .

☆ ☆ ☆

تطور نسبة السكان العاملين حسب القطاعات الثلاثة

السنة	القطاع الأولي	القطاع الثنائي	القطاع الثلاثي
١٩٥١	٢٠	٣٦	٤٤
١٩٦١	١٢	٣٦	٥٢
١٩٧١	٨	٣٢	٦٠
١٩٧٦	٦	٢٨	٦٦

المدن الكندية :

إذا تفحّصنا أوضاع الحياة ، السائدة في المدن الكندية ، استطعنا أن نميز ، وذلك استناداً إلى الدراسات الحديثة التي تمت لحساب وزارة الدولة للشؤون العمرانية ، أربعة نماذج من الأحياء :

ـ الأحياء المتقهقرة : وهي الواقعة في قلب أكبر المدن الكندية ، وتكون مأهولة بجماعات من الفقراء . وتكون المساكن فيها غاصة وهرمة ، ويكون الجنوح فيها منتشراً ، ولا سيما بين الشبان ، كما أن حالة السكان الصحية تكون ، بكل وضوح ، دون مثيلتها في الأحياء الأحسن حالاً .

الأحيـاء المستقرة : وتعطي صورة مختلفـة تمـامـاً ، مع أنها مـأهولـة بـأنـاس من ذوي الـدخـل المتواضع . وهي وإن كانت أبعـد من أن تكون موسرة ، فلـديهـا مـا يكفي من الجـاذبيـة على الصعيـد الفردي وعلى المستوى الاجتماعي ، مما يجعل سكانها متعلّقين بها ، وقلّما يبـدّلون مسـاكنهم . ويبـدو على السكان أنهم معجبون بالحياة الهادئة السائدة فيها .

ـ أما الأحياء المتجدّدة ، فهي أحياء قلب المدينة ذات الكثـافـة السكانيـة الضعيفـة : ففي هـذه الأحياء الكثير من البيوت الصغيرة الخاصة ، التي توفر إمكانات هامـة للترميم والتي تبـدو مرغوبـة أكثر فأكثر من قبل العائلات القادرة على شراء مسـاكنهـا ، مع أنـه لا يزال الكثير من العـائلات من الـذين يرغبون العيش في دارة « فيلا » في الأرباض « الضواحي » حسب المثل الأعلى الأمريكي . وهكذا نجـد حركـة شبـه مستمرة ، وهي أن النـاس الميسورين من مستوى ثقـافي مرتفـع ، أي أعلى من المتـوسـط ، يحـاولون ، على العموم ، أن يحلّوا مكان العـائلات الفقيرة التي كانت تقطن في هـذه الأحيـاء منـذ زمن طويل .

ـ وهناك قطاعات أخرى في المـدن الكبرى ، أصبحت هـدف تطوير على مقيـاس كبير ، بسبب نمو وتطور المدن ذاتها . فقد قامت فيهـا أبراج سكنيـة على شكل موجـات متعـاقبـة ، مثلمـا حـدث في تورنتو على طول خط مترو شارع يونج . ويستطيع هذا التطور أن يقدم فرصة تصابي العمارات ، بيـد أن نمط الحياة قد تبدل ، ذلك لأن الأبراج العالية تؤلف بيئة لا تستجيب دائماً مع الحاجات الإنسانية .

كندا اليوم . نيسان ١٩٨٠



الإنسان الكندي

من الواجب أن يؤلف الكنديون شعباً يجهل المشكلات الخطيرة : ففي عالم يضيق ذرعاً بسكانه لا يفتقر الكنديون إلى المكان الرحب الفسيح ، كما أنهم أغنياء لأن دخلهم الوطني الخام PNB بلغ ٩٦٦ مليار فرنك فرنسي عام ١٩٧٧ ، مما يضعهم في المكانة الثالثة بالعالم ، كما أن الناتج الوطني الخام الفردي يبلغ ٤١٥٠٠ فرنك أو ٨٣٠٠ دولار أي يحتلون المرتبة السادسة للدخل الفردي . كما يكون مستوى استهلاكهم عالياً ، فلديهم ٣٧٤ سيارة سياحية لكل ١٠٠٠ مواطن ، كما أن نسبة الوصول إلى التعليم العالي تعتبر من أعلى مثيلاتها في العالم ، إذ تبلغ ٤٩,٨٪ أو نصف طلاب الثانوي تقريباً . وإذا استثنينا أزمة عام ١٩٧٥ فإن الدخل القومي الخام يتقدم حسب نسق يبلغ ٣,٧٪ في العام . غير أن المصاعب والمشكلات لا تكون معدومة .

ثروات غير مستغلة كما يجب :

إذا كان الميزان التجاري فائضاً لأن الصادرات بلغت في عام ١٩٧٧ مقدار ٤٣,٢ مليار دولار كندي ، مقابل ٤٢ مليار دولار للاستيراد ، فإن ميزان المنتجات المصنوعة يكون عاجزاً ، بينما تبيع كندا معظم صادراتها بحالة خام . ومن ناحية أخرى فإن ميزان المدفوعات خاسر بسبب الفوائد المدفوعة للمستثمرين الأمريكيين أو سواهم . وكان الدين الخارجي يمثل ٥٠٪ من الناتج القومي الخام عام ١٩٧٨ . ويدل هذا الوضع على أن الكنديين يفتقرون للمبادهات ولرؤوس الأموال اللازمة لاستغلال بلدهم . وأخيراً تستأثر الولايات المتحدة بنسبة ٧٠٪ من المبادلات الكندية . وربما يكون من المزعج وجود جار بمثل هذه القوة ، وقد قررت الحكومة الإشراف على الاستثمارات الأجنبية وتحديدها .

ثروة غير عادلة التوزيع :

يختلف الدخل العائلي حسب معدلات كبيرة جداً بين إقليم وآخر : فهو يبلغ ١٨٠٠٠ دولار أي يقارب دخل الفرد الكويتي أو القطري في أونتاريو في حين لا يزيد عن ١٣٥٠٠ دولار في المقاطعات البحرية الشرقية . ففي هذه المقاطعات ذاتها تكون البطالة عالية جداً فبلغت ١٢٪ عام ١٩٧٧ مقابل ٦,٢ في أونتاريو ، و ٨,٧ في كيبك وعلى كل أصابت البطالة في مطلع عام ١٩٨٣ ١,٥ مليون نسمة أو ١٢,٨٪ من القوى العاملة . غير أن هذه الفوارق تكون معوّضة على كل حال بعون فيديرالي إلى المناطق الأقل رخاءً .

إقليم كيبك ومشكلة الوحدة الوطنية :

يعتبر أبناء مقاطعة كيبك أنفسهم مختلفين عن سائر الكنديين . فقد كانوا أول من دخل البلاد ويفتخرون باحتفاظهم بثقافة ذات أصالة بلغتها وبإيمانها الكاثوليكي . وقد خضعوا لوضع استعماري خلال أمد طويل ، فقد جرى استبعاد « هؤلاء الزنوج البيض الأمريكيين » لمدة طويلة عن الحياة الاقتصادية وعن وظائف المسؤولية كالإطارات والوظائف السياسية الخ .. ولا يزال دخلهم حتى الوقت الحاضر أقل ارتفاعاً من دخل الناطقين بالإنكليزية ، كما أن فرص ارتقائهم تظل أقل ، وإذا كانوا قد حصلوا على حق ازدواجية اللغة في عام ١٩٦٩ في كل كندا فإن هذا القانون لا يجري تطبيقه إلا في مقاطعة كيبك حيث يؤلفون الأكثرية .

وقد استفحل شعورهم القومي منذ بضعة أعوام مما أدّى إلى تشكل حزب كيبكي راح يطالب بالاستقلال مما دعا لإجراء استفتاء في عام ١٩٨٠ . ولكن إذا حصلت كيبك على الانفصال فما هو مصير الأقليات الفرنسية في المقاطعات الأخرى كالأكاديين في إقليم نيوبرنسويك ؟ كما يمكن التفكير إذا حصل وتفكك الاتحاد الكندي فإن المقاطعات التي لا يميزها شيء عن الولايات المتحدة على المستوى الاقتصادي والثقافي ستشعر بنفسها وكأنها مجذوبة من طرف قطب

أمريكي جاذب . ترى ما هو مصير كندا في مثل هذه الحالة ؟ وعلى كل ظلت كيبك جزءاً من الاتحاد الكندي نتيجة الاستفتاء لأن مصالح الغالبية كانت في ذلك .

☆ ☆ ☆

منشور الحزب الكيبكي من أجل استفتاء عام ١٩٨٠ :

يتم التطور الاقتصادي على حساب مصالح كيبك ، في حين تكون هذه المقاطعة في أمسّ الحاجة لأن يكون اقتصادها مزدهراً وحركياً ، لضمان بقاء ثقافة الغالبية العظمى من سكانها على المدى الطويل . وقد برهن النظام الاتحادي بأنه كان يلعب دوماً تقريباً ضد مصالح أبناء كيبك . ولم يعد هناك وقت للانتظار من أجل وضع حد لمثل هذا الوضع . ولا تستطيع أية جماعة أن تقبل إلى ما لا نهاية أن تعهد بمصيرها الخاص للآخرين دون أن تخسر كرامتها ودون التعرض لخطر قاتل لبقائها .

وتملك مقاطعة كيبك كل الموارد المادية والبشرية الضرورية لأن تمارس سيادتها السياسية . ولكنها لا تدّعي بأن لديها القدرة لأن تعيش ضمن العزلة أكثر من أية جماعة عصرية أخرى . فهي تشعر بالعديد من الشبكات المؤلفة من العلاقات المتبادلة التي توحّد مختلف الجماعات فيا بينها ، وهي مستعدة لأن تحتل مكانها كشريك مسؤول ونشيط فعّال ، ولا سيا فيا يتعلق بهذه الارتباطات المتميزة الناجمة عن التاريخ والجغرافيا .

وبالتالي فإن حكومة ناشئة عن الحزب الكيبكي ستتعهد بتحقيق السيادة السياسية بالطرق الديموقراطية ، وتعرض على كندا مشاركة اقتصادية مفيدة للجانبين .

الشعور بالذات الكندية :

إن هذا الشعور الذاتي الذي يجب علينا تعليمه ونشره ، هو الشعور بالولاء لشيء يتجاوز الإقليم أو المدينة التي يحيا فيها الإنسان حياته ، ويجب أن يجد أساسه في جماعة حقوق المواطن الجوهرية ، وفي وصول هذا المواطن إلى حقه في قدر من وفرة الثروات الكندية وفي ثراء وتنوع قوانين البلاد . وفي هذا المعنى يجب أن تتفوق المصلحة الوطنية على المصلحة الإقليمية ، مهما كان ذلك عسيراً أحياناً بالنسبة لبعضنا ، من الذين يصعب عليهم تناسي انتائهم إلى مدينة أو إلى مقاطعة ، لأن الحكومات الإقليمية والجماعات الأخرى تحاول أن تجعل الغلبة لمصالحها .

خطاب رئيس الوزراء بيير ترودو ١٩٨٠/٤/٣٠

أمريكا اللاتينية

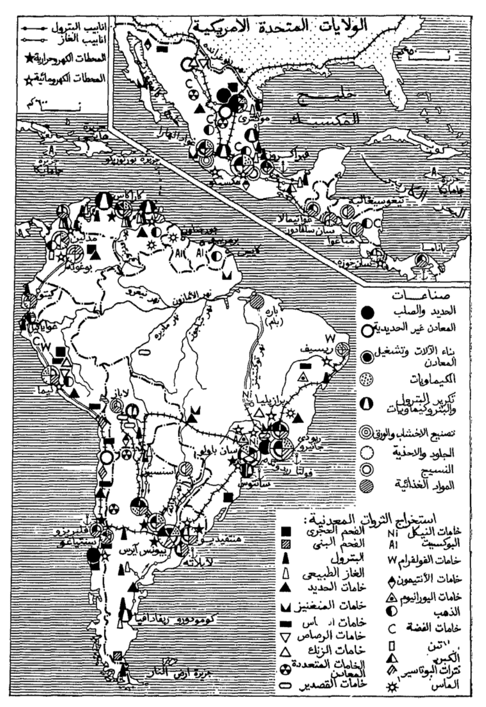
جزء من العالم الثالث

تضم أمريكا اللاتينية مجموعاً جغرافياً فسيحاً يؤلف ١٦٪ من مساحة الأرض العائمة ، إذ تشتمل على **أرخبيل الأنتيل وبرازخ أمريكا الوسطى والمكسيك** ، وتتألف بالأصل من فتوحات قام بها الإسبان والبرتغاليون على حساب هنود أمريكا خلال القرن السادس عشر ، ثم تحولت إلى مستعمرات تشبّعت « باللاتينية » **التي تتجلّى بالديانة الكاثوليكية وبانتشار اللغتين الإسبانية والبرتغالية** ، ماعدا شطر من جزر الآنتيل ودويلات غويانة الثلاث . ولقد **تحررت في بداية القرن التاسع عشر** ، ولكنها ظلت مشتتة على شكل دول صغيرة ، وبعضها في طريقه إلى « **التخلص من الاستعمار** » بحيث أصبحت أمريكا اللاتينية **تؤلف ثلاثين وحدة سياسية مابين دولة مستقلة وأراض تابعة** ، متفاوتة الأبعاد ، وذات أوضاع سياسية أو اقتصادية على درجة كبيرة من التنوع ، دول تتقاسم « شبه القارة » ، التي ظلت خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين عرضة لاضطرابات حدودية أو لحروب أهلية شديدة الفتك ، تتلاعب في مقدراتها مصالح الدول العظمى ، لأن الحرب الأهلية في نيكاراغوا ، في عهد الديكتاتور سيموزا ، كلفت البلاد قرابة ٤٠٠٠٠ قتيل في بلد لا يزيد تعداد سكانه عن ٢,٥ مليون نسمة . وفي هذه **الجمهوريات الاتحادية** ، كالمكسيك ، وفنزويلا ، والبرازيل والأرجنتين ، أو « الموحدة » تشهد الفترات الثورية والديكتاتوريات ، التي تقوم على أيدي عسكريين Caudillo ، أو رجال الأعمال Compradors ، تشهد على **غليان**

سياسي مستمر . وقد أصبحت كوبا منذ عام ١٩٥٩ قطراً اشتراكياً وعضواً في الكوميكون ، وتكون البنى الاقتصادية والاجتماعية التي تحمل الطابع العتيق الموروث عن المرحلة الاستعمارية هي المسؤولة عن ذلك ، مما يساعد على **هيمنة الرأسمالية الأجنبية** و « زعامة » **الولايات المتحدة** ، والتي أصبحت بموجب مبدأ مونرو ١٨٢٣ الذي نادى بشعار « أمريكا للأمريكيين » ، أصبحت تضم « نصف الكرة الغربي » ضمن نطاق نفوذها ، وهكذا **اتخذت منظمة الدول الأمريكية** ، التي **أنشئت في عام ١٩٤٨ من العاصمة واشنطن مقراً لها** .

وتجابه كل أمريكا اللاتينية مشكلات التخلف بدرجات متباينة . ففي بعض الحالات نجد أن الناتج الداخلي الخام الفردي عالياً نوعاً ما ، ويعود ذلك إمّا لدعم الدولة المسيطرة ، مثل بورتوريكو التابعة للولايات المتحدة ، ٣٣٠٠ دولار ، أو نصف الدخل الفردي في الولايات المتحدة ، أو بسبب الثروة النفطية ، مثل فنزويلا التي يرتفع الناتج الداخلي الفردي الخام فيها إلى ٢٨٠٠ دولار . هذا ويكون لأكثر **دول أمريكا اللاتينية تطوراً** ، مثل الأرجنتين والأوروغواي ، اللتين يتصف اقتصادهما بالركود ، أو البرازيل والمكسيك اللتين تشهدان نهضة محسوسة ، دخلاً فردياً يتراوح بين **١٠٠٠ و ٢٠٠٠ دولار** ، أي دخلاً يماثل البرتغال وإسبانيا ، في حين لا يتجاوز لدى أكثرية **الدول الأخرى خمسمئة دولار** ، أي يماثل الدخل في أقطار المغرب العربي أو متوسط الدول العربية غير النفطية . ولكن دولة هايتي لوحدها ، هي التي يهبط الدخل الفردي فيها إلى ٢٥٠ دولاراً ، تدخل في زمرة أقطار أفريقيا السوداء وآسيا المدارية ، أو تندمج في زمرة أكثر دول العالم فقراً وجهلاً وأمراضاً ، أو العالم الخامس .

ويمثل القطاع الثانوي « الصناعي » على العموم مابين ١٥ إلى ٣٠٪ من السكان العاملين (شكل ١) ، بما في ذلك العاملين في الصناعة



الشكل ١

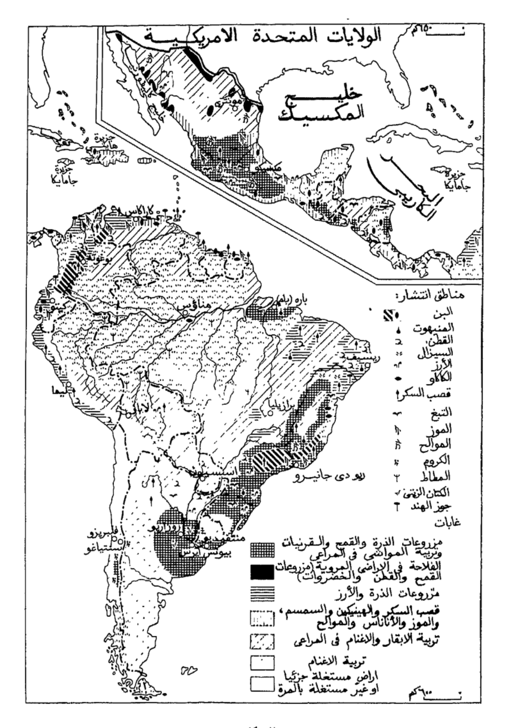
الصناعة في أمريكا اللاتينية

الاستخراجية ، أما القطاع الثلاثي فيكون أكثر اتساعاً . ويكون أحياناً « قطاعاً ثلاثياً بدائياً » ، حيث تحتل الخدمات المنزلية والمهن الصغرى مكانة واسعة . أما **حصة العاملين في الزراعة (شكل ٢) ، التي تتجه للتناقص بصورة صريحة ، فتتراوح بين ٣٠ و ٦٠٪ وأحياناً دون ٢٠٪ ،** كما في الأرجنتين والأوروغواي ، **أي تقل عن نسبتها في الأقطار الآسيوية الفقيرة أو الأفريقية .**

وتسود في هذه المنطقة من العالم **الملكيات الزراعية الكبرى وقد جرت محاولات لتطبيق الإصلاح الزراعي ولكنها نادراً ماأنجزت تماماً ، اللهم إلاّ في كوبا ، وفي المكسيك حيث** تمّ استملاك ٢٥ مليون هكتار ، بعد ١٩٣٣ ، وجرى توزيعها على الجماعات القروية التي شكلت ما يسمى آجيدوس ejidos ، ولكنها أصبحت في أيدي فلاحين فقراء ، محرومين من الوسائل التقنية ، مما جعل هذه الملكيات الصغرى لاتنتج سوى ما يكفي لمعيشة العاملين فيها . ويظهر **انعدام المساواة** في كل مكان من أمريكا الجنوبية . ففي البرازيل ، كما هو الحال في الأرجنتين ، يستأثر ٥٪ من العائلات ، وهي الغنية ، بربع الدخل الوطني ، في حين يكتفي أكثر قطاعات الشعب فقراً ، وهم ٢٠٪ من السكان ، بنسبة ٥٪ من الدخل المذكور .

وتنتسب أمريكا اللاتينية ، من حيث وجهة النظر إلى وتيرة نموها الديموغرافي ، إلى العالم الثالث . فابتداءً من الفترة الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ ، كان **الفائض الطبيعي** يقارب ٢٪ سنوياً ، كي يبلغ ٣٪ بين ١٩٥٠ و ١٩٧٠ . وهكذا تضاعف عدد السكان ثلاث مرات في خلال نصف قرن فقفز من ١١٥ مليون نسمة في ١٩٣٠ إلى ٣٦٠ مليوناً في ١٩٨٠ .

ويؤلف الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة في معظم دول أمريكا اللاتينية ٤٠٪ وحتى ٥٠٪ من مجموع السكان هذا مقابل ٤ إلى ٦٪ من الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة ، هذا بينما لاتزيد نسبة الذين تقل أعمارهم



الشكل ٢

الزراعة في أمريكا اللاتينية

عن ١٥ سنة عن ٢٣٪ في السويد . أما في الأرجنتين والأوروغواي ، وحتى الشيلي ، حيث ينتمي جميع السكان تقريباً لأرومة أوروبية ، فإن الفائض السكاني يكون أقل من ذلك ، بحيث تمكن مقارنته مع إسبانيا أو ١٪ . ويقوم **التوسع الديموغرافي بتغذية تحضّر عمراني فوضوي** . ويكفي في هذا المجال أن نشير إلى أحياء القصدير في العواصم[1] . وحتى الآن لا زالت **الموارد الغذائية تواكب** ، رغم ضعف المردود الزراعي ، **النمو السكاني** ، وعلى خلاف مايحدث في آسيا الجنوبية الشرقية ، أو في أفريقيا ، فإن المجاعات تكون استثنائية ، وإن كان **سوء التغذية ملحوظاً في الكثير من مناطق** أمريكا اللاتينية .

ولم تأخذ تبعيّة أمريكا اللاتينية اقتصادياً تجاه الدول الصناعية بالتناقص ، إلّا منذ عهد قريب جداً ، تلك الدول التي تجد هنا المواد الأولية والسلع الغذائية الرخيصة ، وأسواقاً لتصريف منتجاتها الصناعية ، وأمكنة رحبة لاستثمار رؤوس أموالها . وإذا كانت المكسيك قد عمدت إلى تأميم حقول نفطها في ١٩٣٨ ، فإن فنزويلا وهي إحدى أعضاء منظمة الدول المصدّرة للنفط ، لم تسيطر على مواردها إلا منذ ١٩٦٧ . **ولقد استطاعت الدول التي تملك عائداً نفطياً ، أو بعض الدول الغنية نسبياً ، مثل البرازيل والأرجنتين ، لوحدها ، أن تتحرر جزئياً من رؤوس الأموال الأجنبية** كي ترسي قواعد صناعة وطنية . وتظل كل هذه الدول مصدّرة للمواد **الأولية الخام** ، من معدنية وزراعية ، والتي تتعرض أسعارها لمضاربات شديدة . إذن يتعلق الازدهار الاقتصادي بمحصول واحد وبسوق واحدة . هذا مثلما نلاحظ أيضاً أن نسبة النمو الاقتصادي تحوم منذ بضعة أعوام حول ٥٪ في حين **أن التضخم المزمن** يحتل رقماً قياسياً في البرازيل ، وفي الأوروغواي ، وفي الشيلي ، وعلى الخصوص في الأرجنتين ، مما يعرض هذه الأقطار لهزّات اجتماعية وسياسية مؤلمة .

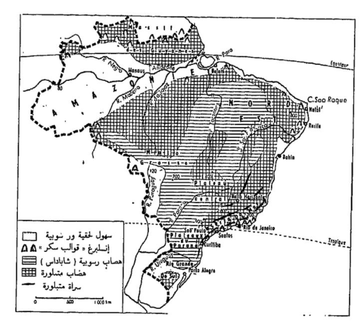
---

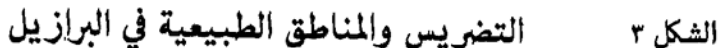
(١) وهي أحياء بائسة غير منظمة تسكنها جماعات وافدة من الريف ، وتدعى العشش في مصر ، والصرايف في العراق والصنادق في دول الخليج العربي ، والبراكات في سورية .

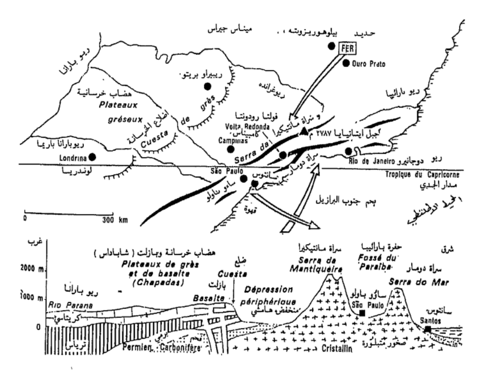
البرازيل

« القارة البرازيلية »

تكون البرازيل ، التي تبدو وكأنها تتقدم في المحيط الأطلنطي لملاقاة أفريقيا ، تكون **معزولة** في أمريكا الجنوبية بواسطة فيافي الأمازون وماتّوغراسّو . ونظراً لوقوع عرضها الأعظم فوق خط العرض ٥ جنوباً ، أي على عرض رأس ساءوروك ، **ولوقوع معظمها في نطاق مابين المدارين ، فهي تمتد على مساحة تبلغ ٨,٥ ملايين كيلو متر مربع ، أو مايقارب مساحة الصين ، أو نصف مساحة الوطن العربي الكبير . وتغطي « الهضبة البرازيلية » الفسيحة ثلثي مساحتها (شكل ٣)** . وهي عبارة عن ترس shield قديم ، تعرض لخفس في الشمال الغربي ، ولنهوض في الجنوب الشرقي . أما من طرف المحيط الأطلسي فهناك صدوع تجزّئ هذا الترس إلى **كتل جبلية** جانحة basculés ، تؤلف جبال سراة مانتيكيرا (شكل ٤) ، والممتدة بين مدينة رسيف و پورتو آليڤرو ، والتي ترتفع إلى ٢٧٨٧ م . وتواكب **« قوالب السكر » الغرانيتية** سبحة من سهول ساحلية ، مفرّضة **بخلجان واسعة مثل خليج ريودو جانيرو** . أما في **اتجاه الداخل فتسود سطوح منبسطة ،** هي عبارة عن أشباه سهول Pénéplaines متبلورة تنبثق فوقها بعض الأعراف المؤلفة من صخور أكثر مقاومة ، مثل موائد الصخر الرملي المسماة شاپاداس chapadas ، أو تكون عبارة عن لابات بازلتية . غير أن **حوض الأمازون** الذي اعتراه خفس بسيط ، أدّى لتراكم أكثر من ٣٠٠٠ م من رسوبات ناعمة (غرين) فيه ، ويتعرض لالتواء انكباسي subsidence على شكل مقعر




الشكل ٣ التضريس والمناطق الطبيعية في البرازيل



الشكل ٤ الشرق:المنطقة الحيوية في البرازيل

فضفاض ، بين الهضبة البرازيلية من جهة وبين هضبة الغويانة من الشمال ، من جهة أخرى ، وهو يؤلف منخفضاً ، لا يزيد ارتفاعه في أي مكان عن ٣٠٠ م ، وبعد أن يتخذ شكلاً شبه دائري عند حضيض جبال الآند غرباً ، نراه وقد أصبح ضيقاً عند الاقتراب من المصب العريض . ويكون حوض الآمازون النهري غير متناظر . فالنهر يجري في محور المقعر synclinal مع انحدار غير محسوس ، وذلك حتى في « ممر » أوبيدوس Obidos ، ولا تصل إليه أكثرية روافده من الضفة اليمنى إلا بعد أن تقفز من فوق الجنادل والشلالات عند منحدر الهضبة البرازيلية . وتملك البرازيل أيضاً شطراً من سهول پاراغواي المستنقعية والتي تسمى پانتانال Pantanal .

ويعمل كل من ارتصاف التضريس والموقع على درجات العرض على جعل المناخ نطاقياً ، والذي يكون بسيطاً من الناحية الحرارية ، ولكنه يضطرب بشذوذات مطرية . **فالبرازيل الاستوائية** تتجاوز مهد سهول الأمازون المنخفضة . وتتراوح درجات الحرارة الشهرية بين ٢٥° و ٣٥° ويكون **الحر ثابتاً وعالياً في حين تزيد كمية الأمطار السنوية عموماً عن المترين** . غير أن النظام الاستوائي ، الذي يتميز بحدّين أقصيين في الاعتدالين ، لا يسود إلا في غرب الحوض ، حتى أن لمدينة ماناؤوس فصل جفاف خلال الشتاء الجنوبي ، أي من تموز إلى أيلول . وهكذا يميز أهل البلاد فصل « ربيع Verâo » وفصل أمطار طويل ومرهق هو « الإشتاء hivernage » .

وتستفحل الملامح المدارية فوق الهضبة البرازيلية : فتكون السعات الحرارية أكبر ، وفصل الجفاف أكثر وضوحاً . ولكن **هناك برازيل شبه قاحلة شاذة تقع على درجات عرض منخفضة** ، بين درجة العرض ١٧ ، أي في الحوض الأعلى لنهر ساؤو فرانسيسكو ، ودرجة العرض ٣ جنوباً عند مدينة فورتاليزا شمال رأس ساءوروك . ذاك هو إقليم « نوردسته Nordeste » أو

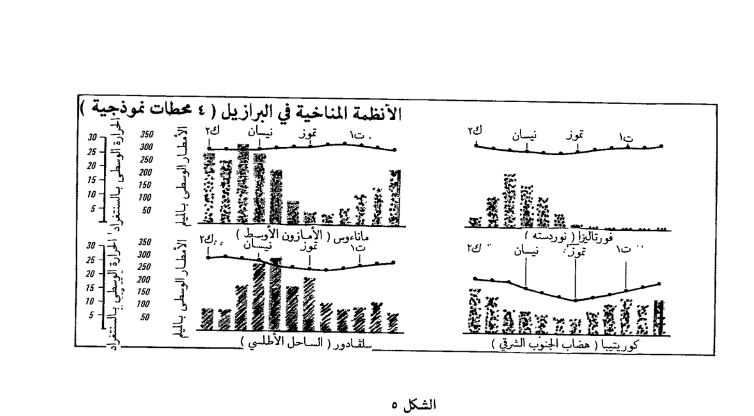
الشمال الشرقي الذي يدين لعوامل مناخية معقدة بـأمطـار تقل وسطيـاً عن المتر ، أو تقل عن ٥٠٠ مم أحياناً كما في « مضلّع الجفاف » ، كما تكون عديمة الانتظـام في المكان والزمان . أما **الساحل الأطلنطي** ذو الجروف القائمة فيظل بين سلڤادور وسانتوس ، على العكس ، مصحوبـاً بتيـار بحري من ميـاه استوائيـة ، وبـالتـالي **حاراً ورطباً** . غير أن **لمدينة ساءوپاولو ، التي تبعد عن البحر مسـافـة ٥٠ كيلو متراً والتي تقع على ارتفاع ٨٠٠ م ، فصل شتـاء أكثر برودة ، لأن حرارة تموز لا تقل عن ١٤ درجة** ، هذا مثلما تتعرض أحيـانـاً شجيرات القهوة للصقيع . وتظهر **البرازيل شبه المدارية** فيما وراء خط العرض ٢٥ ابتداء من مدينة كوريتيا ، أو بالأحرى البرازيل المعتدلة مع فصل شتاء جنوبي لا يزال لطيفاً .

☆ ☆ ☆

تتألف البرازيل من ثلاث مجموعات كبرى قليلة التضاريس ، هي سهل الأمازون الشـديـد الاتساع ، و « الهضبة البرازيلية » والتي هي أكثر اتساعاً أيضاً ، وأخيراً حافتها الجبلية المطلة على المحيط الأطلسي ، والتي لا يتجاوز عرض سهولهـا السـاحليـة عن ١٠٠ كيلو متر . إذن تحتل الأراضي المنخفضـة التي يقل ارتفاعهـا عن ٢٠٠ متر مقـدار ٤١٪ من مسـاحـة البلاد ، والمضـاب المنخفضـة ، أي بين ٢٠٠ و ٨٠٠ م أكثر من نصف مساحة البلاد أو ٥٢٪ . وهناك نسبة تزيد عن ٦٪ مؤلفة من هضاب عاليـة تصل إلى ١٢٠٠ م ، أما البقاع الجبلية الحقيقية فلا تشكل أكثر من ١٪ من رقعة البلاد .

تظهر المنحنيات المطرية الحرارية الأنظمة المناخية الأربعة التي تتميز بها البرازيل

- مناخ سهل الأمازون الأوسط ومثاله مدينة ماناؤوس
- مناخ الشمال الشرقي ونموذجه فورتاليزا
- مناخ الساحل الأطلنطي الرطب ومثاله مدينة سالڤادور
- مناخ هضـاب الجنوب الشرقي كما في كورتيبـا حيث تصبح السعـة الحراريـة ملحوظـة . ولكن يظل الشتاء لطيفاً ، وتكون الفروق المطرية محسوسة ايضاً ، فبينمـا يكون متوسـط الأمطـار السنويـة ٢١٠٠ مم في مـانـاؤوس ، يهبـط إلى ٧٦٠ في فـورتـاليزا ، ويبلـغ ١٨٤٠ مم في سلڤـادور ، و ١٣٨٠ في كوريتبا . بيد أن فصل الجفاف لا يكون قاسياً حقاً إلا في فورتاليزا ، حيث يمتد على ستـة أو ثمانيـة شهور (شكل ٥) .

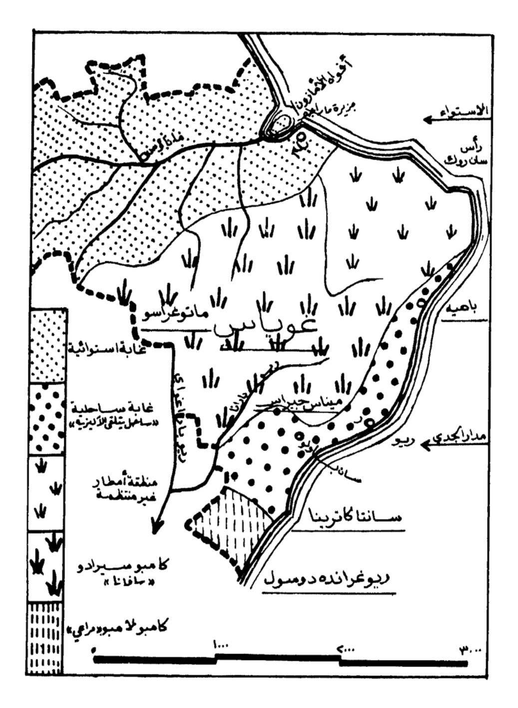


الأنظمة المناخية في البرازيل (٤ محطات نموذجية)
الحرارة الوسطى بالسنتغراد
الأمطار الوسطى بالمليم
30
25
20
15
10
5
350
300
250
200
150
100
50
ك٢
نيسان
تموز
ت١
ماناءوس (الأمازون الأوسط)
فورتاليزا (نوردسته)
سلڤادور (الساحل الأطلسي)
كوريتيبا (هضاب الجنوب الشرقي)

الشكل ٥

البرازيل : المناطق الطبيعية

تتوزع الرقعة البرازيلية بين **ثلاث مجموعات جغرافية كبرى : فالمشرق الأطلنطي** ، هو المنطقة الطبيعية الوحيدة التي تأثرت بعمق بالعمل الإنساني . أما **الداخل فهو بالنسبة للبرازيليين إقليم** الأدغال Sertâo ، أو **الغابة الأمازونية** (شكل ٦). **وتؤلف** هذه الغابة أكبر كتلة غابية كثيفة في عروض مابين المدارين . وعند النظر إلى **السلفا** Selva من الطائرة ، **فإنها تعطي** انطباع الكثافة والاستمرارية ، وهكذا لا يكون « الجحيم الأخضر » **مقطّعاً إلا** بواسطة الأنهار ، أو ببقع الرمال والوحول ، التي يشكلها **نهر الأمازون** الذي يبلغ طوله **٦٤٠٠** كيلو متراً وروافده ، ويتحول هذا النهر عند مصبه إلى خليج بحري حقيقي يمتد على عرض ٣٠ كيلو متراً . ويسكب في المحيط كمية من المياه العذبة تعادل خمس مياه أنهار العالم قاطبة . وعند دخول النهر إلى بلاد البرازيل يجري على ارتفاع ٦٠ م ، فيكون إذن عبارة عن **نهر سهلي** ، ذي ميل **ضعيف ومنتظم** وذي **صبيب مدعوم مستقر** ، لأن الصبيب في ماناءوس لا يقل عن ٦٠٠٠٠ م٣ / ثا ، ويصلح للملاحة البحرية حتى مدينة ماناءوس . ويغمر الفيض الشتوي نطاقاً واسعاً هي « الفارزيئا » ، المؤلفة من غابة رواقية منخفضة نوعاً ما ، ولكنها شديدة الكثافة ، ويسود فوق « الأرض الصلبة » أي فوق الفواصل النهرية ، غابة عالية ، وتحتغابة « نبت الحراج » فاتحة . وتساهم **غابة السلفا الأمازونية** ، التي هي نوع من اسفنجة واسعة ، في **دعم التوازن الهيدرولوجي على الكرة الأرضية** . وعندما تصبح الأمطار أقل غزارة ،



الشكل ٦

نبات البرازيل

يكون الجفاف واضحاً للعيان ، والترب شديدة الفقر ، وتتلاشى الغابة « الدائمة الخضرة » أمام تشكلات نباتية أخرى ، هي **السافانا أو المروج** Prairies ، وهي الكامبوس campos مثل كامبو سّرادو campo cerrado في إقليم ماتّوغراسّو ، والذي يتغطّى برداء من النجيليات القاسية وباقات الشجيرات ، أو مثل كامبوليمبو campolimpo في إقليم ريو غرانده دوسول ، والمؤلف من بساط عشبي مستمر ومن مراع ممتازة .

بيد أن قحولة « النوردسته » **تفرض نوعاً من أحراش هي « الكاتينغا »** caatinga وهو تشكل نباتي مفتوح ذو نباتات شوكية وشحمية .

وقد كان قسم كبير من البرازيل مستوراً بغابة كثيفة غير أن المستزرعين لم يتركوا منها سوى الأجزاء التي تشبثت فوق أكثر السفوح وعورة ، أو في القيعان الرطبة . وهكذا تحول السهل الساحلي ، بين رأس ساءوروك حتى خليج سلفادور ، ذي الأراضي السوداء الخصيبة ، إلى مزارع قصب السكر . ففي منطقة ميناس جيريس Minas Gerais أخذت السلطات من جديد تقوم بتحريج الأراضي بأشجار الأوكاليبتوس ، الأوسترالية الأصل ، ذات النمو السريع ، بعد أن تم اجتثاث الأشجار بشكل جائر لتأمين الوقود لأفران صهر المعادن . وإلى **الجنوب من المدار ، تعرضت غابة صنوبر آروكارياس** ، والخاصة بنصف الكرة الجنوبي ، والشديدة التجانس ، تعرضت بدورها لقطع شديد جعلها غابة مفتوحة حتى ضفاف نهر پارانا .

ولم تحدث عمليات استزراع الأرض في البرازيل فعلاً ، إلاّ **على حساب الغابة** ، وذلك **حيثما كانت** هذه الغابة في **متناول اليد** . وما أن يتم تخريب الغابة المنتجة للدبال humus حتى تتعرض **الترب** ، **التي تكون أحياناً غنية جداً** ، كالأراضي البنفسجية terras roxos في ولاية ساءوپاولو ، والناشئة فوق البازلت ، ولكنها ترب سريعة العطب دوماً ، أقول حتى تتعرض **للغسل**

والافتقار ، ويحل مكانها درع من لاتيريت عقيم يدعى كانغا Canga أو يجرفها الحت تماماً ونهائياً .

وهكذا ندرك كيف أن **البرازيل** ذات الزراعة من النمط المداري ، والتي تكون هدامة وواسعة ، لاتزرع **أكثر من ٥٪ من مساحتها الهائلة** . وهكذا أصبحت تنمية حوض الأمازون الذي ظل مهجوراً لمدة طويلة ومعتبراً كمحتجز réserve خاص بالقبائل الهندية ، قضية الساعة . بيد أن الإعمار الرسمي الذي ابتدأ منذ عام ١٩٦٧ تحت إشراف إدارة الأمازون العليا S. U. D. A. M ، لا يتم دون التسبّب في أخطار اجتماعية ، كإبادة أواخر الهنود من قبائل براڤوس bravos ولا سيا الأخطار الأيكولوجية ، كإبادة الغطاء النباتي وانجراف التربة إلخ ..

☆ ☆ ☆

الغابة الأمازونية : يجتاز نهر الأمازون وروافده ، التي تتجاوز أطوال ٢٠ رافداً منها ١٥٠٠ كم إلى ٣٥٠٠ كم ، تجتاز قسماً كبيراً من الغابة العذراء وهي تغمر مساحات واسعة منها . ويميز السكان بين الأنهار ذات المياه الرائقة rios brancos وبين الأنهار السوداء rios negros ، ذات المياه القاتمة والمشحونة بالدبال . « ويتألف النبات البدائي بالطبع من الغابة الكثيفة أو المحبة للمياه ، أو المحبة للظل ، وتملك جميعها صفات نوعية : دورة نباتية مستمرة ، أوراق دائمة ، كبر حجم الأشجار ، أنواع عديدة وشديدة التبعثر ، طبقات متنضدة ، غنى الغابة بالنباتات الراكبة والمتسلقات ، غياب ماتحت الغابة ، رقة طبقة الأوراق الميتة فوق الأرض لسرعة تفسخها ، ترب عميقة ولكنها فقيرة ، وقد كتب الكثير عن أشكال الخطر في هذا العالم الموحش ، وكما هو الحال في سائر الأمكنة ، فإن الغابة الكثيفة سرعان ما يتم استبدالها ، بعد استئصالها بغابة ثانوية أقل ارتفاعاً ، ومحرومة من **تحتغابة** كثيفة . بيد أن الغابة الأمازونية تتصف أيضاً بصفات نوعية : فهي أقل ارتفاعاً من الغابة الأفريقية ، غير أنها أكثر اتساعاً بكثير . ولها أنواعها الشجرية الخاصة بها ، ولاسيما الكثير من أنواع النخيل ، مثلما تحوي عالماً حيوانياً أكثر فقراً بكثير من شقيقتها غابة أفريقية .

عن ديانجو « القارة البرازيلية »
دار SEDES ١٩٧٢

البرازيل : بوتقة عرقية

تمتد رقعة **البرازيل** على نصف قارة أمريكا الجنوبيـة ، **حيث تحتل مكانـاً أصيلاً استنـاداً إلى ثقافتها البرتغاليـة** . تلـك هي **جمهوريـة اتحـاديـة** ، اسمها الولايات المتحـدة البرازيليـة ، وتتـألف من اثنتين وعشرين ولايـة ، فضلاً عن محافظة العاصمة الجديدة ، برازيليا ، وبعض المناطق الحدوديـة (شكل ٧) . غير أن أبعاد الولايات تكون غايـة في التفـاوت ، فتكون صغيرة أكثر في البرازيل القديمة الاستعمارية ، بالموازنة مع ولايات الغرب أو الشمال ، حيث يكون السكان مبعثرين . وتضم ولايـة **مينـاس جيريس** ، **غوانـابـارا** ، **ريودوجـانيرو** ، **ساءو پاولو** التي تؤلف عشر المساحة العامة ٤٠٪ من البرازيليين .

وعلى خلاف المكسيك أو الأقطار الآندّية ، لا يمكن الكلام هنا عن استيطان سكاني ذي أساس هندي أمريكي ، غير أن البيض ليسوا أيضاً هم الغـالبيـة العظمى كما في الأرجنتين . فقد عمل **التهجين** على اختلاط الدماء ، كما أن انصهـار العروق هو ركيزة الأمة البرازيلية (شكل ٨) .

وإذا كانت الإحصائيات الرسمية تعتبر ٦١٪ من البرازيليين في عداد البيض ، وأن ٢٨٪ منهم « رمـاديون » ، أي هجنـاء على درجـات مختلفـة ، فـإن البرازيـل بالواقع هي « رمادية » أكثر مما تؤكده الإحصـائيـات . وإذا لم يكن هنـاك **تمييز حقـوقي** ، فـإن الـزيجـات تتم فعـلاً بين أنـاس ذوي بشرة من لـون متقـارب . ويعكس **التسلسل الاجتماعي نوعـاً من تسلسل لوني** : فلـون الجلـد القـاتم جداً يؤلف عقبة حقيقية . غير أن عنـاصر السكان تختلف في الحقيقـة من منطقـة لأخرى . ولم يبق في إقليم ماتّوا غراسّو في حوض الآمـازون سوى قرابـة ٦٠٠٠٠٠

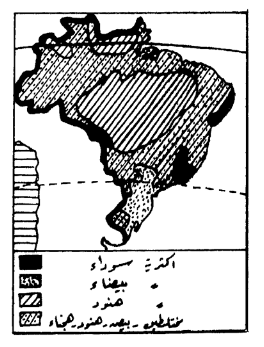
هنـدي « متـوحشـون » ومهـدّدون بـالانقراض بسبب الجـائحـات والمجـاعـات أو المجازر . ولكننا نلاحظ في كل **داخل البرازيل** نموذجاً بشريـاً شـديـد الانطبـاع **بالاختلاطـات القـديمـة بين البرتغـاليين والنسـاء الهنـديـات** ، أي نموذج « **كابوكلو** » وتعني الفلاح ، وهما عبارتـان مرادفتـان لكلمـة هجين . أمـا الزنوج الـذين جلبـوا في القرن السـابـع عشر إلى المـزارع التي يعمـل بهـا الرقيـق في



الشكل ٧

تتألف البرازيل التي يبلغ تعداد سكانها ١٢٥ مليون نسمة من إحدى وعشرين ولاية ودائرة اتحادية وأربع مناطق اتحادية

الشكل ٨



عناصر السكان بالبرازيل

النوردسته ، فقد أصبحوا كثيرين بين مدينتي رسيف وسلفادور على الساحل ، وكذلك في ريودوجانيرو ، وفي إقليم ميناس جيريس ، حيث انتشروا قبل إلغاء نظام الرق في عام ١٨٨٨ . ولا تزيد **نسبتهم في الأمة البرازيلية عن العشر ،** ولكن هناك عدداً أكبر من الخلاسيين mulâtres وبعد أن كانت الهجرة الأوروبية إلى البرازيل برتغالية حصراً ، أخذت في التنوع خلال القرن التاسع عشر ، وقدمت على شكل عدة موجات كانت آخرها أكبرها حجماً لأن الرقم القياسي لأعداد المهاجرين كان في عام ١٨٩١ .

وقد كان المهاجرون من حوض البحر الأبيض المتوسط هم الأكثرية دوماً . فقد جاء الطليان ليعملوا في مزارع fazendas القهوة في منطقة ساءوپاولو حتى أنهم شكلوا الأكثرية بين المهاجرين في وقت من الأوقات ، بيد أن التيار البرتغالي ، الأكثر استمراراً ، هو الذي حفظ وحدة البلاد الثقافية . هذا كما ساهمت أوروبا الوسطى والشرقية بنصيبها ، فتشكلت جاليات حقيقية في

الجنوب ، فهنـاك حـوالي ٢٥٠٠٠٠ ألمـاني ، ومثلهم من البـولـونيين تقريبـاً . أمـا المشارقـة ولاسيا التجـار اللبنـانيين ، الـذين انتشروا في حوض الأمـازون ، أو في إقليم ساءوپاولوا فقد جاؤوا متأخرين ، مثل اليابانيين ، الذين استقبلوا بترحـاب في البرازيل ابتداءً من عام ١٩٠٨ وشكلوا أقلية كبيرة تتـألف من ٦٠٠٠٠٠ نسمـة ، ويعملون في زراعـة الخضـار والرز أو كحرفيين ، وهي أقليـة نشيطـة ومحترمـة ، تسير في اتجاه التمثل . **وقد دخل البلاد حوالي ٥,٢ ملايين مهـاجر بين عـام ١٨٢٢ و ١٩٦٢ ، واستقروا غالباً في البرازيل** . أمـا تيـار الهجرة حـاليـاً فهو ضعيف جداً لا يتعدى ٦٠٠٠ نسمة في العام . ولقد تبنّت البرازيل منـذ عـام ١٩٣٤ سياسة اصطفاء ، فقد حدد الدستور نسبة ٢٪ لعـدد المقبولين بين ١٩٢٦ و ١٩٤٢ ، باعتبارها حصة « كوتا » سنوية لكل قومية ، مع استثنـاء البرتغـاليين لوحـدهم . **ولذا لا يعود النمو الديموغرافي إلاّ لفائض المواليد .**

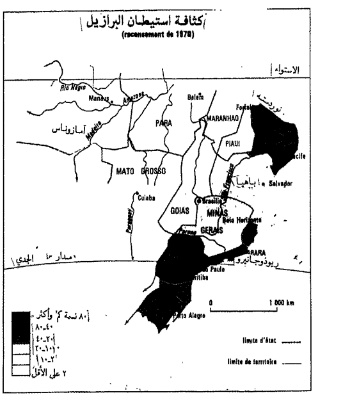
☆ ☆ ☆

لقد تشكلت البرازيل ابتداءً من عدة جبهات استيطانية : ففي القرن السابع عشر كان مزارعون برتغاليون يقومون بزراعة الزاوية الشمالية الشرقية من البلاد ؛ وهي المنطقة الأولى التي هبـط فيها أوائل المهـاجرين ، فزرعوا قصب السكر اعتماداً على أيـد عـاملـة من الرقيق ، الـذي جيء بـه من أفريقية . وفي القرن الثامن عشر حصلت الهجمة على المنطقة التعـدينيـة (ميـنـاس جيريس) ، الغنيـة بـالـذهب وبـالأحجـار الثمينـة . أمـا الهنود القليلو العـدد ، والـذين لا زالـوا في مرحلـة القطف وصيـد الأسماك ، فقد كانوا يبادون بشنّ غارات منظمة عليهم . وكانت المزارع الواسعة « ڤازنـداس » الرعويـة تقدم اللحوم المجففة وحيوانات النقل للمناجم وللمزارع ، وبعـد عـام ١٨٢٠ وعلى الخصوص بعـد ١٨٨٨ ، أي على إثر إلغـاء الرق ، قـام معمرون أوروبيون بـاستغلال السواحـل ، الـواقعـة بين ريـو دوجـانيرو وپورتو آليغرو والهضاب حتى پـارانـا ، بمزروعـات مـداريـة كالقهوة أو بمحـاصيل المنـاطق المعتـدلـة . وانتقل مركز ثقل البرازيل نحو الجنوب . وفي الوقت ذاتـه وصـل إلى حـوض الأمـازون البـاحثـون عن المطـاط . **وهكـذا انتهى الأمر بجبهـات الاستيطـان في البرازيل الأطلنطيـة إلى التلاقي** على شكل شريط لا يزال مـأهولاً بصورة متفـاوتـة ، بين سيـارا ceara وريوغرانـده دوسول على عرض ٦٠٠ كم . ولكن تظل بقية البرازيل دائماً شبه خالية . **وعند تماس البرازيلتين قامت برازيليا** ، العاصمة الجديدة ، لترمز إلى السياسة الحالية الرامية إلى فتح كل الرقعة البرازيلية .

استيطان الرقعة البرازيلية

لم تكن البرازيل تضم من السكان أكثر من ٤ ملايين نسمة في عام ١٨٠٠ ، وقارب عددهم ١٠ ملايين في إحصاء ١٨٧٢ ، كي يبلغ ١٧,٥ مليون نسمة في ١٩٠٠ . **وقد وصل عدد البرازيليين إلى ١٢٢ مليوناً في عام ١٩٨٠ ويزدادون بمعدل ٣ ملايين في كل سنة ، أي أن نسبة الفائض السنوي تبلغ ٢,٨٪** ، أي أن عددهم في نهاية ١٩٨٢ سيبلغ ١٢٨ مليوناً . وتتجلى هذه الحيوية الديموغرافية في هرم الأعمار : لأن **٤١٪ من السكان تقل أعمارهم عن ١٥ سنة** ، في حين لا تتجاوز نسبة الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة ٣٪ .

وتبدو **نسبة الوفيات البالغة ٨ بالألف** منخفضة نوعاً ما . **ولكن أمل الحياة عند الولادة يتراوح بين ٤٤ سنة في إقليم الشمال الشرقي ، النوردسته ، وبين ٥٨ سنة في منطقة ساءوپاولو** . ويموت مولود واحد من عشرة قبل بلوغ العام ، أي أن نسبة الوفيات تصل إلى ١٠٠ بالألف مقابل ١٢٥ في الجزائر . أما في حوض الأمازون وفي الشمال الشرقي فتكون الأوضاع الصحية في حالة يرثى لها . ويشكو ثلث السكان من هزال ناجم عن الطفيليات المعوية ، مثلما تنهك البرداء (الملاريا) عشر السكان ، ويتسبّب سوء التغذية على الخصوص في ٤٠٪ من الوفيات ، أما نسبة الولادات البالغة ٣٦ بالألف ، أو خمسة أطفال في كل أسرة ، فلا **تنخفض مطلقاً** ، اللهم إلا في الأوساط الموسرة في المدن ، وتصطدم فكرة تحديد النسل بحكومة تهتم بإعمار الداخل بالسكان ، واكليروس كاثوليكي شديد النفوذ ، هذا فضلاً عن الرأي العام في قطر ضعيف الكثافة ، والتي لا تزيد حالياً عن ١٣,٥ نسمة في الكيلو متر المربع (شكل ٩) .



الشكل ٩

وإذا كانت البرازيل تبدو ناقصة الاستيطان ، لأن بعض المناطق تكون خاوية تماماً ، فإن بعضها تكون مرهقة بثقل سكانها ، إذ يعيش ٩٠٪ من البرازيليين فوق ٣٦٪ من المساحة ، وحتّى الآن كان يجري الاستيطان في الغرب وفي حوض الأمازون على شكل هجمات فوضوية ووقتية . وكان تأسيس العاصمة « برازيليا » في عام ١٩٥٨ ، على مسافة ١٠٠٠ كم من الساحل ، كان عبارة عن استباق لزحزحة مركز الثقل الديموغرافي عن موضعه السابق . أما توجيه هجرة أهل الشمال الشرقي Nordeste الريفية نحو النطاقات الرائدة في حوض الأمازون ، فلن تحل مشكلة ملكية الأراضي الزراعية في الشمال الشرقي . وهكذا لا يتعرقل استغلال البرازيل لنقص في عدد الرجال بل لافتقارها لرؤوس الأموال . وتفترض عملية استزراع أراضٍ جديدة أمام الاستيطان توفر استثمارات ضخمة . وهكذا لا تعمل الهجرات الداخلية أكثر

من تصريف بعض سكان مناطق فقيرة مكتظة بالسكان نحو ولايات كثيفة السكان ولكنها أكثر غنى مثل ساءوپاولو ونحو المدن العملاقة .

وتضم البلديات الحضرية ٤٥٪ من سكان البرازيل . فهناك عشر مدن ، يتجاوز سكان كل منها ٥٠٠٠٠٠ نسمة . ويكون مركز كل منها في حالة تحول مستديم ، كما تعمل ناطحات السحاب الفخمة على طمس معالم البقايا النادرة من عصر البرازيل المستعمَرة ، هذا في حين تتكدس على الأطراف ، وفوق الوهاد المعرضة للفيضانات ، وعلى أكثر السفوح وعورة ، أكداس من أكواخ متداعية تتكون من صفائح خشب وصفيح تؤلف **أحياء القصدير ، أو أحياء فاڤيلاس في ريودوجانيرو** . أما مدينة بيلم أو (پارا Para) ، الواقعة على عتبة حوض الأمازون ، وسلفادور (باهيا) التي تضم ١,٥ مليون نسمة وحتى **رسيف** التي يبلغ تعداد سكانها ٢,٣ مليون ، فهي مدن فقيرة بالصناعة ، وعلى خلاف مدينة **بيلوهورنيزنته** (٢ مليون) عاصمة إقليم ميناس جيريس أو **پورتو آليغره** (١,٩ مليون) ، أو ريوغرانددوسول ، أما **ثروة ساءوپاولو فقد نتجت عن القهوة** . وبعد أن كانت هذه المدينة لا تحوي سوى ٢٥٠٠٠ نسمة في ١٨٧٢ ، ارتفع عدد سكانها بعد قرن واحد إلى ١١ مليون نسمة ، بعد أن ضمت إليها ميناء سانتوس والتي لا تزال ، بمصارفها التي تبلغ ٧٠٠ ، وبمؤسساتها الصناعية التي تصل إلى ٤٠٠٠٠ عدداً ، **عاصمة البرازيل الاقتصادية** ، بعد أن تخلت **ريودوجانيرو** في عام ١٩٦٠ عن وظيفتها كعاصمة اتحادية لمدينة برازيليا ، ولكنها احتفظت بهيبتها وزادت من دورها الصناعي . وعلى خلاف مدينة ساءوپاولو ، التي تتوسع بكل راحة فوق هضبتها ، فإن لمدينة ريودوجانيرو **طبغرافية عسيرة** مما قسر السلطات العمرانية فيها على حفر أنفاق ، أو على اجتثاث تلال برمتها ، ولاكتساب أراضٍ مردومة على حساب مياه الخليج . ويبلغ عدد سكان هذه المدينة حالياً ٨,٥ ملايين نسمة .

النمو الديموغرافي لسكان البرازيل

السنة	عدد السكان بالملايين
١٩٢٠	٣٠,٦
١٩٣٠	٣٥
١٩٤٠	٤١,٢
١٩٥٠	٥١,٩
١٩٦٠	٧٠,١
١٩٧٠	٩٣,١
١٩٧٩	١١٥
١٩٨٢	١٢٤

وهكذا يتضاعف عدد سكان البرازيل في ربع قرن . وسيصل عددهم إلى ٢٠٥ ملايين في نهاية القرن .

إن للبرازيل الأطلنطية لوحدها استيطاناً كثيفاً نوعاً ما : فلا يزال « خزان » الشمال الشرقي مفصولاً عن المناطق الكثيفة الاستيطان في جنوب ميناس جيريس ، ومنطقة ريو بانقطاع حقيقي يمتد على ٥٠٠ كم . أما في الداخل فنجد نويّات صغيرة ، تتبعثر على طول محاور المواصلات . وتجنح مدينتا ساءو پاولو وريودوجانيرو ، اللتان تبعدان عن بعضها بمسافة ٤٠٠ كيلو متر بوادي پاريبا Paraiba لتكوين النطاق العمراني ، أو ميغاپوليس البرازيل المسماة پازانغوا (المؤلفة من حروف من كلمات ساءو پاولو ، سانتوس : ميناء ساءو پاولو وغوانابارا (وهو اسم خليج ريودوجانيرو) .

مناطق البرازيل : المساحة ، السكان ، الثروة

	المساحة	السكان٪ (١٩٧٠)	الدخل	حصيلة الهجرة السنوية (١٩٦٠-٧٠) بآلاف السكان
الشمال (حوض الأمازون)	٤٢	٤	٢	+ ١٠,٣
الوسط الغربي (باتّوغراسوبرازيليا)	٢٢	٥,٥	٣,٥	+ ١٣٦,٤
الشمال الشرقي (نوردسته)	١٨	٣٠	١٤	- ٣٤٦,٨
الجنوب الشرقي (ميناس ريودوجانيرو	١١	٤٢,٥	٦٣	+ ٦٣,٦
الجنوب (پارانا، ريوغرانده دوسول)	٧	١٨	١٧,٥	+ ١٣٦,٥

البرازيل : الاقتصاد والمجتمع

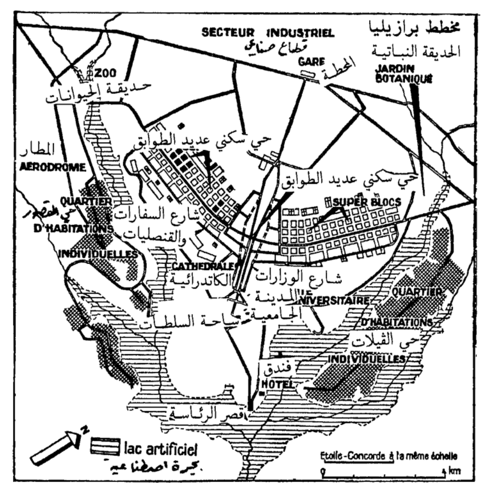
لقد شهدت البرازيل بالتعاقب **دورات « خشب البرازيل »** وهو خشب صباغي فرض اسمه على البلاد ، **ودورة السكر ، ودورة الذهب ، ودورة المطاط ، ودورة القهوة** ، واليوم عصر الصويا ، وقد بددت شطراً من مواردها الطبيعية في هذه المحاصيل التجارية . **ومع ذلك لا تزال امكانياتها كبيرة** عندما تتخلص من « لعنة المسافة » . وقد عمل اندفاع البرازيل نحو التصنيع القوي إلى اجتذاب الرساميل الأجنبية . وتكون **نسبة التنمية الاقتصادية** ، العالية عموماً ، غير منتظمة إذ كانت ١٤٪ سنوياً في ١٩٧٣ ، مقابل ٥٪ في ١٩٧٨ . ففي العالم الثالث حيث تتقابل الأمم الثرية ، بفعل النفط ، مع الأمم الكادحة ، تبدو البرازيل ، مع ناتج قومي خام يعادل ٤٠٪ من ناتج فرنسا ، كأمة **عائمة تسعى لإنجاح عملية « الإقلاع » الاقتصادي** . وقد بلغ الناتج القومي الخام الفردي ١٧٠٠ دولار للفرد عام ١٩٧٨ ، مقابل ٥٠٠ في ١٩٧١ و ١٨٠ دولاراً في سنة ١٩٦١ . بيد أن **الفوارق الاجتماعية تكون ضخمة** ، أي بين ثروة المتميزين ، إذ يستحوذ ٥٪ من البرازيليين على ٢٧٪ من الدخل القومي ، وبين الفقر المأساوي لدى الجماهير ، ففي هذه البلاد ٤٠ مليون من الأميين والجياع ، وهم ضحايا التضخم الذي يبلغ ٤٠٪ سنوياً . وتهبط قيمة الكروزيرو وسطياً ١٥٪ في العام ، بالموازنة مع الدولار ، هذا فضلاً عن تخفيض قيمته رسمياً مرات متكررة .

غير أن **سياسة** البرازيل **الاقتصادية لا** تتقدم دون تناقضات . **ففي** عهد رئاسة ڤارغاس Vargas وخلفائه قبل ١٩٦٤ ، كانت السياسة المذكورة ذات **طابع وطني** ؛ لأنها كانت ترفض منح امتيازات تعدينية للشركات الأجنبية ،

وأنشأت شركة وطنيـة للبترول Petrobas وللصنـاعـة الحـديـديـة C.S.N ، وشراء شركات الكهرباء والمواصلات الخـاصـة . غير أن الإفراط في المعونـات كـدعم سوق القهوة ، أو المشاريع التبذيرية ، كإقـامـة العـاصمـة برازيليـا ، أدت إلى استـدانـة الدولة وإلى تقليص الاستثمارات المفيدة . ولكن **قام النظام العسكري فيما بعد ليفتح البلاد أمام رؤوس الأموال الأجنبيـة** ، غير أن الاقتصـاد البرازيلي الذي لا يزال دوماً سريع العطب ، هشّاً ، يتمتع ، بالحقيقة ، بالإحاطة وبالحمايـة (لوجود الحواجز الجمركية ولتقنين الاستيرادات) .

ويكون الميزان التجـاري على العمـوم خـاسراً ، لأن أسعـار المنتجـات الزراعيـة والمواد الأوليـة ، التي تؤلف معظم مبيعـات البلاد ، تصعـد بصورة تقل انتظـامـاً عن أسعــار سلـع التجهيز ، ولا سيا النفــط التي عليهــا أن تستـورده . **وتحـاول البرازيل أن تنـوع صـادراتهـا**: ففي عـام ١٩٧٧ لم تمثـل القهـوة رغم سعرها المرتفع جداً ، أكثر من ٢٢٪ مقابل ٥٦٪ من قيمة صادراتها في عام ١٩٦٠ .

غير أن هنـاك ثـلاث مجـوعـات من المنتجـات وهي : **القهـوة** ، خضراء أو ذوّابـة ، **والصويـا** من زيت أو كسبـة ، **والفلزات** ، **لا تزال تمثل ٤٥٪ من قيمة مبيعات البرازيل الخارجية** . وأصبح **العملاء التجاريون** أكثر عـدداً أيضـــاً . ففي ١٩٥٩ كان ٤٢٪ من الصــــادرات و ٣٤٪ من الاستيرادات تتعلــق بالولايات المتحدة . أما في ١٩٧٦ فقد هبطت هاتان النسبتان المئويتان بالتعاقب إلى ٢٥٪ و ٣٢٪ لفائدة المبادلات مع أوروبـا الغربيـة ، وعلى الخصوص مع ألمـانيـا الاتحاديـة وإيطـاليـا ، ومع اليـابـان ، والأرجنتين ، ومع فنزويلا وإيران اللتين تقدمان البترول ، الذي أصبح يؤلف ٣٤٪ من قيمة مشتريـات البرازيل في ١٩٧٨ . **وإذا كان الميزان التجـاري يجنح نحو التوازن ، فـإن ميزان المـدفـوعـات يكون دائماً عاجزاً** ، لأن **فوائد الدين الخارجي** ، البـالغ ٥٠ مليـار دولار في ١٩٧٩ ، يمتص **ما يعادل مبيعات القهوة** .



الشكل ١٠

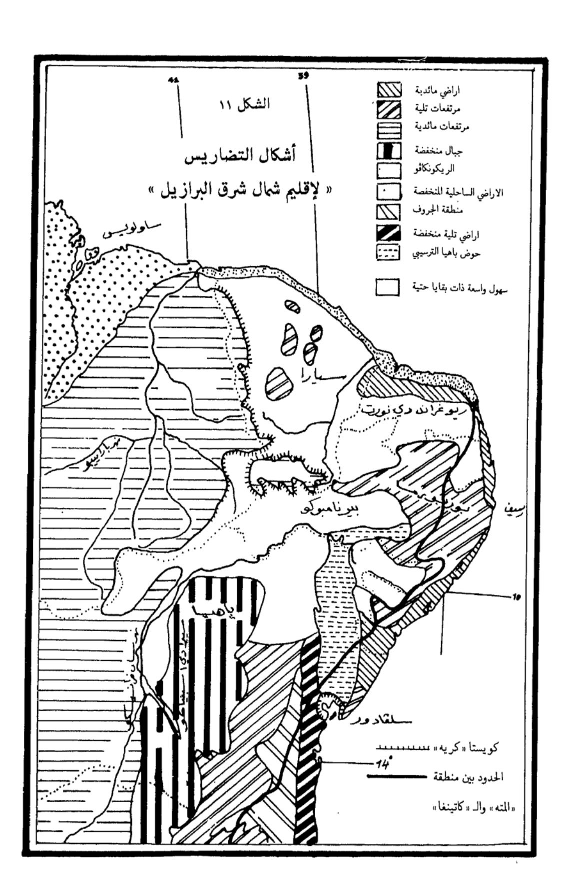
برازيليا :

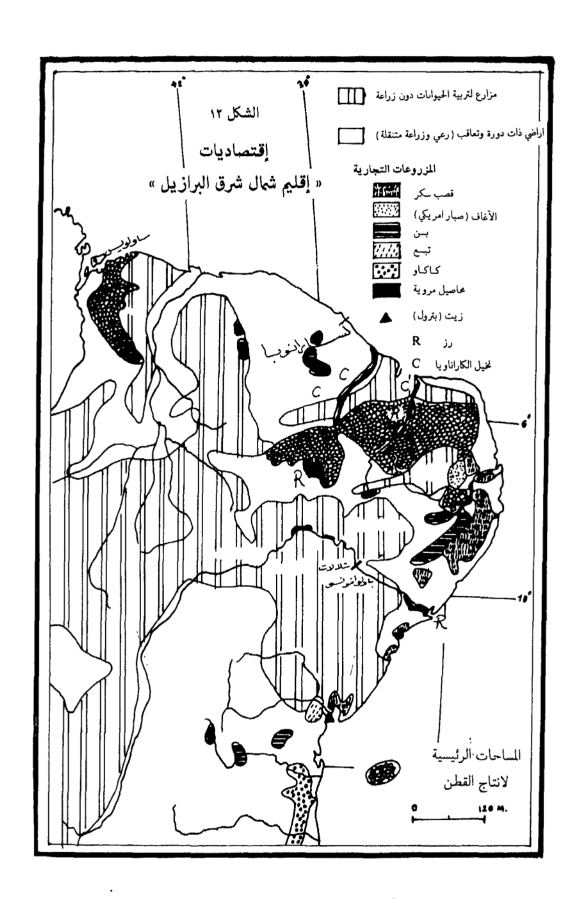
لقد تم بناؤها في خلال ثلاثة أعوام ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ ، فوق هضبة غوياس Goias ذات التربة الحمراء ، وأصبحت تضم ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، ومعظمهم يسكنون أحياء سكنية رديئة التجهيز . ويرسم المخطط الرائد على حافة بحيرة اصطناعية قوساً سكنياً معقوفاً ، مقطوعاً بمحور وظيفي ، يقود من المحطة إلى قصر الرئاسة . وتكون العمارات الرسمية التي أشرف عليها المهندس العمراني (نيماير) غاية في العصرنة ، كقصر التشريع الذي يضم مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وكان الرئيس السابق (كوبيتشك) يتصور أن إقامة الدوائر الاتحادية في هذه « الصحراء » ، بعيداً عن تأثير مدينة ريودوجانيرو المرهق سيساهم في منح الولايات المتحدة البرازيلية بنية جديدة .

الفوارق الإقليمية وتنظيم استغلال الرقعة

يقف خلف الفوارق الإقليمية الكبرى في البرازيل تنوع البيئات الطبيعية ، شأن التقلبات التاريخية في مراحل الاستغلال . فقد يختلف الدخل الفردي بين ولاية وأخرى من ١ إلى ٧ . ويبلغ **التباين أقصاه بين الجنوب الأكثر تقدماً وتنمية** ، مثل ولاية ساءوپاولو التي تسمي نفسها « قاطرة قطار البرازيل » ، وبين **الشمال الشرقي** (الشكلين ١١ ، ١٢) ، ذي **المستوى المعاشي الآسيوي** ، حيث لا يزيد الدخل الفردي المتوسط لدى عشرين مليوناً من الريفيين عن ١٨٠ دولاراً . ولكن الفوارق في داخل الولايات المزدهرة هي السائدة أيضاً فيكون لسكان مدينة ساءوپاولو دخل متوسط يعادل ضعف الدخل الفردي الوطني أو ٣٤٠٠ دولار ، أي يعادل دخل الفرد في بريطانيا . غير أن نصف العمال يتقاضون فيها أجراً أدنى لا يزيد عن ٥٠٠ ليرة سورية في الشهر أو ١٠٠ دولار ، وهو مبلغ زهيد للغاية تجاه نفقات المعيشة ، التي تعادل أسعارها مستوى فرنسا ، كما أن نصف العائلات يشكو من رداءة السكن ومن نقص التغذية ، مثلما ارتفعت نسبة وفيات الأطفال بنسبة ٤٥٪ خلال عشرين عاماً ، وكثيراً ما يكون هؤلاء الكادحون السانباوليون ، عبارة عن وافدين من الشمال الشرقي ، حيث يكون بؤسهم هناك أكثر عمقاً .

هذا وينال « النوردستي » جراية غذائية مقدارها ١٧٠٠ سعرة « حريرة » يومياً ، مع أن المتوسط الوطني للبلاد هو ٢٥٠٠ سعرة . وإذا كان سكان سرتاءو Sertao وهو الحوض الأوسط لنهر ساءو فرانسيسكو ، خلف مدينتي رسيف وسلڤادور ، يشكون من قلة الماء ، فإن سكان الساحل يشكون من قلة الأرض . وتبدو **مشكلة ملكية الأرض جادة** . فكل سياسة ترمي لتنظيم رقعة


الشكل ١١
أشكال التضاريس
« لإقليم شمال شرق البرازيل »
اراضي مائدبة
مرتفعات تلية
مرتفعات مائدية
جبال منخفضة
الريكونكافو
الاراضي الساحلية المنخفضة
منطقة الجروف
اراضي تلية منخفضة
حوض باهيا الترسيبي
سهول واسعة ذات بقايا حتية
41
39
ساولويس
سيارا
ريوغراند دي نورت
بيرنامبوكو
ريسيف
باهيا
سلفادور
10
14°
كويستا « كريه »
الحدود بين منطقة
«المته» والـ «كاتينغا»


الشكل ١٢
إقتصاديات
« إقليم شمال شرق البرازيل »
42°
36°
مزارع لتربية الحيوانات دون زراعة
اراضي ذات دورة وتعاقب (رعي وزراعة متنقلة)
المزروعات التجارية
قصب سكر
الآغاف (صبار امريكي)
بـن
تبـغ
كـاكـاو
محاصيل مروية
زيت (بترول)
R رز
C نخيل الكاراناويا
ساولويس
فورتاليزا
شلالات
باولوانونسو
6°
10°
المساحات الرئيسية
لانتاج القطن
0
120 M.

البلاد تصطدم بمصالح كبار ملاكي الأراضي ، الذين يملكون نصف مساحة أراضي البرازيل المفيدة ، وكذلك بجشع الأوساط المالية ، وبالفساد ، أي الرشوة . وتفيد **مشاريع التجهيز أرباب الملكيات الكبرى** Fazendeiros ، **وهم سادة الأرض وسادة السياسة** . وليس لدى مؤسسة التخطيط الإقليمي S.U.D.E.N.E ، أو الإدارة العليا لتنمية الشمال الشرقي ، التي أنشئت في عام ١٩٥٩ ، وذلك بعد تمرد « الرابطات الفلاّحية » ، وبعد جفاف عام ١٩٥٨ ، أي برنامج لإعادة النظر في توزيع الأراضي الزراعية ، كما لا توجد أية فكرة مماثلة ، لدى لجنة نهر ساوفرانسيسكو المكلفة بتنظيم النهر المذكور ، ببناء السدود واستغلال الطاقة . أما مياه الآبار التي تم حفرها ، فتستخدم لسقاية قطعان كبار ملاّكي قطعان الماشية أكثر من ري حقول الفلاحين المجناء ، أو الكابوكلو Caboclos . أما **الملكيات الصغرى التي لا تزيد مساحة الواحدة منها عن ١٠ هكتارات في الشمال الشرقي ، فتمتد على ٥٪ من الأراضي** ، هذا في الوقت الذي يستمر فيه ، فوق الملكيات الكبرى ، نوع من استرقاق مقنع بالنسبة لمستأجري الأراضي . وهكذا **اضطر ٣,٥ ملايين من النوردستيين للهجرة في مدة عشرين عاماً** رغم بداية التصنيع ، إذ أمكن إيجاد ١٣٠٠٠٠ فرصة عمل في الصناعة لاسيا في ميناء رسيف .

ويبدو **حوض الأمازون** بالنسبة للشمال الشرقي المهدد دوماً بالجفاف وبالمجاعة ، **كمصرف طبيعي** . فعندما كان لهذا الحوض الاحتكار العالمي للمطاط كان المستنزفون Seringueiros ، الذين كانوا يقومون بفصد أشجار الهيفيا الوحشية يأتون من الشمال الشرقي . غير أن كل المحاولات لإنشاء مزارع مطاط حديثة ، مثل مؤسسة فورد لانديا على نهر ريو تاباجوز ، باءت بالفشل في موطن الهيفيا الأصلية ، وهذا مثار الاستغراب .

وقد قامت مؤسسة سودام S.U.D.A.M أو « المؤسسة العليا لتطوير حوض

الأمازون » ، عن طريق فتح الطرق من خلال الغابة العذراء ، **بفتح غابة السلفا أمام المسترزعين** . ونظراً لعجز « البرنامج القومي للإدماج » بحلّ مشكلة الأراضي الزراعية محلياً في منطقة « النوردسته » ، فهو يرمي **منذ عام ١٩٧٠ إلى توجيه هجرة الفلاحين بلا أرض نحو هذه المناطق الرائدة** . غير أن الكثير من هؤلاء لا يستطيعون ، رغم القانون ، أن يحصلوا على صكوك التمليك ويتم طردهم بفظاظة من قبل وكلاء الملاّكين المتغيّبين ، أو من وكلاء الشركات التي حصلت على امتيازات واسعة للغاية .

☆ ☆ ☆

الجفاف في « النوردسته » الشمال الشرقي

تتصلّب الأرض وتتشقّق على شكل شقوق عميقة في « مضلّع الجفاف » ذي النبات الضامر وذلك عندما لا تتمخّض رياح الأليزة « الرياح التجارية الجنوبية » عن الأمطار المنتظرة ، كما حدث في ١٩٥٨ ، وفي ١٩٧٠ .

وعندها يضطر السكان للنزوح نحو الساحل بحثاً عن الماء (صورة رقم ١) . وهكذا يكون إقليم « سيرتاءو » مناسباً لتربية الماشية الواسعة ، وتتغذى الماشية ، ولا سيا الأبقار ، وكذلك الأغنام والماعز ، بالقش أو أوراق النبات ، خلال الفصل الجاف التي نمت في إقليم الكاتينغا Caatinga غرب رسيف وجنوب بيلم خلال الفصل الرطيب ، والتي يشرف عليها القليل من الرعاة الفرسان أو ڤاكيروس vaqueiros .

ومن المعتقد أن كل رأس من الأبقار يحتاج إلى ٥ هكتارات كي يحصل على غذائه . ولكن هناك أيضاً مزروعات ، وهي بالطبع عبارة عن زراعة فوق حريق ، ودون أية دورة زراعية أو تسميد ، تقوم على زراعة القطن والذرة الصفراء والفاصولياء . ولا تمكن ممارسة هذه المزروعات البعلية في حالة الجفاف . وتسيطر هنا الملكية الكبرى ، أو « الفازنداس » التي تمتد على أكثر من ١٠٠٠ هكتار ، والتي تحتل ما بين ٢٥٪ و ٥٠٪ على إقليم السرتاءو ، وعلى الخصوص في جنوب عكس نهر ساءو فرانسيسكو ، حيث تصل النسبة حتى ٧٥٪ ، ولكن من الحق القول أن مفهوم المساحة يجب أن نقرنه بمفهوم النوعية . ويتم استغلال الأرض عموماً بشكل مؤاجرة أو مشاركة . ومن الطبيعي أن تكون كثافة السكان ضعيفة ، فهي تتراوح بين ٤ إلى ٢٥ نسمة في الكيلو متر مربع . ومع ذلك تعتبر كثافة عالية جداً أيضاً .

عن دومانجو « القارة البرازيلية »
سيوس ١٩٧٢

« وعندئذ تدمي الماشية أشداقها بحثاً في أشواك تين الصبّار ، عمّا يمكن أن يروي ظمأهـا ، وهي تجر أقدامها نحو الآبار التي نضب معينها ، وأصبح ماؤها غوراً منـذ زمن بعيـد . . . وأخيراً تظل السماء ثابتة ممعنة في زرقة قـاتمـة ، تلـك هي الهجرة . . . وعنـدئـذ يقصـد النـاس السـاحل ، يـائسين ، وهم يترنّحون ويتمايلون ، بحثاً عن الماء »

ب . رونديير

☆ ☆ ☆

رسيف عاصمة النوردسته

توحي أحياء رسيف القديمة ، بكنائسها الباروكية ، وببيوتهـا المبرقشـة ، والبـديعـة والمزدحـمـة ، توحي برخـاء فترة السكر خلال القرنين السـابع عشر والثـامن عشر . غير أن نصف السكان يعيشون في الضواحي المحيطة بها ضمن أحياء الموكامبوس mocambos ، وهي أحياء قصدير ، قذرة ، وأحيانـاً تكون في وسط المستنقعات ، حيث يعيش البؤسـاء منهم اعتماداً على السرطـانـات ، التي تتغـذى بـدورهـا من برازهم . وهنا تبلغ نسبة المساكن ذات الميـاه الجـاريـة ٥٥٪ ولكن مع ضغـط غير كافٍ ، بينـما لا تزيـد نسبـة المسـاكن التي تتصل بـالمجـاري العـامـة ١٥٪ . وهنـا تضرب نسبـة وفيـات الأطفـال الرقم القيـاسي العالمي ، لأن ٢٣٠ رضيعاً بين كل ١٠٠٠ لا يحتفلون بعيد ميلادهم الأول.



صورة (١)

تعتبر وسائل النقل غير الكافية أو غير المتوائمة ، عائقاً أمام استغلال البرازيل . ففي البلاد ٣٨٠٠٠ كم من الخطوط الحديدية ، ذات الامتداد العشوائي ، مع أجهزة عتيقة ، ولكن الجنوب الشرقي هو الجزء الوحيد المجهز بشبكة حقيقية ، ممدّدة لخدمة نطاق القهوة ، أما الاتصال مع النوردستة ، من بيلو هويزونته إلى سلڤادور ، فهو حديث ، كما تقع العاصمة برازيليا في رأس الخط . ولم تقم البرازيل ببناء أكثر من قطاعات من خطوط حديدية عابرة للقارة ، يصل قطاع منها حتى نهر پاراغواي عند كورومبا Corumba . **أما في الداخل فتظل الأنهار هي الشريانات التي لا غنى عنها للنفوذ لداخل البلاد** . ولكن شدة تبدل صبيبها ، وكثرة الجنادل في مجراها ، لا تسمح بأكثر من ملاحة نهرية فصلية ، فوق بعض القطاعات الواقعة بين جندل وآخر . أما نهر **الآمازون** فهو صالح للملاحة على الدوام حتى ماناءوس ، وحتى مدينة ايكيتوس Iquitos في الپيرو بواسطة سفن بخارية ذات دواليب جانبية ، وتعتمد على الخشب كوقود ، وتنقل المواشي والركاب والبضائع . **وتحقق المساحلة البحرية ١٠٪ من النقليات الداخلية .**

هذا وتملك البرازيل العديد من **الموانئ** ، ولكنها رديئة التجهيز ، ولا تعتمد على أكثر من ظهير محدود ، باستثناء بيلم بالنسبة لحوض الأمازون . أما الأسطول الذي تصل حمولته إلى ٣ ملايين طنة من الحمولة الخام فهو غير كاف . **وتمر التجارة الدولية على الخصوص بميناء ريو دوجانيرو** ، الذي **تصل حركته السنوية إلى ٣٨ مليون طن ، وسانتوس** وحركته ١٩ مليون طن ، وملحقه البترولي ميناء ساءوسيبا ستياءو التي تصل حركته إلى ٤٥ مليون

طن ، **فكتوريا توباراءو** ، وحركته ٥٩ مليون طن ، وهو ميناء تعديني يصدّر خامات الحديد .

هذا وتنقل شبكة الطرق البرية ٧٠٪ من البضائع . وقد حلّت الشاحنات مكان العربات التي تجرها الثيران ، أو مكان قوافل البغال المسرجة . وقد استطاعت البرازيل خلال ٢٠ عاماً أن تمد ٤٠٠٠٠ كم من الطرق الاتحادية ، مزودة بكسوة زفتية أو تكون عبارة عن دروب بسيطة ، وذلك في البرازيل الأطلنطية ، كالطريق الدولية بين ساءوپاولو وريو دوجانيرو ، والطريق الذي ينطلق من برازيليا ويجتاز حوض الأمازون شمالاً . **أما الطريق العابر لحوض الأمازون فقد تم افتتاحه في عام ١٩٧٣** . غير أن الطريق الهامشي الشمالي فهو مازال قيد التنفيذ . بيد أن **الطائرة تظل أكثر وسائل النقل سهولة** ، حتى أن الحركة الجوية تعتبر من أكثر مثيلاتها نشاطاً في العالم . ومن وجهة النظر هذه ، تظل البرازيل قطراً فتيّاً جديداً .

غير أن مصادر الطاقة لا تظهر على مقياس البرازيل ، علماً بأن شطراً كبيراً من البلاد لا يزال ينتظر التنقيب . وفي ١٩٧٧ لم تنتج البرازيل أكثر من ٣١ مليون طن معادل بترول ، مقابل استهلاك بلغ ٧٣ مليون ، ولديها **القليل من الفحم** ، ومن نوعية رديئة في الجنوب ، ويصل إنتاجه إلى ٣ ملايين طن ، يغطي نصف الاستهلاك ، لأن فحم الكوك يستورد من الولايات المتحدة . ولاتزال صناعة الحديد التقليدية والخطوط الحديدية تعتمد على الحطب ، ولم **تنتج من البترول سوى ٨ ملايين طن** ، وأفضل حقل وهو الذي تم اكتشافه في ١٩٤٠ قرب سلڤادور ، آخذ بالنضوب ، كما أن التنقيبات في حوض الآمازون كانت مخيّبة للآمال ، أما التنقيب على الرصيف القاري على الساحل الأطلنطي فقد بدأ مؤخراً ، ولما كانت الوسائل التقنية والمالية لدى شركة بتروباس ، التي كان لها حق احتكار الأبحاث محدودة ، فقد أخذت شركات أجنبية

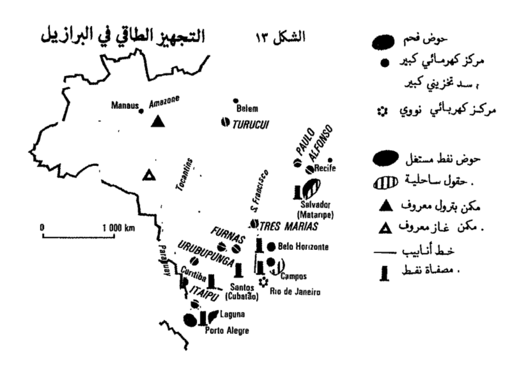
منذ ١٩٧٧ بـالاشتراك في عمليـات التنقيب . **وتشتري البرازيل من ڤنزويلا ، ومن بلدان الشرق الأوسط** مقادير ضخمة من النفط ، **تصل إلى ٥٠ مليون طن ، تعالجها كلياً في مصافيها** ، وتظل فاتورة البترول ثقيلة جـداً على الرغم من خلط الوقود بالغوْل المستمد من القصب ، أو من المانيوق .

أمـا أفضل ورقـة رابحة في يـد البرازيل في ميـدان الطـاقـة ، فهي القوة الكامنة الكهرمائية العظيمة ، والتي تقدّر بحوالي ٥٠٠ مليـار ك و س ، وهي قيد التجهيز ، كحوض ساءوفرانسيسكو ونهر پارانا ، أمـا سـدّ ايتيپو Itaipu الذي يجري بنـاؤه على نهر پـارانـا بـالاشتراك مع جمهوريـة اليـاراغواي ، والـذي سيفرغ العمل فيه عام ١٩٨٣ بطاقة قـائمـة تبلغ ١٢٦٠٠ كيلواط ، **فسيكون أول سد في العالم** . وإذا كانت البلاد تنتج ٩٦ مليـار ك و س من الكهربـاء (أو ٨٠٠ ك و س لكل نسمـة) ، فـإن هـذا « الفحم الأبيض » يقـدم منهـا ٨٩ ، مما جعـل البرازيـل تمثـل المكانـة الرابعـة في إنتـاج الطـاقـة من الميـاه منـذ وقت قريب (شكل ١٣) .

☆ ☆ ☆

مصادر الطاقة البرازيلية

في مقابل تفاوت الاستيطان والتنمية الاقتصادية في البرازيل . هناك اختلال في التوازن بالنسبة **للموارد الطاقية المستغلة** : فالوقود المستحاث ، أي البترول ، يقع على الهـامش في « النوردستـه » ، وعلى الهـامش الجنوبي بـالنسبـة للفحم ، وكلاهمـا في مكامن ذات مخزون متواضع ، في حين تقع مصـافي البترول قرب موانئ الاستيراد . أما الإنشاءات الهيدروليكيـة ، التي شيـدت في البـدايـة في سراة دومـار Serro do Mar على يـد شركـة لايت Light الكنـديـة ، ثم قـامت بـاتجـاه الـداخـل ، على يـد شركـة الكتروبراز الوطنيـة ، والتي قـامت لخـدمـة المثلث الصنـاعي ، سـاءوپـاولو ، بيلوهوريـزونتـه ، ريـو دوجانيرو ، عوضاً عن الشمال الشرقي القاحل ، هـذا في حين أن القوة الكامنـة لحوض الأمـازون لم يبـدأ بعـد استغلالهـا بشكل واسع ، هـذا كما أن أكثريـة مـدن الـداخل ، تعتمـد على مؤسسـات صغيرة لتوليـد الكهرباء الحرارية .



الشكل ١٣ التجهيز الطاقي في البرازيل

ولا زال الاستهلاك الوطني من الطاقة معتدلاً بالواقع ، فهو يبلغ بالنسبة للفرد وخلال العام ١٢٠٠ كغم من معادل الفحم ، هذا مع أن الحطب وفحم الخشب والغول تشكل جميعاً حوالي الربع تقريباً .

شلال ايغواسّو : إن لمعظم الأنهار عند هبوطها من الهضبة البرازيلية جنادل ، أو شلالات ، ويبلغ ارتفاع شلال ايغواسّو ٨٠ متراً عند مقرن نهر ايغواسّو مع نهر پارانا ، ولا تزال الطبيعة عند شلالات ايغواسّو في الحالة البدائية ، وهناك القليل من السواح الذين تتاح لهم فرصة التمتع برؤية هذه الأعجوبة ، فليس هناك من قناة التفاف ، ولا مركز كهرمائي . أما في المناطق الأخرى فقد عمدت البرازيل إلى تجهيز هذه القوة المحركة الثمينة ، كما فعلت على نهر ساوفرانسيسكو ، حيث استغلت شلالات پاولو الفونسو ، وخزان ترس ماریاس ، وعلى روافد پارانا ، حيث بنت خزان فورناس وعلى النهر ذاته كمركز ايتيپو Itaipu . وهكذا استمدت البرازيل في عام ١٩٧٧ ٦٠٪ من مواردها من الطاقة الوطنية ، وهي في الواقع محدودة ، وبذلك وقفت خلف الولايات المتحدة وكندا والاتحاد السوفيتي في إنتاج الطاقة الكهرمائية .

☆ ☆ ☆

البرازيل : زراعة مدارية

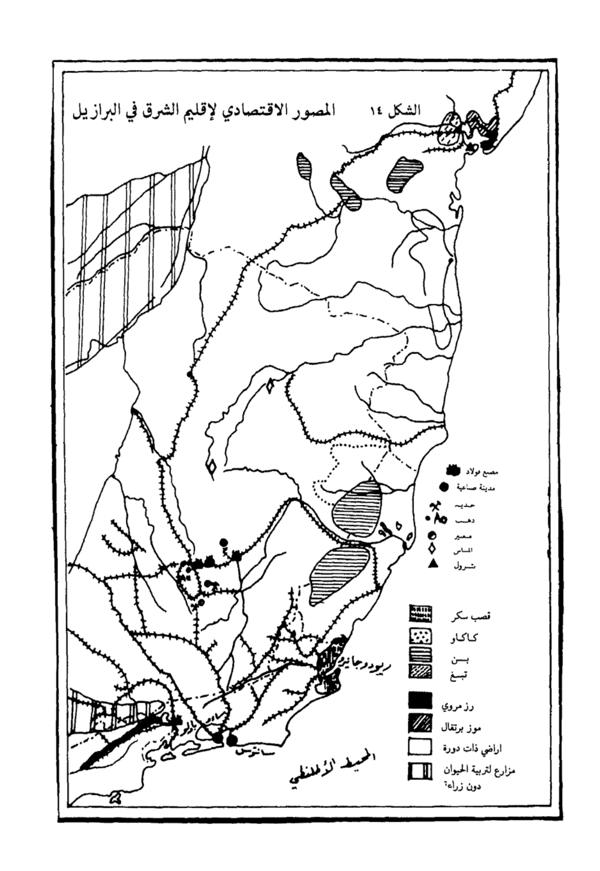
يعيش ٤٠٪ من سكان البرازيل من خيرات الأرض ، مقابل ٥٥٪ في عام ١٩٦٠ ، **ولكنهم لا يساهمون بأكثر من ١٥٪ من الناتج القومي الخام** P. N. B ، وتكون الرقعة البرازيلية غير مستغلة كما يجب ، كما أن ثلثها فقط هو الذي يعتبر خاضعاً للتملّك وللمسح العقاري ، أي للكادسترو : **فالمساحة المزروعة تبلغ ٤١ مليون هكتار أو ٥٪ من المساحة العامة ، وأربعة أضعاف ذلك هي القسم المتروك للمراعي ،** أما الباقي أو ٦٠٪ فتغطيه الغابات ، أو يكون عقيماً ، وتكون البنية العقارية من تركة الحقبة الاستعمارية . **وتتألف الملكيات الكبرى من ٣٠٠٠٠ مزرعة كبرى ، أو Fazendas ، تتجاوز مساحة كل منها ١٠٠٠ هكتار ، وتنتشر على ٤٥٪ من المساحة الزراعية المفيدة .** أما صغار الملاكين ، والذين يزرعون بأنفسهم قرابة ١٠ هكتارات فهم أقلية ، ولا يزيد عددهم على المليونين ، في مقابل طبقة كادحة زراعية من الكابوكلوس caboclos ، الذي يبلغ عددهم ٣ ملايين مابين شريك أو مستثمر بلا صك تمليك ، والمهددين دوماً بالطرد ، هذا فضلاً عن ٦ ملايين من العمال المياومين ، الذين كثيراً ما يقاسون من البطالة .

وفي عام ١٩٦٤ ظهر « قانون الأرض » الذي هدّد بفرض ضريبة على كبار الملاكين المتغيبين ، الذين يتركون أراضيهم بوراً ، وقد يصل الأمر إلى نزع ملكيتهم . وكان **يقضي بتوزيع مقاسم إعمار على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ،** وهذا المشروع الذي لم يكن إصلاحاً زراعياً بالمعنى الصحيح ، أدّى مع ذلك إلى انقلاب عسكري ، صحيح أنه تمّ توطين بضعة آلاف من عائلات الفلاحين من أقليم « نوردسته » في قرى زراعية agrovilas في حوض الأمازون ،

ولكن شركة لودڤيغ Lodwig الأمريكية نالت مقابل ذلك امتيازاً ، مساحته مليونا هكتار .

وهكذا لا تزال قضية ملكية الأرض في حوض الأمازون تنتظر التسوية والحل ، شأنها في الشمال الشرقي . وفي كل عام يتم إحراق مليون هكتار من الغابات ، واستزراع أرضها ، لأن **نظام الزراعة** الذي يكون متوائماً مع بيئة مابين المدارين ، **يظل بدائياً على العموم** . وينتسب إلى **« الزراعات المتنقّلة »** دون حراثة ودون سماد . ولهذا يكون **المردود** منخفضاً ، إذ يبلغ وسطياً ١٥ كنتالاً « قنطاراً » في الهكتار من الحبوب ، أي ١٥٠٠ كغم . وتتم زراعة الرز في البرازيل دون شتل ودون ري ، وتستنزف مدخرات خصوبة الأرض في الملكيات الكبرى « ڤازانداس » حتى النهاية ، حتى أن الغابة لاتستطيع العودة إلى ماكانت عليه ، وبعد مرور « دورة زراعية » فوق أرض نضب معينها ، يأخذ أصحاب مشاريع آخرون باستغلالها في زراعة أكثر قناعة ، أو يتركونها لتربية الماشية الواسعة .

ويكون هذا التطور ملحوظاً فوق هضبة ساءوپاولو (شكل ١٤) ، **فابتداءً من عام ١٨٧٠ تحولت « الڤازاندا » الساءوپاولية إلى مزرعة قهوة Catezal** : ذلك أن التربة البنفسجية تناسب كثيراً شجيرة القهوة العربية Arabica وتكون الأرض مقسّمة إلى مقاسم ، يقوم المعمّرون ، الذين كانوا في البداية من الطليان ، والمرتبطين بعقد باستصلاحها ، باقتلاع النباتات الأصلية ، ومن ثم زراعتها بشجيرات البن ، مثلما يزرعون بين صفوفها الفاصولياء والذرة الصفراء ، لتأمين غذائهم . **وبعد خمسة أعوام** ، تدخل الشجيرات مرحلة الإنتاج ، **ويستغل المالك مزرعته مباشرة** بالاستعانة بالعمال ، **وعندما يأخذ المردود بالانخفاض يبيع المزرعة** ، كي يقيم مزرعة جديدة بعيداً عنها . وقبل ١٩٣٠ كان زحف القهوة ينهش غابة هضاب پارانا فوق ترب رملية


الشكل ١٤ المصور الاقتصادي لإقليم الشرق في البرازيل
مصنع فولاذ
مدينة صناعية
حديد
ذهب
الماس
بترول
قصب سكر
كاكاو
بن
تبغ
رز مروي
موز برتقال
اراضي ذات دورة
مزارع لتربية الحيوان دون زراعة
ريو دو جانيرو
ساو باولو
سانتوس
المحيط الأطلنطي

هزيلة ، وكانت **الجبهة الرائدة** تتقدم مع تمديد الخطوط الحديدية ، فتتقدم بمعدّل ٢٠٠ كم في كل عشرة أعوام ، مما أدّى لنشوء مدن جديدة مثل : ماريليا ولوندرينا . **أما الآن فقد أدركت شجرة القهوة حدّها الايكولوجي :** فعندما يزيد الإرتفاع عن ٨٠٠ م ، يستفحل خطر الصقيع الشديد . وتجاه إفقار التربة ، وأمام التقلبات المناخية والاقتصادية الناجمة عن زراعة وحيدة هي القهوة ، أخذت الزراعة الساوپاولية بالتنوع ، فاستعاضت عن شجيرات القهوة بحقول القطن ، ومزارع قصب السكر ، والذرة الصفراء ، وفول الصويا ، مثلما أخذت تدمج تربية الماشية مع الزراعة (شكل ١٥) .

حصة البرازيل في الصادرات الزراعية (١٩٥٥)

قهوة	٤٢٪
موز	٣٥٪
كاكاو	٢٠٪
قصب السكر	١٢٪
اناناس	١١٪
برتقال	٩٪
سيزال	١٢٪
قطن	١٠٪

الشكل ١٥

☆ ☆ ☆

تحتل الغابة القسم الأعظم من البرازيل ، أو يستخدم على شكل مراع : فمنذ سبعة عشر عاماً ارتفعت المساحة المزروعة من ٢٩ مليون هكتار إلى ٤١ مليون هكتار ، وعلى الرغم من إخضاع أراضٍ جديدة للزراعة ، على حساب الغابة في حوض الأمازون ، فإن التطور يتجه نحو التكثيف في الملكيات الكبرى Fazendas الرعوية ، في الجنوب وفي الوسط . فقد سمحت الحراثة بواسطة الجرار « التراكتور » ، واستخدام الأسمدة الكيماوية ، ومبيدات الأعشاب ، بقيام زراعة قمح كبرى ، ورز ، وذرة صفراء ، وفول الصويا ابتداءً من عام ١٩٧٠ . أما الماشية التي تحسّن غذاؤها ، فقد تصالبت مع ثيران مستوردة من أوروبا ، غير أن التربية الواسعة لازالت قائمة في ماتّوغراسّو ، وفي

سرتاءو في الشمال الشرقي : ففوق مزرعة تمتد على ٢٥٠٠ هكتار : يعيش أحياناً ٥٠٠٠ رأس من الأبقار ، شبه الوحشية ، تتجول في مراعيها تحت حراسة بعض الرعاة الخيّالة « ڤاكيروس » ، وعلى الرغم من تنظيم نهر ساءوفرانسيسكو من حيث السدود وبحيرات التخزين ، فإن المساحات المروية في إقليم « نوردسته » لاتزال محدودة ورديئة الاستغلال . أما حول رسيف فتسود زراعة قصب السكر الضعيفة المردود ، والتي لم تتطور منذ عصر مزارع الرقيق في القرن السابع عشر معتمدة على أيدٍ عاملة بائسة ، مأجورة ، تعيش في أوضاع مماثلة جداً لأوضاع رقيق الماضي .

☆ ☆ ☆

قطاف القهوة : يستدعي قطاف ثمار القهوة العربية « آرابيكا » في مزارع البن في ولايات ساءوپاولو ، پارانا ، ميناس جيريس ، وهي الثمار التي تسمى « الكرز » ، لأن كلاً منها يشتمل على نواتين ، تؤلف كل منها حبة القهوة الخضراء ، أقول : يستدعي قطافها الاستعانة بأيدٍ عاملة فصلية ، تأتي غالباً من الشمال الشرقي . وتسبق عملية التجفيف بالشمس ، فوق مساطيح كبيرة من الآجر الأحمر ، غربلة « الكرزات » ، ويتم الحصول على ١٥ كغم قهوة خضراء ، من كل ١٠٠ كغم من ثمار القهوة .

ويقع مركز ثقل **إنتاج القهوة** حالياً ، على مسافة ٤٥٠ كم من الساحل . وهذا الانتقال نحو الغرب يكون مصحوباً بتحوّل طارئ على هذه الزراعة الوحيدة ، الحسّاسة بالأزمات ، إلى زراعة متعددة ، أي هناك توافق الزراعات مع المواقع ومع الترب . وتنتشر مزارع البن عموماً ، فوق منبسطات الفواصل النهرية ذات الصخور الباطنية البازلتية ، في حين تنتشر مزارع القطن على هوامش الفواصل النهرية Inter fluves . أما المزروعات المتنوعة من فستق عبيد ورز ، فتحتل سفوح الأودية . أما مراعي تسمين المواشي ، فتقع في قيعان الأودية ، المعرضة لضربات الصقيع ، والتي لاتصلح بالتالي لزراعة القهوة . وتكون مراعي التسمين ، أو invernadas ، مأهولة بأبقار ، وصلت سيراً على الأقدام من ساڤانات ماتّو غراسّو (غرب برازيليا) . أما المزارع التي هجرتها شجيرات القهوة فوق الهضبة ، فغالباً ماتغرس بأشجار الأوكاليبتوس . ويجلب هذا النموذج من الاستغلال ، الأكثر مرونة من زراعة القهوة السابقة ، يجلب الرخاء إلى الغرب ، من ولاية ساءوپاولو ، وإلى شمال ولاية پارانا ... أما في الشرق الأوسط من ولاية ساءو پاولو ، فإن العودة لاستخدام الأراضي التي أنهكتها موجة زراعة القهوة ، لم تحصل على النجاحات ذاتها في كل مكان . وقد كانت النجاحات ناتجة في الغالب ، عن دور اليابانيين ، الذين انضمّوا إلى تعاونيات ، ويمارسون أساليب زراعة متقنة ، مما يؤدي لتحويل المشهد الزراعي كلياً .

عن ج . دومانجو « القارة البرازيلية »

SEDES ١٩٧٢

البرازيل والمضاربات الزراعية

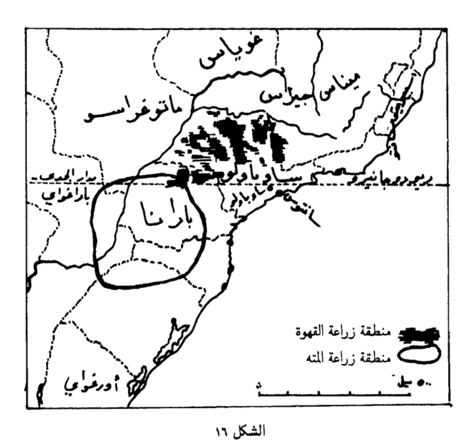
تحتل البرازيل بعد الولايات المتحدة ، المكانة الثانية كدولة تبيع منتجات الزراعة وتربية الماشية ، بحالة خام أو مصنّعة ، تلك المنتجات التي تؤلف ثلثي صادراتها ، وتبدو اللائحة الزراعية مدهشة . وتعتبر البرازيل مصدّرة كبيرة للمنتجات المدارية ، ذات فائدة تتفاوت فعلاً حسب الأسواق العالمية ، وحسب التقلبات المناخية .

فهناك بالنسبة للقهوة ، على الخصوص ، **فرط إنتاج وكساد تارة ، وتارة أخرى ندرة وصعود شديد في الأسعار** . وقد كان « الذهب الأخضر » بارومتر ازدهار البلاد ، ولا زال البن يسيطر على توازن الميزان التجاري ، وبين ١٩٤٩ و ١٩٧٥ ، وهو العام الذي أدّى فيه الانجماد إلى تلف قسم عظيم من شجرات القهوة ، وبداية دورة جديدة ، كان السوق رديئاً ، وبلغت المخزونات خلال عام واحد ما يعادل الاستهلاك العالمي . **وتظل البرازيل أول دولة منتجة للقهوة** ، ولكن حصتها هبطت منذ عام ١٩٢٩ : من ثلثي الإنتاج العالمي إلى الخمس ، وذلك لمصلحة المنافسين الآخرين في أمريكا الجنوبية ، مثل : كولومبيا ، أو الأفارقة أما في ميدان **التصدير** ، فقد **انكمش مكان القهوة** من ٧٥٪ إلى ٢٢٪ في عام ١٩٧٧ وصدرت في ١٩٧٨ من البن مابلغت قيمته ٢,٣ مليار دولار .

أما مزارع الكاكاو ، الممتدة في جنوب ميناء سلفادور ، تحت غطاء غابيّ شبه مفتوح ، والتي تشكو من هرم الأشجار ، ومن المرض ، فلا تزال تقدم ١٥٪ من الكاكاو العالمي ، وتحتل البرازيل المرتبة العالمية الثالثة بعد غانا ونيجيريا ، وتقدم ٤٪ من الصادرات ، لأن إنتاجها يبلغ ٢٣٠٠٠٠ طن .

وتحقق **مزارع الموز** ، وتحتل أول مرتبة بالعالم ، ومزارع **البرتقال** التي تشغل المرتبة الثانية في العالم ، كفاية الاستهلاك المحلي ، وتترك فائضاً للتصدير . غير أن مزارع **قصب السكر** التي تؤلف زراعة وحيدة حول رسيف ، أو يدخل في دورة زراعية ، في ولاية ساءو پاولو ، لا تتوقف عن التوسع ، حتى لقد بلغ إنتاج السكر ٨,٥ ملايين طن ، مما بوّأ البرازيل المرتبة الأولى في العالم ، وكذلك بالنسبة لإنتاج الغوْل . وعلى خلاف ذلك فإن محصول القطن ، العديم الانتظام ، لا يستخدم إلا في الصناعة البرازيلية ، مع أن إنتاجه يصل إلى ٤٠٠٠٠٠ طن من الألياف ، أي يعادل إنتاج مصر ، ويندر أن يكون القطن مروياً في « النوردسته » ، ولا تلقى زراعته عناية كبيرة في پارانا ، ولهذا يكون **ضعيف المردود** ، ومن نوعية رديئة . **وتظل الزراعة التصديرية الكبرى الآن هي الصويا ، إلى جانب القهوة** . (شكل ١٦) وتكون زراعة فول الصويا ، مختلطة مع الذرة الصفراء ، أو مع القطن ، وتمتد من نهر پارانا حتى ريو غرانده دوسول ، بحيث تغطي مساحة حقوله ٧ ملايين هكتار ، مع إنتاج يصل إلى ١٢ مليون طن ، وهو يعادل إنتاج الصين ، أو ١٥٪ من الإنتاج العالمي . وتكون زراعة هذا الفول الغني بالبروتين ، والمرغوب جداً في الغذاء الحيواني على شكل كسبة ، والإنساني على شكل زيت ، تكون مربحة جداً . ويقدم فول الصويا المصدّر بحالة خام ، أو بعد تحويله إلى كسبة أو زيت ، يقدم للبرازيل من الدخل مثل ما تقدم لها القهوة .

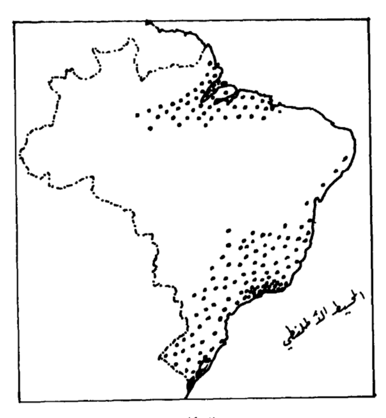
هذا وتكون مكانة الزراعات الغذائية أقل بريقاً ، ومع ذلك يخصّص لها ٦٠٪ من الأراضي بيد أن المردود يكون منخفضاً ، ومتفاوتاً حسب السنين . ففي عام ١٩٧٦ بلغ محصول الحبوب ٣١ مليون طن ، وهبط في ١٩٧٨ ، وهو عام قحط إلى ٢٤ مليون طن فقط . وتتوسع **زراعة الرز** ، على شكل زراعة بعلية واسعة أكثر من **القمح المحصور في أقصى الجنوب** ، ويصل محصوله إلى ٩



الشكل ١٦

أهم مناطق نمو المتّة والقهوة في البرازيل

ملايين طن ، فوق مساحة تبلغ ٥,٥ ملايين هـ ، مثلما تتوسع زراعة **الذرة الصفراء** (شكل ١٧) ، التي تمتد من ميناس جيريس إلى پارانا ، ويصل إنتاجها إلى ١٩ مليون طن فوق مساحة تبلغ ١٢ مليون هكتار . وتعطي زراعة **المانيوق** ، (شكل ١٨) الذي يؤلف دقيقه مع الفاصولياء ، أساس الغذاء الشعبي في النصف الشمالي من البلاد إنتاجاً يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ مليون طن ، مما يجعل البرازيل أول دولة منتجة لهذه المادة في العالم . **وإذا كان ٤٠٪ من البرازيليين يشكون من سوء التغذية ، فيجب أن نعزو ذلك إلى العادات الغذائية ، وللفقر ، أكثر من عدم كفاية الموارد الغذائية** التي تزداد

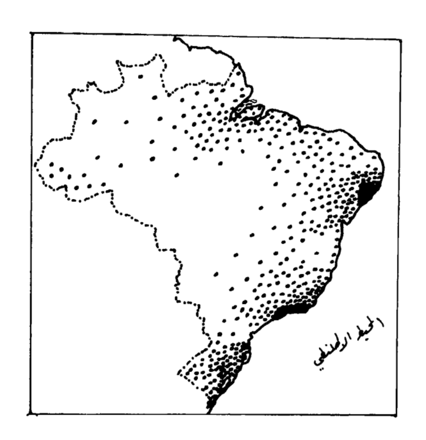


الشكل ١٧

توزع الذرة في البرازيل

كل نقطة تمثل مليون بوشل (مكيال إنكليزي يعادل ٣٦,٥ ليتر)

بسرعة تفوق سرعة النمو الديموغرافي . **وتقدم تربية الماشية البروتينات النبيلة** ، على خلاف الأقطار الآسيوية . ويستهلك البرازيلي وسطياً ٣٠ كغم من اللحم في العام ، أو أقل من نصف الأمريكي الشمالي أو الأوروبي الغربي . بيد أن اللحم المجفف يكون على الغالب غالياً جداً بالنسبة للنوردستيين Nordestinos . وفي الواقع تصدر البرازيل مقادير ضخمة من اللحوم المجمّدة والرز ، في حين تشتري ٣ ملايين طن من القمح الأرجنتيني .



الشكل ١٨

توزع زراعة المانيوق الطعام النشوي الرئيسي في البرازيل

القطيع البرازيلي : بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الخيول ، تبلغ ٥ ملايين رأس ، ومثلها من الحمير والبغال ، وهي حيوانات لا غنى عنها في المواصلات وفي الأعمال الحقلية ، ولنقل الأثقال المحلية ، فإن قطيع البرازيل يضم ١٠٦ ملايين رأس من الأبقار ، و ٣٨ مليون من الخنازير ، و ١٧ مليون من الأغنام ، في إقليم ريوغرانده دوسول و ٧ ملايين رأس من الماعز في الشمال الشرقي . وتزيد قيمة هذا القطيع من الناحية الاقتصادية تدريجياً . ويتم تسمين الماشية الهزيلة القادمة من الداخل ، فوق مراعي التسمين المسمّاة invernadas الأكثر قرباً من الساحل ، والمدن الكبرى ، ولكنها تتغذى أيضاً على الذرة الصفراء والصويا ، التي تقدم علفاً للأبقار الحلوبة ، وللخنازير ، في الجنوب الشرقي .

البرازيل قطر حديث العهد بالتصنيع

لم تكن البرازيل قبل عام ١٩٤٠ ، تحوّل صناعياً ، سوى المواد التي تقدمها الزراعة وتربية الماشية ، باستثناء صناعة حديدية صغيرة في منطقة ميناس جيريس ، وذلك بالاستعانة برؤوس أموال أجنبية غالباً . غير أن مهاجراً إيطالياً كنيته ماتارازّو Matarazzo ، استطاع مع ذلك أن ينشئ صناعة ذات تمركز شاقولي ، انطلاقاً من مصنع لإنتاج دهن الخنزير ، فأصبح ينتج الدقيق ، وأكياس التغليف ، ونسيج الجوت ، ثم نسيج القطن فالحرير الاصطناعي ، فالورق وأخيراً دخل ميدان الصناعة الكيماوية . **ولكن لا يزال ٦٠٪ من الأنشطة الصناعية تتعلق بالتغذية ، وبصناعة الجلود والمنسوجات .** ولكن الدولة الاتحادية ، هي التي أطلقت العنان للتصنيع خلال الحرب العالمية الثانية ، بظهور شركة الصناعة الحديدية الوطنية ، التي أقامت مصنع الفولاذ في مدينة ڤولتا رودوندا ، الواقعة على منتصف الطريق بين ساءو پاولو وريودوجانيرو . ومنذ خمسة عشر عاماً راحت **الصناعة البرازيلية تتقدم بسرعة ، وتغطي معظم الحاجات** ، باستثناء السلع التجهيزية .

وإذا كانت البرازيل فقيرة بالطاقة ، فلديها المواد الخام ، وإذا كانت لا تحصل على أكثر من ٢٠٠٠٠ طن من المطاط الطبيعي من غابتها ، فإن صناعتها البتروكيماوية تقدم لها عشرة أضعاف هذا الرقم من المطاط التركيبي ، كما أن **ثروتها المعدنية تشكل كنزاً أسطورياً حقيقياً** : فلديها **النحاس** في ولاية باهيا ، والنيكل في ولاية غوياس وتنتج منه ٣٥٠٠ طن ، **والبوكسيت** في ولايتي ميناس جيريس وپارا وتنتج حوالي المليون طن ، ولا سيما **المنغنيز** الذي تحتل بإنتاجه الدرجة الرابعة في العالم ، في ولايتي ميناس وآپاما وإنتاجه

١,١ مليون طن ، **وخام الحديد** : الذي تحتكر البرازيل ربع احتياطيه العالمي ، ويتكشّف « مربع الحديد » حول مدينة بيلو هوريزنته ، عن ذخر مقداره ٣٥ مليار طن من الخامات . وقد بلغ الإنتاج ٦٠ مليون طن ، من المحتوى المعدني في عام ١٩٧٤ ، مقابل ٤٥ مليون طن عام ١٩٧٨ ، وذلك حسب الطلب عليه في أسواق التصدير ، في أوروبا والولايات المتحدة واليابان ، والذي يتم تصديره عن طريق ميناء ڤيتوريا ، شمال شرق ريودوجانيرو . **وتصب صناعة الحديد البرازيلية مقدار ١٤ مليون طن** من الفولاذ ، وأخذت بتصديره ، وستصل قدرتها الإنتاجية في ١٩٨٣ إلى ٢٢ مليون طن بفضل المركّب البحري الجديد في ميناء ڤيتوريا ، حيث دخلت رؤوس أموال يابانية وهولندية . وبعد أن كانت **صناعة السيارات** ، عبارة عن تجميع بسيط في ١٩٧٥ ، ومن ثم صناعة مع قطع من إنتاج برازيلي ، أخذت تقدم مليون سيارة سياحية في عام ١٩٧٨ ، تصدر قسماً منها . ترى هل ستصبح البرازيل يابان جديدة ؟

وتشرف الدولة على قطاع الطاقة ، وعلى قسم من الصناعة الثقيلة ، غير أن **الشركات المتعددة القوميات ، تهيمن على الفروع الحديثة** : كصناعة السيارات (ڤولغسفاكن) ، وصناعة الأجهزة الكهربائية ، والخيوط الكيماوية ، والصيدلة . وفيما عدا الشركات الأمريكية مثل Exxon وفورد ، هناك المجموعات الألمانية ، وتمثلها ڤولغسفاكن ، والإيطالية وتمثلها فيات وپيريللي ، والفرنسية : مثل شركة رون پولنك ، وسان غوبان ، وپونتاموسّون ، أو شركات يابانية ولقد بلغت ديون البرازيل الخارجية ٩٠ مليار دولار في عام ١٩٨٢ .

وترهق هذه التبعيّة ميزان المدفوعات ، بسبب شراء البراءات ، والسماح بخروج الأرباح . ففي مصنع سيارات ڤولغسفاكن في ساءو پاولو ، تكون أجرة العامل في الساعة ٠,٦ دولار مقابل ٥,٦٥ دولارات في جمهورية ألمانيا الاتحادية . **وعلى الرغم من انخفاض الأجور ، فإن صناعة البرازيل**

الفتيّة ، ذات المصانع الصغيرة جداً ، والعتيقة أحيـانـاً ، أو ذات الموقع الرديء ، **تتطلب سيـاسـة حمـايـة صـارمـة** . وتتركـز معظم المصـانـع ، في « المثلث الصنـاعي » ، الـواقـع بين المـدن الثـلاث : سـاءو پـاولـو ، بيلـو هـوريـزنتـه ، وريودوجـانيرو . **وتضم ولايـة سـاءو پـاولو لوحـدهـا ، نصف المصـانـع ونصف العمال .**

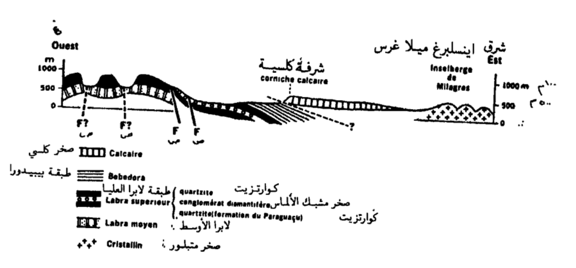
أما أنشطة الجنوب ، فغالباً ما تكون أنشطـة غـذائيـة أو نسيجيـة . في حين يكون إقليم النوردسته ، محروماً من الصناعة ، باستثنـاء صنـاعـة البتروكيميـاء في سلڤادور ، والصناعة القطنية في رسيف . ومع ذلك بدأ تطبيق سياسة لامركزيـة صنـاعيـة ، إذ يقـوم مصنـع لصهر الألمنيـوم قرب بيلم ، كما يبنى مركّب صنـاعي ساحلي في موقع سواپيه Suapé قرب رسيف .

☆ ☆ ☆

مصانع الفولاذ في ڤولتا رودوندا : وقد أنشأتها الدولة في وادي پاريبا ، بين سـاءو پـاولو وريودوجانيرو . وتعتمد هذه المصانع على الخط الحديدي في تموينها بـالفلزات وبـالفحم المستورد . أمـا مصانع الحديد الأحدث ، فقد استقرت فوق خامات الحـديـد ، مثل مصنع أوزيمينـاس Usiminas ، أو على قرب من مينـاء مثل كوسيپـا Cosipa قرب سـانتوس . وتركز مؤسسـة سيـدربراز Siderbras أسهم الدولـة في صنـاعـة الحـديـد ، وهي شركات وطنيـة ، وشركات مختلطـة ، تـدخل فيهـا رؤوس الأموال الأجنبية وعلى الأخص اليابان ، كما هو الحال في شركة أوزيميناس .

☆ ☆ ☆

لا يزال التنقيب الجيولوجي في البرازيل ناقصاً : ومع ذلـك أمكن التعرف على مكامن هامـة أحيـانـاً لمعظم الفلزات المفيـدة . ولكن تبـدو البرازيل غنيـة على وجـه الخصوص بخام الحـديـد وبالبوكسيت ، وكذلك بـالمعـادن الستراتيجيـة : كالمنغنيز والنيكل والتنغستين وتنتج منـه ١٧٠٠ طن ، وتظل الولاية التعدينية الحقيقية هي ميناس جيريس ، المعروفـة منـذ القرن السـابع عشر بثرواتها من خامات الـذهب في موقع Ouro Preto (اورو پريتو) . ولكن بـدأ استغلال الموارد الأقرب والأسهل ، كما في ولاية پارا وآميا . أما البقية فقد تركت كاحتياطي وقامت مدينة ديامنتينا فوق منـاجم الألمـاس في شمالي مدينة بيلوهوريزونته (شكل ١٩) .



مكامن الماس في البرازيل

الشكل ١٩

النهضة الصناعية في البرازيل

لقد اختارت البرازيل ، منذ أزمتها الكبرى في ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧ الاستراتيجية التالية :

ـ تقوم كل تنمية البرازيل ، بما في ذلك التنمية الزراعية ، على نمو متسارع لصناعة الوسط الجنوبي وليس هناك من حاجة لأي إصلاح بنيوي .

ـ يتطلب هذا النمو الصناعي السريع ، أكثر من ١٠٪ في العام ، إلغاء أي عائق في وجه حركية المؤسسة الخاصة .

ـ لن يتخذ أي تدبير تفضيلي ، تجاه رؤوس الأموال الأجنبية ، ولكن السياسة الصناعية ، ستحاول عقلنة بنى الصناعة الوطنية ، بأن تفرض عليها الحجم الأدنى ، وذلك في مؤسسات الفروع الجديدة وحمايتها من سياسة غمر الأسواق dumping .

وهذه الاستراتيجية ، لن تحل على الفور مشكلات الاستخدام ولا مشكلات اختلال المبادلات .

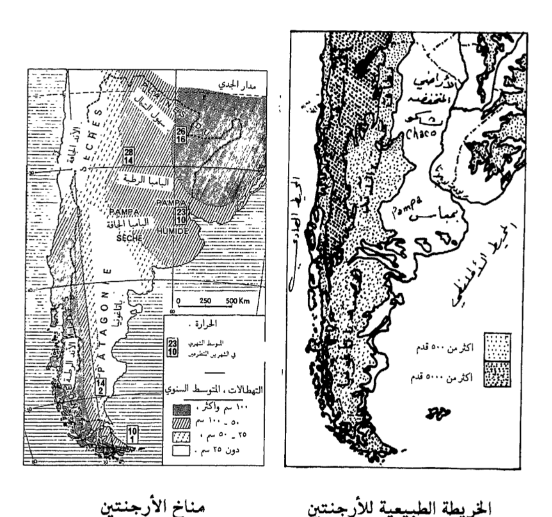
ـ وسيتم الاعتماد على تنمية صادرات المنتجات الأولية ، غير التقليدية كفلزات الحديد ، وأخشاب حوض الأمازون ، والمنتجات المصنوعة القادرة على المنافسة في الأسواق الخارجية .

عن د. س. لامبيز و جـ م مارتان
« أمريكا اللاتينية : اقتصاد ومجتمعات »
دار آ كولان ١٩٧١

الأرجنتين

البيئة والسكان

تمثل **جمهورية الأرجنتين** في القرن الجنوبي للقارة الجديدة ، **والتي تبلغ مساحتها ٢,٨ مليون كم² ، والممتدة من سروات جبال الآند حتى المحيط الأطلنطي ، تمثل مجموعاً جغرافياً شديد التنوع** . ففي الشمال الغربي ، يقع البيمونت Piémont والسلاسل الأمامية ، أي سراة قرطبة ، التي تؤلف طليعة سلسلة الآند ، ثم يظهر حادور glacis **شاكو اللحقي** . أما في الشمال الشرقي ، فيتألف من ميزاب « ميزوپوتاميا الأرجنتينية » ، الواقع بين نهر پارانا ونهر أوروغواي ، اللذين يشكّلان نهر **ريودولاپلاتا** ، بعد التقائهما (شكل ١) ، وإلى الجنوب من هذا المصب العريض ، تمتد سهول الپامپا الفسيحة ، وهي سطح قليل التّموج ، مؤلف من غرين Limons ريحي ، أي من اللوس ، ويخلو من المياه الجارية ، ومن الأشجار في الحالة الطبيعية ، ومن ثمّ ، أي إلى الجنوب ، تظهر **هضاب پاتاغونيا** الرتيبة . هذا كما يكون **المناخ بحدّ ذاته متنوعاً** (شكل ٢) : ذلك أن مدار الجدي ، يلامس إقليم الشاكو من الشمال ، بيد أن رأس هورن في نصف الكرة الجنوبي ، يقع على عرض مماثل لدرجة عرض موسكو . هذا وتكون حرارة أكثر الشهور دفئاً في جزر أرض النار ، تعادل حرارة أكثر الشهور برودة في بوينوس آيرس ، أي ١٠ درجات (شكل ٣) . وتهب من جبال الأند على پاتاغونيا ، وحتى على سهول الپامپا ، في الشتاء ، ريح جافة ، تكون أحياناً قارسة ، هي ريح پامبيرو Pampero . ويخترق الأرجنتين من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي ، أي من پونادو



الخريطة الطبيعية للأرجنتين

الشكل ١

مناخ الأرجنتين

الشكل ٢

آتاكاما ، التي يمر مدار الجدي من شمالها ، حتى أرض النـار ، يخترقها حزام **شبـه قاحل ، يتلقّى أقل من ٤٠٠ مم من الأمطـار ، ويقطع الأرجنتين على شكل وتر** ، وهكذا تتعرض سهول الپامپا ذات الأمطار الصيفية غير المنتظمـة ، إلى سنوات عجـاف . وهكـذا يتعـاقب **من الشمال إلى الجنـوب ، السـاڤـانـا الشجريـة ، والـدغيـلات الشـوكيـة** (بروس) أو monte ، ثم المروج أو **البراري** ، وأخيراً **السهب** steppe (شكل ٤) .

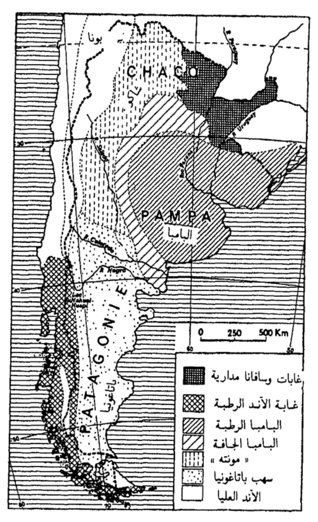


نموذج المناخ : صيني
العرض : ٣٤,٣٧° جنوب خط الاستواء
الارتفاع : ـــ م
المعدل السنوي للحرارة ١٦,٦°
معدل أحر شهر كانون ثاني ٢٣,١°
معدل أبرد شهر تموز ١٠,١°
الأمطار السنوية ٨٦٧ مم

الشكل ٣

وبعد أن ظل الإسبان قابعين في مراكزهم ، في وادي لاپلاتا ، أو في غوطات حضيض جبال الآند ، أخذوا في استيطان **سهول الپامپا** ، **وإقليم پاتاغونيا ابتداءً من النصف الأول من القرن التاسع عشر** ، وذلك بعد القضاء على السكان الهنود المحليين القليلي العدد .

وإذا كان الهجناء عديدين بين العمال الزراعيين Peones ، أو بين رعاة الماشية غوشوس gauchos ، فإن ٨٦٪ من سكان الأرجنتين ، هم من البيض الخلصاء . وينحدر هؤلاء ، أي كريولوس criollos ، من **مهاجرين** قدموا من



نبات الأرجنتين

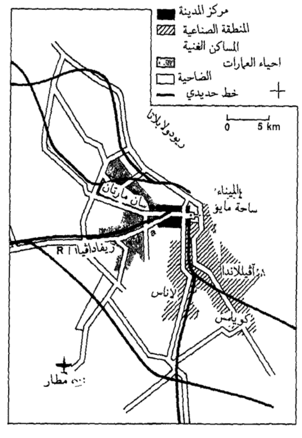
الشكل ٤

أوروبا ، على شكل موجات متعاقبة بين ١٨٨٠ و ١٩١٤ ، وكان ثلاثة أرباعهم من الطليان ، أو ٤٤٪ ، ومن الإسبان أو ٣٣٪ . وكان بين هؤلاء الأرجنتينيين الجدد ، فرنسيون من إقليم الباسك ، ومعمّرون ألمان ، استقروا في إقليم الشاكو ، كما استقر في پاتاغونيا أعداد من الإنكليز ومن اليوغوسلافيين . ولم تعد الأرجنتين تستقبل مهاجرين جدد ، سوى من الأقطار المجاورة ، أي من الأوروغواي ومن بوليفيا . **هذا ويظهر التوسع الديموغرافي مكبوحاً ،**

لانخفاض نسبة التوالد وهي ٢٢ بالألف . وتكون نسبة الوفيات معتدلة ، وهي ٩ بالألف ، أي أن الفائض السنوي يعادل ١٣ بالألف أو ١,٣ بالمئة ، ولكن هرم السكان يتجه نحو الشيخوخة ، لأن عدد الذين تتجاوز أعمارهم ٦٥ سنة ، يشكلون ٨٪ ، بينما لا يشكل الأولاد الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة سوى ١٨٪ من السكان . وللأرجنتين كثافة سكانية لا تزيد عن ١٠ في الكيلو متر المربع ، نظراً إلى أن عدد سكانها كان في عام ١٩٧٩ يعادل ٢٦,٧ مليون نسمة و٢٨ مليوناً في ١٩٨١ .

هذا ويكون **الاستيطان السكاني رديء التوزيع ، لأن ٨٠٪ من الأرجنتينيين يعيشون في المدن** الموزعة عند حضيض الآند ، وعلى حافة سهل الپامپا النهري البحري . ولمدينتي **قرطبة وروزاريو** اللتين يزيد سكان كل منهما عن ٨٥٠٠٠٠ نسمة دور إقليمي . ولكن تتلاقى في هذا « القطر المروحي » ، كل الطرق والخطوط الحديدية باتجاه العاصمة ، التي يحقق ميناؤها ٧٠٪ من التجارة الخارجية .

ويتمركز في بوينوس آيرس وأرباضها (شكل ٥) ، **ثلث السكان في** هذه الدولة ، ذات الرأس المتورّم . هذا وتكون **المفارقات بين العاصمة والأقاليم ، وبين الأرياف والمدن ، حادة** ولا تزال الأراضي الزراعية تحت احتكار ٢٠٠ عائلة من كبار الملاّكين ، أو terratenientes ، في حين تزحف الطبقة الكادحة الزراعية نحو المدن . وقد دعم هؤلاء« المحرومين من القمصان descamisados » من عام ١٩٤٥ إلى ١٩٥٥ ، السياسة الاقتصادية الوطنية ، و « العدالة » التي نادى بها الرئيس پيرون . أما الأرجنتين التي تخضع لديكتاتورية عسكرية منذ ١٩٧٦ ، والتي يكون **نموها الاقتصادي ضعيفاً** لا يتعدّى ١٪ في العام ، مقابل ٦٪ في اليابان ، فلا يزيد الناتج الداخلي الخام للفرد عن ٢٠٠٠ دولار ، ويبدو عليها بعض الاستقرار ، ما عدا حربها الفاشلة ضد الإنكليز ، في



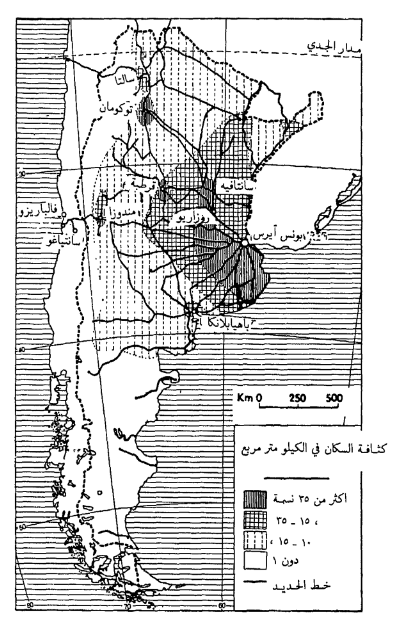
بوينوس آيرس

الشكل ٥

صيف ١٩٨٢ ، في سبيل الاستيلاء على جزر فولكلاند (مالوين) ، ولكنها تضرب الرقم القياسي العالمي في نسبة التضخم .

☆ ☆ ☆

توزع سكان الأرجنتين : يتكدس المهاجرون الجدد في العاصمة ، أو بجوارها (شكل ٦) . ويعيش في الأقاليم الشمالية الغربية ثلث سكان الأرجنتين ، مقابل ٧٠٪ في بداية القرن التاسع عشر . أما في پاتاغونيا الشاسعة ، فيتبعثر ٧٥٠٠٠٠ نسمة . هذا كما تكون أرياف الپامپا شبه خالية ، إذ تتناثر فيها المزارع الضخمة estancias ، الشديدة التباعد ، لأن مساحة الواحدة تمتد على آلاف المكتارات . وتقوم بضع دكاكين حول الكنيسة ، في حين نجد قرب محطات السكك الحديدية ، المخازن التي تتكدس



الاستيطان وشبكة الخطوط الحديدية في الأرجنتين

الشكل ٦

فيها المحاصيل . وقد شهدت الأرجنتين ، بفضل الهجرة ، شأن الأقطار المجاورة الجديدة ، **اندفاعاً استيطانياً شديداً** ، فارتفع عدد السكان ، من أقل من مليونين من الأهالي في ١٨٧٠ ، إلى أكثر من ٨ ملايين في ١٩١٤ . بيد أن سكانها من الأصل الأبيض ، والشديدي التحضّر ، قد حدّوا من خصوبتهم في

وقت مبكر . فكانت نسبة التوالد تقل عن ٢٥ بالألف منذ ١٩٣٠ . ومنذ ذلك الحين والنمو الطبيعي ثابت تقريباً بحدود ١٪ في العام ، أي يتضاعفون مرة كل ٧٥ سنة ، أي نجدهم أكثر قرباً من إسبانيا مما هو الحال عليه في أقطار أمريكا اللاتينية الأخرى ، باستثناء جارتيها الأوروغواي والشيلي .



بوينوس آيرس ، الميناء والمدينة : لا يتمتع موقع هذه المدينة بأية ميزة تلفت النظر : فهي تقع على حافة سهل منبسط ، إلى جانب مياه نهر ريودولاپلاتا العكرة ، والتي تطل عليها خط من ناطحات السحاب ، التي تؤلف حي الأعمال ، الذي يبدو وكأنه ينبثق من السهل والنهر . ويتطلب الميناء حماية ضد الإطماء . ويعود أصل ومنشأ بوينوس آيروس إلى عام ١٥٥٦ . وكانت عاصمة نائب ملك إسبانيا في دولاپلاتا في عام ١٧٧٦ ، ثم عاصمة للأرجنتين في ١٨١٦ . وظلت مدينة متواضعة ، حتى قبل قرن مضى ، حيث لم يكن عدد سكانها يتجاوز ٢٧٠٠٠٠ نسمة . أما اليوم فيبلغ عدد سكان المدينة هذه ٣,٧ ملايين . غير أن هناك ٢٥ ناحية تزحف نحو دائرة العاصمة الاتحادية ذاتها ، وتؤلف مع بوينوس آيرس مدينة عملاقة ، يزيد عدد سكانها عن ١٠ ملايين ، وشديدة امتداد الرقعة . ويتألف مركزها من مخطط شطرنجي ، ذي شوارع ضيقة ، تتقاطع بزاوية حادة في كل ١١٧ م ، ويكون السير فيها عسيراً . أما على الأطراف فتمتد خطوط الأبنية المنخفضة على طرفي محاور الطرق ، مثل ريڤاداڤيا وفيها ١٨٠٠٠ شقة . أما في الشرق فتقع الأحياء الصناعية ، مثل حي آڤيلانيدا وحي كيلمس والأحياء العمالية . وتقع الأحياء السكنية في الشمال ، على ضفاف ريودولاپلاتا . ويتمركز في العاصمة نصف الصناعة الوطنية .

ويعمل المستوى الثقافي المرتفع ، والكثافة العليا في الدوائر الحكومية ، من بوينوس آيرس العاصمة الكبرى في أمريكا الشمالية ، وإحدى كبريات المدن العملاقة العالمية . ويمكن وضع هذا التميّز في خدمة تنمية منتظمة للمجال الأرجنتيني ، وذلك بالارتباط مع المناطق القريبة في الأقطار المجاورة .

عن ر. غينيار « أمريكا اللاتينية »
تحت إشراف كولان دولاڤو . دار نشر بورداس ١٩٧٣



الأرجنتين

اقتصاد قيد البناء

لقد عملت استثمارات أوروبا الصناعية ، **بدءاً من عام ١٨٨٠** ، وكانت على شكل خطوط حديدية ومستودعات تبريد ، عملت من **الأرجنتين موردة متميزة للّحوم والصوف والحبوب** ، مزدهرة نسبياً . ولكن عندما استحوذ النظام البيروني على احتكار التجارة الخارجية لتمويل التصنيع ، عن طريق الشراء بثمن بخس ، كي يبيع بسعر مرتفع ، **خسرت الأرجنتين زبائنها** ، وأصبحت الزراعة مفكّكة الأوصال منذ ١٩٤٩ .

وتظل الأرجنتين مع ذلك **قطراً زراعياً** ، **يصدّر ثلاثة أرباع إنتاجه** بحالة خام ، أو بعد تحويله . وتتألف مبيعاتها بصورة أساسية من حبوب ، ومن بذور زيتية ، ومن الصوف واللحوم . بيد أن حجم المحاصيل ، يكون عديم الانتظام جداً ، شأن الأسعار العالمية . وهكذا وبالرغم من سيطرة **القطاع الأول** ، على الاقتصاد الوطني ، **فهو لا يحقق أكثر من ١٢٪ من الناتج القومي الخام** ، **مثلما لا يوفر العمل لأكثر من ١٤٪ من العاملين** . ويعتبر نصف مساحة البلاد صالحاً للزراعة ، ولكن المزروع فعلاً لا يتجاوز ١٢٪ ، بيد أن المراعي تكون أكثر امتداداً بأربع مرات ، وتشكو الترب ، وغالباً ما تكون غنية ، من ظاهرات الانجراف . أما المزارع الكبرى أو الاستانسياس estancias ، فهي ملكيات خاصة واسعة ، تكون مستغلة جزئياً بواسطة عمال مأجورين ، من أجل تربية الماشية ، في حين يكون القسم الآخر ،

مقسّماً بين المشاركين الذين يأخذون على عاتقهم زراعتها . غير أن **الملكيات الصغرى ، أو غرانجه**granja **في تقدم** ، ولا سيا في البقاع المروية ، وهي واسعة نوعاً ما ، وكذلك على جبهة شاكو الطلائعية .

وتؤلف تربية الماشية ، أكثر الأنشطة الاقتصادية ازدهاراً : ففي منطقة البامپا الجافة ، يعيش فوق المراعي الهزيلة المسوّرة بالأسلاك الشائكة ، قطيع يجري إعداده كي يُساق فيا بعد إلى البامپا الرطبة ، التي تقوم بفضل المزروعات العلفية ، بتسمين الحيوانات قبل أن تقدمها إلى مخازن التبريد Frigorificos . أما پاتاغونيا ، فقد اختصت بالتربية الواسعة للأغنام . غير أن **عدد قطيع الأغنام ، يتناقص** ، فهبط خلال ثلاثين عاماً من ٥٠ مليون رأس إلى ٣٤ مليون ، ينتج ١٦٠٠٠٠ طن من الصوف ، في حين يزداد **قطيع الأبقار** ، الذي قفز تعداده من ٤٠ مليون إلى ٦٠ مليون رأس .

وعادت الأرجنتين من جديد ، لتكون منتجة كبيرة **للّحم المبرّد والمجمّد** ، أو ٤ ملايين طن الذي يشكل ١١٪ من الصادرات ، ولا سيا باتجاه إيطاليا . ويستهلك معظم إنتاج الحبوب محلياً ، ولكن الذرة البيضاء ، التي يصل منتوجها إلى ٨ ملايين طن ، والذرة الصفراء ، التي يبلغ منتوجها ١٠ ملايين طن ، تتركان فائضاً للتصدير . وبعد أن كان **القمح** يؤلف تصديراً رئيسياً تقليدياً ، أصبح يعطي الآن محصولاً شديد التفاوت ، بين عام وآخر ، فبعد أن بلغ ١١ مليون طن في عام ١٩٧٦ ، هبط في العالم التالي إلى ٥,٣ ملايين طن ، بسبب الجفاف ، **ولهذا لا يقدم دوماً أرباحاً كبيرة . أما زراعة البذور الزيتية ، مثل بذرة الكتان ، وعباد الشمس في سهل البامپا ، وفستق العبيد والصويا** ، فهي أكثر ربحاً ، مثل **الزراعات المخصصة للسوق لداخلية** : كزراعة الرز والتبغ ، **وقطن** شاكو ، **وقصب السكر** ، وهي الزراعة الوحيدة في واحة **توكومان** ، وتفاح المزارع المروية على نهر ريونيغرو ، والبرتقال ، ولا سيا

الكرمة المزروعة على البُيمونت الآندي . وتعتبر الأرجنتين منتجة كبيرة للخمور والتي يبلغ إنتاجها وسطياً ٢٥ مليون هكتولتر .

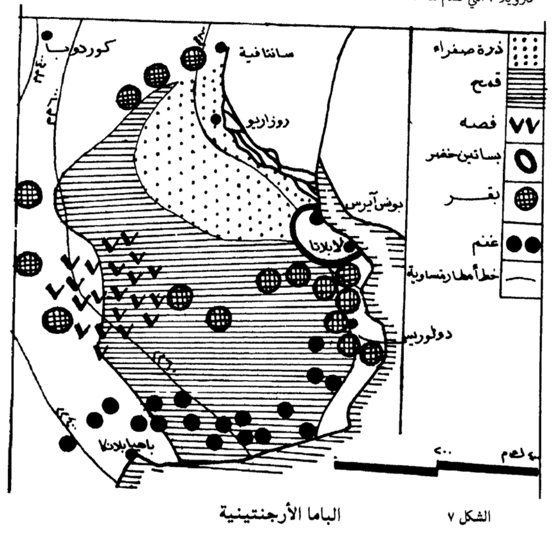
هذا وتكون الصناعات الزراعية الغذائية ، التي تؤمّن ٤٠٪ من مجالات العمل ، قديرة : كالمطاحن ومعاصر الزيت ومصانع الجعة ، **ولا سيما « مصانع اللحوم » ، التي لا تزال في أيدي الشركات الأمريكية الكبرى** ، مثل شركة سويفت وآرمور . غير أن « سياسة التصنيع الإرادي » الرامية إلى تجهيز البلاد بصناعات استهلاكية ، كالنسيج والسيارات ، ثم بالصناعات الأساسية ، **فقد عانت من الاضطرابات السياسية والاجتماعية** ، كرداءة أجور العمال ، علماً بأنهم منخرطون في نقابات منظمة ، ولا يزيد إنتاج الحديد الوطنية عن ٣ ملايين طن من الفولاذ ، أي نصف حاجة السوق ، وينال مصنع سان نيقولا ، في سافلة روزاريو ، الفلزات والفحم ، من مكامن واقعة في پاتاغونيا ، وهناك مصنع آخر قيد التنفيذ ، أكثر عقلانية ، يقوم في باهيا بلانكا ، بيد أن **الأرجنتين ، تتميز باستقلال طاقي نسبي** ، باستخراجها من پاتاغونيا ، ومن حضيض جبال الآند ٨٠٪ من الوقود السائل ، أي النفط والغاز ، اللذين تحتاج إليهما .



تجارة الأرجنتين

ليس لدى الأرجنتين **الكثير من الفحم** ، إذ لا يزيد إنتاجها كثيراً عن نصف مليون طن من موقع ديوتوربيو ، كما لا تملك سوى **فلزات حديدية فوسفورية** ، من مناجم جبال سراة غرانده أو ١١٥ ألف طن . ولهذا تكون صناعة الحديد ، التي أقامتها الدولة في سان نيقولا ، في سافلة مدينة روزاريو ، قليلة القدرة على المنافسة .

ولكن الأرجنتين ، حتى بعد تصنيعها ، لا تجد ما تبيعه ، سوى منتجات أرضها وقطيعها ، من لحوم وأصواف ، وحبوب وبذور زيتية على الخصوص ، والفائض الذي سجلته في عام ١٩٧٧ كان استثنائياً نوعاً ما ، ويعود إلى ضخامة صادرات الحبوب التي تنتج سهول البامبا معظمها (شكل ٧) ، والتي بلغت ١٦ مليون طن مقابل ١٠ ملايين في ١٩٧٦ ، على أثر مواسم طيبة ، ولكن أيضاً لتقنين الاستيراد بصورة صارمة . وتتصدر الولايات المتحدة ، بقية عملائها التجاريين ، سواء في ميدان التصدير أو الاستيراد ، في حين نكصت الدول الأوروبية متراجعة ، غير أن البريطانيين والطليان يشترون اللحوم المبردة ، وكذلك الذرة الصفراء وفول الصويا والصوف . ولكن المبادلات تنمو بشكل خاص مع الأقطار المجاورة ،. كالشيلي والبرازيل ، التي تشتري القمح وتبيع منها القهوة ، وكذلك مع ڤنزويلا ، التي تقدم لها النفط .



الشكل ٧ البامبا الأرجنتينية

وقد بلغت صادراتها في ١٩٧٦ مقدار ٧٤٢ مليار بيزوس ، وكانت تتألف من الحبوب واللحم والصوف والثار والخضار ، وبلغت استيراداتها في العام ذاته ٤٥٤ مليار بيزوس ، وكانت تتألف من مكائن وسيارات ومنتجات كماوية وصيدلانية ، وحديد ومعادن ووقود .



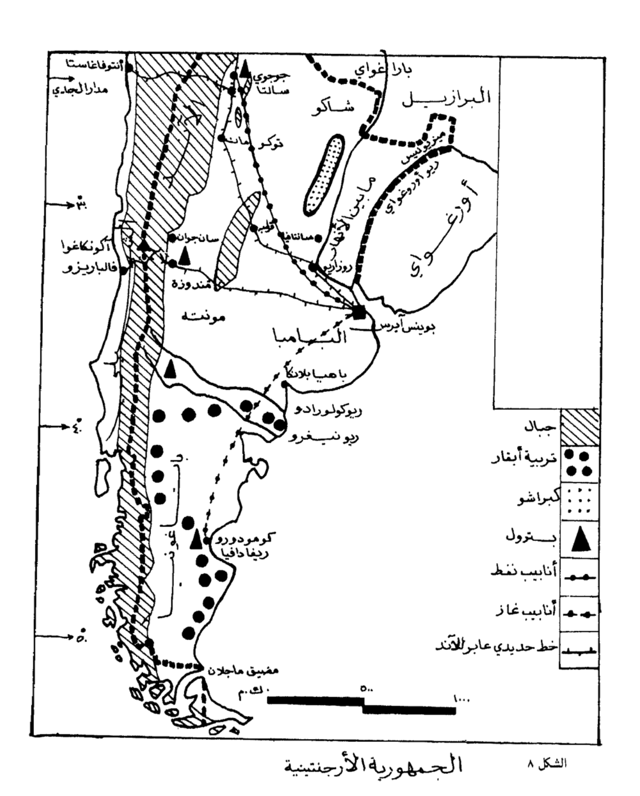
الطاقة في الأرجنتين : لم يتدفق **النفط** في الأرجنتين لأول مرة إلاّ في عام ١٩٠٧ في باتاغونيا في موقع كومّودور ريڤاداڤيا (شكل ٨) . ولا يزال هذا الحقل منتجاً ، ولكنه ينتج الغاز على الخصوص . وقد اكتشفت حقول أخرى يكون فيها الغاز على العموم مختلطاً بالنفط ، عند أقدام جبال الآند ، وفي شمال الشاكو ، كحقل كامپودوران ، وحتى في أرض النار ذاتها . ويعود احتكار التنقيب والاستخراج لشركة حكومية هي Y.P.F . وفي عام ١٩٥٥ لم تكن الأرجنتين تنتج سوى ٤ ملايين طن من الزيت الخام . لكن هذا الإنتاج بلغ ٢٥,٥ مليون طن في ١٩٨١ ، إلى جانب ٨ مليارات متر مكعب من الغاز ، مما كان يغطي تقريباً حاجة البلاد ، وكانت تكمل استهلاكها باستيراد ٣ ملايين طن ، من بترول ڤنزويلا ، و٢ مليار م^{٣} من الغاز من بوليڤيا . وتبلغ قدرة مصافيها ، وأهمها الواقعة في لاپلاتا وقرب روزاريو ، ٤٠ مليون طن . ونظراً للموقع المتطرف لحقول النفط ، فإن الأنابيب تتلاقى في منطقة العاصمة . وهناك تقع مراكز **توليد الطاقة الحرارية** التي تحرق زيت الفويل ، **والمركز النووي** في آتوشا ، الذي يستخدم الأورانيوم الطبيعي من منجم في جبال الآند . وتنتج الأرجنتين ٣٥ مليار ك و س أوـ١٣٠ ك و س لكل مواطن ، ولكنها لا تستمد من طاقتها الهيدروليكية الكامنة العظيمة ، مثل سد شوكون ، سوى سبع كهربائها .



التوزع المئوي للأرض الأرجنتينية

مساحات غير منتجة	١٤٪
غابات	٢٢٪
المراعي	٥٢٪
الأرض المزروعة	١٢٪

☆ ☆ ☆



الشكل ٨ الجمهورية الأرجنتينية

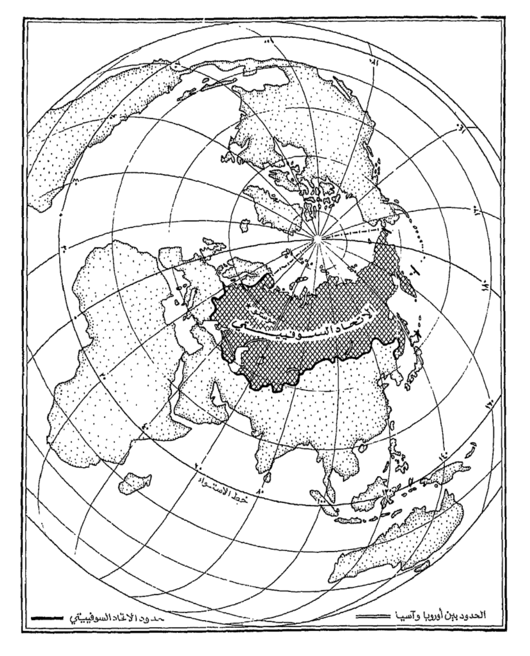
الفصل الثاني

الاتحاد السوفييتي

الاتساع :

تشغل رقعة الاتحاد السوفييتي سدس مساحة الكرة الأرضية (شكل ١) . فمن كل أصقاع الاتحاد ، تنطلق قطارات تحمل في واجهتها أسماء مدن بعيدة ، مثل : أوديسا ، مورمانسك ، عشقباد ، فلاديفوستوك ، كي ينتهي بها المطاف في موسكو . فالمسافات التي قطعتها ، والأيام التي قضتها في الطريق ، تعطي فكرة عن اتساع بلاد السوفييت . وحتى لو ركب المسافر القطار السريع ، فإن الرحلة بين فلاديفوستوك وموسكو ، تستغرق أكثر من أسبوع ، لأن المسافة الفاصلة بين هاتين المدينتين ، تعادل المسافة التي تفصل مدينة نيويورك عن باتاغونيا في أقصى الجنوب الأرجنتيني ، أو بعبارة أخرى بين القطب وخط الاستواء أو أكثر من / ١٠٠٠٠ / كيلو متر . فبين مورمانسك ، الواقعة على بحر بارانتز ، وبين موسكو ، لا تقل المسافة طولاً عن المسافة بين السويد وجزيرة صقلية . والمسافر من أوديسا إلى موسكو يضطر لأن يظل في عربة القطار ضعف المدة اللازمة كي يقطع فرنسا بين مرسيليا وبحر المانش .

هذا ويمتد الاتحاد السوفييتي من الغرب إلى الشرق على / ١٧١ / درجة طول ، أي ما يقارب نصف محيط الكرة الأرضية . فأقصى نقطة غربية فيه ، تقع عند التخوم البولونية ، قرب مدينة كالينينغراد ، الواقعة على بحر البلطيك ،


الاتحاد السوفييتي
موسكو
خط الاستواء
الحدود بين أوروبا وآسيا
حدود الاتحاد السوفييتي

الشكل ١

وتنتهي حدوده شرقاً عند رأس دجنيف ، الذي تنتهي به شبه جزيرة تشوكش ، ولكن أبعد ممتلكات الاتحاد هي جزيرة رامانتوف ، الواقعة في وسط مضيق بهرنغ الفاصل بين قارة آسيا وقارة أمريكا .

وهكذا تأخذ أبعاد الاتحاد السوفييتي درجة تجعل الشمس لا تغيب عن حدوده . فبينما تكون الساعة الخامسة صباحاً في شبه جزيرة تشوكش ، يكون الليل في منتصفه على بحيرة بايكال ، في حين لا تتجاوز الساعة السابعة مساء في موسكو .

وأقصى النقاط الجنوبية في الاتحاد السوفييتي تقع في تركانستان ، على الحدود الأفغانية ، قرب مدينة كوشكا أي على درجة عرض ٣٥ وهو عرض مدينة حماة السورية ، بينما تقع أبعد نقاطه الشمالية في ما وراء الدائرة القطبية ، عند نهاية أرس تشيليوسكين ، في سيبريا ، بحيث تبلغ المسافة الفاصلة بين جنوب تركانستان وشمال سيبريا / ٤٠٠٠ / كم .

وهكذا نجد أن النخيل الذي يعود أصله لجزيرة العرب ، يحمل ثماره في الواحات التركانية ذات المناخ شبه المداري ، في الوقت الذي تقذف فيه الرياح الشمالية بقطع الجليد ، على سواحل رأس تشيليوسكين حتى في قلب الصيف .

ففي تركانيا الجنوبية ، يأتي الربيع في مطلع العام الجديد تقريباً .والشتاء الذي تتجاوز حرارة كانون الثاني الوسطى فيه درجة الصفر ، يكون هنا قصيراً جداً . والثلج النادر الذي قد يهطل في بلاد التركان الجنوبية ، يذوب قبل أن يلامس الأرض .

لهذا تبدأ أعمال الحراثة والبذار هناك في أواسط كانون الثاني . وعليه يبدأ الربيع زحفه ابتداء من الحدود الجنوبية باتجاه الشمال . وإليكم بعض مراحل مسيرته : تزهر أشجار التفاح في موسكو في أواخر شهر أيار ، أي متأخرة مدة

شهرين عن تركانستان ، ولكنها لا تزهر في شمالي سيبريا إلا في شهر حزيران ، أي في الوقت الذي تتخلص فيه الأنهار من جمدها ، وتتغطى أرض التوندرا ببساط مستمر من الزهور ، ولكن الصقيع يحتمل وقوعه في أي يوم من الصيف ، الذي سرعان ما يترك مكانه للخريف الذي يفاجئه الشتاء .

المساحة والحدود :

تبلغ مساحة الاتحاد السوفييتي ٢٢,٤ مليون كيلو متر مربع ، أو سدس مساحة المعمورة وهكذا تعادل مساحته ثلاثة أضعاف مساحة الولايات المتحدة . ومجموع مساحة انكلترا وفرنسا وايطاليا واسبانيا لا يتجاوز ١/١٤ من مساحته .

وتمتد حدود الاتحاد على مسافة / ٦٠٠٠٠ / كيلو متر تقريباً . وتستغرق طائرة سرعتها الوسطية ٥٠٠ كم بالساعة مدة خمسة أيام بلياليها كي تحلق فوق الحدود المذكورة .

وللاتحاد السوفييتي جيران عديدون : فله حدود مشتركة مع النروج وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وتركيا وإيران وأفغانستان والصين ومنغوليا وكوريا .

أولاً ـ التضاريس

تتصف تضاريس الاتحاد السوفييتي بشدة بساطتها . فهي تنقسم إلى مجموعتين :

أولاً ـ رقعة فسيحة من الأراضي المنبسطة ، قليلة النتوءات أو عديمتها .

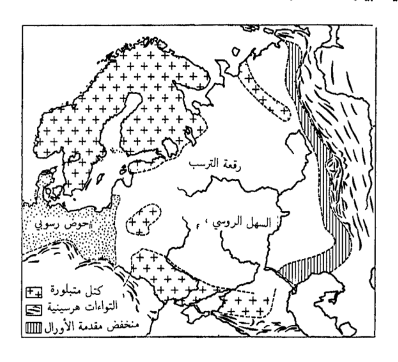
ثانياً ـ يهين على هذه الرقعة من الجنوب الغربي ، ومن الشرق ، **قلادة جبلية طويلة** متفاوتة في شدة ارتفاعها ، مؤلفة من سلاسل عالية ، فضلاً عن منبسطات عالية مائدية ، مثل هضبة بامير التي تدعى سقف العالم .

١ ـ نطاق الهضاب والسهول :

يتألف معظم هذا النطاق من العتبة الروسية السيبرية ، التي تتحدد في جنوب الأورال ، بواسطة منخفض آسيا الوسطى .

هذا وتنقسم العتبة الروسية السيبرية بواسطة جبال الأورال ، ونهر ينيسئي إلى ثلاثة أجزاء ، ابتداء من الغرب نحو الشرق وهي : السهل الروسي (شكل ٢) ، سهل سيبريا الغربية ، وهضاب سيبريا الوسطى .

ولا يتجاوز ارتفاع **السهل الروسي** عموماً ٣٠٠ م . وتستمد الأنهار ينابيعها من مرتفعات متواضعة (الفولغا ٢٢٣ م ، الدينيبر ٢٥٣ م) كما تظهر خطوط تقسيم المياه بينها لاطئة جداً .



الشكل ٢

العتبة الروسية في العصر الهرسيني

يبدو القسم الشمالي من هذا السهل ، والذي يتكئ بالغرب على الكتلة الكاريلية الفينية ، التي ترتفع إلى ١٢٤٠ م في شبه جزيرة كولا ، يبدو أكثر أجزاء السهل الروسي هدوءاً ؛ فبين نهر الفولغا الأعلى ونهر بتشورا ، نجد تلال أوفالي وتلال تيان ، التي لا يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠ م . ولكن أواسط هذا السهل وجنوبه ، تكون أكثر غنى بالبروزات ، فنجد زمرة من الهضاب المتزايدة الارتفاع باتجاه الشمال الشرقي ، وتهيمن أحياناً بشكل شرفة قائمة على الضفاف اليمنى للأنهار ، مثل هضبة الفولغا ٣٦٥ م التي تمتد على مسافة تزيد عن ١٠٠٠ كم بمحاذاة هذا النهر . وإلى الغرب من منخفض الدون ـ اوكا نجد هضبة روسيا الوسطى ، وهي مركز تبعثر الشبكة النهرية ، وتتحدد بهضبة فالدائي وهضبة مينسك ٣٥٦ م ، وتتجاوز مدينة خاركوف جنوباً . وأخيراً تصادف فيما وراء وادي الدنيبر ووادي البريبت مرتفعات فولهينيا ـ بودوليا ، التي تسمو إلى ٤٣٥ م قرب التخوم البولونية .

وترتفع جبال الأورال إلى الشرق من السهل الروسي ، وهي عبارة عن حدود تقليدية بين أوروبا وآسيا ، ولكنها بالواقع ليست أكثر من سلسلة جبال متواضعة ، ضيقة وقليلة الارتفاع ، رغم أن طولها يتجاوز ١٨٩٤ م في قمة نارودنايا الواقعة في القسم الشمالي . ولا تؤلف هذه السلسلة حاجزاً حقيقياً بين السهل الروسي وبين سيبريا الغربية نظراً لسهولة عبورها .

هذا ولا يزيد ارتفاع سهل **سيبريا الغربية** ، الذي يربو طوله من الشمال للجنوب على ٢٤٠٠ كم وعن ٨٠٠ كم من الغرب للشرق ، عن ٢٠٠ م . كما لا يزيد ارتفاع رصيف كازاخ الذي يصل هذا السهل الكبير بآسيا الوسطى ، عن ١٦٠ م فقط . ونظراً لانعدام الانحدار تقريباً نجد أن جريان المياه يكون عسيراً ، فتكثر هنا الأذرع النهرية والبحيرات والمستنقعات .

هذا وتمتد بين نهري ينيسئي ولينا هضاب **سيبريا الوسطى** ، التي تتراوح ارتفاعاتها الوسطى بين ٥٠٠ و٨٠٠ م مع بعض القطاعات العالية المحدودة في الشمال الشرقي ٢٠٣٧ م . وتكون مجاري الأنهار هنا عميقة . وفي الشمال تنفصل الهضاب عن المحيط المتجمد الشمالي بسهل خاتنغا الأسفل ، وبشبه جزيرة تايمير الجبلية وهي أبعد رأس في أوراسيا .

وتنفصل آسيا الوسطى المنخفضة ، الواقعة في خارج نطاق العتبة الروسية السيبرية ، عن سيبريا الغربية ، بظهرة أرضية عريضة هي كازاخستان .

ويبدو هذا الحوض الكبير المدعو بالمنخفض الآرالي ـ الخزري ، شديد التقعر ، إذ يبلغ عمق أخفض نقاطه ١٣٢ م دون سطح البحر ، وتكون بعض أجزائه عبارة عن صحارى حقيقية من الرمال والحجارة . وحيثما لا تكون الرمال مثبتة ، نجد كثباناً ترتفع إلى مترين وحتى خمسة أمتار ، وتدعى البرخانات ، تتعرض لتبديل أشكالها بصورة مستمرة بفعل الرياح العاتية ، ويرتفع هنا المنخفض على شكل حدور glacis نحو الجبال الواقعة إلى الجنوب منه ، أو نحو الجنوب الشرقي .

٢ ـ الحافة الجبلية :

وتختلف اختلافاً عنيفاً عن النطاق الآنف الذكر ، فهنا يكون تفاوت الارتفاعات جسيماً بين الأراضي المتجاورة ، إذ يتفاوت الارتفاع بين منخفض فرغانة وبين ذرى جبال آلائي بحوالي ٥٠٠٠ م ، مع أن المسافة الفاصلة بينهما لاتتجاوز ٥٠ كم فقط . وإلى الجنوب من السهل الروسي الكبير تتعاقب عدة نطاقات جبلية :

أولاً ـ جبال الكربات الشرقية ، وتتصف ذراها بالاستدارة ، ولا يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠٠ م .

ثانياً ـ السلسلة الطورية الصغيرة في شبه جزيرة القرم ، وتسمو إلى ١٥٤٥ م .

ثالثاً ـ حاجز القوقاز الكبير الذي يمتد على مسافة ١٢٠٠ كم طولاً و ٨٠٠ كم عرضاً . وهنا لاتقل الارتفاعات عن ٢٠٠٠ م مطلقاً . وتكثر القمم التي تزيد عن ٥٠٠٠ م مثل **قمة البروز** ٥٦٥٣ م . ونظراً لحداثة هذه السلسلة ، التي جزأها الحت الشديد ، نجدها تؤلف سوراً عالياً عسير الاجتياز ، إذ لاتخترقه أية سكة حديدية عدا ثلاثة طرق معبدة ، تخترق ممرات يزيد ارتفاعها عن ٢٤٠٠ م في داخل السلسلة .

رابعاً ـ وإلى الجنوب من منخفض ماوراء القوقاز ، الذي يشكل حوضات متتالية ، تنتصب جبال أرمينيا المرتفعة المحاذية للحدود التركية الإيرانية .

وإلى الشرق من بحر الخزر ، تظهر جبال عالية متفرعة عن جبال آسيا الوسطى : فهضاب بامير العليا ، تحمل ذرأ شديدة الارتفاع (قمة الشيوعية ٧٤٩٥ م ، وهي أعلى نقطة في الاتحاد السوفييتي) . وفي الشمال الشرقي نجد مروحة جبلية عريضة ، تدعى **تيان شان** ، التي تنهض إلى ٧٤٣٩ م ، وتحيط فروعها بمنخفضات عميقة مثل (فرغانة أو الوادي الأعلى لنهر سيرداريا وحفرة بحيرة ايسّيك كول) وتمتد هذه المروحة من جبال آلائي حتى بحيرة بالخاش .

وإلى الشرق من بحيرة **بالخاش** ، تتعاقب أشكال جبلية ثقيلة ، تسمو إلى ٤٥٠٠ م في جبال آلائي وإلى ٣٥٠٠ في جبال **سايان** ، ثم تنخفض بعد بحيرة بايكال (التي ينخفض قاعها إلى ١٧٤١ م دون سطح البحر) في كتل سيبريا الوسطى ، مثل جبال يابلونوئي وجبال ستانوفوئي .

وإلى الشمال الشرقي والجنوب الشرقي من هذه الكتل المدورة القمم ، تقدم سيبريا الشرقية والشرق الأقصى السوفياتي أشكالاً جبلية ، لاتزال دراستها ناقصة حتى الآن .

وعلى كل هناك أقواس جبلية متزايدة الارتفاع ، تتعاقب باتجاه الشرق ، مثل جبال فيركوهيانسك وقوس كامتشاتكا كوريا كسكي ٤٨٥٠ م على حافة المحيط الهادي ، وسلسلة سيخوتا آلين في المقاطعة البحرية .

تشكل التضاريس :

تشكل التضريس الحالي في الاتحاد السوفييتي على مراحل كبرى ؛ والعنصر الأساسي في البنية يتألف من ركيزة من صخور قديمة جداً تمتد ، رغم أنها غير مرئية في أكثر الأحيان ، على قسم كبير من رقعة البلاد ، وخاصة في سيبريا الوسطى .

وتظهر هذه الركيزة أحياناً عند السطح ، وذلك حول السهل الروسي ، ويتشكل هـذا السهل في معظم رقعته ، من تراكم توضعـات بحريـة في قـاع حوضـة ، تؤلف صخورهـا المتبلورة ، في فنلنـدا وفي الكتلة الأوكرانية وكذلك في جبال الأورال وفي تيان ، الحافة المرئية لهذه الحوضة .

ومنـذ **العصر الهرسيني** ، حيث نهض النطـاق الالتوائي الجسيم في الأورال وفي سلاسل آلتـائي وجبال سايان وما وراء بايكال ، لم تتعرض هذه المناطق لأي التواء ، بل إلى فعل الحت الـذي براهـا ، كما اجتاحها البحر وتخلّعت في بعض الأصقاع في عصر الالتواء الألبي .

هذا ويبدو أن هذه الركيزة ، والكتل المتبلورة أو الهرسينية التي تحيط بهـا ، والأراضي الرسوبية التي تغطيهـا ، تلعب جميعـاً دوراً أسـاسيـاً في اقتصـاد الاتحـاد السوفييتي ، فهذه المناطق تضم بالواقع احتياطات هائلة من الفحم : كالفحم العائد للـدور الأول في منطقـة الـدونتز ، وفي حوض موسكو ، وفي حـوض كاراغـانـدا ، والطبقات العائدة للدور الأول والثاني في منطقة كوزباس ، بالإضافـة إلى مكامن عديدة غنية بالمعـادن المختلفـة (كما في شبـه جزيرة كولا ، وفي روسيـا الوسطى ، والأورال ، وعتبة كازاخ) .

وقـد وقعت حركات أحـدث من السـابقـة ، مصحوبـة بظواهر بركنـة كما في القوقاز والشرق الأقصى ، وقـد حـدثت أعنف هـذه الحركات في الـدور الثـالث ، حيث أدت إلى نهوض القسم الأعظم من الحافة الجبلية .

وتهيمن الكتل الالتوائية في الغرب ، كما في الكربات والقوقـاز ، وفي الشرق الأقصى مثل السلاسل التي تتشكل حاليـاً في كامتشـاتكا ، والتي تستمر في جزر كوريل ، في حين تميز الكسور التي تطيف برقع كبيرة ناهضة أو منهدمة ، تميز القسم الأكبر من الحافة الجبلية ، التي تبـدأ من جبـال التـائي حتى كتلـة آنادير .

ولقـد أدت صـدمـة الحركات الألبيـة ، إلى نهوض بعض الكتـل الهرسينيـة ، حيث أوجد تجدد الحت تضاريس **من النموذج الآبالاشي** ، ذات أعراف طويلة قاسية منفصلة عن بعضها بوديان طولانية . وهذا التضريس هو الذي جعل جبال

الأورال مثلاً ، سهلة العبور منذ زمن قديم ، وساعد على استغلال العروق والاندساسات المعدنية الوفيرة جداً في مثل هذه التضاريس .

ومن ناحية أخرى ، تشكلت في المنخفضات الداخلية وفي مشارف التواءات بعض السلاسل الجبلية ، وتخزنت احتياطات بترولية من الدور الأول ، كما في سفوح الأورال الغربية ، أو من الدور الثالث والرابع كما في القوقاز وتركانيا .

هذا وتعرضت التضاريس لتأثير **الجموديات الرباعية** :

ولقد كان امتداد الجموديات عظيماً جداً في الجزء الأوربي من الاتحاد السوفييتي ، وهو أكثر المناطق رطوبة ، حيث اندفع لسانان عظيمان من الجليد ، بين هضاب روسيا الوسطى في سيبريا الغربية . وتظهر علائم هذا الزحف الجمودي في المناطق السهلية هذه ، على شكل تلال مورينية وبحيرات مثل (لادوغا واونيغا وبيبوس وايلمن) ومستنقعات .

أما في المناطق الجبلية ، فقد ظهرت قبعات جليدية فوق الكتل المرتفعة . ففي آسيا الوسطى ، انطلقت من هذه القبعات جوديات الوادي الواسعة ، مما أدى لنشوء معالف جودية جسيمة ، ذات حواف متدرجة جانبياً ، تنحدر من هضبة بامير العليا ومن جبال تيان شان .

ثانياً ـ المناخ

يكون للظاهرات المناخية في الاتحاد السوفييتي ، أكثر من الوقائع الجيومورفولوجية ، اتساع لا مثيل له في الأقطار الأوروبية الأخرى . وتكون **الرتابة** هي أكثر الصفات بروزاً للعيان في المناخ السوفييتي . كما أن **القساوة** هي الطابع الآخر لهذا المناخ .

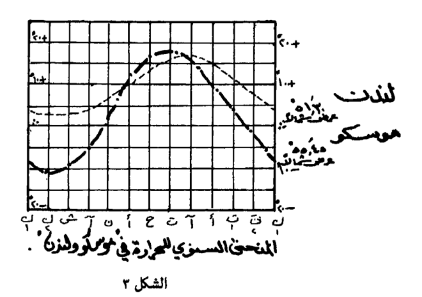
ففي مدينة موسكو الواقعة على درجة عرض كوبنهاغن ذاتها (٥٥,٥ درجة عرض شمالاً) ، يبلغ المدى الحراري ٣٠ درجة ، فيكون معدل كانون الثاني (– ١٠,٨ درجات مقابل ١٨,٥ في تموز) ، ويغطي الثلج الأرض خلال ١٤٠

يـومـاً ، كما يتردد الانجماد في ١٧٢ يـومـاً من العـام ، أو حـوالي نصف السنـة (شكل ٣) .

ويشتمل مناخ الاتحاد السوفييتي على أنواع كثيرة :

ففي شمال سيبريا كما في المنخفضات ، التي تطيف بها جبال فرخويـانسـك ، تهبط الحرارة أحيانـاً إلى (٨٠) درجـة تحت الصفر ، لـدرجـة أن بخـار زفير الإنسـان ، يتحول فـوراً إلى غبـار من الجليـد . ولكن في الـوقت نفسـه ، تتفتـح الورود في جورجيا الغربية .

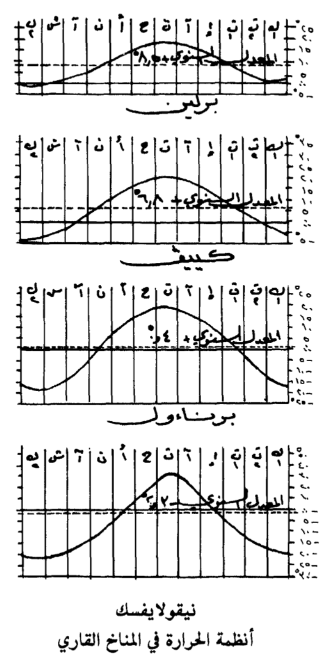
ولكن مناخ الاتحاد السوفييتي ، يكون إجمـالاً معتـدلاً أو قـاريـاً . ففي كل مناطق الاتحاد تقريباً يكون الشتاء بارداً والصيف حاراً أو حاراً جداً .



الشكل ٣

وتزداد الفروق الحرورية كلما ابتعدنـا عن المحيـط الأطلسي بـاتجـاه الشرق ، لأن مياه هذا المحيط ، تشكل عاملاً ملطفاً بالنسبة لفصول الشتـاء ، في حين تجعل الصيف أقـل حرارة . ففي لينينغراد التي لاتبتعـد كثيراً عن المحيـط الأطلسي ، يكون الشتـاء فيهـا لطيفـا نوعـاً مـا ، والصيف معتـدل الحرارة ، في حين يكـون

الشتاء قاسياً في سيبريا ، والصيف لاهباً ، مما يساعد على نضج الحبوب والخضار والبطاطا بسرعة وبنجاح (شكل ٤) .



أنظمة الحرارة في المناخ القاري

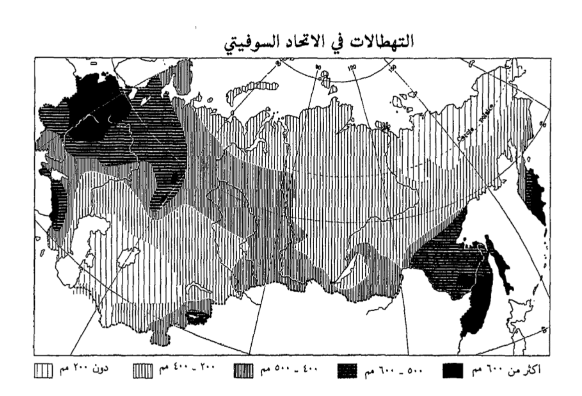
الشكل ٤

عناصر المناخ :

الحرارة : يلاحظ بالنسبة لمجموع رقعة الاتحاد ، أن متوسطات الحرارة ، تدل على وجود فصول شتاء شديدة البرد ، وعلى فصول صيف شديدة الحرارة وأحياناً محرقة .

فمتوسط شهر كانون الثاني يهبط إلى − ١٢,٨ درجة في مدينة كويبيشيف الواقعة على درجة ٥٣ شمالاً في وسط القسم الأوربي ، وإلى مادون − ٥٠ درجة في حوض نهر لينا الأوسط ، في حين أن متوسط تموز يصعد إلى ٢١,٣° في كويبيشيف ، وإلى أكثر من ٣٠° في آسيا الوسطى المنخفضة . وإجمالاً تتعرض تسعة أعشار مساحة البلاد إلى الصقيع خلال ١٢٠ يوماً بالسنة .

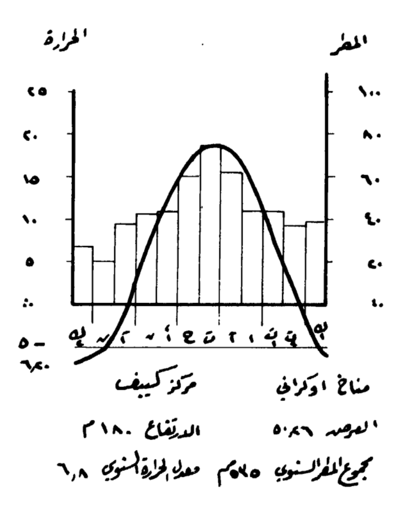
التهطال : يبدو مجموع **التهطال** ضعيفاً على العموم (شكل ٥) .



الشكل ٥

فكميـة التهطـال تتراوح بين ٦٠٠ و ٧٠٠ مم في الشمال الغربي ، ولكنهـا تهبـط إلى ٣٠٠ مم في فولغوغراد (ستالنغراد سابقاً) ، وتقل عن ٤٠٠ مم في حوض نهر ينيسيئي ، وإلى أقل من ٢٠٠ مم في الشمال الشرقي ، وتـؤدي حرارة الصيف في المنطقـة المحصورة بين بحر آرال والخـزر ، إلى امتـداد مفعـول الجفاف .

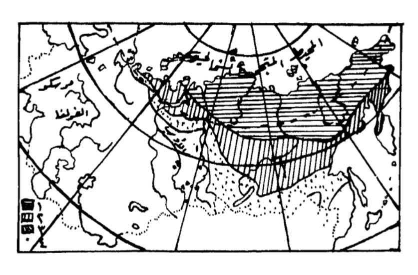
وتسقط هذه التهطالات غالباً على شكل زخـات عـاصفيـة في الصيف ، وهي الفترة الإنبـاتيـة ، ولكنها فترة التبخر الأقصى . ففي موسكو يسقط ٥٨,٧٪ من مجموع الأمطار بين أيـار وأيلول وكـذلـك في كييف (شكل ٦) ، أما في الشتاء فتظل طبقة الثلج على الأرض مدة طويلـة ولكنهـا تكون عـادة رقيقة .



الشكل ٦

هـذا ويكون **نسق الفصول** ، وهـو أمر أسـاسي لفعـاليـة الإنسـان ، متميزاً بضمور فصلي الربيع والخريف . ففي **الشتاء** يكون البرد قارساً جداً ، وخـاصـة في شرقي البلاد ، ولكنـه يكون محتـملاً بفضـل الجفـاف وركـود الهـواء ، ولاسيما في سيبريا .

ولا تكـون طبقـة الثلـج التي تغطي الأرض أكثر من ١٤٠ يـومـاً في القسم الأعظم من الاتحـاد السوفييتي ، كافية للحيلولة دون تجمـد التربـة حتى عمق لابـأس بـه ، وخـاصـة في أشـد المنـاطق برداً . وتدعى التربة المتجمدة هذه مرزلوتـا أمـا الطبقـة المتجمـدة أبـديـاً فتـدعى تيـال (شكل ٧) . وتظل الأنهـار مـدة طـويلـة متجمـدة ، حيث تكـون المـواصلات حينئـذ ميسـورة على الطرق وفـوق الأنهـار المتجمدة .



الشكل ٧

توزع التيال (الأرض المتجمدة أبدياً) .

١ ـ نطاق الأرض المتجمدة المستمرة (دون ٥ درجات على عمق ١٠ ـ ١٥ م) .

٢ ـ نطاق يكون توزع الأرض المتجمدة فيه غير متصل (بين ـ ١,٥ درجة و ـ ٥درجات) .

٣ ـ نطاق متقهقر (الحرارة تزيد عن ـ ١ درجة في المتوسط السنوي) .

٤ ـ بقاع من أرض متجمدة .

هذا ويكون **الربيع** القصير بحد ذاته عبارة عن فصل مضطرب ، إذ تتقطع فترة الدفء بعودة البرد . ولكنه يعتبر فترة انحلال الجمد أو **الراسبوتيتزا** ، حيث تتحول التربة إلى وحل ، فتطغى الأنهار على السفوح الفسيحة وعلى مساحات واسعة مما يجعل المواصلات عسيرة .

ويأتي **الصيف** بسرعة كبيرة ، وتتزايد حرارته نحو الشرق والجنوب ، فيكون الحر في مدينة استراخان في تموز أقسى مما هو في طنجة . أما في الشمال لا ينفك تجمد التربة على عمق يزيد ٥٠ سم أو ٢ م . وتهطل زخات مطر فجائية تؤدي إلى تخديد السهب ، فضلاً عن قدوم رياح عنيفة من الجنوب الشرقي تثير عواصف الغبار . ولا نجد فصل خريف حقيقي ، لأن البرد يعود بسرعة كبيرة جداً ابتداءً من نهاية آب في سيبريا ، وابتداء من نهاية أيلول في موسكو ؛ لدرجة أن الشتاء البارد والجاف يتفوق ابتداء من أواسط تشرين الثاني .

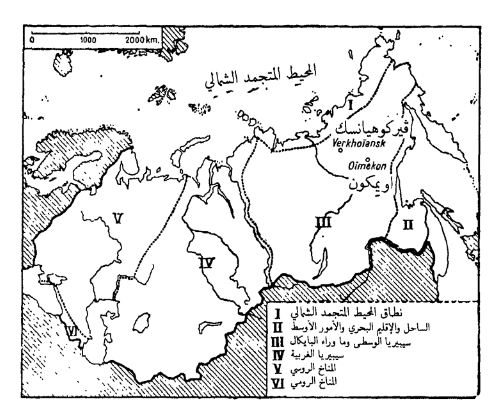
عوامل المناخ :

يمكن تفسير المناخ السوفييتي أولاً بتأثير درجة العرض ، إذ أن أكثر من أربعة أخماس البلاد تقع إلى الشمال من درجة العرض ٥٠ (أي درجة عرض بلجيكا) ، وهذا ما يجعل الشتاء شديد القساوة .

والعامل الثاني في قساوة المناخ هو البعد عن البحر ، أي **الطابع القاري** للبلاد ، رغم امتداد الواجهات البحرية (شكل ٨) .

فالمحيط المتجمد الشمالي الذي يتجمد خلال تسعة شهور بالعام ، لا يقدم لبلاد السوفييت الدفء ولا الرطوبة . كما أن تأثير المحيط **الهادي** الذي تجري فيه تيارات باردة (مثل تيار أوياشيفو المماثل لتيار لابرادور) ، يبدو قليل التلطيف ، فضلاً عن أن هذا التأثير ينحصر بجوار الساحل ، بسبب وجود الجبال . أما في الغرب فإن الرياح المحيطية الأطلسية لا تدرك الاتحاد السوفيتي إلا بصعوبة ، بسبب وجود السلاسل الاسكندينافية والجبال الهرسينية في أوربا الوسطى . بينما ينحصر تأثير البحر البلطي والبحر الأسود في سواحلها فقط .

وهكذا يمكن تفسير ضعف التهطالات وشدة سعات الفروق الحرورية وضمور الفصلين الانتقاليين .



الأقسام المناخية الكبرى في الاتحاد السوفييتي : إمكانات التنمية والتقوقع القاري

الشكل ٨

كما أن **وضع التضاريس** يجعل القسم الأوربي من البلاد وسيبريا الغربية والوسطى عرضة للرياح القارسة أو المحرقة ، التي لا يعترضها أي حاجز أو عائق . وهكذا تدخل مؤثرات المحيط المتجمد الشمالي حتى أواسط آسيا الوسطى المنخفضة ، بحيث يتعرض بحر آرال الواقع على درجة عرض مدينة بوردو الفرنسية إلى التجمد مدة لا تقل عن خمسة شهور بالعام ، مع أن متوسط الحرارة في كانون الثاني في بوردو لا يتجاوز ٧° فوق الصفر .

وأخيراً لا يجوز أن نهمل مفعول نظام **الضغوط** ، وتأثير **كتل الهواء** اللذين يلعبان دوراً هاماً .

ففي الشتاء نجد في أواسط الضغوط الشديدة (بين ٧٧٤ إلى ٧٨٠ مم) ، التي تطغى على سيبريا الشرقية والوسطى وأحياناً حتى روسيا ، كتلاً هوائية قطبية قارية ينجم عنها طقس جاف وبارد ، هادئ ومشمس ، وهو فصل الشتاء السيبري النموذجي . غير أنه تتجول منخفضات محيطية من الغرب نحو الشرق ، على طول الجهة القطبية مما يؤدي في بعض المناطق إلى هطول الأمطار ، وخاصة على جبال القوقاز الغربية . كما يتعرض غرب روسيا وشماليها الغربي أحياناً لهبوب رياح غربية رطبة وأكثر دفئاً .

أما في الصيف فيحل محل الضغوط العالية الشتوية ضغوط منخفضة ملحوظة ، مما يسبب أحياناً هبوب رياح حارة وهطول أمطار عاصفية . وتدخل بعض المنخفضات الغربية أحياناً حتى روسيا بمحاذاة الجبهة القطبية .

المناخات الاستثنائية :

إن الفروق الطفيفة بين مناخات الاتحاد السوفييتي ، تنجم فقط عن تفاوت مدة دوام البرد ، أو عن تاريخ بدء أو نهاية الشتاء . بيد أن هناك بعض المناطق التي تشذ عن هذا الانسجام .

فناخ **آسيا الوسطى المنخفضة** ، يبدو مضيئاً وجافاً ومتطرفاً ، أي هو عبارة عن مناخ صحراوي . فهنا تتراوح الأمطار بين ٨٠ و ٢٠٠ مم ماعدا جوار الجبال ، كما أن الصيف جاف . بالإضافة إلى شدة السعة الحرارية في التبدلات اليومية والسنوية ، ففي وادي نهر سيرداريا الأدنى ، تتراوح الحرارة الوسطى بين ٢٦,٦ درجة في تموز وبين – ١٠° في كانون الثاني .

هذا ويسود على **سواحل البحر الأسود** وفي جنوب القرم وعلى السفح الغربي لجبال القوقاز ، وكلها محمية من الرياح الشمالية بسبب وجود الجبال ، يسود مناخ من النموذج الرومي ، ومضيء وعذب (فمتوسط كانون الثاني في يالطا يبلغ ٣,٧ درجات) ورطب شتاء ، ومعتدل الحرارة صيفاً (لأن متوسط تموز في يالطا ٢٤,١°) ، ولكنه يصبح أكثر رطوبة في ماوراء القوقاز الغربية ، لأن مدينة باطوم تنال ١٤٦٥ مم من الأمطار .

أما في الشرق **الأقصى السوفييتي** ، فإن الرياح الصيفية القادمة من البحر تكون رطبة ، والصيف منخفض الحرارة (متوسط حرارة مدينة بتروبافلوسك ١٢,٥ درجة) ، كما أن الرياح الشتوية القارية تكون باردة (متوسط كانون الثاني - ١٢,٥°) وجافة . وهنا تكثر كمية التهطال كما يكثر الضباب .

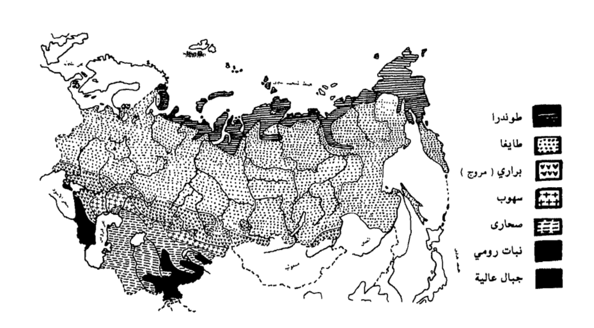
ثالثاً ـ النبات

تكون الترب والنبات في الاتحاد السوفييتي موزعة حسب مجموعات كبرى ، كما هو الحال بالنسبة للمناخ والتضاريس .

الطوندرا :

وتغطي المناطق التي تظل متجمدة على عمق قريب في الصيف ، أي النطاق الساحلي الشمالي مع الجزر ، وتمتد جنوباً تقريباً حتى خط الحرارة المتساوية ١٠ درجات في تموز (شكل ٩) .

تكون الطوندرة الحقيقية عديمة الأشجار هذا في الوقت الذي تكون كل نباتاتها ـ من أعشاب وشجيرات ـ معمّرة . والسبب هو أن الفترة الإنباتية تكون غاية في القصر ، مما لا يسمح للنباتات الحولية بأن تنتج ثمارها وبالتالي بذورها .



الشكل ٩

المناطق الطبيعية في الاتحاد السوفييتي

ويكـون النبـات هنـا غير مستمر . وقـزمـاً وقميئـاً ، ويتـألف من أعشـاب وأشنيات وطحالب وتؤلف الغذاء الرئيسي لقطعان الرينة .

وينمو النبات ببطء شديد (من ١ إلى ٣ مم بالنسبة للحزازيـات Lichens . وإلى الجنوب تظهر الطونـدرة « الشجيريـة » ، حيث تنمو أشجـار السنـدر القـزمـة والصفصـاف القطبي على شكل دغيـلات متشبثة بسطح الأرض ، ثم نـدخل الطونـدرة « الحراجيـة » حيث تقبع الغـابـات في الأوديـة ، وتؤلف المرحلة الانتقالية إلى الغابة .

نطاق الغابات :

ويغطي حـوالي نصف مسـاحـة الاتحـاد السـوفيتي منهـا ٢,٢ مليـون كم٢ في المنطقـة الأوربيـة . وتشغل الطـايغـا حيزاً كبيراً فيهـا ، وهي غـابـة مـؤلفـة من الصنوبريـات (مثل الصنوبر والميليز والايبيسسيئـا) ، التي تختلـط بهـا أحيـانـاً أشجار السنـدر . وتكثر في هـذه الغـابـة المستنقعـات ، وتغشـاهـا سحب البعوض بالصيف ، كما تكثر فيها الأشجار اليابسة ، لهذا تشتهر بأنها عسيرة المواصلات .

وتكون الطايغـا في السهل الروسي حـاويـة على الكثير من الفسحـات (بوليبيـه) ، التي وسّعهـا السكان وأقاموا فيها منـذ عهـد بعيـد بمعزل عن غـارات بـدو السهب . والواقع يبـدو أن ترب الطـايغـا الرمادية (البودزول) ، رغم أنها فقيرة بتـأثير غسل المواد الخصبـة بفعل ميـاه التسرب ، تصلح للزراعـة بشرط أن تضاف إليها الأسمدة والكثير من العناية . وتعتبر غالبيـة مـدن روسيـا القـديمـة مـدن بوليبيـه قامت فيها أول دولة روسية .

وتتحول الطايغا من أطرافهـا : ففي الشمال تكون أقل كثـافـة وقميئـة نوعـاً مـا ، وفي الجنوب تتقهقر الغابة لتتحول إلى سهب حرشي . وفي الغرب نجد نطاقاً انتقاليـاً (مخروطيـات وذات أوراق) ، تؤدي إلى غـابـات ذات أوراق (بلوط ، دردار ، سنـدر) . وأخيراً نجـد في الشرق الأقصى أن الأمطـار القادمـة من المحيـط الهـادي تروي غـابـات كثيفـة مختلطـة (حوض نهر الآمور) ، حيث تهين أشجـار المخروطيات ، والنشم ، والبلوط ، والزيزفون ، والجوز ، والكرز البري ، فوق غابة منخفضة مؤلفـة من شجيرة الكرمة الوحشية « والليون » والسرخسيات الشجرية .

السهوب[1] :

يمتد إلى الجنوب من السهب الحرشي ، ابتداء من جبال الكربات حتى الطائي ، الشريط الطويل المستمر من السهوب . وهذه العبارة تعني كل أشكال النبات في المناطق غير الحراجية ضمن النطاق القاحل الجنوبي . وتنتهي حدود السهب باتجاه الجنوب بجوار خط الحرارة الوسطي ١٥ في تموز .

وأفضل منطقة فيها هي نطاق السهوب فوق **التربة السوداء** ، وهو عبارة عن شريط طويل يمتد من أوكرانيا حتى أقدام جبال سايان ، وتبلغ مساحته ٢,٥ مليون كم² (شكل ١٠) .



الشكل ١٠
توزع النطاقات النباتية

(١) وترد خطأ على شكل استبس في العديد من الكتب الجغرافية ، وقد عربت بكلمة سباسب والأصح سهوب ومفردها سهب وهو السهل العشبي كما ورد في كتاب « وصف أفريقيا » للحسن الوزان « ليون الأفريقي » ترجمة المؤلف .

والسهوب عبارة عن « براري أو مروج » مماثلة للبراري الأميركية ، التي تنبت وتزدهر بسرعة كبيرة جداً في الربيع (وتتألف قبل كل شيء من نباتات معطرة كالزنبق والشقائق والسوسن والنجيليات) ، ثم تجف في الصيف . وينتج عن تفسخ هذه الأعشاب الدبال ، الذي يختلط بالتربة بشكل وثيق وهي تربة لوسية غالباً ، مما يجعل تربة التشرنوزيوم ، أو التربة السوداء ، سوداء اللون لأن نسبة الدبال ترتفع فيها إلى ١٥٪ ، وهي أغنى تربة زراعية بالعالم حينما تكون أمطار الصيف كافية ، ولكنها تتعرض لتهديد الحت والرياح ومياه الأمطار العاصفية التي تؤدي لتعريض أخاديد المسيلات .

وباتجاه الجنوب تتناقص نسبة الدبال بالأراضي السوداء ، كما تتناقص ثخانتها . وهنا تظهر الترب الكستناوية والحمرة ، ثم تظهر السهوب الرمادية التي تنمو عليها النجيليات ، ثم تظهر السهوب البيضاء ذات الترب الحاوية على الملح ، حيث تتباعد النباتات النجيلية عن بعضها ، كي تترك بقعاً جرداء مما ينذر بالاقتراب من الصحارى .

الصحارى :

عندما يصبح المناخ شديد الجفاف ، في آسيا الوسطى المنخفضة ، تعجز الترب ، الفقيرة جداً بالدبال ، عن تغذية النبات عدا النباتات الموقتة المتوائمة مع الجفاف والجمد . فبجوار بحر آرال تمتد صحارى حقيقية ، حجرية ، غضارية أو رملية . وفي هذه الصحارى تنمو شجيرات الساكساوول ذات الأغصان المعقدة والفقيرة بالأوراق وذات الخشب القاسي .

لا يكون انتظام هذه النطاقات تاماً في أي مكان . **فالجبال العالية** تشذ عن هذه القاعدة ، إذ تحوي على سفوحها (مثل جبال القوقاز وجبال آسيا الوسطى) تطبقاً نباتياً شديد التنوع ، وفضلا عن ذلك يكون هذا التعاقب ، الذي يكون كاملاً على طول خط الطول ٦٠ ، مقتصراً بالشرق على النطاقين الأولين ، لأن الغابة تبلغ الحدود الجنوبية ، في حين نلاحظ إلى الغرب من خط الطول ٤٠ أن الطوندرا تكون محدودة جداً ، ويختفي النطاق الصحراوي كما يحل محل الطايغا غابة ذات أوراق أو مختلطة أي ذات أوراق ومخروطيات .

ومهما كان ارتصاف هذه النطاقات ، فإن نطاقي الغابة والسهب يستران ٧٠٪ من مساحة البلاد ويؤلفان المشهدين الرئيسيين . فالغابة ، وهي منطقة ملجأ وفسحات مزروعة ، لعبت دوراً رئيسياً في تاريخ الدولة الروسية . أما السهب وخاصة الأرض السوداء على الأقل فلم تعد ، كما كان بالماضي ، منطقة خوف وغزو بل أصبح منطقة ذات إنتاج زراعي غني .

رابعاً ـ الأنهار والبحار والبحيرات

الأنهار : صفاتها :

تكثر الأنهار في الاتحاد السوفييتي نظراً لاتساع رقعته ، فبعضها مثل نهر أوب ، تكون عبارة عن أنهار سهول ذات مجرى هادئ وبطيء ، في حين أن بعضها مثل نهر أنغارا وكاتون ؛ تكون أنهاراً هائجة تكثر فيها المساقط . وبعضها يفيض بالربيع بسبب ذوبان الثلوج مثل نهر الفولغا ، بينما يفيض نهر الآمور ، الذي يكون تساقط الثلوج في حوضه ضئيلا ، في فصل الصيف الذي هو فصل الأمطار هناك . وإذا كان نهر كوليا الذي يصب في المتجمد الشمالي يتجمد خلال ثمانية شهور بالعام ، فإنا نجد أن نهر ريون في جيورجيا لا تتجمد مياهه مطلقاً .

وتستمد الأنهار الرئيسية في القسم الأوربي من الاتحاد السوفييتي ينابيعها من أواسط السهل الروسي الكبير ونذكر منها : نهر الدنيبر ، والدون ، والدفينا الغربي . وأطول أنهار أوربا هو الفولغا ، حوالي ٣٧٠٠ كم .

وتجري أهم أنهار سيبريا من الجنوب نحو الشمال . وهذه الأنهار هي ، نهر الأوب وطوله ٥٧٠٠ كم مع رافده ايرتيش اللذان يمتد حوضهما على مساحة ٢,٩ مليون كم٢ ونهر ينيسيئي ، ونهر انغارا ولينا . ويبلغ طول نهر ينيسيئي ٥٩٤٠ كم ، وذلك إذا أضفنا إليه طول رافده سيلنغا . أما الشرق الأقصى فيجري فيه نهر الآمور الغزير .

وتصلح معظم أنهار الاتحاد السوفييتي للملاحة ، وهكذا نجد أن نهر الفولغا

ورافده الكاما ، يحملان على طول مجراهما أطواف الخشب والمراكب التي تنقل القمح والملح والبترول . وهكذا يؤلف الفولغا أكبر شبكة صالحة للملاحة في الاتحاد .

ويؤمن الفولغا وروافده ثلثي النقل المائي الداخلي . أما الأنهار السيبرية فتبدو وسيلة المواصلات الوحيدة بين المساحات الفسيحة التي تفصل بين المحيط المتجمد الشمالي وبين الخط الحديدي العابر لسيبريا .

وتكون غالبية أنهار آسيا الوسطى عبارة عن أنهار موقتة وتنتهي نحو حوضات مغلقة لا تنصرف إلى البحر . ويستثنى من ذلك نهر سيرداريا ونهر آموداريا ، اللذان يعتمدان على غزارة ذوب الثلوج والجموديات ويدركان بحر آرال حتى في قلب الصيف ، على الرغم من استفحال التبخر في الصحارى التي يخترقانها .

البحيرات :

نصادف في جنوب الاتحاد أكبر بحيرة بالعالم أي بحر الخزر ، الذي أطلق عليه اسم بحر نظراً لأبعاده الكبيرة ، التي تقارب مساحتها البحر الأسود . فهو مثل البحر المذكور من ناحية العمق والأمواج والأسماك أي يتصف كبحر حقيقي . ويحتل بحر الخزر المكانة الأولى من ناحية كثافة النقليات .

وإلى الجنوب أي في نطاق الصحارى والسهوب ، تقع بحيرة آرال الكبرى التي تسمى بحر آرال أحياناً ، وبحيرة بالخاش فضلا عن زمرة بحيرات أصغر مساحة تكون أحياناً غنية جداً بالأملاح .

ولكن المنطقة الشمالية الغربية من الاتحاد ، تكون غنية جداً بالبحيرات التي تكون متصلة ببعضها ، بواسطة أنهار ذات مساقط كثيرة مما يجعلها موائمة لبناء المراكز الكهرمائية . وأهم هذه البحيرات لادوغا ، وأونيغا ، وبيبوس وايلمن .

أما البحيرات الجبلية فهي غالباً ما تكون عبارة عن حفر سحيقة مليئة بمياه نقية وشفافة ، وأهم هذه البحيرات هي بايكال في سيبريا . وهي أعمق بحيرات

الدنيا (أكثر من ١٧٤٠م) ، وتبدو للناظر كأنها محفورة وموضوعة في الجبال العليا المستورة بالغابات . ويضطر الخط الحديدي الذي يحاذيها لاختراق حوالي خمسين نفقا . ونذكر من بين بحيرات المرتفعات بحيرة ايسيك كول في قيرغيزيا وبحيرة سيفان في أرمينيا . وتقع البحيرة الأخيرة على ارتفاع كبير ، لدرجة أن نهر رازدان الذي ينبع منها ، يضطر لأن يحفر لنفسه واديا منتصب الجوانب كي يصرف مياهه السيلية . وتستغل مياه هذه البحيرة لري حقول القطن والكرمة في أرمينيا .

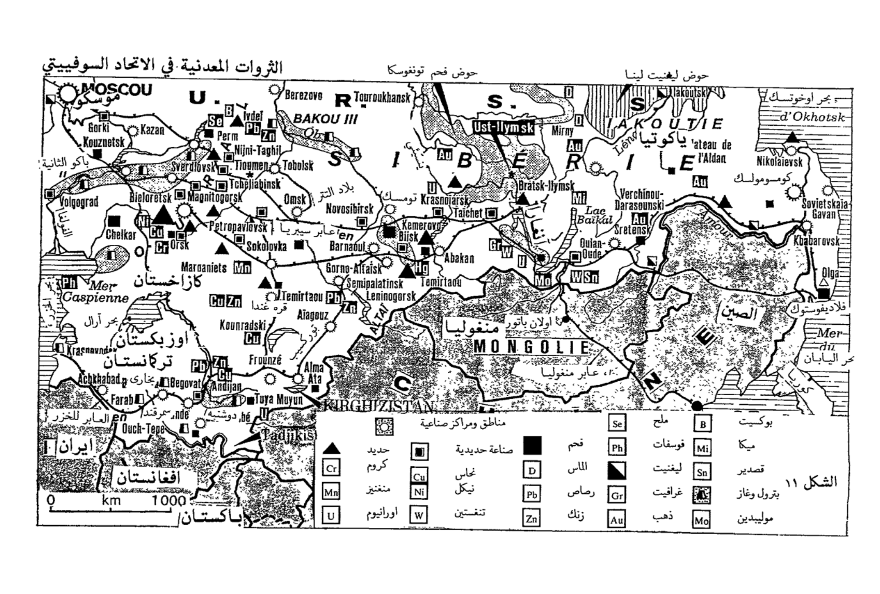
وتعتبر بحيرة ساريز في بامير أحدث بحيرات الاتحاد . فقد نشأت في عام ١٩١١ على أثر انهيار سد طريق مجرى نهر المورغاب . ومنذ ذلك الوقت أخذت تتوسع بانتظام ، وحالياً يزيد طولها عن ٨٠ كم وعمقها عن ٥٠ م .

البحار والسواحل :

لا تبدو الواجهات البحرية موائمة للملاحة في الاتحاد السوفييتي . فهذه السواحل تبدو قصيرة نسبياً ، إذ يخص كل ١٣٢٧ كم^{٢} مقدار ١ كم من الساحل مقابل ١ كم ساحل لكل ١٧١ كم^{٢} في فرنسا ، ويبلغ مجموع طولها ١٨٠٣٤٦ كم بما في ذلك الجزر ، التي يبلغ مجموع طول سواحلها ٦٠٠٨٥ كم .

كما تكون هذه السواحل قليلة التعاريج وغالباً منخفضة ، فتكون على شكل سواحل ذات ليان ، كسواحل البحر الأسود وطولها ٢٩٢٨ كم أو رملية ، كسواحل البحر البلطي التي يبلغ طولها ٧١٩٠ كم ، أو مستنقعية كسواحل شمال سيبريا . كما يكون ظهير بعض هذه السواحل قليل الفعالية ، كما تتعرض غالبية هذه السواحل إلى التجمد شتاء ، ماعدا ميناء مورمانسك (في شبه جزيرة كولا) ، الذي يظل حراً كل السنة . ومجموع طول الساحل من رأس دجنيف **Degnev** حتى الحدود الصينية ٢٦٧٥١ كم .

وتتم العلاقات البحرية مع أوربا في الغرب عن طريق بحرين هما البلطيك ، الذي يتعرض


الثروات المعدنية في الاتحاد السوفييتي
حوض فحم تونغوسكا
حوض ليغنيت لينا
MOSCOU
موسكو
Gorki
Kazan
Kouznetsk
باكو الثانية
Volgograd
Bieloretsk
Magnitogorsk
Sverdlovsk
Perm
Ivdel
Nijni-Taghil
Tioumen
Tobolsk
Tcheliabinsk
Omsk
Berezovo
BAKOU III
Ob
Touroukhansk
Novosibirsk
بلاد التتر
تومسك
Krasnoiarsk
Kemerovo
Bijsk
Barnaoul
Abakan
Taichet
Ust-Ilymsk
Bratsk-Ilymsk
Mirny
IAKOUTIE
ياكوتيا
Lena
Iakoutsk
d'Okhotsk
بحر اوخوتسك
Nikolaievsk
كومسومولسك
Sovietskaia-Gavan
Khabarovsk
Amour
Olga
فلاديفوستوك
Mer du
بحر اليابان
كوريا
الصين
Verchinou-Darasounski
Lac Baïkal
Sretensk
Oulan-Oude
اولان باتور
منغوليا
MONGOLIE
عابر منغوليا
Chelkar
Orsk
Petropavlovsk
Sokolovka
عابر سيبريا
Marganiets
كازاخستان
Mer Caspienne
بحر آرال
Temirtaou
قره غندا
Kounradski
Aïagouz
Gorno-Altaïsk
Semipalatinsk
Leninogorsk
Temirtaou
ALTAÏ
اوزبكستان
تركانستان
Krasnovodsk
Achkhabad
بخارى
Begovat
Andijan
Frounzé
Alma Ata
Tuya Muyun
KIRGHIZISTAN
Farab
سمرقند
العابر للخزر
Ouch-Tepe
دوشنبه
Tadjikis
ايران
افغانستان
باكستان
0 km 1000
مناطق ومراكز صناعية
حديد
كروم
منغنيز
اورانيوم
صناعة حديدية
نحاس
نيكل
تنغستين
فحم
الماس
رصاص
زنك
ملح
فوسفات
ليغنيت
غرافيت
ذهب
بوكسيت
ميكا
قصدير
بترول وغاز
موليبدين

الشكل ١١

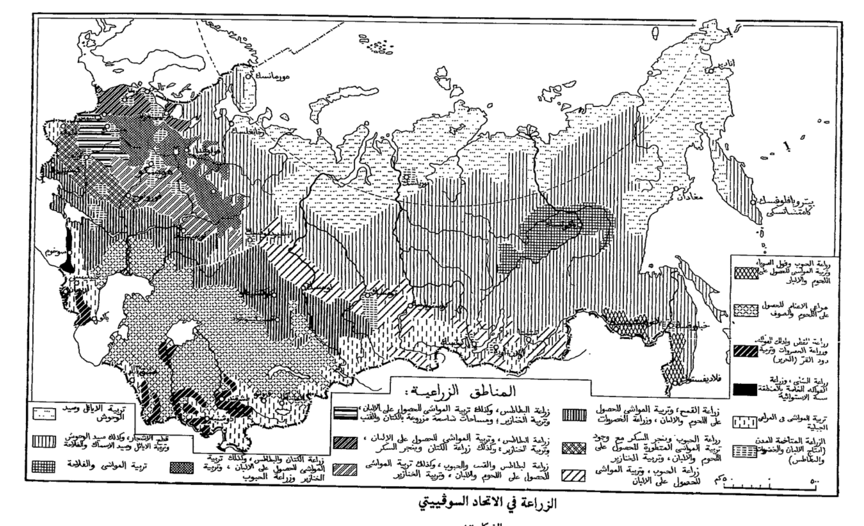
للتجمد بسبب قلة نسبة ملوحته ، ويقع مخرجه تحت إشراف الدانمارك ، كما أن البحر الأسود هو بحر مقفل أيضاً ، لأن المضائق تقع تحت هيمنة الأتراك .

ويحتوي ساحل المحيط الهادي على بعض الملاجئ ، ولكن البحر يتعرض هنا للتجمد ، فمدينة فلاديفوستوك التي تقع على نفس درجة عرض مرسيليا ، تتعرض لتجمد مياهها خلال ١١٠ أيام في السنة . أضف إلى ذلك أن كثرة الضباب تعيق الملاحة كثيراً .

أما في الشمال فيمتد الساحل الشاسع للمحيط المتجمد الشمالي . ولا ينجو من التجمد على هذا الساحل سوى قطاع الساحل المورماني الذي يظل سالكاً طيلة العام . أما في المناطق الأخرى فلا يكون هذا الساحل سالكاً إلا في خلال الصيف ، كما يلاحظ أن انفكاك الجليد لا يكون تاماً في أواسطه . بيد أن الحكومة السوفييتية بذلت جهوداً جبارة لإيجاد الارتباط البحري على الساحل الشمالي ، وقد تمت أول رحلة دون توقف بفضل كاسحة الجليد سيبرياكوف عام ١٩٣٣ ، ومنذ ذلك الوقت أنشئت خطوط منتظمة تربط بين مصبات نهر أوب وينيسيئي ولينا وذلك خلال بضعة أسابيع بالعام .

وهكذا يظهر من خلال دراسة الجغرافيا الطبيعية للاتحاد السوفييتي أن لديه **امكانيات هائلة** من أجل التنمية الاقتصادية على نطاق واسع : كالأحواض الفحمية ، والمناطق البترولية ، والمكامن المعدنية (شكل ١١) ، فضلاً عن أراضٍ زراعية غنية وشاسعة ، وشبكات ملاحية واسعة . ولكن استخدام هذه الموارد يبدو عسيراً بسبب **شروط الاستغلال الصعبة** ، كقساوة المناخ واتساع الأراضي الفقيرة ، وبعد المسافات ، وقلة الانفتاح الطبيعي على الخارج (شكل ١٢) .

وهذا ما يساهم في زيادة أهمية **الجهد الإنساني** وتنظيمه من أجل استغلال واستثمار هذه الموارد الطبيعية .



الزراعة في الاتحاد السوفييتي

الشكل ١٢

سكان الاتحاد السوفييتي وطريقة العمل فيه

تنص الفقرة الأولى في الدستور السوفييتي على ما يلي : « أن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية هو دولة اشتراكية قائمة على العمال والفلاحين » . وعبارة الاتحاد السوفييتي لا تدل على أي مغزى جغرافي ، بل ترمز إلى الفكرة القائلة أن الاتحاد السوفييتي هو مجموعة شعوب اتخذت النظام السياسي والاجتماعي ذاته .

وعلى الصعيد السياسي يظهر تعريف هذا النظام كما يلي : « يختص عمال المدن والريف بكل السلطة الذين تمثلهم مجالس النواب » ، بالإضافة إلى مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي . ويمثل هذا المجلس الجهاز الأعلى لسلطة الدولة في الاتحاد السوفييتي ، ويتألف من **مجلس الاتحاد** الذي ينتخب على أساس نائب واحد عن كل ٣٠٠٠٠٠ نسمة ، ومن **مجلس القوميات** المنتخب ضمن إطار مختلف المجموعات القومية .

أما على **الصعيد الاجتماعي والاقتصادي** فيتميز النظام السوفييتي « بتصفية النظام الرأسمالي في الاقتصاد وإلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج . وإلغاء استغلال الإنسان للإنسان » ، وبذلك تصبح أدوات ووسائل الإنتاج « ملكية اشتراكية » في حين يضمن القانون حق المواطنين في الملكية الشخصية للمداخيل والتوفير ، الناجمة عن عملهم وبملكية بيت السكن بالإضافة إلى حق الإرث للملكية الشخصية .

أولاً ـ شعوب الاتحاد السوفييتي

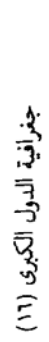
تنوع الأجناس وتفوق الروس :

غير أن على النظام السوفييتي الشديد التمركز أن يأخذ بعين الاعتبار **شدة تنوع** الشعوب ، لأن الخارطة القومية للاتحاد تبدو كبيرة الاختلاف ، وهذا الوضع لا يفسّر إلا **بالجغرافيا** ، لأن هذا القطر الشاسع ، والحاوي على المشاهد المتتابعة والسهلة التواصل ، كانت تساعد دائماً على الهجرات البشرية ، كما يفسر **بالتاريخ** القديم جداً والمعقد للغاية (شكل ١٣) .

إن العنصر الرئيسي في هذا التاريخ ، هو التفوق الذي اكتسبه عنصر قومي هو **سلاف الشرق** وتكوين الدولة الموسكوفية ، وبعد أن كانت موسكو مدينة متواضعة ، أخذت تتسع في القرن الرابع عشر بصورة وطيدة ، وفي القرن السادس عشر بلغت الامبراطورية الموسكوفية ضفاف بحر الخزر في عهد ايفان الرهيب ، وفي القرن الثامن عشر ، أي في عهد كاترين الثانية . وصلت بحر آزوف جنوباً على حساب السلطنة العثمانية وليتوانيا غرباً . وأخيراً وفي القرن التاسع عشر حصل استعمار مزدوج لسيبريا ، أولاً عن طريق النفي حول طريق العربات القديمة باتجاه منشوريا (هيلونغ يانغ حالياً) أو خط التراكت Trakt ، وثانياً بواسطة الاستعمار الحر بعد إلغاء نظام الأقنان والرق في ١٨٦١ . وعندئذ حصلت هجرة حقيقية باتجاه الأراضي السيبيرية ، وتوسع في بداية القرن التاسع عشر في إثر تمديد الخط الحديدي العابر لسيبيريا . وفي الوقت ذاته راحت الامبراطورية تمتد في اتجاه آسيا الوسطى ، أي نحو دويلات التركستان الإسلامية ، ونحو بلاد

الشكل ١٣

فئات الشعوب في الاتحاد السوفييتي



القفقاس ، ونحو ضفاف المحيط الهادي حتى آلاسكا الأمريكية . وفي أعقاب معاهدتي اقتسام النفوذ مع بريطانيا في آسيا الوسطى ١٨٨٥ ـ ١٩٠٧ ، ومع اليابان في مناطق المحيط الهادي بعد انكسار الروس في البر والبحر أمام اليابانيين في ١٩٠٥ ، تثبتت نهائياً حدود روسيا القيصرية عند سواحل المحيط الهادي شرقاً ، وحافة آسيا الوسطى الجبلية وإيران جنوباً . وبعد هزيمة ألمانيا واليابان في ١٩٤٥ ، أخذت حدود الاتحاد السوفياتي تضم الدول البلطية ، وقسماً من بروسيا الشرقية التابعة لألمانيا ، والمناطق الشرقية من بولونيا القديمة وجزءاً من بسّارابيا التابعة لرومانيا وتابع المعمرون الروس استزراع الأراضي الصالحة للزراعة في سيبريا .

وتضم حدود الاتحاد حالياً **السلاف** الذين يقاربون ١٨٥ مليون نسمة ، وهم الذين قاموا بأكبر حركة هجرة . وينقسمون إلى زمرة الروس الكبار ، وهم الأكثر عدداً ، وأصلهم من بلاد الغابات ، والروس الصغار وموطنهم الأصلي أوكرانيا والروس البيض (منطقة مينسك وفيتبسك) .

ثم تأتي مجموعة الشعوب **غير السلافية** ، وتضم فئات جنسية مختلفة جداً . ففي الشمال الغربي يقطن **البالطيون والفينيون** المبعثرون ابتداءً من شبه جزيرة كولا حتى الأورال وهم اللابون والماري وموراف الفولغا . ونجد في التوندرا مجموعات متنوعة ولكن متماثلة في نمط حياتها ، مثل الكورياك بجوار بحر اوخوتسك ، والصاموئيد والتشوكش . كما تقطن الطايغا شعوب قديمة مثل الطونغوز وخاصة **الياقوت** الذين استوطنوا حوض اللينا ، ويقطن السهب شعوب كانت بدوية بالماضي اتجهت حالياً نحو الحياة المستقرة : مثل **التركمان والكازاخ والأوزبك والقيرغيز والطاجيك** . ويجب أن نضيف إلى هذه القائمة الشعوب المهاجرة لهذه البلاد ، مثل اليهود وألمان الفولغا ، عدا **الأقوام**

الشـديـدة التنوع في جبـال القوقـاز ، كالشراكسـة والـداغستـان والكرج والأرمن والأكراد والأتراك .

سياسة القوميات :

يخلق هذا التنوع الشديد لشعوب الاتحاد وبالتالي تنوع اللغات والثقافات ، مشكلات عديدة . فقد تجـاهل القيـاصرة ذلـك عن عمـد ورفضوا منح المجموعـات الجنسيـة ، بـاستثنـاء الروس ، أي مسـاهمـة في إدارة الـدولـة . ويجهـد النظـام السوفييتي بوضع حلول مرنة لتلك المشكلات .

وهكذا أوجد تجاه التفتت القومي **تنظيماً إداريا معقداً** ، فـأصبح الاتحـاد السوفياتي دولة متعـددة القوميـات ، مؤلفـاً من ١٥ جمهوريـة اتحـاديـة كان عـدد سكانها كما يلي :

	١٩٦٢	١٩٦٦	١٩٧٩
جمهورية روسيا	١١٢,٦٠٠,٠٠٠ نسمة	١٢٦,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	١٣٧,٦ مليون
جمهورية اوكرانيا	٤٠,٦٠٠,٠٠٠ نسمة	٤٥.٥١٦,٠٠٠ نسمة	٤٩,٨ مليون
جمهورية بيلوروسيا	٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	٨,٦٣٣,٠٠٠ نسمة	٩,٦ مليون
جمهورية ليتوانيا	٢,٧٠٠,٠٠٠ نسمة	٢,٩٨٦,٠٠٠ نسمة	٣,٤ مليون
جمهورية آذربيجان	٣,٤٠٠,٠٠٠ نسمة	٤,٦٦٠,٠٠٠ نسمة	٦ مليون
جمهورية ارمينا	١,٦٠٠,٠٠٠ نسمة	٢,١٩٤,٠٠٠ نسمة	٣ مليون
جمهورية اوزبيكستان	٧,٣٠٠,٠٠٠ نسمة	١٠,٥٢٤,٠٠٠ نسمة	١٥,٦ مليون
جمهورية كازاخستان	٨,٥٠٠,٠٠٠ نسمة	١٢,١٢٩,٠٠٠ نسمة	١٤,٥ مليون
جمهورية ليتونيا	٢,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	٢,٢٦٣,٠٠٠ نسمة	٢,٥ مليون
جمهورية استونيا	١,١٠٠,٠٠٠ نسمة	١,٢٨٥,٠٠٠ نسمة	١,٤ مليون
جمهورية جورجيا	٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	٤,٤١٥,٠٠٠ نسمة	٥ مليون
جمهورية مولدافيا	٢,٧٠٠,٠٠٠ نسمة	٣,٣٦٨,٠٠٠ نسمة	٤ مليون
جمهورية قيرغيزيستان	١,٩٠٠,٠٠٠ نسمة	٢,٦٥٢,٠٠٠ نسمة	٣,٥ مليون
جمهورية طاجيكستان	١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة	٢,٠٧٥,٠٠٠ نسمة	٣,٨ مليون
جمهورية تركانستان	١,٤٠٠,٠٠٠ نسمة	١,٩١٤,٠٠٠ نسمة	٢,٨ مليون

وتؤلف كل من هذه الجمهوريات بحد ذاتها اتحاداً فيديرالياً ، يضم من ناحية مناطق ومقاطعات تحكمها مباشرة ، ومن ناحية أخرى - هذا إذا كانت هناك ضرورة - مقاطعات وجمهوريات ذات استقلال ذاتي . وتساير التخوم بين الجمهوريات قدر الإمكان التوزع القومي ، أما إذا كان ذلك معقداً كما في جمهورية أوزبكستان ، فإن الحدود الإدارية تصبح متعرجة جداً ، وتتبدل بالواقع باستمرار ، مسايرة التحولات الاقتصادية والديموغرافية .

وهكذا أمكن الحفاظ على أصالة القوميات ، المصانة بهذا التنظيم ، الذي يحاول جاهداً تنمية **الثقافات القومية :**

مثل انتشار الجرائد والمسارح والمدارس التي تنشر لغة وآداب وفن كل قومية . وهكذا صار الرقص الاوزبكي والدراما الجيورجية والشعر القيرغيزي ، تؤلف جميعاً جزءاً من التراث السوفييتي . كما فتّحت التقاليد الشفوية وسائل التعبير فأوجد العلماء الأحرف المجائية لحوالي ثلاثين مجموعة جنسية لم يسبق لها أن عرفت الكتابة .

وهذه الجهود المبذولة في سبيل احترام هذا التنوع ساعدت مع ذلك على إيجاد **شكل جديد للوحدة** بين شعوب الاتحاد السوفييتي .

لقد توسع مجال اللغة الروسية بسبب التوسع في التعليم ، وتدرس العقيدة الشيوعية في كل مكان . ولكن وحدة البنى الاقتصادية بشكل خاص ، التي تمخضت عن تحولات عميقة في مختلف مناطق الاتحاد السوفييتي ، هي التي عملت بدورها على توثيق العلاقات المتبادلة : فقد أسندت لكل منطقة مكانة محددة في نظام وحيد من الإنتاج والتوزيع ، حسب تقديرات مخطط وحيد . وفضلاً عن ذلك فقد عملت الحياة العصرية على تلاشي الخصائص المحلية في سائر البلاد ، وهكذا اضطرت النسوة المسلمات إلى التخلي عن الحجاب إلا فيما ندر ، مثلما تراجعت البداوة واختفى تقريباً تعدد الزوجات .

كما ساهمت الهجرة الداخلية نحو المناطق الصناعية والأراضي العذراء في خلق **نموذج سوفييتي** وعاطفة التضامن ، برهن عليها الدفاع المشترك عن أراضي الاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية .

الأوضاع الديموغرافية

السكان : لقد بلغ عدد سكان الاتحاد رقم ٢٦٠ مليون نسمة في عام ١٩٧٧ و ٢٧١ مليون في مطلع عام ١٩٧٩ (أي الدرجة الثالثة بالعالم بعد الصين والهند) . ولا تزيد الكثافة عن ١٢ شخص بالكيلو متر المربع ، وهي نسبة ضعيفة نسبياً ، تعود لاتساع المساحات ذات الطبيعة القاسية ، وقد ارتفع العدد عام ١٩٨٢ إلى حوالي ٢٧٠ مليون ، أي بزيادة قدرها حوالي ٢٠ مليون خلال عشرة أعوام . ويتزايد سكان الاتحاد بصورة متسارعة : فبين عام ١٩١٣ و ١٩٦٢ ارتفع عدد السكان بحوالي ٥١ مليون نسمة ، ويقارب التزايد السنوي حالياً حوالي المليونين سنوياً مقابل ١٢ مليون بالهند ، وهو نسق تزايد يقل عن نسبة التزايد في الولايات المتحدة مثلاً ، والتي تزايد سكانها بمقدار ١,٨ مليون سنوياً بين فترة ١٩٠٠ و ١٩٦٠ .

وتتضافر عدة عوامل لتفسير البطء النسبي في التزايد الديموغرافي ، لأنه لم تتعرف البلاد إلى أية هجرة تزيد في نسق التزايد . كما تعرض الاتحاد السوفياتي منذ ١٩١٣ إلى عدة فترات مضطربة ، وهي الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية خلال الثورة والمجاعة التي أعقبتها ، وأخيراً الحرب العالمية الثانية التي خسر الاتحاد خلالها ١٨ مليوناً من السكان ، كما أن خسارة مليون شاب منهم ؛ لن تكون دون نتيجة مباشرة على رقم المواليد الحالي .

ورغم هذه العقبات لا يزال **التزايد الطبيعي** للشعب السوفيتي هاماً جداً . فالفائض السنوي للمواليد يصل إلى (٩ بالألف) ، وترتفع نسبة المواليد إلى (١٨ بالألف) مقابل ١٤ في فرنسا ، كما هبطت نسبة الوفيات إلى (٩ بالألف) مقابل ١٠ في فرنسا .

وقد نشرت مجلة الحوليات الجغرافية بتاريخ تموز ـ آب ١٩٧٩ ص ٤٩١ مايلي :

تبلغ نسبة التوالد ١٥ بالألف في روسيا السوفياتية و ١٥,٤ بالألف في اوكرانيا ولكنها تبلغ ٣٥ بالألف في اوزبكستان و ٣٧ بالألف في طاجيكستان و ٣٥ بالألف في تركانستان .

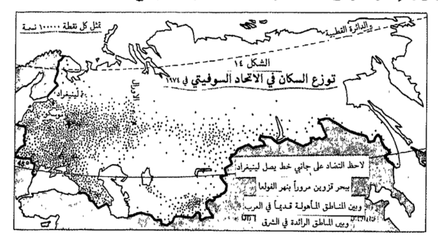
وإذا كان السكان الروس قد تزايدوا بنسبة ١٢٪ بين ١٩٥٩ و ١٩٧٠ فإن أبناء الجمهوريات الإسلامية السوفياتية كالاوزبكيين والطاجيك تزايدوا في الحقبة ذاتها بنسبة ٥٣٪ .

توزع السكان : يدل الرقم المتوسط للكثافة ، وهو ١٢ بالكم[٢] ، على تفاوت مدهش في الكثافة الإقليمية ، فأشد الكثافات تلاحظ في **القسم الأوروبي** الذي يقطنه ثلثا السكان . وعلى كل ففي شمال شرق المائدة الروسية ، شأن بعض السهوب المجاورة لبحر قزوين ، لاتزيد الكثافة فيها عن (١) نسمة بالكيلو متر المربع . ومأأن **نجتاز الأورال** شرقاً ، حتى نجد نطاقات قليلة السكان تمتد على رقعة هائلة (شكل ١٤) . والمنطقة الوحيدة الكثيفة السكان ، هي الشريط الذي يقطنه الروس والذي يمتد من جبال الأورال حتى الباسفيكي على طرفي الخط الحديدي العابر لسيبريا وعلى أطراف فروعه الجديدة . كما نجد مناطق كثيفة في **القسم الجنوبي** فيما وراء القفقاس وعند سفوح جبال آسيا الوسطى وحول بعض الوديان الكبرى ، التي تجتاز الصحارى مما يتنافر مع نقص الكثافة العام .

وتكن **عوامل** هذا التباين في الكثافة في المناخ القاسي والترب العاتية على الزراعة ، مما حال دون استيطان الناس . وحتى في المناطق الموائمة ، نلاحظ أن السكان لا يزالون مجتمعين على شكل جزر استيطانية ضمن القفار الخالية .

ويلاحظ ابتداء من فترة ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠ أن التوزع يجنح نحو التطور ، فالقسم الآسيوي من البلاد ، الذي كان يضم في عام ١٩١٧ سبع السكان ، أصبح يحوي عام ١٩٣٩ الربع ، ويضم الآن حوالي الثلث . ففي هذه المناطق يكون التكاثر أسرع بكثير من القسم الأوربي . فبينما زاد العدد الكلي للسكان بمقدار ٥ بالمئة بين ١٩٤٠ و ١٩٥٦ ، نجد أن عدد سكان الجمهوريات الآسيوية قد زاد بنسبة ٢٥ بالمئة ، كما تضاعف سكان أراضي الشرق الأقصى بعد ١٩٢٦ . وهذا الإعمار والاستيطان الجديد إنما تم على حساب المناطق الريفية في روسيا الأوربية ، حيث حرر دخول الآلات الزراعية عدداً كبيراً من الفلاحين ، الذين اجتذب الأورال وسيبريا الغربية قسماً كبيراً منهم ، سواء لحاجات الصناعات

الجديدة ، أو لرفع الإنتاج الزراعي في هذه المناطق . أضف إلى ذلك أن الحرب العالمية الثانية أدت إلى تهجير ١٢ مليوناً نحو الشرق ، والكثير منهم استقروا في مواطنهم الجديدة . وهكذا نجد أن مركز الثقل السكانى ومركز ثقل الأراضى الصالحة للزراعة يجنحان نحو التقارب مع بعضهما .



الشكل ١٤
توزع السكان في الاتحاد السوفيتي في ١٩٧٤

المدن والأرياف : لا يزال الريفيون يشكلون خمسي السكان تقريباً . فكان عددهم عام ١٩٥٩ (١٠٨,٥) مليون أو (٥٢ بالمئة) تقريباً ، وهبطت نسبتهم إلى ٣٨ ٪ في ١٩٧٧ ، وهي نسبة لا تزال مرتفعة بالنسبة لدولة صناعية عظمى . وطريقة الاستيطان الريفي الغالبة هي المسكن المتجمع . فالتقاليد الروسية القديمة (نظام المير) وقلة الأمن والمياه في السهوب تتحالف جميعاً لتكوين القرى . وجاء النظام الاشتراكي ليزيد أيضاً في شدة تمركز السكان .

والواقع نلاحظ أن أبنية الاستغلال الزراعي (عنابر للمكائن ، الاسطبلات ، الصوامع) ، التي يضاف إليها الأبنية العامة (قاعات الاجتماعات ، المدرسة ، المخزن الجماعي) ، تكون كلها جماعية ومتميزة عن بيوت السكن . فالاختلاف الجوهري عن قرى أوربا الغربية ، هو انفصال السكن عن مكان العمل . فكل قرية تضم مجموعة بنايات كبرى متجمعة عادة ، وبيوت صغيرة فردية محاطة بحدائقها ، مرتصفة بموجب نظام متباين حسب العادات المحلية ، وهناك اتجاه حديث يدخل ضمن إطار تحسين الشرائط الزراعية (تجميع الأراضي لأقصى حد ممكن) ، يرمي إلى تمركز السكن ونشوء ما يسمى بالمدن الزراعية (آغروغراد) ، التي هي عبارة عن مدن سكن للعمال الزراعيين تحوي على كل مكتسبات النموذج الحضري .

ويحتل الخشب في **بيوت** مناطق الغابات المكانة الأولى ، وتتألف الجدران من ألواح وجذوع فوق أساس من الأحجار ، ويتألف السقف من صفائح خشبية

أيضاً ، وفي الداخل يوجد موقد ضخم يؤمن الدفء لكل الغرف . وفي السهوب يؤدي فقدان الخشب إلى تغير منظر المسكن . فالمسكن الأوكراني المدعو « خايتا » ، يتألف من جدران مبنية من اللبن ، سقفه من القش الذي يتجاوز الجدران ويؤلف نوعاً من سقيفة . وتطلى جدرانه بالكلس وتضاف إليه ألوان صارخة . أما في المناطق الأخرى ، فنجد النماذج الإقليمية التقليدية ، فتكون البيوت في القفقاس مبنية بالحجارة . وأخيراً نلاحظ في كثير من القرى الجديدة السهبية ظهور القرميد في الجدران والسقوف وأحياناً ألواح الاسمنت .

غير أن **توسع المدن** في هذا القطر الذي لا يزال يحمل الطابع الريفي يبدو مع ذلك سريعاً . فالامبراطورية الروسية كانت دولة متأخرة من وجهة النظر إلى عدد مدنها وضخامة هذه المدن بسبب بطء النمو الصناعي . وفي خلال ٣٠ عاماً ، أدت النهضة الصناعية التي لم تبدأ إلا في أواخر القرن الماضي في بعض المناطق (الأورال ، الدونتز ، منطقة موسكو) إلى تضخم عدد سكان المدن بحوالي ٦٠ مليوناً ، كما يدل على ذلك الجدول الآتي :

١٩٢٦ كان في الاتحاد ٣١ مدينة ، يزيد سكان كل منها على ١٠٠٠٠٠ نسمة منها ٣ أكثر من ٥٠٠٠٠٠ .

١٩٣٩ كان في الاتحاد ٩٠ مدينة ، يزيد سكان كل منها عن ١٠٠٠٠٠ منها ١١ أكثر من ٥٠٠٠٠٠ .

١٩٥٦ كان في الاتحاد ١٣٥ مدينة ، يزيد سكان كل منها عن ١٠٠٠٠٠ منها ٢٢ أكثر من ٥٠٠٠٠٠ .

وفي ١٩٧٩ ارتفع عدد المدن التي يزيد عدد سكانها عن نصف مليون إلى ٣٨ مدينة ، وهي : موسكو ٨ ملايين وتحتل المرتبة الخامسة بين أكبر مدن العالم أي تأتي بعد بكين ومكسيكو وطوكيو وسيئول ، لينينغراد ٤,٦ ملايين ، كييف

٢,١ ، طشقند ١,٨ ، باكو ١,٦ ، خاركوف ١,٣ ، غوركي ١,٢٧ ، نوفوسيبيرسيك ١,٢٦١ ، كوبيشيف ١,٢ مليون ، سفردلوفسك ١,١ مليون ، مينسك ١ مليون ، أوديسا : مليون ، تفليس : مليون ، دونتسك ١ مليون ، تشليابنسك : مليون ، قازان ٨٦٩ ألف ، دنيبر بروتيروفسك ١ مليون ، بيرم ٨٥٠ ألف ، أومسك : مليون ، فولغوغراد ٨١٨ ألف ، روستوف الدون ٧٨٩ ألف ، أوفا ٧٧٣ ألف ، أريفان : مليون ، ساراتوف ٧٥٨ ألف ، ريغا ٧٣٣ ألف ، آلما آتا ٧٣٠ ألف ، فورنيج ٦٧٠ ألف ، زابوروزيه ٦٥٨ ألف ، كراسنويارسك ٦٤٨ ألف ، كريفو يروغ ٥٧٣ ألف ، لفوف ٥٥٣ ألف ، قره غندا ٦٢٢ ألف ، ياروسلافل ٥١٧ ألف . أي هناك ١٨ مدينة يزيد عدد سكانها عن المليون .

ولكن لهذا النمو العمراني بعض الاستثناءات ، مثل المدن القديمة التجارية الأوربية التي لم تدخلها الصناعة (سمولنسك ، أوريل ، غومل ، فيتبسك) . كما أن بعض المدن التي نكبت بمعارك ضارية خلال الحرب ، ظل عدد سكانها ثابتاً ، مثل لينينغراد التي فقدت وحدها ٧٥٠٠٠٠ شخص قضوا من الجوع والبرد . وعلى العكس نجد أن التزايد الشديد منذ ١٩٣٩ كان أولاً : من نصيب المناطق الصناعية ، كما في أوكرانيا الصناعية ، فبعد أن كان عدد سكان مدينة غورلوفكا ٢٤٠٠٠٠ ازداد بنسبة ١٢٢ ٪ ، كما قفز عدد سكان غوركي على نهر الفولغا من ٦٤٤٠٠٠ إلى ١٢٧٠٠٠٠ ، كما نجد أن مدينة تشيليا بنسك في الأورال ، التي كان عدد سكانها ٦١٢٠٠٠ ، قد ازداد بنسبة ١٢٤ ٪ . وفي سيبريا زاد عدد سكان مدينة ستالينسك بنسبة ١٠٥ ٪ فوصل إلى ٢٤٧٠٠٠ نسمة ، وزاد عدد سكان نوفوسيبريسك البالغ ١٢٦١٠٠٠ بنسبة ٩٠ ٪ .

ثانياً : كما أدت النهضة الصناعية إلى ارتفاع عدد سكان المدن القديمة ، فأصبحت كييف تضم مليونين من السكان ، وباكو ١,٦ مليون ، كما تغلغت بعض المدن بمدن ثانوية مثل موسكو .

ثالثاً : هذا وقد انبعثت مدن جديدة من العدم منذ ١٩١٧ ، فتضخمت بشكل مدهش ، فبعضها عبارة عن مدن صناعية مثل ماغنيتوغورسك ، وفيها ٤٠٠٠٠٠ نسمة . أو كاراغندا وتضم ٦٢٢٠٠٠ ، أو مدن إدارية مثل ستالين آباد (وتدعى فرونزة) عاصمة تاجيكستان وتحوي ٣٥٠٠٠٠ نسمة .

ويخلق هذا النمو المتسارع مشاكل عمرانية مستعجلة كالتموين الذي يستدعي

تحسين المواصلات الداخلية ، **والسكن** الذي لا يزال يؤلف مشكلة عويصة رغم الجهود المبذولة .

لقد زاد عدد سكان موسكو مثلاً ، خلال المخطط الخمسي الخامس بحوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة بسبب تدفق وافدين جدد . وخلال الفترة ذاتها ، تم بناء ٤,٣ ملايين متر مكعب من المساحة السكنية . ونتج عن ذلك نشوء أبنية إيجارية امتدت على نطاق واسع ، ولكن الحاجة للمساكن لم تتناقص كثيراً . وكانت التدابير المتخذة لتلافي هذه الأزمة عديدة : فتم « الاستغناء عن التزيينات غير المفيدة والعالية الكلفة » والتي كانت ترهق أحياناً الهندسة العمرانية السوفياتية ، واللجوء إلى عقلانية صناعة البناء ، والكف عن إقامة مؤسسات صناعية جديدة في المدن الكبرى ، وإقامتها على العكس في « المدن الصغرى الحسنة التخطيط » والتي قامت حول المدن الكبرى ، والمقصود منها تخفيف الضغط عن المدن الضخمة .

جدول بتشييد المساكن في الاتحاد السوفييتي بين ١٩٥٠ - ١٩٧٩

السنة	عدد الشقق المبنية (بالألف)	عدد الأفراد الذين حصلوا على شقق (ملايين)
١٩٥٠	١٠٧٣	٥,٣
١٩٦٥	٢٢٢٧	١٠,٨
١٩٧٠	٢٢٦٦	١١,٢
١٩٧٥	٢٢٢٨	١١
١٩٧٩	٢٠٠٠	١٠

كما نلاحظ أن **بنية** المدن السوفييتية ذاتها ، تتميز باتساع أبنيتها الجماعية . مثل جامعة موسكو ، ومحطات القطار الأرضي ، وقصور النقابات ، وكذلك الحال بالنسبة للمؤسسات الجماعية في الأحياء السكنية (مغاسل ثياب جماعية ، حدائق أطفال مخازن كبرى).

ومن جهة أخرى ونظراً لهيمنة الوظيفة الصناعية حالياً ، لا سيا بالمدن الجديدة ، فإن المدينة تنشطر إلى عنصرين أساسيين هما : أحياء المعامل وأحياء السكن . وإذا كانت البنايات الضخمة هي المتفوقة أحياناً ، فهي مخصصة في

بعض المدن الجديدة للجهاز الإداري والاجتماعي ، بينما نجد في الأحياء السكنية البيوت الفردية الصغيرة .

لا يزال الكثير من المدن القديمة تحمل ملامح المراحل الكبرى من تاريخها : تلك هي حالة عواصم آسيا الوسطى الإسلامية . ففي طاشقند ، لا يزال الاهتمام الاستراتيجي ماثلاً في شبكات الطرق ، التي تتخذ شكلاً مروحياً ، وتشهد عن ماضي المدينة العسكري ، وقد انبثقت مدينة عصرية من ناحية أخرى ، مع مصانعها الواسعة ، ومحطة هامة ، ودور تحرير جرائد ومجلات ، ومسرح يتسع لمقدار ٢٥٠٠ شخصاً . وأخيراً لا تزال المدينة القديمة تحتفظ بمنازلها ذات السقوف المستوية والعديمة النوافذ على الطريق ، وأزقتها ذات متاهات الأزقة ، والزنقات ذات الغبار ، والتي تفوح منها روائح الزهور ، والجلود ، والعفونة ، والأبنية الطينية ، وأسواقها المسقوفة ، وسواقيها التي ينطلق منها خرير المياه .

تقع طشقند عاصمة اوزبكستان ومركز محافظة طشقند في حوض نهر تشيرتشيك . وتأتي من حيث عدد السكان (مليون و٨٠٠ألف نسمة) في المرتبة الرابعة في الاتحاد السوفيتي وتبلغ مساحتها ٢٥٠ كيلومتراً مربعاً وهي تعتبر من أقدم المدن السوفيتية وبدأت تتشكل كمدينة في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . وكانت تسمى تشاتش وكانت ملتقى طرق التجارة بين الشرق والغرب . وسميت فيما بعد بينكينت . أما أول ذكر للمدينة كطشقند فيعود إلى القرن الحادي عشر .

عانت المدينة في القرون الوسطى من الغارات المتوالية والتخريب وكانت تنتقل من سيطرة لأخرى وتشتت السكان بين المدن الأخرى وحول تيمورلنك طشقند بعد الاستيلاء عليها ، إلى قلعة منيعة ولكن ذلك لم ينقذها من الغارات والتخريب في القرون اللاحقة .

تحولت طشقند في منتصف القرن المنصرم إلى مركز هام للتجارة مع روسيا . وتم في عام ١٨٦٥ إلحاقها بالامبراطورية الروسية . وأصبحت بعد عامين مركزاً لولاية تركستان .

وابتداءً من عام ١٩٣٠ بنيت في طشقند المنشآت الصناعية ، وشيدت أول جامعة في كل آسيا الوسطى وأحيط بالعناية التامة ماتبقى من آثار معمارية ترجع للقرنين الخامس عشر والسادس عشر .

إن الأحياء الجديدة تضفي لوناً خاصاً على الطابع المعماري للمدينة ومن بينها أحياء تحمل أسماء « موسكو » « لينينغراد » ، « اوكرانيا » وغيرها ويكن الأمر في أنه حدثت هنا عام ١٩٦٦ هزة أرضية عنيفة ، سببت أضراراً فادحة لبعض الأحياء وخاصة للمركز وهرعت كل البلاد لمساعدة المدينة : فجاء البناة من موسكو ولينينغراد واوكرانيا والمناطق الأخرى وبني خلال السنوات الخمس اللاحقة فقط ،

مامساحته (٥,٥) مليون متر مربع من المباني السكنية وكذلك المسارح ودور السينما والفنادق وجامعة ومعاهد دراسية اخرى .

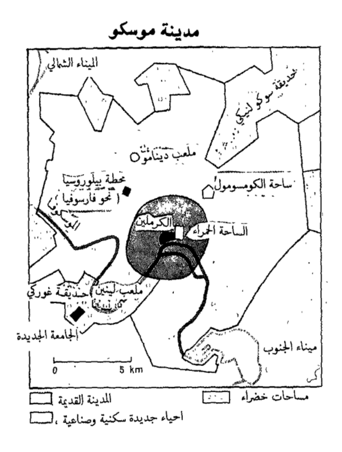
تعتبر طشقند مركزاً لاقامة المعارض الفنية واللقاءات والندوات ذات الأهمية العالمية . وتخترق المدينة العديد من الخطوط السياحية .

فمدينة **موسكو** التي تعتبر رمز النظام الجديد ، تشتمل على مختلف مشاهد المدن السوفييتية . فهي عقدة طرق تجارية ، وكانت مقر الأمراء الروس منذ القرن الثالث عشر ، ثم ما لبثت أن أصبحت بسرعة عاصمة تجارية وسياسية حول الكرملين ، وهو قصر القياصرة . ورغم منافسة سان بطرسبورغ (لينينغراد) التي أصبحت عاصمة جديدة ، أوجدها بطرس الأكبر ، ثابرت موسكو على نموها بصفتها مركز ثقافي ولا سيما بعد عام ١٨٥٠ بصفتها مركز صناعي ، فبلغ عدد سكانها عام ١٩١٣ (١,٧) مليون نسمة . وكان الكثير من شوارعها بلا بلاط ، وكانت تكثر فيها البيوت الخشبية بحيث كانت تبدو كمدينة غير كاملة . ولكن الثورة اختارتها من جديد كعاصمة سياسية في قلب البلاد ، كما اختار الأتراك أنقرة بعد القسطنطينية بعد ثورة مصطفى كمال . ولا تزال تحتفظ بوظائفها التقليدية ، كما أن تطورها الصناعي آخذ بالتسارع ، ففي عام ١٩٧٩ (شكل ١٥) كان فيها ٨ ملايين نسمة بعد أن كانوا ٥ ملايين عام ١٩٦١ .

لا يزال قسم من **موسكو القديمة** باقياً : وهو الكرملين المحاط بسور من قرميد أحمر مع كنائسه وقصوره ، وهو مقر الحكومة ومتحف تاريخي في الوقت ذاته . وبالقرب من الميدان الأحمر ، وهو قلب المدينة ، حيث شيّد فيه قبر لينين ، تنتصب كاتدرائية القديس باسيل الشهيرة .

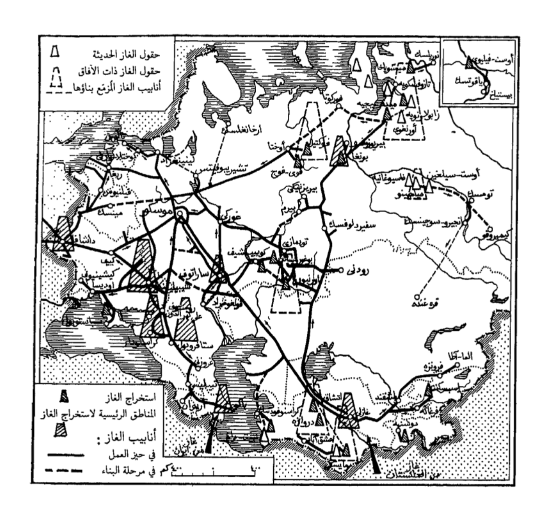
وقد تواءمت المدينة مع الحياة العصرية : فقد تم هدم جزء من الأحياء القديمة كالحي الصيني والمدينة البيضاء ، ومدينة الأرض ، والتي كانت محدودة بشوارع دائرية . أقول : هدمت لكي تترك مجالاً لشوارع عريضة فسيحة ، تطيف بها عمارات ضخمة حديثة ، تتجاور مع الأبنية القديمة . وتمتد المدينة العصرية ، فيما وراء آخر شارع خارجي ، بمحطاتها ، ومصانعها ومطارها ، والجامعة الجديدة وملعب دينامو .. إلخ . وقامت أحياء سكنية تنتشر فيها الحدائق العامة كي تحل مكان البراكات

مدينة موسكو



الشكل ١٥

الخشبية التي قامت في أواخر القرن الماضي ، ولكي تحيط بالمصانع الجديدة . وقد تم بناء القطار الأرضي عام ١٩٣٥ لعجز وسائل النقل الجماعي السطحية ، ويبلغ طول الشبكة الحالية أكثر من ٦٠ كم وتحوي ٤١ محطة ، تحوي كل روائع الهندسة ، وسيبلغ طول هذه الشبكة حسب المخطط ٢٥٠ كم . وفضلاً عن ذلك فقد اقتضت الحاجات العديدة ، كالتزويد بالمواد الأولية والمنتجات الغذائية ، والحاجة للماء والكهرباء ، اقتضت بناء قناة موسكو ـ الفولغا ، وإقامة ميناء نهري كبير . وتكمل المراكز الحرارية الحضرية المعتمدة على حوض ليغنيت موسكو ، والمصانع الكهرمائية المقامة على نهر الفولغا بتوفير الباقي من حاجة موسكو للكهرباء ، في حين يأتي الغاز الطبيعي بواسطة أنبوب ساراتوف ـ موسكو ، وابتداءً من عام ١٩٥٦ من أنبوب ستافروبول (في القفقاس) الشمالي حتى موسكو ، وأخيراً بواسطة أنبوب الغاز القادم من سيبريا والمتجه نحو أوروبا الشرقية والغربية (شكل ١٦) .



الشكل ١٦

صناعة الغاز في الاتحاد السوفييتي

ثانياً : إطارات الاقتصاد السوفييتي

المبادئ :

لقد خلفت الامبراطورية الروسية للنظام السوفييتي اقتصاداً متأخراً جداً . حقاً كانت روسيا تبدو في عام ١٩١٣ كدولة عظمى زراعية ، ومصدِّرة للقمح والبطاطا والسكر والكتان والقنب . ولكن المستوى المعاشي البائس الذي كان عليه الفلاحون الروس ، هو الذي كان لوحده يسمح بوجود هذه الصادرات .

فرغم اتساع روسيا وسكانها وثروتها الطبيعية ، لم تكن تقدم عام ١٩١٣ أكثر من ٢,٦٪ من الإنتاج العالمي . ومثال الفحم الحجري يعطي فكرة معبرة جداً . فكانت تنتج عامئذ ٣٠ مليون طن مقابل ٥٠٠ مليون في الولايات المتحدة ، وما يقارب ٣٠٠ مليون طن في إنكلترا . كما كانت الصناعات الأساسية وليدة ومحدودة بالجزء الأوروبي ، وتمولها الرساميل الأجنبية بحوالي ٧٥٪ ، وكذلك الحال بالنسبة للسكة الحديدية . وهكذا كان الاقتصاد السوفييتي اقتصاداً شبه استعماري في « بلد جديد » ومرتبط بشدة بالدول العظمى الصناعية . وبعد الحرب العالمية الأولى ، جاءت سني الحرب المدنية والتدخل الأجنبي ، مما أدى إلى إنهيار هذا الاقتصاد البسيط بحد ذاته ، فكان هناك الكثير من الأراضي المهجورة ، والمعامل المتخربة والطرق الحديدية غير الصالحة للاستخدام .

ترى ما هي **الأهداف والمبادئ الاقتصادية** للنظام الناجم عن ثورة اكتوبر ؟ إن **الهدف** المعلن هو تأمين نهضة اقتصادية سريعة ، ورفع مستوى حياة الشعوب السوفييتية . ولبلوغ هذا المرمى كان **المبدأ** الاقتصادي الأساسي هو النظام الجماعي collectivisation .

وتنص الفقرة ٦ من الدستور على ما يلي :

« إن الأرض ، وباطنها ، والماء والغابات والمصانع ، والمعامل ، ومناجم الفحم والفلزات ، وخط

الحديد ، ووسائل النقل المائي والجوي ، والبنوك ، ودوائر البريد والهاتف واللاسلكي ، والمؤسسات الزراعية الكبرى التي تنظمها الدولة . . . ، وكذلك المؤسسات البلدية والكتلة العظمى من المساكن في المدن والمدن الصناعية ، هي جميعاً ملك للدولة ، أي ملك الشعب قاطبة »

وكانت هذه الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج ، ضرورة كي تسمح في الوقت نفسه بتطور الاقتصاد الوطني بشكل عقلاني ، لتجنب التنافس وفوضى الإنتاج . فالدولة إذن هي التي تدير الاقتصاد وتحدد الأهداف التي يجب بلوغها ، وتنسق كل مؤسسات وفروع الإنتاج ، وهذا ما يسمى **التخطيط** . ولتأمين نجاح الاقتصاد مادياً في مجموعه ، ولجعله مستقلاً ، كان من الضروري الإلحاح على تصنيع البلاد ، مع تأمين الأفضلية لتطور الصناعة الثقيلة ، التي تقدم لمختلف قطاعات الاقتصاد ما يلزمها ، بما في ذلك الزراعة ، كالمكائن والتجهيزات (التي كانت تستورد حتى ذلك الوقت) والوقود والطاقة الكهربائية .

أساليب التطور الاقتصادي :

تتعلق هذه التحولات قبل كل شيء بتهيئة **المخططات** ، وأشهرها المخططات الخمسية التي راحت تنسق الحياة السوفييتية منذ ١٩٢٨ ، والتي لم تتوقف إلا خلال الحرب العالمية الثانية . ويحدد كل مخطط ، إحصائياً ، ولمدة خمسة أعوام ، الأهداف التي يجب أن يبلغه كل فرع من فروع الاقتصاد ، وكل منطقة من المناطق ، ويقدّر التنمية الصحيحة التي يجب أن تنالها قطاعات الاستهلاك (المساكن ، التغذية ، التجهيز المنزلي ، المدرسي ، الثقافي) ويوزع الاستثمارات المالية . إن مجموعاً كهذا ينظم الإنتاج والاستهلاك بالتوازي ؛ عليه أن يقضي على كل مخاطر الأزمات .

وتشترك في تهيئة المخطط الاقتصادي ، وهو مهمة طويلة وشديدة التعقيد ، كل الأمة . فيعمل فيها التقنيون المختصون بالمخطط ، وكذلك العمال والكولخوزيون عن طريق « لجان المخطط » المنتخبون . ومنذ ١٩٥٥ عمدت الدولة إلى تخفيف جهاز التخطيط الضخم : أي **الغوسبلان** في الاتحاد

السوفييتي (لجنة المخطط) الذي يظل دائماً الجهاز الأعلى . ولكن هذه المخططات ذاتها لا تشكل إطاراً صلداً إذ يمكن تعديلها في أية لحظة .

ولتنفيذ هذه المخططات يستند الاقتصاد السوفياتي على تقدم تكنيكي (تقني) متسارع يساعد عليه البحث العلمي ويدعمه فعلاً تمركز الأراضي الزراعية والمعامل على شكل وحدات كبرى . وتخصص قروض طويلة الأجل لفعالية مخابر عديدة جداً ومعاهد علمية . وقد أعطى هذا الجهد العلمي ثماره في التنقيب عن ثروة البلاد الطبيعية ، التي لم تكن متقدمة في عام ١٩١٧ . وهكذا أمكن تكوين آلاف الجيولوجيين ، الذين ينقبون عن ثروة الأرض في طول البلاد وعرضها . كما تضاعفت الدراسات المتعلقة باستخدام الطاقة النووية ، كاستخدامها في المراكز الكهربائية ، وفي وسائل النقل . وفي الوقت نفسه يجري تشجيع العاملين في المعامل بحثاً عن كل التحسينات التقنية المفيدة لفعاليتهم . وهدف كل هذه الأعمال وكل مؤتمرات المخترعين والعقلانيين والمجددين ، هو التوصل إلى **المكننة** Mécanisation المتزايدة في كل المجالات وحتى إلى الأتمتة العامة Automatisation في الإنتاج . كما لم تحرم **الزراعة** ذاتها من هذا الجهد . ففي عام ١٩٥٥ كان في الاتحاد السوفييتي ١٤٣٩٠٠٠ جرار بقوة ١٥ حصان وصعد عددها في ١٩٨٠ إلى أكثر من ٢٥٠٠٠٠٠ جرار (تراكتور) ، كما كانت المحركات الميكانيكية تؤلف ٩٤٪ من القوة المحركة المستعملة ، وكان القطاع الزراعي يستخدم ٤١٣٠٠٠ اختصاصي متخرجين غالباً من معاهد التعليم العالي ، التي خرّجت عام ١٩٥٦ (٨٥٠٠٠) مهندس مقابل (٣٥٠٠٠) في الولايات المتحدة في العام نفسه و (٥٠٠٠) في فرنسا .

« إن الغالبية العظمى من الأطباء هم من النساء . ففي مصنع ليكاتشوف للسيارات في موسكو تؤلف النساء ٤٢٪ من المهندسات . أما في معهد بوليتكنيك لينينغراد فإن ٣٠٪ من الطلاب هم من الإناث » .

مجلة بوبولاسيون ..رولان بريسّا . عدد نيسان حزيران ١٩٦١ .

لقد وزعت ڤالنتينا على كل الكولخوزات خارطة الترب التي أنجزتها ، وسجلت فوقها نتائج كل التحاليل ونوعية الأسمدة الموائمة . وقد استقبلت هذه الوثيقة في البداية بالريب ثم أخذ هؤلاء الفلاحون بالاعتياد عليها ، وتذوقوا فوائدها . وراح رؤساء الفرق الزراعية ينقلون عنها ما يتعلق بالأراضي التي يشرفون عليها ، وبعدئذ ظهرت مقولة ، غير مفهومة في الأمكنة الأخرى . ولكنها سحرت قلب ڤالنتينا ، عبارة ظهرت في معظم الكولخوزات تقول : « نحن نقوم بتنفيذ الخارطة » .

وأخيراً نلاحظ أن هذه الطرائق تطبق ضمن **مناخ إنساني** ذي أصالة . لأن تحقيق المخطط أو البرنامج يستدعي من قبل العمال الكولخوزيين والمهندسين تعهدات علنية بانجازها قبل الموعد ، كما يخلق التسابق بين المعامل والمؤسسات مما يولد ما يسمى **بالتنافس الاشتراكي** . ومن جهة أخرى فإن الستاخانوفيين يقتبسون من ستاخانوف ، وهو عامل منجم في الدونتز ، أسلوب زيادة الإنتاجية أو إنتاجية فرقهم دون زيادة الجهد الطبيعي ، وذلك بأن يستخدموا أدواتهم بشكل أفضل وأنجع ، وبتنظيم عملهم عقلانياً . وتهدف أشكال التشجيع الرسمية إلى خلق (العامل الطلائعي) . وتجد هذه الصوفية في العمل الجماعي أجمل أشكالها في المشاريع الكبرى ، التي ترمي لتحويل الطبيعة كتحويل الأنهار وري الصحارى الخ . .

تنظيم القطاعات الاقتصادية الكبرى :

تنظيم الزراعة : بعد أن جرى تقسيم الأراضي في عام ١٩١٧ ، تراءى بسرعة للعيان أن الفلاحين الفقراء الذين لا يملكون أدوات زراعية ، كانوا يستغلون أرضهم بشكل بدائي جداً ، في حين أن فئة الفلاحين الميسورين (كولاك) ، كانوا يستحوذون على أراضي الفلاحين المديونين . ولحل هذه المعضلة الاجتماعية الجديدة ، عمدت الحكومة السوفياتية إلى إصدار زمرة من القوانين الزراعية ، ودعت فلاحي كل قرية لاستغلال أرض قريتهم جماعياً ، ومنحت ميزات كبرى لهذه التعاونيات .

والكولخوز : هو عبارة عن اتحاد بين الفلاحين ، تكون فيه كل وسائل الإنتاج مشتركة . كما أن أرض الكولخوز ملك للدولة التي تمنحهم حق استغلالها مجاناً ، ولأجل غير محدود . وينتخب مجلس الكولخوزيين العام الذي يجتمع بصورة دورية ، مجلس إدارة ورئيساً . وتنظم هذه المجالس العمل ، وتقوم بعمليات مالية جماعية : كدفع الضرائب ، وإنفاق ما يلزم على الإدارة والمشتريات المختلفة ، وتوزيع الأرباح بين الكولخوزيين حسب مقادير الإنتاج ، ونوعية العمل . وفضلاً عن هذه المداخيل ، يملك كل كولخوزي بيتاً مع أرض شخصية ، وقطيعاً صغيراً (بقرة ، خنزير ، أغنام ، طيور داجنة) . ومنذ ١٩٥٦ قررت الكولخوزات جميعاً بكل حرية ، توسيع هذه الملكيات الشخصية .

وفي الوقت الحاضر لا يحوي الاتحاد السوفييتي سوى ١٠٠٠٠٠ مزرعة فردية ، مقابل ١٩,٧ مليون عائلة ريفية منضمة إلى ٧٨٠٠٠ كولخوز ، وتستغل مساحة ٤٦٣ مليون هكتار ٦٥٪ منها تستخدم الطاقة الكهربائية ، ولا يتوقف عدد الكولخوزات هذا عن التناقص منذ بضعة أعوام ، لأنه يجري تجميع الكولخوزات الصغيرة بفضل تزايد القوى المحركة والمكننة . ويستخدم الكولخوزيون أدوات زراعية متزايدة دوماً ، ففي عام ١٩٥٨ استفاد هذا التجهيز الميكانيكي من إلغاء ٨٠٠٠ محطة للمكائن والجرارات ، وهي مؤسسات حكومية كانت تؤجر خدماتها للكولخوزات ، إذ جرى في ذلك العام توزيع أدواتها (وكان فيها أكثر من مليون جرار مثلاً) وأخصائييها على الكولخوزات . وقد بلغ عدد الجرارات العاملة في الزراعة ١٩٦٥ مقدار ١٦٥٠٠٠٠ جرار ، أي بزيادة ٢١١٠٠٠ جرار عن عام ١٩٥٥ وبلغ ٢,٥ مليون حالياً .

والواقع ورغم الجهود الجبارة الحالية ، لا تزال هناك مظاهر عوز تقنية هامة : « فجني البطاطا مثلاً لم يصبه التحديث إلا بنسبة ٦٠٪ والحلب الآلي ٣٠٪ وهناك ٧,٢ جرارات لكل ١٠٠٠ هكتار محروث مقابل ٤٠ في الولايات المتحدة و٥٠ في فرنسا وإنكلترا ٧٠ وأكثر من ١٢٠ في ألمانيا الغربية . وهناك أيضاً نقص في الأسمدة ففي ١٩٦٥ كان الهكتار ينال ١٢٢,٧ كغم من السماد مقابل ٢٢٩ في

الولايات المتحدة و٧١٩ في فرنسا و٨٦٢ في بريطانيا و١١٣٩ في ألمانيا الغربية . وهناك أيضاً نقص في المستودعات ، وغرف التبريد والصوامع . . . . (عن بوجوغارنييه . صور اقتصادية عن العالم نشر S.E.D.E.S) .

أما **السوفخوزات** فهي مزارع حكومية يعتبر المشتغلون فيها كعمال .

وقد تكونت السوفخوزات في أوائل أعوام الثورة من أملاك النبلاء والكنيسة المصادرة لتأمين تموين المدن والجيش الأحمر . وتقدم حالياً مقادير كبيرة من السلع الغذائية للسوق الحكومي ، ولكنها تلعب دور « مزارع نموذجية » تدخل الآلات فيها لأقصى حد ، وتطبق طرائق علمية متقدمة جداً . ويوجد حالياً ٥٨٠٠ سوفخوز ، تملك مساحات واسعة من الأراضي ، فتتراوح كل منها بين ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ هكتار ، أي ما يعادل مساحة سهل الغاب كله ، وغالباً ما تكون مختصة بفرع معين كإنتاج الحبوب أو تربية الماشية أو زراعة الخضار أو التبغ أو الشاي . ولكن هذا التخصص لا يكون مطلقاً أبداً فنجد مثلاً أن السوفخوز المختص بالحبوب المسمى (الجبار) في منطقة روستوف ، والذي تبلغ مساحته ٤٠٠٠٠ هكتار ، يملك أيضاً ٢٠٠٠٠ رأس بقر و٢٠٠٠ خنزير و١٠٠٠٠ رأس غنم . وتستغل السوفخوزات ربع المساحة المزروعة بالاتحاد .

بنية الصناعات : ـ يقع كل مصنع تحت سلطة مدير ، تعينه مديرية الاقتصاد التي يرتبط بها المعمل . فهو مسؤول أمام الدولة ، كما يكون مسؤولاً أمام « مؤتمر الإنتاج » ، الذي تدعو إليه نقابة المؤسسة ، والذي يدرس توجيهات المخطط ، وسير العمل ، وتوزيع أرباح المعمل . ويبلغ عدد مؤسسات الصناعة الحكومية ٢١٢٠٠٠ ، تقدم ٩١,٨٪ من الإنتاج الصناعي ، ويوجد فضلاً عن ذلك أكثر من نصف مليون مؤسسة تقدم ٨,٢٪ من الإنتاج السوفييتي ، تدعى « مصانع تعاونيات الحرفيين » ، تعمل في صناعات الألبسة وصناعة الموبيليا والأحذية .

وتكون هذه ، من ناحية ، متجمعة في **كوبينات** ، تضم ضمن منطقة واحدة الصناعات المتكاملة كمناجم الفحم ومناجم الخامات المعدنية . قرهغنده ـ بلخاش : وهو شكل من تمركز شاقولي ، وتضم من ناحية أخرى في **التروستات** ، مؤسسات التركز الأفقي ، التي تتجمع في منطقة معينة ، المؤسسات التي تمارس الفعالية ذاتها مثل مناجم الفحم .

وفيما عدا مؤسسات الدولة هذه ، هناك مؤسسات أخرى يفوق عددها ٦٠٠٠٠٠ تقدم ٨,٢٪ من الإنتاج السوفياتي . وتتألف هذه على الخصوص من **ورشات تعاونيات الحرفيين** ، التي تقدم تكملة هامة للصناعة الخفيفة الحكومية ، ولا سيا في صناعة اللابس والخياطة وصناعة الأثاث ، وصنع المعادن ، والمهن الجلدية كالأحذية .

وتتميز الصناعة السوفياتية **بتمركزها** . ففي عام ١٩٥٤ كان الملاحظ في الصناعات التحويلية السوفييتية أن المعامل التي يزيد عدد عمال كل منها عن ١٠٠٠ بين عامل ومستخدم ، كانت تستقطب ٦٤٪ من الأيدي العاملة ، وتقدم ٧٢٪ من الإنتاج الكلي ، في حين نجد بالولايات المتحدة أنه في عام ١٩٥٢ ، كانت الأرقام المقابلة هي ٣٣٪ و٣٦٪ .

تنظيم المبادلات التجارية : ـ تتخذ **التجارة الداخلية** ثلاثة أشكال أساسية في الاتحاد السوفييتي ، وهي : **تجارة الدولة** التي تلعب دوراً حاسماً وخاصة في المدن ، وفي المناطق الصناعية (٦٣٪ من تجارة المفرق) وثانياً : **التجارة التعاونية** (تعاونيات الاستهلاك) ، نجدها خاصة في الريف ٢٧٪ من تجارة المفرق . وإلى جانب هذين القطاعين الداخلين في إطار التخطيط ، نجد **التجارة الكولخوزية** (منتجات الاقتصاد الفردي الكولخوزي) ، التي لا تخضع لأي تخطيط والأسعار حرة ، وتؤمن ١٠٪ من تجارة المفرق . أما التجارة الخارجية فتخضع كلياً لهيمنة الدولة ، إذ عليها أن تقدم للاقتصاد السوفييتي كل ما تفتقر إليه لتحقيق أهدافه ، كما أن الصادرات ترمي قبل كل شيء لتأمين تمويل المشتريات الأجنبية .

هذا وتكون الأهداف التي ترمي شعوب الاتحاد السوفييتي التوصل إليها ، والوسائل المحددة لبلوغ ذلك كما يلي : « تأمين الحد الأقصى من تحقيق الحاجات المادية والثقافية المتزايدة باستمرار لدى كل المجتمع ، وذلك بتطوير وبتحسين الإنتاج الاشتراكي فوق قاعدة التقنية العليا » . ويكون أحد عوائق تحقيق هذا الشرط كامناً في تجزئة وتفاوت استغلال مناطق الاتحاد السوفييتي ، إذن هناك سعي حثيث للقضاء على هذا التفاوت لتحقيق نهضة منسجمة وقديرة في الاقتصاد .

المناطق الإنتاجية الكبرى في الاتحاد السوفييتي

لا تقوم الدراسة الإقليمية للاتحاد السوفييتي على التقسيم إلى مناطق طبيعية بقدر ما تقوم على توزيع المناطق الإنتاجية التقليدية ، أو الجديدة التي تتعدل دائماً بفضل التطور الاقتصادي السريع .

لقد كانت روسيا القديمة تشتمل على قطاعات نشيطة من عهد يعود لما قبل الثورة ، ولكنها تحولت بعد نموها الصناعي الحديث مثل منطقة الغرب ، ومنطقة موسكو وأوكرانيا ، أما في اتجاه الجنوب الشرقي والشرق من هذه المنطقة ، كبلاد الفولغا ـ الأورال وسيبريا الغربية ، فقد تعرفت على الحياة الصناعية العصرية بحيث أصبحت الآن مراكزها الأساسية . وأخيراً وعند تخوم هذه المناطق ظهرت **البلاد الهامشية** فالشمال الأقصى السوفياتي ، وبلاد بايكال والشرق الأقصى وبلدان آسيا الوسطى وكازاخستان ، وبلاد القوقاز ، وهي بلاد راحت تستثمر ثرواتها بصورة منهاجية حتى أن بعضها لم يكتشف إلا منذ وقت لا يتجاوز الربع قرن من الزمن .

أولاً ـ تطورات روسيا القديمة

الغرب : ـ لاتزال مشاهد الغرب (روسيا البيضاء ، الجمهوريات البلطية ، منطقة لينينغراد ، كاريليا) تحمل الطابع الجمودي ، حيث تتبعثر فيها البحيرات والمستنقعات التي تصلها أنهار تكثر فيها الشلالات ، وأماكن الجنادل . **فالغابة** تغطي في هذه المنطقة مساحات شاسعة وتغذي صناعات عديدة في كل المدن القائمة فيها (مناشر ، صناعة عيدان الثقاب ، السيللوز) . وتعتبر هذه المنطقة ريفية بالأساس ، فالمناخ هنا أقل حرارة بالصيف وأكثر رطوبة من مناخ المناطق الوسطى ، حيث يناسب النباتات العلفية أكثر من زراعة الحبوب . وأهم الزراعات هنا تقوم على زراعة الجاودار والبطاطا وخاصة الكتان . كما تزدهر

تربية الأبقار بشكل خاص في الجمهوريات البلطية وحول لينينغراد التي تطيف بها هالة من بساتين تنتج الخضار .

وتعتبر ثروات الأرض الباطنية هنا ضئيلة ، إذ لا تحوي سوى مكن بسيط للغاز الطبيعي في أستونيا ، تستمد منه مدينة لينينغراد حاجتها بواسطة أنبوب . ولكن وفرة المياه الجارية ساعدت على استغلال الطاقة الكهرمائية كراكز نهر النيفا وسفير وڤولخوف إلى حد كبير ، مما يوفر لمنطقة لينينغراد الطاقة الوفيرة التي تسمح بمعالجة فلزات معدنية محلياً مثل الحديد والنيكل ولا سيا البوكسيت الذي يعطي الألمنيوم ، كا في مركز تيخڤين في جنوب بحيرة لادوغا .

ولكن المدن تتطور هنا بشكل متفاوت . فلا زالت مدينة **لينينغراد** الميناء الكبير المطل على البحر البلطي ، وتضم مع ضواحيها أكثر من ٤ ملايين نسمة . وبعد أن أنشأها بطرس الأكبر في عام ١٧٠٣ كي تكون عاصمة روسيا ونافذتها على الغرب ، أخذت في النمو السريع ، وهكذا أصبحت في عهد القياصرة أكبر مركز صناعي في البلاد ، بفضل الصناعات المعدنية والنسيجية التي قامت فيها . ورغم أنها فقدت بعد الثورة وظيفتها كعاصمة ، فقد ظلت أكبر ميناء سوفييتي فضلاً عن علاقاتها مع المحيط المتجمد الشمالي بفضل قناة البلطيك ـ البحر الأبيض ـ كا لا زالت مركزاً ثقافياً كبيراً . ونظراً لتوفر الأيدي العاملة الخبيرة فيها ، نجد أن الصناعات المختصة تنمو فيها بسرعة ، كبناء السفن ، والصناعات الميكانيكية والكهربائية ، وصناعة أدوات القياس ، والصناعات الكيماوية ، وصناعة الألمنيوم .

ولا تزال لينينغراد اليوم ، وهي سان بطرسبورغ الأمس ، لا تزال تلك المدينة الفخمة ذات المشاهد المماثلة لقصور ڤرساي ، وذات السماء الصدفية حيث تطير فيها مواكب طيور النورس ، وذات القنوات المخضرة بسبب إهمالها نوعاً ما ، والمحفوفة بفنادق قديمة تذكرنا تارة بأمستردام وتارة بلوحات الرسام كورو الفرنسي ، ونهرها الذي تصطف فوقه السيارات ، وتحت جسوره ، وبين جلاميد الجليد ، وتمتد لينينغراد الجديدة خارج المدينة القديمة الفخمة على شكل زمرة من المدن التابعة ، حول المصانع الفخمة ، التي تخربت في معظمها خلال الحصار الألماني لها في الحرب العالمية الثانية وفقدت

مليوناً من سكانها . وبعد أن أعيد بناء لينينغراد من جديد استردت ازدهارها الذي كانت عليه قبل الحرب وراح أول خط قطار أرضي « مترو » يعمل بها منذ ١٩٥٥ ، بطول مقداره ١١ كم .

منطقة موسكو : ـ تمتد منطقة يتراوح نصف قطرها بين ٢٥٠ و٣٠٠ كم حول موسكو ، وغير واضحة الحدود ، يطلق عليها الجغرافيون السوفيات اسم **المركز الصناعي** ، ويخترقها نهر الفولغا وأوكا . تلك هي منطقة انتقالية تدريجية بين مشهد جمودي إلى مشهد سهلي إذ تتناقص كمية التهطال باتجاه الجنوب ، كما تكثر الفسحات في الغابات تدريجياً في نفس الاتجاه .

وتعكس **الحياة الزراعية** هذه الصفات ، فرغم وجود زراعة الجاودار والبطاطا والكتان تأخذ زراعة القنب والقمح بالتزايد ولا سيا في القسم الجنوبي كنطقة تولا . ويساعد تزايد سكان المدن بسرعة على تطور ونمو قطاعين اقتصاديين هما : زراعة الأشجار المثمرة والخضار وثانياً تربية الأبقار لإنتاج الحليب ومشتقاته واللحوم .

وعلى كل نجد أن الفعاليات **الصناعية والعمرانية** ، هي التي تؤمن العمل لأغلبية سكان المنطقة ، ولكن لا نجد هنا سوى القليل من الموارد المعدنية . فعلى مسافة ١٠٠ كم من موسكو إلى الجنوب ، بين مدينتي تولا وريازان يقع **حوض موسكو الفحمي** ، الذي يحتوي على احتياطات هامة من الفحم الرديء ، وخاصة الليغنيت ، ولكن يتميز بسهولة استخراجه بصورة ميكانيكية . ويبلغ الإنتاج السنوي ٢٥ مليون طن من الفحم الذي يستخدم كمادة خام في الصناعة الكياوية ، وفي المراكز الكهربائية المحلية . ولكن الدور التجاري والسياسي السابق لهذه المنطقة ، بالإضافة إلى كثرة الناس المتكدسين هنا نتيجة ذلك ، ساعد على نشوء وتطور الصناعات منذ عهد القياصرة .

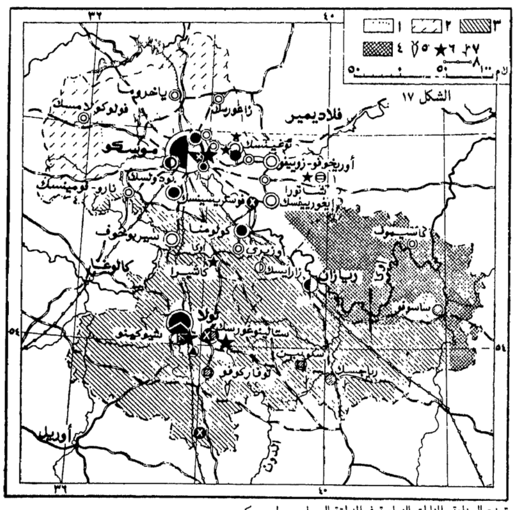
وقد تسارع تطور المنطقة منذ ١٩١٧ ، فشبكة الطرق الحديدية والمعبدة كثيفة جداً وحديثة . فمنذ افتتاح قناة موسكو ـ الفولغا أصبحت بواخر نهر الفولغا تتردد على موانئ موسكو النهرية الثلاثة ، التي أصبحت اليوم تتصل بالبحار الخمسة ، وهي البحر الأبيض والبلطي والخزر وآزوف

والأسود . كما أن أعمال تنظيم نهر الفولغا تؤدي إلى تحسين مواصلات المنطقة ، مثلما تقدم مقادير متزايدة من الطاقة الكهرمائية .

وتحتل الصناعة **النسيجية** التقليدية مكانة هامة ، فتشتهر مدينة رجيف وكوستروما وستشرباكوف بصناعة الكتان والقنب ، بينما تنصرف مدينة سبيربوخوف نحو صناعة الصوف ، في حين تهتم مدينتا **ايفانوفو** وياروسلاف بصناعة النسيج القطني ، وكأنها تحتكرانها . كما قامت في معظم هذه المدن مجدداً الصناعة المعدنية : كصناعة الجرارات في كولومنا وبرادات الشاي النحاسية (ساموڤار) في تولا ، وعربات القطارات الحديدية في كالينين والسفن البحرية في ستشرباكوف . ومع أن الصناعة الكيماوية تكون نشيطة في ياروسلاف (مصافي بترول ، مطاط تركيبي) نجدها أيضاً هامة في سنتالينوغورسك بفضل فحم الليغنيت المحلي (شكل ١٧) .

وتستقطب مدينة **موسكو** التي تضم قرابة ٨ ملايين نسمة مع المدن الملحقة بها ، كل هذه الفعاليات . ففيها الصناعات المعدنية (سيارات من ماركة موسكوفا ، والجرارات ، والرولمانات ، وبناء الطائرات) والصناعات الكيماوية (سوبر فوسفات والمطاط والحرير الصناعي) ونسيج وغزل القطن والألبسة والصناعات الغذائية ، بحيث أن عدد العاملين والعاملات في الصناعة يتجاوز المليون ونصف . وقد أدت النهضة الصناعية في المنطقة الوسطى ، إلى نمو عمراني عظيم ويستمر نمو « المركز الصناعي » دوماً ، ولكن بصورة أقل وضوحاً من المناطق الأخرى .

أوكرانيا : ـ وهي منطقة تاريخية خضع وجودها القومي للتهديد زمناً طويلاً . وتحتوي أوكرانيا على مشاهد متنوعة ، ففيها الفسحات أو السهب الغابي في الشمال والشمال الغربي ، والأراضي السوداء ، والسهوب القاحلة بالجنوب والجنوب الشرقي ، حيث يصبح الصيف تدريجياً أكثر تشمساً وجفافاً وحرارة .



توزع الصناعة والمناطق الزراعية في المنطقة الوسطى حول موسكو :

آ - المناطق الزراعية : ١ - نطاق ضواحي المدن . ٢ - زراعة الكتان والأبقار الحلوبة . ٣ - زراعة الحبوب والبطاطا وتربية المواشي الحلوبة ومن أجل اللحم . ٤ - استغلال الخشب وزراعة البطاطا وتربية الأبقار الحلوبة والخضار على ضفاف الأنهار أو « الرّقات » . ٥ - أهم مناطق زراعة الشوندر السكري . ٦ - المحطات الكهربائية الرئيسة . ٧ - مناطق زراعة التبغ. ٨ - أنابيب نقل الغاز .

وتلعب أوكرانيا في الاقتصاد السوفييتي أولاً دور **عنبر غذائي** ، إذ تقدم ٤٠٪ من القمح الشتوي و٧٠٪ من الشوندر السكري . وفي الشمال الغربي تنتج أوكرانيا الجاودار والقمح ، كما تسمح الرطوبة بوجود المراعي الطبيعية والزراعات العلفية ، مما يسمح بقيام تربية ماشية بصورة حثيثة . ولكن القسم الأعظم من القمح الأوكراني (١٠ ملايين طن) تنتجه **الأراضي السوداء** .

حتى عام ١٩١٧ كانت تقوم هناك زراعة واسعة تحقق فوق مساحات شاسعة محاصيل غزيرة . وقد اتجهت جهود التحسين نحو مكننة الزراعة التي زادت المردود بنسبة كبيرة بالنسبة للفرد العامل وكذلك بالنسبة لوقت العمل ، دون تطور محسوس من حيث إنتاجية وحدة المساحة ، وحل تدريجياً مكان الزراعة الواسعة زراعة حثيثة ذات دورة زراعية ، وزاد **المردود** بفضل الاعتاد على الأسمدة ، وعلى اصطفاء البذور ، ودخلت في الدورة الزراعية زراعة الذرة الصفراء ، والمزروعات العلفية ، والمعزوقة كالبطاطا ، والصناعية كالشوندر السكري والتبغ ، . غير أن مشكلة **الحفاظ على الترب** طرحت نفسها فوق الأراضي السوداء « تشرنوزيوم » التي تتطاير بفعل الجفاف والحراثة المتكررة ، والتي أصبحت فريسة للرياح ومياه ذوب الجليد وزخات المطر الربيعية . وهكذا ظهر مخطط تنظيمي دخل مرحلة التنفيذ منذ ١٩٤٨ ، يشتمل على زراعة أحزمة من الغابات ضد الرياح المجففة القادمة من الجنوب الشرقي ، مثلما قامت خطوط من الأشجار الداخلية حول المزارع من نوع « الحواكير » المتراخية .

وفي أقصى الجنوب من المنطقة ، تظهر المزروعات المدارية التي تزداد مساحتها بسرعة كالرز (في حوض الدينيبر الأدنى) والقطن ، كما **تتوسع زراعة الخضار** في منطقة أوديسا .

ولكن تعتبر أوكرانيا ، فضلاً عن ذلك نظراً لتجهيزها الصناعي ، الذي بدأت طلائعه في أواخر القرن الماضي ، كأهم منطقة **صناعية سوفييتية قوية** ، تماثل أهميتها وتنوع إنتاجها دولة عظمى في أوربا الغربية . وتقوم هذه القوة على الموارد الوفيرة في الطاقة والفلزات ، ففيها أحواض **فحم الدونباس** التي تشتمل على فحم الأنتراسيت ، وفحم الكوك ، مع احتياطات كبيرة ، وبعد أن تخربت هذه الأحواض كلياً خلال الحرب ، أعيد تجهيزها بشكل حديث جداً ، وتنتج حالياً ما يزيد عن ١٦٠ مليون طن . كما يعتبر الاستغلال الكهرمائي للأنهار متقدماً مثل سد دينيبروغيز الشهير ، الذي تم بناؤه عام ١٩٣٢ ، والذي غمر أماكن جنادل نهر الدينيبر . كما تقدم مناجم كويفوئيروغ حوالي ٤٠ مليون طن من فلزات الحديد سنوياً ، والذي ستعقبه بعد نضوبه مناجم كورسك بلغورود الواقعة في الشمال الشرقي فوق أرض الجمهورية الروسية . كما تحتوي المنطقة على

المنغنيز في جوار نيكوبول بالإضافة إلى احتياطات البوكسيت التي تكمل الموارد الطبيعية ، والتي تفسر تفوق الصناعة المعدنية هنا .

هذا وتكثر هنا **المدن الصناعية** . ففي منطقة الدونباس حيث تبدو شبكة الخطوط الحديدية كثيفة جداً ، نجد فعاليات متنوعة مثل استخراج الفحم ، والصناعة المعدنية في فوروشيلوفسك وماكييفكا وستالينو ٧٥٠٠٠٠ نسمة ، والصناعات الميكانيكية الثقيلة (قاطرات فورو شيلوفغراد) ، والصناعات الكيماوية الملحقة . ففي عقفة الدينيبر قرب مناجم الحديد نجد أن توفر الطاقة الكهرمائية يساعد على نشوء الصناعة المعدنية الكهربائية (أنواع الفولاذ الخاصة ، الخلائط alliages والألمينيوم) وأهم مراكز الصناعة هي دينيبروبتروفسك (أكثر من مليون) نسمة وزوبروجيه وكريفوئيروغ ودينيبروجيرزينسك .

وتعتبر مدينة **خاركوف** الواقعة في الشمال ، ثالث مدينة صناعية في الاتحاد ويعود نموها السريع ، إذ تضم ما يربو على المليون نسمة وثلث ، إلى الصناعات الميكانيكية (جرارات ، قاطرات ، تجهيزات منجمية) . وفي الشمال الغربي تقع مدينة **كييف** وسكانها ٢,٢٥ مليون نسمة ، وهي عاصمة الجمهورية ومدينة تاريخية وعقدة أساسية لشبكة الخطوط الحديدية الأوكرانية . ويأتيها غاز داشافا الطبيعي بواسطة الأنابيب كما تعتبر الصناعات التحويلية ناشطة جداً فيها .

وتملك مدينة أوديسّا على الساحل فضلاً عن الترسانات البحرية ، صناعات تعليب الأسماك والخضار والمطاحن ، ومصانع المكائن الزراعية ، وتقوم مدينة جدانوف ، على بحر آزوف ، بنقل الفحم وخامات الحديد ، ولكن يظل ميناء الدونباس هو روستوف ، وهو مركز صناعي هام .

أما المدن القديمة في الغرب مثل لفوف ، كيشينيف ، وتشرنوفتسي فهي مراكز إقليمية يقوم نشاطها على الصناعات الغذائية .

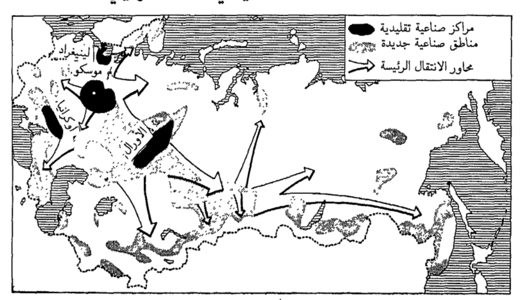
وإجمالاً تعتبر أوكرانيا منطقة عمرانية كثيفة جداً ، إذ تضم ٢٥ مدينة يزيد عدد سكان كل منها عن ١٠٠٠٠٠ نسمة . ومجموع سكانها يتجاوز سكان فرنسا .

أما **شبه جزيرة القرم** التي ألحقت بأوكرانيا منذ حوالي ١٥ سنة ، فلها سهوب قاحلة تبذل الجهود لريّها بواسطة قناة القرم الكبرى الشمالية ، كما تملك نطاقاً ساحلياً يتكئ على سلسلة جبلية طورية تعتبر الساحل اللازوردي الروسي بزراعاته الرومية ، كمزارع الأشجار المثمرة والكروم والمحطات السياحية الترويحية مثل يالطا . وفيها مدينة **كرتش** وهي مركز استخراج خام الحديد ، وقاعدة **ستافروبول** البحرية ، ومركز **سيمفيربول** الصناعي في الداخل ، وهي أهم مدن القرم .

ثانياً ـ المناطق الصناعية الجديدة

سهوب الجنوب ومنطقة الفولغا : ابتداء من جنوب شرق موسكو تتخلى منطقة الغابات تدريجياً عن مكانها إلى سهول فسيحة ، تمتد حتى أعضاد جبال القفقاس وبحر الخزر . وكان نهر الفولغا يؤلف بالنسبة لهذه المناطق الزراعية التقليدية المحور التجاري ، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية تحولت إلى **نطاق صناعي أساسي** (شكل ١٨) .

امتداد النطاقات الصناعية في الاتحاد السوفيتي



الشكل ١٨

لقد عملت الزراعات كالقمح والجاودار والشوندر السكري والتبغ والكتان والقنب . وكذلك **تربية الماشية** في المناطق العديدة الأودية ، والتي لا تزال غنية بالغابات في الشمال ، عملت على خلق حياة ريفية متنوعة . واحتفظت المدن ، وهي مراكز تجارية سابقة ، بدورها كأسواق للمحاصيل الغذائية ، ولكنها اتجهت أيضاً نحو التصنيع : كالمنسوجات ، والمطاحن ، وصناعة الجرارات والمكائن الزراعية ، مثل ڤورونيج وفيها ٦٧٠٠٠٠ نسمة .

أما في منطقة الأراضي السوداء الممتدة من أُوكرانيا حتى الأورال حيث يقل عرضها تدريجياً ، ولا سيا بين ڤورونيج وساراتوف في الجنوب ، فتظهر الأراضي الرمادية التي تعتبر خصيبة نوعاً ما . وتكون هذه مناطق الزراعة المتصفة بقلة الكثافة السكانية ، حيث تلعب الآلة الزراعية الدور الجوهري ، حيث يمكن للزراعة أن تقوم على عاتق عدد قليل من الناس ، إذ تتم كل العمليات الزراعية خلال فترة إنباتية محدودة بفعل الجفاف والفصل الحار ، ويكون **القمح** هو الغالب . ولكن **تربية الماشية** تحتل مكانة هامة ، لا سيا في الجنوب حيث يستفحل الجفاف ، كتربية الأغنام . وتتم مكافحة هذه القحولة الخطيرة على المزروعات وعلى الترب بزراعة أحزمة حراجية وبتنفيذ مشاريع الري . وكانت أول شطيرة تم إنجازها هي بناء قناة الدون الفولغا وخزان تسيليانسكايا ، حيث تنطلق منه أقنية الري نحو كل ضفة نهر الدون اليسرى .

وعند الاقتراب من بحر الخزر تختفي تربة التشرنوزيرم ، وتتزايد القحولة : لهذا تعتبر سهوب الفولغا الأدنى وسهوب تيريك بوادي رعوية لقطعان الأغنام . ولكن الري وحده يستطيع أن يرد لها الحياة ، وقد أصبحت أودية نهر تيريك وكوما والفولغا الأدنى ، تشهد قيام زراعات كثيفة مروية كالخضار والثار والقطن . أما في سهوب الكوبان ، حيث تكون التربة أكثر خصوبة والمناخ أكثر رطوبة ، فتقوم زراعة قمح من النوع الواسع .

وهكذا تتعرض هذه المناطق لنهضة عمرانية وصناعية ، تظهر في قطاعين أولها السفح الشمالي للقفقاس الذي تتزايد أهميته بفضل الإنتاج البترولي .

لقد ارتبط حقل **غروزيني** البترولي بواسطة خط أنابيب ببحر الخزر ، وكذلك بالبحر الأسود حيث يتلقى ميناء توابسه بترول حقل **مايكوب** ، ويغذي حقل الغاز الطبيعي الهام في **مايكوب** مدينة موسكو بفضل أنبوب تم إنجازه في كانون الأول ١٩٥٦ . أما بقية المراكز العمرانية فهي ميناء نوڤوروسييسك على البحر الأسود ، وكراسنودار ، وهي عقدة مواصلات ومدينة صناعية ، وأورجونيكيدزه الواقعة عند مدخل ممر يقود إلى تبيليسّي (تفليس) التي تقع بجوار بعض مناجم الرصاص والزنك .

والقطاع الثاني هو منطقة الفولغا أو البوڤولجيية وهي المنطقة الممتدة من مدينة غوركي إلى استراخان عند المصب ، وهو أهم أجزاء هذه المنطقة . فالمدن التي ظلت تجارية حتى ١٩١٧ تعرضت لنهضة صناعية ازدادت كثيراً خلال الحرب بفضل تحويل الصناعة الغربية باتجاه الشرق . وتتزايد هذه النهضة حالياً لسببين أولهما : البدء باستغلال مكامن البترول الغنية ، الواقعة على الضفة اليسرى من الفولغا (باكو الثانية) . وثانياً : الاستغلال المائي (للفولغا الكبير) إذ تحول إلى درجات من بحار اصطناعية كبيرة لتنظيم مياه النهر وروافده ، ولتأمين ري مناطق واسعة ، ولتسهيل الملاحة ، ولإنتاج الطاقة الكهرمائية بكثرة . وبعد أن تم بناء سد غوركي أشرف اثنان آخران على الانتهاء . ويقدم معمل سد كوبشيف لوحده ما يعادل ثلثي إنتاج بلجيكا من الكهرباء .

على طول هذا الشريان الحيوي تتتابع مدن نشيطة جداً مثل **غوركي** ١,٣ مليون نسمة ، وكان اسمها نيجني توفغورود قديماً ، الشهيرة بمعارضها والتي أصبحت عاصمة صناعة السيارات ومركزاً صناعياً متكاملاً تماماً إذ تقوم فيه صناعة تكرير النفط والصناعات الكيماوية ، والصناعة المعدنية وصناعة الورق والجلد ، **وقازان** التي تقوم فيها صناعة المعادن ، والمنسوجات والجلود ، **وكويبيشيف** ١,٢٥ مليون نسمة ، وهي مركز مواصلات نهرية وحديدية ، إلى جانب صناعة الشاحنات ومصافي النفط والصناعات الكيماوية ، **وساراتوف** ، وهي رأس خط أنابيب يغذي العاصمة بالغاز الطبيعي ، ومركز تكرير نفط وصناعات متنوعة ، **وفغولفوغراد** ، وكانت تدعى ايكاتيرينبورغ في العهد القيصري ، وستالينغراد حتى عام ١٩٥٦ ، وقد دمرت كلياً خلال الحرب العالمية الثانية ، فأصبحت رمز المقاومة في وجه الاجتياح النازي ، والتي زادت أهميتها على أثر افتتاح قناة الدون ـ الڤولغا ، والتي أصبحت مجهزة بمصانع حديثة للغاية للجرارات والشاحنات ، **واستراخان** أخيراً التي تؤمن عملية ترانزيت البضائع بين حوض الڤولغا وبحر قزوين وتظل مركزاً هاماً لصيد السمك وتعليب الكافيار .

الأورال وسيبريا الغربية : لقد أصبحت المنطقة الممتدة من نهر كاما إلى جبال الطائي ، بما في ذلك جبال الأورال وسيبريا الغربية خلال بضعة أعوام ، وذلك بفضل مواردها المعدنية ، من المناطق الصناعية الكبرى في الاتحاد السوفييتي . وتبدو **الثروات المعدنية** هائلة هنا .

ففي جبال الأورال تستغل مناجم فحمية عديدة منذ القرن الثامن عشر . ورغم قلة أهميتها وشدة تكسر طبقاتها ، فإنها تنتج سنوياً ما يقارب ٤٥ مليون طن ، كما يكثر الحديد في جوار ماغنيتوغورسك خاصة حيث يستغل بصورة مكشوفة . كما تشتمل جبال الأورال على ربع احتياطي الاتحاد من النحاس ، فضلاً عن مكامن البلاتين والكروم والمنغنيز والنيكل . كما يمتد على سفوحه الغربية حوض « باكو الثانية » البتروليب الذي يغطي رقعة مساحتها ٧٥٠٠٠٠ كم٢ ، وينتج أكثر من ٥٠ ٪ من البترول السوفييتي ، وأهم بقاع إنتاج النفط تقع في منطقة باشكيريا وبلاد التتر .

هذا ويعتبر حوض كوزباس في سيبريا الغربية ، من أهم مناطق الفحم بالعالم ، لأن احتياطيه يبلغ ٥٠٠ مليار طن ، فحم سهل الاستغلال جداً ، لأن سمك الطبقات يبلغ أحياناً ١٥ م ، وينتج سنوياً أكثر من ٧٥ مليون طن . وهناك مكامن فحم لم تستغل بعد على نطاق واسع كحوض نهر ينيسيئي الأعلى . كما تكثر الفلزات المعدنية في منطقة الكوزباس ولا سيا عند أعضاد جبال آلطائي : كالحديد والزنك والنحاس . كما ارتبط منجم حديد جديد عند نهر ينيسيئي الأعلى بمنطقة كوزباس ، بعد إتمام تمديد الخط الحديدي بين ستالينسك وآباكان ٣٦٠ كم ، ويدعى خط يوغ سيب . وهناك خط أنابيب يمتد بين مدينة تويمازى وأومسك حتى الكوزباس يقدم البترول لسيبريا الغربية .

وفي كلتا المنطقتين يجري تجهيز حثيث في القوى الكهرمائية ، وخاصة على نهر ايرتيش وكاما ، وأوب ، وينيسيئي .

وبعد أن كان تجهيز المنطقة صناعياً بسيطاً جداً قبل ١٩١٧ (في الأورال) ، أخذت بالتطور بقوة منذ البرنامج الخمسي الأول (معامل أورال كوزنتسك) ولا سيا على أثر الحرب العالمية الثانية ، إثر نقل معامل الغرب إلى الشرق .

أما في **الأورال** فتتوزع الصناعات الثقيلة على بضع مجموعات جبارة ، حيث تهيمن دوماً الصناعة الحديدية ، والتي تكملها صناعة المعادن الأخرى غير الحديدية ، والصناعات الميكانيكية ، والصناعة الكيماوية ، وأهمها مجموعة تشوسو فوسيروف في مدينتي **نيجني تاغيل وسفرد لوفسك** (١,١مليون نسمة)

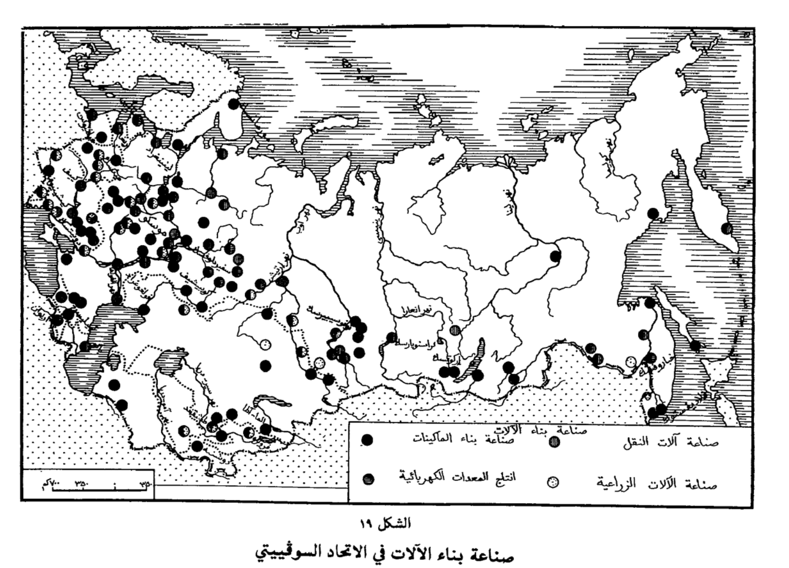
حيث يتم بناء العنفات والطائرات وتجهيزات السكك الحديدية . كما تشتهر مدينة تشليا بينسك وزلاتوست التي تحوي أكبر معامل فولاذ في أوروبا[1] .

وتعتبر مدينة **ماغنيتوغورسك** من أكبر مراكز الصناعة الحديدية بالاتحاد ، التي أنشئت بها لأول مرة عام ١٩٣٢ وأضيف إليها حالياً مصاهر الرصاص والزنك ، ومعامل مطاط تركيبي ، وأضيف إليها في جنوب المنطقة مركز صناعي حديدي وكياوي جديد هو أورسك خليلوفو . ونجد على السفوح الغربية للأورال زمرة من المراكز الصناعية المنعزلة ذات فعاليات أكثر تنوعاً ، مثل مركز **بيرم** (مولوتوف) الذي يحوي معملاً للألمنيوم ومصفاة للنفط ، ومصنع طائرات . كما يصنع في مدينة أوفا وأورنبورغ (تشكالوف) الجرارات والقاطرات والطائرات والمكائن الزراعية (شكل ١٩) .

أما في سيبريا فنجد مركز **كوزباس** ، الذي يحوي على أكبر مجموعة صناعية بالمنطقة إذ ينتج أكثر من سبعة ملايين طن من الفولاذ . فضلاً عن صناعة المعادن غير الحديدية . ففي هذه المنطقة التي كانت شبه خالية من السكان قبل ٥٠ عاماً ، أخذ توسع المدن فيها تسارعاً أكبر بكثير مما هو في الأورال . والمدن الرئيسية الأربع هي **ستالينسك ولينينسك** ولم يكن فيها سوى ٧٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٢٦ فارتفع العدد إلى ٤٥٠٠٠٠ عام ١٩٣٩ وإلى المليون ونصف عام ١٩٧٦ . وارتفع عدد سكان مدينة نوفوسيبرسك إلى ١,٢٥ مليون نسمة ، وتحوي على معامل سيارات وجرارات ، وتجهيزات منجمية . **وكراسنويارسك** وفيها صناعة السيللوز والمكائن الزراعية وقد كانتا بالماضي عبارة عن مدن تجارية إقليمية ، تحولتا إلى عقدتي مواصلات حديدية ومن ثم إلى مدينتين صناعيتين .

---

(١) إن بناء مصنع ينتج سنوياً مقدار مليون طن من الفولاذ يكلف ما يزيد عن ٥٢٥ مليون دولار أو ٣٠٠٠ مليون ليرة سورية .



الشكل ١٩

صناعة بناء الآلات في الاتحاد السوفييتي

ونذكر أخيراً مدينة **أومسك** الحاوية على مصفاة بترول جبارة ، ومدينة تومسك وبارناؤل ، وتحتويان على صناعة كبيرة لغزل القطن ونسجه بفضل أقطان آسيا الوسطى .

لقد تم هذا التطور الحضري والصناعي في مناطق قليلة الزراعة أو غير مزروعة سابقاً ، باستثناء هضبة ما قبل الأورال الغربية وبعض الأراضي السوداء السيبيرية ، حيث كانت أولى عمليات الاستيطان ريفية . وقد أعاقت الحاجة للأيدي العاملة في الميدان الصناعي ، ولمدة طويلة ، توسع المساحات المزروعة ، ولكن **الزراعة** أخذت تتوسع بفضل مكننة الأعمال الحقلية . وقد اتجهت الجهود أخيراً نحو تنمية القطاع الريفي . فظهرت أساليب زراعية حثيثة ومزروعات متنوعة أكثر ، كالقمح والشوندر ودوار الشمس والأعلاف ولا سيا استزراع عدة ملايين الهكتارات من الأراضي العذراء بين جبال الأورال ووادي الينسيئي الأعلى .

ثالثاً ـ البلاد الهامشية

الشمال الأقصى السوفييتي : ـ يمتد الشمال الأقصى على حافة المحيط المتجمد الشمالي ، ابتداء من شبه جزيرة كولا إلى بحر بهرنغ . وتهبط **حدوده الإدارية** في سيبريا حتى درجة العرض ٦٢ ، فتضم مدينة ياكوتسك وعقفة نهر لينا ، وشبه جزيرة كامتشاتكا ، وضفاف بحر اوخوتسك . فهذه المنطقة الفسيحة لا تؤلف بالواقع وحدة جغرافية حقيقية . على أن **المشهد الموحش** المؤلف من توندرا ومستنقعات تعقبها غابة الطايغا باتجاه الجنوب ، ويخلق المناخ القاسي ، وتبعثر السكان الشديد في هذه المنطقة نفس الشروط الحياتية العسيرة في كل مكان بارد ، كما توجد مشاكل متماثلة أمام استغلال الثروات الطبيعية . وهذه الوحدة ظهرت في عام ١٩٣٣ على شكل منظمة وحيدة ، تدعى **المديرية العامة للطريق البحري الشمالي** ، التي تمتد سلطتها على جميع المسائل القطبية ، كوسائل النقل والتنقيب عن المعادن والاستغلال . وتحتل **قضايا النقل** في هذه المناطق الشاسعة أهمية رئيسية .

لقد جعلت الأرض المتجمدة أزلياً والبرد الزمهرير من بناء الطرق والخطوط الحديدية معضلة شائكة . وفي الوقت الحاضر لا يوجد حالياً فيما عدا الدروب سوى بعض الوصلات من الطرق والخطوط الحديدية . وفضلاً عن **السكك الحديدية** الممتدة من مورمانسك إلى اركانجلسك قامت سكك جديدة حتى أوختا ، والتي وصلت الآن إلى فرخوتا ومصب نهر الأوب . وبعد أن تغلبت **الخطوط الجوية** على العديد من المشكلات التقنية أصبحت تحل مكان المواصلات الأرضية فربطت بصورة منتظمة بين الشرق الأقصى وموسكو ونوفوسيبريسك وايركوتسك . ولكن أكثر الجهود روعة أنجز من ناحية **المواصلات البحرية** التي كانت تحول دونها الحواجز الجليدية . وفي سبيل جعل ذلك مستطاعاً تمّت تعبئة علماء الخرائط والمكتشفين ورجال علم الأنواء ، وإقامة مراكز للمحروقات على طول السواحل لتموين السفن بالوقود ، وبناء كاسحات جليد وطائرات مائية تقوم بمهمة الخفر ، وأخيراً كان من اللازم التنسيق بين كل هذه الجهود . وهكذا أمكن تحقيق ارتباط صيفي منتظم بين مورمانسك وڤلاديڤوستوك على المحيط الهادي ، والذي يخفف العبء عن كاهل الخط الحديدي العابر لسيبريا ، وتؤمن على الخصوص عملية الارتباط بين مصبات الأنهار الكبرى التي تلعب دور مخارج لمنتجات مناطق الظهير الجنوبي .

وهكذا ترتسم بالنسبة لهذه المناطق **الغنية جداً بالمعادن** ، شروط استغلال منهاجي ، وتعتبر **شبه جزيرة كولا** أكثر المناطق تصنيعاً ، فهي تنتج النيكل والحديد ولا سيما الفوسفات . كما وصل الخط الحديدي عام ١٩٥٠ إلى منطقة بتشورا الحاوية على حوض فحمي في Vorkouta وحوض أوكتا البترولي . كما دخل التصنيع بسرعة إلى حوض نهر ينيسيئي الأدنى الغني بالفحم (كما في حوض نوريلسك) ، وبالنحاس والنيكل والكوبالت . ويتزايد استغلال مكامن الذهب حول نهر كوليما . كما أن الطريق البحري الشمالي أصبح عامل إقامة مناشر هائلة للخشب في المدن الساحلية ، التي تتمون من الأخشاب العائمة فوق مياه هذه الأنهار الكبرى .

هذا كما انفتحت الأنشطة التقليدية بدورها على الحياة العصرية . فقامت كولخوزات الصيد على بحر بارنتز وعلى بحر أوخوتسك والتي نالت أجهزة متقنة : وتمارس مزارع تجريبية التربية الحثيثة لحيوان وعل الرنّة ، كما قامت محطات قنص بتدريب السكان المحليين على طرائق وتجهيزات حديثة لمعالجة جلود الفراء.

وأدى هذا التطور إلى توسع **مدن** متفاوتة الأهمية ، فمدينة أرخانجلسك القديمة أصبحت تعيش من صناعة الخشب ، وتحوي على ما يقارب ٣٥٠٠٠٠ نسمة . كما أن الطريق البحري وصيد الأسماك ، أوجدا مدينة مورمانسك التي تحوي الآن على ما يقارب ٢٥٠٠٠٠ نسمة . وانبثقت مدن صناعية جديدة مثل كيروفسك ، مدينة الفوسفات . ونوريلسك ، مدينة النيكل قرب مصب نهر ينسيئي ، وماغادان على بحر أوخوتسك ، وهي مدينة الذهب . كما قامت موانئ مثل ميناء ديكسون في شمال مصب نهر ينسيئي ، ومدن إدارية مثل ياكوتسك على نهر لينا .

وظهرت الحاجة لتموين سكان المدن . فجرت **تجارب الزراعة القطبية** وذلك في البداية في شبه جزيرة كولا أو خيبيني . فظهرت مزارع اللفوف والبطاطا ، سواء في حقول مكشوفة أو إذا تعذر ذلك في أقفاص تحت الأرض . وتمت تجارب لمواءمة زراعة القمح مع البرد . وفي الوقت الحاضر تزهر وتثمر في شبه جزيرة كولا وفي پاكوتيا أشجار الكرز والتفاح .

بلاد بايكال والشرق الأقصى : ـ ابتداء من شرق نهر ينيسيئي ، يصبح المناخ السيبري شديد القساوة ولكن في الوقت نفسه يصبح غالباً أكثر رطوبة من الغرب ، لذلك تكثر هنا الغابات التي لا تظهر الفسحات فيها إلا في الجنوب ، كما في منطقة ما وراء البيكال ووادي نهر الآمور .

ويتعلق الاستيطان بشكل وثيق **بالخطوط الحديدية** أي بخط عبر سيبريا وفروعه الشمالية ونحو بكين ومنشوريا ، أي منطقة هيلونغ يانغ الصينية ، وبخط بايكال آموريسكي ماجسترال ، وهو خط استراتيجي أنشئ خلال الحرب ، وخط تايشت إلى كومسومولسك ، وهكذا أصبحت **الفسحات الغابية** دوائر زراعية ، تزرع القمح وتمارس تربية الماشية ، كما في حوض ايركوتسك وبلاغوفتشنسك وخابارتسك على نهر الآمور ، وعلى ضفاف رافده نهر الإيسّوري . ومن ناحية أخرى **فالصيد** أصبح نشيطاً جداً وناله التحديث : كالصيد البحري ، ولا سيا في منطقة شبه جزيرة ساخالين ، حيث يصاد السرطان وسمك الرنجة وسمك التن ، وسمك سليمان وسمك الحفش ، الذي يستخرج منه الكافيار .

وقد نجم عن استغلال **الموارد المعدنية** وقيام **الصناعات** في المنطقة

تسارع في عدد سكانها بسرعة منذ ٥٠ عاماً . وأهم المناجم الفحمية تقع في حوض ايركوتسك تشيريمخوفو (غرب بحيرة بايكال) ، وفي حوض بوريا على طرفي نهر بوريا رافد الآمور ، وفي جزيرة ساخالين الحاوية على آبار بترولية غزيرة أيضاً . كما يستغل الحديد على حوض نهر الآمور الأوسط ، والذهب في كل منطقة ، بالإضافة إلى مكامن معدنية متنوعة كالقصدير والرصاص ، وإلى الشرق من بايكال وفي سلاسل سخوتا آلين الممتدة شمال ميناء فيلاديفوستوك . كما قامت مراكز كهرمائية هامة ولا سيما على نهر آنغارا الذي يخرج من بحيرة بايكال .

وفيما عدا الميناء البحري **فيلاديفوستوك** ومدينة **كومسومولسك** ، التي أنشأتها الشبيبة الشيوعية ، والتي يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠٠٠ نسمة ، نجد أن المدن الرئيسية هي عبارة عن عقد مواصلات حديدية آخذة بالتصنيع ، مثل **ايركوتسك** على ضفة بحيرة بايكال وتشيتا الواقعة إلى الشرق من البحيرة ، وأولان أوديه المرتبطة بالصين بخط حديدي ، ومدينة **خاباروفسك** التي هي ميناء نهري وسوق كبيرة للفراء .

آسيا الوسطى وكازاخستان (شكل ٢٠) : ـ تؤلف آسيا الوسطى وجمهورية كازاخستان مجموعة كبيرة تتشكل من **سهوب ومن صحارى** يطيف بها من الجنوب والشرق جبال شديدة الارتفاع . ففي شمالي كازاخستان يعتبر السهب امتداداً لسهب سيبريا الغربية الذي ينال أمطاراً لا بأس بها . ولكن يتلوه في الجنوب فيافي رملية ، يغيض فيها معظم مياه الأنهار . وهكذا تصبح المياه نادرة جداً فلا ينبت سوى بعض الشيح والنباتات الصحراوية المتباعدة كما يغدو المناخ قاسياً . غير أن الشرائط البشرية عملت في هذا المجموع الجغرافي على إيجاد منطقتين متميزتين عن بعضها . ففي الشمال نجد بلاد **كازاخستان** ، وهي عبارة عن **قطر جديد وصناعي** يختلف عن المناطق الجنوبية التي تضم جمهوريات **آسيا الوسطى** الأربعة ، والتي لا تزال تقليدية ريفية وصناعاتها حرفية إلى حد كبير .

Fig. 7. — *L'Asie centrale soviétique et le Kazakhstan.*

آسيا الوسطى السوفياتية وكازاخستان

الشكل ٢٠

ويكون التطور المشترك لكلتا المنطقتين بالواقع متأثراً بتطور الشبكة الحديدية . فخط **ترانساراليان** يصل الأورال بطاشقند ، أما خط **توركسيب** فينطلق من طاشقند نحو الكوزباس مروراً بالمناطق التعدينية بجوار بحيرة بلخاش . أما خط **عبر الخزر** فيحاذي الحدود الجنوبية . وأخيراً فإن خط **يوغسيب** الذي انتهى عام ١٩٥٨ يخدم كازاخستان الشمالية باتجاه الأورال وكوزباس .

فبعد أن كانت **كازاخستان** عبارة عن بلاد البداوة والترحال ، أصبحت تعتبر اليوم كمنطقة كبيرة تبشر بمستقبل عظيم . ويعود هذا إلى **غناها بالمعادن** التي كشفت عنها أعمال التنقيب الحديثة . فأرضها تحتوي على الفحم الحجري والنحاس والرصاص والبترول والمنغنيز والمعادن النادرة . وقد عرفت بعض مناطقها تطوراً فريداً وهكذا قامت مدينة كاراغندا من العدم في مدة ٢٠ عاماً ، وأصبح فيها أكثر من ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، بالإضافة إلى عدة معامل تنتج أصناف الحديد . وقد ابتدأ استغلال الفحم هنا منذ عام ١٩٣٠ ، كما تم اكتشاف حوض ثان للفحم يمكن استغلاله بسهولة أكبر خلال الحرب العالمية الثانية ، وهكذا أصبح إنتاج جمهورية كازاخستان من الفحم يتزايد بسرعة كبيرة جداً ، فارتفع بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٥ من ١٧ مليون إلى ٢٨ مليون طن . وأخذت مدينة كونراد تنمو على ضفة بحيرة بالخاش ، حيث تكثر فلزات النحاس بجوارها . كما يتكشف حوض نهر ايمبا Emba ، الذي يصب في شمال بحر الخزر عن مقادير ضخمة من النفط . هذا ويستثمر النحاس والرصاص والحديد بجوار مدينة تشيكنت . كما سمح وجود الحديد والنحاس والمنغنيز بمنطقة مدينة **جزخازكان** ، الواقعة بين بحر آرال وبحيرة بالخاش بنهضة سريعة . وتعتبر مدينة آلماآتا عاصمة جمهورية كازاخستان ، التي ارتفع عدد سكانها إلى أكثر من نصف مليون ، مركز صناعات ميكانيكية بعد أن كانت مدينة قديمة عند أبواب الصين .

وقد أوجد قيام الصناعات وبناء المدن في قلب السهب القاحل مشاكل عديدة :

١ ـ مشكلة الأيدي العاملة : ولحلها نشرت نداءات في كل الاتحاد ، من أجل الهجرة نحو هذه الجمهورية ، التي تعادل مساحتها مساحة جزيرة العرب والتي لا يسكنها أكثر من ١٥ مليون نسمة .

٢ ـ مشكلة المواصلات .

٣ ـ مشكلة الغذاء : ولحلها جرت أبحاث عن إمكانيات كازاخستان الزراعية . فسهوب الشمال الرطبة نسبياً ، أصبحت من أهم عنابر قمح الاتحاد ، وقامت سوفخوزات جديدة فوق أراضيها العذراء . كما استفادت السهوب القاحلة من مشاريع الري حيث يكون الماء متوفراً . وهكذا ظهرت زراعة الحبوب والقطن لتأمين حاجة السكان المتكاثرين .

أما آسيا الوسطى السوفياتية فهي منطقة أكثر تعقيداً ، تشتمل بآن واحد على صحارى مثل قره كوم وقيزيل قوم (الرمال السوداء والرمال الحمراء) ، حيث تكون حياة البداوة ممكنة كما تنتشر الغوطات بمحاذاة الأنهار وعند أقدام الجبال ، حيث قامت حياة ريفية أصيلة .

وقد كانت **مشكلة المياه** دوماً هي المشكلة العويصة في هذه المناطق كما تذكر ذلك كتب التاريخ . كما زادت المشكلة تعقيداً منذ أن عهدت البرامج الخمسية إلى آسيا الوسطى بالوظيفة الرئيسية ، وهي تأمين القطن اللازم للاتحاد السوفييتي .

والواقع تساهم الشروط الطبيعية ونظام المياه على ازدهار هذه الزراعة ، لأن ٢٢ إلى ٤٠٪ من مياه الأنهار ، تجري بين تموز وشهر آب ، وهي فترة الري الحثيث لمزارع القطن . وعلى كل يجب تقوية شبكة الري المتباعدة ، وهكذا تم بناء أقنية عديدة ابتداء من نهر سيرداريا وفي وادي فرغانة الغني ، وكذلك ابتداء من نهر تشو ، الذي يصب في بحيرة بلخاش ومن نهر زارفشان المار من مدينة سمرقند . ومن جهة أخرى يتم حالياً بناء قناة جبارة ابتداء من نهر آموداريا باتجاه الغرب ، لتوين نهر مورقاب ونهر تيجن ، وهما نهران هزيلان يستنزف الري مياههما بسرعة وتستمر حتى مدينة عشقباد قرب الحدود الإيرانية . وقد أدت هذه المشاريع المختلفة إلى انتزاع مئات الآلاف من الهكتارات على حساب الصحراء ، وأصبحت تزرع قطناً بالتناوب مع البرسيم لتغذية الماشية . ولا تزال زراعات تقليدية تزدهر إلى جانب القطن وخاصة زراعة الأشجار المثمرة ، مثل الجوز والمشمش والتفاح ، والمزروعات الحقلية كالبطيخ والحمص والبزاليا والبندورة . وتظل قيرغيزيا منطقة هامة لتربية الماشية ولا سيما الأغنام .

وهكـذا أدى التجهيز الحـديث وتطبيق الطرائـق العلميـة الـزراعيـة ولا سيا تـوسيـع شبكات الري إلى تثبيت الطـابـع الريفي للمنطقـة ، التي تعتبر المنطقـة الزراعية الوحيدة التي يتزايد سكانها الريفيون بسرعة في الاتحاد .

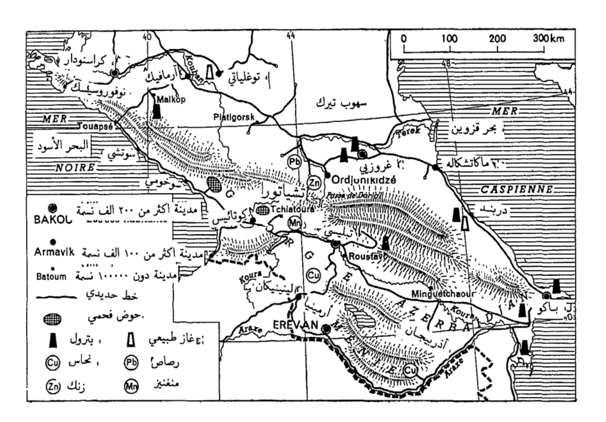
وتكون **الموارد الصناعية** هنـا متنوعـة ولكنهـا مبعثرة وعسيرة الاستغلال أحياناً : فيوجد بالمنطقة مكامن فحم صغيرة ونحاس وزنك . كما يوجـد البترول في أوزبكستان ، ولا سيا في تركمنستـان إلى الجنوب من كراسنوفودسـك الواقعـة على الضفة الشرقية لبحر الخزر . ولكن الصناعة الرئيسيـة هي صنـاعـة النسيج ، التي تؤدي إلى توسع المدن الإسلامية القديمة . فمدينة طاشقند عاصمـة أوزبكستـان التي يزيـد عـدد سكانهـا على المليون ، والتي أصـابهـا الزلزال عـام ١٩٦٦ وخرب شطراً كبيراً منها ، تعتبر عقدة مواصلات هامة وعاصمـة ثقـافيـة ، تصنع قطن منطقتهـا محلياً ، وعلى كل تحتل جمهورية أوزبكستان المكانة الخـامسـة بـالاتحـاد من حيث أهمية إنتـاجهـا الصنـاعي . كما تنسج مـدينـة فرونزة عـاصمـة جمهوريـة قيرغيزيـا الجوت . كما يجري غـزل الحرير الطبيعي في دوشنبـه ولينينـابـاد في جمهـوريـة تاجيكستان . كما قامت مجدداً صنـاعـة حرير طبيعي نـاميـة في مـدينـة عشقبـاد العاصمة التركمانية . كما لا تزال هناك صناعـة حرير رفيعـة وسجـاد ممتـاز في بعض المدن التقليدية ضمن إطار صناعة حرفية شرقيـة ، كما في بخـارى وسمرقنـد .

بلاد القفقاس : لقد كانت جبال **القفقاس** خلال مدة طويلـة تلعب دور حـاجز هـائل يعيق الاتصـال بين الشمال والجنـوب ، وظلت مـدة طـويلـة ملجـأ لشعوب المناطق المنخفضة ، إذ لا نجـد فيهـا سوى ممراً واحـداً هو ممر داريـال على ارتفاع ٢٣٧٩ م ، يصل بين مدينة أورجونيكيـدزه (فلاديقوقـاز) وبين مـدينـة تبليسي (تفليس) . وتنتشر هنـا القرى المحصنـة التي تسمى « عـاوول » على السفوح الصخريـة وتزرع حقولهـا الصغيرة بـالحبـوب والأشجـار المثمرة . كما تنتشر

تربيـة المـاشيـة فوق المراعي الجبليـة وفي المراعي المرويـة في الـوديـان ، كالأبقـار بـالغرب والأغنـام بـالشرق . ولا تزال صعوبـة المـواصـلات تحـول دون استغـلال الغابات على نطاق واسع .

هذا ويجدر بنا أن نميز بين القوقـاز الشمالي والقوقـاز الجنوبي . فـالشمالي غني جـداً بـالفحم والغـاز والنفـط ، وبـالمعـادن غير الحـديـديـة كالرصـاص والـزنـك والتنغستين والموليبدين (شكل ٢١) .

وينتـج القـوقـاز الشمالي ٣٥ مليـون طن فحم معظمهـا من الانتراسيت . كما تنتج مصـانـع روستـوف الجرارات والحصـادات الـدراسـات ، كما تنتـج الصنـاعـة



بلاد القفقاس

الشكل ٢١

الكيماوية في شمال القوقاز الأسمدة الكيماوية والبارافين والأحماض الدهنية التركيبية والمواد البلاستيكية إلخ . كما تنتج مدينة نوفورودسيسك من الإسمنت ما يعادل عشر إنتاج جمهورية روسيا الاتحادية كلها . ولكن ميزة القوقاز الشمالي تكمن في زراعته ، فهو يقدم للبلاد الكثير من القمح واللحم والحليب والمنتجات الغذائية الأخرى .

وإلى الجنوب من السلسلة الجبلية الرئيسية نجد منخفض ما وراء القفقاس ، وهو أكثر سكاناً ونشاطاً رغم تجزؤ التضاريس . ففي الشرق تقع جمهورية آذربيجان (شكل ٢٢) وجمهورية جيورجيا (الكرج) بالغرب . وتملك آزربيجان مكامن حديد ، ولا سيا **البترول** بجوار مدينة باكو .

ففي هذه المدينة التي لعبت دوراً ثقافياً رائعاً في العلوم الثقافية والإسلامية ، والتي تضم الآن أكثر من مليون ونصف نسمة ، نجد اليوم فيها مركزاً تكنيكياً وعلمياً رئيسياً لصناعة البترول . ولكن احتياط حوضها البترولي في تناقص وإنتاجه في تناقص أيضاً ، إذ لم ينتج سوى ١٥,٢ مليون طن عام ١٩٥٥ و ٢١,٤ مليون طن عام ١٩٦٥ عدا عن ٥,٨ مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي ، ولكن استغلال البترول أخذ يمتد في عرض بحر قزوين ، إذ قامت مدينة عائمة ٢٠٠٠ نسمة فوق جزيرة اصطناعية على مسافة ٧٠ كم من الساحل ، تحيط بها أبراج آبار النفط المرتكزة على جزر معدنية .

والجدير بالذكر أن آزربيجان تنتج من الكهرباء أكثر من تركيا وإيران والباكستان وأفغانستان جميعاً ، مع أن عدد سكانها لا يزيد عن ٦ ملايين نسمة .

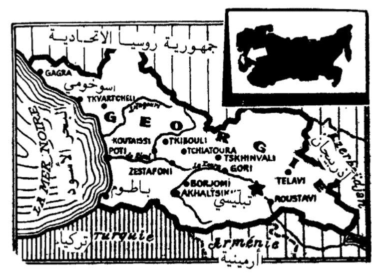
ويزرع السهل اللحقي الذي يشكله كل من نهر آراكس ، المحاذي للحدود التركية ونهر كورا الذي يصب جنوب باكو ، بالقطن والرز حالياً بعد إنجاز مشاريع الري ، بينما كان بالماضي عبارة عن منطقة تربية ماشية بسيطة .

وتقع جمهورية جيورجيا (الكرج) في الغرب وتتمتع بمناخ عذب ورطب . وهنا يكون السكان الريفيون كثيفين فوق التلال التي تزرع فوقها الأشجار المثمرة والكرمة والشاي والتوت ، كما تم تجفيف مستنقعات الكولشيد جزئياً ، حيث

يزرع مكانها القطن والحمضيات . هذا وتتوسع الصناعات بفضل القوى الكهربائية الوفيرة والمناجم التي تنتج الفحم والمنغنيز بجوار مدينة تشياتورا . وينتج أول معمل للحديد والذي تم بناؤه عام ١٩٥٠ مقدار ٦٠٠٠٠٠ طن من الفولاذ . وتنتشر على الساحل محطات السياحة كما في سوخومي ، حيث يقصدها الكثيرون في كل الفصول . وتصدر مدينة باطوم البترول القادم إليها بالأنابيب من حوض باكو . وتتوسع العاصمة تفليس (أكثر من مليون نسمة) بسرعة بفضل صناعاتها الميكانيكية : كالمكائن النسيجية والتجهيزات الكهربائية والنسيج .

أما جمهورية أرمينيا فتقع إلى جنوب المنخفض المذكور آنفاً ، وهي منطقة مرتفعة وجافة .

وهنا تمارس المزروعات المروية في الأحواض الصغيرة وفي الوديان كزراعة العلف والقطن والتبغ ، كما نجد تربية الأغنام فوق المرتفعات . وقد ساعد استغلال الفلزات كالنحاس وموارد القوى الكهربائية على قيام صناعات حديثة ، تنشط في المدن مثل العاصمة أريفان (مليون نسمة) ، حيث نجد المعامل الغذائية والنسيجية والكيماوية .



الشكل ٢٢

قوة الاتحاد السوفييتي الاقتصادية

لقد انتقل الاتحاد السوفياتي خلال نصف قرن ، بفعل حركة التصنيع السريعة ، من دولة ثانوية في عام ١٩١٧ - فيا عدا إنتاجها الزراعي - إلى ثاني دولة بالعالم من ناحية القوة الاقتصادية . فهي تنتج ١٧,٢ ٪ من الإنتاج الصناعي العالمي مقابل ٢,٦ ٪ في عام ١٩١٣ . غير أن هذه القوة لا تخلو من **نقاط الضعف والنواقص .**

أولاً - الإنتاج الزراعي :

لقد ظل تقدم الإنتاج الزراعي في خلال ٥٠ عاماً بطيئاً في معظم القطاعات ، ولكن الآن وبفضل تقدم الصناعة السريع وخاصة إنتاج الأسمدة والمكائن أصبح هذا التقدم سريعاً : فالمردود في ارتفاع ، كما تتوسع الرقعة المزروعة بسرعة ، إذ بعد أن كانت لا تمتد على أكثر من ١١٨ مليون هكتار عام ١٩١٣ ، ارتفعت إلى ١٤٨ في ١٩٥٠ ، ثم قفزت إلى ٢٠٥ ملايين عام ١٩٦١ أو حوالي عشر رقعة البلاد أو ضعف مساحة مصر .

المزروعات : تحتل الحبوب المكانة الأولى في هذه المساحة المذكورة أو ٦٧ ٪ من إنتاج قدره ١٧١ مليون طن عام ١٩٦٦ ، و ٢٢١ مليون طن عام ١٩٧٨ مقابل ٨٠ مليون ١٩١٣ . ويعتبر القمح العنصر الأساسي في زمرة الحبوب ، ويمنح الاتحاد السوفييتي المكانة الأولى بالعالم ، إذ قارب إنتاجه ١١٥ مليون طن في ١٩٧٨ كي يهبط إلى ٨٨ مليون طن في ١٩٨١ (شكل ٢٣) . وبفضل التقدم التقني والعلمي لم يعد القمح محصوراً بالأرض السوداء ، بل توسع على حساب الجاودار الذي ظل النوع الوحيد من الحبوب في الشمال والغرب ، ولكن يظل الاتحاد السوفياتي أول منتج عالمي للجاودار ، كما يؤمن الشعير والشوفان أيضاً المكانة الأولى للاتحاد .

المناطق الزراعية في الاتحاد السوفييتي

الشكل ٢٣

وقد بذلت جهود كبيرة منذ بضعة أعوام ، من أجل التوسع في زراعة الذرة الصفراء بقصد دعم تربية الماشية فتوسعت رقعة الذرة حتى جبال القفقاس الشمالية وفي المناطق الشمالية حتى جوار موسكو . كما يزرع الرز إلى الجنوب من جبال القفقاس وفي آسيا الوسطى ولكنه في تقهقر .

ويحتل القطن بين **الزراعات الصناعية** مكانة الصدارة في اهتمام الحكومة باستمرار . فتقدم لدرجة أصبح يتجاوز حالياً ٥,٦ ملايين طن من القطن الخام . ولكن هذا الرقم يظل دائماً دون الحاجات . لهذا هناك اتجاه نحو زيادة المردود في المناطق القطنية التقليدية ، فارتفع مردود الهكتار من ١٩ كنتال عام ١٩٥٥ إلى ٢٢ كنتال بالعام التالي في أوزبكستان التي تنتج ٧٠ ٪ من القطن السوفييتي ، أو ما يعادل إنتاج البرازيل والباكستان وتركيا وإيران من هذه المادة . وبلغ المردود في تركمانيا النسبة نفسها في عام ١٩٦٦ إذ أنتجت ٥٠٠٠٠٠ طن[(١)] .

---

(١) يعتبر القطن مادة أولية ذات قيمة كبيرة بالنسبة لفروع صناعية عديدة . فمن طون واحد من القطن الخام يمكن صنع ٣٠٠٠ متر من النسيج ومقدار ١٠٠ إلى ١١٥ كغ من الزيت و ٢٠٠ إلى ٢٥٠ كغ من الكسبة و ٣٠ كغ من الصابون . هذا كما يصنع من ألياف القطن أنسجة لعجلات السيارات ، وحرير اصطناعي ، وصباغات ومواد بلاستيكية ، ولباد . كما تقدم أعواد نبات القطن الغول الاتيليكي والورق والسيللوز والأغذية للماشية .

وقد توسعت زراعة القطن بالاتحاد السوفييتي بشكل خاص منذ استلام السوفييت زمام السلطة . ففي ١٩١٣ كان القطن لا يغطي في روسيا القيصرية سوى ٦٩٠٠٠٠ هكتار ، وكان مردود الهكتار وسطياً ١٠,٨ كنتال . وحالياً تشغل مزارع القطن أكثر من ٢,٤ ملايين هكتار . وفي عام ١٩٦٥ أنتج الاتحاد السوفييتي ٥٦٦٠٠٠٠ طن من القطن الخام ، أي سبعة أضعاف إنتاج ما قبل الثورة .

وفي الوقت الحاضر يحتل الاتحاد السوفياتي الدرجة الثانية بالعالم في إنتاج القطن وأول مكانة من ناحية المردود . ففي عام ١٩٦٤ كان مردود الهكتار في الولايات المتحدة ٥٧٨ كغ من شعرة القطن مقابل ٧١٥ كيلو في الاتحاد السوفييتي .

ويقطف حالياً نصف الإنتاج السوفييتي من القطن الخام بواسطة الماكنات القاطفة ، التي كان يزيد عددها عام ١٩٦٦ عن ٣٠٠٠٠ ماكنة ، واستطاعت هذه الآلات أن تقطف ٦٨٠٠٠٠ طن قطن خام عام ١٩٦٢ ، ولكنها في العام ١٩٦٥ قطفت ربع الإنتاج السوفييتي تقريباً أو ١,٢ مليون طن مما يعادل ٢٢,٢ ٪ من الإنتاج الكلي . وارتفع عدد ماكنات القطف ٤٠٠٠٠ عام ١٩٧٠ .

كما ازدادت المساحات المزروعة قطناً حتى في خارج آسيا الوسطى ، فأصبح القطن يزرع بعلاً في السهوب المجاورة للبحر الأسود . ولكن الاتحاد السوفييتي يحتل المكانة الأولى في إنتاج الكتان ، الذي يقتسم الأرض مع البطاطا في روسيا البيضاء وفي المنطقة الوسطى وإنتاجها الوسطي ٨٥ مليون طن . كما يحتل نفس الدرجة في مضمار زراعة الشوندر السكري الذي بلغ إنتاجه ٩٤ مليون طن في عام ١٩٧٨ ، التي كانت زراعته في أوكرانية قد تقدمت خلال الحرب حتى القفقاس الشمالي وآسيا الوسطى وسيبريا . وبعد أن كان **عبّاد الشمس** يزرع منذ القديم في الحدائق الروسية ، أخذ يمتد في أوكرانية وفي قيرغيزيا حيث أخذت زراعة **الصويا بالظهور .**

وهناك الزراعات **الخاصة** التي تتطلب عناية فائقة والمختصة بالمناطق الحارة ، وهي الشاي والكرمة والحمضيات التي تزرع في شبه جزيرة القرم وعلى سفوح القفقاس المشمسة ، وفي الواحات الواقعة عند أقدام جبال آسيا الوسطى ، ويتقدم مجال هذه المزروعات مع تقدم علم البيولوجيا .

تربية الماشية وصيد الأسماك : ـ يملك الاتحاد السوفياتي ما يقارب ١١٥ مليون رأس من الأبقار في مناطق الغابات ولاسيا في روسيا البيضاء وفي منطقة لينينغراد ، فضلاً عن ١٤٠ مليون رأس غنم في سهوب الجنوب وهي الأراضي التقليدية لتربية الماشية ، وفي الجمهوريات الإسلامية ، حيث لا زال الانتجاع نحو الجبال ملحوظاً . ولكن هذه الأرقام لاتستجيب لحاجات السكان من المنتجات الحليبية ومن اللحم ، وهي حاجات ازدادت مع توسع المدن ومع تزايد القوة الشرائية . ويقول السوفيات أن هناك عدة عوامل تؤدي إلى هذا النقص : فقد أدت الحرب إلى فناء القطيع كما أن قطاع تربية الماشية لا يخضع كغيره للمكننة وللجماعية لحد كبير (لأن تربية الماشية الفردية الكولخوزية لاتزال تجريبية وتحتل مكانة كبيرة) ، كما يلاحظ في كثير من المناطق عدم توسع زراعة العلف ، ويعتمد لحد كبير على استيراد العلف من المناطق الأخرى . ولتلافي هذه النواقص

اتخذت عدة حلول كتوسيع زراعة الذرة الصفراء ، وحتى في المناطق التي لا تنضج فيها باعتبارها علفاً ممتازاً ، وزيادة عدد **الخنازير** بشكل مدهش إذ قفز عددها من ٢٢ مليون عام ١٩٢٢ إلى ٧٣ مليون عام ١٩٨١ ، وخاصة استغلال مراعي واسعة في كازاخستان وفي سيبريا وإقامة سوفخوزات متخصصة .

ويحتل الاتحاد السوفياتي الدرجة الثانية : ٩ ملايين طن ، في مضمار وزن **الأسماك** التي يصطادها خلف اليابان مقابل ١٠,٧ ملايين طن أو ١٢٪ من صيد سمك العالم . ويمارس الصيد منذ عهد طويل في بحر الخزر وبحر آزوف (سمك الرنجة والسردين الخ) ، ولكنه أخذ يمتد إلى بحر اوخوتسك وفي المصبات الكبرى . كما أن هناك مشاريع لاستغلال الثروة السمكية بالأنهار ، ولاسيا في البحار الاصطناعية المتشكلة خلف السدود . وأصالة الصيد في الاتحاد السوفييتي تعود لسعة البلاد وصعوبة توصيل الأسماك للمدن ، لهذا تحتل معامل تعليب السمك مكانة جوهرية ، وتقوم معامل جديدة وخاصة في المناطق النائية كضفاف المحيط المتجمد الشمالي وسواحل الشرق الأقصى .

ثانياً : الإنتاج الصناعي :

الطاقة ـ كان على الاتحاد السوفييتي كي يتحول إلى دولة صناعية عظمى أن يعمد أولاً إلى زيادة إنتاجه من الطاقة ، ومن ثم توزيع هذه الطاقة في كل البلاد .

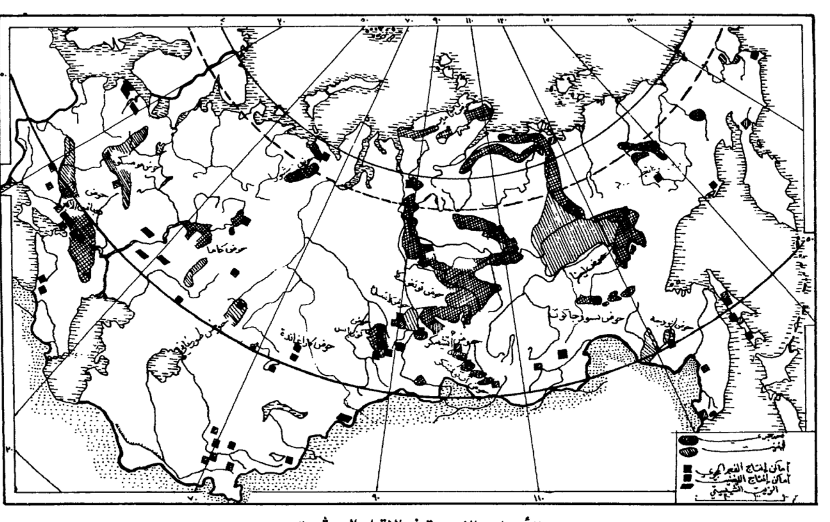
ولا يزال الأساس الرئيسي لإنتاج الطاقة هو الفحم ، الذي ينتشر ذخره الهائل على سائر المناطق ويعادل ٢٠٪ من الاحتياطي العالمي مع ظهور عدم التوازن بين القسم الأوربي الذي لا يحوي أكثر من ٨٪ وبين القسم الآسيوي الذي يحتوي على ٩٢٪ من الاحتياطي السوفييتي . وبعد أن كان الإنتاج الكلي يتجاوز ٢٩ مليون طن عام ١٩١٣ ، ارتفع إلى ٤٦٣ مليون طن عام ١٩٥٧ ، كما ارتفع في عام ١٩٧٨ إلى ٥٠٠ مليون طن و ١٦٠ مليون طن من فحم الليغنيت ويقدر إنتاج الفحم عموماً بـ ٨٠٠ مليون طن في ١٩٨٠ . وهكذا أصبح الاتحاد السوفياتي أول دولة منتجة للفحم بالعالم منذ ١٩٥٩ ، ويعتقد الآن أن الصين الشعبية تحتل المكانة الأولى .

لا يزال **حوض الدونتز** ، الذي تناقصت أهميتـه النسبيـة من ٧٧٪ من الإنتـاج في ١٩٢٨ و ٣٠٪ في ١٩٦٥ و ٢٠٪ حـاليـاً ، لا يزال يحتفـظ بـدور جوهري لإنتـاجـه المؤلف من فحم انتراسيت ومن فحم الكوك الممتاز ، واستطاعت البحوث الأخيرة أن تحدد هذا الحقل حتى منطقـة الـدنيبير . أمـا في بقيـة المنطقة الأوروبية فإن الإنتاج يكون أقل أهمية ، مثل **حوض موسكو** الذي يحوي فحماً رديئـاً ولكنـه يستهلـك محليـاً ، **وحـوض بتشـورا** في الشمال ، الغني بفحم الكـوك ، **وأحـواض الأورال** ، ذات الذخر المحدود والعسيرة على الاستخراج ، ولكنها تسمح باستغلال العديد من الخامات المعدنية محلياً .

وتملك المناطق الشرقية احتياطات هائلة ، بعضهـا لم يبـدأ استغلالـه إلا منـذ عهـد قريب جـداً كحوض تونغوزسكا وحوض نهر لينا . أما **حوض كوزباس** الواقع عند أقـدام جبل الطـائي ، فيحوي مـا لايقل عن ٤٥٠ مليـار طن من فحم الانتراسيت ومن فحم الكوك ، كما أن استغلالـه يكون ميسوراً ، وأحيـانـاً في حقول مكشوفـة ، وكـذلـك شـأن حوض **قراغنـدا** الـذي يقع بجـوار المكامن المعـدنيـة في كازاخستان ، والذي ينتج قرابة ٥٠ مليون طن بالعام . ومنذ عشرين عـامـاً بـدأ استغلال عـدة مكامن فحم هـامـة في سيبيريـا الوسطى والشرقيـة : كأحواض ايركـوتسـك ـ تشيريمخـوفـو ، وزيـابوريـا ، وساخالين . أما في ماوراء الدائرة القطبيـة ، كما في يـاقوتيـا وفي شمالي كازاخستـان ، فقـد امتـدت يـد الاستغلال لمناجم جديدة كلما تقدمت عملية التصنيع نحو الأمام .

وقد أخذ مركز الثقل في الإنتاج الفحمي بـالانتقـال نحو الشرق بسرعـة أكبر من سرعة الصناعات ، وهذا يخلق مشاكل عديدة في مجال التوزيع والنقل ، أضف إلى ذلك تمركز ثلثي الإنتاج في أربعة أحواض وهي : الـدونتز وموسكو وكاراغنـدا وكوزنتسك (شكل ٢٤) .

وقد تسارع إنتاج النفط منذ ١٩٥٠ لتأمين الحاجات المتزايـدة إليـه ، ولا سيا مكننة الزراعة . وقد ساعـد على هـذا التزايـد ، استغلال مكامن جـديـدة . وبلغ الإنتاج عام ١٩٧٣ /٤٢١/ مليون طن فاحتل الاتحاد الدرجة الثانية بإنتاج يعـادل ١٥,٣٪ من الإنتاج العالمي مقابل ٩٨,٣ مليون طن عام ١٩٥٧ ، وصعد هذا الإنتاج إلى ٥٧٣ مليـون طن في ١٩٧٨ وإلى ٦٣٠ مليـون طن في ١٩٨٠ فـاحتـل الـدرجـة الأولى بالعالم .



الأحواض الفحمية في الاتحاد السوفييتي

الشكل ٢٤

لقد أخذت أهمية **حوض باكو** النسبية والمطلقة في التناقص فأصبحت الآن تعادل ٥٪ مقابل ١٠٪ في ١٩٦٤ و ٧١٪ في ١٩٤٠ . ويستقر إنتاجه حول ١٥ مليون طن بفضل إستغلال الاحتياطات العميقة والطبقات الممتدة تحت مياه بحر قزوين . وإلى الشمال من جبال القفقاس ، تنتج مناطق مايكوب وغروزيني وداغستان عدة ملايين من الأطنان . ولكن حوض **أورال ـ الفولغا** « أو باكو الثانية » فقد شهد نهضة تظاهرية . ويقدم الآن أكثر من نصف إنتاج الاتحاد . ويكمل حوض بتشورا ، وحوض ايمبا ، وحوض أقدام جبال الكاربات ، أي حوض بوريسلاف مصادر النفط في الجزء الأوروبي من الاتحاد . وقد تكشفت المناطق الشرقية عن ثروات ضخمة من الغاز والنفط ، ولا سيا في سيبريا الغربية ، وتنتج أحواض خاتنغا السفلى في الدائرة القطبية ، وأحواض ساخالين ، وأحواض آسيا الوسطى « تركستان » مثل فرغانة ونفط داغ على بحر الخزر ، قرابة ٢٠ مليون طن بالعام .

ويتزايد إنتاج الغاز الطبيعي لحد كبير رغم العقبات الشديدة ، كعدم كفاية إنتاج الأنابيب فبلغ الإنتاج عام ١٩٦٢ مقدار ٦١ مليار متر مكعب و ٣٧٢ مليار م٣ في ١٩٧٨ مقابل ٢٠,٢ مليار م٣ عام ١٩٥٧ استخرجت من مكامن استونيا وغاليسيا وأوكرانيا الشرقية وساراتوف وسيبريا الغربية . وتشير التقديرات إلى أن الاتحاد ينتج مقدار مليون طن من زيت الشيست ، ومليون طن من الوقود السائل التركيبي من الفحم الحجري .

ومنذ بدء النظام السوفييتي كان الانتباه متجهاً نحو إنتاج **الكهرباء** ، فارتفع إنتاجها من ٢ مليار كيلوواط ساعي عام ١٩١٣ إلى ٢٠٩,٥ مليار عام ١٩٥٧ وإلى ٩١٤ مليار في عام ١٩٧٣ وإلى ١٣٢٥ مليار ك و س في ١٩٨١ .

لا يزال نصيب **المراكز الكهربائية الحرارية** التي يكون بناؤها سريعاً ، لا يزال هو المسيطر إذ يقدم حوالي ٧٥٪ من الطاقة . ويسمح إنتاج الكهرباء الحرارية باستغلال بعض مصادر الطاقة القليلة القدرة الحرارية : **كالطورب** ، الواقع بعيداً عن مناطق أحواض الفحم الكبرى ، في الوسط وفي الشمال الغربي ، **والخشب** الذي لا زال يلعب دوراً لا يستهان به .

وعلى كلٍ فإن إنتاج **الطاقة الكهربائية** في تزايد . والواقع تبدو الاحتياطات جسيمة بفضل غزارة الأنهار ووجود قلادة جبلية جنوبية ، كما تكون كلفة إنتاجها أقل بحوالي ٨٠٪ عن إنتاج الطاقة الحرارية . وقد تم بناء أول مركز في ١٩٢٦ وهو مصنع فولخوف الصغير ، ثم راحت المراكز الكهربائية

تتزايد وأصبحت أكثر جسامة بكثير . وهكذا ينتج معمل كويبيشيف في كامل دورانه ١١ مليار ك وس بالعام أو ١٥ مرة إنتاج سد الفرات . أما المناطق التي يتسارع تجهيزها فهي المناطق الجودية في الشمال الغربي ، ومناطق التضريس الألبي كما فيما وراء الكاربات والقوقاز وجبال أرمينيا ، والأنهار الكبرى في القسم الأوروبي كنهر الدنيستر والدنيبير ولا سيما « نهر الفولغا » وحافة آسيا الوسطى .

وتتجه الجهود اليوم نحو أنهار سيبريا : مثل نهر ايرتيش ، أوب ، ينيسيئي وأنغارا الذي يصرف مياه بحيرة بايكال ، حيث تم بناء مركز براتسك ، بعد سد ابركوتسك ، وهو أكبر سد في العالم .

ويهتم الاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر بإقامة **منظومة طاقة كبيرة موحدة** بالنسبة للقسم الأوروبي أولاً ، وذلك بربط شبكات الأورال بالمركز والجنوب بخطوط ذات توتر عال . ولكن يجب أن نشير إلى أن ميزانية الطاقة بالاتحاد السوفييتي لا تزال تتعادل مع الفحم ، الذي يقدم ٥٠٪ من الطاقة . غير أن التطورات الحالية تجنح نحو تغير هذا التوازن بفضل الإنتاج البترولي المتزايد ، وكذلك إنتاج الغاز الطبيعي والاستعمال الكثيف للطاقة الذرية ، لأن هناك مركزاً كهربائياً يعمل بالطاقة الذرية منذ عام ١٩٥٤ .

الفلزات المعدنية : ـ يتجاوز ذخر الاتحاد السوفييتي من **فلزات الحديد** ٥٠٪ من الاحتياطي العالمي المعروف . فالقسم الأوربي يحوي على مكمن **كريفوئيروغ** الكبير ، فضلاً عن أن ذخر منطقة كورسك بلغورود حيث تؤدي الكتلة المتكدسة إلى شذوذ مغناطيسي ، ومكامن الأورال في ماغنيتوغورسك وفي كيرتش وفي كولا . كما أدت الاكتشافات الجديدة إلى إغناء المناطق الآسيوية كما في كازاخستان حول ايركوتسك ، وفي الشرق الأقصى في منطقة ياكوتيا . ويبلغ الإنتاج الكلي ١٥١ مليون طن من الفولاذ في ١٩٧٨ أي الدرجة الأولى بالعالم ، وأصبح الاتحاد السوفياتي أول دولة في العالم في إنتاج الفلزات الحديدية .

وتبدو مكامن **النحاس** هامة كما في مناجم بلخاش وكاراغندا والأورال . ويحتل الاتحاد المكانة الأولى في إنتاج المنغنيز وفي الاحتياط لأن إنتاجه يعادل ٥٠٪ من الإنتاج العالمي ، ويتمركز ذلك في

أوكرانيا ، وفي مـا وراء القفقـاس . ويستخرج البوكسيت من منطقـة لينينغراد والأورال وكازاخستـان وتكثر المعادن الأخرى غير الحديـديـة في القفقـاس والأورال وجبـال آلطـائي وسواحل المتجمـد الشمالي (كالنيكل في منطقة نوريلسك) . ويعتقد أن إنتاج الاتحاد من الذهب يعـادل نصف إنتـاج العـالم من هذه المادة .

وإليكم مركز الاتحاد السوفييتي في العالم في مضمار صناعة المعادن غير الحديدية :

	الفلزات	المعدن
المنيوم	الرابع	الثاني
النحاس	الثاني	الثاني
الرصاص	الأول	الأول
الزنك	الثاني	الأول

وتستخدم الصناعة الكيماويـة مكامن **الفوسفـات** الضخمـة في شبـه جزيرة كولا والبوتاس في الأورال وآسيا الوسطى ، كما تستغل أكبر احتياطـات العـالم من ملح الصودا من خليج قره بوغاز على بحر الخزر .

الصناعات : ـ لقد قامت الصناعات الثقيلة والتحويلية بصورة تقليدية في المناطق الغنية بموارد الطاقة أو المعدنية ، كمنطقة موسكو وأوكرانيا والأورال ، في الكوزباس ، ومنطقة كاراغندا . أما الآن فان الصناعة تتجـه نحو منـاطق لم تكن تنتج بالماضي سوى الطاقة أو المواد الخام ، كما في منطقـة الفولغـا ومنطقـة بـايكال والشمال الأقصى وياكوتيا . كما نلاحظ أخيراً أن المناطق الهامشيـة تقوم بجهـد كبير نحو التصنيع .

وتعتبر **الصناعات التجهيزية** الشغل الشـاغل للحكام السوفييت ، الـذين يعتقدون أن نهضتهـا الكبرى هي التي تؤمن للبلاد قوة اقتصـاديـة متينـة . كما أن صادرات أدوات التجهيز الصناعي نحو الأقطار الاشتراكيـة كالجمهوريـات الشعبيـة ونحو الأقطار المتخلفة ، كالهند والبلاد العربية تساهم في منح الأولوية للصنـاعـات الثقيلة . وقد أنتجت الصنـاعـة الحـديـديـة عـام ١٩٦١ مقـدار ٦١ مليون طن من

الفونت (الصهير) مقابل ٣٧ مليون طن عام ١٩٥٧ و ١٥١ مليون طن من الفولاذ عام ١٩٧٨ مقابل ٥١ مليون عام ١٩٥٧ ، وتقدم منطقة الأورال وأوكرانيا (دونباس والدنييبر وسواحل بحر آزوف) والمنطقة الوسطى وكوزباس القسم الأعظم من هذا الإنتاج ، فضلاً عن مناطق إضافية جديدة مثل لينينغراد بالنسبة لأنواع الفولاذ الكهربائية ، وما وراء القفقاس ، وسيبريا الوسطى والشرق الأقصى .

أما بالنسبة لصناعة المعادن **غير الحديدية** ، فإن الإنتاج كان أيضاً سريعاً ، ويضع الاتحاد السوفييتي بين أكبر المنتجين ويعادل ٧٠٠٠٠٠ طن من النحاس وأكثر من ٢ مليون طن من الألمنيوم . لأنه أنتج ١,١ مليون طن ألمنيوم عام ١٩٦٤ و ٤,٥ مليون طن بوكسيت ، أي الدرجة الثانية بعد الولايات المتحدة التي أنتجت عام ١٩٦٤ مقدار ٢,٣ مليون طن ألمنيوم . وتقع مصاهر النحاس في أماكن الاستخراج كما في الأورال التي تفوقت عليه منطقة كازاخستان وكوزباس ، كما أن الاستحصال على الألمنيوم يرتبط بإنتاج الكهرباء الرخيصة ، فيكون ذلك هاماً في منطقة لينينغراد والدنيبر في سيبريا حول المراكز الكهربائية الجديدة .

إن أكثر القطاعات تطوراً هي **الصناعة المعدنية التحويلية** ، التي تساهم في تجهيز البلاد . فصانع آلات وتجهيز الصناعة التي كانت متمركزة قبل الحرب في المناطق الأوربية ، أخذت تنتشر في سيبريا الوسطى كما في نوفوسيبيرك وكراسنويارسك وفي الشرق الأقصى . وفي ١٩٨١ أنتجت صناعة السيارات مقدار ١٣٢٤٠٠٠ سيارة سياحية و ٨٧٣٠٠٠ سيارة نفعية مقابل ٥٥٣٥٠٠ سيارة عام ١٩٦٢ كان ٧٥٪ منها عبارة عن سيارات نفعية .

ورغم أن هناك رغبة في تجنب المركزية في الإنتاج ، فإن المعامل الرئيسية لا تزال موجودة في المنطقة الوسطى ولا سيا موسكو ، التي تحوي على معامل سيارات موسكو فيتش الصغيرة . وعلى نهر الفولغا (غوركي) وفي الأورال وقد اتفق الاتحاد مع شركة فيات الإيطالية لإقامة معمل ينتج سنوياً ٦٠٠٠٠٠ سيارة ابتداء من عام ١٩٦٨ وتدعى « لادا » . ويبلغ إنتاج الجرارات ٥٨٤٠٠٠ وحدة

عـام ١٩٨٠ مقـابـل ٢٠٤٠٠٠ جرار عـام ١٩٥٧ (في خـاركـوف وستـالينيغراد والأورال) ، ويتبعثر إنتاج المكائن الزراعية في المراكز الصناعية في أوكرانيا وعلى الفولغا وفي الأورال وحـاليـاً في سيبريـا . وتصنع تجهيزات القطـارات في المنـاطق الصناعية القديمة . كما تصنع الطائرات في منطقة الأورال الغربية كما في مدينة بيرم وأوفاوتشكالوف .

أما الترسانات البحرية فتضع الاتحـاد السوفييتي في المكانـة الخـامسـة بـالعـالم بإنتاج سفن تبلغ حمولتها ٣٥٠٠٠٠ طنة بـالسنـة ، يتم بنـاؤهـا في موانيء البلطيق والبحر الأسود ، وفي مورمـانسـك (من أجـل سفن المحيـط المتجمـد الشمالي) وفي ميناء فلاديفوستوك .

هذا وتحتل **الصناعة الكيماوية** الدرجة الثانية بالعالم ، وقـد كانت نهضتهـا واضحة جداً بالنسبة للإسمنت ، إذ تضاعف إنتاجـه تسع مرات بين ١٩٥٠ و ١٩٧٨ حيث بلغ إنتاج ذلك العام ١٢٧ مليون طن حيث قارب إنتاج الولايات المتحدة . وقد ازداد إنتاج الأسمـدة أيضـاً رغم أنـه دون الكفـايـة . ونظراً إلى أن الجهود التي بذلت لتوسيع زراعة نباتات المطـاط (كوك سـاغيز) لم تعـط النتيجـة المرجوة ، اتجهت النيـة نحو التوسع في إنتـاج المطـاط التركيبي ، الـذي يـزيـد عن ٢٥٠٠٠٠ طن ، ولكن النجـاح كان أقل أهميـة في مضمار إنتـاج مواد البلاستيـك والأصبغـة والألياف الاصطناعية (كالحرير الاصطناعي والنايلون الخ) .

أما صناعات المواد الاستهلاكية ، فقد كان تقدمها بطيئاً ، ولكن الفارق بين إنتاجها وإنتاج صناعات التجهيز ، يجنح تدريجياً للتضاؤل . وهكذا أنتج الاتحـاد ٧,٣ ملايين جهاز تلفزيون عـام ١٩٧٩ مقـابل ١,٢٧ مليون عـام ١٩٥٩ و ٥ مليون ماكنة غسيل ١٩٧٦ .

وتحتـل الصنـاعـة القطنيـة المكان الأول بين **الصنـاعـات النسيجيـة** ، وتتمركز حول موسكو وبالدرجة الثانية في لينينغراد . وقد امتدت لمنـاطق أخرى

مثل آسيا وما وراء القفقاس . أما بالنسبة لمنسوجات الكتان والحرير ، فإن التزايد كان واضحاً جداً منذ بضعة أعوام فبين ١٩٥٠ و ١٩٥٦ تضاعف إنتاج الأنسجة الحريرية عشر مرات . كما أن الصناعة الصوفية انتقلت جزئياً من المنطقة الوسطى نحو المناطق المنتجة مثل أوكرانيا الجنوبية وقفقاسيا وآسيا الوسطى .

ونذكر صناعة **الأحذية** ضمن عداد الصناعات الجلدية ، وهي غير كافية ، ولكن إنتاجها يتجاوز مع ذلك ٥٠٠ مليون زوج بالعام ، هذا عدا أحذية المطاط واللباد مقابل ٢٠٠ مليون زوج في ١٩٥٠ ، أما في مجال **الصناعات الغذائية** فإن الاتحاد السوفييتي يحتل المكانة الثانية بعد الولايات المتحدة ، فهي تأتي في الطليعة في إنتاج سكر الشوندر والمطاحن . وأخيراً شهدت عدة صناعات استهلاكية دفعة جديدة نشيطة مثل : الراديو ، والتلفزيون ٧،٣ ملايين ، والبرادات ٦،٢ ملايين (١٩٧٩) ، ومكائن غسيل الثياب وأجهزة التصوير .

أما **صناعة البناء** فتتجه أكثر فأكثر نحو إنتاج العناصر الجاهزة الصنع ، ولا تزال تعجز عن مواكبة حركة العمران ، أما صناعة **الخشب** فهي قديرة بفضل ثروات الطايغا ولكن لا يزال إنتاج بعض القطاعات كالورق دون حدود الكفاية .

ثالثاً : وسائل النقل والمبادلات التجارية :

المواصلات : ـ تبدو مشكلة النقل شائكة في قطر فسيح الأرجاء ذي شرائط طبيعية قاسية ، كالاتحاد السوفييتي . ومع هذا تضاعفت عمليات النقل الإجمالية عشرين مرة بين ١٩١٣ و ١٩٧٥ مما استدعى تمديد شبكة المواصلات واستخدامها بشكل أفضل .

وتؤمن شبكة الخطوط الحديدية حوالي ٨٣٪ من المواصلات الداخلية ، بعد أن كانت لا تزيد عن ٥٧٪ في ١٩١٣ . وتكون هذه الشبكة كثيفة في القسم الأوربي ، فيما عدا الشمال . وتكون متراخية في الشرق فيما عدا حول الخط العابر سيبريا ، حيث أخذت تتفرع عنه خطوط عديدة ، ويبلغ طول الخط المذكور ٩٣٤٠ كم بين موسكو وفلاديفوستوك . ويوازي هذا الخط جنوباً خط حديدي

يدعى يوغسيب ، تم إنجازه منذ بضعة أعوام في القسم الغربي من القسم الآسيوي . ويرتبط بهذين الخطين فروع عديدة بالإضافة إلى خطوط آسيا الوسطى مثل : خط عبر الخزر ، وخط عبر آرال ، وخط كاراغندا ـ بلخاش ، وخط توركسيب . وفي الشرق نجد خط بايكال آمورسكي ماجيسترال ، الذي يوازي عابر سيبريا من الشمال . ولتسهيل المواصلات مع الصين تم تمديد خط مباشر من بايكال إلى بكين . كما تمدد خط آخر ابتداء من آلما آتا باتجاه التركستان الصينية أو سيكيانغ . ورغبة في سرعة المواصلات وتوفيراً للفحم الحجري ، يجري حالياً إدخال الكهرباء للقاطرات ، كذلك محركات ديزل . ويبلغ طول الخطوط التي يستعمل فيها هذان النوعان من الجر ما يقارب ٣٥٠٠٠ كم .

كما تجري دائماً المحاولات الرامية لزيادة دور **الملاحة النهرية** الرخيصة نسبياً رغم عقبات التجمد الشتوي ، ويعادل دور الملاحة الداخلية ١٢٪ من مجموع المواصلات ويتزايد بسرعة . وقد تمت إعادة بناء الطريق القديمة مثل منظومة ماري بين لينينغراد والفولغا . كما تم إيجاد طرق جديدة تؤلف منظومة البحار الخمسة ، وهي : قناة البلطيك ـ البحر الأبيض ـ قناة موسكو ـ الفولغا ـ قناة الفولغا ـ الدون التي تمت في عام ١٩٥٢ والتي تفتح أمام المنطقة الوسطى ، وبلاد الفولغا طريق البحر الأسود . هذا ويتزايد دور نهر الفولغا بفضل « البحار الاصطناعية » وتجهيز موانئ نهرية كبرى مثل ياروفسلافل وغوركي وكازان . أما نشاط الأنهار السيبرية فيقتصر على تعويم الأخشاب وتفريغ الفلزات المعدنية باتجاه الشمال .

ولا تزال **شبكة الأنابيب** الناقلة للنفط والغاز محدودة ، فلا تؤمن أكثر من ٣٪ من النقليات ، وستؤدي سرعة بنائها إلى تخفيف أعباء النقليات النهرية ، وخاصة الحديدية وأهمها أنبوب سيبريا الممتد حتى تشيكوسلوفاكيا .

أما دور **النقليات البرية** فلا يزال ضعيفاً ، إذ لا تنقل السيارات أكثر من ٨٪ من البضائع و ١٦٪ من المسافرين ، إذ لا تزال السيارات الخاصة قليلة ومعظمها من النوع العائد للنفع العام .

وتساهم الشروط الطبيعية في جعل بناء الطرق الحديثة عسيراً ، لهذا تظل الشبكة محدودة . وأهم طرق السيارات العريضة نجدها حول موسكو . ولا يمكن اعتبار النقل البري أكثر من عامل مساعد للنقليات على الخطوط الحديدية .

وعلى خلاف ذلك نلاحظ أن المواصلات البعيدة المدى ، أي النقليات الجوية ، تكون ناجعة . فيبلغ طول الخطوط الجوية ٢٧٥٠٠٠ كم التي ازدادت حركة الطيران عليها بحوالي عشرين مرة منذ ١٩٤٠ . وأكثر هذه الخطوط نشاطاً هو خط الشرق الأقصى الذي يربط موسكو بمدينة خاباروفسك بواسطة الطيارات النفاثة بمدة ٩ ساعات . وفضلاً عن الخطوط الجوية الكبرى التي تنطلق من موسكو ، نجد خطوطاً ثانوية بين المدن الرئيسية وخاصة الخطوط التي تصل بين مدن ساحل المحيط المتجمد الشمالي . كما تنشط خطوط الطيران الدولية مثل موسكو ـ بكين وموسكو ـ نيويورك . وموسكو ـ باريس عبر براغ . وخط موسكو ـ دمشق الخ .

وينمو الأسطول التجاري ببطء ، وتقارب حمولته ستة ملايين طنّة (الطنة ٢,٨٣ م٣) . ولا يزال الاتحاد السوفياتي يعتمد على أحواض بناء السفن الأجنبية لإمداده بالسفن الجديدة . وهناك خطوط ملاحة وطنية تربط موانئ البلطيق والأسود والمتجمد الشمالي ، وتهتم السلطات بتوسيع الموانئ وتحسينها بغية تنشيط التجارة فيها .

التجارة الخارجية : ـ بالرغم من قوة الاقتصاد السوفييتي فهو لا يحتل أكثر من مكانة ضامرة في المبادلات الدولية ، إذ لا يحتل سوى الدرجة السادسة بالعالم ، كما لا تزيد قيمة تجارته عن ٦٪ من التجارة العالمية . ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المبادلات قد تضاعفت أربع مرات منذ ١٩٣٩ حيث كان الاتحاد السوفياتي يحتل المكانة السادسة عشرة .

وبعد نهاية الحرب الثانية واحتدام الحرب الباردة ، أصبح الاتحاد السوفييتي ـ كما حصل له في فترة ١٩١٧ ـ ١٩٢٥ ـ منعزلاً عن الدول الصناعية الكبرى الغربية ، لأن الولايات المتحدة قررت عام ١٩٥١ عدم تصدير مواد معينة للاتحاد السوفييتي وحلفائه . فاضطر الاتحاد لتنمية علاقاته مع الجمهوريات الشعبية ، التي كانت بحاجة قصوى لسلع التجهيز الصناعي ، لهذا تمتص هذه الجمهوريات ٦٥٪ من التجارة الخارجية السوفيتية ، ولكن منذ ١٩٥٥ أخذت المبادلات بين الشرق والغرب بالتزايد فضلاً عن اتساع التجارة السوفيتية مع أقطار العالم الثالث في الشرق الأوسط وجنوب آسيا وأميركا الجنوبية .

وأهم **الصادرات السوفيتية** التقليدية هي : البترول والخشب والفراء والفلزات كالمنغنيز والكروم . وأضيف إليها صادرات جديدة منذ ١٩٤٥ مثل : القطن وقد صدر منه عام ١٩٦٤ مقدار ٤٠٠٠٠٠ طن ، ويعادل إنتاج مصر ، ومكائن الصناعة المنجمية ، والمنسوجات والمواد الغذائية وآلات التنقيب عن النفط ، والمكائن الزراعية ، والرولمانات ، وحتى المعامل الكاملة مثل معامل الفولاذ إلى الهند ويؤلف النفط والغاز ٣٧٪ من قيمة الصادرات في ١٩٨٢ .

أما **الاستيراد** فيتألف من مصنوعات تجهيزية قادمة من الجمهوريات الشعبية ، بالإضافة إلى آلات قادمة من الدول الرأسمالية : كالمكائن ، وسفن صيد الأسماك ، وسفن الشحن ، ومعامل سيارات كاملة ، مثل فيات وفورد وسواها . كما يستورد الاتحاد مواد أولية : كالمطاط والقصدير والصوف والجوت . هذا وأخذ الاتحاد يشتري مواد استهلاكية كانت محظورة أو محدودة في فترة التصنيع مثل : المنسوجات الرفيعة والرز والفواكه المدارية والقهوة والكاكاو والسكر والأحذية والسجائر .

وأهم **الدول** التي يتعامل معها الاتحاد السوفياتي هي : الصين التي كانت تمتص لوحدها ٢٠٪ من الصادرات قبل النزاع الأخير في مطلع الستينات ، وألمانيا الشرقية وبولونيا . ومن بين الأقطار الرأسمالية نذكر : فنلندا وبريطانيا والسويد وإيطاليا وفرنسا وعدد كبير من دول العالم الثالث : كالهند وأندونيسيا وإيران وأفغانستان وسوريا والعراق .

مشكلات الاقتصاد السوفييتي الحالية

المصاعب :

إن أول مشكلة هامة هي **النواقص الزراعية** . والواقع أن تزايد السكان ، واتجاه السكان نحو التمركز في المدن ، وارتفاع القدرة الشرائية ، أظهرت كلها

ضعف إنتاج عدة مواد غذائية : كالحبوب ، ومشتقات الحليب ، كالزبدة ، والأجبان ، واللحم ، الذي بلغ ٥,٧ مليون طن عام ١٩٦٦ ، أي يستهلك الفرد ٢٥ كيلو لحم بالسنة مقابل ٧٥ كغم في أوروبا الغربية وأمريكا ، والخضار . أضف إلى ذلك أن بعض الصناعات التجهيزية تخلق **مظاهر اختناقية** رغم ارتفاع انتاجها . ففي مجال الطاقة تكثر الشكوى من عدم كفاية إنتاج الفحم ، وخاصة في المناطق الأوربية ، لأن ذلك يؤدي إلى توقف دوران المعامل عدة مرات بالسنة ، بالإضافة إلى عمليات النقل غير العقلانية : فالمنطقة الوسطى تجلب الفحم من منطقة الكوزباس الواقعة على مسافة ٣٠٠٠ كم . كما ينتقد أيضاً عدم كفاية إنتاج الأنابيب ، مما يؤدي إلى قلة الاستفادة من الغاز الطبيعي الوفير الذي يعتبر مصدر قوة سهلة ورخيصة . كما أن الكثير من المعامل ، لا تنال سوى القليل من أنواع الفولاذ الخاصة ، والمعادن غير الحديدية ومن الأخشاب مما يحد من إنتاجها .

كما أن انتاج **السلع الاستهلاكية** ـ فيما عدا المنتجات الزراعية ـ لا يزال غير كاف بالنسبة للطلب المتزايد : كالأقمشة الصوفية ، والأحذية الجلدية ، حيث لم يزد الإنتاج في عام ١٩٦٧ عن ٤١٥ مليون زوج ، والمحفوظات الغذائية ، وزجاج النوافذ ، التي لا تزال كمياتها غير كافية . ومن جهة أخرى فإن بعض مؤسسات الصناعة الخفيفة أنتجت سلعاً لا يقبل عليها الجمهور بسبب رداءة صنعها . كما لا يزال قطاع بناء المنازل في وضع دون المرغوب .

كما أن هناك ثغرات ملحوظة في وسائط النقل : بطء القطارات . ضعف ميكانيكية عمليات الشحن والتفريغ ، رداءة التنسيق بين الخط الحديدي والباخرة في الموانئ البحرية والنهرية .

وينسب السوفيات بعض هذه النواقص إلى عيوب تنظيم اقتصادهم الضخم . والعيوب الرئيسية حسب نظرهم هي : تفاوت العمل بين مختلف مؤسسات الفرع

نفسه ، وإذا كان البرنامج الخمسي يتحقق عادة ، أو يتجاوز حده ، فذلك يعود لإنتاج المؤسسات « الطلائعية » التي تخفي تأخر مؤسسات عديدة أخرى . كما ينتقدون « روتين الأوراق » والإفراط في التوجيهات الصادرة عن المكاتب ، ويمتد هذا الانتقاد حتى التنظيم الزراعي . وبصورة إجمالية يبدو جهاز التخطيط ثقيلاً جداً ، وقليل المرونة ، وضخماً هائلاً .

المخطط السباعي والمشاريع الكبرى :

لقد أخذ المخطط السباعي ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥ بعين الاعتبار كل النواقص المذكورة آنفاً . ففي المجال الصناعي ، كان الهدف هو زيادة الإنتاج بحوالي ٨٠٪ وكانت القطاعات المفضلة هي : الطاقة ولاسيا الغاز الطبيعي والبترول ، والصناعات التي تجهز الزراعة كإنتاج : الجرارات والمكائن والأسمدة ، وإنتاج القاطرات الكهربائية ، والألياف الصناعية وبناء المساكن ، كما أصبحت المكننة في الفروع الصناعية ولاسيا الناحية الأوتوماتيكية نامية جداً . ولدعم هذا التطور الصناعي تم تحقيق المشاريع الكبرى ، رغم صرف النظر عن بعض المشاريع الضخمة جداً .

وتتجه بعض هذه المشاريع الكبرى نحو الزراعة مثل : ري مناطق الدينيبر الأدنى والفولغا الأدنى وفي آسيا الوسطى . كما كان المقرر إنهاء المخطط التنظيمي لغابات القسم الأوربي كزرع شرطان حراجية ضد الرياح المجففة ، وتسييج مزارع واسعة واستنباط المياه وبناء برك اصطناعية . كما ازدادت محاصيل القطن والشوندر السكري والبطاطا إلى حد كبير . وكذلك الأمر بالنسبة لمنتجات تربية الماشية بفضل توسيع المراعي الاصطناعية وزراعة الذرة الصفراء . كما تم إخضاع الكثير من الأراضي الواسعة العذراء للزراعة لأول مرة ، لتأمين إنتاج متزايد ومحسوس في الحبوب وقد صاحب كل التطورات الزراعية الآنفة الذكر مكننة زراعية متزايدة وخاصة في مجال الحصاد والقطف لتجنب الخسائر .

وأخيراً طرأت بعض التعديلات على تنظيم الاقتصاد والتخطيط . فمن جهة انصب الاهتمام على زيادة الإنتاجية . ومن أجل هذا كان من اللازم تمركز الجهود فوق أهم ورشات العمل ، وتجديد التجهيزات الهرمة وتجنب صنع نماذج مكائن تتفوق عليها الأقطار الرأسمالية والجمهوريات الشعبية ، وزيادة تخصص الصناعات كي يمكن تعميم أتمتة العمل . وتزايد الإنتاجية هذا ساعد على متابعة وتسارع تناقص ساعات يوم العمل الذي ابتدأ منذ ١٩٥٦ .

ومن جهة أخرى تستهدف هذه القرارات نحو لامركزية الجهاز الاقتصادي ومنحه المرونة . وقد تم أولاً خلق مائة وخمسة مناطق اقتصادية « سوفنارخوز » أكثر كفاءة في إدارة الإنتاج من الوزارات المتباعدة والمرهَقة . كما أن السلطات المشرفة على المؤسسات الزراعية منها أو الصناعية ، والتي كانت تتعرقل في سيرها بسبب أنظمة ضيقة جداً ، أصبحت أكثر توسعاً وتم تخفيض جهازها الإداري .

والأهداف الاقتصادية التي يؤكدها الاتحاد السوفياتي هي اللحاق بأول دولة اقتصادية بالعالم أي الولايات المتحدة ، ثم رفع مستوى الحياة لكل فرد من المواطنين بحيث يعادل ما هو عليه الحال في أكثر الأقطار الرأسمالية تقدماً .

ولتحقيق ذلك تمت الموافقة في عام ١٩٦١ على برنامج لعشرين عاماً ١٩٦١ ـ ١٩٨٠ . والجدول التالي يعطي المقارنة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة حسب النسبة المئوية من المجموع العالمي وذلك استناداً لحسابات منظمات الأمم المتحدة لعام ١٩٧٦ .

	الاتحاد السوفياتي	الولايات المتحدة
المساحة (٪ من أراضي العالم)	١٦,٥ ٪	٥ ٪
السكان	٦,٥ ٪	٥,٤ ٪
القمح	٣٣,٣ ٪	١٤ ٪
الذرة الصفراء	٣ ٪	٤٧,٢ ٪
البطاطا	٣٠,٥ ٪	٥,٤ ٪
السكر	١٠,٧ ٪	٧,٦ ٪
ألياف القطن	٢١ ٪	١٧,٧ ٪
صوف	١٨ ٪	١,٩ ٪
أبقار	٩,١ ٪	١٠,٥ ٪
لحم	١٢ ٪	١٩,١ ٪
حليب	٢١,٣ ٪	١٢,٣ ٪
فحم حجري	٢٠,٤ ٪	٢٥,٤ ٪
نفط خام	١٨,٢ ٪	١٤ ٪
طاقة التكرير	١٢,٨ ٪	٢١,٣ ٪
الكهرباء	١٦,٢ ٪	٣٠,٩ ٪
خام الحديد	٢٨,٧ ٪	٩,٢ ٪
فونت وخلائط حديدية	٢١,٦ ٪	١٦,١ ٪
فولاذ	٢١,٦ ٪	١٧,١ ٪
بوكسيت	٨,٣ ٪	٢,٤ ٪
المنيوم	١٦,٨ ٪	٢٩,٤ ٪
نحاس	١٤,١ ٪	١٨,٢ ٪
منغنيز	٢٨,٩ ٪	٠,٣ ٪
ورق صحف	٦,٥ ٪	١٤,٨ ٪
منسوجات صناعية	٢٤ ٪	١٣,٨ ٪
إسمنت	١٦,٧ ٪	٨,٧ ٪
سيارات نفعية	٩,٩ ٪	٣٧,٧ ٪

☆ ☆ ☆

بلاد السوڤيات في ١٩٨٢

قوام الاتحاد السوڤييتي ١٥ جمهورية متحدة ، و ٢٠ جمهورية ذات حكم ذاتي ، و ٨ مقاطعات ذات حكم ذاتي ، و ١٠ دوائر ذات حكم ذاتي .

ويبلغ عدد سكان الاتحاد السوڤييتي ٢٧١ مليون نسمة . نسبة سكان المدن ٦٥٪ وسكان الأرياف ٣٥٪ ونسبة الذكور ٤٦,٨٪ ونسبة الإناث ٥٣,٢٪ .

ويعيش في الاتحاد السوڤييتي أكثر من ١٠٠ أمة وقوم ، أكثرها تعداداً الروس ، ثم الأوكرانيون ، الأوزبكيون ، الروس البيض ، الكازاخ ، التتر ، الآذربيجانيون ، الأرمن ، الكرج ، المولداڤ ، الطاجيك ، الليتوانيون ، التركان ، الألمان ، القيرغيز ، اليهود ، التشوڤاش ، اللاتڤيون ، الموردوڤيون ، البولونيون ، والأستونيون .

أولاً : جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية

تأسست في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ . وتشغل المكان الطليعي بين سائر الجمهوريات ، سواء من حيث عدد السكان أم من حيث المساحة ، أم من حيث الثروات الطبيعية ، أم من حيث القدرة الاقتصادية والعلمية والتكنيكية . مساحة الجمهورية ١٧ مليوناً و ٧٥٠٠٠ كيلو متر مربع ، أو ضعف مساحة الولايات المتحدة تقريباً ، ويبلغ عدد سكانها ١٤٠ مليون نسمة .

وهذه الجمهورية عبارة عن اتحاد مؤلف من جمهوريات ومقاطعات ودوائر قومية ذات حكم ذاتي . وموسكو عاصمة الاتحاد السوڤييتي وكذلك عاصمة روسيا الاتحادية التي تضم ١٦ جمهورية ذات حكم ذاتي و ٥ مقاطعات ذات حكم ذاتي و ١٠ دوائر ذات حكم ذاتي .

وتملك روسيا الاتحادية احتياطيات كبيرة من الماء العذب ومن الموارد المائية الطاقيّة ، ومن موارد الخامات المعدنية . وتشغل المرتبة الأولى بين جمهوريات الاتحاد السوڤيتي من حيث الاحتياطيات الجيولوجية العامة من الفحم والبترول والغاز . وفي غضون ٦٠ سنة زاد إنتاج الطاقة الكهربائية في روسيا الاتحادية أكثر من ١٦٠٠ مرة . وازداد المنتوج الصناعي إجمالاً في روسيا الاتحادية أكثر من ٥٠٠ مرة في غضون ٦٠ سنة .

وتقدم حقول روسيا أكثر من نصف المنتوج الإجمالي في عموم الاتحاد السوڤييتي من الحبوب

والمزروعات العلفية . وتؤمن مزارعها زهاء ثلثي مشتريات الدولة من البيض ونصف مشتريات اللحوم ومشتريات الحليب والبطاطا . وتكون الأعمال الزراعية الأساسية ممكننة كلياً .

وفي جمهورية روسيا الاتحادية زهاء ٥٠٠ مؤسسة للتعليم العالي و ٢٥٠٠ ثانوية متخصصة . وفي موسكو وحدها مثلاً ٨٦ مؤسسة للتعليم العالي و ١٣٩ ثانوية متخصصة تعد الاختصاصيين في ٢٤٩ اختصاصاً .

ثانياً : جمهورية أوكرانية

تقع في الجنوب الغربي من سهل أوروبا الشرقية أو السهل الروسي . عاصمتها كييف . مساحة رقعتها ٦٠٣,٧ آلاف كيلو متر مربع بحيث تشغل المرتبة الثالثة بعد روسيا الاتحادية وكازاخستان . عدد سكانها ٥٠,٣ مليوناً وتأتي بعد جمهورية روسيا الاتحادية من حيث عدد السكان والقدرة الاقتصادية . وتنتج أوكرانيا اليوم زهاء خمس المنتوج الصناعي والزراعي في الاتحاد السوفييتي . وأوكرانيا هي بلد التعليم الشامل . ويعمل فيها أكثر من ٢٠٠٠٠٠ من العاملين العلميين ، بينهم ٥ آلاف يحمل لقب دكتور في العلوم و ٦٠٠٠٠ مرشح (كانديدات) في العلوم . وتقوم أكاديمية العلوم الأوكرانية بعمل علمي كبير .

ثالثاً : جمهورية بيلوروسيا

وتقع على حدود الاتحاد السوفييتي الغربية . مساحتها ٢٠٧,٦ آلاف كيلو متر مربع وعدد سكانها ٩,٧٤٤ ملايين نسمة ، عاصمتها مينسك . وتنتج بيلوروسيا من المنتجات حالياً في نصف يوم قدر ماأنتجته في كل عام ١٩٢٢ .

وتتحدد سياؤها الصناعية بالمؤسسات الكبيرة في صناعة بناء الآلات وصناعة الراديو ـ الكترونيك والصناعة الكيميائية وصناعة توليد الطاقة الكهربائية . ويتألف خمس الإنتاج الإجمالي لصناعة بناء الآلات في بيلوروسيا من السيارات الشاحنة الكبيرة التي تنتجها مؤسسة « بيلافتوماز » ثم إن هناك ٦٨ بلداً تشتري الجرارات من طراز « م ت ز . بيلاروس » وتغطي الغابات أكثر من ٣٠٪ من أراضي الجمهورية ، وعلى أساسها تعمل مؤسسات عديدة لصناعة الأخشاب وصناعة معالجة الخشب وصناعة الورق والصناعة الكيماوية وغيرها من الصناعات . والعالم الحيواني في بيلوروسيا غني ومتنوع .

وتعتبر بيلوروسيا من مناطق الاتحاد السوفييتي الزراعية المتطورة . وتشغل المرتبة الثانية بين الجمهوريات المتحدة من حيث زراعة الكتان ، والمرتبة الثالثة من حيث زراعة البطاطا وإنتاج الحليب ، والمرتبة الرابعة من حيث إنتاج اللحم والبيض .

ويؤمن تطور الصناعة والزراعة ، وأبعاد البناء الشاسعة ، نمو مداخيل السكان نمواً كبيراً ، والنجاحات في تطوير التعليم العام والعلم والفن ورعاية الصحة ، ويدعم مركز الجمهورية العلمي - أكاديمية العلوم البيلوروسية - حيث يعمل أكثر من ٥٠٠٠ عالم يدرسون ويحلّون قضايا الساعة في ميادين الرياضيات والسيبيرنيتيك والآلات الحاسبة والطاقة الذرية وبناء الآلات وبناء الأجهزة والكيمياء والبيولوجيا . ويربو مجمل عدد العاملين العلميين على ٣٩٠٠٠ شخص .

رابعاً - جمهورية أوزبكستان

في الجنوب الشرقي من الاتحاد السوفييتي بين نهري سيرداريا وآموداريا (سيحون وجيجون) تقع أكبر جمهورية إسلامية في آسيا الوسطى السوفيتية وهي جمهورية أوزبكستان التي تأسست في ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٤ . مساحتها تقارب مساحة العراق أو ٤٤٧,٤ ألف كيلو متر مربع ويزيد عدد سكانها عن سكان العراق أو ١٦,٥٨٣ مليون نسمة . عاصمتها طشقند . وفي قوامها تدخل جمهورية قره قلباقيا ذات الحكم الذاتي .

وتؤلف اوزبكستان قاعدة القطن الأساسية في الاتحاد السوفييتي ، وبالموازنة مع عام ١٩٢٢ فقد ازداد مجمل محصول القطن الخام ١٥٠ مرة . وتنتج اوزبكستان زهاء ثلثي محصول هذه المادة الأولية الثمينة في الاتحاد السوفييتي .

كما بلغت تربية دود القز وتربية غنم قره قول (فراء استراخان) والبستنة وزراعة الرز مستوى رفيعاً . ويشكل توليد الطاقة وبناء الآلات وصناعة الحديد والفولاذ والمعادن غير الحديدية والكيمياء ، ملامح وجه الجمهورية الصناعي . واوزبكستان اليوم هي جمهورية صناعية زراعية تحوي أكثر من ١٥٠٠ مؤسسة صناعية كبيرة مزودة بأحدث منجزات التكنيك والتكنولوجيا . وينطوي باطن الأرض الأوزبكية على البترول والفحم . وتشغل هذه الجمهورية إحدى المراتب الأولى في الاتحاد السوفييتي من حيث احتياطيات الغاز الطبيعي .

هذا وقد أحرزت اوزبكستان نجاحات كبيرة في تطوير التعليم العام والثقافة والعلم . ويعمل فيها أكثر من ٣٦٠٠٠ من العاملين العلميين . وتحوي المؤسسات التابعة لأكاديمية العلوم الأوزبكية أكثر من ٤٠٠٠ عالم . ويقال إن هذه الجمهورية عبارة عن فردوس حقيقي في نظر المؤرخين وعلماء الآثار حيث يدرسون آثار الثقافة الإسلامية العريقة في خوارزم وإمارة خيوه وعصر آل تيمور . وقد أنجز كلياً ترميم التحف المعمارية في كل من سمرقند وبخارى ..

ويتم في هذه الجمهورية استصلاح ١٠٠٠٠٠ هـ سنوياً على حساب الصحراء . وتحوي خزانات يتكدس فيها زهاء ٣٥ مليار م٢ من الماء العذب أو ما يعادل بحيرة الأسد على سد الفرات ، لأن كل طن

واحد من القطن يتطلب ٦٠٠٠ م٣ من الماء العذب وهكذا أصبح مردود القطن من أفضل أمثاله في العالم لأن كل هكتار يعطي هنا ٣١٠٠ كغم من القطن .

خامساً : جمهورية كازاخستان

كازاخستان هي الجمهورية الثانية من حيث المساحة بعد جمهورية روسيا الاتحادية أو ٢,٧١٧ مليون كم٢ . وعدد سكانها ١٥,٥٦٢ مليون نسمة . وقد تأسست في البدء جمهورية كازاخستان في ٢٦ / ٨ / ١٩٢٠ كجمهورية ذات حكم ذاتي ضمن إطار جمهورية روسيا الاتحادية . ولكن فيما بعد وبالتحديد في ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ ، أصبحت جمهورية كازاخستان المتحدة وعاصمتها آلما آطا .

وفي عهد السلطة السوفييتية تحول قطر البدو هذا إلى جمهورية ذات صناعة متنوعة الفروع ، وزراعة وتربية للمواشي متطورتين ، ومستوى ثقافي رفيع ، وقامت صناعة عصرية كبيرة تنتج حالياً خمسة أمثال ما كانت تنتجه روسيا كلها قبل الثورة . وقد اكتشفوا في باطن أرض كازاخستان جميع الخامات النافعة المعروفة في الطبيعة تقريباً . وتصدر كازاخستان إنتاجها إلى ٧٠ بلداً من آلات وأدوات معقدة وأجهزة وفلزات وصفائح المعادن غير الحديدية والفراء ومعلبات اللحوم .

وقد رفع استصلاح الأراضي البكر اقتصاد كازاخستان إلى درجة جديدة نوعياً وجعل منها أكبر مرعى في الاتحاد السوفييتي . تبلغ مساحة الأراضي البكر والبور المفلوحة في كازاخستان ٢٥,٥ مليون هكتار . وتشتهر كازاخستان كمنطقة كبيرة لتربية المواشي في شرق الاتحاد السوفييتي . وبعد أن كان الذين يعرفون القراءة والكتابة بين السكان الأصليين المسلمين الذين يشكلون نصف سكان الجمهورية لا تتجاوز نسبتهم ٢ ٪ أصبح التعليم الثانوي إلزامياً حالياً .

سادساً : جمهورية جورجيا (الكرج)

وهي جمهورية أخذت شكلها الحالي بتاريخ ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ . وتدخل ضمن كيان جمهورية أبخازيا ذات الحكم الذاتي وجمهورية آجاريا ذات الحكم الذاتي ومقاطعة أوسّيتيا (قوشحة) ذات الحكم الذاتي . ومساحة جمهورية جورجيا ٦٩٠٠٠ كيلومتر مربع وعدد السكان ٥,١ ملايين . وعاصمتها تبليسي أو تفليس .

وفي هذه الجمهورية تنوع كبير من الحيوانات والنباتات والثروات الطبيعية والأحوال المناخية ولاسيا الساحلية . وقد كبحت السدود جماح الأنهر الجبلية الغزيرة المياه ، وقامت إلى جانبها المحطات الكهربائية الموحدة في الشبكة العامة للمنظومة الطاقيّة فيما وراء القفقاس (جورجيّا وأرمينيا وآذربيجان) . ويكون باطن الأرض غنياً بالفحم والمرمر والنحاس والنفط والمنغنيز الذي تعتبر مؤسساته في تشياتورا من أكبر المؤسسات في العالم لاستخراج الفلز الرفيع النوعية . وتنتج جمهورية

جورجيا في يوم ونصف قدر ما أنتجته في كل عام ١٩٢٢ من المنتوجات الصناعية .

وتضفي المناطق شبه المدارية ، الاصالة على زراعة جورجيا ، والشاي والحمضيات من أهم المزروعات شبه المدارية ، وتعتبر الكروم وبساتين الأشجار المثمرة وزراعة التبغ وزراعة النباتات الزيتية الأثيرية من الفروع الأساسية في الزراعة وتحظى منتجعات ساحل البحر الأسود والمنتجعات الجبلية في جورجيا بشهرة عالمية .

وترقى منابع ثقافة الشعب الجورجي الروحية إلى الماضي البعيد ، لأن جورجيا من أقدم بلدان العالم ، ويستهل « أبو التاريخ » هيرودوت مؤلفه بوصف العلاقات المتبادلة بين اليونان وكولخيدا أي جورجيا الغربية . وتعود معلوماته إلى الألف الثاني قبل الميلاد . وهناك أصداء عن أحداث أقدم عهداً ، هي الأساطير عن الأرغونوط الذين زاروا كولخيدا بحثاً عن الصوف الذهبي . وأسطورة بروميته ـ أميراني العظيم الذي حصل على النار من أجل الناس فسمّرته الآلهة عقاباً على ذلك في جبال القفقاس .

سابعاً : جمهورية آذربيجان

ويعود كيانها الحالي إلى ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ حيث أصبحت جمهورية متحدة . وتشغل جمهورية آذربيجان المرتبة الأولى بين جمهوريات ما وراء القفقاس من حيث المساحة ٨٦٠٠٠ كم^2 ومن حيث عدد السكان ٦,٣ ملايين نسمة . وتدخل جمهورية ناخيشيفان ذات الحكم الذاتي ، ومقاطعة قره باخ الجبلية ذات الحكم الذاتي ، ضمن إطار جمهورية آذربيجان ، وعاصمتها باكو .

وإذا كان المثل القفقاسي يقول : « ما تعطيه هو لك » فإن العلاقات الاقتصادية بين هذه الجمهورية والجمهوريات السوفييتية الأخرى أضفت على هذا المثل مغزى خاصاً ، ذلك أن آذربيجان تقدم للجمهوريات المجاورة الطاقة الكهربائية والبترول والغاز الطبيعي ، ومنها تمتد خطوط أنابيب الغاز إلى تبليسي ويريفان عاصمة أرمينيا . ومن جورجيا تصل سكائب الفولاذ إلى مصنع سومغايت لتصفيح الأنابيب ، التي ترسل بدورها ، إلى أوكرانيا وجمهوريات آسيا الوسطى ومختلف المناطق في روسيا الاتحادية . وتتلقى آذربيجان الحديد الصب « الفونت » والصفائح من أوكرانيا والأورال وسيبيريا .

وأكثر الفروع تطوراً في زراعة آذربيجان هي زراعة القطن والكروم وبساتين الأشجار المثمرة وتربية المواشي في المراعي . وكانت نسبة المتعلمين في هذه البلاد لا تتجاوز ٩,٢ ٪ في عام ١٩٢٠ ، ولم يكن في البلاد مؤسسات للتعليم العالي ، أما الآن فإن التعليم بجميع أنواعه ودرجاته يشمل في آذربيجان مليونين و ٤٠٠ ألف شخص . ويصيب كل ١٠٠٠٠ نسمة من السكان في آذربيجان ١٧٠ طالباً مقابل

١٦١ في فرنسا و ١٠٦ في ألمانيا الاتحادية و ٩٨ في بريطانيا و ١٠٤ في اليابان . ويعمل في أكاديمية العلوم الآذربيجانية ٤٠٠٠ شغيل علمي . وقد أنشئ فيها معهد البحوث الكونية للموارد الطبيعية . ولغة سكان البلاد تركية وهم من المسلمين الشيعة .

ثامناً : جمهورية ليتوانيا

تقع جمهورية ليتوانيا على الساحل الجنوبي الشرقي من بحر البلطيق . وتتفوق هذه الجمهورية على جارتيها الشماليتين لاتفيا وأستونيا من حيث المساحة ٦٥٠٠٠ كم^2 وعدد السكان ٣,٥ ملايين نسمة .

وليتوانيا هي الوطن الأول للقبائل البلطيقية التي تعيش هنا منذ الألف الثاني قبل الميلاد كالبروس والاتفاغ والكورش وغيرها . وظهر كيان هذه الدولة في حزيران ١٩٤٠ ، وعاصمتها ڤيلنوس ، ومن ثم تحولت الجمهورية من زراعية إلى صناعية . ففي خلال ستة أيام تنتج حالياً من المنتوجات الصناعية قدر ما أنتجته في كل عام ١٩٤٠ . وتنافس الأقمشة الليتوانية الأقمشة الإنكليزية العالمية الشهرة وتتفوق عليها أحياناً من حيث النوعية وتباع منتجات مؤسسات النسيج في كاوناس وڤيلنوس وشاوولباي في أكثر من ٨٠ بلداً . وترسل ليتوانيا الآلات الحاسبة وغير ذلك من المنتجات الصناعية إلى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي وترسل الجمهوريات الأخرى إلى ليتوانيا ما لا تنتجه ليتوانيا . وقد اشترك الاختصاصيون والعمال في تصميم وبناء خط أنابيب الغاز الطبيعي إلى ليتوانيا من داشاڤار في أوكرانيا ، وقدموا من أوكرانيا وبيلوروسيا ولاتڤيا وليتوانيا ذاتها . وقد تعاونت كل الجمهوريات في بناء محطة كاوناس الكهرمائية بصورة فعلية .

وتوائم الظروف الطبيعية والمناخية في ليتوانيا تكثيف الزراعة المختصة بتربية الماشية من أجل اللحم والحليب وتربية الخنازير وزراعة بعض النباتات الصناعية والعلفية . ونصف مواطني هذه الجمهورية حصلوا على التعليم العالي أو الثانوي .

تاسعاً : جمهورية مولداڤيا

في الطرف الأقصى من جنوب غرب الاتحاد السوفييتي ، حيث ينتهي السهل الروسي ، تقع جمهورية مولداڤيا ومساحتها ٣٣٠٠٠ كم^2 يسكنها ٤,٠٢٤ مليون نسمة . وفي ٢ آب ١٩٤٠ توحدت مع بيسارابيا ذات الحكم الذاتي وتحولت إلى جمهورية مولداڤيا المتحدة وعاصمتها كيشينيف . وكانت معظم أراضي هذه الجمهورية تابعة لرومانيا قبل ١٩٤٣ .

وتتصف مولداڤيا بكثافة السكان الكبيرة وتتوفر فيها الأيدي العاملة لأن متوسط كثافة السكان ١١٩ نسمة بالكيلو متر المربع وهذا أكبر متوسط بين كل جمهوريات الاتحاد السوڤييتي .

وهناك أغنيات وأساطير كثيرة عن جمال الأرض المولداڤية وسخائها . وتغطي التربة السوداء

ـ وهي خير تربة في العالم ـ أراضي مولداڤيا كلها تقريباً . وفي تربة كهذه يمد غصن وقع صدفة من عربة جذوره في الأرض الهشة ، أو بذرة كرز رماها سائر في حوش ما ، أو جوزة سقطت من منقار طائر في الأرض المحروثة ، ويؤمن المناخ الحار ووفرة الشمس امكانيات موائمة لتطوير زراعة متعددة الفروع . ومن أهم ثروات هذه الجمهورية العنب .

ومنذ ٥٠ سنة كانت كلمتا « مولداڤيا الصناعية » تبدوان غريبتين . أما اليوم ، فإن مؤسساتها تنتج الجرارات والآلات الحاسبة والأجهزة الكهربائية . وتنتج مولداڤيا الآن في أقل من نصف يوم من المنتوجات الصناعية أكثر مما كانت تنتجه في كل عام ١٩٢٢ .

وتعود شهرة مولداڤيا إلى صناعة الخمور وتشغل مولداڤيا المرتبة الثالثة في الاتحاد السوڤييتي في مضمار إنتاج خمور العنب والمعلبات والسكر الناعم .

عاشراً : جمهورية لاتڤيا

تقع هذه الجمهورية الاشتراكية في الشمال الغربي من الاتحاد السوڤييتي على سواحل بحر البلطيق . مساحتها ٦٣٧٠٠ كم٢ وعدد سكانها ٢,٥٥١ مليون نسمة . وللأرض اللاتڤية تاريخ حافل وتذكر أنقاض القصور القديمة بالحروب المدمرة كما تحفظ الآثار الجليلة مجد مآثر الشعب . ونشأت هذه الجمهورية في ٥ / ٨ / ١٩٤٠ لتدخل في كيان الاتحاد السوڤييتي .

عاصمتها ريفا التي لا تعتبر مركزاً ثقافياً صناعياً في الجمهورية فحسب بل أيضاً مركزاً ثقافياً عريقاً تقوم فيه أكاديمية العلوم اللاتڤية التي تضم ١٧٠٠ من العاملين العلميين ، و ١٠ مؤسسات للتعليم العالي . وفي الجمهورية ٦٨ متحفاً ، بينها متحف كاتدرائية دومسكي وهو عبارة عن إنشاء معماري تاريخي بارز .

وقد ازداد الإنتاج الصناعي فيها ٤٦ مرة بالموازنة مع عام ١٩٤٠ . وتتخصص زراعة لاتڤيا في تربية الماشية للحليب والمواشي الأصيلة والخنازير . وتلعب لاتڤيا دور « بوابة بحرية » مهمة للاتحاد السوڤييتي وعبر مرافئها يتاجر الاتحاد مع دول عديدة .

حادي عشر : جمهورية قيرغيزيا

أخذت هذه الجمهورية كيانها الحالي في ٥ / ١٢ / ١٩٣٦ بعد أن كانت جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن كيان جمهورية روسيا الاتحادية . مساحتها ١٩٨٥٠٠ كيلو متر مربع ، أي تعادل مساحة سورية ولبنان ، وعدد سكانها ٣,٧٢٣ ملايين نسمة أكثريتهم من المسلمين عاصمتها فرونزه .

وفي الشمال الشرقي من آسيا الوسطى السوڤييتية تمتد سلاسل جبال تيانشان على مئات الكيلو مترات ، وفي باطن أرض تيانشان اكتشف الجيولوجيون في أرض قيرغيزيا مكامن الكثير من الفلزات

النافعة . ولكن أكبر ثروات الجمهورية هي المراعي في سفوح جبال تيانشان ، التي تؤمن العلف لملايين الرؤوس من المواشي التي تؤلف فرعاً من أهم فروع الاقتصاد الوطني فيها .

وقيرغيزيا الحالية ذات صناعة متطورة تضم أكثر من ١٣٠ فرعاً . وتقوم قيرغيزيا بدور منطقة منتجة للمعادن غير الحديدية والآلات الزراعية والمصنوعات الكهرتكنيكية والأجهزة . ولكن لا تزال قيرغيزيا ، رغم كل هذا ، منطقة زراعة متنوعة وتختص في تربية الأغنام الناعمة الصوف . والخيول الأصيلة ، وفي زراعة القمح والشمندر السكري والتبغ والخشخاش الطبي والقطن والكروم .

وقد احرزت قيرغيزيا نجاحاً كبيراً في تطوير ثقافتها فبعد أن كان الشعب أمياً أوشك الآن أن ينتقل إلى التعليم العام الثانوي الإلزامي . وفي قديم الزمان بلغ الإبداع الشعبي الشفوي للشعب القيرغيزي ذرى رفيعة . وقد سجل بحاثة الأدب ملحمة « ماناس » التي تضم أكثر من مليون بيت من الشعر ، ويمكن تصنيف هذه الملحمة دون مبالغة ، في عداد أعظم تحف أدب القروسطي العالمي .

الثاني عشر : جمهورية طاجيكستان

وتقع في جنوب الاتحاد السوفييتي . مساحتها ١٤٣١٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها ٤,١١٩ ملايين نسمة غالبيتهم مسلمون . وتأسست في ١٢ / ١٠ / ١٩٢٤ كجمهورية ذات حكم ذاتي ضمن إطار جمهورية أوزبكستان . وفي ١٦ / ١٠ / ١٩٢٩ تحولت إلى جمهورية متحدة . عاصمتها دوشانبه .

ويتصف اقتصادها المعاصر بالزراعة المكننة المتعددة الفروع ، والصناعة المتطورة وقامت لصناعة توليد الطاقة ، وقامت محطة نوريك الكهرمائية .

وطاجيكستان هي المنتجة الأساسية في الاتحاد السوفييتي للقطن الرفيع التيلة ، المادة الأولية المهمة للصناعة الخفيفة . وتحتل طاجيكستان المرتبة الثالثة في الاتحاد من حيث إنتاج القطن الخام .

وقد قامت في الجمهورية منظومات فريدة للري ، وأنشئت خزانات مائية ، وشبكة واسعة من قنوات الري والصرف تقي التربة من التملح ومن الغرق .

وغدت طاجيكستان بلد التعليم الشامل . أما قبل الثلاثينات ، على حد قول مؤسس الأدب الطاجيكي صدر الدين عيني ، فقد كان الناس المتعلمون والمثقفون نادرين كندرة الأشجار المثمرة في صحراء مالحة التربة . وتوجد الآن في طاجيكستان أكاديمية للعلوم يحل علماؤها قضايا الفيزياء الفلكية وعلم الزلازل والجيولوجيا والجيوفيزياء .

الثالث عشر : جمهورية أرمينيا

عاصمتها يريڤان . ومساحتها أقل بكثير من أية جمهورية متحدة أخرى ، أي زهاء ٣٠٠٠٠ كيلو متر مربع أي تعادل بلجيكا أو هولندا ، وعدد سكانها ٣,١٦٧ ملايين نسمة ، ويطلق على أرمينيا لقب

بلد الشمس والجبال ، لأن تسعة أعشار أراضيها تقع على ارتفاع يربو على ١٠٠٠ م فوق سطح البحر ، وبلد الصخور والعنب ، وبلد الأودية السبعة . وقد تحولت أرمينيا المعاصرة إلى بلد صناعي زراعي ذي صناعة عالية التطور تنتج الآلات الحاسبة الألكترونية والأجهزة ، وذي زراعة ممكننة .

وقد حددت خصائص الأحوال الطبيعية والاقتصادية الاتجاهات الأساسية في الزراعة الأرمينية ، ذلك لأن التضاريس الجبلية قد حدّت من رقعة المساحات الصالحة للزراعة ، ولهذا لا تتيح الامكانيات المتوفرة في الزراعة « سعة » أي استصلاح أراضي جديدة بل يتيح التطور « عمقاً » أي تكثيف الإنتاج الزراعي وزيادة المردود عن طريق أساليب الهندسة الزراعية وأعمال الاصطفاء .

ومما يلفت النظر تنية القاعدة الطاقية في أرمينيا التي تفتقر لموارد الوقود والطاقة افتقاراً كلياً تقريباً . ورغم ضآلة الموارد المائية فقد شكلت المحطات الكهرمائية التي بنيت على نهر أرمينيا ، وخاصة سلسلة محطات رازدان قاعدة أنجزت عملياً على أساسها كهربة الجمهورية كهربة تامة . وصارت ثروات الوقود في الجمهوريات المجاورة مصادر جديدة للطاقة في أرمينيا ، وهكذا بنيت المحطات الكهرمائية على نهر فوروتان والمحطة الكهرذرية الأرمينية ، ومجمع خامات الذهب في زود ، واوتوستراد يريفان - سيفان وغير ذلك .

الرابع عشر: جمهورية تركانيا

وقد تأسست في ٢٧ / ١٠ / ١٩٢٤ . مساحتها ٤٨٨١٠٠ كيلو متر مربع وعدد سكانها ٣ ملايين نسمة . عاصمتها **عشق آباد** ، وتركانيا بلد حضارة عريقة كانت تقوم فيها الزراعة المتطورة والمدن ، وفيها كانت تتلاقى طرق التجارة النشيطة في الأزمنة القديمة والقرون الوسطى ، والتي تربط الصين والهند بأوروبا الغربية وروسيا . وقد استهوت ثروات تركانيا ، من قديم الزمان ، الفاتحين ، وفيها مرت قوات ملوك فارس القديمة والاسكندر المقدوني إلى أن فتحها العرب ونشروا فيها دينهم واجتاحتها جحافل المغول بقيادة جنكيزخان كا دمرتها عام ١٣٩٧قوات تيمورلنك ودارت في هذه الأرض خلال عدة قرون رحى نضال ضار بين شاهات إيران وأمراء بخارى وخانات خيوه ، إلى أن اجتاحتها قوات القياصرة الروس في الربع الأخير من القرن الماضي وضمتها إلى الامبراطورية الروسية .

وتشغل صحراء قره كوم ، وهي من أكبر صحارى العالم ، قسماً كبيراً من أراضي الجمهورية ، ومع ذلك فإن تركانستان منطقة غنية ذات صناعة متطورة . وقد أنشأت مشاريع كبيرة لاستخراج الغاز وتكرير النفط . وعلى أساس من الصناعة المتنامية نشأت وكبرت مدن جديدة عصرية مثل نفط داغ ، وتشليكن ، وهما مركزان لصناعة استخراج البترول ، وبيرم علي وهي منطقة صناعة الغاز المتنامية وبزمين وهي مركز لصناعة مواد البناء .

وقد جعلت مكننة الزراعة ، وتغيير بنيتها بصورة عقلانية ، ولا سيا زيادة المساحات المزروعة

بالقطن ، أقول جعلت من تركانستان منطقة زراعة متقدمة وتربية للماشية ذات أهمية تشمل الاتحاد السوفييتي كله .

وفي هذه الجمهورية أكاديمية للعلوم التركانية والمدارس التركانية للرسم والنحت مما سمح بنهضة الشعب التركاني الثقافية .

الخامس عشر : جمهورية استونيا

وهي أبعد جمهوريات البلطيق الثلاث إلى الشمال . وتقع على ساحل بحر البلطيق بين خليج فنلندة وخليج ريغا . مساحتها ٤٥١٠٠ كيلومتر مربع ، وهي أقل جمهوريات الاتحاد السوفييتي سكاناً إذ لا تحوي سوى ١,٥ مليون نسمة . عاصمتها تالين . وفي استونيا ١١٥٠ بحيرة وخزان مائي و ٤٢٠ نهراً وأكثر من ١٥٠٠ جزيرة ولا غرابة فقد مرت من فوقها الزحوف الجمودية وتركت عليها بصماتها . وكان أجداد الاستونيين « القبائل الاوغرو ـ فينية » يتعاطون الصيد بنوعيه وتربية المواشي والزراعة ويتاجرون مع الليفيين والاسكندنياف ومع الجيران الشرقيين السلاف . وتشكلت هذه الجمهورية السوفييتية خلال الحرب العالمية الثانية في ٦ / ٨ / ١٩٤٠ .

وفي استونيا السابقة كان الاقتصاد يتسم بطابع ريفي وكان الإنتاج الصناعي لا يمثل سوى خمس المنتوج الإجمالي . أما الآن فإن سيما الجمهورية تحددها الصناعة التي يشكل منتوجها ثلثي الإنتاج الإجمالي .

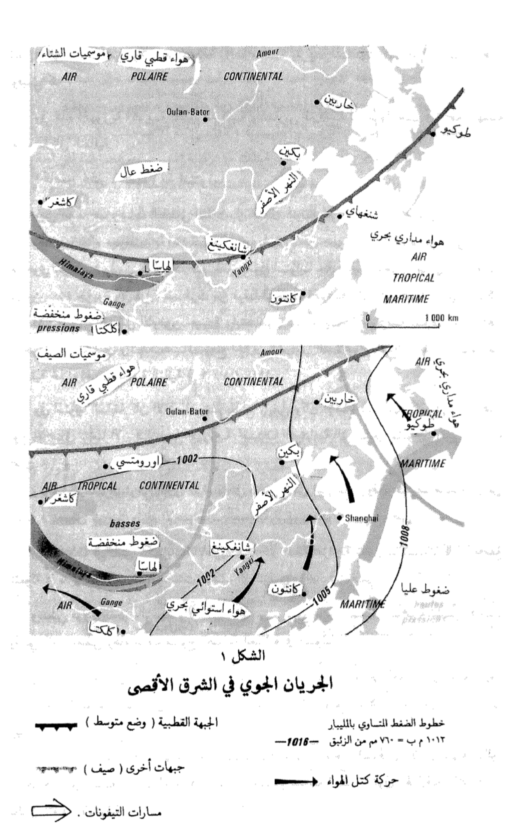
ويؤلف الشست البيتومي الثروة الرئيسية في باطن أرض استونيا . وقد اكتشف منذ أكثر من ٢٠٠ سنة في حوض كوختلا وتبلغ الاحتياطات الصناعية المنقب عنها ٦ مليارات طن .

وتعتبر محطة البلطيق الكهربائية الإقليمية هي أكبر محطة حرارية تعمل بالشيست كما أن مصنع كرينغوله في نارفا هي من أكبر مؤسسات الأقمشة القطنية في الاتحاد السوفييتي .

وتعطي فروع اللحم والزبدة والألبان ، التي تتسم ، مع فرع السمك ، بأهمية تشمل الاتحاد السوفييتي كله ، تعطي زهاء نصف منتوج الصناعة الغذائية في استونيا .

وقد حدد البحر من قديم الزمان ، إلى حد كبير ، نشاط الاستونيين العملي ، وينطلق اليوم صيادو السمك الاستونيون على سفن ـ برادات كبيرة لصيد السمك ، والتي تشكل أساس صيد السمك في استونيا .

وتعتبر جامعة الدولة في تارتو من أقدم مؤسسات التعليم في الاتحاد السوفييتي كما أن معهد تالين البوليتكنيكي أكبر مؤسسة للتعليم العالي في استونيا . وتبدو شعبية الغناء الجوقي الخارقة الأهمية من خصائص الثقافة الأستونية .



الشكل ١

الجريان الجوي في الشرق الأقصى

خطوط الضغط المتساوي بالمليبار
١٠١٢ م ب = ٧٦٠ مم من الزئبق —1016—

الجبهة القطبية (وضع متوسط)

جبهات أخرى (صيف)

حركة كتل الهواء

مسارات التيفونات .

الفصل الثالث

الشرق الأقصى

عملاقا آسيا : الصين واليابان

بيئة طبيعية متناقضة

يؤلف **الشرق الأقصى** الذي يكون على العموم معزولاً بالجبال المرتفعة وبصحراء الرمال وبالسهب أو بالغابة ، ولكنه ينفتح على المحيط الهادي ، أقول يؤلف **رقعة استيطانية ومدنيّة مدهشة بسبب استمراريتها وبوحدتها** . ويستطيع هذا الوضع الجغرافي أن يفسّر **مركزية الصينيين العنصرية** ، الذين يعتبرون بأن الصين كانت دائماً بلداً وسطاً « زهو نغ غوو » ، بيد أن المشاهد وأنماط الحياة لابد أن تكون متنوعة جداً فوق رقعة تغطي مساحة ١٢ مليون كيلو متر مربع .

فهضبة التيبت التي تتكئ على جبال هيالايا ، والتي يبلغ ارتفاعها الوسطي ٤٠٠٠ متراً ، تنتصب وكأنها « سقف العالم » الذي تنحدر عنه أنهار آسيا الشرقية والجنوبية الكبرى . وتهيمن على **درجة وسيطة من جعدات جبلية** ، متجمدة أو معرّاة ، وعلى **حوضات فسيحة** استطاع الريح أن يكدّس فيها كثباناً رملية في حوض تاريم وطبقات من اللوس ، كما في حوض النهر الأصفر « هوانغ هو » ، وذلك ضمن منخفضات مغلقة ، أو تنصرف مياهها نحو النهر المذكور . تلك هي **الصين العليا القارية** ذات الواحات والبداوة الرعوية ،

والتي كانت تدعى في الماضي الصين الخارجية ، بالمقابلة مع الصين البحتة ، أو الصين الامبراطورية ذات الأقاليم الثانية عشرة . **أما باتجاه المحيط الباسفيكي ؛ فلا نجد أي صحراء تفصل** النطاق المعتدل عن المناطق المدارية الرطبة . وقد نشأت **المدنية الصينية الزراعية القديمة** في المنطقة المعتدلة ، في بيئة مفتوحة مؤلفة من سهول لحقية خصيبة ، ومن تلال قليلة الغابات ، تحت تهديد الجفاف والفيضان بصورة دورية . وقامت المدنيّة المذكورة على **السيطرة على المياه والزراعة الحثيثة** ، وزراعة الذرة البيضاء صيفاً والقمح الشتوي ، مما يتطلب جهداً جماعياً واستمراراً ، مما كان له تأثيره على طرائق التفكير .

ولقد فرضت هذه المدنيّة المتفوقة ذاتها شيئاً فشيئاً ، وتبنّت زراعة الرز ، في بيئة جغرافية مختلفة من حيث التضريس والمناخ ، وذلك في الصين الجنوبية وڤيتنام وفي شبه جزيرة كوريا والأرخبيل الياباني .

ولقد سمحت الأمطار الموسمية الصيفية لزراعة الرز ، وهو أحد حبوب الهند ، والذي يتطلب الحر والرطوبة ، بأن يمتد من **الصين المدارية** ، وذلك قبل ٤٠٠٠ سنة إلى كوريا ومنها إلى **اليابان** . ولما كان حقل الرز يتطلب أشغال تمهيد الأرض وري ، فإنه يستدعي بالتالي وجود جماعات كثيفة من الفلاحين ، كما أن مردوده المرتفع وقيمته الغذائية العالية ؛ يسمح بوجود كثافات سكانية شديدة ، هذا ولاسيما إذا كان من الممكن الحصول على محصولين في العام بفضل الشتل والأنواع المبكرة من البذار في النصف الجنوبي من الصين ، وفي أقصى الجنوب من الأرخبيل الياباني .

وإجمالاً **فإن الشرق الأقصى ، وهو جزء من آسيا الموسمية ، يتصف بوجود شتاء جاف وبارد نسبياً وصيف مطير وحار** ، غير أن فصل الأمطار يكون طويلاً نسبياً ، هذا فضلاً عن أن بعض المناطق تتلقى أيضاً تهطالات شتوية كما في شمال غرب اليابان . بيد أن ارتصاف خطوط التضريس

من عرضية وطولية ، تجعل من الصين العليا ، مع ذلك ، ولاسيا فيا وراء النهر الأصفر ، منطقة قاحلة .

وتفسّر **المفارقات المطرية** ، أكثر من المفارقات الحرارية ، ذلك التوزع في **أنماط الحياة التقليدية** ، كزراعة الرز ، وزراعة الحبوب « الجافة » ، وتربية الماشية البدوية ، وزراعة الغوطات[1] .

☆ ☆ ☆

وتتعلق **آلية الموسميات في الشرق الأقصى** على الخصوص بالفارق الحراري بين الفصول ، أي بين كتلة الهواء القارية المفرطة البرودة في آسيا ، وبين هامشها البحري . ففي الشتاء يسود على منغوليا نطاق من ضغوط عالية ، ينساب منها هواء بارد وجاف ، وهي الموسميات الشتوية ، والتي تصل حتى خليج الطونكين . ولكن في حزيران ، يجتاح الهواء المداري ، الحار والرطب ، الصين الجنوبية ، حتى ليلامس منشوريا والأرخبيل الياباني ، الذي يخضع غالباً لهواء مداري بحري مترطب فوق المحيط الهادي . إذن نميز أحياناً موسميات صينية ذات أمطار صيفية غير منتظمة في الصين الشمالية ، وموسميات يابانية أكثر انتظاماً . ويزداد هذا المخطط الشديد البساطة تعقيداً بالاضطرابات الجبهية . ففي الشتاء تجلب المنخفضات الناجمة عن الجبهة القطبية بعض الأمطار إلى الصين الوسطى ، والثلوج إلى اليابان الشمالية الغربية ، كما تلطم التيفونات ، وهي سيكلونات مدارية ، سواحل الصين الجنوبية والسفح الشرقي من اليابان .

---

(١) وهي الواحات بلا نخيل .

النموذج الياباني والطريق الصيني

لقد اختار الشرق الأقصى في علاقاته مع بقية العالم **سياسة الانفتاح تارة أو الانغلاق** تارة أخرى ، وذلك حسب صروف التاريخ . فقد كان على علاقة مع الهند والمشرق العربي ومع سهوب أوروبا الشرقية والبحر الأبيض المتوسط ، بواسطة الطرق البحرية عبر المضائق الماليزية ، أو بواسطة دروب قوافل آسيا الوسطى مثل « طريق الحرير وطريق الشاي » . ويدين العديد من الاختراعات كالورق والبارود والبوصلة بنشوئها وبانتشارها إلى هذه المبادلات التي كانت كثيفة على الخصوص بين القرن الثالث عشر والسادس عشر . ولكن بعد أوائل الاتصالات مع الملاحين والمبشّرين الغربيين القساة ، تقوقعت كل من الصين في عهد الأسرة المنشورية ، واليابان في عهد الشوغون ، على نفسيهما خلال قرنين كاملين من الزمن .

وفي وسط القرن التاسع عشر لم يكن رد فعل اليابانيين والصينيين واحداً تجاه الدول الأوروبية العظمى والولايات المتحدة التي كانت تبحث عن الأسواق . وجاء **عصر الميجي « عصر النور » عام ١٨٦٨ ، ليدخل اليابان في طريق التحديث** ، على غرار أوروبا ، ثم الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٣٩ كانت صناعة اليابان تعادل صناعة فرنسا ، وأصبح « لليابان الكبرى » مستعمرات واسعة ، ظلت تستغل خيراتها حتى عام ١٩٤٥ .

وما إن تحررت من قيود هزيمتها بموجب معاهدة سان فرانسيسكو عام ١٩٥١ ، حتى استطاعت اليابان الجديدة ، رائدة الرأسمالية الليبيرالية ، أن تصبح

في العيد المئوي للميجي **ثالث قوة اقتصادية في العالم** . وأول دولة في التكنولوجيا وفي عدد المهندسين ، بالنسبة للسكان وأكثر الدول استعمالاً للإنسان الآلي robot إذ كانت في عام ١٩٨٢ تملك نصف هذا النوع من الآلات في العالم . **وللنموذج الياباني** أنصاره . ففي تايوان وفي كوريا الجنوبية عملت المساعدات الأمريكية والاستثمارات اليابانية على تعجيل التنمية الصناعية ، فقامت الصناعات الخفيفة ، ثم تلتها مركبّات بحرية للصناعات الثقيلة ، على غرار اليابان . وفي خلال بضعة أعوام ، استطاعت مجموعة هيونداي الكورية أن تفرض نفسها في الأسواق العالمية حسب الطريقة اليابانية[1] ، وأصبحت سيارات كوريا الجنوبية معروفة بجودتها في العديد من الأقطار .

أما الصين التي كان مجتمعها الزراعي والعسكري يمقت التجديدات التقنية ، فقد ظلت تتخبط خلال قرن كامل في الفوضى والبؤس وذل « المعاهدات غير المتكافئة » . ومنذ « تحريرها » في عام ١٩٤٩ ، أعيد تكوين السلطة المركزية التي أعلنت عن نشوء **« الصين الثورة »** بعد قياس مدى التأخر الاقتصادي ، وأبعاد البلاد ، والتضخم الديموغرافي ، وذلك ضمن تجربة **تنظيم اجتماعي اقتصادي** مستوحاة في البداية من السوفيات ، ثم أصبحت ذات أصالة كلية .

وقد كان لهذا « الطريق الصيني » أزماته الحادة كالقفزة الكبرى للأمام بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ ، والثورة الثقافية بين ١٩٦٦ و ١٩٦٩ . واستناداً إلى استراتيجية تنمية اقتصادية قائمة على المساواة المطلقة والمواضعة على الجهد الجماعي ، وكان الطريق الصيني يرمي إلى إرساء قواعد إنسان جديد ، متضامن ، متعدد الكفاءات ، متفانٍ ، أو حسب فكرة **ماوتسي تونغ** ، هو « أحمر وخبير » في

---

(١) لقد عمدت كوريا منذ ١٩٤٦ إلى تحويل ٩٠٪ من المدارس الثانوية إلى معاهد مهنية تكنولوجية بصورة تدريجية ، وهكذا تحول شعبها من أمة كلام إلى أمة عمل ومهارة ، حتى أن عدد العمال المؤهلين الكوريين وصل إلى رقم ٩٠٠٠٠ في أقطار الخليج العربي خلال عام ١٩٨٠ والمكلفين بتنفيذ المشاريع الكبرى .

الوقت ذاتـه . ولكن بعـد عهـد مـاوتسي تونغ تـأكـد الفشل الجزئي على الأقـل ، سواء في تغيير العقليات ، مثلما كان في النتـائج الاقتصـاديـة . وهنـا رجحت آراء الـواقعيين على العقـائـديين : وتبيّن أن رصيـد مليـار صيني من النـاتـج القـومي لا يتجـاوز نـاتج ٥٣ مليون فرنسي ، الـذي يقـل عـددهم عن الصينيين بمقـدار ١٨ مرة ، أو أن مستوى الفرد الفرنسي الواحد أعلى بمعدل ١٨ مرة من مستوى المواطن الصيني .

ومنذ ١٩٧٦ استعاضت عن « الاعتماد على قواها الذاتية » بسياسـة اقتصـاديـة تقبـل العـون المـالي والتقني من الـدول الأجنبيـة ، ولاسيما من جـارتهـا ، ورائـدة شعوب آسيا في معارج الحضـارة ، وهي اليـابـان ، التي تقـدم العون التكنولوجي للاتحـاد الـسوفيـاتي في استغلال ثروات سيبريـا والتكنولوجيـا الحربيـة للولايـات المتحدة في أواخر ١٩٨٢ .

☆ ☆ ☆

الامبريالية اليابانية

لقد استولت اليابان في عام ١٨٧٦ على جزر كوريل وريوكيو « اوكيناوا » . وفي ١٨٩٥ انتزعت جريرة فورموزا « تايوان » من الصين ، وفرضت حمايتها على كوريا ، ثم ضمتها نهـائيـاً في ١٩١٠ . وفي أعقـاب الحرب الروسيـة اليـابـانيـة التي دمرت فيهـا الأسطـول الروسي في معركـة تسوشيا بتـاريـخ ٢٧ / ٥ / ١٩٠٥ ، استحـوذت على النصف الجنـوبي من جـزيرة سـاخـالين ، مـع مينـاء بـورت آرثر ، ومنطقة نفوذ في منشوريا ، التي أصبح اسمها في عام ١٩٣٤ منشوكوو ، وأصبحت امبراطوريـة تـدور في فلك اليابـان ، التي نـالت حق الانتـداب من جمعيـة الأمم على الممتلكات الألمـانيـة السـابقـة.في المحيـط المادي . ولكن لما رغبت في الاستحواذ على الصين وجنوب شرق آسيـا وإدخـالها في « نطـاق الازدهـار المشترك » ، خسرت اليابان نهائياً كل هذه الملحقات باستثنـاء جزر ريوكيو التي ردّهـا الأمريكيون في عام ١٩٧٢ .

☆ ☆ ☆

الصين

تضريس على شكل درجات

تمتد أرض جمهورية الصين الشعبية على رقعة تبلغ مساحتها ٩,٦ ملايين كيلومتر مربع ، أو ما يعادل عشرة أضعاف مساحة مصر . ويتألف ثلثا هذه المساحة من جبال أو من هضاب ينوف ارتفاعها عن ١٠٠٠ م . في حين لا تمثل **السهول المنخفضة أكثر من عشر** هذه البلاد . فهناك **الصين العليا في الغرب** ، ذات الملامح المورفولوجية والمناخية العائدة لآسيا الوسطى ، والتي تتنافر مع **الصين الشرقية** ، أو **صين الموسميات** . فمن ناحية نجد أراضي مرتفعة وأحواضاً ذات آفاق واسعة متجانسة ، ومن ناحية أخرى منطقة مجزأة ، مؤلفة من جبال ومن أودية ومن سهول لحقية (إطمائية) كبيرة .

وتتألف **التيبت** ، التي تحوم ارتفاعاتها الوسطى حول ٤٠٠٠ م ، من تعاقب منخفضات وسلاسل ضيقة ، ترتفع السلسلة الجنوبية منها ، وهي هيالايا إلى ٨٨٨٢ متراً ، والتي تشرف على أخدود يجري فيه ، في اتجاه معاكس ، المجاري العليا لنهري الهندوس وبراهما بوترا . ونجد في الشرق حزمة جبلية ملتوية ، ذات اتجاه طولاني ترتفع إلى ٧٥٩٠ م ، وحيث تعمل خوانق نهري الميكونغ ويانغزي على عزل المعقل التيبتي . وتقوم في الشمال سلسلة مقوّسة على مثل الارتفاع المذكور تسمو إلى ٧٧٢٤ م تفصل التيبت عن إقليم سينجيانغ (التركستان الصينية) وعن منغوليا .

ويتـألف حوض **سينجيـانـغ** (التركستـان) من حـوضـات ذات كثبـان وسبخات ملحية ، تهبط أحياناً لما دون مستوى البحـار ، كحوض تورفـان الـذي يهبـط إلى – ١٥٤ م ، بيـد أن جبـال تيـانشـان القـديـمـة التي نهضت إلى ٧١٣٩ م تنتصب بين حوض تاريم وظنغاريا ، والتي تتصل بالصين بواسطة ممر غانسو .

وتمتـد **منغوليـا الـداخليـة** على الهوامش الجنوبيـة لصحراء غـوبي ، حيث يرسم النهر الأصفر (هـوانغهـه) عقفتــه الكبرى ، وهي عبــارة عن شبــه سهـل Pénéphine متبلور الصخور ، ينهض في اتجاه منشوريا .

وبين هذه الحـافـة الصلعـاء ، المؤلفـة من جبـال **خينغـان** والكتل الجبليـة الغابيّة ، التي كثيراً ما تتعمّم بالثلوج شتاءً ، والتي تؤلف التخوم الكوريـة ، والتي ترتفع إلى ٢٧٤٤ متراً ، يمتد **السهل المنشوري** ، أو هيلونغيانغ .

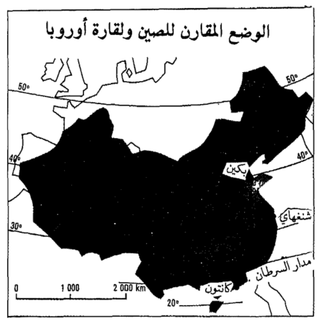
وتقوم شبه جزيرة ليادونغ وشبه جزيرة شاندونغ المتقـابلتـان ، والمتصفتـان بكثرة تضاريسها ، وبخلجانها العميقة ، تقومان بـإغلاق بحر پوهي Pohai ، وهو البقية الباقيـة من خليج كان أكثر اتسـاعـاً في القـديم . وقـامت **لحقيـات النهر الأصفر** المتراكمـة **بتشكيل السهل الكبير** الـذي يحـدّه جرف من الغرب . وإلى الغرب منـه تمتـد **هضـاب اللوس** Loess ، وهي توضّعـات نهريـة ريحيـة تحجب تفـاصيـل التضريس المـدفـون ، ولكنهـا تكـون محـزّزة بمسيلات ذات جـوانب عمودية . وإلى الجوانب يمتـد حـاجز كينلينغ الجبلي ، الـذي يرتفع إلى ٤١٦٦ م ، والذي ينخفض كي يسمح للسهل الكبير بالاتصال بممر اليانغزي اللحقي .

ويجري نهر **يانغزيجيانغ** تارة في حوضـات ، حيث تقوم البحيرات بتنظيم صبيبـه ، إذ تردّ لـه في مـوسم الشـح الشتـوي بعض الميــاه التي تختزنهـا في فصـل الفيضـان الصيفي ، وتـارة في **خوانق وحشيـة** . ويقوم بحـزّ مجراه في **حـوض سيشوان الأحمر** ، الذي اشتق اسمـه من لون الصخور الرمليـة التي حوّلهـا الحت

إلى تلال . والواقع تظهر كل **الصين الجنوبية** بالفعل ، على شكل متاهات من **سلاسل جبلية صغيرة ومن منخفضات** ، مع ساحل ذي جروف وشديد التحزّز باستثناء دلتا نهر كسيجيانغ ، الذي يصب عند كانتون . ولقد استطاع الكارست المداري في منطقة غوانغسي ، والناتج عن تحلّل شديد في الصخور الكلسية ، أن يقدم مشهداً غريباً مؤلفاً من أبراج صخرية ومن سهول صغيرة رطبة ، مشهداً يتكئ على مائدة منبسطة أكثر ارتفاعاً ، هي هضاب يونّان .

☆ ☆ ☆

تمتد الصين من الشرق إلى الغرب على مسافة ٥٠٠٠ كيلومتر ، أي تعادل المسافة بين لشبونة واستراخان عند مصب نهر الفولغا ، أو ما يعادل خمس حزم ساعيّة . وتعادل المسافة بين نهر آمور (هيلونغيانغ) ، الواقع على درجة العرض ٥٤ وبين خليج طونكين ، الواقع فيا وراء مدار السرطان ، البعد بين موسكو والخرطوم أو ٤٠٠٠ كم . وبالموازنة مع أوروبا تبدو الصين مزحزحة نحو الجنوب ، ولهذا يكون وضعها الجغرافي أكثر شبهاً بوضع الولايات المتحدة ، وعند تساوي درجات العرض فإن لشرقي الصين وشرقي الولايات المتحدة صفات مناخية متشابهة إلى حد كبير (شكل ٢) .



الشكل ٢

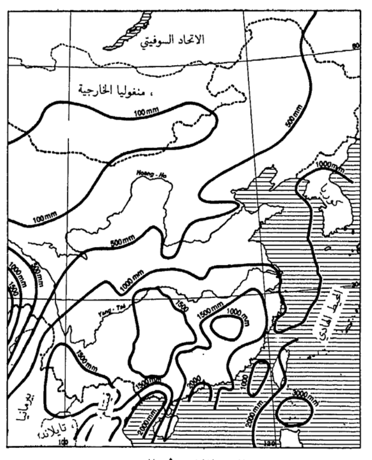
الصين : أرض النكبات الطبيعية

تزخر الحوليات الصينية بأخبار الكوارث القتالة : فالزلازل تصيب سائر البلاد المتصفة بشدة فقرها للاستقرار التكتوني : مثل إقليم يونّان ، التيبت ، سينجيانغ ، غانسو ، هضاب اللوس أو السهل الكبير ، حيث وقع آخر زلزال في عام ١٩٧٦ وأودى بحياة ربع مليون نسمة في المنطقة الواقعة بين العاصمة والبحر . غير أن الخطر يصدر على الغالب من **نزوات المناخ ، التي تسبب سنوات القحط أو الفيضانات .**

ويكون عدم انتظام المناخ ، الطابع المميز للصين الموسمية . أما **الصين العليا** فتتصف بشدة الفروق الحرارية ، اليومية والفصلية ، ففي طرفان يكون متوسط كانون الثاني – ١٠° ومتوسط تموز ٣٣° ، **ولكن تسود قحولة ثابتة ، لأن كاشغر لا تنال** وسطياً أكثر من **٥٥ مم** من المطر .

ويسود على الصين الشمالية مناخ قاري ذو شتاء بارد ، وحتى قارس جداً في منشوريا . فيهبط متوسط حرارة شهر كانون الثاني في خاربين إلى – ٢٠° ، في حين يكون **الصيف حاراً** . ففي بكين يستمر الانجماد الربيعي في كل مرة تهب فيها رياح الشمال الغربي القادمة من منغوليا المحمّلة بغبار اللوس . **ويكون هذا الفصل البارد هو الفصل الجاف أيضاً** : فبين تشرين الأول وأيار لا تتلقّى مدينة تيانجين ، وهي ميناء بكين ، سوى ٨٩ مم من مجموع مقداره ٥١٦ مم . غير أن **أمطار الموسميات الصيفية تكون شديدة التبدل** بين عام وآخر .

وإذا كان معدل الأمطار السنوية في بكين هو ٦٣٠ مم ، فقـد أمكن تسجيل حد أدنى هو ١٦٨ مم وحـد أقصى ١٠٨٦ مم ، أي اختلاف بنسبـة ١ إلى ٦ . وربمـا تؤدي فروق أقل إلى تلف المـوسم الـزراعي . ففي السهـل الكبير تسكب الأمطـار الموسميـة عـادة ٦٠ مم في شهر حزيران ، حيث تتم الحراثـات الصيفيـة ، ولكن في خلال عشر سنوات ، وُجد أن هناك أربعـة أعوام شـديـدة الجفـاف ، أي أقل من ٤٠ مم ، واثنين مفرطي الرطوبة ، أي أكثر من ٢٠٠ مم ، وعندهـا تتـأخر أعمـال الحراثة ويضيع المحصول (شكل ٣) .



التهطالات في الصين

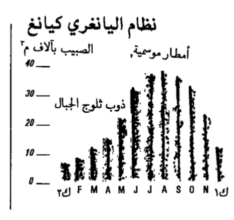
الشكل ٣

ويكون السهل الكبير أيضاً واقعاً تحت تهديد النهر الأصفر ، الذي شيّده من وحوله الخصيبة . والواقع يكون نهر الهوانغهه نهراً غريب الأطوار ، فيكون صبيبه المتوسط ضئيلاً والشح الشتوي شديداً ، بعد أن يقوم بانعطافه الطويل في منغوليا . ولما كان هذا النهر يتصف بشدة حولته التي تبلغ ٣٤ كغم في المتر المكعب . فقد استطاع أن يبني عند مصبه في السهل مخروطاً ، يجنح النهر إلى التأرجح فوق خاصرتيه : فبعد أن غيّر مصبه مبتعداً بمقدار ٨٠٠ كم في عام ١١٩٤ ، عاد فاحتل سريره القديم في سنة ١٨٥٣ . ويكون **(النهر الهوائي)** المرفوع **فوق عصيبة لحقية ، محفوفاً بحواجب تنهار أحياناً أمام فيضان شهر آب** . وكانت أول مهمة أمام السلطة الثورية هي إصلاح هذه الحواجب .

أما الصين الجنوبية فتحظى بمناخ شبه مداري ذي فصول شتاء لطيفة وأمطار أكثر سخاء وانتظاماً . فإذا كانت شنغهاي تتعرض لبعض موجات البرد ، لأن متوسط كانون الثاني فيها ٣,٣° ، فإن الفصل الإنباتي يتجاوز الأحد عشر شهراً في الحوض الأحمر . كما تجهل مدينة غواندونغ الواقعة في جنوب غرب كانتون الانجماد . وهنا **ينطبق فصل الأمطار على الموسميات الصيفية** ، ولكنه يتمدد **بالتيفونات** ، التي كثيراً ما تلطم سواحل مضيق فورموزا . وفي كانتون تتلقى أربعة أشهر صيفية أكثر من ٢٠٠ مم ، بين أيار وآب ، وأربعة أشهر أخرى أكثر من ٨٠ مم . ولكن الاضطرابات الجوية الناجمة عن انتقال الجبهة القطبية ، تجلب أيضاً بعض **الزخات الشتوية** ولا سيا في **الوادي الأدنى** لنهر اليانغزي (شنغهاي) .

☆ ☆ ☆

نظام نهر **يانغزجيانغ** : يتميز نهر يانغزي بصبيب وفير ونظام منسجم . فعند مصبّه ، وبعد أن يقطع مسافة ٥٦٠٠ كم ، يصب وسطياً ٢٩٠٠٠ م٣ / ثا ، أو أكثر غزارة من الفرات بمقدار ٣٨ مرة ، وأكثر من النيل باثنتي عشرة مرة . ويكون فيضان الصيف الواقع بين تموز وأيلول مخفّضاً بسبب انسكاب الكثير من المياه في البحيرات الكبرى المنظمة ، وفوق ٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع من الأراضي المنخفضة على طرفي مدينة ووهان . ولكن يظل انقطاع السدود الجانبية مع ذلك ، كما حدث في ١٩٣١ تهديداً مصلتاً فوق رقعة تمتد على ١٢٠٠٠٠ كيلومتر مربع وسهول غاصة بالسكان (شكل ٤) .



الشكل ٤



المنحنيات المطرية الحرارية في ست محطات صينية : تدل الأعمدة في مثل هذه المنحنيات على ارتفاع التهطالات الشهرية . أما المنحنى فيدل على الحرارات الوسطى الشهرية . ويندر أن تنطبق هذه القيم على الحقيقة ، بسبب شدة الاختلاف في الحرارة بين السنين ولا سيا بالنسبة لكية التهطالات (شكل ٧) .

وإذا حسبنا مجموع درجات الحرارة للأيام التي يكون معدلها الحراري أكثر من ١٠ ، أمكننا أن نميز في الصين خمسة مجالات مناخية كبرى :

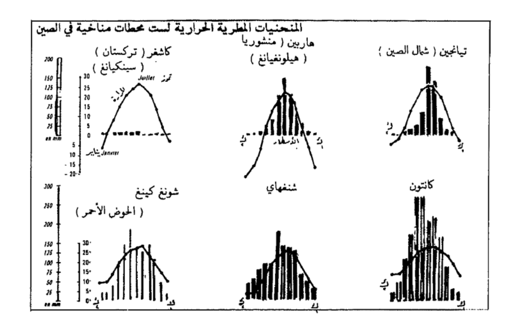
ـ فعندما يكون المجموع السنوي بين ٩٥٠٠ و ٨٠٠٠ درجة حرارة سنتغراد فهذا نطاق مداري محدود بالجنوب الأقصى .

ـ وعندما تتراوح بين ٨٠٠٠ و ٤٥٠٠ درجة حرارة مئوية في الصين شبه المدارية حيث لا تمنع حوادث الانجماد الشتوي النبات ذا الأوراق الدائمة فوق الترب المغسولة الحمراء .

ـ أما المناخ المعتدل الدافئ ، ومثاله مدينة تيانجين ، فيتراوح المجموع الحراري فيه بين ٤٥٠٠° و ٣٢٠٠° درجة ، وهنا يكون الشتاء بارداً والصيف حاراً . ويتألف النبات الطبيعي من غابة أشجار ذات أوراق نفضية أو من أشجار مخروطية ، أو مروج فوق ترب سمراء فاتحة ، معتدلة أو قلوية .

ـ وعندما يكون المجموع بين ٣٢٠٠ و ١٧٠٠ فالمناخ معتدل بارد ، ذو شتاء شديد البرودة ، ولكن يظل الصيف حاراً يسمح بقيام المزروعات ويكون المشهد النباتي متناسباً مع مقادير التهطال ، فإما أن يكون غابة شمالية من راتنجيات (طايغا) أو سهب أو صحراء .

ـ وعندما ينخفض المجموع عن ١٧٠٠ درجة فالمناخ قطبي . ففوق ترب متجمدة مدة تقارب نصف السنة ، كما في شمال منشوريا والتيبت لا تكون هناك زراعة ممكنة .



الشكل ٥

الصين : إحصاء عسير

لقد انقضى حين طويل من الدهر دون أن يجري تعداد الجماهير الصينية اللهم ، إلا بصورة تقريبية ، كاستهلاك الملح ، والرسائل المنقولة ، والعائلات المكلفة بدفع الضرائب . ولكن كان من المتفق عليه منذ ٢٠٠٠ عام بأن الصين تؤوي إجمالاً **ربع بني الإنسان** ، وبعد أن كان عدد الصينيين ستين مليوناً حتى القرن الثاني عشر ، بلغ ١٢٠ مليوناً في أواسط القرن السابع عشر ، بفضل انتشار نوع جديد من الرز المبكر ، سمح بجني محصولين في العام في جنوب البلاد . وبعد ورود مصادر أقوات جديدة ، قادمة من أمريكا ، كالذرة الصفراء والبطاطا الحلوة ، تضاعف **عدد السكان** بين ١٧٥٠ و ١٨٥٠ **كي يبلغ ٤٥٠ مليوناً** . وقبل ظهور مالتوس بخمسة أعوام ، أبدى أحد المثقفين الكبار تخوفه من هذا الرقم[1] .

ولقد حدثت **ثورة ديموغرافية** كما في أوروبا ، ولكن دون **ثورة صناعية** ، مما أدى إلى اكتظاظ السكان ، وكان قتل الأطفال شائعاً ، ونسبة الوفيات عالية ، واستفحال الكوارث الطبيعية ، والتدخلات الأجنبية ، والحروب الأهلية ، **مما يدفعنا للافتراض بحدوث ركود عددي في عام ١٩٤٩** .

وكانت نتائج **أول إحصاء** جرى في عام ١٩٥٣ باعثة على الدهشة . إذ كان في الصين القارية ٥٨٣ مليوناً من السكان ، ورقماً مدوّراً بلغ ٦٠٠ مليون إذا حسبنا معهم سكان الصين الوطنية في تايوان ، و « الجاليات الصينية » فيما وراء

---

(١) كان نابوليون الأول يقول : الصين جبار نائم ، ويل للعالم إذا استيقظ .

البحار ، وهو رقم مقبول من الجميع . وتستند التقديرات التالية دوماً على هذا الإحصاء . **ولكن الوضع الديموغرافي تطور بعد هذا التاريخ .**

ذلك أن التعليمات المشدّدة التي فرضها النظام ، واستئصال شأفة « الآفات الأربع »وهي الذباب ، والبعوض ، والبراغيث والجرذان ، وحملات التلقيح والتطهير قد عملت جميعاً على تحديد الأمراض المستوطنة كالبرداء والجائحات . وقد انخفضت **نسبة الوفيات** إلى ٨ بالألف ، ولا سيا وفيات الأطفال التي هبطت إلى ٦٥ بالألف ، أي نصف نسبتها الوسطية في العالم العربي ، كما أن الأجل المتوسط بلغ ٦٥ سنة . **غير أن تخفيض نسبة الولادات كان أكثر صعوبة** ، ذلك أن التقلبات الايديولوجية كانت تؤثر على السياسة الديموغرافية . وقد كانت حملة **تحديد التوالد** ، التي بدأت في ١٩٥٦ ، والتي نشطت من جديد في ١٩٦٢ ثم في ١٩٦٩ كانت تستهدف تحديد النمو السكاني بمقدار ١٪ في المدن و ٢٪ في الأرياف . وكانت في **البداية محرِّضة توصي بالعفّة وبالزواج المتأخر** . كما أن الإجهاض وتعقيم الذكور كان من الأمور الشائعة ، غير أن **منع الحمل** ، كما في تايوان ، وهونغ كونغ أو سنغافورة ، وهي أيضاً مأهولة بصينيين ، هي **التي تستطيع تفسير الانخفاض الحالي الواضح في الولادات** . ومع ذلك تبدو النسبة الرسمية وهي **٢٠ بالألف منخفضة جداً .**

ومنذ ٢٥ سنة ، ومع نسبة تزايد طبيعي سنوي متوسط تعادل ٢ بالمئة ، أي أن هناك تزايداً سنوياً يتراوح بين ١٢ و ١٧ مليون نسمة ، فمعنى ذلك أن عدد الصينيين سيكون بحدود ٩٦٦ مليون في ١٩٧٧ أو مليار كي يبلغ ١٠٤٠ مليون في نهاية ١٩٨٢ . مما حدا بالحكومة الصينية إلى التدخل رسمياً في السياسة الديموغرافية ، والسماح للأسرة بولدين فقط ، ولكن مع تفضيل الولد الواحد ، ذكراً كان أو أنثى ، وفرضت عقوبات مادية على الزوجين اللذين ينجبان أكثر من ولدين .

السن الأدنى للزواج

	شبان	بنات
حسب قانون ١٩٥٠	٢٠ سنة	١٨ سنة
مع التوصية :		
في الأرياف	٢٥ سنة	٢٣ سنة
في المدن	٢٧ سنة	٢٥ سنة

وهناك بعض العوامل المشجعة على **الزواج المتأخر** ، وبالتالي على انخفاض الخصوبة ، تستطيع أن تلعب دورها أيضاً : مثل شدة الضغط الاجتماعي ، ارتفاع المستوى الثقافي ، تحسين وضع المرأة ، ولا سيا مساهمتهن في النشاط الاقتصادي . وفي تايوان ، وفي سنغافورة ، حيث يكون السكان من الصينيين ، تكون الظاهرة مماثلة ، وعفوية أكثر ، وقد ساهمت بمقدار الثلث في انخفاض نسبة المواليد المحسوسة جداً في خلال ١٥ عاماً فقط .

الأوضاع الديموغرافية الرسمية أو التقديرية
بالنسبة لكل ألف مواطن

	١٩٥٣	١٩٥٧	١٩٦٨	١٩٧٨
نسبة التوالد	٣٧	٣٤	٣٣	٢٠
نسبة الوفيات	١٧	١١	١٠	٨
النمو الطبيعي	٢٠	٢٣	٢٣	١٢

هرم الأعمار لسكان الصين حسب إحصاء ١٩٥٣

على الرغم من أن الأرقام الإجمالية تبدو مقبولة ، فإن إحصاء عام ١٩٥٣ أصبح مدعاة للشك . فالمناطق الهامشية ، ذات الأقليات القومية ، اكتفت بتقديرات إدارية ، إذ يمكن تفسير القلة الواضحة جداً في جنس الإناث بين ٥ ـ ٣٠ سنة بممارسة قتل الأبناء قبل ١٩٤٩ .

عناصر هرم الأعمار

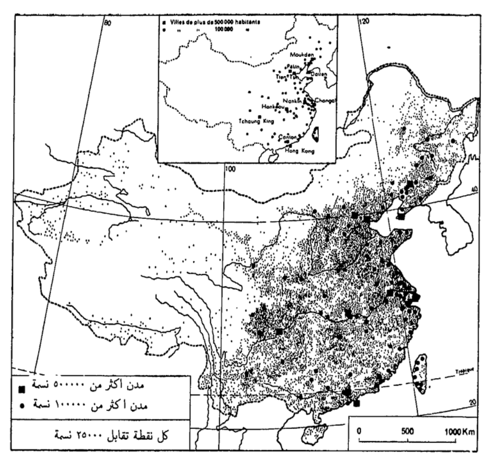
النسبة المئوية	دون ١٥ سنة	أكثر من ٦٥ سنة
في ١٩٥٣ حسب الإحصاء	٣٥,٩	٤,٤
حسب ديموغرافي أمريكي	٣٩	٣
في ١٩٧٨ (إحصاء الأمم المتحدة)	٣٥	٥

الصين : تفاوت الإعمار السكاني

يحمل المشهد الصيني التأثير البشري بصورة عميقة ، وذلك على الأقل في « الصين القديمة » ، التي تضم ١٨ إقليماً « مقاطعة » ، والتي طوّرتها أجيال متعاقبة من الفلاحين ، لأن الطبيعة تسترد حقوقها عند الاقتراب من الصحارى والجبال في « الصين الخارجية » . ويكون **توزع الإعمار السكاني شديد التباين** . فإذا كانت **الكثافة الوسطى تعادل ١٠٨ نسمة في الكيلو متر المربع** ، فإن الحدود القصوى تتراوح فيها بين ١ و ١٠٠٠ ، وهكذا لا يعيش في النصف الغربي من البلاد سوى ٦٪ **من السكان** .

أما **أكثر المناطق سكاناً** فهي **السهل الأصفر الكبير ، وشبه جزيرة شاندونغ ، وسهل اليانغزي الأسفل والأوسط ، والحوض الأحمر في سيشوان . ويضم إقليم شاندونغ ٦٥ مليون نسمة على مساحة ١٥٠٠٠٠ كيلو متر مربع** ، مثلما يحوي إقليم سيشوان ٩٠ مليون فوق رقعة تعادل مساحة فرنسا ، أو أكثر بقليل من نصف مليون كيلو متر مربع . وتكون الكثافات مرتفعة **في الصين الجنوبية** ، وذلك في مناطق زراعة الرز كالدلتات وقيعان الأودية ، ولا تكون التلال المعرّاة من غاباتها بأقل كثافة بكثير وذلك بفضل زراعة شجيرات الشاي . بيد أن الجبال قد أخلاها الفلاحون الصينيون لأقوام مطرودة مؤلفة من رعاة أو فلاحين يمارسون زراعة متنقلة (شكل ٦) .

أما السواحل الجنوبية فقد كانت مصدر هجرة لما وراء البحار . فمنذ عام ١٨٥٠ كان الآنكلوسكسون يحشدون في كانتون طوابير الشغّيلة للعمل في مزارع المطاط في أوقيانوسيا وفي مد الخطوط الحديدية العابرة لأمريكا . ولكن



كثافة سكان الصين

الشكل ٦

التيار الرئيسي هو الذي اتجه **نحو آسيا الجنوبية الشرقية** . وبعد عدة موجات من المهاجرين إلى **تايوان** ، وآخرها كانت في عام ١٩٤٩ ، أصبحت تايوان « فورموزا سابقاً » صينية تماماً تقريباً . كما أن مستعمرة **هونغ كونغ** البريطانية تضم أكثر من أربعة ملايين ، وُلد ٥٨٪ منهم في الصين القارية . أما في سنغافورة فيؤلفون ثلاثة أرباع السكان . ويتألف الصينيون في المهجر من مزارعين وصيادين أو عمال مناجم ، ولا سيا من تجار ، لا مثيل لنجاحهم الاقتصادي ، ولكن يظل تماسكهم الاجتماعي والثقافي حقيقياً . ولكن إذا كان

لا زال بعض الصينيين يهاجرون دوماً عن طريق هونغ كونغ ، فإن هناك صينيين يعودون للوطن على أثر طردهم ، نتيجة حركات **معادية للأجانب** ، كما في أندونيسيا وفيتنام ، وهكذا تستقبل الصين بعض مغتربيها .

ولقد وجدت **الصين الشمالية متنفّساً** لها في السهوب التي تحتاج إلى الاستزراع **فيما وراء سور الصين الكبير** . ففي خلال العشرينات استقر الكثير من المعمّرين في وادي هوانغهه الأوسط الصالح للري ، أو سكنوا في **منشوريا** (هيلونغيانغ) . وقد بلغ عدد هؤلاء الآن ٩٠ أو ١٠٠ مليون في المدن ، وفوق رقعة من سهول خصيبة تمتد على مساحة تبلغ ٣٥٠٠٠٠ كم٢ . وبعد أن جرى تقسيم منشوريا إلى ثلاثة أقاليم ، خسرت اسمها السابق ، وأصبح اسمها **دونغبيه** أي الشمال الشرقي .

أما في **منغوليا الداخلية** فإن عدد الصينيين ارتفع إلى ٩ ملايين أو ضعف عددهم في ١٩٥٣ ، إلى جانب مليون واحد من المنغول البدو . وبعد الفراغ من بناء الخط الحديدي الجديد في اتجاه الشمال الغربي ، وصل بضعة ملايين من الروّاد إلى إقليم تركستان الصينية أو **سينجيانغ** ، وأصبح الصينيون يؤلفون ٤٠٪ ، بعد أن كانوا لا يزيدون عن ١٥٪ قبل ثلاثين عاماً . وهكذا تعمل إعادة توزيع الإعمار السكاني على تخفيف الخناق عن « الصين القديمة » .

غير أن هذا الاستعمار الحقيقي للرقعة الصينية ؛ لا يجري بالضرورة دون نزاعات مع الأقليات القومية ، أو امتعاضها المكبوت على الأقل ، والتي تخشى على نفسها من الغمر .

☆ ☆ ☆

لقد تزايد **سكان الصين** بالموازنة مع عام ١٩٥٣ من حيث العدد ، وذلك على الأقل بمعدل ٥٠٪ ، في حين أن بعض الانتشار السكاني المنظم أو العفوي ، يتم باتجاه الشمال الغربي والشمال الشرقي . ولكن يبدو من المحتمل أن التوزع الجغرافي للسكان يظل منسجماً إلى حدّ ما مع هذه **الخارطة** ، مع

وجود أهم الكثافات السكانية في السهل الكبير والحوض الأحمر ، ووادي اليانغزيه وسواحل الصين الجنوبية .

ويظل التنافر في **توزع السكان** بين « الصين القديمة » الشرقية ، مجال الزراعة المستقرة القائمة على الماء وبين الصين الغربية ، المنصرفة نحو البداوة الرعوية ، باستثناء بعض الغوطات المروية . فقد جرى تقسيم إقليم سيشوان الشديد التباين ، بين الحوض الأحمر وجبال التخوم التيبيتية . وقد أمكن دمج منشوريا ، وهي المنطقة الوحيدة من « الصين الخارجية » ، التي أمكن دمجها مع الصين القديمة بعد قرن من الاستعمار وذلك في **نصفها الجنوبي** ، على الأقل .

☆ ☆ ☆

استناداً إلى دراسة قام بها (جنتل) في عام ١٩٧٤ ، في كتابه « الصين » . أورد المفارقات القائمة بين جزأي الصين والتي تتجلّى في الصفات التالية :

	الشرق	**الغرب**
السكان	كثيفون	مشتتون
القوميات	هان	أقليات
التاريخ المكتوب	طويل	حديث
المدنية	وحيدة	متنوعة
النسبة المئوية من الأراضي المزروعة	مرتفعة	ضعيفة
تربية الماشية	ثانوية	أساسية
الأراضي القابلة للاستزراع	نادرة	شاسعة
صناعة	متقدمة	محلية ونادرة
مواصلات	سهلة إلى حدّما	عسيرة

☆ ☆ ☆

الشعب : الهان والأقليات القومية

يؤلف الصينيون بالمعنى العرقي للكلمة ، أي الهان ، ٩٤٪ من السكان . ويعبّر التجانس الاجتماعي والثقافي ، الفريد إلى حدّ كبير ، عن تجربة مجتمع ريفي يعود لآلاف السنين ، استطاع كفاحه ضد نوائب الطبيعة أن يتمخض عن تضامن مزدوج : ضمن الأسرة والقرية ، كما تضيف التعاليم الكونفوشية احترام الامبراطور البعيد المنتدب من طرف السماء . كما يعمل استعمال كتابة **رمزية** ، جرى الآن تبسيطها إلى حدّ كبير ، وتعليم **لغة مشتركة** هي « بيهوا » المشتقة من لغة « ماندارات » في بكين ، يعمل على **تلافي ظاهرة كثرة اللهجات** .

ولا يمكن ملاحظة **اختلافات طفيفة بين الصين الشمالية وبين الصين الجنوبية في نمط الحياة** إلاّ بصعوبة . ففي الشمال ذي الشتاء القارس ، تبرز الحاجة إلى ضرورة تدفئة المساكن ، ويأكل الناس أرغفة من الخبز أو حساء الذرة البيضاء ، في حين تسير على الدروب العربات التي تجرها البغال ، أو قوافل الجمال . أما في المدن ذات المخطط المنتظم الذي أملته قواعد التنجيم ، فتهب الرياح القادمة من منغوليا حاملة معها دوامات الغبار . أما الجنوب اللطيف والرطب ، فهو مجال زراعة الرز والوحل الذي تتمرغ فيه الجواميس . وتتم عمليات النقل فوق ظهور الحمّالين ، ويستخدمون على الأنهار القوارب والسنابيك . أما المدن فهي عبارة عن متاهات من القنوات ومن الأزقة التي تقطعها المدارج الحجرية . ونلاحظ أيضاً وجود **اختلافات انتروبولوجية** بين أبناء الصين الشمالية ، وهم على العموم أكثر بسطة في الجسم وبين أبناء جلدتهم أهل الجنوب .

أما الأقليات القومية « مينزو » والذين يبلغ عددهم ٦٠ مليوناً ؛

فلا وزن كبير لهم أمام الهان Hans ، إذ لا يؤلفون أكثر من ٦ أو ٧٪ من مجموع السكان ، ولكنهم **يشغلون ٦٠٪ من رقعة البلاد** . وتقوم هذه القوميات على **اللغة** ، كاللغات التركية أو المنغولية في الشمال الغربي ، واللغات التيبيتية البرمانية ، والوحيدات المقطع كالصينية ، في الجنوب الغربي ، وعلى **الدين** : فهناك البوذية واللامائية لدى التيبتيين أو الشامانية لدى المنغول ، والإسلام لدى الناطقين بالتركية مثل الويغور في التركستان ، وكذلك الهوي Huis وهم من المسلمين الصينيين في إقليمي نينغكسيا في الوسط ، وفي يونّان في الجنوب ، وعلى العرق لأن التاجيك والديغور ينتسبون إلى شعوب آسيا الوسطى البيضاء ، وبكل بساطة على **نمط الحياة** كالمزارعين المتنقّلين ومربي الماشية المنتجعين في الجبال ، ومربي الماشية البداة في السهوب .

وتجاه هذه الأقوام « البرابرة » **فقد تخلّت بكين رسمياً عن سياسة « التصيين » الرسمية** ، فأنشأت معهداً مركزياً للأقليات القومية **والمناطق أو النواحي ذات الاستقلال الذاتي** .

وتسير بعض المجموعات في طريق التمثل مثل الزوانغ في إقليم غوانغسي ، الذي كان يؤلف إقليماً ذا استقلال ذاتي في السابق . ولكن البعض الآخر يبدو أكثر عتوّاً على التمثل ، مثلما لم تعد الحكومة تجبر الفلاحين المسلمين على تربية الخنازير في إقليم يونّان . ولقد أدى إلغاء منصب « اللاما » في لهاسّا عاصمة التيبت والالتزامات الإقطاعية ، وإعادة توزيع الأراضي ، وتحديد أراضي الرعي لدى البداة ، إلى اضطرابات وخاصة في التيبيت ومنغوليا الداخلية . وقد عمدت الحكومةالمركزية إلى تقليص رقعة جمهورية منغوليا ذات الاستقلال الذاتي بشدة في عام ١٩٦٩ ، وربما يعود ذلك للخوف من حركة وحدة منغولية ، تدعمها جمهورية منغوليا المجاورة وربما الاتحاد السوفييتي .

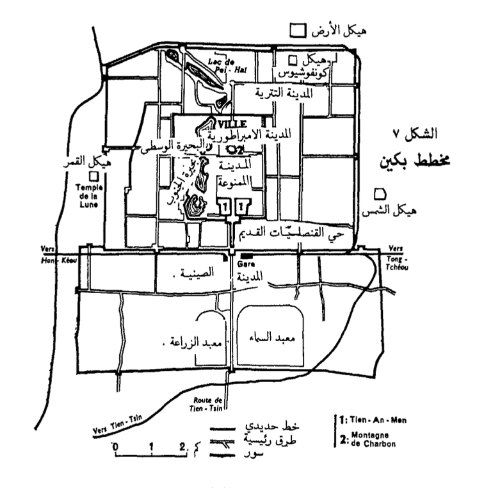
بعض العبارات الصينية لفهم الأسماء الجغرافية

غرب	كسي	xi
شرق	دونغ	dong
جنوب	نان	nan
شمال	بيه	bei
جبل (كتلة)	شان	shan
جبل (سلسلة)	كين	gin
ممر	لينغ	ling
نهر		هيه جيانغ شوان
بحيرة	هو	Hu
بحر	هيه	hai
قطر	غووه	guo
أصفر	هوانغ	huang
أحمر	هونغ	hong
أسود	پيه	Pei
ثلاث	سان	san
أربع	سي	si
أرض	تي	ti
سماء	تيان	tian
سلام	آن	an
باب	من	men
تنّين	لونغ	long
عاصمة	جينغ	Jing

☆ ☆ ☆

المدن : بكين وشنغهاي

لقد كان ٨٦٪ من الصينيين من سكان الأرياف حسب إحصاء ١٩٥٣ ، والآن يعيش ٣٢٪ منهم في المدن . غير أن للصين مع ذلك **تقاليد حضرية** : فقد كانت هناك مدن ما قبل العصر الصناعي ذات المخطط الهندسي ضمن أسوارها (شكل ٧) ، وذات وظيفة إدارية عالية ، وكانت بكين تمثل نموذجاً عنها (شكل ٨) . غير أن انفتاح الصين بعد عام ١٨٤٠ ؛ دفع لنشوء موانئ ذات امتيازات أجنبية مثل شنغهاي (شكل ٩) ، أما في منشوريا التي استعمرها

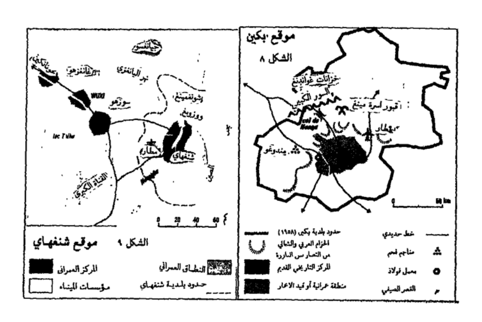


الشكل ٧
مخطط بكين

الروس ثم اليابانيون ، فقد قامت فيها مدن عند تلاقي الخطوط الحديدية ، وقرب المناجم ومدن صناعية . وعند **ظهور أول مخطط خماسي بين ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ أصبح الاندفاع العمراني محسوساً** ، فأصبح في الصين ١٦ مدينة كبرى تتجاوز المليون من السكان ، وفي بضعة أعوام زاد عدد سكان آنشان ، مدينة الفولاذ في منشوريا ، خمس مرات ، كما حدث لمدينة لانزهو ، عاصمة الغرب الصيني الواقعة على النهر الأصفر .

وقد عمدت الحكومة إلى الحد من الهجرة الريفية لتحاشي المساوئ الناجمة عن « تحضر وحشي » ، يؤدي حتماً لمشكلات ومصاعب في السكن والاستخدام ، وذلك بتنظيم « كومّونات الشعب » ، التي ترمي إلى انسجام إطار الحياة ، وتصنيع البلاد في العمق ، مثلما عمدت إلى إطلاق **« هجرة حضرية » أصيلة** ، عن طريق إرسال شبان المدن المتعلمين إلى الأرياف المتأخرة أو النامية .

ولكن من المشكوك فيه أن يكون أكثر من ٢٢٪ من الصينيين يقيمون في دوائر حضرية ، والتي توسعت كثيراً كي تضم أرباض البساتين ، لأن رقعة بكين تمتد على ١٧٨٠٠ كيلو متر مربع ، أو ما يعادل محافظة حلب كلها ، أو نصف أراضي مصر الزراعية . وإذا كانت شنغهاي الكبرى تضم ١٢ مليون نسمة فذلك مع المدن التابعة . **وتعتبر شنغهاي من صنع الأجانب** عند مصب وادي يانغزي في بحر الصين . وبعد أن كانت الصين الجديدة مرتابة تجاه هذه المدينة ذات الأجناس المتنوعة والفاسدة ، والغاصة بالسكان نتيجة الرأسمالية ، لم تستطع الاستغناء عن مشتل الأطر (الكوادر) والعمال الذي تمثله هذه المدينة . وعادت شنغهاي لتحتل مكان **الميناء الأول « ٥٠ مليون طن »** ، وأكبر مركز صناعي في الصين : وفيها أكثر من مليوني عامل و ١٥٪ من الإنتاج ، مع بؤرة جديدة من صناعات ثقيلة عند مقرن نهر هوانغپو والنهر الكبير .



موقع بكين الشكل ٨

الشكل ٩ موقع شنغهاي

أما **بكين** التي أنشأها الفاتحون المنغول في القرن الثـاني عشر والثـالث عشر ، فتقع عنـد **مـدخل السهل الكبير وتتحكم بطرق السهوب** . وبعـد أن كانت عـاصمـة أسرة مينغ الصينيـة ، التي شيـدت القصر الامبراطـوري ابتـداءً من القرن الخـامس عشر ، ثم عـاصمـة الأسرة تسنغ المنشوريـة بين ١٦٤٤ و ١٩١١ ، اضطرت بكين لأن تتخلى عن دورها مؤقتاً لمدينة تانكين عاصمة الجنوب ، والواقعة على نهر اليـانغزي الأسفل من عـام ١٩٢٧ إلى ١٩٤٩ . وتـدين لمـاضيهـا العريـق ولمـوقعهـا الاستراتيجي ، الذي كان دوماً رائعاً ، في **عودتها إلى دورهـا كعـاصمـة** بمبـادرة من الصين الثورية . ويقع ميدان تيان آن تحت سور « المـدينـة المحظورة » ، التي تحولت إلى متحف ، والذي يلعب دور إطار لاستعراضات النظام القائم .

ولكن على الرغم من وظيفتهـا الإداريـة ، لا تخلو بكين من وجـود صنـاعـة هامة ، ففيها ١،٨ مليون عامل ، مثلما تنمو **بكين بصورة مدروسة** ، فإذا كان فيها ٩ ملايين نسمة فإن أربعة منهم يسكنون في الأربـاض الريفيـة . ومن العسير دوماً على أي صيني أن يحصل على رخصة إقامة أو على مسكن في بكين .

إحصاءات المدن الكبرى الصينية تقدير عدد السكان بالملايين

شنغهاي	١٠,٨	شونغكينغ	٣
بكين (بيجنغ)	٧,٦	كسيان	٢,٨
تيانجن (نيانسن)	٤,٣	لودا (دايرن)	٢,٦
شنيانغ (موكدن)	٣,٨	هاربين (خاربين)	٢,٤
كانتون (غوانغزهو)	٣,٢	تانغين (نانجينغ)	٣
ووهان	٣,٢		

لا تزال **بكين** تحتفظ بكل جمال قصور وحدائق « المدينة المحظورة » ، التي كان يقطنها الأباطرة . ولكن اختفى قسم من السور القديم ، كما تمّ شقّ شوارع عريضة في أحياء البيوت الواطئة المحتجبة خلف جدرانها المبنيّة بالطابوق النيئ . وقامت على هذه الشوارع عمارات كبيرة حديثة . وتمتد المدينة نحو الشمال الغربي باتجاه التلال ، بواسطة مجموعات عديدة سكنيّة وجامعية في حين تتكاثر في المناطق الأخرى المصانع الرائدة ، والتي يدعى الأجانب لزيارتها .

أما ميناء **شنغهاي** فقد نما على مسافة ما ، بعيداً عن وحول دلتا نهر يانغزي على نهر هوانغبو ، ذي المياه العميقة ، وكانت مناطق الامتيازات الأجنبية تنفتح على الميناء . وظلت شنغهاي حتى الاحتلال الياباني في عام ١٩٣٧ تحقق ثلثي تجارة الصين الخارجية ، وبذلك أصبحت البؤرة الكبرى للصناعة النسيجية الصينية . وقد نجم عن رحيل الرأسماليين الأجانب أو الوطنيين في عام ١٩٤٩ باتجاه هونغ كونغ وتايوان ركود اقتصادي متطاول .

ثورة في الأرياف

لقد ظلت الزراعة الصينية تقليدية جداً حتى عام ١٩٤٩ : فكانت كل عائلة تحصل على أكبر قدر ممكن من الفائدة من حقولها ، مع تطبيق **تقنية بستنة متوائمة مع المستغلّة القزمة** والمصحوبة بعناء منهك مضنٍ ، لأن كل هكتار مزروع قمحاً يتطلب ٨٠ يوم عمل ، **ولم تكن الأرض تعرف الراحة** . فكان نصف الحقول في الشمال و ٧٠٪ من حقول الجنوب تعطي محصولاً مزدوجاً ،

بفضل شتل الرز بعد بذره في مشاتل ، مما يترك حقل الرز شاغراً مدة طويلة كافية لقيام زراعة بعلية شتوية . **أما الري** فكان مستعملاً بحذق في الجنوب حيث يزرع الرز ، وفي وادي الهوانغهه الأوسط ، بفضل السكور الاشتقاقية ، أو السدود التحويلية والدواليب الرافعة ، وحتى السهل الكبير اعتماداً على مياه الآبار .

ولكن وعلى الرغم من استعمال « التسميد الصيني » المؤلف من السماد البشري ، فقد **كان المردود هزيلاً** ، أي ٧ إلى ٨ كنتالات بالهكتار من القمح و ١٥ إلى ٢٠ كنتال من الرز ، وكان **الفلاح يقف مكتوف اليدين أمام النكبات الطبيعية ومتطلبات ملاكي الأرض** .

هذا كما كانت الأراضي موزعة بصورة رديئة ، لأن ٧٠ إلى ٨٠٪ من الأراضي كانت تخص ١٠٪ من المالكين ، وقد قضى الإصلاح الزراعي على طبقة الملاكين الغائبين ، **واسترد ٤٧ مليون هكتار ووزعها على ٧٠ مليون أسرة** . غير أنه كان هناك ١٠٧ ملايين هكتار صالحة للزراعة كانت مفتّتة بين ١١٠ ملايين من المستغلّات . وفي ١٩٥٣ تحققت اشتراكية الأرض وكان كُل فلاح ينال إيجاراً حسب حصته وجرى ضم القطع المفتتة (تجميل remembrement) ونظّمت فرق التعاون : تلك هي التعاونيات شبه الاشتراكية . وتم تنفيذ اشتراكية الأرض collectivisation بالكامل في عام ١٩٥٧ ، مع ظهور **التعاونيات الاشتراكية** التي بلغ عددها ٧٤٠٠٠٠ وهو عدد القرى ذاته ، **المنقولة حرفياً عن الكولخوزات السوفياتية** ، واحتفظت كل أسرة فلاحية بمنزلها وحديقتها ، وصار كل شغّيل يعمل على أساس ١٥٠ يوماً في العام . كما قامت ٤٠٠٠ مزرعة حكومية في المناطق الطلائعية .

ومع **انطلاقة القفزة الكبيرة إلى الأمام** في ١٩٥٨ ، ظهرت « كومونة الشعب » أو « غونغ شه » ، وهي **وحدة إنتاج زراعي وصناعي** ، وهي

خلية الحزب والميليشيا ، التي تعبّئ أعضاءها في جو من **التقشف والتضحية** ، في خدمة الحقول و « الأفران العالية » القروية . وكان الرجال والنساء يعملون في ٢٦٥٠٠ كومّونة ، مدة ٢٥٠ يوم عمل لوقت غير محدود ، وكانوا يأكلون في مقاصف ، وينامون في مهاجع ، في حين كانت دور الحضانة والمدارس تهتم بشؤون الأطفال .

ولقد فشلت الكومّونة ، ولكنها لا زالت باقية على أنها إطار إداري واجتماعي ، وتتوزع الكومّونات الحالية وعددها ٥٠٠٠٠ مقدار ٩٥٪ من الأراضي ، لأن الباقي يشكل مزارع الدولة .

وعادت العائلات الفلاّحية إلى مساكنها وإلى قطع أراضيها . وأصبح **العمل على الأراضي الجماعية** منظماً ومأجوراً من **فرقة الإنتاج** ، وهو ما يعادل التعاونية الإنتاجية سابقاً . ولقد ورد ذكر **فريق دازهي** (وهي ناحية فقيرة في جبال شانسي) كمثال على ذلك . وتضم كل فرقة وسطياً ٤٠٠ شغّيلاً (ضمن ٢٠ فريقاً) ، غير أن **الحدائق العائلية** المحدودة بنسبة ٨٪ من المساحة المزروعة في الكومّونات ، تعطي حالياً ٢٠٪ من الدخل الزراعي ، وتنتج الخضار والمواشي الصغيرة والدواجن .

☆ ☆ ☆

يجري الاعتماد في **الزراعة** على الفقر لزيادة كمية العمل المبذول فوق الوحدة المساحية ، مثلما يتم اللجوء إلى تنويع الأنشطة الريفية للحيلولة دون انتقال السكان باتجاه المدن . فالكومّونة الشعبية لا تقتصر على زراعة الرز أو القمح ، أو تربية الخنزير والأوز ، بل ينصرف العمل نحو كل شيء على المقياس المحلي ... ، فإذا كان الفلاح يسير خلف المحراث في الخريف ، فهو يعمل في الشتاء على صنع محرك مضخة مائية ، وإذا كان يقود جاموسة أثناء النهار ، فهو يلعب دوره في المساء في تمثيلية مسرحية .

عن ب . جنتل « الصين »
نشر الطباعة الجامعية الفرنسية ١٩٧٤

الكفاح ضد النكبات الطبيعية

منذ عام ١٩٤٩ أصبحت جماهير فلاحي الكومّونات و (جيوش البناء) ، من مدنيين وعسكريين ، تحت إشراف وزارة الحفاظ على المياه ، ومنهمكة في **الكفاح ضد الكوارث الطبيعية** وإصلاح **الرقعة الزراعية المتضررة كثيراً** ، وكانت **ترمي المشاريع الكبرى والصغرى** إلى **إعادة** التحريش **والحدّ من شدة الفيضانات** ، وإلى **ريّ الأراضي** واستزراع أخرى ، وفي إنتاج الكهرباء . وتبدو نتائج هذا الجهد الجبار في السيطرة على الطبيعة غيرُ متساوية ، فلا تزال الأرض الصينية خاضعة للجفاف وللفيضانات .

وفي سبيل الوقاية من ريح منغوليا ، ومن زحف الرمال على **(الأراضي العذراء)** التي تم إخضاعها للزراعة الطلائعية ، فقد تمت زراعة **(الحاجز الغابي)** أو (السور الأخضر العظيم) ، وذلك ابتداءً من حدود منشوريا حتى شمالي التركستان أو سينجيانغ . وتمتد أعمال التحريش إلى التلال وإلى السفوح التي تخدّدت بمفعول حت التربة الشديد في الصين الشمالية ، في منطقة اللوس ، كما هو الحال في الصين الجنوبية .

ومنذ عام ١٩٤٩ تضاعفت المساحة المروية ثلاث مرات ، **فأصبحت ٨٥ مليون هكتار** من أصل **١٣٣ مليون هكتار قابلة للحراثة** ، منها ٥٥ مليون تروى بصورة منتظمة . وتم إصلاح منشآت الري القديمة . وتمّ حفر قنوات جديدة ، وتضاعفت مخزونات المياه مرات عديدة ، كما جرى حفر **مليوني بئر** ، وجهزت بمضخات ذات محركات .

أما في الجنوب فقد سمح الري بغمر حقول الرز عندما تتأخر أمطار الصيف ،

وبالحصول على محصول ثانٍ خلال الشتاء إذا كان شـديـد الجفـاف . أمـا في السهل الكبير ، فقـد أصبحت الأقنيــة ، التي تجر الميــاه من النهر الأصفر ومن الآبــار ؛ تسمح بريّ ٢٠ ٪ من الأراضي . وفي منغوليـا الـداخليـة وفي سينجيـانغ تكـون كل الأراضي المزروعة مروية ومساحتها ٥ ملايين هكتار ، وكذلك الحال في الغوطات التقليدية وعلى الأراضي الجديدة المستصلحة والمستزرعة .

وقد قام الصينيون بتنظيم شامل لأحواض أنهـارهم الكبرى ، ذلـك أن التحريج وبناء سدود تخزينية في الجبال ، وحفر حوضات في الأودية يمكن أن تنصرف إليها ميـاه الفيضـان ، أدّى إلى **تخفيف خطر التهـديـد الجـاثم على سدود اليـانغزي** والفيضـانـات . وكثيراً مـا يرد ذكر مثـال عن ذلـك التنظيم الهيدروليكي في **حوض هويهه** ، وهو نهر هـدام في جنوبي السهل الكبير . ولكن لا زال السهـل الكبير في نصفـه الشمالي عرضـة لنزوات النهر **الأصفر . فلم يعد كافياً رفع سوية حواجبه الجانبيـة** بتقويتها ودعمهـا ، هـذا فضلاً عن فتح سرير اصطنـاعي آخر لـه مع (قنـاة النصر) . فـلا زال الحت في منطقـة اللـوس يقتلع دوماً من التربة الخصيبة ما يعادل سنتيمتراً واحداً في كل عام ، كما أن **حمولة نهر الهـوانغهـه من اللحقيـات لم تتنـاقص إطـلاقـاً** . وهنـاك برنـامج لبنـاء ٤٦ سـداً ، كي يمكن تحويل هـذا النهر الـذي (لا يمكن إصلاحـه) إلى نهر مـؤلف من درجـات وصـالح للملاحـة . وقـد تم إنجـاز اثنين من أكبر هـذه السـدود مع بعض التـأخير ، وهمـا سـد ليوشـا في العـاليـة ، والـذي يسمح بري وادي نهر الهـوانغهـو الأوسط ، ويقدم عند مدينة لانزهو ١٠٠٠ ميغاواط من الطاقة الكهرمائيـة ، وفي **سانمن** ، عند **مخرج الخوانق** ، حيث تم **بنـاء خزان سعتـه ٣٦ مليـار م^3** ، **أي يزيد قليلاً** عن سد الفرات السوري ، مما أدى إلى انخفاض الفيضـان الأقصى من ٢٧٠٠٠ م^3 / ثا إلى ٨٠٠٠ م^3 / ثا . غير أن هذا السـد سيكون **مردومـاً** كليـاً بالطمي **قبل ثلاثين عاماً** .

تنظيم حوض نهر هويه Huai :

لقد ظل القسم الجنوبي من السهل الكبير الواقع بين المخروط اللحقي للنهر الأصفر ، الذي يمكن ملاحظة سريره القديم ، أو الذي عاد إليه النهر بين ١٩٣٧ و ١٩٤٥ ، بعد أن جرى نسف سدوده الجانبية على أثر الغزو الياباني ، وبين المجرى الأدنى لنهر اليانغزي ، أقول : ظل على الدوام خاضعاً لكوارث دورية ، على شكل جفاف قاس شديد أو بسبب فيضانات نهر هويه . ولكن بين ١٩٥٣ و ١٩٥٧ خضع الحوض النهري لتنظيم رائع : فقامت سدود تخزينية على هامشه الجبلي ، الشديد العراء من الغابات ، مثلما تمّ حفر بحيرات لاستقبال مياه الفيضان في السهل ، وتمّ تمديد ١٤٠٠٠٠ كيلومتر من القنوات من شتى الأنواع ، تستخدم للري وللصرف ، والتي تقوم إحداها بفتح مصرف عريض مباشر إلى البحر لنهر هويه ذاته . غير أن جوّ التهافت الذي جرت فيه هذه الأشغال والتي استمرت خلال حملة (قفزة كبيرة إلى الأمام) ، لم تستبعد خيبات الأمل التقنية فيما بعد .

وأخذت كل كومّونة على عاتقها بناء سدود صغيرة ، وبحفر قنوات وبإقامة مضخات . وقد أدّى هذا الجهد أحياناً إلى كارثة ، هذا في الحالة التي يؤدي فيها فرط الري إلى صعود الغشاء المائي الباطني ، وبالتالي إلى تمليح التربة . وقد كان تسيير المؤسسات الجديدة على العموم عاجزاً . ويشير تقرير جرى في عام ١٩٦٢ ، قام بمقارنة ناحية مروية منذ ثلاثة قرون ، وأخرى منذ سبع سنوات فقط إلى أن الثانية تشكو من تسيير غير كاف وفاشل .

عن بيزو ماسابوو

« الصين » دار . آ . كولان ١٩٧٠

المناطق الزراعية

يعمل كل من التضريس والمناخ على تحديد المساحة المزروعة **بنسبة ١٤ ٪** والمراعي ١٩ ٪ والغابات ١٠ ٪ . وهناك **خط** يحاذي جبال كينلينغ ، يتوقف إلى الشمال قليلاً من شنغهاي **يقطع الصين الشرقية** ، حيث يقع ٩٠ ٪ من الأراضي الصالحة للزراعة ، إلى شطرين . وهذا الخط ينطبق على خط الحرارة المتساوية صفر في شهر كانون الثاني ، مثلما ينطبق على خط الأمطار المتساوية الذي يعادل متراً واحداً من الأمطار في العام . وأخيراً على الانتقال من الترب الحامضة والمغسولة في الصين شبه المدارية إلى الترب القلوية ، الغنية

بالأملاح المعدنية في الشمال . **أو بعبارة أخرى تقع صين الرز في جانب ، وفي الجانب الآخر ، أي الشمالي ، صين القمح .**

وتطبع زراعة الرز المشاهد الزراعية في الصين الجنوبية : ولا سيما في حوض نهر سيجيانغ ويانغزي ، وكذلك في الدلتات والسهول اللحقية ، وتكون هذه الزراعة حثيثة intensive بصورة متفاوتة ، حسب الارتفاعات والفروق المناخية . وإذا كان من المتعذر جني أكثر من محصول واحد من الرز الصيفي في حقول الرز المرتفعة في يونّان ، فإن من الممكن حصاد ثلاثة مواسم في دلتا كانتون الذي لا يعرف الصقيع ، وذلك في بداية الصيف ، وفي الخريف وفي قلب الشتاء ، هذا إذا لم يكن شديد الجفاف . أما في الحوض الأحمر ، في سيشوان ، ذي المناخ الرطب واللطيف ، فيمكن الحصول على موسمين فوق حقول الرز الصغيرة على شكل مصاطب : أي رز صيفي ، والقمح أو الشعير في الشتاء ، كما أن سهول اليانغزي الأوسط والأسفل ، حيث يكون الفصل الإنباتي ، أقل طولاً يمتد على ٣٠٠ يوم ودون انجماد خطير ، ولكنه يتمتع بأمطار أفضل توزيعاً .

ويجنح استعمال أنواع مبكرة إلى تعميم موسمين سنويين من الرز ، ذي مردود أفضل . ولكن فوق التلال ، على الترب الحمراء ، فإن الحقول تحمل مزروعات غذائية أخرى ، وأقل عناية ، كالذرة الصفراء والبطاطا الحلوة . غير أن **المناطق الزراعية في الصين الجنوبية تتميز أيضاً ببعض المحاصيل التجارية** التقليدية أو الجديدة . فهناك اختصاصات زراعية أصيلة في إقليم **غواندونغ المداري :** كقصب السكر ، والموز ، والجوت وحتى القهوة أو الهيڤيا في جزيرة هاينان . وتنتشر شجيرات **الشاي فوق التلال إلى الجنوب من يانغزي** . ويكون **تنوع مزروعات الحوض الأحمر** مدهشة ، حيث يزرع التبغ والكولزا (اللفت الزيتي) ، والتوت ، ومزارع الآبرازان (وهو شجيرة تعطي زيتاً صناعياً) . وهناك أخيراً **حقول القطن والقِزازة (تربية دود القز) ، التي تنتشر حول شنغهاي .**

أما في السهل الكبير من الصين الجنوبية فإن الزراعة المزدوجة هي القاعدة ، ولكن تتألف من زراعة **القمح الشتوي** الذي يندر أن يستفيد من الري ، ومن **محاصيل صيفية متنوعة** ، مثل الذرة البيضاء (غاوليانغ) والذرة الصفراء **والقطن** وفستق العبيد . ويفيد الري على الخصوص زراعة البساتين والأشجار المثمرة .

أما في منشوريا فلا يمكن الحصول على أكثر من **زراعة صيفية** هي **الذرة البيضاء والصويا** ، التي تتعاقب فوق الترب السوداء العميقة ، لأن الرز يحتل القيعان الرطبة أو المالحة . أما **حقول المصاطب** في إقليم **اللوس** فتحمل **زراعة الدخن والذرة الصفراء** ذات المحاصيل المتفاوتة باختلاف جودة المواسم السنوية . وإلى **الجنوب من ذلك** ، تتباين حقول **القمح الربيعي الكبرى** في مزارع الدولة مع **الغوطات المروية في الوادي الأوسط من النهر الأصفر** ، حيث تزرع البطاطا ، والشوندر السكري والأعلاف ، أو في سينجيانغ حيث يزرع القطن الطويل التيلة والفواكه . وقد أمكن استصلاح بضعة ملايين من الهكتارات في السهوب منذ ١٩٤٩ ، بيد أن الصين العليا تظل على الدوام مجال الرعاة من منغوليين وتيبيتيين .

☆ ☆ ☆

لقد نشأت المدنيّة الزراعية في الصين ، قبل ثلاثة أو أربعة آلاف من السنين ، في الحوض الأدنى من نهر الهوانغهو (النهر الأصفر) ، حيث يسود مناخ معتدل قاري ، متوسط الرطوبة إذ تتراوح مقادير التهطال بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ مم ، مستندة على موارد غذائية كالدخن ، ثم القمح الذي اقتبست زراعته من آسيا الوسطى . ولكن عندما امتدت الزراعة إلى الجنوب الشبه مداري تبنّى **الصينيون الرز** ، وهي زراعة محلية بلا ريب ، وذلك بعد تحسين تقنيّات زراعة الرز كبناء حقول الرز ونظام الري ، وابتدعوا الشتل ، واصطفوا الأنواع ذات النمو السريع .

ولدى الصين اليوم ٣٣ مليون من الهكتارات المزروعة بالرز أو ربع المساحة الزراعية المفيدة .

وإذا استثنينا منشوريا حيث تسمح الحرارة الصيفية بنضج سنابله ، فإن الرز لم يتجاوز أبداً مجاله التقليدي ، إلى الجنوب من خط العرض ٣٤ . ولكن تعميم المحصول السنوي المزدوج من الرز يمدّد المساحة المنتجة على مساحة ٥٠ مليون هكتار ، أو نصف مليون كيلومتر مربع ، أو ما يعادل مساحة العراق والأردن تقريباً .

هذا ويعتبر **القمح** الذي هو من الحبوب الحضارية ، كالرز ، **الزراعة الكبرى الغذائية في الصين الشمالية** ، ولكنه يكون هنا متشاركاً مع حبوب أخرى في زراعة بعلية شأن القمح : مثل الشعير الشتوي ، والدخن ، والذرة البيضاء ، والذرة الصفراء التي دخلت زراعتها للبلاد في القرن السابع عشر فقط على شكل زراعات صيفية . أما في حوض اليانغزي فإن القمح الشتوي ذا المردود الضعيف ، يتخلّى عن مكانه حالياً للرز (المحصول السنوي الثاني) . وعلى العكس تمتد في الشمال الغربي مزارع القمح في بيئة مناخية شديدة البرد ، حيث يقل الفصل الإنباتي عن ٢٠٠ يوم في العام ، وشبه قاحل ، لأن كمية التهطال تتراوح بين ٥٠٠ و ٢٥٠ مم من الأمطار السنوية . أقول : تمتد زراعة القمح الربيعي على جبهة رائدة في السهوب ، ولكن الصقيع المتأخر ، أو الجفاف المستديم قد يؤدي لخسارة المحصول كليّة . وعلى الرغم من الحواجز الغابيّة أو (الأحزمة الخضراء) فإن التذرية الريحية déflation تعمل على إفقار هذه الأراضي العذراء .

مزارع الشاي :

تتألف شجيرة الشاي من نبتة مدارية ذات أوراق دائمة ، تعود أصلاً للصين الجنوبية . وقد دخلت في التشكل النباتي الطبيعي للتلال التي تجردت من غاباتها ، وذات الترب الجانحة نحو الحرة ولكنها ليست لاتيريتية . وقد نقل الصينيون هذا المشروب للعالم قاطبة ، وحتى اسمه العالمي (شا)[1] . بيد أن مزارع الشاي الصينية ، التقليدية كثيراً ، تتناقص مع المزارع الاستعمارية في سيلان وأسّام ، أو مع المزارع اليابانية ذاتها ، التي تزرع في صفوف متراصّة . ويتم جني الأوراق دائماً بالأيدي ، على ثلاثة مواسم في العام ، وتكون الأولى أكثرها غزارة وأفضلها نوعية . ولا تصدر الصين إطلاقاً قوالب الشاي الأسود ، المحمّص والمتلاصق بدم الثور ، بواسطة (طريق الشاي) القديم ، باتجاه روسيا . بيد أن الشاي الأخضر ، ذي النكهة المستحبة ، والذي يجود فوق تلال جنوب اليانغزي ، هو المستهلك في الصين ، والذي يتم تصدير قسم منه نحو الأقطار العربية .

---

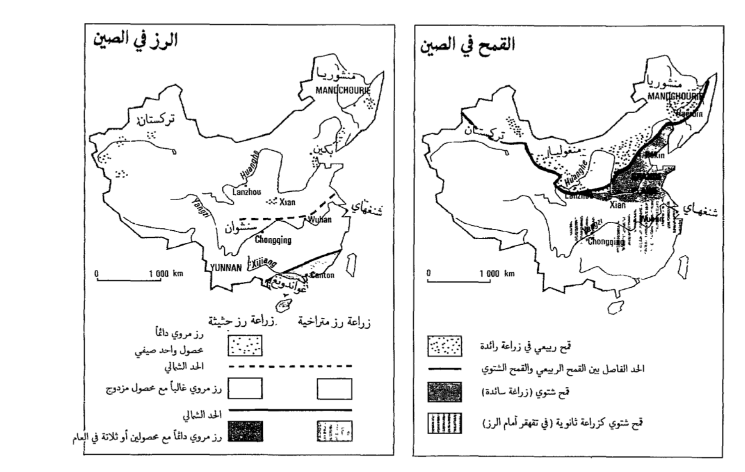
(١) ويسمّى تايْ في المغرب ، وشايْ في سورية ، وجاي في العراق ، وشاهي في جزيرة العرب وليبيا .

المنتجات الزراعية

لقد أفلحت **الزراعة الصينية** منذ ١٩٤٩ في **زيادة مقادير منتجاتها** كثيراً ، مثلما **زادت إنتاجيتها بتوسيع المساحة الزراعية المفيدة** من ١٠٧ إلى ١٣٣ مليون هكتار ، أو ١,٣٣ مليون كيلومتر مربع ، أو ما يعادل مساحة مصر وسورية والأردن ، وكذلك بتوسيع حدود **النطاقات القابلة للري** ، التي أصبحت تؤلف على الأقل نصف المساحة الزراعية العامة ، أو ٦٧ مليون هكتار أو ٠,٦٧ مليون كيلومتر مربع ، وذلك عن طريق **المحصول السنوي المزدوج** ، الذي شمل كل الرقعة الواقعة إلى الجنوب من نهر اليانغزي ، وفي الحوض الأحمر ، وحتى في السهل الكبير . وقد ارتفع **استهلاك الأسمدة الكيماوية** من مليونين إلى ٣٥ مليون طن . كما أدخلت أنواع جديدة من البذور (التقاوي) ، **وتحسّنت الطرائق الزراعية** ، كما ساهمت مجالس (ميثاق النقاط الثمانية) في زيادة المردود ، رغم توالي النكبات الطبيعية .

هذا ويكون استعمال المكائن في الحراثة ، وفي الحصاد ، مقصوراً على الزراعة الرائدة ، ولا سيما في شمال منشوريا حيث يعوّض إنتاش البذار مسبقاً ، في مناقع ، شدة قصر الفصل الإنباتي ، كما أن البور المحروث في كل سنتين (الزراعة الجافة) ، يصون احتياطي رطوبة التربة .

هذا وتخصص ثلاثة أرباع المساحات للحبوب الغذائية : وهي قاعدة غذاء الصينيين . **وتقدم الصين ثلث محصول العالم من الرز** ، أو حوالي ١٣٠ مليون طن ، مع مردود متوسط يعادل ٢٦ كنتال بالهكتار ، مقابل ٦٠ في سهل البو الإيطالي وفي سهول الأندلس ، لأن الرز الشتوي يكون قليل



القمح في الصين
منشوريا
MANDCHOURIE
تركستان
منغوليا
Huanghe
Xian
Yangzi
Chongqing
شنغهاي
0 1 000 km
قمح ربيعي في زراعة رائدة
الحد الفاصل بين القمح الربيعي والقمح الشتوي
قمح شتوي (زراعة سائدة)
قمح شتوي كزراعة ثانوية (في تقهقر أمام الرز)
الرز في الصين
منشوريا
MANDCHOURIE
تركستان
بكين
Huanghe
Lanzhou
Xian
Yangzi
سشوان
Chongqing
Wuhan
شنغهاي
YUNNAN
Xijiang
Canton
غوانغدونغ
0 1 000 km
زراعة رز متراخية
زراعة رز حثيثة
رز مروي دائماً
محصول واحد صيفي
الحد الشمالي
رز مروي غالباً مع محصول مزدوج
الحد الشمالي
رز مروي دائماً مع محصولين أو ثلاثة في العام

الشكل ١٠

الإنتاجية . أما إنتاج **القمح** ، فيقارب ٤٠ مليون طن ويعطي محاصيل غير منتظمة ، مع مردود ضعيف يتراوح بين ١٠ و ٢٠ كنتالاً بالهكتار[1] ، وعلى أثر دخول الأنواع الهجينة ، فقد أصبحت **الذرة الصفراء** تتوسع على حساب **الدخن والذرة البيضاء** .

ويكون **إنتاج (الحبوب) في السنين العادية ، الأول في العالم** ، غير أن الإحصائيات تدمج في هذه القائمة مقدار الربع المؤلف من الدرنيات كالبطاطا والبطاطا الحلوة ، التي يقارب إنتاجها ١٥٠ مليون طن . وفي عام ١٩٧٨ بلغ الإنتاج **٣٠٤ ملايين طن** مقابل ١٨٥ مليون طن في عام ١٩٥٧ . غير أن الصين تشتري **(تكملة)** من الحبوب ، من شعير وقمح ، من **السوق العالمية** بلغ مقدارها ١١ مليون طن في عام ١٩٧٨ ، هذا في الوقت الذي تبيع فيه مقدار مليوني طن من الرز . ويبدو أن الأزمة الغذائية التي كانت مزمنة في الصين قد أمكن التغلب عليها ، إذ يتصرف كل صيني بمقدار ٢٧٠ كغم من الحبوب مقابل ٢٢٠ كغم للمواطن الهندي (شكل ١١) .

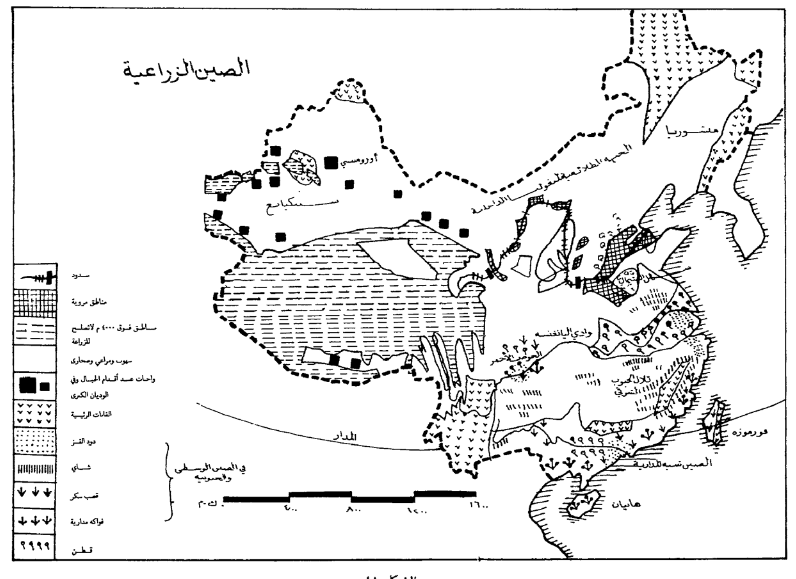
وتكتمل الموارد الغذائية **بالخضار** التي تؤكل طازجة كالبطيخ الأحمر[2] ، أو مملّحة أو محفوظة كالملفوف والخيار ، **والثمار** وهي أقل وفرة باستثناء إقليم غوانـدونغ أو التركستان الصينية (سينجيانغ) ، والنباتات **السكرية والزيتية** .

وقد كان **قطيع المواشي** في (الصين القديمة) ملحقاً بالزراعة . وتربّي الصين ٢٤٠ مليون خنزير ، اعتماداً على **تربية الماشية العائلية** وفي الورشات الخارجة عن الكومّونات ، فضلاً عن عدد لا حصر له من الطيور الأهلية ، ولا سيما الأوز

---

(١) أو نصف المردود في الدانمارك وهولندا ، أو ضعف المردود في العالم العربي .

(٢) ويسمّى الرقيّ في العراق ، والجبّس في سورية الشمالية ، والدبشي في وادي الفرات ، والدلاع في بلدان المغرب والحبحب في الحجاز وجحٌ في نجد .


الصين الزراعية
أوروموسي
سنكيانغ
منشوريا
وادي اليانغتسه
الحوض الأحمر
تلال الجنوب الشرقي
المدار
فورموزه
الصين شبه المدارية
هاينان
سدود
مناطق مروية
مناطق فوق ٤٠٠٠ م لاتصلح للزراعة
سهوب ومراعي وصحارى
واحات عند أقدام الجبال وفي الوديان الكبرى
الغابات الرئيسية
دود القز
شاي
قصب سكر
فواكه مدارية
قطن
في الصين الوسطى والجنوبية
كم ٠
٤٠٠
٨٠٠
١٢٠٠
١٦٠٠

الشكل ١١

والبط والدجاج ، وتصدّر لحم الخنزير ومسحوق البيض . وتربي منغوليا الداخلية وسينجيانغ والتيبت مقدار ٧٥ مليون رأس من الأغنام ، ولكن الصين لا تصدر سوى الأصواف والجلود وأحياناً لحوم الأغنام المبرّدة أو المعلبة ، لأن استهلاك اللحم واللبن يظل محلياً على الغالب .

ويستمد الصينيون بروتيناتهم على الخصوص من الصويا على أشكالٍ مختلفة ، ومن تربية الطيور والدواجن الصغيرة ، التي تعتمد على الفضلات المنزلية ، ومن صيد الأسماك من الأنهار ومن البحر ، حيث يبلغ مقدار الصيد ٧ ملايين طن من الأسماك ، ورغم الوسائل التي لا تزال تقليدية ، فإن المصائد الساحلية عند مصب نهر اليانغزي ، تنتج الأسماك المجففة ، وسواحل الجنوب في غواندونغ حيث يصاد سمك المرجان والروبيان .

المصاطب المزروعة في هضبة اللوس :

لقد استطاع العمل المضني الممتد على آلاف السنين ، أن ينظم المنحدرات المستورة باللوس المتفاوت في ثخانته على طرفي العقفة الكبرى للنهر الأصفر ، وتكون هذه التربة خصيبة طبعاً ، ولكنها منفذة ولا يمكن إخضاعها للري إطلاقاً ، وبما أنها هشة جداً فهي لا تناسب زراعة الأشجار . وانطلاقاً من الأودية العميقة ، في هذه البلاد المضرّسة ، فإن الحت يصعد وهو يحفر أخاديد عميقة في اللوس . ويحتاج هذا المشهد الزراعي الرائع إلى الترميم باستمرار . تلك هي أول منطقة في الكوارث الطبيعية والمجاعات في الصين ، فالدخن والذرة الصفراء تكونان تارة (محروقة) بالجفاف ، وتارة مجروفتين بالمسكوبات الوحلية . ويطبق هنا أكثر من أية منطقة أخرى (ميثاق النقاط الثانية) وهي : السيطرة على المياه والحفاظ عليها ، إغناء التربة ، الحراثة العميقة ، اصطفاء البذور ، أبذر بصورة متراصّة ، لزوم حماية البذار ، تحسين الأدوات الزراعية ، اتباع قواعد التسيير الصحيح .

وبين ١٩٥٧ وعام ١٩٧٠ لم ينشر الصينيون أية إحصائيات . أما أرقام المحاصيل المنشورة على أثر (قفزة كبيرة إلى الأمام) ، فقد كانت غير موثوقة ، وتعرضت لتصحيحات فيا بعد . أما منحنى نمو الإنتاج الغذائي فيبدو أنه ينطبق تقريباً على المنحنى الديموغرافي ، غير أن الأزمة الغذائية كانت عسيرة في ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ ، إذ حدثت مجاعات محلية ، ولم يمكن التغلب عليها إلاّ باللجوء للاستيراد الكثيف في حدود عام ١٩٧٠ . ومنذ بضعة أعوام كانت المواسم أكثر وفرة وأكثر انتظاماً . أما الناتج القومي الخام

PNB في الصين ، الذي يكون من العسير جداً تخمينه ، فإن الإنتاج الزراعي يحتل فيه الربع مقابل النصف في ١٩٥٧ . كما انخفضت حصة الزراعة في الصادرات ، فأصبحت ٤٠ ٪ مقابل ٧٥ ٪ ، بيد أن دورها الاجتماعي والاقتصادي يظل جوهرياً . وتستمد الدولة دوماً من الكومّونات الزراعية الشطر الأكبر من مواردها ، لأن الزراعة تظل ذات الأولوية .

إحصائيات زراعية لعام ١٩٧٩

	الصين	اليابان	الهند	
رز غير مقشر	١٣٤,٥	١٥,٩	٧٨,٥	تخمينات ملايين الأطنان
قمح	٤٤	٠,٢	٣١,٣	تخمينات ملايين الأطنان
فول الصويا	١٣,٣	٠,١	٠,١	تخمينات ملايين الأطنان
فستق العبيد	٢,٩	—	٦,١	تخمينات ملايين الأطنان
سكر	٥٠٠٠	٥٤٠	٥٣٠٠	بآلاف الأطنان
شاي	٣٥٦	١٠٨	٥٦٥	بآلاف الأطنان
ألياف قطن	٢٣٣٠	—	١١٥٠	بآلاف الأطنان
حرير خام	١٦	٢١	٣	

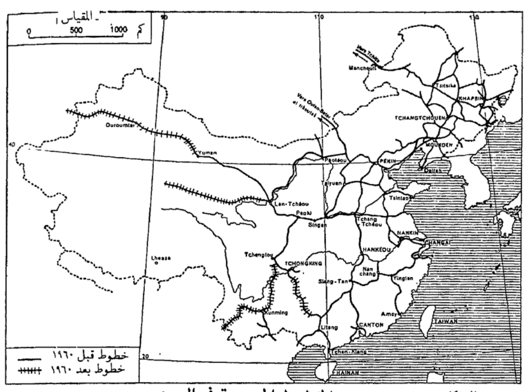
ولا تكون **المزروعات الصناعية** زراعات وحيدة إطلاقاً ، بل مشتركة ومندمجة في منظومة زراعة الحبوب ، حسب المناطق ، من قمح ورز ، ذرة بيضاء أو صفراء ، ولا تشذ عن ذلك المزروعات الشجرية كالشاي .

ومنذ ١٩٤٩ توسعت زراعة القصب السكري في غواندونغ (أقصى الجنوب) ، والشوندر السكري في منغوليا . ولقد ارتفع إنتاج السكر الذي كان ٥ ملايين طن عشر مرات . وتحتل الصين المرتبة الأولى في إنتاج الزيت النباتي ، ولا سيا زيت الصويا ، وهي اول منتجة للتبغ . أما الشاي الذي يبلغ إنتاجه ٣٠٠٠٠٠ طن ، أي يقل قليلاً عن الإنتاج الهندي ، فيخصص للاستهلاك المحلي . وقد بذلت جهود خاصة في سبيل المواد النسيجية ، فدخلت زراعة الجوت إلى إقليم غواندونغ ، وجرى تحديث تربية دودة القز في المناطق التقليدية لزراعة التوت كجوار شنغهاي وكانتون ، كما هو الحال في شاندونغ حيث يجمع (الحرير البري) من فراشة البلوط . وتوسعت زراعة القطن ، فبلغ إنتاج أليافه ٢,٥ مليون طن وأصبحت الصين ثالث دولة منتجة له بالعالم ، في وادي يانغزي ولا سيا في السهل الكبير وإقليم سينجيانغ ، حيث يزرع القطن الطويل التيلة مروياً . ولكن لهذه الجهود حدودها ، وها هي الصين مستوردة للحبوب ، وأصبحت منذ عدة سنوات تشتري مقادير متزايدة من الصويا ومن القطن من السوق العالمية ، وحتى من الولايات المتحدة .

المواصلات : عنق الاختناق

لا تزال الوسائل التقليدية في النقل شائعة الاستعمال ، في القسم الأكبر من الرقعة الصينية ، كالقوارب والفلوكة على قنوات وأنهار الصين الجنوبية ، وقوافل حيوانات الحمل على دروب الغرب . ولا تزال شبكة الخطوط الحديدية ، وحتى شبكة الطرق المعبدة متراخية جداً . فلا زال **ربع الكومّونات** ، الواقعة بمعزل عن الطرق المرصوفة ، **يتطلب إخراجه من العزلة** . ورغم النجاحات التظاهرية ، فإن **منظومة النقل الداخلي لا تزال تؤلف نقطة الضعف في الاقتصاد الصيني** . وتنقل **الخطوط الحديدية** ٧٨ ٪ من مجموع حركة البضائع . وقد تم بناء **أوائل الخطوط بجهود الأجانب** ، حسب مصالحهم الاستراتيجية أو التجارية ، كخط يونّان البهلواني الممتد إلى هايفونغ وإلى الطونكين شمال ڤيتنام . أما الخط الحديدي الرئيسي الذي يربط هونغ كونغ بالعاصمة بكين مروراً بووهان ، فقد كان يفتقر إلى الجسور على نهر اليانغزي (اليانغتسي) . **وفي عام ١٩٤٩ كانت الشبكة محدودة بمقدار ٢٧٠٠٠ كم ، كان نصفها يقع في منشوريا** ، مع تصالب كبير على الخط العابر لمنشوريا ، وهو إنجاز روسي ، وخط جنوب منشوريا ، وهو ما حققه اليابانيون خلال احتلالهم لمنشوريا حتى عام ١٩٤٥ (شكل ١٢) .

وقد خطط النظام الجديد لبناء ١٦٠٠٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية خلال ٤٠ عاماً ، وقد أضيفت إلى الشبكة السابقة في المناطق الهامشية ، خطوط بلغ **طولها ١٨٠٠٠ كم** وهو الخط العابر لمنغوليا ، الذي يحقق الاتصال المباشر مع الاتحاد السوفييتي ، ولكن حسب العرض الروسي ، أي ١,٥٣ م ، والخط العابر للقارة في الشمال الغربي أو **لانسين** ، أي بين لانزهو (وسط الصين) إلى



الشكل ١٢ **الخطوط الحديدية في الصين**

التركستان . والخط الغربي الذي يربط الخطين السابقين بالخطين الذاهبين إلى سيشوان وإلى كانتون . وقد تحول المحور الكبير من الشمال للجنوب إلى خط مزدوج بين بكين وووهان . وتمت كهربة قطاعات مثقلة بالحركة أو ذات مرتسم شديد التعقيد . وقد أصبحت الخطوط الحديدية والطرق البرية تجتاز نهر اليانغزي من الآن فصاعداً ، من فوق جسور في مدينة شنوغكنغ ، ووهان ، ونانكين .

وحيثما كانت البلاد تفتقر تماماً للخط الحديدي ، كما في التيبت ، فقد تم شق طرق نفوذ . ولدى الصين حالياً **٢٨٠٠٠٠ كم من الطرق المزفّتة** ، مقابل ٧٠٠٠٠ كم في عام ١٩٤٩ ، ولكن حظيرة السيارات الشاحنة البالغة ٨٠٠٠٠٠ وحدة لا تساهم حتى الآن بأكثر من ٢ ٪ من حركة البضائع على مسافات طويلة ، وتخدم الشبكة الجوية الداخلية مئة مدينة .

وهكذا تلعب الملاحة الداخليـة إذن دوراً كبيراً ، وذلـك على الأقل **في الصين الجنوبية** في كل الفصول ، وفي منشوريا ، خلال الصيف فقـط . وتمر على نهر **اليانغزي** رغم خوانق ايشـانغ ، أكبر حركـة نقل في إقليم سيشوان . وقـد تمت أعمـال تعميق وتعريض وأقيمت منجنيقـات لجر السفن بـالحبـال ، وإشـارات مضيئة لتحسين قابلية هذا النهر الكبير للملاحة .

وبعـد أن تـلاشى **الأسطـول البحري** الـذي لا غنى عنـه لتنميـة التجـارة الخـارجيـة ، استطـاع أن يرفع حمولتـه من ٠,٥ مليـون طنـة حمـولـة خـام إلى ٤ ملايين منذ ١٩٦٣ ، ويتألف من سفن مستعملة أو جديدة ذات غـاطس ضعيف . **وتفتقر الموانئ للأعماق** وللتجهيزات الرافعـة . **ويمر قسم من تجارة الصين الدولية على شكل ترانزيت من هونغ كونغ ، ويمر البـاقي** على الخصوص من سبعـة موانئ ، كالحبـوب في الاستيراد ، والفحم والنفـط في التصـدير ، وتـأتي **شنغهـاي ولودا** ، وهي دايرن القـديمـة ، وهي بوابـة منشـوريـا ، **في طليعـة الموانئ النشيطة .**

تقاليـد الصينيين في التجـارة البحريـة : كانت السفن الشراعيـة الصينيـة تتردد في القرن الخامس عشر على سواحل إفريقيا الشرقية . ولكن خلال قرن استطـاع الأجـانب أن يحتكروا النشـاط التجاري في موانئهم على السـاحل الصيني مثل هونغ كونغ ، كينغـداو ، أو دايرن (لودا اليوم) ، أو في موانئ امتيـازاتهم مثل شنغهـاي . ومن المتوقع أن تكون الشروط الملاحيـة متفـاوتـة على سواحـل تمتـد لمسافة ١٤٠٠٠ كم . فعند مصب نهر سيجيـانغ ، ونهر يـانغزي ، وهو المنفـذ الوحيـد إلى الحوض الأحمر ، سشوان ، تقع هونغ كونغ وشنغهاي في موضع ممتـاز لتـأمين خـدمـة ظهيرين واسعين ، وهمـا من إنشـاء أجنبي . أما كينغداو ولودا فينفتحان على خليجين شبه مغلقين ولا بأس بعمقهما . بيـد أن خليج بوهيـه يتعرض للانجماد الشتوي . ومنذ بضعة أعوام أصبح نمو البحرية الصينية باعثاً على الدهشة . كما تستخـدم الصين أيضاً سفناً تحمل رايات وهمية كسفن پاناما وليبيريا ، مثلمـا تستـأجر سفنـاً يملكهـا مجهزو سفن armateurs من هونغ كونـغ . ويجري تجهيز المـوانئ على قـدم وسـاق . وتسمـح فرضـة لـودا بـاستقبـال ناقلات نفط من حمولة ١٠٠٠٠٠ طن ، مما يسمح بشحن بترول منشوريا في كل الفصول . بيد أن نشـاط الموانئ الصينية لا يتجاوز ٢٠٠ مليون طن من البضائع ، منها ٨٠ مليون طن تخص التجارة الدولية .

ولا تزال وسائل الاتصالات ناقصة : إذ لاتملك الصين سوى ٥٠ متراً من السكك الحديدية ، مقابل كل كيلومتر مربع من المساحة و ٣٠٠ م من الطرق المعبدة . وليس هناك من خط حديدي يواكب وادي اليانغزي . أما مدينتا شونغكينغ ووهان ، فهما قبل كل شيء عبارة عن مرفأين نهريين ومركزين للمسافنة Transbordement . وتختلف كثافة شبكة الخطوط الحديدية بشدة . وهناك بعض المحاور الكبرى التي تكون ذات خط مزدوج ، وعلى المسافر من أجل القيام برحلات طويلة نوعاً ما ، أن يقضي ٣٦ ساعة بين كانتون وبكين ، وثلاثة أيام حتى الحدود الصينية السوفياتية في منشوريا ، وأن يختار بين ثلاثة أنواع من العربات حسب نوعية المقاعد والمرتبات : مقعد قاس ، مرتبة قاسية ، مرتبة طرية . وهناك بعض الخطوط القليلة التي تزيد سرعة قطاراتها عن ١٠٠ كم ساعة ، لأن التفضيل هو للسلامة أكثر من السرعة ، وهكذا تتخذ انطلاقة القطارات دوماً نوعاً من مظهر احتفالي .

عن م . جان « الحياة الصينية »
P.U.F. Que Sais-Je ? ١٩٧٦

حركة الموانئ الصينية الكبرى في عام ١٩٧٨
مقدّرة بملايين الأطنان

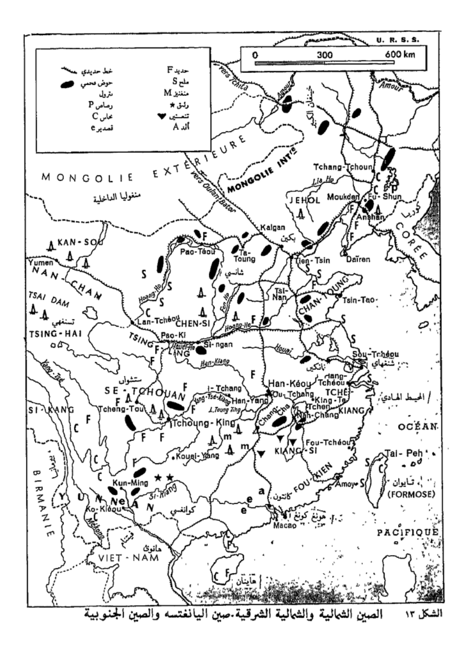
شنغهاي	٥٠
لودا	٢٥
كينغهوا نفداوْ	٢٠
كينغداوْ	١٨

الطرق المائية النهرية : تملك الصين شبكة من الطرق المائية تمتد على ١٢٠٠٠٠ كم ، والتي تصلح للقوارب والفلوكة ، و ٣٠٠٠٠ كم تصلح للصنادل ذات المحرك . وتحقق الملاحة النهرية ٢٠ ٪ من النقليات الداخلية ، أو عشرة أضعاف النقل بالشاحنات ، وتكاد تنحصر هذه الحركة بالصين الجنوبية . أما في المناطق الأخرى فإن شح المياه في الشتاء والانجماد يعملان على شلّ حركة الأنهار . أما (القناة الكبرى) التي تمّ بناؤها في الماضي لنقل رز حوض اليانغزي حتى بكين ، فلم يتم بعد تنظيفها من الوحول إلاّ جزئياً .

مصادر طاقة كبيرة

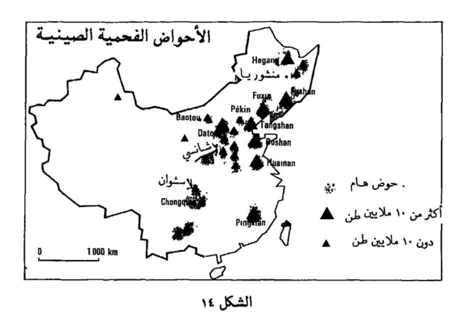
لقد دخلت الصين عصر الطاقة الحديث منذ برهة وجيزة : إذ لا يتجاوز ما يصيب الفرد فيها أكثر من ٨٠٠ كغم من معادل الفحم . ولكن **ثروتها من مصادر الطاقة** ، من مستحاثة (حفرية) ومتجددة ، هي **أفضل فرصة متاحة** للتصنيع لديها .

ولا يمكن مقارنة **المدّخرات** الجيولوجية في الأحواض الفحمية ، والتي تبلغ على أقل تقدير ١٠٠٠ مليار طن ، إلاّ بتلك الموجودة في أمريكا الشمالية أو في الاتحاد السوفييتي . ويمكن **العثور على مكامن الفحم في سائر أنحاء الصين** ، ولكن **الأحواض الكبرى** وأجود أنواعه هي الواقعة في **منشوريا** وفي **الصين الشمالية** ، ولا سيا في شانسي (شكل ١٣) ، إذ يتوفر الأنتراسيت ، وفحم الكوك على شكل طبقات سميكة ، قليلة التشويه التكتوني ، ويمكن استغلالها على عمق قريب ، أو على المكشوف ، كما هو الحال في جبال الأبالاش الأمريكية ، أو في حوض الكوزباس الروسي في سيبريا الغربية . وإذا تركنا جانباً بعض الاستثناءات في الصين الجنوبية ، فإن كل المناجم الحديثة الكبرى ، تكون ممكننة ، وتعمل في منشوريا ، حيث جرى اكتشاف حقل **فوشون** ، الذي بدأ اليابانيون استغلاله ، والذي تتوضّع فيه طبقات الشيست البيتومينية ، التي يستخرج منها النفط فوق الفحم الدسم ، وفي شمال **شانسي** ، في حقل داتونغ ، وفي أطراف السهل الكبير ، وفي تانغشان في ولاية هوينان Huainan ، التي تؤمن استهلاك العاصمة ، ووهان وشنغهاي . ولكننا نجد في العديد من الأمكنة مناجم الكومّونات الصغيرة التي تقدم ٤٠ ٪ من الإنتاج الكلي ، مع كثير من النفايات ، والتي توفر الطلب المحلي .



الشكل ١٣ الصين الشمالية والشمالية الشرقية-صين اليانغتسه والصين الجنوبية

ولكن وعلى الرغم من عدم دقـة الإحصـاءات ، فمن المؤكـد أن إنتـاج منـاجم الفحم الصينيـة بلغ في ١٩٧٨ مقـدار ٦١٨ مليون طن ، أي يتسـاوى مع إنتـاج كل من الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة . وظل الفحم المستخرج حتى عـام ١٩٧٦ يقدم ٨٦ ٪ من الحصيلة الطاقيّة (شكل ١٤) .



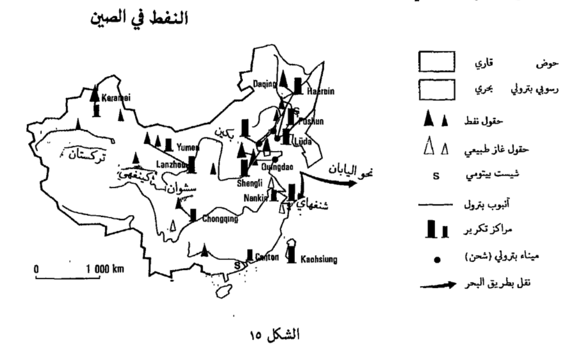
الشكل ١٤

وتقدم المراكز الحرارية العاملة على الفحم ثلاثة أرباع الطاقـة الكهربـائيـة . غير أن **الطـاقـة الهيـدروليكيـة الكامنـة ، تكـون عظيـمـة** لأن تجهيز نهر اليانغري لوحده ، يستطيع أن يقدم ثلاثة أضعـاف طـاقـة فرنسـا الكهرمـائيـة ، ولكن هذا النوع من الطاقة لم يكد يدخل حيّز الإنتـاج بعـد ، لأن دوره لا يمثل سوى ٣٪ من الطـاقـة الكهربـائيـة . وفضـلاً عن السـدود المنشـوريـة التي خلّفهـا اليابانيون ، تضاف الآن سدود نهر الهوانغهه ، هذا عـدا عن **العـديـد من المراكز المجهرية في الصين الجنوبية** ، والتي تقدم الكهربـاء لمضخـات الري . وعلى كل **لا تتصرف الصين بـأكثر من ٢٥٠ مليـار ك و س** ، أي مـا يعـادل **إنتـاج فرنسا تقريباً** التي يقل عدد سكانها عن الصين بعشرين مرة . ولديها خـامـات

اليورانيوم في سينجيانغ « التركستان » ويتم إغناؤه في لانزهو على النهر الأصفر الأعلى ، ويقتصر استعمال الطاقة النووية لغايات عسكرية بحتة .

وقد كان استغلال أغشية النفط معروفاً منذ القدم في ستشوان ، واتساع الأحواض الرسوبية مصدر الفأل الحسن . ولكن التنقيب عن النفط واكتشافه في الغرب في البداية ، في غانصو وسينجيانغ ، على شكل مكامن نائية ، كان عسيراً لصعوبة تصريفه نحو الشرق ، وهذا كان يكبح من تقدم الاستغلال . غير أن **اكتشاف حقل داكينغ** في عام ١٩٥٩ **في منشوريا** (شكل ١٥) ، والذي دخل مرحلة الاستغلال في ١٩٦٥ بواسطة مدينة زراعية يسكنها التقنيون الفلاحون ، ومن ثم **مكامن خليج پوهيه** وتمديد أنبوب ، ومعامل تكرير ، سمحت جميعاً باستخراج ٢٩ مليون طن من النفط اعتباراً من عام ١٩٧٠ ، كي يرتفع إلى ١٠٤ ملايين طن في ١٩٧٨ . ويبدو الاحتياطي جسيماً ، ولكن لم يمكن بعد تقديره بشكل جيد ، إذ تتضارب التقديرات بين ٣ أو ٥٠ مليار طن ومعظمه فوق الجرف القاري off-shore .

النفط في الصين



الشكل ١٥

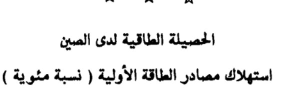
إنتـاج البترول في الصين : قبـل ١٧ سنـة كان يتم في الصين استغـلال حقـول **نفـط وغــاز طبيعي** صغيرة في سشـوان في مـوقـع يـومن Yumen ، ومـوقـع كاراميـه : Karamai في التركستـان ، وذلـك للحـاجـات المحليـة . أمـا الصين الشرقيـة ، فكان الاستهلاك الضئيل من أجل التنـوير أكثر من الاستهلاك في النقليات والصناعة ، وكان يتحقق عن طريق معـالجـة صخور الشست البيتومي ، حيث يستخرج طن واحد من النفـط من كل ٢٠ طن من الصخور ، أو بواسطـة استيراد البترول السوفيـاتي . غير أن اكتشـاف حقـل داكينـغ قلبَ هـذه المعطيـات فقـامت الصين بتجهيز نفسهـا بصـورة محمـومـة ، وضـاعفت أطـوال أنـابيبهـا مرات عـديـدة فـوصلت إلى بكين وإلى مينـاء لـودا ، وزادت من طـاقتهـا التكريرية فبلغت ٨٠ مليون طن ، واشترت آلات الحفر ، التي تسدّد قيمتها من مبيعات البترول الخام ، المؤلف من نفط كثيف وكبريتي ، يوافق أصحـاب معـامل التكرير اليـابـانيـة ، وبلغ تصـديرهـا ١٠ ملايين طن . ولكن تقع أكبر مـدخراتهـا النفطيـة تحت ميـاه خليج پوهيـه ، وفي الرصيف القـاري ، في البحر الأصفر وبحر الصين .

ويتعلق استغلالها باتفاقات دبلومـاسيـة شـاقـة مع تـايوان وفيتنـام أكثر من صعوبـة الحصول على تكنولوجية معقدة من اليابانيين .

☆ ☆ ☆

الحصيلة الطاقية لدى الصين

استهلاك مصادر الطاقة الأولية (نسبة مئوية)



	١٩٥٧	**١٩٧٨**
الفحم	٪٩٤	٪٨٠
بترول	٪٣	٪١٨
غاز طبيعي	٪٠,٤	٪٠,٥
طاقة كهربائية	٪٢,٦	٪١,٥

هذا وتكون المعطيات الإحصـائيـة عن **صنـاعـة استخراج الفحم** ، من أكثرهـا غموضـاً حتى اليوم ، ومما لا ريب فيـه أن الأرقـام المتوفرة تشير إلى كميـات المستخرج الخـام ، قبل الفرز والغسل ، وليس الفحم التجاري . غير أن النجاحات تظل رائعة بلا ريب .

☆ ☆ ☆

وتبلغ القوة المحركة المتوفرة ١٣٠٠ مليار ك و س بالنسبة لمجمل الأنهار ، ولكن إنتاج **الطاقة الكهرمائية** لا يتجاوز ٦٠ مليار ك و س أو ربع الإنتاج الصيني من الطاقة الكهربائية . أما المراكز الحرارية في الأحواض الفحمية ، أو في المدن الكبرى ، فتنتج الباقي ، ولأكثر المؤسسات الكهربائية أو الحرارية دور محلي صرف .

وتظل شبكة النقل جنينية embryonnaire ، اللهم إلاّ في منشوريا ، وحول بكين وشنغهاي ، حيث يحقق ترابط المراكز مرونة أكبر في التوزيع . ولا زال هناك الكثير من الكومّونات بانتظار الكهربة . ويظل استهلاك الكهرباء الفردي ضعيفاً ، أو حوالي ٢٧٠ ك و س بالعام للفرد الواحد .

☆ ☆ ☆

هذا ويضم باطن أرض الصين احتياطات هائلة من الفحم ، ذات قدرة حرارية قوية في الصين الشمالية ، ومن نوعية أقل جودة في منشوريا ، ولا سيا في الصين الجنوبية ، حيث يكون عمر الفحم جوراسياً أو من الحقب الثالث . ويكون توزع المدخرات على الشكل التالي : ١٩٪ من الأنتراسيت و ٣٥٪ من الفحم الصالح لصنع الكوك ، و ٤٢٪ من الفحم الدسم ذي البخار ، و ٤٪ من الليغنيت . غير أن المناجم الباطنية تكون عرضة للكثير من الكوارث ، ناتجة عن ضربات غاز الغريزو[1] ، والفيضانات والزلازل ، كما حدث في مناجم تنغشان في تموز ١٩٧٦ وعلى الرغم من تحسين طرائق الاستخراج ، وتقدم المكننة فإن إنتاجية المناجم الصينية لا زالت ضعيفة .



(١) غاز سريع اللهب ينطلق من مناجم الفحم ، وهو غاز ميتان مختلط بالآزوت بصورة متطاولة وبغاز الفحم وبالهواء الجوي . ويتكون في مساحات الفحم على أثر تفسخ المادة النباتية ويتكدس في جيوب طبيعية موجودة في سقف الطبقات . وعندما يخترق معول عامل منجم أحد هذه الجيوب ، يحدث انبعاث غاز الغريزو ، وعند اختلاطه بالهواء العادي تحدث فرقعة يكفي لهب مصباح عادي لحدوث الانفجار والحريق .

السياسة الصناعية

كانت الصين لا تزال حتى عام ١٩٤٩ في المرحلة الحرفية : واعتماداً على وسائل حاذقة وبدائية ، كان الصينيون يستخرجون من كل الأمكنة مقادير ضعيفة من الوقود ومن الفلزات المعدنية . وكان التنغستين والأثمد للتصدير ، في حين ظل الفن الصيني في صناعة الأقمشة الحريرية ، أو البورسلان والبرنيق laque الصيني ، محافظاً على سمعته . أما **المصانع** الحديثة ، ذات الرأسمال الصيني ، فقد **كانت نادرة ، باستثناء شنغهاي** ، حيث قامت مغازل القطن ، وهي أول صناعة تنشأ في قطر متخلف عادة إلى جانب صناعة الأسمنت . أما **الأساس الوحيد لصناعة ثقيلة ، والذي كان من صنع اليابانيين في منشوريا ، فقد قام السوفيات بتفكيكه** ، كغرامة حربية دون أن يخوضوا هذه الحرب فعلاً ، لأن الأمريكان هم الذين أجهزوا على اليابان في عام ١٩٤٥ .

ومن ثم قام السوفيات **بتمويل ١٥٦ مشروعاً كبيراً في أول مخطط خماسي** (١٩٥٣ ـ ١٩٥٧) ، تعطي الأفضلية **لقطاع الدولة** أي لسلع التجهيز والمواصلات ، وأهمل الصناعة الخفيفة ، تاركاً مهلة وفرصة « للرساميل الوطنية » وإلى تعاونيات الحرفيين . ومن ثم **تضاعف الإنتاج** : ولكن الصين ظلت تنتج من الفولاذ أقل من فرنسا بثلاث مرات، ومن الكهرباء بخمس مرات ، ولم ينصبّ الاهتمام إلاّ على منشوريا (هيلونغيانغ) ، التي سبق لها أن كانت أفضل تجهيزاً ، وعلى الصين الشمالية الغنية بالفحم .

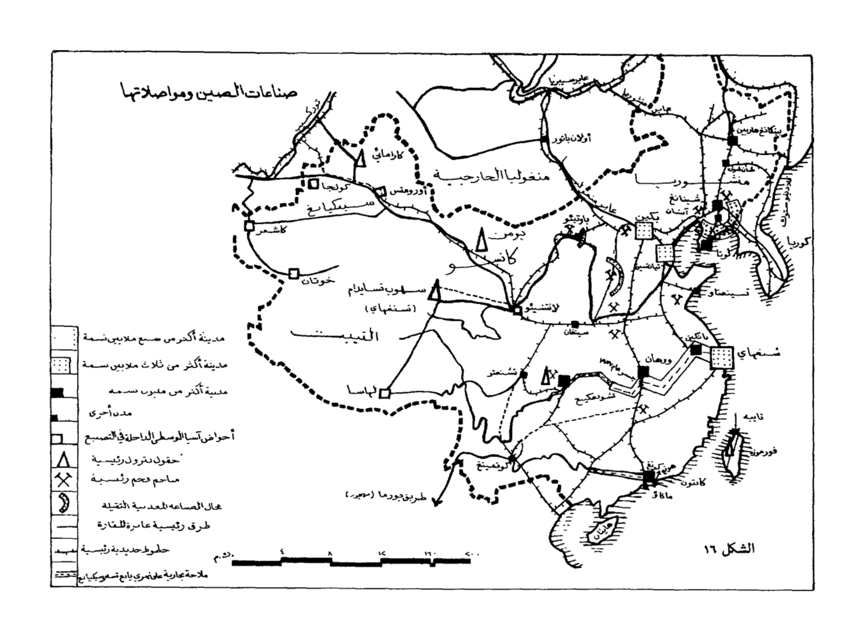
ولما **أطلق النظام الحاكم** شعار « **القفزة الكبيرة للأمام** » ، **فإنه كان يرغب في تسارع التنمية** عن طريق تعبئة الطاقة البشرية الكامنة ، ونشر

التصنيع في **طول البلاد وعرضها** عن طريق تنظيم « **الكومّونات الشعبية** » ، وهي وحدات ذات استقلال ذاتي ، زراعية وصناعية في الوقت نفسه ، وكان الهدف من البعثرة والاستقلال الذاتي حل مشكلة النقل . ويستطيع فرن عالٍ فلاّحي أن يسكب بضعة أطنان من الفونت باليوم ، وهكذا تم بناء ٣٧٠٠٠٠ فرناً ، وفي خلال عام واحد ، ازداد الإنتاج المعدني إلى أكثر من الضعف . وحلّت الأوامر اليومية مكان المخطط ، ومكان الخطط السوفياتية لأرقام الإنتاج ، **وكان الفشل : لأن الأرقام كانت خداعة ، والنوعية غير مضمونة ، فضلاً عن إنهاك قوى الشغيلة** . وأدى رحيل الخبراء السوفيات إلى الضربة القاضية لأن البلبلة انتقلت إلى الورشات الصناعية الكبرى .

وبعد أن أصبحت **الصين الماوّية لا تعتمد إلاّ على** « قواها الخاصة » ، فقد **عادت في عام ١٩٦٠** إلى منح **الأفضلية للزراعة** ، وللصناعات التي تعمل للزراعة مثل صناعة الأسمدة ، ولكنها ظلت دوماً تفكر في إقامة الصناعة في « أعماق البلاد » و« أن تسير على ساقين » ، كإقامة الصناعة الكبرى والصناعات المحلية ، وأنتجت الكومّونات ٢٠٪ من الفولاذ ، ٤٠٪ من الأسمنت والفحم و ٦٠٪ من الأسمدة .

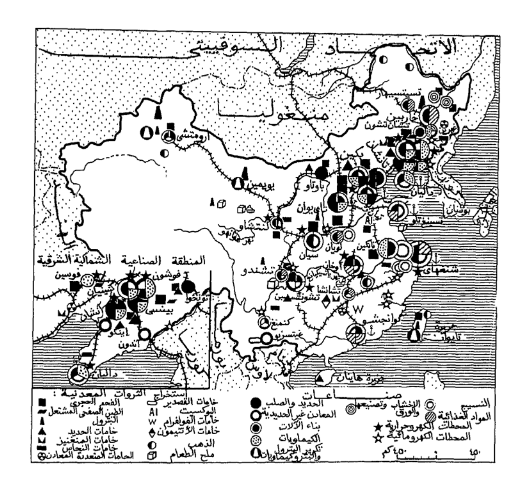
ويقوم « **ميثاق آنشان** » على إشراك الأُطر بالإنتاج والعمال بالتسيير ، وعلى إلغاء العلاوات ، ويقلص مروحة الأجور غير أن التعتيم الإحصائي ظل يحجب النتائج ، التي تبدو متفاوتة للغاية وذلك حتى عام ١٩٧٠ (شكل ١٦) .

ومع **دخول المخطط الرابع** (١٩٧١ ـ ١٩٧٥) **تطورت السياسة الصناعية** : فبعد أن أصبح لدى الصين كميات نفط للتصدير ، زادت من مبادلاتها ، **وراحت تشتري التجهيزات** ، وكرّست فترة ما بعد الماويّة القطيعة ، إذ **أصبح للخبير الأرجحية على رجل السياسة** . وشجعت الإنتاجية بعلاوات المردود . أما على الساحل فقد تمّ بناء الوحدات البتروكيماوية ،



صناعات الصين ومواصلاتها
مدينة أكثر من سبع ملايين نسمة
مدينة أكثر من ثلاث ملايين نسمة
مدينة أكثر من مليون نسمة
مدن أخرى
أحواض آسيا الوسطى الداخلة في التصميم
حقول بترول رئيسية
مناجم فحم رئيسية
مجال الصناعة المعدنية الثقيلة
طرق رئيسية عابرة للقارة
خطوط حديدية رئيسية
ملاحة تجارية على نهري يانغ تسي وسيكيانغ
منغوليا الخارجية
منشوريا
التيبت
كانسو
سينكيانغ
أولان باتور
كولجا
كاراماي
أورومتس
كاشغر
خوتان
سهوب تسايدام
(تسنغهاي)
لانتشيو
لهاسا
بكين
باوتيو
شنغهاي
ووهان
كانتون
ماكاو
هونغ كونغ
فورموزا
تايبه
كوريا
طريق بورما
الشكل ١٦

ووحدات صناعة الحديد الحديثة ، التي تم شراؤها « مفتاح باليد » من اليابان أو من أوروبا وتبدو أنها استوحت كثيراً من تجربة اليابانيين وخبرتهم الرائدة (شكل ١٧) .



الصناعة في جمهورية الصين الشعبية

الشكل ١٧

سياسة اقتصادية أكثر واقعية :

لقد كانت الأسباب الرئيسية لإعادة النظر . لمخطط العشري (١٩٧٦ ـ ١٩٨٥) ، الذي تم نشره في آذار (مارس) ١٩٧٨ ، هو الطابع الطوبائي للأهداف المقترحة ولاختلاف التوازن الناجم عن هيمنة الصناعة الثقيلة بصورة مفرطة ، ولا سيا الصناعة الحديدية . فلم يخف العوز إلى الطاقة وكثرة أعناق الاختناق في وسائل النقل ، مما أدى إلى عرقلة نشاط المؤسسات ، فكان من الواجب تنمية إنتاج الكهرباء ، وتقليص بعض مشاريع التجهيز الهامة . وهكذا كان مخطط « التعديل وإعادة البنية restructuration والتمتين والإصلاح » يستدعي الاهتمام بالنقاط التالية :

ـ زيادة إنتاج الحبوب والمحاصيل الزراعية الأخرى ، واستناداً إلى المجلة الرسمية « بناء الصين » : « الزراعة هي ركن الاقتصاد الوطني . والتنمية الكاملة للزراعة هي التي تستطيع أن تسمح بتقديم الغذاء الوفير لسكان المدن ، وكذلك المادة الخام الضرورية للصناعة الخفيفة ، ولا سيا النسيجية ، سواء للحاجات المحلية وللتصدير . وعندما يبلغ الفلاحون وعددهم ٨٠٠ مليون نسمة مستوى الرفاهية فإن السوق الداخلية تستطيع أن تنمو من نفسها .

ـ تنمية الصناعات الخفيفة والصناعات النسيجية كي يمكن تزويد الجماهير بما يكفي من سلع الاستهلاك والتي ستزداد رواجاً مع تزايد القدرة الشرائية ، وأيضاً لزيادة حجم الصادرات .

ـ عدم الاكتفاء بتحسين الكية فحسب ، بل وجوب تحسين النوعية ، وتنويع منتجات الصناعة الثقيلة .

ـ بذل الجهود لتحقيق زيادة منتظمة في دخل العمال والفلاحين .

ـ إعادة النظر في بنية التسيير الاقتصادي الذي يجب أن يمنح مختلف وحدات الإنتاج العاملة في الصناعة والتجارة والزراعة والمواصلات والنقل أكبر سلطة ممكنة للحسم وتخصصاً أكثر تقدماً .

ـ ضرورة أن تبذل المؤسسات جهدها لتحسين الإنتاج والتسيير والمستويات التقنية .

ـ نشر وتعميم التخطيط العائلي .

كا تم الإلحاح على ضرورة رفع السوية المعاشية أيضاً ، وذلك بتنشيط صناعة الخدمات وتنميتها .

عن مجلة قضايا اقتصادية ، ومجلة الشرق الأقصى
الاقتصادية . هونغ كونغ ٥ تشرين أول ١٩٧٩

بناء مصفاة بترول في يومن (غانصو)

لقد كانت أعمدة التقطير الجوي ذات أبعاد متواضعة . وتعالج مصفاة يومن Yumen بترول حقل يقع في الغرب الصيني . وهو أول حقل على قدر لا بأس به من الأهمية تم اكتشافه . ولكن دوره ينحصر بتموين إقليم غانصو . وهناك أنبوب ينقل النفط إلى مصفاة لانزهو على نهر الهوانغهه أو « هوانغهو = النهر الأصفر » وهي كمية أكبر من نفط يومن . وقد كوّن الصينيون جيولوجييهم بأنفسهم ، وكذلك فرق الحفر . غير أن صناعة التكرير تواكب مع بعض التأخير نجاحات التنقيب واستغلال البترول في الصين . غير أن النجاحات التكنولوجية في الصين لا تكون مع ذلك أقل دهشة .

« ففي خلال أول مخطط خماسي ، كانت الصين تستطيع أن تحقق بنفسها إنتاج ٥٥٪ من المكائن التي كانت بحاجة إليها ، أما الباقي فكان يجب تقليده حرفياً أو استيراده . وفي نهاية المخطط الثاني ، ومع تزايد الحاجات ، فإن نسبة المستوردات ارتفعت إلى ٨٥٪ . كما أن انتشار المهارة التقنية ، كانت تسير موازية مع نمو طلائعي في بعض وحدات الإنتاج ، وفي ١٩٧٢ كان المستوى التكنولوجي في بعض الفروع الصناعية لا يزيد تأخراً بأكثر من ١٥ سنة عن أفضل المستويات في الأقطار المتقدمة .

عن ب . جنتل . الصين

P.U.F . ١٩٧٤

مركبّ الصناعة الحديدية في ووهان :

وهنا يبلغ التضاد حده الأقصى بين هندسة الأفران العالية ، وبين وسائل النقل اليدوي ، إذ قد نجد عاملة تحمل رافعة حديدية على كتفها ، أو تقوم بأعمال الحفر والردم . وقد كان إنشاء هذا المركز على نهر اليانغزي ، في سافلة مدينة ووهان ، في القلب الجغرافي للصين القديمة ، واختيار موقع مصنع الصناعة الحديثة هذا ، حسب أسلوب سوفياتي ، أقول : كان تقليدياً تماماً ، بجوار منجم فلزات الحديد ، وعلى مسافة معقولة من منجم فحم حجري . غير أن أعمال بناء هذا المصنع استغرقت مدة عشرة أعوام ، تطورت التكنولوجيا خلالها .وينتج مركّب ووهان اليوم ١٠٪ من الفولاذ الصيني ، الذي بلغ ٣١,٥ مليون طن ١٩٧٨ ولكنه أصبح من نمط قديم ، إذ يتم الآن في الصين بناء مركّبات صناعة حديدية ، كما في شنغهاي مثلاً ، يكون موقعها ومؤسساتها مستوحاة من النمط الياباني . ومنذ عام ١٩٧٠ تقدم إنتاج الصين بحوالي ٥٠٪ ، ولكنه يظل أدنى ، من حيث القيمة ، من إنتاج فرنسا (التي يقل عدد سكانها عن الصين بحوالي ١٩ مرة) . ولكن يظل التقدم الكمي أقل إثارة للإعجاب من التحسينات التقنية ، المرتبط « بانفتاح » الصين ، التي أصبحت تتخذ مظهر دولة صناعية كبرى .

البنى الصناعية وأماكن توطينها

كانت المناطق المفتوحة أمام النفوذ الأجنبي ، خلال النصف الأول من القرن الحالي ، هي الوحيدة التي شهدت بداية تصنيع ، فكانت الصين والهند المستعمرة في مرحلة واحدة . وإذا كان الاهتمام منصرفاً في بداية النصف الثاني من القرن العشرين نحو **ترميم وإصلاح النواة الصناعية** في الشمال الغربي ، فقد كان من المناسب **تحديد أمكنة الأقطاب الجديدة** ، استناداً إلى وجود المواد الأولية ، وإمكانات النقل والحاجات الإقليمية .

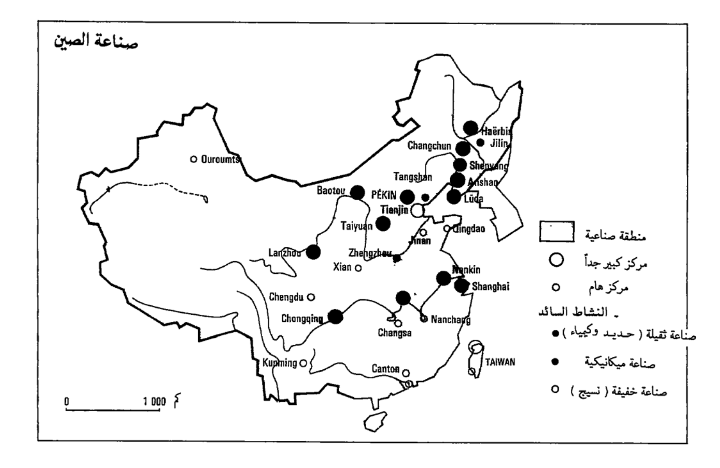
وهكذا كان التخطيط واللامركزية يسيران جنباً إلى جنب . وكانت هناك **ثلاثة قطاعات تساهم في الإنتاج الصناعي** . فلم يكن على **الكومونات الريفية** إلا الانقياد لتوجيهات المخطط العامة ، وأن تتحمل على عاتقها كل الاستثمارات ، وكان العمل الصناعي الخاضع لضرورات التقويم الزراعي ، مأجوراً كالعمل في الحقول . وكان لدى الكومّونات ، حسب موقعها ، فوائض إنتاجية كالفحم والإسمنت ، أو تكتفي بصيانة الأدوات الزراعية ، وبتحضير السماد . ويبدو أن نصيب الصناعة الريفية يتجه للتناقص . أما في المدن **فإن مؤسسات الصناعة الخفيفة** ، وهي التي يقل عدد عمال الواحدة منها عن ٢٠٠٠ عامل مهما كانت طبيعة المصنوعات ، فقد دخلت في الإنتاج المبرمج ، لأن الدولة هي التي تقدم الاستثمارات التحويلية ، وتتلقّى الأرباح ، غير أن وزارة الصناعة الخفيفة ، تترك مهمة التسيير فيها للبلديات أو للتعاونيات العمالية . **ولكن المؤسسات الكبرى في الصناعة الثقيلة هي التي تتعلق كلياً بالدولة .**

ويبدو أن الإنتاج الصناعي المخطط هو الذي يحتل مثلثاً تتألف قاعدته من مجرى نهر اليانغزي ، أي يمتد من شونغكينغ إلى شنغهاي ، وتقع قمته في هايربين في منشوريا (شكل ١٨) .

أما في الغرب فلا نجد شيئاً سوى المراكز النووية وبعض الصناعات الأساسية كالصناعة الحديدية في **باوْتو** Baoutou والبتروكيميا في **لانزهو** . ويحتوي الجنوب على مناجم مبعثرة وصناعة حرفية نشيطة ، ولكن القليل من المصانع الحديثة ، وذلك حتى في كانتون ذاتها . أما الحوض الأحمر فلم يتخلّص بعد من عزلته ، ولهذا لا يستفيد كل الاستفادة الممكنة من ثروته الطاقية الكبرى ، كما أن موقع مدينة شونغكنغ الكثير التضاريس لا يكون مناسباً للصناعة الثقيلة .

وعلى العكس من ذلك يستأثر الوادي الأوسط والأدنى لنهر اليانغزي بما يعادل ٢٩٪ من الصناعة الصينية ، ولا سيما في **ووهان** ، عند تقاطع محور الخط الحديدي ، الذي يربط كانتون ببكين ، مع الطريق الصالح للملاحة ، حيث تقوم الصناعة الحديدية والمكانيكية ، وفي **نانكين** التي ازدهرت بالصناعة البتروكيماوية والألكترونية وأخيراً في **شنغهاي** التي عادت فأصبحت أكبر بؤرة للصناعات ، ولأكثر الأنشطة تنوعاً وأكثرها ديناميكية .

أما النمو الصناعي في الصين الشمالية ، التي تقدم ١٧٪ من الإنتاج ، **فهو أكثر سرعة أيضاً** ، وهو يقوم على الصناعات الاستخراجية وعلى النسيج ، والصناعة الحديدية والميكانيكية والكيماوية . أما **مثلث بكين ـ تيانجين ـ تانغشان** (مناجم فحم) فهو الذي يحظى بكل صنوف الرعاية ، لأنه يعتبر الموازن لمنطقة اليانغزي الأدنى ، ويظل الشمال الشرقي الذي يقدم ٢٤٪ من الإنتاج وهو « **حَرَم** » **منشوريا** ، يظل مع ذلك « **الرور الصيني** » ، فالمنطقة الصناعية تمتد فيه من شنيانغ شمالاً إلى ميناء لودا جنوباً ، هذا فضلاً عن مناجم فحم فوشون ، ومصانع الفولاذ في آنشان .


صناعة الصين
Ouroumtsi
Haërbin
Jilin
Changchun
Shenyang
Tangshan
Anshan
Baotou
PÉKIN
Lüda
Tianjin
Taiyuan
Qingdao
Jinan
Lanzhou
Zhengzhou
Xian
Nankin
Shanghai
Chengdu
Chongqing
Nanchang
Changsa
TAIWAN
Kunming
Canton
0
1 000 كم
منطقة صناعية
مركز كبير جداً
مركز هام
النشاط السائد
صناعة ثقيلة (حديد وكيمياء)
صناعة ميكانيكية
صناعة خفيفة (نسيج)

الشكل ١٨

تظل **الصناعات الحديثة** ، على مقياس الصين ، **متمركزة نسبياً على المستوى الجغرافي** . فقد تعرضت سياسة اللامركزية لمشكلات قاهرة متنوعة : كمواقع مصادر الطاقة ، وثغرات منظومة النقل ، والافتقار إلى الأيدي العاملة المؤهلة . وهكذا تمّ نقل تجهيزات بعض المغازل من شنغهاي نحو مدن السهل الكبير ، وإلى حقول القطن ، وفوق مناجم الفحم . ولكن ظلت قوانين العطالة inertie تلعب دورها إجمالياً : فقد احتفظت مراكز الصناعة القائمة في عام ١٩٤٩ مثل شنغهاي ، أو مدن منشوريا بمزية اسبقيتها . كما أن الاهتمام بالهيبة هو الذي يفسّر ، إلى حدّ ما ، النمو الصناعي في مدينة بكين .

فوشون :

لقد قام اليابانيون باستغلال مناجم الفحم « على المكشوف » الواقعة هنا في وسط السهل المنشوري ، مثلما استغلوا طبقات الشيست البيتومي التي تمتطي طبقات الفحم . وقد عمل أول مخطط خماسي ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ بمعونة من السوفيات ، على جعل هذه المنطقة قاعدة قوية للصناعات الثقيلة ، والتي استوحت بشكل خاص من العمران الصناعي في مدن سيبريا . ولا يزال الشمال الشرقي يقدم نصف البترول من آبار داكنغ ، وربع الفحم ، وثلث الفولاذ من آنشان ، مثلما يصنع أكثر آلات التجهيز تعقيداً . وفضلاً عن مراكز الصناعة الوحيدة كما في آنشان ، فإن المدن الكبرى مثل هاربين (خاربين) وشانغشون ، ولود (دايرن) ولا سيما شنغيانغ ، والتي تضم ٢٠٠٠ مصنع ، تحوي أكثر الصناعات التحويلية تنوعاً : كإنتاج زيت الصويا ، والورق ، والنسيج والكيماويات .

☆ ☆ ☆

الصناعات الثقيلة والصناعات الخفيفة

تحوي الصين معظم المواد الأولية الضرورية للصناعة . ولكن الخشب يكون نادراً إلاّ في منشوريا ومع هذا تصنع السيللولوز أيضاً والورق اعتماداً على أقصاب البامبو ، أو من تفل قصب السكر بعد عصره . وتضطر الصين لاستيراد المطاط من سيلان . ومنذ قليل راحت تستورد بعض القطن من باكستان أو ما يعادل عشر حاجاتها منه . أما باطن أرضها ، الذي لم يتم بعد التنقيب عن كل مكنوناته ، فهو ليس غنياً بالمحروقات فحسب ، بل تكشّف عن **وجود الملح** في

سشوان ، **والفوسفات والكاءولان** ، **ومعظم الفلزات المعدنية** . هذا كما تستغل الصين من أجل التصدير **الأثمد والتنغستين** لأنها تقدم نصف إنتاج العالم من الصين الجنوبية ، مثلما تستثمر من أجل الاستهلاك الوطني ، الذي لا زال ضعيفاً ، القصدير والنحاس من يونّان ، والرصاص والزنك من منشوريا وكذلك المنغنيز . ولكن الصين تفتقر للبوكسيت ، ولكنها تستمد الألمنيوم من طبقات الشيست الآلومينية ذات المحتوى الفقير .

هذا وتعتمد الصناعة الحديدية على كل فلزات الحديد المحلية التي تعالج في أفرانها العالية . وتكون مناجم خامات الحديد عديدة وجيدة التوزع . فهناك جيوب من الفلز الجيد **قرب ووهان** ، وفي إقليم شانسي ، ولكنها تكثر في **منشوريا** ، وفي **منغوليا الداخلية** ،وفي جزيرة هاينان حيث تتوفر أكداس من الخامات أكثر غزارة على شكل طبقات سميكة ، مؤلفة من فلزات فقيرة ، سهلة الاستخراج ، ولكنها تكون عسيرة المعالجة .

وتجسّد **نهضة الصناعة الحديدية** خلال المخطط الأول ، ثم أثناءه « القفزة الكبرى إلى الأمام » مثلما تمثل **نجاح الصين الجديدة** . وبعد عشرة أعوام **من خيبة الأمل التقنية** ، أصبحت النجاحات محسوسة : فبلغ الإنتاج ١٨ مليون طن في ١٩٧٠ ، وصعد إلى ٣١,٧ مليون طن في ١٩٧٨ و ٣٥ مليون طن في ١٩٨١ . وقد خمدت نيران « الأفران العالية الفلاّحية » ، ولكن لا تزال **مصانع الفولاذ المحلية الصغيرة** تسكب نسبة لا بأس بها من هذا المعدن . غير أن **للمجمّعين الجديدين في ووهان وباوتو** ، القريبين من الفلزّات ، والأكثر بعداً عن فحم الكوك ، مسيرة غير منتظمة ، في حين يكون لمجمّع **آنشان** ، الموروث عن اليابانيين والذي تجهّز من جديد ، قدرة أكبر بكثير ، إذ يبلغ إنتاجه ٦ ملايين طن من الفولاذ ، ويتمتع بوسائل نقل أفضل تتمثل بشبكة كثيفة من خطوط حديدية ، في منشوريا ، وتنتج بالتضافر مع مصانع الفولاذ الحديثة في بكين وفي

شنغهاي ، فولاذاً أفضل كالسكك الحديدية وصفائح أنابيب النفط . **ولكن إذا نظرنا إلى استهلاك الفرد الصيني للفولاذ والبالغ ٣٠ كغم تقريباً وجدناه أقل من الياباني بعشرين مرة** . كما تنتج الصين من الإسمنت حوالي ٦٢ مليون طن ، أي أقل من اليابان التي يقل سكانها ثماني مرات عن الصين . ومنذ ١٩٧٠ تكاثرت وحدات **صناعة البتروكيمياء** ، كالمنسوجات التركيبية والبلاستيكية ، كما تقدم صناعة الأسمدة للزراعة ٤٨ مليون طن تنتج ورشات الكومونات منها نسبة ٤٠٪ .

ويشيّد **الصينيون** في منشوريا وفي شنغهاي تسلّحهم **وسلع تجهيزهم** : كالمكائن الصناعية والعنفات ، وكل تجهيزات الخطوط الحديدية ، مثلما ينتجون ١٠٠٠٠٠ جرّار « تراكتور » وشاحنات ، ولكن القليل من السيارات السياحية[1] . **ويتطور إنتاج سلع الاستهلاك** حيث تقدم المؤسسات الحرفية التعاونية ٢٠ ٪ ، بسرعة كبيرة تلبية لطلب سوق وطنية تزداد انفتاحاً ، كالدراجات وأجهزة الراديو ، والساعات وللتصدير . وتستطيع الصناعة النسيجية ، وهي الأولى في العالم بلا ريب ، أن تؤمن كساء الجماهير الصينية ، مثلما تحقق للصين ١٧ ٪ من مبيعاتها الخارجية على شكل ألبسة جاهزة خارجية وداخلية انتشرت الآن في أقطار الخليج بشكل كاسح لرخص أسعارها التي تقل بحوالي ٥٠ ٪ عن مثيلاتها التي تنتج في البلاد العربية المجاورة .

---

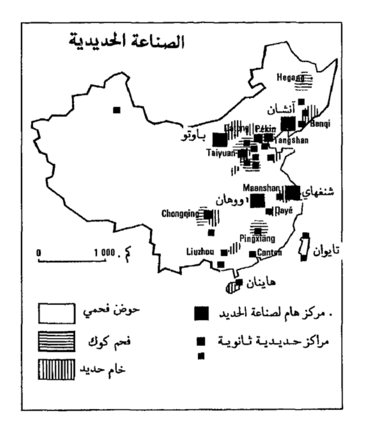
(١) لايزال الشعب الصيني الانضباطي يمارس سياسة « شد الأحزمة على البطون » إذ لاوجود للترف ولا للسيارات الخاصة السياحية ، بل دراجات للجميع ، وباصات متوفرة ونظيفة ، وكل ذلك في سبيل تحقيق رفاهية الجيل القادم والقضاء على « مفعول التظاهر » والحسد والنزاع الطبقي الكاذب .

النمو المقارن للصناعة الحديدية والصناعة النسيجية : بعد أن جرت التضحية بالصناعة الخفيفة خلال المخطط الأول ، ولاسيا خلال القفزة الكبيرة إلى الأمام ، تبدو اليوم وهي تنمو بصورة أفضل من السابق . **فالصناعة النسيجية** ، التي كانت هامة في ١٩٤٩ حتى أنها كانت تقوم بالتصدير للخارج ، لاتزال في معظمها متمركزة في المراكز الحضرية الكبرى التقليدية ، حول شنغهاي التي تنتج ٣٠ ٪ وفي تيانجين . غير أن المصانع الحديثة قامت في مناطق زراعة القطن كالسهل الكبير ، وفي معظم المدن الكبرى مثل سيان وبكين . وتبدو الصناعة القطنية أكبر مستهلكة لألياف القطن في العالم . غير أن المحصول السنوي الصيني من القطن والذي يبلغ وسطياً ٢,٥ مليون طن قد أصبح غير كاف . وتستورد الصين ٥٠٠٠٠٠ طن من الأقطان الطويلة التيلة ، أي أكثر من إنتاج مصر كله ، مثلما تدمج فيها الخيوط الاصطناعية والتركيبة أكثر فأكثر . فلم يعد الصينيون الذين زاد عددهم بنسبة ٥٠ ٪ منذ ١٩٥٢ يكتسون بصورة أفضل فحسب ولكن الصناعة تزيد من صادراتها من الأقمشة المصنوعة ومن الألبسة الجاهزة ، كالألبسة الداخلية والتريكو والملبوسات الجاهزة التي تحمل أحياناً ماركة هونغ كونغ ، أو ماكاؤو البرتغالية .

هناك الكثير من المكامن المعروفة والمستغلّة بصورة تقليدية منذ زمن بعيد . وإذا استثنينا خام الحديد فإن الصين الجنوبية تبدو أكثر غنى بالمعادن المتنوعة ، وعلى الخصوص إقليم هونان ، سيشوان ويونّان ، ولكن هناك الكثير من المكامن المعدنية البعيدة المنال . وإذا كانت مروحة الثروات المعدنية التي لاغنى عنها في صناعة المعادن ، وفي الكيمياء ، تبدو كاملة نوعاً ما ، فإن احتياطاتها تبدو محدودة . ولا زالت هناك مناطق واسعة تنتظر التنقيب كالتيبت . ولا تنتج الصين حالياً أكثر من ٢١٠٠٠٠ طن من الألمنيوم و ١٧٥٠٠٠ طن من النحاس أي أقل من جارتها اليابان بست مرات .

وتبدو مواقع **مصانع الحديد** (شكل ١٩) خاضعة لقوانين تقليدية : كوجود المواد الأولية ، ومنظومة المواصلات . أما خام الحديد ، الذي يتوزع على مكامن عديدة ، تكون على العموم ذات محتوى ضعيف ، فينقل إلى مسافات أقصر من الفحم الصالح لصنع الكوك ، والنادر نوعاً ما في الصين الجنوبية . وتكون أكثرية المصانع ذات قدرة ضعيفة بالموازنة مع المعايير العالمية ، وتشكو من تأخر تقني حقيقي . ولا تنتج الصين سوى القليل من أنواع الفولاذ الخاصة ، مثلما تفتقر لصانع الفولاذ العاملة على الأوكسجين ولبعض وسائل التصفيح اللازمة لصنع الأنابيب . وقد ظهرت صناعة الحديد الساحلية عند مصب نهر اليانغزي في مشروع باؤوشان Baoshan ، والتي تعتمد على الطريق البحري في تموينها ، وربما كان ذلك على خامات الحديد المستوردة .

هذا وقد استقرت صناعات الميكانيك الدقيقة في الصين الشمالية : ذلك لأن الأيدي العاملة الصينية ، من ذكور وإناث ، مشهورة منذ القديم بحذقها ، الذي يعتبر عامل نجاح في سياسة التصنيع . وبما أن الصين كانت معروفة منذ زمن طويل في الخارج بنوعية وبقيمة منتجات صناعتها الحرفية على الصعيد الفني ، كالأقمشة الحريرية والسجّاد والبورسلان ، فقد أخذت الآن تسير على خطى هونغ كونغ وتايوان لكي تتحول إلى دولة مصدّرة ومنافسة في صنع سلع الاستهلاك الدارج ، الذي يستدعي الكثير من الشغل والقليل من المواد الخام : كأجهزة الراديو والترانزستور والساعات . وستصبح الصين قريباً وبعد تأخر مقداره نصف قرن ، عبارة عن يابان من نوع آخر على الأسواق العالمية .



الشكل ١٩

بعد ثلاثين عاماً من الثورة : حصيلة إيجابية

يعتبر الصينيون التخلّف ناتجاً عن البنى الاجتماعية التقليدية ، ومن تنظيم اقتصادي رديء لوجود الرأسمالية والهيمنة الأجنبية . وكانت **الصين الماويّة** تعتمد في تنميتها على الذات ، **مستمدة استثماراتها** الاقتصادية والاجتماعية **من منتجات زراعة تتمتع بالأفضلية** . ولا ينظر إلى تفوق القطاع الأولي ، على أنه قرينة تخلف في بلد يؤلف الفلاحون فيه ٧٥ ٪ من العاملين ، والذين لهم دور متعدد الأنشطة في الكومونات الريفية . ويأكل كل صيني مافيه الكفاية لكي يعيش وأن يعمل بحماسة . وتوزّع الأقوات حسب حصص تتناسب مع السن ومع نوعية العمل ، فتتراوح بين ١٥ و ٢٢ كغم من الحبوب شهرياً توفر وسطياً مقدار ٢٢٠٠ سعرة (كالوري في اليوم) أو ثلثي جراية الأمريكي الشمالي : وتكون الأجور زهيدة ، بيد أن الغذاء والسكن ، حيث يخصّص لكل مواطن أربعة أمتار مربعة ، رخيصان ، ولا يمتصّان أكثر من ٣٠ ٪ من دخل الأسرة الوسطى ، ذلك الدخل الذي يتقدم بمعدل ٥ ٪ في العام .

وتظل الصين قطراً فقيراً ، ولكنها استطاعت على الأقل في خلال ثلاثين عاماً أن **تقضي أو تخفف** المشكلات المألوفة في العالم الثالث المتخلف مثل : الأمية ، سوء التغذية ، العوز الصحي ، التأخر التقني ، ولاسيما النمو الديموغرافي الوثّاب ، الذي يعتبر عنصر ضعف مع الفقر ، لأن ﴿ المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقد قدّرت قيمة إنتاج السلع المادية بمبلغ ٣٠ مليار دولار للزراعة و ٩٠ مليار دولار للصناعة . **ويقدر الناتج القومي الخام الحالي للصين** ، والذي يبدو

من المتعذر حسابه بدقة ، بحوالي ٤٠٠ مليار دولار [١] ، أي تعادل مرتين ونصف دخل الهندي المتوسط . ومنذ عام ١٩٧٦ **أصبح الإصلاح والتعديل الاقتصادي** ، الذي يستهدف تطبيق قوانين « الإصلاح الموضوعي » ، يرمي إلى رد الاعتبار للعائدية ، وإلى الربح ، وإلى قيمة البضائع ، ولاسيا حقيقة الأسعار . وتحتفظ الزراعة « حسب مميزات القطر » بأرجحيتها ، ولكن سيخصص **المزيد** من الاستثمارات **للصناعة الخفيفة** التي تقدم مواد التصدير . أما في الصناعة الثقيلة ، فإن الجهود كلها يجب أن تتجه نحو بعض المشاريع الرئيسية . ويرمي المخطط الحالي إلى استثمار ٦٠٠ مليار دولار قبل عام ١٩٨٥ ، منها ٨٥ مليار على شكل تجهيزات وتقنيّات مستوردة من الخارج .

ولم تحقق الصين حتى الآن سوى ١٪ من المبادلات الدولية ، مع أنها تضم ضمن حدودها ربع سكان الأرض تقريباً ، فهي توازن بين مشترياتها ومبيعاتها خلال فترة المخطط الخماسي إن لم يكن تحقيق ذلك في كل عام . فهي لاتزال تعتمد دوماً على **صادراتها التقليدية** ، أي الحرير الخام ، الشاي ، مسحوق البيض ولحم الخنزير ، والزيوت النباتية ، المعادن الاستراتيجية ، ولكنها أصبحت تصدر المزيد من المنتجات المصنوعة ، **والبترول** منذ فترة وجيزة . وتسيطر سلع التجهيز طبعاً في قائمة المستوردات ، ولكن الصين زادت كثيراً من مشترياتها الغذائية .

وقد **تبدّل عملاء الصين** بشكل جذري خلال العشرين سنة الأخيرة . فبعد أن كانت ثلاثة أرباع تجارتها تتحقق مع الاتحاد السوفياتي ، ودول أوروبا الشرقية ، راحت **تتجه نحو الأقطار الرأسمالية الصناعية** . وهكذا تمتص هونغ كونغ واليابان ٣٤ ٪ من صادراتها ، مثلما أصبحت اليابان أول مصدّرة للصين أو ٢٦ ٪ فسبقت جمهورية ألمانيا الاتحادية بمسافة بعيدة .

---

(١) أو أربعة أضعاف الناتج القومي الخام في المملكة العربية السعودية في ١٩٨١ والتي يقل سكانها عن الصين مئة مرة .

لم تخضع **طبيعة المستوردات حتى ولا الصادرات ذاتها إلى تحولات جذرية** ، فإذا نظرنا إلى مجموعات المنتجات الكبرى لانجد أنها قد خضعت لتحولات جذرية . ويتجلّى تصنيع الصين على شكل انكماش خفيف في المنتجات المصنوعة ، وزيادة نصيبها في الصادرات . ولكن العملاء التجاريين طرأ عليهم التغيير . ففي عام ١٩٥٥ كانت الصين تقوم بثلاثة أرباع تجارتها مع الأقطار الاشتراكية ، ولاسيما مع الاتحاد السوفياتي ، الذي كان يقدم التجهيزات الصناعية وكان يتقاضى أثمانها سلعاً غذائية ومواد أولية ، كانت الصين في أمسّ الحاجة إليها . ومنذ قطيعة ١٩٦٠ أصبحت المبادلات مع الكتلة الاشتراكية ورومانيا على رأسها ، محدودة جداً . وتعتبر اليابان اليوم أول عميل تجاري للصين ، والمشتري الوحيد لنفطها . ويمر قسم من الصادرات الصينية عبر هونغ كونغ ، والتي تشتري أقواتها من الصين ، مما يؤدي إلى اختلال في المبادلات مع المستعمرة البريطانية .

☆ ☆ ☆

إحصائيات غير مؤكدة

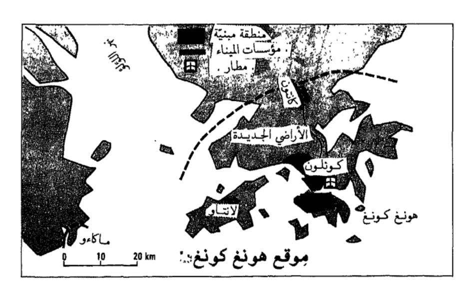
	حبوب بملايين الأطنان		قطن (ألياف) بآلاف الأطنان
١٩٥٧	إحصاء رسمي	١٦٣	٢٤٠٠
١٩٥٨	أول تقدير للقفزة الكبرى إلى الأمام	٣٧٥	٣٣٠٠
١٩٥٨	تصحيح إحصائي	٢٥٠	٢١٠٠
١٩٥٨	الهدف الأصلي	٥٢٥	٥٠٠٠
١٩٥٩	الهدف المراجع	٢٧٥	٢٣٠٠
١٩٦٢	الهدف المحدد لعام ١٩٦٢	٢٥٠	٢٤٠٠
١٩٧٠	أرقام شبه رسمية	٢٤٠	١٧٠٠
١٩٧٨	إحصاء رسمي	٣٠٤	٢٤٠٠

وبين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ لم ينشر الصينيون شيئاً من المعطيات الإحصائية، إلا نسبة النمو المئوية بالنسبة لِقيَم مشكوك فيها أو متناقضة ، أذيعت في ١٩٥٨ و ١٩٥٩ . وقد أمكن الحصول على بعض الأرقام من خلال الخطب الرسمية ، أو خلال الحوادث الخاصة . ولأول مرة منذ ٢٠ عاماً ، في ١٩٧٩ ، أعلنت الصين عن أرقام وعن نسب مئوية عديدة ، كانت على علاقة ضئيلة مع التقديرات السابقة التي نشرها المراقبون الأجانب المختصون بالاقتصاد الصيني .

☆ ☆ ☆

أبواب الصين : هونغ كونغ ، تايوان ، ماكاؤو

تضم مستعمرة هونغ كونغ البريطانية جزيرة تنازلت الصين عنها في عام ١٨٤١ بعد حرب الأفيون ، « **والأراضي الجديدة** » فوق القارة المؤجرة إلى بريطانيا حتى عام ١٩٩٨ . وقد نمت مدينة عملاقة ضمن إطار من الجبال الصلعاء (شكل ٢٠) ، والخلجان المتقطعة تجاه ماكاؤو ، الميناء التجاري البرتغالي منذ القرن السادس عشر ، وذلك حول ميناء هونغ كونغ . **وتتساهل الصين في وجود هذا الجيب الأجنبي المأهول بالصينيين ، ولكنه تابع بكليته للصين** ، ولاسيا في تموينه بمياه الشرب وبالمواد الغذائية . وتستخدمه الصين كحلقة اتصال مع الأقطار الرأسمالية ، أو مع « الجاليات » الصينية في جنوب شرق آسيا ، ومنه تستأجر سفن الشحن . وتهيمن بناية مصرف الدولة الصيني على حي الأعمال في هونغ كونغ .



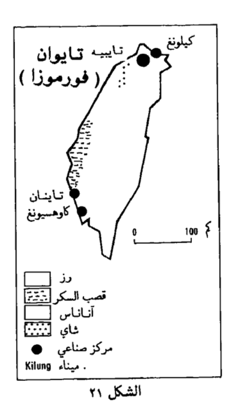
الشكل ٢٠

وتبلغ تجارة الترانزيت التي تمر من مستودعات الميناء الحر فيها ٢٠ مليون طن . ولكن تزدهر كل أنواع التجارة في هونغ كونغ ، حيث يقوم مخرجو الأفلام والسواح بالبحث بشغف عن صور « الصين القديمة » الملونة والصاخبة والساغبة . وقد كان **تزايد السكان في هونغ كونغ خارقاً ، فضلاً عن تضخمه بأفواج اللاجئين ، فبعد أن كان عددهم ١,٨ مليون في ١٩٤٨ بلغ اليوم ٥,٢ ملايين نسمة** . وعلى الرغم من تكاثر العمارات الضخمة على التلال فإن المدينة تشكو من الاختناق ، لأن الكثافة السكانية تصعد فيها إلى ٢٠٠٠ نسمة في الهكتار ، كما أن أحياء العشش أو أحياء المراكب لاتتوقف عن الامتداد .

ويجد الرأسماليون الصينيون هنا الأيدي العاملة الوفيرة والقانعة بأجور الجياع والعاملة في مصانعهم ، التي **تنتج الأقمشة القطنية والمطرزات ، والمصنوعات البلاستيكية والألكترونيات** . ويبدو الدخل الفردي الخام لكل مواطن في هونغ كونغ والبالغ ٢٤٠٠ دولار دخلاً عالياً ، لأنه يزيد بستة أضعاف عن دخل الفرد الصيني ، بيد أن الثروات تكون رديئة التوزيع للغاية . وعلى مسافة ١٥٠ كم إلى الشرق من الصين ، تقع **جزيرة تايوان** ، أو فورموزا ، وهي جزيرة جبلية يكون انعدام التناظر فيها شديداً : فالسفح الباسفيكي يكون وعراً يتخذ شكل جرف ، أو شفا ، تخضع للتيفونات ، ويكون بالتالي كثير الغابات وقليل السكان (شكل ٢١) . ويتكدس **السكان الذين وفدوا من الصين على شكل عدة موجات** في الغرب فوق السهول والتلال المشرفة على مضيق فورموزا . وتنوء الجزيرة من كثرة سكانها المكتظين : فعلى مساحة تبلغ **٣٦٠٠٠ كيلو متر مربع يعيش ١٨ مليون** من السكان بحيث تزيد الكثافة فيها عن ٥٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، بعد أن كانت ٨ أشخاص فقط في ١٩٤٩ . وقد عملت أفواج الوطنيين الصينيين ورؤوس أموالهم ، والتجهيزات التي خلّفها اليابانيون ، والمعونة الأمريكية ، أقول : عملت جميعاً على **تسهيل**

التطور الاقتصادي . ولهذا يكون الدخل الفردي فيها ١٢٠٠ دولاراً أي أعلى ثلاث مرات من دخل الفرد الصيني في الصين الشعبية ، وتعتبر الصين الوطنية وكوريا الجنوبية وسنغافورة من الدول التي خرجت من مستنقع التخلف ، **وحققت عملية الإقلاع** .

وقد عمل الإصلاح الزراعي ، الذي أوحت به الولايات المتحدة ، على تحسين أوضاع الفلاحين الذين أصبح ٧٠ ٪ منهم ملاّكين ، ولكن المستغلات الزراعية في تايوان تكون صغيرة للغاية ولهذا يحظر البناء فوق الأراضي الصالحة للزراعة ، كما أن عقود الزراعة مع مصانع السكر والمعلبات قليلة الأرباح . ونظراً لإنعدام مصادر الطاقة لأن الجزيرة لاتحوي سوى القليل من الفحم والنفط ، والمراكز الكهرمائية ، فإن **الصناعات الخفيفة هي الغالبة** ، وتتألف من مصانع نسيج



الشكل ٢١

وألكترونيات وبلاستيك ، وهي التي تقدم أهم الصادرات حتى أن حصة سكر القصب هبطت من ٦٠ ٪ إلى ٢ ٪ فقط . بيد أن مركّب **كاوهسيونغ** ، الذي يحوي على مصانع البتروكيمياء وصناعة الحديد وإصلاح السفن **يجذب الاستثمارات اليابانية** : وتبدو وتيرة نمو الصناعة في فورموزا من أكثر أمثالها سرعة في العالم ، إذ بلغت ٢٥ ٪ في عام ١٩٧٨ .

وتضم العاصمة **تايپيه** (صورة ١) حوالي ٢,٥ مليون نسمة ، والمدن الشهيرة هي **كاوسيونغ** وفيها أكثر من مليون **وتاينان** ٦٠٠٠٠٠ ، وتايشونغ ٦٠٠٠٠٠ نسمة . وتنتج من الرز ٣,٧ ملايين طن ومن القمح ١,٣ مليون طن ومن البطاطا الحلوة ١,٧ مليون طن فضلاً عن الصويا وفستق العبيد . أما المزروعات التجارية فتتألف من قصب السكر والقمح والرز والتبغ والموز والأنناس . ويكون الصيد البحري فيها نشيطاً ، إذ تصيد ما يعادل زنته ٨٦٠٠٠٠ طن من الأسماك . وتنتج أرضها من الفحم الحجري ٣ ملايين طن بالعام .

☆ ☆ ☆

على الرغم من طابع **جزيرة تايوان** الجبلي ، إذ ترتفع أعلى قمة فيها الى ٣٩٠٠ م ، فإنها مستغلّة بشكل يثير الدهشة . ولقد استغلّها اليابانيون إلى أقصى حد ممكن بين ١٨٩٥ وعام ١٩٤٥ ، فاستمدوا منها الرز والفواكه المدارية ولاسيا السكر . ويشتمل السهل الغربي على مزارع الموز ، بينما تتغطى التلال بشجيرات الشاي وبمزارع الأناناس . وتحوي الجزيرة صناعة تعليب قوية تعالج ثمار الأناناس ، وأنشأت مزارع رأسمالية جديدة لإنتاج الفطور والهليون ، والتي أصبحت تنافس المنتجات الفرنسية في أوربا ذاتها . وقد أنشأت تايوان التي تقلّد اليابان ، حذو النعل بالنعل ، أسطولاً لصيد سمك التن (تون) وأوجدت تنوعاً كبيراً في صناعاتها بحيث تنفذ مشاريع صناعية هامة في دول الخليج العربي وتنافس بذلك كوريا الجنوبية . أما الزراعة التي يعمل فيها ٣٧ ٪ من العاملين فلا تقدم سوى ١٤ ٪ من الناتج القومي الخام . وتعيش تايوان من مبادلاتها التجارية ، وعلى الخصوص مع اليابان والولايات المتحدة اللتين تتقاسمان ٦٠ ٪ من التجارة الخارجية للجزيرة . وتصدر تايوان نصف ناتجها القومي الخام ، وهي نسبة مئوية مدهشة للغاية . ولقد استفادت جمهورية الصين الوطنية من عزلتها الاصطناعية . ولكنها بعد أن خسرت مقعدها في الأمم المتحدة في عام ١٩٧٢ ، لم تعد دولة كبيرة الوزن السياسي . وتايوان هي إقليم صيني وعليها أن تعود عاجلاً أو آجلاً إلى أمها الصين بصورة حتمية .

لقد استردت الصين كل الامتيازات الأرضية الأجنبية التي تنازلت عنها في الماضي بموجب « معاهدات غير متكافئة » خلال القرن التاسع عشر ، باستثناء مساحة ١٠٣٢ كم مربع من الأرض البريطانية في **هونغ كونغ** المؤلفة من جزيرة ومن شبه جزيرة . وهناك نفق بحري ربط منذ مدة وجيزة بين جزيرة فكتوريا وكوولان ، حيث تمتد مؤسسات البناء والمناطق الصناعية والمطار الذي امتد شطر من أرضه على حساب الخليج .

وأهم مدن مستعمرة هونغ كونغ هي العاصمة **فكتوريا** وفيها ١,٢ مليون نسمة ، وكوولون Kowloon وفيها ١,٨ مليون نسمة .

وتنتج صناعتها النسيجية ٢٠٠٠٠٠ طن من غزول القطن ، وبلغت صادراتها في عام ١٩٧٦ ٣٢,٨ مليار دولار هونغ كونغي مقابل استيراد مبلغ ٤٣,٢ مليار دولار مما يؤلف ١٢ ٪ من مجموع التجارة الصينية العامة .

وهناك مستعمرة **ماكاؤو** مساحتها ١٦ كيلو متر مربع وسكانها ٣٥٠٠٠ نسمة وهي ميناء توقف أي محطة ، وترانزيت فتتعرض لمنافسة قاتلة من هونغ كونغ وتصدر ألبسة ومنسوجات تشكل ٧٩ ٪ من صادراتها .

☆ ☆ ☆

تايوان

أو (فورموزة)

يبلغ عدد سكانها ١٧,٣ مليون نسمة (١٩٧٩) و ١٨,١ مليون في (١٩٨١) منهم ١٠٠٠٠٠ جبلي قريبون في عاداتهم ولباسهم من سكان جبال بيرمانيا ولاءوس وفيتنام الشمالية . ويبلغ دخل الفرد المتوسط فيها ٢٠٠٠ دولار ، أو خمسة أضعاف دخل المواطن في الصين الشعبية . ولدى كل أسرة جهاز تلفزيون ، وفيها ٣ ملايين مشترك بالتلفون ، وبلغت نسبة كهربة المساكن ٩٩,٩ ٪ . وقد طبقت حكومة تايوان إصلاحاً زراعياً استفاد منه نصف مليون أسرة فلاحية ، ويملك كل المزارعين اليوم الأرض التي يزرعون ، ويمنع القانون امتلاك مساحة تزيد عن ٣ هكتارات ، وقد اشترت الحكومة المساحة الزائدة ووزعتها على الفلاحين المحرومين بالتقسيط بعد أن عوضت على الملاكين الكبار نسبياً .

وقامت الدولة بتطبيق سياسة ناجعة تدعو « الأغنياء الجدد » لتوظيف أموالهم في الصناعة المتوسطة وهذا ما فعله كلهم تقريباً . فبين ١٩٥٢ و ١٩٧٩ زادت التجارة الخارجية أكثر من ١٠٠ مرة من حيث الحجم فقفزت من حيث القيمة من ٣٠٣ ملايين دولار إلى ٣١ مليار دولار أمريكي .

وعلى الصعيد الزراعي فقد منعت الحكومة البناء فوق الأراضي الصالحة للزراعة ، ويجب على مخططي المدن الجديدة أن يقيموها فوق الأراضي الوعرة أو فوق مناطق لا تصلح للزراعة . وسيشمل الري معظم السهول الصالحة للزراعة خلال بضعة أعوام ، ولحماية الجزيرة ، المعرضة دوماً لتهديد التيفونات والفيضانات الساحلية ، فقد تقرر بناء ٥٢٢ كيلومتر من السدود أو الحواجز وقد تم الآن بناء ١٥٢ كيلومتر منها .

وقد شملت المكننة كل المستغلات الزراعية في ١٩٨٢ ، وقفزت محاصيل الرز من ٦٤٠٠٠٠ طن في ١٩٤٥ إلى ٢,٥ مليون طن في ١٩٧٩ .

وتايوان اليوم التي تصل الكثافة فيها إلى ٤٧٦ نسمة في الكيلومتر المربع تماثل هولندا في أوروبا (٣٨٠) أو رواندا في أفريقيا (١٨٠) . ويخصص للجيش الذي يضم ٦٠٠٠٠٠ رجل وامرأة ٤٠ ٪ من الميزانية وتحتل المكانة الثانية في آسيا ، بعد اليابان ، من حيث احتياطيها من العملات الصعبة . وتتراوح صناعاتها بين لعب الأطفال الرخيصة إلى الألكترونيات مروراً بالنسيج . ولا يوجد فيها بطالة ، كما لم تقترض قرشاً واحداً من البنك الدولي . ويقصدها سنوياً ٣٠٠٠٠ صيني للزيارة والسياحة من البرازيل وأوروبا ومدغسكر وسائر أفريقيا والأمريكتين . ولم تكن تمثل المحاصيل الزراعية المصدرة في ١٩٨٠ أكثر من ٥ ٪ من التجارة الخارجية وتتجه كل الجهود لتصدير المنتجات الصناعية . وتصدر معلبات الأناناس والخضار بملايين الأطنان . وفي عام ١٩٧٩ كانت اليابان والولايات المتحدة تستأثران بأربعة أخماس تجارة تايوان الخارجية . وأجور العمال فيها عالية وتأتي بالدرجة الثانية بعد اليابان . فتصل أجور الشغيلة شهرياً إلى ٩٠٠ أو ١١٠٠ ليرة سورية ، ولكن العامل المختص في مصانع الفولاذ تصل إلى ٢٠٠٠ وحتى ٢٥٠٠ ليرة سورية .

وتهيمن الدولة على الصناعة الثقيلة ولا تقل نوعية عن الدول الصناعية العريقة . فهناك مركّب لين يوان Lin Yuan ، الذي قامت إلى جانبه مصفاة نفط ، الذي يمتد على مدى البصر ، وهو من أحدث أمثاله في العالم .

وهناك أيضاً الترسانات البحرية ، مع حوض جاف طاقته مليون طن ، والتي تكون قادرة على إنتاج سفن عملاقة مرغوبة في دول الغرب ، ويكون دفتر الطلبات مملوءاً لمدة عامين مسبقاً ، فقد طلبت حكومة الكويت بناء ٤ ناقلات نفط ، وواحدة لحساب الولايات المتحدة .

وتقوم مصانع الأسمنت على شكل سلسلة عند حافة الجبل وتقضم أطرافه . وتحوي البلاد ستة مصانع لإنتاج سيارات التجميع ، وهي سيارات أمريكية ويابانية غالباً وتعمل بكامل طاقتها . وقد أنتجت هذه المصانع في عام ١٩٧٩ ، ١٥٠٠٠ سيارة ، واستيراد السيارات الأجنبية محظور . كما أنتجت مصانع بيجو هناك ١٠٠٠ سيارة في العام ذاته .

وقد قامت في تايوان أكثر مصانع الحديد حداثة في العالم ، ولهذا تحقق أفضل الأرباح في هذه الصناعة . ويمكن تصوّر « المعجزة الاقتصادية » إذا عرفنا أن الجزيرة لا تملك أية مادة خام ولا أي مادة طاقيّة . ويتم الآن في مدينة هسينشو Hsinshu ، الواقعة على مسافة ١٠٠ كم من العاصمة تايبيه ، بناء « البارك العلمي الصناعي » الذي سيتحول إلى مدينة تكنولوجية متقدمة في الغد ، وتضم جامعات ومختبرات ومدن وقرى منضمة إلخ ..

وتتجه الجهود حالياً لاستغلال الطاقة الحرارية الأرضية ويدير المجلس القومي للعلوم هذا المجموع وتصل ميزانية البحث المدني إلى ٧٥٠ مليون فرنك فرنسي تقدم الدولة ٥٢ ٪ من هذا المبلغ ، ويعمل في ميدان البحث العلمي ٢٢٠٠٠ باحث .

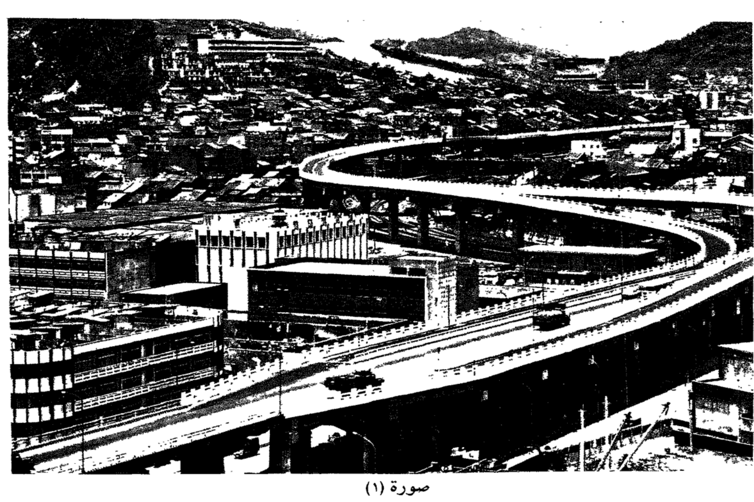
هذا وقد ازدهرت زراعة الأسماك في الأحواض فصدرت في عام ١٩٧٩ مقدار ٥٠٠٠٠٠ طن من سمك الحنكليس ومثلها من الروبيان . وتمثل المكائن الصانعة ذات التحكّم العددي الحديث جداً ٣٥ ٪ من قيمة الصادرات الصناعية وبلغت ٥٢ ٪ في ١٩٨٠ ، وأنتجت البلاد أول أوتوبوس « باص » كهربائي في كانون الأول من عام ١٩٨٠ وستنتج الصين الوطنية أول سيارة كهربائية ، كما أنتجت البلاد أول طائرة وطنية تماماً ، وطائرات عسكرية للتدريب . ويجري بناء مركز طاقة حرارية محيطية وسينتج ٣٠ إلى ٤٠ ميغاواط من الكهرباء . ويقوم المصنع على استرداد الطاقة الناتجة عن اختلاف الحرارة بين المياه الساخنة التي يقذفها مركز نووي وبين مياه البحر .

وستنتج البلاد في ١٩٨٢ مقدار ١٣٥٠٠٠ طن من المطيلة tôles غير قابلة للصدأ وهو أكبر مصنع في جنوب شرق آسيا بعد اليابان .

ويدين ٢٠٠٠٠٠ من سكان البلاد بالكاثوليكية والعدد نفسه من البروتستانت ، مثلما تضم قرابة نصف مليون مسلم . ولا يعثر الإنسان في هذه الجزيرة السعيدة على أي متسول أو متشرد ، ولا أكواخ من ألواح خشب أو الصفائح الصدئة ، ويسير على غرارها كل من هونغ كونغ وسنغافوره وكوريا بشطريها وهي الأمم التي خرجت ، منذ عام ١٩٧٥ ، من حظيرة دول العالم الثالث .

ملخص عن « باري ماتش »

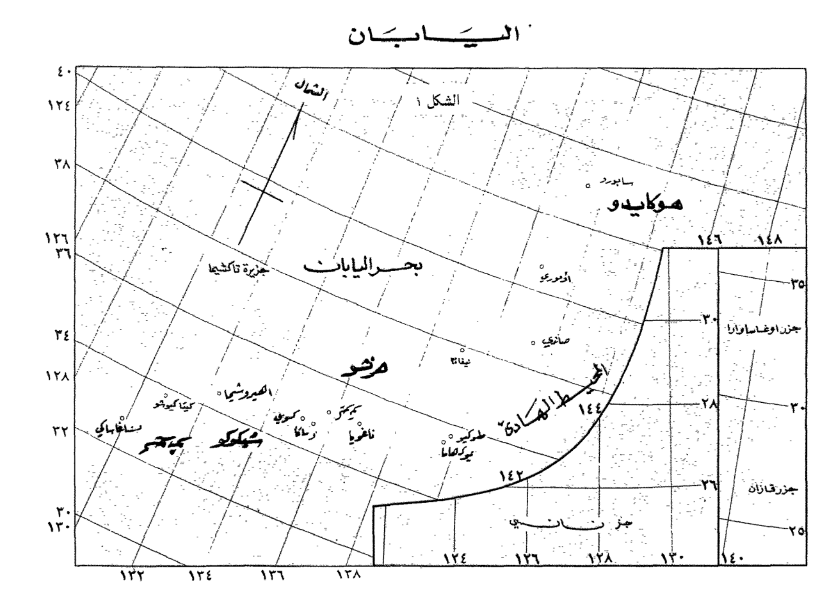
٢٦ / ١٢ / ١٩٨٠



صورة (١)

لقد أصبحت تايبه مماثلة للعواصم الكبرى في الغرب وقد تم الفراغ من إنجاز
أول برنامج للمشاريع الكبرى في عام ١٩٧٠

١٠. اليابان



الشكل ١
الشمال
هوكايدو
سابورو
بحر اليابان
جزيرة تاكشيما
أوموري
صانري
نيغاتا
هونشو
المحيط الهادئ
طوكيو
يوكوهاما
ناغويا
أوساكا
كيوتو
هيروشيما
كيتاكيوشو
ناغازاكي
شيكوكو
جزر أوغاساوارا
جزر قازان
جزر نانسي

اليابان

تكون الضفة الشرقية من آسيا ، مصحوبة بأرخبيلات ترتصف على شكل قلائد متميزة . ونجد في وسط هذه القلائد قوساً (شكل ١) تؤلف جزره الأربعة الرئيسية ، التي تصاحبها / ٤٠٠٠ / جزيرة صغيرة ، ما يسمى باليابان . ويتألف هذا القوس من جزيرة رئيسية هي هوندو أو هونشو مساحتها لوحدها / ٢٣٠٠٠٠ / كيلو متر مربع أو حوالي ثلثي مساحة اليابان ، يتجه قوسها المحدب نحو المحيط وتتحدد بالشمال بجزيرة هوكايدو وبالجنوب بواسطة جزيرتي سيكوك وكيوسيو .

ولا تغطي هذه الأراضي التي تمتد على مسافة / ١٦ / درجة عرض أو على مسافة / ٢٢٠٠ / كم من الشمال للجنوب ، أكثر من مساحة / ٣٦٩٦٦٠ / كم^2 ، أو ضعف مساحة سورية في حين يعيش فوقها عدد من السكان كبير جداً بلغ عدده / ١١٨ / مليون ، أو كثافة تعادل / ٣١٧ / نسمة بالكيلو متر المربع .

أولاً ـ الإطار الطبيعي

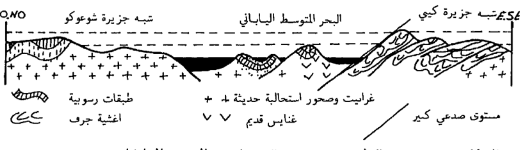
اليابان بلاد جبلية قبل كل شيء ، فلا تشتمل على أكثر من سهول صغيرة قليلة . وتضاريس اليابان ، التي تعود للدور الثالث ، ثم تعرضت لحركات تالية ، لا تزال مستمرة ونشيطة حتى اليوم ، ويمكن اعتبارها تضاريس شابة أو متصابية على الأقل . وهذا الشباب في التضاريس هو الذي يفسر لنا الطابع العصبي وأحيانا الكثير الزوايا للاشكال التضاريسية ، كما يفسر الجروف الكبيرة التي تشابه الجدران والتي تبدو كأنها حديثة جداً ، كما تشرح لنا ضآلة رقعة السهول اللحقية ، المحدودة بانهدامات ضيقة ، ووضوح السواحل الصخرية ، حيث تهبط

الجبـال منهـا مبـاشرة فـوق البحر دون درجـات ولا بـلاج ، ويبلـغ طـول هــذه السواحل / ٢٨٠٠٠ / كم٢ .

وتبدو تضاريس اليابان إجمالاً كثيرة التجزئة وغامضة .

وتظهر غالباً على شكل سلسلتين جبليتين ، تحاذيان السواحل الشرقيـة والغربيـة وتنفصلان عن بعضها بسلسلـة متطـاولـة من الشمال للجنـوب مـؤلفـة من سهـول صغيرة انهداميـة . وتنقطـع هـاتـان السلسلتان والسهول ، بالوسط ، بواسطة حفر عرضانية ، أهمهـا هي التي تقع في أواسـط جزيرة هونـدو واسمها « **ماغنافوسّا** » . وتدفقت في هذه المناطق المنهدمة لابات أدت الى تشكل مخـاريـط بركانيـة . فنجد في حفرة **ماغنافوسّا** المذكورة أعلى قمة في اليابان وهو بركان **فوجي ياما** ، الـذي تعمم الثلوج ذروته التي ترتفع إلى ٣٧٧٣ م ، وهو محل تقديس الشعب ، وبركان **آساما** وهو أنشط براكين اليابان .

كما حصلت حركات بعـد الـدور الجيولوجي الثـالـث ، أدت إلى نهوض مجمـوع الأراضي وإلى انكسارات وإلى انهيـار بعض أجزاء الأرض (شكل ٢) . وقـد أدى **نهوض** القاعدة الأرضية إلى إثارة **حت** عنيف قامت به الأنهار القصيرة ، ولكنهـا غزيرة المياه ، وشديدة الانحدار لدرجة أنها تجرف مقـادير هـامـة من الأنقـاض ، وتوضّعها في **السهول اللحقية** في الأجزاء السفلى من وديانها أو عند مصباتها .



الشكل ٢ **مقطع عبر جزيرة هوندو والبحر الداخلي**

وقد منحت **الكسور** والانهدامات التضاريس اليابانية مشهد الشطرنج ، حيث تنعزل حوضـات صغيرة بين كتل لا تزال بارزة وخـاصـة في الجنوب الغربي من جزيرة هونـدو . ونجد في أقصى الجنوب من جزيرة هونشو منطقة منخفضة اجتاحتها قشرة رقيقـة من ميـاه البحر لا تزيـد ثخـانتهـا عن ٥٠ م لتؤلف ذلك **البحر الداخلي** أو البحر المتوسط الياباني ، الـذي يربـط ، أكثر ممـا يفصل ، بين شواطئ هونشو وسيكوك وكيوسيو .

وقد صاحب هذه الانكسارات ظواهر **البركنة** . وهكذا تحوي اليابان / ٢٠٠ / بركان منها / ٥٤ / بحالة اشتعال وتغطي الأرض الاندفاعية ثلث مساحة اليابان . وتكثر الينابيع الحارة التي يستحم فيها اليابانيون رغم أن حرارة مياهها تتراوح بين / ٥٤ و ٥٥ / درجة مئوية والتي أصبحت تستغل في انتاج الطاقة الكهربائية الحرارية الأرضية .

كما تتميز اليابان **بزلازلها** . ففي بعض بقاع حفرة ماغنافوسا يحدث وسطياً بالسنة حوالي ٥٠٠ زلزلة ، يشعر بها الإنسان . وتكون بعض الزلازل هدامة مثل زلزال عام ١٩٢٣ الذي دمر مدينة يوكوهاما والعاصمة طوكيو ، ومات من جرائها حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة . كما لا يكون غزو المد البحري المسمى « تسونامي » بأقل خطراً من الزلازل . وتفسّر هذه الارتجافات الكثيرة بوضع اليابان على حافة الأغوار الباسيفيكية السحيقة ، والتي تهبط إلى ٨٠٠٠ وحتى ١٠٠٠٠ م . وتقع على حافة هذه المناطق المنهارة اليابان أي على طرف العتبة الآسيوية ، أي أنها تمثل منطقة غير مستقرة من القشرة الأرضية ، التي كثيراً ما تتعرض للحركات الاهتزازية الأرضية .

ينتج الشكل المقوّس للقلادة الجزرية اليابانية عن التواءات وعن تخلعات deslocations شديدة التعقيد . وترتسم هنا عصيبتان جبليتان ، الأولى أكثر استراراً وتنتصب في الغرب ، والأخرى أكثر تفككاً ، وتتعاقب على حافة المحيط الهادي وتطيف بسهول أكثر اتساعاً بقليل ، ولاسيا السهل الذي امتدت فيه مدينة طوكيو . ويستقر البحر المتوسط الياباني الذي يفصل جزيرة هونشو عن جزيرة شيكوك ، بين هذين النطاقين تقريباً . وتتناثر في هذا البحر الجزيرات الصغيرة ، بحيث لا يشابه بحراً قدر ما يشابه عدة بحرات ضمن ديكورستارة .

ولما كانت أرض اليابان مهشمة بالكسور وتحاذي حفراً غائرة في قيعان المحيط الهادي ، فهي تشتهر بأنها بلد البركنة ، والينابيع الحارة والزلازل ، فهي تحوي ٢٠٠ بركان لا يزال ربعها ناشطاً وتقع أكثر هذه البراكين في جزيرة كيوشو وفي غرب هونشو ، ولكن الحفرة الانهدامية الكبرى الممتدة من الشمال للجنوب والتي تقطع جزيرة هونشو في وسطها ، تكون أيضاً مصحوبة بخاريط جسيمة ، ولا سيا بركان **فوجي ياما** قرب العاصمة طوكيو ، والذي يحوي أعلى قمة في الأرخبيل وهي ٣٧٧٦ م والذي قدمت خطوط سفوحه المنسجمة الرسوم المفضلة في طباعة الأقمشة واللوحات . وهذه الحفرة الانهدامية العظيمة Fossa nagna تكون عبارة عن نطاق عدم استقرار مذهل فقد حدثت فيه زلازل رهيبة يزيدها هولاً غزو المد وقد كانت أكثر الكوارث تقتيلاً تلك التي حدثت في ١٩٢٣ والتي أدت إلى هلاك ١٠٠٠٠٠ نسمة في طوكيو ويوكوهاما والتي خربت ٥٧٦٠٠٠ منزلاً .

البحار والسواحل :

يقع قوس الجزر اليابانية بين بحار جانبية لا يزيد عمقها عن / ٤٠٠٠ / م بالغرب ، وبين المحيط الهادي الذي تتجاوز أعماق أغواره قرب جزيرة هوندو مقدار / ٨٠٠٠ / م ويحاذي السواحل الجنوبية الشرقية تيار حار ذو مياه قاتمة اسمه **كوروشيفو** حتى درجة العرض / ٣٨ / شتاء و حتى درجة العرض / ٤١ / صيفا . وهناك تيار بارد اسمه **أوياشيفو** يندس بين التيار الحار المذكور و بين ساحل جزيرة هونشو درجة العرض ٣٧ مما يؤدي لتشكل ضباب كثيف مماثل لضباب جزيرة الأرض الجديدة في شرق كندا . وفي المنطقة التي يقترب فيها التياران من بعضهما البعض يكثر البلانكتون « الهائمات » ، كما أن الأسماك التي يجذبها التياران تكثر هنا ، فتكون هذه المنطقة من أغنى بقاع العالم بالصيد البحري .

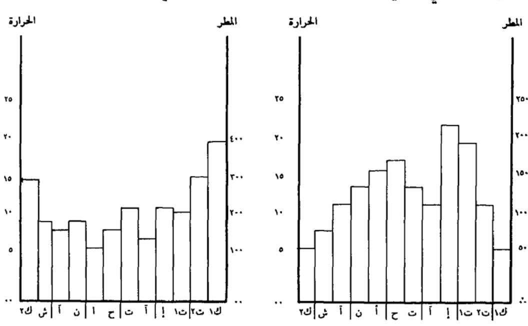
أما سواحل اليابان فتتميز بكثرة تسنّنها فيصيب كل / ١٣,٥ / كم٢ من الأرض مقدار كيلو متر واحد من السواحل (مقابل ١ كم لكل ٢٠ كم٢ في إنكلترا) . فتكون بعض السواحل صخرية والأخرى تخترقها الخلجان العريضة والرؤوس . أي أن هذه السواحل موائمة جداً للملاحة الصغيرة واستخدمت فترة طويلة من أجل المواصلات بين مدن السواحل ، كما في اليونان القديمة وكانت أكثر ضمانة من المواصلات بالطرق البرية في هذه المناطق الجبلية . ولكن هذه السواحل لا تحوي الكثير من الملاجئ العميقة أو الخلجان الأمينة ، ولا تدوم الموانئ الحالية إلا بفضل أشغال تحسين وصيانة لا تتوقف .

المناخ:

يهيمن على **مناخ** اليابان ، مثل مناخ الصين المجاورة ، تأثير تناوب الرياح الشمالية الغربية القادمة بالشتاء من الآنتسيكلون السيبيري ، وتأثير كتل الهواء المداري القادمة صيفا من منطقة الضغوط العالية المستقرة فوق المحيط الهادي .

وينتج عن ذلك فصول شتاء باردة نسبيا ، فتكون درجة الحرارة في طوكيو الواقعة على خط عرض مدينة الجزائر في كانون الثاني مماثلة لدرجة حرارة باريس ، كما يكون الصيف فيها حاراً نسبياً فيكون متوسط حرارة تموز في طوكيو ٢٥,٤ درجة في حين لا تتجاوز في سان فرنسيسكو الواقعة على العرض نفسه مقدار ١٥,٢ درجة . ولكن هذا المناخ أكثر اعتدالا من مناخ الصين الشمالية لأنه يتلطف بتأثير جوار البحر (شكل ٣) .

وتمنح الرقع البحرية التي تحيق باليابان للبلاد مناخاً أكثر رطوبة بكثير من مناخ القارة المجاورة (شكل ٤) . فهي لا تنال صيفاً الأمطار التي تأتيها بها الرياح الحارة القادمة من المحيط الباسفيكي ومن السيكلونات الناشئة في منطقة فورموزا والتي تروي السواحل الغربية ولا سيما الشرقية في أيار وايلول فحسب ،



الشكل ٣

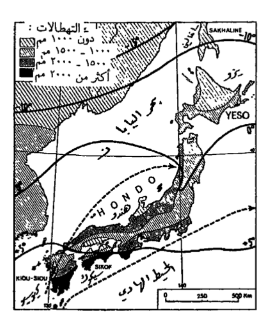
مناخ ياباني
العرض ٣٥,٤١
مجموع المطر السنوي ١٤٧٦ مم

مركز طوكيو
الارتفاع ٢١ م
معدل الحرارة السنوي ١٣,٨°

مناخ ياباني
العرض ٣٦,٣٣
مجموع المطر السنوي ٢٥١٦ مم

مركز كانازاوا
الارتفاع ٣٠ م
معدل الحرارة السنوي ١٣,١°

بل وتأتيها رياح شتوية مارة فوق بحر اليابـان حيث شحنت بـالرطوبـة فتعطي تهطـالاً سخيـاً يكون أحيـانـاً ثلجيـاً على السـواحـل والجبـال الغربيـة . وحتى في العـاصمـة طوكيو الواقعـة على السـاحل الشرقي ، ينـال كانون الأول ، وهـو أجف الأشهر أمطاراً بكمية تعادل ٥٤ مم من التهطـال . وإذا استثنينـا جزيرة هوكايـدو (يزو) فإن الأمطار تتجاوز المتر دائما بالبلاد .



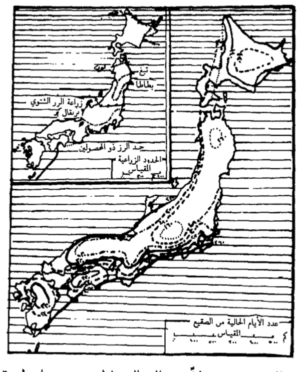
الشكل ٤

الأمطار في اليابان

وتشير الأسهم المقطعـة إلى الطرق التي تسلكها المنخفضـات السيكلونيـة مثلـما تشير الخطوط السوداء إلى خطوط الحرارة المتساوية لشهر كانون الثاني

وهناك فروق مناخيـة تنتج عن درجـة العرض وعن التضـاريس . فخطوط الحرارة المتسـاويـة تدل على أن الشمال هو أكثر برودة بكثير لأن متوسط شهر كانون الثاني هو صفر . ويساهم التيار البـارد الذي يحاذي السـاحل الشرقي حتى درجـة العرض ٣٧ في هـذا التبرد . ومع أن السواحل الشماليـة لجزيرة هوكايدو تقع على عرض مدينة بوردو الفرنسية ، فإنها تتعرض لتجمد مياهها البحريـة . ولكن الجنوب الـذي يكون أكثر حراً ورطوبـة وأكثر مـواءمـة للحيـاة ، فـإنـه يتعرض لتخريب العـواصف البحريـة (تيفون) (شكل ٥) .

وتنم التضاريس عن وفرة التهطال على السواحل الغربية المعرضة لرياح الشتـاء ، وللمنخفضـات السيكلونية الصيفية وعلى السواحل الجنوبية الشرقية المعرضة للرياح الصيفيـة . ويكون للبحر الـداخلي الذي تحميه التضاريس سواحل أقل أمطاراً ، ولكن درجـات الحرارة فيـه أقل تعرضـاً لعنف الريـاح . أما الداخل فأكثر جفافاً .



الشكل ٥

الحدود الزراعية باليابان

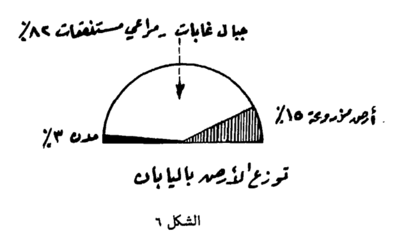
النبات :

لا يكون النبات هنا كما في الصين مفصولاً بين الشمال والجنوب بواسطة الصحارى ، ذلك لأن النبات المداري والنبات المعتدل يختلطان في أواسط البلاد . وتبلغ وفرة النبات هنا حدها الأقصى فنجد ١٦٨ فصيلة نباتية تقابل ٨٥ في أوروبا . وتغطي الغابة ٦٨٪ من مساحة البلاد ويستغل تسعة أعشارها بشكل منتظم ، ٣٦٪ للتدفئة و ٢٧٪ في الصناعة (شكل ٦) .

وإلى الجنوب من خط العرض ٣٨ ، يشتمل **النبات شبه المداري** على عدة فصائل ذات أوراق دائمة الخضرة . وهكذا يبلغ ارتفاع أشجار الكاميليا ١٠ م كما يكون نبات ما تحت الغابة وفيراً وكثيفاً ، والأزهار كثيرة مثل الاوركيديا وسواها ، وهذا ما يجعل اليابانيين من عشاق الأزهار الأوائل بالعالم . ففي جزيرة هوندو تتخلى الغابات الجميلة أحياناً عن مكانها لأنواع من ذوات الأوراق الساقطة ، ثم إلى الصنوبريات وأخيراً إلى أشجار البامبو ذات الأدغال التي تبلغ ٢٠ م ارتفاعاً .

أما نبات النطاق المعتدل ، والذي نجده على جبال الجنوب فيتميز بسقوط أوراقه شتاء . وهكذا تسود أشجار الزان والقيقب مع البلوط والحور والسندر والكستناء . ولكن هذه الغابة المعتدلة تتميز بشدة غزارة ما تحت الغابة وبالملتفات وبالنباتات المتسلقة ، أما على سفوح الجبال المرتفعة والمعرضة لرياح الشمال فتسود المخروطيات .

تغطي الغابة أكثر من ٦٠٪ من مساحة اليابان ولكن مشاهدها تختلف من الشمال إلى الجنوب : ففي هوكّايدو تكون الغابة شمالية شبه قطبية غنية بالراتنجيات وتحتل ٧٠٪ من مساحة الجزيرة . أما في هونشو فتكون الغابة غنية بالفروق ، حيث تتميز أشجار القيقب التي تفرز سائلاً سكرياً والمتعددة الألوان حسب الفصول بسبب أوراقها والسرو والصنوبر ولاسيا كريبتوميريا Cryptomérias ، وتسود في كيوشو غابة السنديان والبامبو والكافور وحيث تزدهر السحلبيات والكاميليا العملاقة وأشجار الجلوة المتسلقة . ولكن تتداخل في العديد من المناطق الأنواع المدارية والمعتدلة ، فتتجاور أشجار السندر مع النجيليات وقد تكون أشجار البلوط مغلفة أحياناً بالمتسلقات .



الشكل ٦

ثانياً - سكان اليابان

لقد تعرض السكان القدامى الذين كانوا يستوطنون الأرخبيل الياباني إلى عملية طرد من الجنوب باتجاه الشمال ، ويصادف الإنسان بقاياهم في الجبال الداخلية من جزيرة هوكايدو ، وهم قريبون من العرق الأبيض إذ يكثر الشعر في وجوههم وهم الآينو .

وقد نتج هذا الطرد عن مجيء أقوام مختلفة ينتسبون إلى عنصرين رئيسيين : الأول من أصل منغولي قدموا عن طريق كوريا خلال عصور متفاوتة ، والثاني من أقوام بحرية ، من أصل ماليزي أو من جزر بولينيزيا بالمحيط الهادي ، قدموا مباشرة من جزيرة لجزيرة أو بعد أن أقاموا فترة ما في

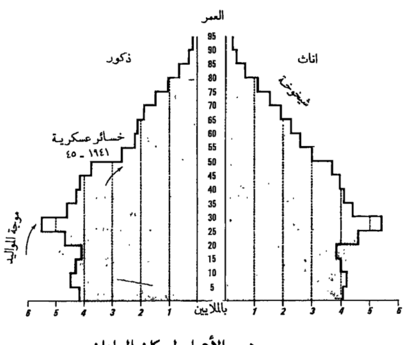
الصين الجنوبية . ولكن انعزال اليابـان الجغرافي سمح بـازدهـار حضـارة منسجمـة صهرت هذه العناصر المختلفة عرقياً في أمة واحدة مثالية .

وفي عـام ١٨٦٨ ألغى الامبراطـور النظـام الإقطـاعي ودشن عصراً جـديـداً اسمـه عصر الميجي (النور) ، وبذلك فتح اليابان للمؤثرات الخارجية وبدأ تجديد صاحبه تزايد شديد في عدد السكان .

تزايدهم : بعد أن كان عـدد سكان اليـابـان ٣٢ مليون عـام ١٨٧٢ في مطلع عصر الميجي ، قفز إلى ٥٥ مليـون في ١٩٢٠ وإلى ٧٢ في ١٩٤٥ وإلى ١٠٨ في ١٩٧٣ وإلى ١١٦ مليـون في ١٩٨٠ . وقـد تعرفت إنكلترا في عصر تـوسعهـا الصنـاعي في القرن الفائت ، على ثورة ديموغرافية مماثلـة . ولكن هـذا الانـدفـاع الـديموغرافي الياباني ، ظل مستمراً حتى أيامنا هذه ، إذ يتزايد عدد سكان اليابـان سنويـاً أكثر من مليون نسمة مع أن العمر الوسطي ارتفع فيها إلى ٧٢ سنـة مقـابل ٤٩ في الهنـد و٣٨ في أثيوبيا .

ويعود هذا التزايد إلى نسبة **التوالد** المرتفعة جـداً من نـاحيـة ، وإلى نسبـة **الوفيات** المنخفضة جداً . فقد كانت نسبة التوالد بين ١٩١٢ و ١٩٤٠ تزيد سنوياً عن ٣٠ بالألف . ولكن نسبة الوفيات هبطت من ٢٠ بالألف عـام ١٩٠٠ إلى ١٦,٥ بـالألف عـام ١٩٤٠ . وابتـداء ١٩٥٠ انخفضت هـذه النسبـة بفضل تقـدم الطب ، والعنايـة الصحيـة إلى أن وصلت حتى ٧,٤ بـالألف عـام ١٩٦١ وإلى ٦ بـالألف في ١٩٧٧ . ولكن بنفس الوقت أخذت نسبة التوالد بالانخفـاض ، فكانت ١٧ بـالألف عام ١٩٦١ و ١٦ بالألف في ١٩٧٧ ، وهي نسبة مماثلـة للنسبـة الموجودة في أوروبـا الغربية أي التزايد السنوي يعادل (١) بالمئة في ١٩٧٠ ، ولكن لوحظ عـام ١٩٥٩ أن ثلثي النساء الحوامل كن يلجأن إلى الإجهاض في المستشفيات الحكومية . وقـد أدى هذا الإجراء الذي فسرتـه عقول متحررة إلى ارتفـاع هـائل في عـدد حـالات الإجهاض المقنعة ، قفز بهـا من ١٠١٦٠١ في عـام ١٩٤٩ إلى أكثر من مليون و ١٧٠ ألفاً في عام ١٩٥٥ ، والفضل في نجاح خطة التخفيض يعود للوعي الـذي يتمتع بـه

الفرد الياباني ، ولوفرة عدد الأطباء والمستشفيات ، وهـذا مـالا يتيسر في حـالات أمم مماثلة كالهند وسواها . وهكذا أدت المصاعب الناجمة عن الحرب ، وعن انكسار اليابـان أمـام الأميركان ، والبؤس النـاتج عن الهزيـمة ، وعن عودة كل اليـابـانيين المغتربين قسراً إلى جـزرهم إلى سيـاسـة تحـديـد النسـل ، أو التخطيـط العـائلي ، وأصبحت الأمم الراغبة في اتباع سياسة مماثلة تلجـأ لاقتبـاس نظريـات الـدكتور أوجينـو اليـابـاني . وعلى كل سيظـل فـائض الـولادات على الـوفيـات كبيراً حتى مستقبل قريب وفي ١٩٨٠ كانت نسبة التوالد ١٣,٧ بـالألف مقـابل ٦,١ للوفيـات بالألف أي نسبة التزايد السنوي أصبحت ٠,٧,٦ بالمئة وهكذا يتضاعف اليابـانيون مرة كل قرن تقريبـاً في حين تزيـد نسبـة التزايـد السنـوي في الـوطن العربي عن ٣ بالألف أو أربعة أضعاف اليابان (شكل ٧) .



هرم الأعمار لسكان اليابان

في ١٩٦٥

في ١٩٧٥ ———

الشكل ٧

سكان اليابان يبدؤون في التناقص بعد ٢٨ عاماً

ـ اليابان تشترك مع سويسرا كأكثر المجتمعات تقدماً في السن بعد ٣٥ عاماً ـ

سوف يرداد عدد سكان اليابان إلى ١٣٠ مليوناً في أوائل القرن الحادي والعشرين من ١١٧ مليوناً اليوم ، ثم يبدأ في الانخفاض حتى يستقر عند ١١٨ مليوناً في عام ٢٠٧٥ ، بعد حوالي قرن من الآن . وخلال ذلك الوقت ، سوف يستمر السكان في مواصلة التقدم في السن بسرعة . وسيشكل الذين يبلغون الخامسة والستين فما فوقها أكثر من ٢٠ ٪ من كل السكان بعد ٣٥ عاما من الآن ، مقابل ٩ ٪ اليوم . وعندما يحدث ذلك ، فإن سكان اليابان يحتمل أن يكونوا أكثر سكان العالم تقدماً في السن .

ماسبق ، هو السبيل الذي يتوقع أن يتخذه سكان اليابان في المئة سنة القادمة ، وفقاً لتقرير عن تقديرات المستقبل للسكان اليابانيين أعده حديثا معهد مشكلات السكان بوزارة الصحة والشؤون الاجتماعية من بيانات الإحصاء القومي لعام ١٩٨٠ .

أطول متوسط لامتداد الحياة في العالم

منذ ٣٠ عاماً فقط كانت اليابان تتميز بمعدلات عالية للمواليد والوفيات . وفي عام ١٩٥٠ كان متوسط مدى الحياة ٥٧,٩١ للرجال و ٦١,١٣ عام للنساء . وقد زاد طول العمر زيادة ملحوظة منذ ذلك الحين ، بفضل تحسين أنظمة الضمان الاجتماعي ، وما تم من تقدم في علوم الطب وغير ذلك من التطورات . ويعد اليابانيون بين أطول الشعوب عمراً في العالم ، حيث بلغ متوسط مدى العمر ٧٣,٥٥ عام للرجال ، ٧٨,٩٧ عام للنساء في عام ١٩٨٠ ، ومن المتوقع أن يصل إلى ذروته ليكون ٧٥ عاماً للرجال و ٨٠ عاماً للنساء في وقت ما في القرن القادم . كما أنه من المتوقع حدوث عودة معتدلة إلى الوضع في معدل المواليد ، مما يؤدي إلى مستوى ثابت للسكان في عام ٢٠٢٥ .

وبناء على هذين الافتراضين ، فإن التقديرات الجديدة تفترض ثبات عدد سكان اليابان من خلال معدلات منخفضة للولادة والوفيات . وسوف تتغير الأمة ككل بسرعة من مجتمع متوسط العمر إلى مجتمع للكهول . وأكثر النقاط الجديرة بالذكر في تقدير هذه الاحتمالات الجديدة هو توقع أن يمضي تقدم السكان في العمر بسرعة أكبر مما توقعته إحصائيات وتقديرات سابقة .

تكاليف عالية للضمان الاجتماعي

في الوقت الحالي يشكل الأشخاص الذين في الخامسة والستين من أعمارهم فما فوق ، ٩ ٪ من كل السكان ، أو حوالي واحد من كل ١١ شخصاً . ولكن بعد ٣٤ عاماً من الآن ، سوف يشكلون أكثر من ٢٠ ٪ من السكان ، أو واحد من كل خمسة ، وستصل نسبة العجائز إلى ذروتها ـ ٢٢,٢٪ ـ أو واحد من كل ٤,٥ شخص في عام ٢٠٤٣ . ووفقاً لتقديرات الأمم المتحدة للسكان لعام ٢٠٢٥ فأن لوكسمبورج وسويسرا فقط سيكون لديها نسبة أكبر من العجائز في سكانها عن نسبة اليابان في ذلك العام وهي ٢١,٣ ٪ ، وسيكون سكان اليابان عندئذ أكبر سناً من سكان السويد ، وإيطاليا ، وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، التي سيكون لديها هي الأخرى نصيب أكثر من ٢٠ ٪ من الكهول في سكانها .

وفضلاً عن ذلك ، فإن السكان في سن التناسل (١٥ إلى ٦٤) سوف يستمرون في التناقص . وفي الوقت الحالي يعول سبعة أشخاص في سن العمل شخصاً كهلاً عن طريق نظام الضمان الاجتماعي . وبعد ٣٥ عاماً من الآن ، سوف يكون ثلاثة أشخاص في سن العمل يعولون واحداً من الكهول . ولكن الظروف ستكون بالنسبة للسكان في سن التناسل أكثر قسوة في الحقيقة منها من الناحية النظرية لأنه لن يكون كل شخص من هذه المجموعة من العمر يعمل فعلا ويسهم بذلك في أموال الضمان الاجتماعي لكل عجوز .

وفي مواجهة هذا التقدم في السن للسكان الذي لامفر منه ، والزيادة الناجمة عن ذلك في عبء الإعالة على كاهل السكان العاملين ، فإن الحكومة مضطرة إلى أن تجري مراجعة أساسية في سياساتها الخاصة بالشؤون الاجتماعية والعمالة ، إذ أنها ترتبط بالمعاشات والرعاية الصحية للشيوخ ، والعمالة للسكان في منتصف العمر . وقد وجه نقد لمشروع ميزانية سنة ١٩٨٢ المالية لزيادته الضخمة في اعتمادات الدفاع على حساب مصروفات الشؤون الاجتماعية . وستصبح المناقشات حول الميزانية القومية أكثر ضراوة بعد ٥٠ أو ١٠٠ عام من الآن ، حيث سيصبح ضغط إعالة سكان متقدمين في السن أكثر حدة ، ويتشابك مع عوامل أخرى مثل نمو اقتصادي منخفض ، وقيود على إمكان الحصول على الطاقة ، ومتطلبات دفاعية أكبر . وسوف تتحد هذه العوامل لكي تجعل الإدارة المالية في المستقبل أكثر صعوبة مما هي الآن .

« نشرة أخبار اليابان »

١ / ٨ / ٨٢

توزع هؤلاء السكان :

تبلغ الكثافة المتوسطة للشعب الياباني حالياً حوالي ٣١٥ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد . ولكن السكان شديدو التفاوت من حيث التوزيع ، لأن السهول أكثر كثافة بكثير من الجبال ، وتبلغ الكثافة فيها أحياناً ١٠٠٠ نسمة في الكم^{2} (تبلغ حالياً في وادي النيل والدلتا ١٢٢٢) . وهكذا يسكن في سهل طوكيو (كوانتو) ومساحته ١٣٠٠٠ كم^{2} ، أي أكثر من مساحة لبنان بقليل ، حوالي ٢٣ مليون من مجموع السكان .

أما الجنوب الذي يتمتع بمناخ أكثر دفئاً ومواءمة للزراعة ، فيحتوي على عدد من السكان أكثر كثافة من الشمال الأكثر برداً وفقراً . وابتداء من شمال طوكيو تكون الكثافات في كل مكان متوسطة أو ضعيفة بالنسبة للمتوسط الوطني . وهكذا نلاحظ أن القسم الشمالي من جزيرة هونشو وجزيرة هوكايدو ، اللذين يعتبران باليابان مناطق من الممكن زيادة استيطانها ، لا يجذبان إلا القليل من المهاجرين من باقي الجزر ، بسبب قساوة المناخ وقلة وفرة الموارد الزراعية .

الأرياف والمدن :

لقد ظهر تزايد السكان بالبدء أكثر شدة بالمدن ، رغم أن التوالد فيها أقل ارتفاعاً مما هو في الريف . ورغم وجود بعض المدن الكبرى القديمة ، فإن العنصر الريفي كان خلال مدة طويلة العنصر السائد بين السكان ولكنه يجنح اليوم للبقاء مستقراً . ففي ١٩٢٠ كان في اليابان ٥٥ مليون نسمة منهم ٣٧ مليون ريفي ، أي يسكنون في قرى يقل عدد سكانها عن ١٠٠٠٠ نسمة . وفي ١٩٥٠ صعد عدد سكان اليابان إلى ٨٣ مليون ، منهم ٣٨ مليون ريفي . وهذا التبدل نتج عن هجرات داخلية جسيمة ، أدت إلى مغادرة السكان الريفيين المناطق الفقيرة نحو المدن ، وخاصة الكبرى منها . وهكذا صعد عدد السكان الإجمالي للمدن التي

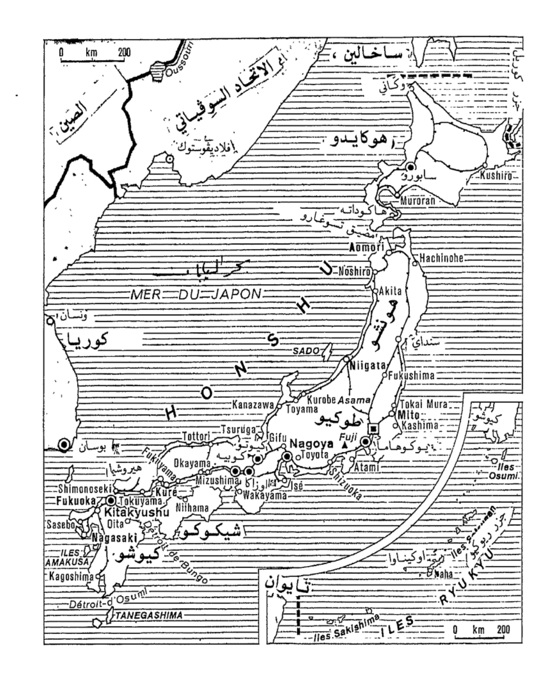
يـزيـد عـدد سكان كل منهـا عن ٥٠٠٠٠ نسمـة ، بين ١٩٢٠ إلى ١٩٥٠ ، من ١٠ ملايين إلى ٢٨ مليون وتسجل هذه الحركة خطوات جديدة منـذ ١٩٥٠ ، وهكـذا تحوي اليابان حالياً ٨ مدن يزيد سكان كل منهـا عن مليون نسمـة . ويعيش ٧٧٪ من اليابانيين في المدن وليست الحياة الحضرية لوحدها مع ما يتبعها من تسليات ، هي التي تجذب الريفيين نحو المدن الكبرى مع مصانعهـا وتجـارتهـا ومكاتبهـا ، بل الأمل في خلاصهم وخلاص عـائلاتهم من العزلـة الريفيـة وتلبيـة لنـداء الصنـاعـة الوثابة في المدن المتكاثرة (شكل ٨) .

وقلما نجد في الأرياف سكاناً مبعثرين . ولتوفير أكبر مـا يمكن من الأرض الزراعيـة فـإن البيوت الخشبية المؤلفـة غـالبـاً من طـابق واحـد ، تصطف على طول الطريق الخـالي من الطرق المعترضـة على مسافة عدة كيلو مترات أحياناً .

أما في المدن فإن الكثير من الأحياء تحتفظ بمظاهر القرى الكبرى مع بيوتهـا المؤلفـة من مسـاكن صغيرة جداً ذات سقائف جانبية مزدوجة ، والتي تجاور الطرق المتصالبة كا في المدن الجديدة في المناطق الصنـاعيـة ، وتـارة تجـاور طرقـاً مسـدودة غير سـالكـة ، أو تنتشر على طرفي شـارع عريض ، بحيث يتساءل الإنسان كيف يستطيع في هذا التيه أن يجد إنساناً يجهل عنوانه . أما في المدن القديمة فإن هـذا التيه من الشوارع ، يطيف غالباً بقصر قـديم إقطـاعي . ولكن تظهر في المـدن الحـديثـة أو في الأحيـاء الجـديـدة من المـدن القـديمـة ، شوارع عريضـة مستقيمـة ، أكثر عرضـاً ، تحف بهـا العمارات الأوروبيـة الطراز .

الحضارة اليابانية :

وتعتبر في معظمهـا من أصـل صيني ، ولكنهـا اتخـذت مظـاهر خـاصـة بهـا انتقلت من جيل لآخر حتى أيامنا هذه . وقد بذلت اليابـان القـديمـة منـذ حوالي قرن وربع من الزمن جهداً جباراً للتقدم وهو جهد كان أكثر شدة بعد انكسار عام ١٩٤٥ وبعد الاحتلال الأميركي .



الشكل ٨

توزع المدن اليابانية في ١٩٧٥

ولقد تبنى اليابانيون الاتجاه الغربي في الحضارة .. وهكذا كوّنوا جيشاً وبحرية قويين ، وشيدوا مصانع على الطراز الأوروبي ومخازن كبرى وعمارات ضخمة أميركية الطراز . ويقصدون السينا بأعداد كبيرة ، وأكثرهم يملكون أجهزة راديو وتلفزيون وسيارة . وتعتبر طوكيو أكبر مدينة تحدث فيها المخابرات الهاتفية . وتكثر المدارس المختلفة المستويات في كل أرجاء القطر . ومعظم النساء والرجال يتخذون الألبسة الأوروبية في الشارع والمعمل .

ولكن تحت هذه المظاهر الحديثة ، تظل اليابان وفية على مقياس كبير لتقاليدها . لأن دستور عام ١٩٤٧ الرامي إلى تنظيم البلاد على أساس ديموقراطي ، يعتبر الامبراطور دائماً على أنه « مقدس ومحرم » . ولاتزال « **الشنتوية** » : وهي عبارة عن نظام نصف ديني ونصف فلسفي ، لاتزال مزدهرة دوماً ، وتصون تقديس الإمبراطور والأجداد العظام والأسرة والعشيرة والقوى الأساسية في الطبيعة . ولا يزال مفهوم الشرف العسكري من عهد حكم الطبقة العسكرية (الساموراي) والدايو باقياً ، أو « البوشيدو » وهو الانتحار بطريقة الهاراكيري ، أي بشق البطن بالسكين أمام الجمهور ، في حالة الهزيمة العسكرية أو الفشل ، إلى جانب مفهوم الإخلاص الكلي للوطن ، مثل فرق « الكاميزاكه » أو الفدائيين ، الذين لعبوا دوراً كبيراً في أواخر أيام الحرب العالمية الثانية . وإلى جانب عمال المصانع المنضمين إلى نقابات ، لاتزال كتلة الفلاحين وأرباب الحرف التقليدية تماماً . ولا يزال الفن ذا أصالة ، ولا زال يعبر عن حب عميق للطبيعة . ويعمد الياباني إلى التقليد أولاً ، ريثما يكتسب المهارة ، ثم يشرح ويعيد التفكير فيما قلده حسب طبائعه الخاصة وتقاليده . ويزداد نجاح الفيلم السينمائي والإذاعة والمسرح كلما كان المعروض يمثل أكثر فأكثر الصوفية القومية والآلهة والأبطال . واليابانيون واليابانيات الذين يتجولون خلال النهار بلباس أوربي ، يعمدون فور دخولهم بيوتهم إلى خلعها ، وأخذ حمام ساخن جداً ، ومن ثم يلبسون الكيمونو . وتتم **حفلة الشاي** دوماً حسب طقوس ثابتة ، وكلها روحية ، لذا يكون لها دوماً نفس طابع البساطة والجمال . كما أن **فن الباقات** يعتبر دائماً في الصدارة في كل البيوت ، إذ يوجد في طوكيو لوحدها ٢٠٠٠٠ أستاذ لتعليم فن ترتيب باقات الزهور .

ثالثاً ـ المناطق الكبرى

تؤدي تجزئة البلاد بين أربع جزر كبرى وخاصة كثرة الامتداد من الشمال للجنوب على مسافة ١٥ درجة عرض ، إذ تمتد اليابان من عرض بخارست إلى عرض القاهرة ، تؤدي إلى اختلافات مناخية محسوسة تسمح بتمييز خمس مناطق في الأرخبيل الياباني :

١ ـ هوكايدو :

وهي الواقعة في أقصى الشمال ، وأقل الجزر سكاناً . مساحتها ٧٨٥٠٠ كم² وكثافة السكان فيها ٧٦ نسمة في الكم² ومجموع سكانها ٦ ملايين نسمة . ومعظم تضاريسها بركانية كما هو الأمر في سائر أنحاء الأرخبيل . ولكن المناخ أكثر قساوة لدرجة تقارب المناخ السيبيري . وقد ظلت الجزيرة مدة طويلة كملجأ لسكان بدائيين هم الآينو ، الهاربين من وجه اليابانيين باتجاه الشمال . وقد استوطن اليابانيون الجزيرة مجدداً ، وخاصة بعد هزيمة عام ١٩٤٥ ، إذ استقبلت مهاجرين جدداً يمارسون الزراعة الميكانيكية .

وتنحصر مواردها الرئيسية في الغابات والصيد البحري ، لأن موقعها مماثل لموقع الأرض الجديدة في شرق كندا ، ومناجم الفحم وخاصة الزراعة . وتزرع بها نباتات المناطق المعتدلة مثل القمح والجاودار والشعير والبطاطا كما دخلت زراعة الرز مجدداً على الساحل الجنوبي .

ويمثل الريفيون حوالي ٢٢٪ من سكان الجزيرة ، والباقي يتبعثر في عدد كبير من المدن الصغرى التي تعتبر مدينتا **سابّورو وهاكوداته** أهمها .

٢ ـ شمال جزيرة هوندو « هونشو » :

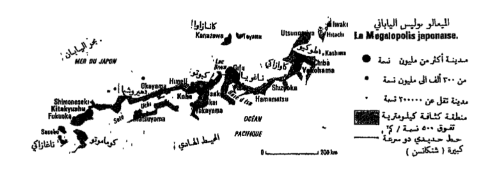
لهذه المنطقة تضاريس شديدة التجزؤ ، وشتاء أقل قساوة من شتاء هوكايدو ، ولكن تتعرض لحوادث صقيع شديدة ولكثرة تهطال الثلوج . وتماثل حقولها حقول أوروبا الغربية ، ويزرع بها الذرة البيضاء والشعير والذرة الصفراء والفاصوليا والصويا . أما على السفح الشرقي فتزدهر زراعة القمح والبطاطا ، كما تتكاثر مزارع الرز . وتنمو أشجار التوت بالسهول لأن هذه المنطقة أكثر مناطق اليابان إنتاجاً للحرير .

ونصف السكان ريفيون تقريباً ، وتقل الكثافة العامة عن ١٥٢ شخصاً في الكيلو متر المربع ودون المعدل الوسطي للبلاد ، ويعيش فيها أكثر من ١٢ مليون نسمة .

٣ ـ وسط هونشو :

تبلغ الجزيرة أكبر عرض لها بين سهل سندائي وبحيرة بيوا . وهنا تصبح الجبال أكثر ارتفاعاً كما يحتوي بعضها على مخاريط بركانية ، تعتبر من أهم مثيلاتها بالبلاد مثل آساما ، وفوجي ياما الذي خمد منذ ١٧٠٨ . وتكون هذه السهول والمصاطب والتلال القابلة للزراعة أكثر عدداً . كما أن كثرة الأمطار وارتفاع الحرارة خلال الفترة الإنباتية تجعل النبات وفيراً وبهيجاً . وهنا تتنوع المزروعات ، وتحتل حقول الرز مساحة كبيرة . وتتراوح كثافة السكان بين ٣٠٠ و ٥٠٠ شخص في الكيلو متر المربع ، وأكثر من ذلك في سهل طوكيو . أما الساحل الجنوبي المحصور بين ناغويا وطوكيو فيعتبر من أكبر مناطق العمران باليابان (شكل ٩) .

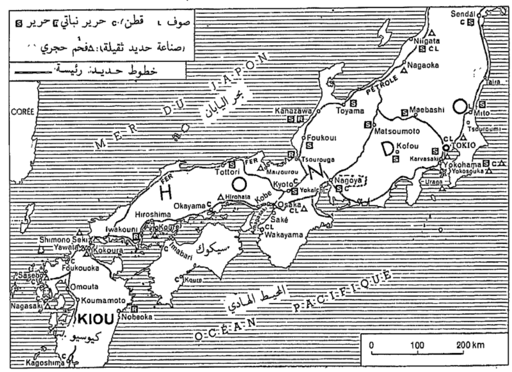
ومدينة **ناغويا** التي يبلغ عدد سكانها أكثر من مليوني نسمة ، تحتل قلب منطقة يزيد عدد سكانها عن ٢,٥ مليون تقدم ١٠٪ من إنتاج اليابان الصناعي .



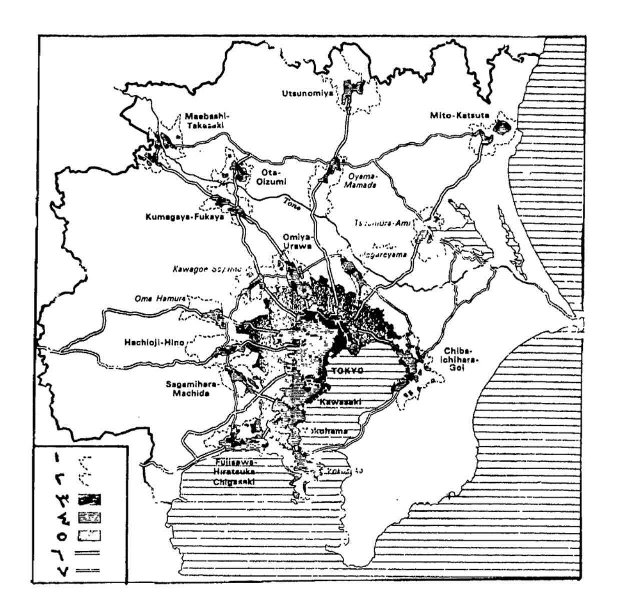
الشكل ٩

وتتفوق هنا الصناعة النسيجية إلى جانب صناعة الحديد . أما بؤرة النشاط الأكثر أهمية سواء من الناحية الزراعية أم من الناحية الصناعية فتقع حول طوكيو مع يوكوزوكا Yokosuka وميناء يوكوهاما (شكل ١٠) . واتخذت طوكيو كعاصمة منذ ١٨٦٨ وهي مبنية فوق سهل لحقي كبير . وتضم اليوم مع ضواحيها أكثر من ١١ مليون نسمة و ٨,٤ ملايين ضمن حدودها البلدية ولذا تعدّ ثالث مدينة في العالم من حيث كثرة السكان بعد شنغهاي ومكسيكو (شكل ١١) . ومساحة هذه المدينة ٢٥ ألف كم٢ ، وتمتد على رقعة واسعة ، إذ ضمت بين بيوتها عدداً من البساتين ومزارع الرز لدرجة أن حدودها كمدينة تبدو غامضة . وتكاد تكون هذه المدينة جديدة بكل معنى الكلمة ، إذ أعيد بناؤها بعد زلزال ١٩٢٣ الذي هدمها وبعد تدميرها بقنابل الطائرات الأميركية عام ١٩٤٥ .

. اليابان الوسطى والجنوبية وصناعاتها الرئيسة



الشكل ١٠



مشروع التوسع الحضري في إقليم طوكيو

١ ـ مدن جديدة ٢ ـ مدن جديدة تحت الدراسة

٣ ـ مناطق صناعية ٤ ـ مناطق احتياطية للتوسع

٥ ـ الحزام الأخضر ٦ ـ طرق رئيسية ٧ ـ طرق ثانوية

يلاحظ وجود مدن تابعة لطوكيو بعد الحزام الأخضر مباشرة ، ومدن تابعة بعيدة عن الحزام الأخضر

الشكل ١١

وقد تم حفر قناة تسمح لطوكيو باستقبال سفن البحر الكبرى ، ولكن **يوكوهاما** التي يزيد عدد سكانها عن ٢,٤ مليون تظل الميناء الأول للشركات الملاحية الكبرى . والمجموع المؤلف من طوكيو والمدن المجاورة يضم ١٤ مليون نسمة . وهنا أكثر مراكز البلاد نشاطاً ، إذ تنتج ٣٠٪ من مجموع الإنتاج وتضم أكثر الصناعات تنوعاً ، وهي أول مدينة صناعية بالعالم لأن فيها ٢,٥ مليون عامل صناعي .

٤ ـ جنوب هونشو وسيكوك :

يتميز القسم الواقع إلى الغرب من بحيرة بيوا (في جزيرة هوندو) بنشاط كبير في جوار البحر الداخلي ، الذي تشرف عليه أيضاً الضفاف الشمالية من جزيرة سيكوك ، وهنا تكثر غابات البامبو . أما داخل جزيرة هوندو الجنوبية ، فهو منطقة زراعة رز كبيرة كما تكثر مزارع الشاي والقصب بجوار الساحل .

ويكون للبحر الداخلي ساحل منبسط تارة وتارة محفوف بحقول منتزعة من البحر « بولدر » وتارة جبلي وبركاني . وتقدم الجزر الصغيرة والسواحل هنا ملاجئ كثيرة للمراكب الصغيرة . لذلك لعب البحر الداخلي دوراً هاماً في تاريخ اليابان . فعلى ضفافه الشمالية تزدحم معظم المدن الكثيفة السكان في الأرخبيل ، مثل أوزاكا ٣,٣ ملايين نسمة وهي ثاني مدينة باليابان ، وأهم مركز فيها للصناعة القطنية ، وسوق كبير للرز والسكر . و **كوبه** ١,٣ مليون نسمة ، وهي مركز لصناعة الحديد ، ورابع ميناء بالعالم قبل الحرب العالمية الثانية . **وهيروشيما** وكان سكانها ٣٥٠ ألف نسمة قبل انفجار أول قنبلة ذرية فوقها عام ١٩٤٥ ، وعاد بناؤها ببطء بعد ذلك ، وتضم أكثر من نصف مليون نسمة . **وشيمونوسيكي** وسكانها ٦٠٠ ألف نسمة ، وتقع بمواجهة المنطقة الصناعية في جزيرة كيوسيو . ومن جهة أخرى تقع مدينة **كيوتو** على مسافة ٥٠ كم إلى الشمال من أوزاكا بجوار بحيرة بيوا

وسكانها ١,٥ مليون نسمة ، وهي العاصمة القديمة للامبراطورية ومدينة معابد وأديرة ومركز جامعي وفني ، ولكنها مدينة صناعية أيضاً ، تشتهر بصناعة الخزف ونسج الحرير الطبيعي .

٥ ـ جزيرة كيوسيو :

وهي الجزيرة الرابعة الواقعة في أقصى الجنوب ، وتقع على مسافة ثماني درجات من المدار على عرض مدينة شنغهاي ، لهذا تتمتع بمناخ شبه مداري ، حار ورطب ، مع غابات ذات نبات بهيج غالباً وحقول رز تعطي موسمين بالعام أحياناً ، ومزارع شاي ، وبعض حقول قصب السكر والقطن . ونجد في الشمال أي في مدينة فوكوكا Fukuoka وسكانها ٨٦٠٠٠٠ نسمة مناجم هامة لإنتاج الفحم ، وأصبحت مركز صناعة حديد ثقيلة وصناعات كياوية . وتقدم هذه المنطقة ١٠٪ من الإنتاج الصناعي الياباني لذا تكون كثافة السكان هنا مرتفعة جداً . ويتميز ميناء ناغازاكي الواقع على بحر الصين ، بترساناته النشيطة لبناء السفن وسكانه ٤٥٠ ألف نسمة .

تحوي هذه المناطق المختلفة ، كما رأينا ، تنوعاً كبيراً في المشاهد . ولكن في نظر الإنسان البعيد عن جو الشرق الأقصى ، يشعر بوجود مشهد ياباني متميز ، انتشر عالمياً بواسطة الصور أو الطوابع ، والذي نجد فعلاً عناصره في معظم جزر الأرخبيل : فهنا نجد أجمة من أشجار ، تكون من صنوبر أحياناً ، وهناك شبح غريب لمعبد مع بوابته الخشبية المغرقة بالألوان ، وبحدائقه وبقنواته الصغيرة التي تمتطيها جسور ذات خطوط منسجمة ، وحوله دغيلات من أشجار الكرز أو المانيوليا ، أو من الشجيرات الصغيرة ، وفي الأفق يتراءى لنا مخروط بركاني ذو سفوح منتظمة ، أو زاوية من جدار ذي صخور ضخمة ومراكب صغيرة . وهكذا يكون الانسجام والأناقة هما أبرز ملامح هذا المشهد التقليدي ، والذي لا يجوز ، مع ذلك ، أن يجعلنا ننسى حقول الرز مع فلاحيها ، ولا المصانع التي تشبه خلايا نحل بشرية .

رابعاً ـ الاقتصاد الياباني

التحديث :

في عام ١٨٦٨ كانت امبراطورية الشمس المشرقة تعيش من زراعتها ، في حين كان ينصرف قسم صغير من سكانها نحو الحرف الراقية ، وكانت التجارة محدودة جداً بالنسبة للجزر اليابانية الأربع . وعند مطلع عصر الميجي ، أخذ الامبراطور ومستشاروه على عاتقهم تحويل اليابان إلى **دولة حديثة** .

ولتحقيق ذلك وجب النهوض بالزراعة لتأمين غذاء السكان المتزايد من ناحية ، ومن ناحية ثانية لإنتاج المواد الأولية للصناعات الوطنية وللتجارة الخارجية ، كالحرير مثلاً . ولهذا جهدت السلطات الامبراطورية في توسيع رقعة الأراضي المزروعة ، وهي مهمة عسيرة في بلاد ذات أبعاد ضئيلة ، وذات تضاريس معقدة جداً ، وتربة قليلة الخصب أحياناً حتى في السهول . ولكن أمكن بين عامي ١٨٧٧ إلى ١٩٣٩ بعد جهود جبارة توسيع الرقعة المزروعة بنسبة ٣٥٪ .

ولكن النهضة التي أحرزتها الصناعة الكبرى والتجارة الدولية ، كانتا الشغل الشاغل الرئيسي لحكومة طوكيو ، التي كانت تتصرف بأيدٍ عاملة وفيرة دؤوبة على العمل وقنوعة . وقد استقدمت لأجل ذلك خبراء تكنولوجيين من أميركا وبريطانيا ، وخاصة من أجل إنشاء الصناعات الرئيسية . وأقامت موانئ حديثة في حين كان الأسطول التجاري يتزايد من أجل زيادة الملاحة الشاطئية والتجارة الخارجية . وأخذت الخطوط الحديدية تتمدد لتربط المدن الرئيسية ببعضها البعض .

ولأجل إنجاح هذا المشروع الجبار ، لم تعمد الحكومة أبداً لاستدعاء رساميل أو مساعدات أجنبية ، بل فرضت ضرائب باهظة على الفلاحين وأصبحت هي ذاتها مالكة لعدة مؤسسات ، وخاصة في مجال الصناعة الثقيلة وفي صناعة السلاح . ولكنها كانت تشجع في الوقت نفسه المؤسسات الخاصة وخاصة تلك التي تهتم بالتصدير وبالأسواق الخارجية . وهكذا ظهرت بعض الشركات (أو إخوان الثراء) الضخمة مثل شركات زيباتسوس Zaibatsus التي أصبحت قوية جداً .

ورغم فقر البلاد بالمواد الخام ورغم الأزمات والقفزات غير المتزنة ، أصبحت اليابان في عام ١٩٤١ عند مهاجمتها للقواعد الأميركية في المحيط الهادي ، إحدى أكبر الدول الصناعية والتجارية بالعالم ، ولكنها استطاعت قبل ذلك في عام ١٩٠٥ أن تدمر الأسطول الروسي بالشرق الأقصى .

الامبريالية اليابانية :

رغبة من اليابان في تأمين المواد الخام لصناعتها الوطنية ، والتي تفتقر إليها في بلادها . ومن أجل الحصول على أقطار ، يمكن أن تستخدم كمصرف لسكانها الكثيرين جدا ، عمدت اليابان إلى زيادة قوتها العسكرية في الوقت نفسه الذي زادت من قوتها الاقتصادية ، وأخذت تقتطع لنفسها امبراطورية على حساب جيرانها . وعلى أثر حرب مع الصين احتلت اليابان فورموزا « تايوان » وجزر بسكادور عام ١٨٩٥ . وفي ١٩٠٥ بعد حرب مع روسيا احتلت النصف الجنوبي من جزيرة سخالين وكوريا وميناء بورت ارثور . وفي ١٩٣١ إلى ١٩٣٣ ، اجتاحت المقاطعات الصينية في منشوريا وفي جيهول jahol . وفي ١٩٣٧ أعادت الكرّة على الصين فاحتلت الجيوش اليابانية كل الصين الشمالية والساحل الجنوبي . وأخذت هذه الامبراطورية ترسل المواد الخام للمصانع اليابانية كما استقبلت الأراضي المفتوحة في مدة ١٠ سنوات ، مليونين من المهاجرين اليابانيين في حين هاجر للأقطار الخارجية مليون واحد .

ولكن هذا الاستعمار المتزايد والمستفحل ، قاد البلاد نحو الكارثة بسبب حسد وخوف الأقطار الاستعمارية الأخرى من خطر العرق الأصفر الذي تمثل كل منجزات المدنية الغربية . وهكذا أصبحت اليابان في أواخر الحرب العالمية الثانية ، مقتصرة على جزرها الأربع فقط ، بعد أن استولت على كل جنوب آسيا وخسرت ثلاثة أرباع قوتها الإنتاجية الصناعية ، ولكن اقتصادها عاد بعد انهيار عام ١٩٤٥ إلى ازدهار جبار ، من جديد ، وهو ازدهار لم تعرفه اليابان من قبل أبداً ، لتتحول إلى ثالث قوة في العالم ، وكان ثأرها علمياً تكنولوجياً واقتصادياً .

الزراعة :

منذ نهاية الحرب ، بذلت اليابان جهودا كبيرة لتوسيع المساحات المزروعة ، ولكن الأراضي المزروعة حالياً ، لا تتجاوز ١٥٪ من مساحة البلاد . ولا يعمل بالزراعة أكثر من ١٥٪ من السكان العاملين . وتبدو معظم المزارع ضئيلة

الرقعة ، ومقسمة إلى قطع صغيرة . وقد فرضت سلطات الاحتلال الأميركية عام ١٩٤٦ الإصلاح الزراعي ، فتضاعف عدد الملاكين المستغلين والرقعة التي يستغلونها . ولكن تطبيق هذا الإصلاح لم يكن كما يبدو دقيقاً جداً ، ولم يؤد إلى أي تبديل يذكر في بنية المزارع نفسها . وعلى كل أصبح ٧٠٪ من الفلاحين اليابانيين مالكين صغار ، يستغل الواحد منهم وسطيا أقل من هكتارين .

لا تتعرض الأرض للبور إطلاقاً فوق هذه المستغلات المفرطة في تفتتها . ويحمل ثلث الأراضي المزروعة ، على الأقل ، محصولين في العام . وإليكم كيف تكون الأرض مستخدمة في جنوب خط العرض ٣٨ : فبعد حصاد مزارع الرز المغمورة ، في نهاية الصيف ، يزرع نوع آخر من الحبوب أو زراعة صناعية كالكولزا « الشلغم » أو أسمدة خضراء ، تحصد في نهاية الشتاء ، أما فوق الأراضي البعلية (أو الإعذاء أو الديم) فتمارس زراعة محصولات متداخلة ، بحيث تنتج خلال العام خمسة محاصيل فوق الأرض ذاتها .

وبفضل كثرة اليد العاملة ، تمارس اليابان نوعاً من زراعة ، تماثل زراعة الحدائق بسبب العناية المفرطة المبذولة للأرض : كالري المنتظم بدقة ، والحراثة ، والعزق المتكرر . ولا تستخدم الزراعة الكثير من الماكنات الزراعية ، باستثناء جزيرة يزو ، وأحياناً لا تستخدم الحيوان . وتبذل جهود كبيرة من أجل تحسين البذار ، واستخدام الأسمدة المختلفة الأنواع ، من طبيعية وكياوية ، جهود لا تنفك عن التزايد . وهذه الزراعة الكثيفة تعطي مردوداً مرتفعاً .

والمحصولان الرئيسيان هما الرز والحرير . فمزارع الرز المغمورة بالماء ، تحتل نصف مساحة الأراضي المزروعة البالغة ٦ ملايين هكتار . وتبلغ القيمة الاجمالية لمحصول الرز حوالي ٦٠٪ من القيمة الكلية للإنتاج الزراعي . ويبلغ مجموع المحصول ١٧ مليون طن ، أي تعتبر اليابان ثالث منتج عالمي للرز ، ومردود الهكتار يبلغ ٦٠ كنتال من الرز ، وهو رقم عالمي ، ولكن هذا المقدار لا يكفي الاستهلاك الوطني بسبب تزايد السكان . كما أن تربية دود القز التي تمارس بعناية فائقة وبطريقة عملية ، تتراجع بسبب المزاحمة المتزايدة الناجمة عن المواد

النسيجيةالاصطناعية . وقد بلغ إنتاج شرانق الحرير بعد الحرب العالمية الأولى ، حوالي ثلثي إنتاج العالم وكان يغذي نصف الصادرات اليابانية . ومع أن الإنتاج كان لا يزال كبيرا إلا أنه ينحدر بسرعة .

ومن بين الزراعات الأخرى ، نذكر : الشعير ٢٠٠٠٠٠ طن ، والقمح ٢٠٠٠٠٠ طن ، والشوفان ، والذرة البيضاء والصفراء ، والبطاطا والبطاطا الحلوة ١,٥ مليون طن ، ومختلف أنواع الفاصولياء ، وأخيرا البقول والأشجار المثمرة ، والشاي ١٠٥٠٠٠ طن . كما يزرع القطن والقصب السكري في الجنوب على رقعة صغيرة ، كما أن تربية الماشية لا تلعب أكثر من دور هذيل في الفعاليات الزراعية . وعلى كل لوحظ منذ أعوام حدوث تقدم محسوس في ميدان تربية الأبقار الحلوبة ، ٣,٧ ملايين رأس ، بحيث أصبحت اليابان تصدر الحليب المكثف وسمن الغنم ، وتربية الخنازير ٨ ملايين والطيور الداجنة .

وتقدم الغابات المستغلة عقلانياً خشب النجارة وحطب التدفئة وقصب البامبو وفحم الخشب ، الذي يستهلك بكثرة في المنازل للتدفئة والحطب اللازم لمعجونة الورق لأن الغابة تستر ٦٧٪ من رقعة البلاد وتعطي ٤٣,٤ مليون م^{3} من جذوع الخشب و٩,٩ ملايين طن من المعجونة و١٥,٧ مليون طن من الورق . وإذا كان سدس سكان اليابان يعملون بالزراعة فإن هذه الزراعة تقدم حوالي ١٣٪ من الدخل القومي ، كما تقدم أكثر منَ ثلاثة أرباع الحاجات الغذائية الوطنية .

الصيد البحري :

تتمتع اليابان بسواحل طويلة جداً ، وبقرب القيعان البحرية الغنية بالأسماك ، لذا تحتل الدرجة الأولى بالعالم في هذا المجال ، إذا يعمل بالصيد ١,٣ مليون عامل مقابل ٧٢٠٠٠ في بريطانيا ، أو عشرة أمثال فرنسا . ويستهلك معظم الإنتاج في جزر الأرخبيل ذاته ، كالأسماك والأشنيات . كما يستخدم قسم منه كأسمدة أو يصدر للخارج مثل السلاطعين وسمك الطون واللآلئ المزروعة . . . كما يكون الصيد الساحلي نامياً جداً ، ولكن قلما تستخدم فيه مراكب ذات محركات ، ويقدم هذا الصيد

الكثير من الأسماك المتنوعة وخاصة السردين . وبالإضافة إلى ذلك تملك اليابان سفن صيد ضخمة بخارية أو ذات محرك تمخر البحار من مضيق بهرنغ حتى خليج البنغال وكل المحيط الباسفيكي وحتى المتجمد الجنوبي . وبعض هذه السفن عبارة عن معامل حقيقية ، تنتج على ظهرها المعلبات من السلاطعين لكل أنحاء العالم ، وزيت حوت البالين . وبذلك أصبحت اليابان أكثر أمم العالم تصديرا للمأكولات البحرية . ويعمل في الصيد الساحلي ٧٠٪ من الصيادين .

وتنتج اليابان حوالي ١٠،٦ ملايين طن من الأسماك في ١٩٧٧ أو ١٥،٥٪ من الصيد العالمي وتأتي بالدرجة الثانية بالعالم بعد البيرو .

الصناعة :

لم تتوقف الصناعة عن التوسع والنمو منذ ثورة ١٨٦٨ ، وتشغل اليوم نسبة من السكان العاملين أكبر بكثير من العاملين بالزراعة . وهكذا تبدو اليابان أقوى دولة صناعية وأكثرها اعتماداً على الآلة في كل آسيا الموسمية وثالث دولة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .

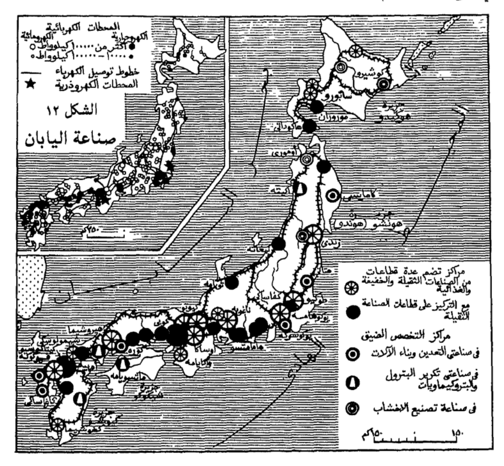
اليابان في الطليعة

هناك جيش « الأوادم الآلية » Robots . ويشير تقرير جمعية « الأوادم الصناعية » (جيرا) أنه كان في اليابان في اواخر عام ١٩٧٩ / ٥٦٨٠٠ إنسان آلي عاملين في البلاد وأكثر من ثلث هؤلاء كانوا يعملون في صناعة السيارات أو ٣٨٪ وفي الصناعة الكهربائية المنزلية ١٨٪ أما الباقي فكانوا يتوزعون في صناعة اللدائن ١١٪ ، والصناعة الميكانيكية ٨٪ ، والصناعة الحديدية ٤٪ وفي صناعة معالجة المعادن ٣٪ .

وهذه النهضة تعود قبل كل شيء إلى وفرة اليد العاملة ، وإلى تقاليدها في القناعة وبساطة العيش ، مما يجعل عمالها قليلي المطالب والشطط . وعلى كل ارتفع دخل عمال الفولاذ الشهري إلى ما يعادل أمثالهم في ألمانيا الغربية وعمال الصناعات اليدوية إلى أمثالهم في أمريكا فضلا عن علاوات وفوائد لا يستهان بها .

وتتفوق في اليابان المعامل الصغيرة شبه الحرفية ، إذ أن ٥٠٪ من معامل البلاد لا تشغل أكثر من ١٠٠ عامل ، وهذه ظاهرة لا ترى في الصناعات النسيجية بصورة خاصة ، حيث يعمل فيها عدد

من العمال الحرفيين بالتعهد (القبالة) لحساب أرباب العمل الذين يقدمون لهم المواد الخام ، لهذا لا تكون الإنتاجية بالنسبة للعامل الواحد مرتفعة . وتوجد إلى جانب هذه المؤسسات الصناعية الصغيرة ، مراكز كبرى على شكل معامل ضخمة جداً ، وهنا تكون الأجور أكثر ارتفاعاً والتقنية technicité أكثر تقدماً بكثير . ونلاحظ في الصناعة الصغرى كما في الكبرى ، وجود تمركز مالي شديد . وبعد أن بدا للناس أن التروستات كادت تنهار بعد هزيمة ١٩٤٥ ، عادت الآن للنمو وأشهرها تقوم على أساس عائلي مثل عائلة ميتسوي وتروست ميتسوبيشي التي تنتج السيارات والاسمنت والمعلبات الغذائية والمراوح كما تبيع مصانع كاملة « مفتاح باليد » الخ . . . التي تملك كل منها فروعاً عديدة من الصناعة والتجارة والبنوك . أضف إلى ذلك أن الدولة ذاتها أصبحت منذ ١٨٦٨ كقوة صناعية . وتخرج الجامعات اليابانية وعددها ٢٣٩ عددا هائلا من الفنيين . فأصبح في اليابان اليوم من المهندسين أكثر من أي قطر آخر عدا الولايات المتحدة و الاتحاد السوفييتي . ولكن اليابان تحتل الدرجة الأولى من حيث النظر إلى عدد المهندسين بالنسبة إلى عدد السكان إذ لديها ٣٠٠ جامعة تكنولوجية والقليل من الجامعات النظرية التي تخرج أرباب الكلام .



الشكل ١٢
صناعة اليابان

أما فيما يتعلق بمصادر القدرة فلا نجد باليابان سوى القليل من الفحم الحجري ومن البترول ولكن تحوي البلاد الكثير من الشلالات . وقد بلغ إنتاج الفحم في عام ١٩٨١ مقدار ١٧,٦ مليون طن استخرجت خاصة من مناجم جزيرة كيوسو الشمالية ومن مناجم جنوب هوكايدو . واستخراج هذا الفحم عسير ونوعيته هزيلة . أما فحم الكوك فيستورد كلياً . أما إنتاج البترول فهزيل ورغم أن حملة كبيرة قامت في اليابان للتنقيب عن النفط ، فهي تضطر لاستيراد كمية سنوية تزيد عن ٩٠ مليون طن ، وتعتبر ثالث دولة مستوردة للنفط بالعالم لأن إنتاجها يزيد قليلاً عن نصف مليون طن ما يكفي استهلاك يوم واحد في السنة مقابل مليارين ونصف متر مكعب من الغاز الطبيعي . وتعتبر ثالث دولة بالعالم في ميدان تكرير النفط لأنها تكرر حوالي ٢٧٥ مليون طن بالعام ، ولكن اليابان غنية نسبياً بالقوى الكهرمائية بفضل مناخها المطير وخاصة لعنف تباينات التضاريس ، ولوجود البحيرات . ويتجاوز إنتاج الكهرباء المائية ١٧٪ من الإنتاج الكلي للكهرباء البالغ ٦١٢ مليار كيلواط ساعي وذلك عام ١٩٨٠ أو ثالث دولة في إنتاج الكهرباء ويقدم النفط المستورد خمسي الطاقة الكهربائية ويفوق استهلاك الفرد الياباني ما يستهلكه الفرد السوفياتي ، أو ٤٥٥٠ كيلواط ساعي .

أما بالنسبة للمواد الخام ، فلا تملك اليابان ما يكفيها تقريباً من المعادن سوى النحاس ٨١٠٠٠ طن ، والرصاص ٥١٦٠٠ طن ، والزنك ٢٧٥٠٠٠ طن ، أما الباقي فتستورده . فالحديد نادر بالبلاد وإنتاجها من خاماته لا يزيد عن ٣٥٨٠٠٠ طن وكل الحديد المستهلك مستورد تقريباً وخاصة من استراليا كذلك الأمر بالنسبة للقطن والصوف ما عدا الحرير الطبيعي الذي تنتجه البلاد .

ورغم هذا الفقر بالوقود والمواد الخام الأولية ، فإن الصناعة اليابانية حصلت على نجاحات رائعة . **فالصناعات الحديدية الثقيلة** تجاوزت إنتاج ما قبل الحرب العالمية الثانية بكثير إذ قدمت عام ١٩٨١ أكثر من ١٠٢ مليون طن من الفولاذ و ٨٨ مليون طن من الفونت فأصبحت ثالث دولة بالعالم . وتقع الأفران

العالية خاصة في شمال جزيرة كيوسيو التي تقدم ٣٥٪ من الإنتاج وفي أواسط جزيرة هونشو ولا سيا في مدن أوزاكا وكوبه وطوكيو ويوكوهاما . أما أهم **الصناعات المعدنية فهي** صنع كل أنواع الماكنات والمحركات وتجهيزات معامل النسيج والسيارات (تويوتا ، نيسان ، وبرنس وداتسون ومتسوبيشي الخ ... وكانت تنتج سنوياً حوالي ٦ ملايين سيارة إلى أن بلغ ١١,٧ مليون في ١٩٨٢) . هذا وتبدو صناعة بناء السفن في أوج ازدهارها لدرجة أنها احتلت المكانة الأولى ببناء السفن بالعالم عام ١٩٦١ ، وسبقت إنكلترا ، إذ أنتجت ما يعادل حمولة ٩,٩ مليون طنّ . وتنتج حالياً ٤٢٪ من سفن العالم .

الصناعة الجوية اليابانية ١٩٧٩ : لم تستطع الصناعة الجوية اليابانية أن تستأنف أنشطتها إلا في عام ١٩٥٢ ولا تمثل حالياً أكثر من ربع مثيلتها الفرنسية ، وتود أن تتلافى تأخراً تكنولوجياً في هذا المضار مقداره ٣٥ سنة كي تصبح ثاني دولة في الصناعة الجوية العالمية لأن حسابات خبرائها تشير إلى أن كغم من الطيارة يساوي ٣ أضعاف ثمن كيلو غرام من التلفزيون الملون و٨٠٠ مرة أكثر من كغم السفينة التجارية . ولا يعمل في هذه الصناعة حتى العام المذكور أعلاه سوى ٢٥٠٠٠ نسمة . وتمارس مؤسساتها الرئيسية المندمجة ضمن المجموعات الصناعية الكبرى ، ميتسوبيشي ، كاوازكي ، ايشي كاواجيا ، هارومافيجي ، وشين ميوا ، تمارس حالياً سياسة تعاون مع شركة بوينغ ، فتمارس ١٥٪ من برنامج بوينغ ٧٦٧ ، ومع شركة فوكرّ ، روكول ، رولس رويس ، وترمي إلى المساهمة بنسبة ٢٠٪ في مشروع طائرة « الباص الجوي » Airbus ، وقد أخرجت في عام ١٩٧٩ أول طائرة تجارية هي طائرة دياموند ١ التي صنعتها مؤسسة ميتسوبيشي ، في مدينة سان آنجلو ، في ولاية تكساس .

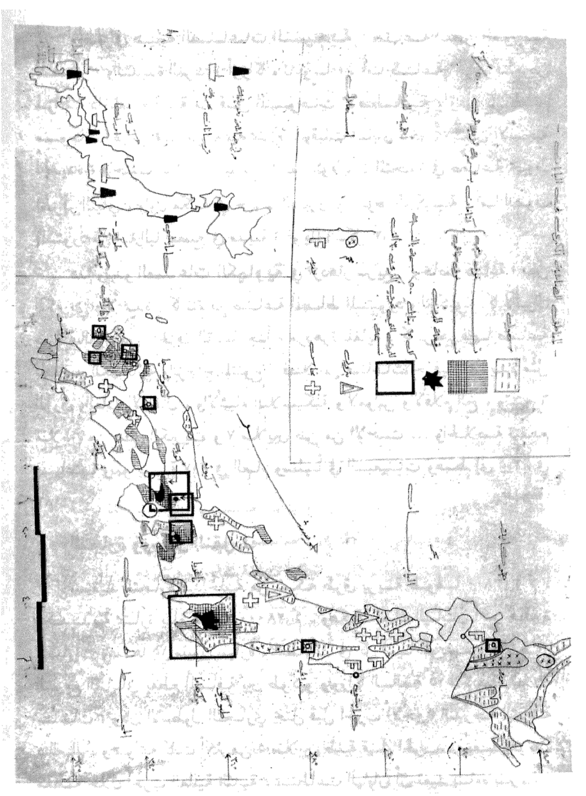
كما توسعت صناعة الأجهزة الكهربائية فبلغت ٢٢ ضعفا عما كانت عليه قبل ١٠ سنوات : وتنتج حالياً أيضاً ٦٠٠ ألف طن من الألمنيوم .

وتظهر في طليعة **الصناعات النسيجية** : صناعة القطن المتوجهة للتصدير ، والشديدة التركز (أوزاكا ، ناغويا) . أما صناعة الحرير فتتعرض لمزاحمة داخلية قاسية من قبل المنسوجات الاصطناعية ، وعلى كل تقدم منسوجات الحرير أقمشة من نوعية ممتازة . وقبلت اليابان دخول ميدان الأنسجة الجديدة ، فاحتلت المكانة الثانية بالعالم بعد الولايات المتحدة في صناعة خيوط الحرير النباتي ، وأول مكانة في خيوط الفيبران والخيوط التركيبية . أما الصوف المستورد من استراليا فيصنع في مدينة ناغويا| (شكل ١٣) .

هذا وتبدو **الصناعات الكيماوية** في ازدهار سريع ، وخاصة صناعة الحمض الكبريتي والأسمدة . كما تتقدم صناعة المطاط المستورد والتركيبي . كما لاتزال صناعة البورسلين والخزف القديمة جداً ، مزدهرة للغاية . كما تزدهر فيها صناعة المصابيح الكهربائية والزجاج المتنوع ، فضلا عن صناعات حرفية عديدة مثل الورق وألعاب الأطفال ، والأشياء البلاستيكية والأمواس والأقلام الخ ، وتنتج ٦ ملايين من حمض الكبريت و ٧ ملايين طن من الإسمنت ... والخلاصة تتقدم صناعتها وتنمو بنسبة ١٧٪ في العام وسطياً في السبعينات وهبط إلى ٢,٥٪ في ١٩٨٢ .

التجارة ووسائل النقل :

تستفيد التجارة الداخلية من شبكة طرق برية طولها ٣٠٣٨٠٠ كم ، وحديدية ممتازة يبلغ طولها ٢٨٠٠٠ كم . وهكذا تملك اليابان أكبر حظيرة للسيارات وعددها ١٥ مليون سيارة وللقطارات في كل آسيا الموسمية ، فالقطار السريع الياباني يقطع المسافة بين طوكيو وأوزاكا البالغة ٥١٥ كم بمدة ثلاث ساعات . وكان الأسطول التجاري يحتل قبل الحرب الأخيرة الدرجة الثالثة بالعالم ، وحمولته كانت أكثر من ٥ ملايين طنة قبل الحرب . وبعد تخريب معظمه خلال الحرب العالمية الثانية ، استطاعت اليابان أن تعيد بناءه بسرعة ،



الشكل ١٣

وبلغت حمولته اليوم ٤٥ مليون طنة . وعاد العلم الياباني يظهر من جديد فوق كل البحار والمحيطات .

أما التجارة الخارجية فتجاوزت مكانتها التي كانت عليها قبيل الحرب العالمية الثانية بكثير ، ولكنها لا تزال في تقدم مستمر . وتتألف المواد المستوردة قبل كل شيء من الفحم والبترول والحديد والقطن . وتحتل المواد الغذائية المكانة الثانية ، وتبلغ قيمة المستوردات ١٩ مليار يَنْ . أما الصادرات فيأتي الفولاذ بالطليعة ثم المنسوجات . إذ تعادل حوالي ٣٠٪ منها وتحتل الأقمشة القطنية بينها مكان الصدارة . ولكن الأنسجة الاصطناعية احتلت المكانة الثانية بعد الأقمشة الحريرية . وأخذت صادرات المصنوعات المعدنية تؤلف حالياً ثلث الصادرات كالسيارات والساعات وأدوات التصوير والمراوح والمصنوعات الألكترونية وتبلغ قيمة الصادرات ٢٢ مليار يَنْ ، أي تحقق اليابان فائضاً تجارياً يزيد عن مليارَي يَنْ .

وكان الميزان التجاري عاجزاً ، إذ بلغ عجز عام ١٩٦١ أكثر من مليار دولار إلى أن تفوق التصدير عن الاستيراد بكثير منذ ١٩٦٥ . ولكن التصدير أصبح بالنسبة لليابان قضية حيوية لذا تنتظر بفارغ الصبر انفتاح السوق الصينية أمامها ، التي تمثل زبوناً ممتازاً لليابان ، إذ كانت الصين تبتلع ٢٠٪ من صادرات اليابان قبل الحرب . كما أن تطور الصين الحديثة يتطلب شراء أدوات وآلات ومصانع « مفتاح باليد » تستطيع اليابان أن تقدمها لها وقدمتها فعلاً مقابل البترول الخام .

والمزاحمة اليابانية التي شعر العالم بها قبل الحرب الثانية ، وخاصة في مضمار صناعة بعض المصنوعات مثل الدراجات والساعات والأغراض الرخيصة ، عادت للظهور من جديد في الأسواق العالمية (على شكل سيارات ومراوح وترانزستور وتلفزيونات ، راحت تغزو أسواق الولايات المتحدة وأوروبا بشكل مذهل) . وتعمد المؤسسات اليابانية لتوسيع شبكتها من الوكالات حتى في الولايات المتحدة ذاتها وفي أمريكا اللاتينية وفي كل جنوب شرق آسيا حتى أوروبا نفسها .

ملامح المستقبل :

إن الحماس في العمل ، والقناعة ، والعناد ، والواقعية ، والإبداع ، والشعور بالواجب والإحساس بوجوب الاستمرار بالحياة الوطنية والقومية ، تؤلف بالطبع كلها ضمانات بالنسبة للاقتصاد الياباني . وقد قال أحد مهندسي اليابان : « إن كل ياباني يعمل ضمن اختصاصه ولا ينفك عن تحسين اختصاصه » . ولعل هذا هو سر نجاح هذا الشعب المهذب الانضباطي .

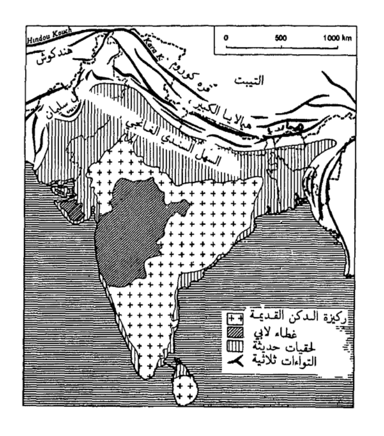
ولقد استفادت اليابان من الازدهار العابر الناتج عن كثرة طلبات الأميركان خلال حربهم في كوريا في فترة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ ، ولكنها الآن عادت لوضعها الطبيعي .

ولفرط السكان في هذه البلاد نتائج خطيرة . لأن الجزر لا تستطيع أن تؤمن غذاء أكثر من ثمانين بالمئة من غذاء شعبها ، كما لا يبدو من المستطاع توسيع رقعة الأراضي الزراعية كثيراً . أضف إلى ذلك أن اليابانيين لا يهاجرون إلا مكرهين ، لأن كل الامبراطورية الواسعة التي استطاعت حكومة طوكيو أن تكونها على حساب جيرانها ، مثل فورموزا وكوريا ومنشوريا والصين ، لم تستقبل أكثر من ٣ ملايين ياباني بين موظف وتاجر ، عادوا جميعاً بعد هزيمة اليابان . كما أن معظم الأقطار الواقعة على الضفة الشرقية من المحيط الهادي ، حيث استقر بضع مئات الألوف من اليابانيين في مطلع هذا القرن ، مثل كندا والولايات المتحدة اتخذت تدابير قاسية ومنعت هذا النوع من الهجرة . وبعد أن فتحت البرازيل أبوابها أمامهم عادت فأغلقتها ، كما أن استراليا لا تزال مصرة على عدم استقبال أبناء العرق الأصفر ولكن اليابان أثبتت نجاحها في كبح جماح الاندفاع الديموغرافي كما سبق ورأينا .

ويبدو **الاستمرار بالتصنيع** من أجل تشغيل أكبر عدد ممكن من اليد

العاملة من جهة ، للتمكن من تصدير كميات متزايدة من السلع من أجل تحصيل القطع النادر (العملة الصعبة) اللازم لشراء المواد الغذائية الضرورية ، أقول : يبدو كل ذلك عبارة عن ضرورة حيوية لليابان ، لأن هذه الدولة ستصبح أول دولة في العالم ، إذا ما استمر نسق نموها الصناعي الحالي والبالغ ٧٪ بالعام ، من حيث دخل الفرد الذي سيصل إلى ٤٨٥٠ دولاراً في عام ١٩٨٥ . ولكن يظهر هنا **أول تناقض** ، وهو أن هذه السياسة تستدعي دائما المزيد من المواد الخام مع أننا رأينا أن معظم هذه المواد يجب استيراده وأحياناً من مناطق بعيدة جداً ، مما يزيد كثيراً من سعر الكلفة . **والتناقض الثاني** هو من أجل صنع سلعة رخيصة السعر لا يمكن تخفيض أجور العمال ، المرتفعة بحد ذاتها ، دون التعرض لهبوط خطير في مستوى معيشة العمال ، إذن يجب تجديد المعامل للتوصل إلى إنتاجية أفضل ، ولكن ذلك سيؤدي إلى استخدام عدد أقل من العمال مما يؤدي لاستفحال البطالة الموجودة حالياً والتي تبلغ ٧٪ من القوة العاملة .

وعلى كل حال يظل التصدير قضية أساسية بالنسبة لليابان وهذا مايقلق كل دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة . وتستطيع الأقطار المتخلفة ، في جنوب شرق آسيا ، أن تؤلف بالنسبة لليابان أسواقاً لتصريف منتجاتها بالرغم من أن بعض هذه الدول اتجهت نحو التصنيع . ولكن يجب على الدول العظمى أن تقبل بعودة اليابان كمنافسة ليس في الأسواق الآسيوية فحسب ، بل في أسواقها ذاتها ولذلك يجب عليها أن تقبل بتخفيض حواجزها الجمركية . وإذا لم تسلك هذه الدول الكبرى هذا السبيل ، فإن اليابان قد تضطر مكرهة إلى الدخول في أزمة قد تؤدي إلى اضطرابات اجتماعية وسياسية ، قد تدفع لمصاعب وحروب عالمية . لأن المثل يقول « الجوع يطرد الذئب من الغابة » . وقد قال نابليون : « الجيوش تزحف على بطونها » لا سيا إذا كان الجائع يجيد استعمال وصنع السلاح كالياباني والمهم أن اليابان فرضت احترامها على كل الدول العظمى وظل امبراطورها هيروهيتو موضع الاحترام سواء كان مغلوباً أو مسالماً.



الشكل ١

بنية العالم الهندي

الفصل الرابع

العالم الهندي

يعيش قرابة ٩٠٠ مليون نسمة فوق ٤,٧ ملايين كم٢ مع كثافة تقارب ١٩٢ نسمة في الكيلومتر المربع .

وهكذا يضم العالم الهندي خمس سكان الأرض ، فوق رقعة تقل عن ٣٪ من مساحة كرتنا الأرضية .

وتبدو شبه القارة الهندية مرهقة بالبؤس ، كما يظهر الفكر الهندي مشبعاً بعاطفة لا تؤمن بجدوى العمل .

تعابير

بلاد الهند : كل الأقطار التي كانت تؤلف امبراطورية الهند الإنكليزية حتى ١٩٤٧ .
الهندوسي : هو الذي يعتنق الديانة الغالبة أو الهندوسية .
دول العالم الهندي : الاتحاد الهندي . الباكستان . بنغلادش . سريلانكا . نيبال كشمير وجامّو .

إفراط الطبيعة وقسوتها

وهكذا يؤلف العالم الهندي شبه جزيرة فسيحة ، حيث تبدو الطبيعة وكأنها تسحق الإنسان . فالعالم الهندي يمتد من درجة العرض ٣٧ حتى درجة العرض ٨ شمالاً ، أي من درجة عرض الحدود السورية الشمالية ، أو الساحل الجنوبي لبحر الخزر ، ومدينة إشبيلية في الأندلس ، حتى عرض خليج غينيا في إفريقيا .

وهكذا تبدو الأقطار الهندية **أكثر أشباه جزر آسيا الجنوبية اتساعاً** ، فتبلغ مساحتها ٤,٦٩ ملايين كيلومتر مربع ، أي تزيد مساحتها عن ثلثي مساحة أوروبا . ويمتد العالم الهندي من الغرب إلى الشرق ، أي من دلتا نهر الهندوس إلى دلتا نهر براهما بوترا شرقاً ، على مسافة ٣٠٠٠ كم ، مثلما يمتد على ٣٠٠٠ كم من الشمال للجنوب ، أي من قمم هيمالايا إلى رأس كاموران . وبلاد الهند هي أكثر من شبه جزيرة ، فهي تكاد تؤلف قارة وتسمى بالإنكليزية شبه قارة subcontinent ، تنعزل عن سائر آسيا بحاجز مؤلف من أضخم وأعلى سلسلة جبلية في العالم ، وتلامس من الغرب بحر عمان ومن الشرق خليج البنغال .

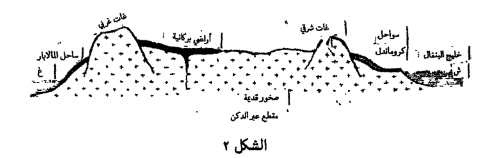
وليست بلاد الهند عالماً مغلقاً ، فقد استقبلت المدنيّة الهندية روافد غربية قدمت من ممرات الشمال الغربي ، أو من المرافئ البحرية . وفي خلال الألف الثاني قبل الميلاد ، ظهر **الآريون** في الهند ، وهم أعضاء العائلة اللغوية الهندية الأوروبية الكبرى ، وكانت الفيدا هي كتبهم المقدسة ، وأصبحت اللغة **السنسكريتية** لغة ثقافتهم . ووفدت بعد الآريين عناصر فارسية وإغريقية وعربية وتركية ومغولية ، وساد الإسلام على شطر كبير من العالم الهندي . ولكن بلاد الهند نشرت اثنتين من أكبر الديانات العالمية ، وهما البوذية والبراهمية . وبعد أن تأثرت الحكمة الهندية بالفكر الإغريقي ، وصلت إلى عالم البحر الأبيض المتوسط ، مثلما شملت قسماً من الهند الصينية وأندونيسيا . **وهكذا هيمنت بلاد الهند على العاطفة الدينية والجمالية لدى حوالي نصف البشر .**

ولكن الطبيعة تبدو معادية للإنسان ، ذلك أن فترات الجفاف الطويلة ، تتناوب مع الأمطار الطوفانية التي تجلبها الرياح الموسمية . وهكذا تتجاور السهول القاسية باتساعها ، والتموجات العارية في هضابها اللاتيريتية مع العالم النباتي والحيواني البهيج في أدغالها الشمالية ، ومع جسامة التضاريس الهيمالائية .

الهند وشبه القارة الهندية

نشكل شبه القارة الهندية ، الملتصقة بجسم أسيا على مساحة ٤,٥ ملايين كيلومتر مربع ، تشكل مجموعة جغرافية ثلاثية العناصر هي : حفرة الهندوس والغانج اللحقية ، وحافة السلاسل الالتوائية ، وشبه جزيرة الدكن المثلثة الشكل . ولكن الاتحاد الهندي يترك للباكستان أكبر قسم من حوض الهندوس ، مثلما تحتفظ بنغلادش بأفضل جزء من دلتا الغانج وبراهما بوترا . ولكن شبه جزيرة الدكن تختص بها الهند لوحدها (شكل ١) .

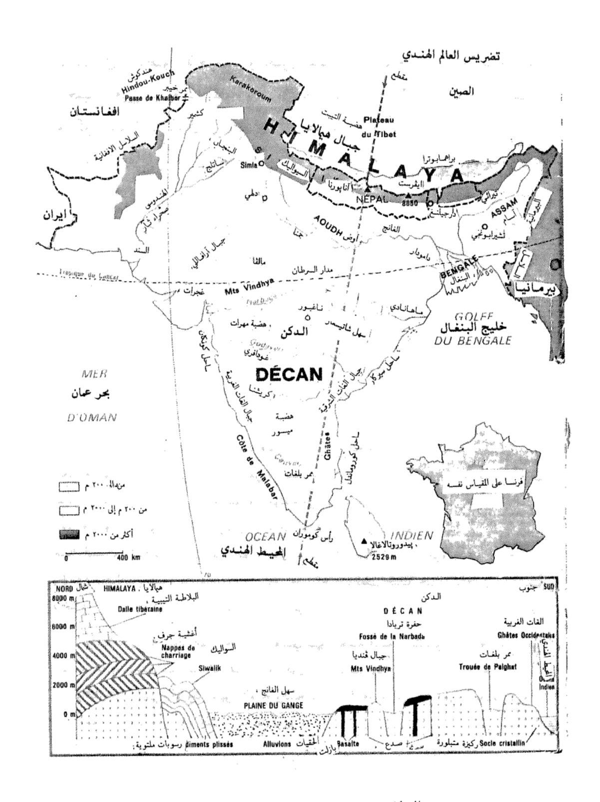
وتتألف الدكن من هضبة غير متناظرة . ففي الغرب أي من جهة بحر عمان ، تشطر عقبة جبال الغات الركيزة القديمة وغطاءها البازلتي . (شكل ٢) وهكذا تجري الأنهار نحو الشرق ، كي تصب على شكل دلتات في خليج البنغال . وقد استطاعت توضعات سميكة حطامية ولحقية أن تردم الحفرة الهندوسية الغانجية ، الواقعة بين شبه جزيرة الدكن وسلسلة هيالايا . وإلى الغرب من عتبة دلهي ، يقع البنجاب ، الذي تمتد أراضي الاتحاد الهندي على جزء منه ، وهو « بلاد الأنهار الخمسة » التي ترفد نهر الهندوس من اليسار . وفي الشرق تقوم السيول الهيالائية بدفع نهر الغانج نحو الجنوب ، ويعمل الإطماء على عرقلة عملية الترافد ، ولهذا يكون السهل مقسوماً إلى فواصل نهرية طويلة ، يدعى الواحد منها دوآب ، كما هو الحال بين نهر الغانج ونهر جمنا . ويعتبر دلتا البنغال الناجم عن العمل المشترك لنهري الغانج وبراهما بوترا أوسع دلتا في العالم . ومنذ القرن السابع عشر أصبحت مياه النهرين تنحرف نحو الشرق ، ولهذا أصبح البنغال الهندي « دلتامياً » رديء الصرف .



الشكل ٢

ولا يملك الاتحاد الهندي سوى قطاع من قوس هيمالايا ، والذي تختص مملكته نيبال ، وهي دولة مستقلة ، بقسمه الأوسط . ولكن هيمالايا ومعناه « مسكن الثلوج » ، وهو عبارة عن سور يعزل شبه الجزيرة عن الرياح الزمهريرية الشمالية ، ويحرف الموسميات الصيفية نحو الغرب . وبين خوانق نهر الهندوس وبين عكس نهر براهما بوترا ، أي على مسافة ٢٤٠٠ كم لا تقل الارتفاعات مطلقاً عن ٤٥٠٠ م ، وهي كتلة جبلية لا تدين بوجودها لقوة الالتواءات بقدر ما تدين لحركة نهوض إجمالية حديثة . وهذه السلسلة الضيقة التي لا يزيد عرضها عن ٣٠٠ كم ، تكون مسبوقة جنوباً بسلاسل **السواليك** ، وهي جبال من صخور رملية ، أو بيبونت حطامي ، حيث تتسرب فيه المياه لتؤلف في حضيضه مستنقعات تدعى « تيرائي » . ويضم هيمالايا بعض الأحواض (سرينغار) غير أن الأودية العرضانية هي عبارة عن طرق مسدودة تطل عليها ممرات شديدة الارتفاع . أما في أسّام تطيف طيات من نمط جوراسي بترس قديم (شكل ٣) .

وتتفاوت **الترب** بدرجة خصوبتها ، فأحياناً تكون مفتقرة أو نالتها عوامل الانجراف والحت ، لأن النبات الطبيعي تعرض لانحطاط شديد . أما في شبه الجزيرة ، فإن الأرض السوداء « ريغار» ولا سيا فوق صخور البازلت في الشمال الغربي ، تكون هشة ، تحتفظ بالماء بصورة جيدة ، في حين تسيطر الترب الحمراء



تضريس العالم الهندي
الصين
Plateau du Tibet
HIMALAYA
جبال هيمالايا
Karakoroum
Hindou-Kouch
Passe de Khaiber
افغانستان
ايران
Simla
NEPAL
8850
ASSAM
AOUDH
BENGALE
بيرمانيا
Mts Vindhya
DÉCAN
الدكن
GOLFE DU BENGALE
خليج البنغال
MER D'OMAN
بحر عمان
Côte de Malabar
Ghâtes
OCEAN INDIEN
المحيط الهندي
2529 m
فرنسا على المقياس نفسه
400 km
NORD
HIMALAYA
SUD
DÉCAN
Dalle tibétaine
Nappes de charriage
Siwalik
PLAINE DU GANGE
Fossé de la Narbada
Mts Vindhya
Ghâtes Occidentales
Trouée de Palghat
Alluvions
Basalte
Socle cristallin
8000 m
6000 m
4000 m
2000 m
0 m

الشكل ٣

الرملية في المناطق الأخرى ، أو تكون غضارية ، وأحياناً لاتيريتية . أما اللحقيات فهي عبارة عن غضاريات ناعمة (غرين) ، كما في السهول الفيضية ، أو تكون عبارة عن رمال غرينية ، كما في الفواصل النهرية . وقد تحولت الغابة الأصلية إلى بقايا شاهدة ، فنجد الغابة الدائمة الخضرة فوق جبال الغات ، أما غابة الموسميات وأهم أشجارها ، التك ، فتسقط أوراقها خلال الفصل الجاف . وتسيطر غابة Jungle جونكل في سفوح السواليك : فتكون تارة عبارة عن نجيليات عالية أو من أدغال البامبو ، وتارة أخرى عبارة عن أحراش السنط الشوكية ، التي تكون هزيلة جداً في صحراء ثار .

☆ ☆ ☆

يتألف القسم الأعظم من مساحة الاتحاد الهندي البالغة ٣,٢ مليون كم٢ ، من هضبة شبه جزيرة الدكن « الجنوب » ، المؤلفة من رسوبات قديمة ، التوت عدة مرات وتحولت إلى شبه سهل ، ومن صخور متبلورة ، ولكن تظهر في الشمال الغربي أغشية من لابات بازلتيه انساحت في مطلع الحقب الثالث . وتسيطر هنا المساحات المنبسطة ، مؤلفة من أشباه وسهول متبلورة ، ومن موائد بازلتية « ميزا » ، أو من صخور رملية « خرسان » . ولكن حدثت انكسارات كبيرة تمخضت عن عقبة جرف جبال الغات « السلالم » ، التي تظهر فيها حفرة ناربادا في الشمال الغربي والمحروفة نحو بحر عمان ، وحدور آراڤاللّيس المطل على صحراء ثار . وفي أقصى الجنوب تظهر كتلة جبال نيلجيري التي تسمو لارتفاع ٢٧٠٠ م بين كيرالا وبين تاميل نادو (مدراس) .

وفضلاً عن ذلك تملك جمهورية الاتحاد الهندي سهولاً لحقية فسيحة كالسهول الساحلية ، وهي سهول ضيقة ومتباعدة تطل على بحر عمان ، أو تكون أكثر عرضاً وذات دلتات على خليج البنغال ، وبمر براهما بوترا ، وعلى الخصوص سهول الغانج والبنجاب وذلك فيما وراء عتبة دلهي باتجاه الشرق ، حيث تكون الركيزة غير عميقة تحت العتبة المذكورة .

☆ ☆ ☆

الموسميات الهندية

يدين المجال الهندي في شخصيته وأصالته المناخية إلى موقعه في القسم المداري من آسيا الموسمية وإلى غلافه الجبلي . فبين **كانون الأول وشباط** تسود الضغوط العليا على شبه الجزيرة . ذاك هو **الفصل الجاف** ، باستثناء شمال غرب البنجاب ، الذي يتلقّى بعض الأمطار النادرة ذات الطابع الرومي (المتوسطي) مع قليل من أيام الانجماد . وبين **آذار وأيار** يأخذ الآنتيسيكلون ، أي الضغط العالي ، بالتقهقر نحو نهر الهندوس . ويصبح فصل **القيظ خانقاً** ، فيبلغ متوسط الحرارة في شهر أيار ٣٦ درجة في صحراء ثار . ويمكث الفلاح بجوار حقوله ينتظر قدوم الرياح الموسمية .

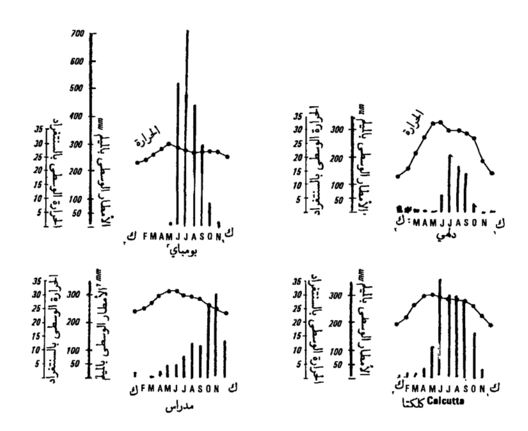
وفي أواخر **شهر أيار** ، يجتاز تيار الهواء الحار والرطب ، القادم من المحيط الهندي ، جبال الغات ، كي يقتحم بعدئذ خليج البنغال . ذاك هو « انفجار الموسميات » ، وهي أمطار طوفانية تهطل على الجبال المواجهة لهذه الرياح ، في حين تكون السفوح الواقعة في ظل المطر عرضة لفترات صحو متطاولة . وبعد أن تحاذي **الرياح الموسمية** سلسلة هيالايا لا تصل لمنطقة **البنجاب إلا في تموز** ، بعد أن خسرت معظم رطوبتها .

وابتداءً من أيلول يبدأ **تقهقر الموسميات الصيفية** . وتنحبس الأمطار إلا باتجاه خليج البنغال ، الذي لا يزال شديد التسخّن ، وحيث تتشكل **سيكلونات هدامة** تؤدي لفيضانات ولكوارث . وهكذا يكون شهرا تشرين الأول وتشرين الثاني أكثر الشهور أمطاراً ، على ساحل كورومانـدل كما في مدراس .

وتكون **السعة الحرارية ضئيلة** . ففي جنوب خط يمتد من بومباي إلى كلكتا ، لا نجد شهراً واحداً تكون حرارته الوسطى دون ٢٠ درجة .

وتكون النطاقات المناخية متميزة هنا بغزارة الأمطار ، وبنظامها ، أي بتوقيتها ، وبانتظامها من حيث التفاوت السنوي . وهكذا نجد ، رغم الفارق في درجات العرض بين البنغال وكيرالا الواقعة في أقصى الجنوب الغربي ، انهما متشابهان لأنهما ينتسبان إلى « هند النخيل » ، مثلما نجد أن أسّام وصحراء ثار عالمان مختلفان ، رغم وقوعهما على درجات العرض ذاتها .

ويقطع « **وتر الجفاف** » شبه الجزيرة الهندية ابتداءً من **رأس كاموران إلى البنجاب** . فإلى الغرب نجد **الشريط الرطيب الضيق** ، الذي ينال أكثر من متر من المطر ، أي بين بحر عمان وقفا جبال الغات . أما في الشرق **فينتشر الشريط المطري خلف خليج البنغال** ، باستثناء غرب مدراس ، كي يضيق عند الاقتراب من هيمالايا باتجاه البنجاب ، ويتخذ شكل قمع . وينال مركز تشيرابونجي ، الواقع عند أوائل سفوح جبال أسّام ، ١١,٩ متراً من المطر ، وتشتهر هذه البلدة في أنها أكثر نقاط الأرض أمطاراً . وهكذا تكون الموسميات الصيفية بالنسبة للمجال الهندي طاغية ومنعشة ، ذلك أن المعدلات المطرية تحجب اختلافات كبرى . فقد يتعرض كل من إقليم البنغال أو كيرالا إلى **سنوات جفاف** . وفي أي مكان آخر ، ابتداءً من مدراس حتى البنجاب ، قد يحدث أن تنحبس الأمطار أو تتأخر كثيراً مما يؤدي لاضطراب مواعيد زراعة المحاصيل ، مما يؤدي إلى تقلب مردودها دون ري . ولكن قد تؤدي الفيضانات إلى إغراق ١٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع من السهول اللحقية في البنغال وتلف المحاصيل . ويعتبر استئصال الغابة في سائر أنحاء شبه الجزيرة وإطماء السرر النهرية ، وعنف فيضانات نهر الغانج وروافده الهيمالائية بسبب ذوبان الثلوج والأمطار الموسمية ، والسيكلونات المدارية ، هي المسؤولة جميعاً عن **الكوارث** التي تكون **متعددة وقاتلة في دلتات خليج البنغال** ، كما حدث في صيف ١٩٧٨ .



الشكل ٤

الأنظمة المطرية في الاتحاد الهندي

شرح المخططات المطرية الحرارية في العالم الهندي

لا تدل الخطوط الحرارية المطرية في المراكز المناخية الهندية على اختلافات كبيرة في الحرارة ، بقدر ما تدل على مفارقات في حجم الأمطار وتوزعها . فتكون الأمطار هزيلة في دلهي حيث تبلغ ٧١٢ مم ، وقليلة نوعاً ما في مدراس ١٢١١ مم ، وتصل أوجها في نهاية فصل الأمطار ، ولكنها تكون أكثر غزارة في كلكتا ، حيث تبلغ ١٦٧٧ مم ولا سيا في بومباي حيث تصل إلى ٢٠٩٨ مم ، حيث تمتد الأمطار على أكثر من أربعة أشهر تتلقى لوحدها ٩٤٪ من الأمطار السنوية .



مناطق الجفاف في الهند

تتباين **شطيرة الأمطار الوسطى السنوية** من ١ إلى ١٠٠ . ويكون القسم التيبتي من كشمير ، أو لاداخ ، هو الأكثر قحولة ، إذ يتلقى دون ١٠٠ مم . غير أن صحراء ثار لا تنال أكثر من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مم . كما أن هناك نطاقاً واسعاً في داخل شبه الجزيرة ، يقع في ظل جبال الغات لا يتلقى أكثر من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ مم . غير أن التبخر يكون مستفحلاً في هذه المناطق . وبين خط المطر ٥٠٠ و ١٥٠٠ مم من الأمطار السنوية ، تكون الرطوبة عادة كافية لقيام زراعة صيفية غير مروية . ولكن نزوات الرياح الموسمية تستطيع أن تجعل المحصول تافهاً ، مما يؤدي إلى المجاعة ، كما نرى من النص التالي :

« في هذا العام لم تصل الموسميات ، فقد مر أسبوع ، ثم اثنان . وكانت أبصارنا متعلقة بسماء شرسة ، هادئة زرقاء غير حساسة بحاجاتنا . وخرجنا لنتفحّص السماء الصاحية والمتصفة بجمال قاتل ، دون أن تكون فيها سحابة واحدة تعكر صفوها . وخرج آخرون ليتأملوا السماء وتمتموا : ربما غداً . وجاء الغد ، والكثير بعد الغد ، ولكن دوماً لا مطر. وكان مستوى الماء ينخفض يوماً بعد يوم ، كما كانت رؤوس السنابل تنخفض باستمرار . وانكمش النهر ، حتى أنه لم يعد أكثر من خيط من الماء . أما الآبار فكانت جافة تماماً . وبعد قليل تحول لون سيقان النباتات إلى اللون الأسمر ، وكانت الاستحالة تجري تحت أبصارنا كأنها المرض الساري ، ماسحة تلك الخضرة التي كانت بالنسبة لنا هي الحياة » .

عن كامالا مارخندايا

« الرز والموسميات . دار نشر لافون »

☆ ☆ ☆

أولاً ـ تضاريس الهند

تقسم التضاريس والبنية الرقعة الهندية إلى أربع مناطق طبيعية هي : هيمالايا ، والسهل السندي الغانجي ، هضبة الدكن ، وجزيرة سيلان . وللعالم الهندي بنية بسيطة ، فهي تضم **سلاسل ملتوية في الشمال** ، **وسهلاً لحقياً في الوسط** ، وأشباه **سهول ناهضة وجانحة في الجنوب** ، أي تماثل وضع جبال الألب إلى جانب الأخدود الروداني ، والكتلة المركزية في فرنسا الجنوبية الشرقية .

أما **جبال هيالايا** أو « مقر الثلوج » في اللغة السنسكريتية ، فهي عبارة عن مجموعة سلاسل متقوّسة ، ملتحمة بسلسلة قره كوروم في الشمال الغربي ، مثلما تلتصق بها من الشرق **السلاسل البرمانية** في الجنوب الشرقي ، **والسلاسل الأفغانية** في الجنوب الغربي ، والتي تقوم جميعاً بالإحاطة بشبه القارة الهندية . وتملك هيالايا تضاريس أكثر مثيلاتها ارتفاعاً على وجه الأرض ، فهي تحوي أربعين قمة تتجاوز كل منها ۷٥۰۰ متراً ، وأكثرها ارتفاعاً هي قمة ايفرست التي تسمو إلى ۸۸٥۰ متراً ، والتي لم يكن الارتقاء إليها لأول مرة إلا بجهود الكولونيل البريطاني هنت بتاريخ ٢٦ أيار ١٩٥٣ .

وقد نتجت شدة الارتفاع عن **شباب الالتواءات** التي يشهد عليها تكرار الزلازل ، كتلك التي حدثت في ۱۸۹۷ و ۱۹٥۰ . وقد تعرضت اللحقيات ذاتها عند حضيض هيالايا إلى الالتواء في نهاية الحقب الثالث ، كي تشكل جبالاً منخفضة هي **جبال السيواليك** . ويكون مجموع السلاسل الهيالائية من ٦۰۰۰ إلى ۷۰۰۰ متراً مؤلفاً من رسوبات ترتبط بعملية انكباس subsidence محلية ، هذا فضلاً عن أغشية جرف معقدة ، مسكوبة نحو الجنوب ، أقول يكون مدفوناً تحت طبقات صخور هضبة التيبت الرسوبية . وتكون التضاريس غير متناظرة ، إذ تنتصب بعنف من الجنوب في حين يكون الانحدار أقل حدّة باتجاه هضبة التيبت شمالاً . وفي هذه السلسلة **جموديات** تمتد أحياناً لأكثر من مئة كيلومتر ، تصل ثخانة الجليد فيها إلى ۷۰۰ م ، وترفدها عشرات الجموديات الثانوية ، مثلما تحوي **خوانق** سحيقة ، كخانق نهر الهندوس أو براهما بوترا ، اللذين يخترقان هذه السلسلة من طرف لآخر ، واللذين تطل عليهما قمم ذات أشكال ثقيلة ، لأن الحتّ الحالي لا يزال غير متكامل بعد . ويكون **النبات متطبقاً** . فعلى سفوح هيالايا تتعاقب الغابة الكثيفة حتى ۱٥۰۰ متراً ، وغابة الزان والكستناء والسندر والراتنجيات بين ۲۰۰۰ و ۳٥۰۰ متراً ، والمروج الألبية فوق ذلك ، وأخيراً تظهر الثلوج الخالدة حوالي ٤۳۰۰ متراً على السفح الجنوبي . أما عند أقدام السلسلة ، فتقع غابة التيرائي الكثيفة المستنقعية ، حيث تظهر للعيان المياه المتسربة من خلال الحصويات التي تطيف بالجبل من الجنوب .

وهكذا تحمي جبال هيالايا ، باعتبارها **حاجزاً مناخياً** بلاد الهند من الرياح القارية ، مثلما تعمل على استفحال أمطار الموسميات الصيفية .

أما دور جبال هيالايا **كحاجز بشري** فقد تجلّى في انكماش العلاقات بين العالم الصيني والعالم الهندي ، حتى أن الطائرات ذاتها تلاقي صعوبة في الطيران فوق هذه السلسلة الجسيمة .

أما المنخفضات الطولانية فقد ناسبت قيام دول **جبلية** مثل : بهوتان ، ونيبال ، ولا سيا كشمير التي تبدو في عيني السائح كجنة أرضية تضم حقول الرز ومزارع الأشجار المثمرة والمزروعات المتدرجة ، فوق أرض خصيبة في أحضان القمم المعممة بالثلوج .

أما **السهل السندي الغانجي** ، فهو عبارة عن شدخ كبير في القشرة الأرضية ، يصل عمقه إلى بضعة آلاف من الأمتار ، ومردوم بالرسوبات وبالأنقاض الجسيمة التي تأتي بها الأنهار الهابطة من جبال هيالايا ، وهو يماثل إلى حدّ ما سهل ما بين النهرين بين بغداد والبصرة . ويؤلف هذا السهل الذي يصلح كله للزراعة قلب العالم الهندي ، وهو **أكثر السهول اللحقية في العالم المداري اتساعاً ، وهو عقدة الطرق التي نشأت فيها المدنية الهندية** . وهناك عتبة لا يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠ م تشرف عليها العاصمة دلهي ، تفصل سهل الهندوس في الغرب عن سهل الغانج في الشرق .

ويبتعد نهر **الهندوس** ، في الغرب ، الذي يبلغ طوله ٣٢٠٠ كم ، والذي ترفده أنهار البنجاب الخمسة ، لأن كلمة بنجاب تعني « الأنهار الخمسة » ، يبتعد عن الجبل ، ويحفر سريره في حادور Glacis من اللحقيات التي وضّعها ، ويصيبه الهزال في منطقة **السند** شبه الصحراوية ، وذلك قبل أن ينتهي عند دلتا فسيحة ، تتمدد في البحر بواسطة حفرة تحتائية سحيقة .

أما في الشرق فإن **نهر الغانج** الذي يصل طوله إلى ٣٠٠٠ كيلومتر ، فهو على العكس ، يحاذي سلسلة هيالايا ، ويدعمه العديد من الروافد التي تجعل

صبيبه قوياً ، فيصل إلى ١٥٠٠٠ متر مكعب ثانية ، أو أكثر من مياه الفرات بعشرين مرة مثلما تدفع بمجراه باتجاه الجنوب . ويغوص هذا النهر في اللحقيات القديمة التي تؤلف مصاطب فوق سريره . ويقوم أخيراً بردم منخفض تختلط فيه مياهه مع مياه نهر براهما بوترا ، فيشكّلان مستنقعاً شاسعاً خصيباً ، هو بلاد **البنغال** التي تغطي مساحة تبلغ ١٤٠٠٠ كيلومتر مربع . ويؤدي ذوبان ثلوج هيالايا ، مثلما تعمل الأمطار الصيفية ، على التسبّب بفيضانات هدامة يقوم بها كل من نهر الهندوس والغانج .

وقد كتب جواهرلال نهرو في وصيته عام ١٩٦٤ يقول : إن نهر **الغانج** ، على التحديد ، هو نهر الهند ، الذي يحبه شعبها ، والذي تندمج حوله ذكرياته المشتركة ، وآماله ومخاوفه ، وأناشيد انتصاراته ، وهزائمه . ولقد كان الغانج **رمز الزراعة والمدنية الهنديتين** عبر القرون ، في تغيّر دائم ، وفي جريان دائم ، بيد أنه يظل هو ذاته . ويذكرني الغانج بالقمم المغطاة بالثلج ، وبأودية هيالايا السحيقة التي أحبها كثيراً ، وكذلك بسهوله الغنية الفسيحة التي كانت مسرح حياتي وعملي . ويكون باسماً ومتراقصاً تحت شمس الصباح ، وقاتماً ، حزيناً ومليئاً بالأسرار عندما يهبط الليل . ويظهر في الشتاء على شكل شريط ضيق متباطئ ومليء بالجمال في الشتاء ، وعلى شكل كتلة مزمجرة خلال الموسميات . ويكاد يكون في مثل عرض البحر وفي مثل قدرته الهدامة ، ولقد كان الغانج بالنسبة لي رمزاً وذكرى عن ماضي الهند ، يتدفق في الحاضر ويجري في محيط المستقبل اللامحدود .

أما شبه جزيرة الدكن أو « بلاد الجنوب » ، فهي عبارة عن هضبة منهضة ومتخلّعة بالكسور ، محفوفة بسهول ساحلية .

ويتألف من ترس قديم متبلور ، تعرض منذ أقدم الدهور الجيولوجية للحت ، ومغطّى بصخور رملية وشيستيه وكلسية أفقية تعود للحقب الأول ، ومن مسكوبات بازلتية تعود للدور الثالث ، واتخذت شكل طبقات تدعى طرابّ trapps ، انساحت على رقعة كبيرة تزيد عن مساحة العراق والكويت معاً . وقد قامت حركات شاقولية بإنهاض هذه الركيزة القديمة . وتؤلف حوافها عقبات شديدة تدعى « جبال الغات » أي « السلالم » أو « الدرجات » . وترتفع جبال الغات الغربية إلى ٢٦٣٠ م في الجنوب ، في حين تكون جبال الغات الشرقية أقل ارتفاعاً واستمراراً . وتتجاوز الارتفاعات في الهضبة ٥٠٠ متراً وسطياً . وقد تزيد أحياناً عن ١٠٠٠ متراً . وتبدو جانحة باتجاه الشرق ، أي تميل

في اتجاه خليج البنغال . وتتألف أنهارها الرئيسية من نهر **ماهانادي** ، **وغودافري** ، **وكريشنا** ، **وكوفيري** ، مثلما تكون هذه الهضبة مهشّمة بصدوع ضخمة تتجه نحو الشرق ، تمخضت عن نشوء أغوار وأنجاد (هورستات) كجبال ڤيندهيا . ويقوم ممر **بلغات** في الجنوب بعزل بقية البلاد عن مثلث الهند الجنوبي .

ولقد كشف الحت عن أضلاع من الصخور الرملية وعن منخفضات شيستية وعن أعراف كوارتزيتية تؤلف تضاريس آبالاشية ، مثلما أوجد سهولاً لحقية صغيرة قرب ساحل مالابار على بحر عمان في الغرب ، ودلتات واسعة قرب ساحل كوروماندل ، وعلى ساحل سيركار ، على خليج البنغال .

وهناك نوعان من الترب يقتسمان أراضي الهضبة . فهناك **اللاتيريت** ، وهو نوع من تربة أكثر انتشاراً ، وقليل الخصوبة لأنها تربة مغسولة بفعل الأمطار المدارية ، وتربة **الريغور**Rigur المتشكلة ، على العكس ، تحت مناخ قاحل ، وتكون بالتالي غنية بالكلسيوم وبالفوسفات . وتشبه تربة الريغور في خصوبتها تربة التشرنوزيوم .

وإلى الجنوب من مضيق پالك ، تؤلف الركيزة المتبلورة ذاتها جزيرة **سيلان** . وتنهض هنا هضبة الغرانيت والغنايس في جنوب البلاد إلى أكثر من ٢٥٠٠ متراً في جبل آدم . وتكون الجزيرة محفوفة أيضاً بسهول ساحلية .

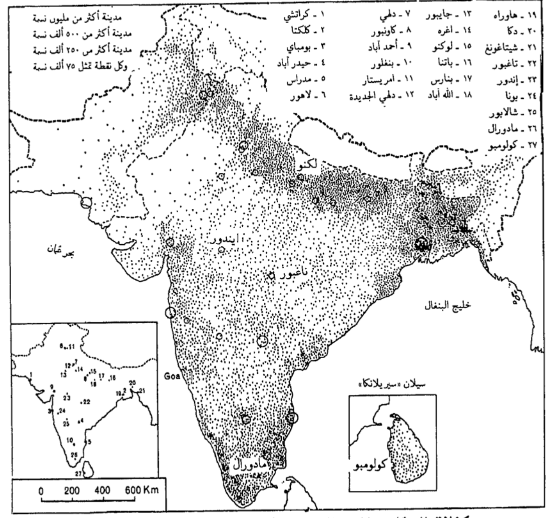
وتحوي **عتبة الدكن القديمة ثروات الهند المعدنية** ، كالفحم والحديد والمعادن غير الحديدية والثوريوم والأحجار الثمينة .

ثانياً ـ كثرة الناس وتنوعهم

تظهر شبه القارة الهندية ، التي تؤلف خلية بشرية هائلة ، وكأنها تضم حوالي خمس البشر أو ٩٠٠ مليون نسمة ، مؤلفين من فسيفساء من عروق ولغات وأديان وطبقات .

وهكذا نجد أن أكثر من سدس سكان الكرة الأرضية قد تجمهروا في

العالم الهندي ، وكان عـددهم ٨٨٧ مليونـاً في ١٩٨١ . وتبلغ الكثـافـة الوسطى أكثر من ١٩٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، ولكنها تتجاوز ١٠٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع في البنغـال وفي جنوب شرق الـدكن وفي ولايـة كوشـان وترافنكور ، حيث تصل الكثافات إلى درجة تعادل الكثافة السكانية في مصر المأهولة (شكل ٥) .



كثافة السكان والمدن الرئيسة في العالم الهندي

الشكل ٥

وتقوم المدنيّة هنا **بفرض الانسجام على مجموعات عرقية شديدة الاختلاف** : مثل **أشباه المنغوليين** في هيالايا ، **والزنوج الدراقيديين** ذوي القامة المتوسطة ، والقوام الرشيق ، والتقاطيع الدقيقة ، والذين يربو عددهم على ١٠٠ مليون نسمة في جنوبي شبه الجزيرة ، **والبيض الآريين** الذين تربطهم صلات القربى بالفرس من سكان بلاد فارس ، أو إيران الحالية . وقد قدم الآريون عبر ممرات الشمال الغربي واحتلوا واستوطنوا السهل السندي الغانجي بين عام ١٧٠٠ والعام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وقد امتزجوا في الجنوب مع الدراقيديين ، بحيث يؤلفون أكثر المجموعات الهندية عدداً .

ويقدر عدد **اللغات أو اللهجات في الهند بحوالي ٨٥٥** ، منها ١٨ لغة رئيسة ، بالإضافة إلى العديد من الأبجديات ، و ١١ نوعاً من الكتابة في اللغات الثقافية كالسنسكريتية أو اللغات العامية . وتسود في الجنوب **اللغات الدراقيدية** مثل لغة **تاميل** ، أو تامول ، وتتكلم غالبية الهنود العظمى لغات **هندية أوروبية** كالهندي ، التي يتكلمها حوالي ٢٧٥ مليون نسمة ، والأوردية التي تكتب بحروف عربية ، والبنغالي .

أما **تنوع الأديان** فليس بأقل من ذلك أي من تنوع العروق واللغات . وتاريخ العالم الهندي هو تاريخ تفكيره الديني ، شأن الفرنسية في أقطار إفريقية الغربية بسبب تعدد اللغات المحلية .

فالبراهمية ، التي انبثقت منها الهندوسية ، ليست عبارة عن مجموعة عقائد ، بل هي حكمة انتشرت على الهند انطلاقاً من هيالايا حتى سيلان ، وترى أن النفوس المهذبة هي كالأرواح البسيطة . وتضم فكرتين جوهريتين : فكرة **هجرة الأرواح** ، أي التناسخ ، أو التقمّص ، أي أن الإنسان يمر من وضع لآخر حسب العدالة الثابتة المطابقة لثواب أعماله ، وفكرة **الخلاص** : وهي أن روح كل إنسان يمكنها أن تشارك في الألوهية ، وفي المطلق وذلك عن طريق الزهد والتضحية

بالذات . هذا ويعمّد الهندوس في مياه نهر الغانج إلى ممارسة الاغتسال المطهّر . وتعد الهندوسية الخلود لبعض الناس ، أي الزهّاد ، ولكنها تحقر العمل وشخصية الآخرين . وهي تدعو بل تحث على وجود تسلسلات اجتماعية ، هي الطبقات ، كما تحذف المعنى الاجتماعي ذاته ، باعتبار البؤس نتيجة لذنوب سابقة . أما الفرد الذي لا بداية له ولا نهاية فهو نقطة ضئيلة تمتصها الروح الشمولية .

أما ديانتا الخلاص ، وهما **البوذية والجينية** ، فقد ظهرتا في القرن السادس قبل الميلاد . ويريد البوذيون تحقيق النصر على الذات ، والنجاة من دورة الهجرات والعودة ، وتحقيق خمود الأنا ، أي النيرڤانا . ولم تحتفظ البوذية في العالم الهندي بأكثر من بضعة ملايين من الأتباع ، وعلى الخصوص في سيلان ، ولكنها انتشرت في آسيا الشرقية ابتداءً من بيرمانيا حتى اليابان .

أما **الجائيون** وعددهم يربو على المليونين فيعيشون في منطقة بومباي ويندفعون في احترامهم للحياة الحيوانية حتى التطرف ، ويعيشون عراة دون أن يهملوا مع ذلك تعاطي التجارة وممارسة الربا .

والديانة التوحيدية التي استطاعت أن تنجح في الهند ، هي **الإسلام** الذي دخل العالم الهندي مع الفاتحين العرب منذ أيام محمد بن القاسم في القرن الثامن الهجري ، ثم على أيدي الفاتحين المنغول ، ويبلغ عدد معتنقيه اليوم أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة ، وهنا نجد **أكبر تكتل إسلامي في العالم** ، أو مركز ثقل العالم الإسلامي .

غير أنّ **السيخ** وعددهم قرابة ٩ ملايين قد حاولوا تحقيق تركيب بين الإسلام التوحيدي وبين الهندوسية التي تقبل بهجرة الأرواح ، ويؤلفون شعباً محارباً استطاع أن يؤلف قوة عسكرية مرهوبة في مطلع القرن العشرين .

ويعيش **المجوس** في منطقة بومباي ، وهم من عبدة النار كقدامى الفرس ، ويطرحون موتاهم في أبراج الصمت كي تفترسهم النسور . والمجوس قبل كل شيء هم أهل تجارة ورجال صناعة ، بحيث لا يتناسب عددهم الضئيل مطلقاً مع دورهم الاقتصادي ويزيد عددهم عن ١٤٠٠٠٠ نسمة .

وتتقدم **النصرانية** ببطء ولا سيما بين أكثر الناس فقراً عن طريق نشر التعليم التبشيري . وتنتشر هذه الديانة بين ٦ ملايين كاثوليكي يعيشون في الجنوب الغربي حول غوا ، المستعمرة البرتغالية

السابقة ، وقرب ماهيه المستعمرة الفرنسية السابقة ، بالإضافة إلى ٦ ملايين آخرين من البروتستان .

ولا تزال **عبادة الأرواح** قائمة في أقل المناطق تطوراً ، وهكذا تظل الأقليات من عبدة الأرواح ، التي يقارب تعدادها ٣٥ مليوناً ، مثل جماعات **الناغا** في أسام ، رديئة الاندماج في العالم الهندي .

هذا ويكون **الانقسام إلى طبقات** من صنع البراهمة ، ولكنه تسلّل حتى بين صفوف المسلمين أنفسهم . ولا يكون أصل الطبقات **دينياً** فحسب ، بل هو **عنصري** أيضاً . وهكذا ظهرت الطبقات وكأنها كابح أمام تهجين الآريين بالدراڤيديين ، مثلما يكون لها أيضاً **مدلول اقتصادي** ، فالطبقة Caste هي زمرة اجتماعية مغلقة ، وراثية ، ترتبط بدرجة محددة من النقاوة بحيث تقيم تضامناً وثيقاً بين أعضائها .

وتؤلف الطبقات أربع مجموعات رئيسة :

البراهمان : وهم طبقة كهنوتية محترمة جداً ، تعرف بلون بشرتها الفاتح ، وتتألف من **المحاربين** ، **والمزارعين والتجار** وأخيراً من **الشغّيلة** (سودرا) . أما الهنود المطرودون من طبقتهم أو الذين يتعاطون بعض المهن التي ينظر إليها على أنها مهن نجسة ، كالحلاقين ، والبرادعية ، والدباغين ، والكناسين ، فهم **المنبوذون** أو الذين لا تجوز ملامستهم ، والأصح تسميتهم الذين لا يجوز الاقتراب منهم ، ويبلغ تعدادهم ٧٥ مليوناً ، وهم محتقرون ولديهم شعور بانحطاطهم الذاتي ، بحيث لا يجرؤون على الخروج من أكواخهم إلا في الليل ، كما لا يمكن قبول أولادهم على مقاعد الدراسة . وعلى الرغم من تعاليم غاندي وإلغاء نظام الطبقات رسمياً ، فلا يزال الاحتقار المتبادل بين طبقة وأخرى قائماً ، ففي طائرات السفر يفضل البراهمي أن يتناول المعلبات كيلا يأكل من يدي مضيفة جوية من طبقة أدنى ، ويعتبر الانقسام إلى طبقات عائقاً كبيراً أمام وحدة العالم الهندي وتقدمه .

هذا وتدمج الديانات والطبقات الأفراد في بيئة اجتماعية ، ولكنها تؤلف بالنسبة للعالم الهندي قوى تمييز عنصري مفككة . فهناك هوة سحيقة بين الهنود من ديانات مختلفة أو من طبقات متباينة ، كما بين الهندوسي والمسلم . فهم لا يستطيعون التزاوج فيما بينهم ، أو أن يتناولوا المآكل ذاتها . وبذلك تكون الرابطة الدينية أقوى من الرابطة الوطنية . وقد نسي أكثر

الهنود ماضيهم ، كنسيان الملك العظيم آسوكا ، الذي وحّد الهند في القرن الثالث قبل الميلاد ، مثلما كثيراً ما يكون مفهوم الوطن المادي ، أرض الأجداد ، مفهوماً غريباً عن الهنود .

أما اليوم فإن استخدام الخطوط الحديدية واقتصاد المبادلات ، والنشاط التجاري ، والحياة الحضرية ، تعمل جميعاً على تحطيم الإطارات التقليدية ، وتخلط كل الهنود ببعضهم البعض ، وتهدم بكل تأكيد الطبقات أكثر مما تفعله الإصلاحات التشريعية .

ثالثاً ـ تقسيم العالم الهندي

لقد وضع الحكم البريطاني الذي دام قرابة قرنين من الزمن ، أي بين ١٧٥٧ ـ ١٩٤٧ المدنيّة الهندية على تماسّ مع الغرب الحديث .

فقد كتب المؤرخ الروماني بلين القديم (٢٣ ـ ٧٩ م) وأعرب عن أسفه لذهاب مبلغ ٥٥٠ فلس روماني باتجاه الهند في كل سنة قيمة مواد مستوردة منها . وقد أعجب الكثير من الرحالة بثراء بلاد الهنود ، وبرخاء سكانها ، وبرواج تجارتها . ولقد شهدت البلاد الهندية فترات طويلة من الازدهار التي تعاقبت مع حقب سادت فيها الفوضى والبؤس . وفي القرن الثامن عشر خرج العالم الهندي من العصر الوسيط كي يتجه نحو عصر الصناعة ، وجاء الاستعمار البريطاني ليعمل على **تجميد العالم الهندي في التقاليد الدينية وفي الحياة الريفية البحتة .**

وقد بسطت إنكلترا هيمنتها على العالم الهندي في نهاية القرن الثامن عشر ، بعد أن قامت بتدمير إمبراطورية الهند الفرنسية . وهكذا فرضت إشرافها على « طرق الهند » وعلى المواضع الساحلية وعلى القواعد البحرية الواقعة على الطريق الرئيسي إلى امبراطوريتها . وقد استطاع بريطانيون قليلو العدد لا يتجاوز عددهم ١٥٠٠٠٠ أن يخضعوا لإرادتهم ولمصالحهم مئات الملايين من الهنود ، اعتماداً على انقسام هؤلاء إلى إمارات وإلى طبقات وإلى ديانات متخاصمة .

وقد أصبحت **بلاد الهند** في القرن التاسع عشر **القطعة الجوهرية في الامبراطورية البريطانية** . وقد برهن الإنكليز على قوتهم التنظيمية الرائعة ، فقد احترموا التقاليد أو المدنيات الهندية ، وظلوا بمنأى عن العالم الريفي ، وذلك بالإقامة في المدن ، ضمن أحياء منعزلة ، مؤلفة من منازل ريفية أنيقة ومن حدائق . وأقاموا في الهند شبكة من خطوط حديدية ، هي أفضل شبكة في آسيا ، مثلما أنجزوا مشاريع ري كبيرة أوجدت الحياة في مناطق قاحلة ، وأدخلوا مزروعات تجارية كالقطن والجوت ووسعوا مجال زراعتها إلى حدّ كبير . ونالت الهند حظاً من التعليم ، ولكنه تعليم محصور بالطبقات العليا من المجتمع ، مثلما تمتعت بإدارة ممتازة وبطمأنينة وبالسلام البريطاني . وبذلك وصلت هذه الدولة إلى مفهوم الدولة الحديثة . وتطورت البلاد باتجاه الوحدة ، مثلما تلقت في الوقت نفسه تجهيزاً اقتصادياً ، وأصبحت تقاوم القهر البريطاني ، وذلك بتطوير شعور وطني على أثر التماس مع الفاتحين .

وكانت بريطانيا تعمل لمصلحتها ، فاستنزفت ثروات العالم الهندي ، ولا سيا الابتزاز والسلب الذي قامت به شركة بلاد الهند ، وأرباح الرساميل التي كانت في بعض الأعوام ، تعادل قيمة الأسهم ذاتها ، بالإضافة إلى السلع الغذائية والمواد الأولية الضرورية للصناعة البريطانية . ولم تكن بلاد الهند تقوم بدور مناطق تصدير فحسب ؛ بل كانت تؤلف أيضاً إحدى أهم أسواق منتجات بريطانيا العظمى . وهكذا انهارت الصناعة التقليدية ، ولا سيا النسيجية ، بسبب ضياع أسواقها ، وبسبب التعرفات الجمركية الباهظة ، لأن أقمشة مانشستر القطنية حلت محل الأقمشة القطنية الهندية في العالم الهندي ذاته . كما أن الثورة الصناعية التي لم تستطع أن تتحقق إبّان الحقبة الاستعمارية ، عجزت عن أن تتم في الوقت الحاضر . وهكذا كانت بلاد الهند عبارة عن مزرعة كبرى مدارية تعمل لمصلحة بريطانيا ذاتها .

لقد حصل الهنود على استقلالهم في عام ١٩٤٧ ، ولكنهم عجزوا عن تحقيق وحدتهم السياسية : فقد كانت بلاد الهند خاضعة على الدوام تقريباً لسادة أجانب ، ولم تتوحد سياسياً إلا فيا ندر . وفي القرن العشرين حاول الزعيم الروحي للحركة الوطنية **غاندي** أن يحرر الهند وأن يمنحها وحدة معنوية . وهكذا منحت إنكلترا ، التي خرجت مرهقة من الحربين العالميتين ، بلاد الهند **استقلالها** في عام ١٩٤٧ .

وقد ظهر عندها أن الصلات الدينية أقوى من الروابط الوطنية . وهكذا

أدت النزاعات الدينية إلى وقوف المسلمين ضد الهندوس ، وأصبح من المستحيل قيام أية وحدة سياسية في الهند . وانطلقت الغرائز البدائية لتعمل بكامل طاقتها : فوقعت أعمال نهب ومذابح وحرائق ، كانت ضحاياها كثيرة في صفوف المسلمين والهندوس . وقد تمكن وزير هندي أن يتكلم في شهر كانون الثاني من عام ١٩٤٨ عن « ثمار الحرية المرة » ، التي أدت إلى وقوع ضحايا أكبر عدداً من عهود العبودية الأجنبية . وعجز أبناء البلاد عن صنع كيانهم بأيديهم ، فقام نائب الملك اللورد مونتباتن وترأس عملية **تقسيم الهند في ١٥ آب من عام ١٩٤٧ .**

وهكذا أصبحت الرقعة الهندية مؤلفة من ثلاث دول هي : الباكستان والجمهورية الهندية « بهارات » ، وسيلان أو سريلانكا التي ظلت مرتبطة بالمملكة المتحدة كأعضاء في الكومونولث البريطاني .

غير **أن الكثير من المشكلات** لم يتم **حلها بعد تقسيم عام ١٩٤٧ .**

فقد تنازلت فرنسا عن موانئها الهندية في عام ١٩٥٤ عنوة من البرتغال ، وقام الجيش الهندي بانتزاع ميناء غوا في عام ١٩٦٢ . غير أن **كشمير الواقعة** في الشمال الغربي والتي تقطنها أكثرية مسلمة ظلت موضع نزاع بين باكستان والاتحاد الهندي ، وأصبح القسم الأعظم من هذا الإقليم تحت حكم الهند التي سارعت لاحتلاله عند التقسيم .

غير أن التقسيم **والهجرات** ، التي كانت أكبر مثيلاتها في كل العصور التاريخية ، والتي أدت إلى طرد ١٧ مليون نسمة باتجاه الهند أو الباكستان . **أقول** : لم تستطع أن تحل كل **المشكلات الدينية** ، فقد ظل في الباكستان في عام ١٩٧٠ حوالي ١٠ ملايين هندوسي ، مثلما ظلت الجمهورية الهندية تحوي أكثر من ٥٠ مليون مسلم في العام ذاته ، أي أكثر من سكان مصر والسودان حينذاك . ولهذا تعد الجمهورية الهندية من أكبر الدول الإسلامية . هذا ولا تكون الحدود

السياسية دائماً عبارة عن حدود دينية . وكان التعصب الديني ومشكلة كشمير يثيرا توتراً منهكاً لاقتصاد القطرين . وفي ١٩٧٠ كانت النفقات العسكرية تمتص نصف ميزانية الهند وثلثي ميزانية الباكستان ، إلى أن نشبت الحرب بسبب مشكلة باكستان الشرقية في عام ١٩٧٢ ، وتدخلت الهند لمصلحة ظهور بنغلادش مكان باكستان الشرقية .

وتحاول كل دولة أن تحقق نوعاً من وحدة لغوية ، فاعتمدت الهند اللسان الهندي ، مثلما تبنّت الباكستان الغربية اللغة الأوردية ، واتخذت بنغلادش اللغة البنغالية ، ولكن المقاومة الإقليمية كانت على الدوام شديدة للغاية . وهكذا لم يستطع أي لسان هندي أن يرقى لمستوى اللغة الرسمية .

وهكذا وبعد نشوء ثلاثة أنظمة اقتصادية في العالم الهندي ، نجد التقسيم قد عمل على تعميق مشكلات التخلف .

رابعاً ـ تخلف شبه القارة الهندية

يتألف ثلاثة أرباع سكان شبه القارة : من فلاحين يعيشون في مستوى معاشي منخفض جداً . يبدو مجتمع البلاد الهندية غنياً **بالمفارقات الاجتماعية** . فالطبقة العليا تضم قرابة ٤ ملايين نسمة ، من الهنود الذين يملكون دارات « ڤيللات » أنيقة ، ويتكلمون الإنكليزية بلهجة أهل أوكسفورد . ولا زال في الهند بعض **الإقطاعيين** الكبار ، وهم **المهراجات** بين الهندوس ، **والنـابـاب** بين المسلمين ، الذين كانوا يستحوذون في الماضي على ثروات الدولة ، والذين كانوا يعيشون في بذخ جنوني وأبّهيّ ، هذا فضلاً عن شذوذهم . ولكن طبقة جديدة حاكمة ناتجة عن التجارة والصناعة أخذت في الظهور : مثل عائلة **تاتا** في ميدان الصناعة المعدنية ، **وبيرلا** في صناعة النسيج ، **ودالميا** في صناعة الإسمنت ، وأما في المدن ، فقد تكونت **طبقة وسطى** يقدر عددها بحوالي ٦٠ مليون نسمة ،

تعمل وكأنها تستنفذ طاقتها في حل مشكلات السكن والغذاء . أما ٧٥ ٪ من الهنود ، **فيؤلفون كتلة هائلة من الفلاحين المتجمعين في ٨٠٠٠٠٠ قرية .**

وقد كان **المسكن المنضم** Groupé هو القاعدة قبل قدوم الآريين . ويقع البازار والهيكل في وسط القرية ، في حين يقوم إلى جانبها خزان الماء ، أو **التانك** ، وتقوم حول ذلك بيوت منخفضة مبنية بالطين ، دون نوافذ أو مداخن ، وحيث يقطن الحرفيون والفلاحون . ونجد أخصاص المنبوذين في معزل عن القرية ، وقد بنيت من أغصان الأشجار . وتعيش الماشية طليقة ، مما يزيد الازدحام في الأزقة الضيقة . **وتنتج القرية تقريباً كل ما هو ضروري لحياتها .** ففيها تصنع الأدوات : فتقوم بجوار القرية المزروعات الغذائية فوق أكثر الأراضي عناية ، ثم المحاصيل النقدية ، في حين تنتشر على الأطراف ، الحقول غير المروية ذات الإنتاج غير المضمون ، إلى جوار المراعي التي تعيش الماشية فوقها حرة طليقة .

هذا وتكون **الطرائق الزراعية** لدى الفلاح الهندي ، أقل دقة وعناية مما هي لدى **الفلاح الصيني** ، مما يجعل العالم الهندي أكثر قرابة لحضارات إفريقية السوداء . ولا يجهل العالم الهندي **تربية الماشية** ، ولكن هناك عدد هائل من قطيع الأبقار يبلغ ٢٠٠ مليون رأس ، عدا الخيول والجواميس والأغنام الرديئة التغذية ، لندرة المراعي الحقيقية ، بحيث لا تعطي أكثر من إنتاج زهيد للغاية . هذا كما يمتنع معظم الهندوس عن استهلاك اللحم بسبب الورع الديني . أما الحليب الذي تنتجه الأبقار الموجودة في داخل المدن ، فهو أغلى سعراً من الحليب في فرنسا . إذ لا تعطي البقرة خلال العام كله أكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ ليتر في العام . أما الثيران الضامرة فتقوم بالعمل بشكل رئيسي ، كما أن روثها مرغوب كوقود أو من أجل كسوة حواجز المساكن الداخلية ، وتتمتع بالحب « مثلما نحب قططنا وكلابنا » وتموت من الهرم . ويبلغ احترام الحيوان درجة تحول بين الناس وبين

مكافحة الحشرات ، أو مكافحة زحف أرجال الجراد . كما يضيع ٧٥ ٪ من مياه أمطار الموسميات سدى ، عوضاً عن استخدامها في الري . وتكون الحقول صغيرة مفتتة تنتظر التجميل والضم ، مثلما تكون البذور من نوعية رديئة ، وفترات البور مفرطة الطول ، كما يجهل أكثر الفلاحين استعمال الأسمدة . أما الأدوات الزراعية فتكون بدائية للغاية ، لا تساعد على اختصار تعب الإنسان .

وهناك أسباب اجتماعية تعتبر مسؤولة عن عدم استقرار وضع الفلاحين الهنود . فالفلاح المغفّل ، الجاهل ، يتلف موارده الهزيلة في الاحتفالات العائلية ، أو لدى الزهاد الفقراء والسحرة ، ومطربي الأفاعي . وهو يرهن أرضه كي يصبح فريسة المالك الكبير والمرابي ، أي **البانيا** الذي يشتري منه محصوله عندما تكون الأسعار منخفضة ، مثلما يقدم له السلع التي يفتقر إليها بأغلى الأسعار . وكثيراً ما ينوء تحت كاهل الديون ، ويضطر أحياناً إلى **التنازل عن ملكيته** ، أي عن « الهكتارين من الأرض » . ولم تتوقف أبعاد الملكيات الفلاحية عن الانكماش باستمرار خلال القرن العشرين . ولا يؤلف الملاكون من الفلاحين الهنود المستقلين أكثر من ٣٠ ٪ مقابل ٣٥ ٪ من الشركاء الأكّارين ، و ٣٥ ٪ من العمال الزراعيين .

وتكون العائلة الهندية ، من حيث المبدأ ، غير قابلة للقسمة ، ولذا تستغل الأرض بصورة مشاعة ، ولكن كان للملوك السابقين الحق الاسمي على الأرض ، فكانوا يتقاضون الضريبة العقارية ، مثلما كان بمقدورهم إقطاع الأرض ، للتعويض عن خدمات معينة ، وهكذا أوجدوا **إقطاعية** حقيقية . أما الإنكليز فكان اهتمامهم يتركز على تقاضي الضرائب العقارية ، وليس منح الزراعة الهندية أساساً اقتصادياً واجتماعياً سليماً . ففي القسم الأعظم من الهند ، عهد الإنكليز **للزامندار** بمهمة جباية الضرائب ، واعترفوا بهم كملاكين عقاريين ، فكان هؤلاء يحصلون من الفلاحين على عوائد عقارية ، تعادل أكثر من ٤٠ ٪ من المحصول ، ويؤلفون نوعاً من طبقة نبلاء صغار . أما في المناطق الأخرى مثل البنجاب ومنطقة بومباي ومدراس ، فقد كان كبار الملاكين يقومون بزراعة أراضيهم بأنفسهم مباشرة ، أو يعهدون بها لمستأجرين ويدفعون الضرائب بأيديهم ، وهذا هو نظام **الريوتشاري** ، **أما البؤس والعوز فيكون شديداً في المدن المتورمة .**

لقد تزايد **السكان الحضر** بشكل مفرط منذ ١٩٣٠ ، ويقدّر سكان المدن في العالم الهندي حالياً بحوالي ٢٠٠ مليون نسمة . ففي داخل البلاد نجد **مدناً قديمة** كمدن الحج مثل بنارس ، ومدناً حصينة ، ومدن أمراء ، وعواصم سياسية مثل دلهي وحيدر آباد . أما على الساحل فتقوم **مدن تجارية** تطورت عن مستودعات تجارية أوروبية : مثل كلكتا ، وبومباي ، ومدراس ، وكراتشي .

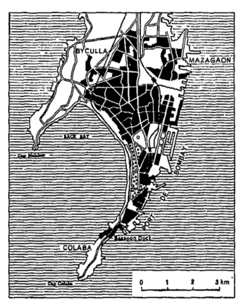
وقد **تزايد عدد هذه المدن بشكل جامح** ، بفضل تطور الصناعة ، وتدفق اللاجئين بعد التقسيم والفلاحين المعدمين ، ولتكاثر الوظائف العامة في دول حديثة العهد بالاستقلال وتورم الجهاز الإداري . وتضم أكثرية مدن العالم الهندي **أحياء تجارية** من نمط أوروبي ، وقصور ، وهياكل ، وأضرحة أمراء وملوك ، تمتاز بثراء تزييني وزخرفي مدهش . وأحياء **كريهة** هي عبارة عن محيطات من بيوت واطئة متراصّة على جوانب أزقة ضيقة ، وهي متاهات من عشش ومن أزقة مسدودة ، مليئة بحفر القاذورات والقمامات ، ومأهولة « بقطعان بشرية مقتلعة من جذورها » .

أما **كلكتا** « مدينة الليل المرعب » ، فيكفي أن يتجول الإنسان في شوارعها المركزية كي يغطس في حمام من الحسرة ، ويتمنى لو لم يكن قد زار ما يسمى bustes ، أي الأحياء البائسة ، حيث تعيش في وسط سواقي المراحيض والمجاري ، وضمن الأخصاص ، جماهير من السكان الجياع العراة ، تنهش أجسادهم حمّى البرداء ، والسل ، والبريبري والكوليرا . وهذا ما دعته إحدى الحكومات الإنكليزية « أوضاع ما تحت الإنسانية » .

أما **بومباي** (شكل ٦) فلا يوجد في بعض أحيائها أكثر من مرحاض واحد لكل ١٠٠٠٠ نسمة ، وحنفية واحدة لكل بضع مئات نسمة ، وغرفة صغيرة لكل ٢٠ نسمة . أما في الليالي القائظة ، فيذهب كل واحد للنوم على الأرصفة ، التي تبدو عند الفجر وقد تبعثرت عليها الأجساد البشرية ، كجثث القتلى بعد معركة شوارع حامية . وتكون الأحياء الفقيرة والأرباض في العديد من المدن في أقصى التعاسة ، حيث يكون مشهد البؤس أكثر بلاغة مما تذكره الإحصائيات ، والتي تمنح الهند الرقم القياسي في وفيات الأطفال أو ١٢٩ طفل بالألف (١٩٧٧) ـ (ولكن الواقع يتفوق عليها اليمن بشطريه

حيث تبلغ ١٥٥ بالألف في السنة المذكورة) ـ والسل والطاعون ، وفي عدد الأمهات اللواتي يهلكن من « التسمم بروث البقر » ، وأسبوع السبعين ساعة عمل في ورشات على شكل أعشاش ، وفي الأمية ...

« روبير غولآن »



الشكل ٦
مخطط بومباي

ولكن تكون أزمة السكن أكثر مأساوية من أي مكان آخر في العالم . ففي بومباي لوحدها ٦٠٠٠٠٠ نسمة بلا مسكن ، مثلما تتألف ثلاثة أرباع المساكن من غرفة واحدة تضم عشرة أشخاص وسطياً . أما محطات القطارات فهي مهاجع فسيحة خلال الليل . وعلى كل فإن المدن **تمنح سكانها دخلاً أكثر ارتفاعاً من الريف** ، وتقوم على مخض الهنود على مختلف طبقاتهم ولا تكون ممتنعة تماماً على التقدم .

لماذا يسيطر مثل هذا البؤس على مثل هذا الجزء الضخم من البشرية ؟

كتب أحد علماء الاقتصاد ما يلي : « لا يكفي الدخل المتوسط للفرد في العالم الهندي ، إلا بصعوبة ، لتأمين غذاء شخصين من ثلاثة ، أو لإطعام كل الناس وجبتين من ثلاث ، هذا على شرط أن يعيشوا في الهواء الطلق طيلة العام ، وألاّ يتمتعوا بأية تسلية ، وألاّ ينشدوا شيئاً آخر سوى الطعام » .

ويهدّئ الهندي جوعه بمضغ التنْبول bétel ، ونرى في كل مكان بصقاته المائلة للحمرة . ولكن

لا يشكو العالم الهندي من إنتاج غذائي دون حاجة سكانه ، بل عليه أن يقدم الغذاء لقطيع لا يكاد ينتظر منه أي نفع ، فضلاً عن ١٥٠ مليون من القردة ، التي تتغذى بطريقتها الخاصة ، ونجدها في كل مكان ، وتدنّس كل شيء . أما الجرذان فلا حصر لها . وإذا مرض الهندي فعليه أن يشارك سواه في سرير المستشفى ، هذا إذا أفلح وحصل على قبول في أحد المشافي ، كيلا يقضي نحبه في الشارع . وفي عام ١٩٧٠ كان هناك طبيب واحد لكل ٩٠٠٠ هندي ، وفي العام ذاته لم يكن في مملكة نيبال التي كانت تضم ٨ ملايين نسمة أي طبيب . وفي عام ١٩٨١ كان ١٢٠٠٠٠ طبيب هندي يعملون في خارج وطنهم ، ومعظمهم في بريطانيا والولايات المتحدة ودول الخليج العربي إلخ ..

ونستطيع أن نردّ ذلك دون مبالغة إلى **قساوة المناخ** ، وإلى **الماضي** الاستعماري لعالم استغله المنغول ، ومن ثم الإنكليز من بعدهم ، وإلى **عقلية الهنود** ، المكبّلين ضمن طبقاتهم ، أو المفتونين بالنقاوة ، والعديمي الاهتمام بإقامة اقتصاد حديث . ويمكننا أن نقول بأن **الأمية والربا** ، واستغلال الشركات الفلاحين والمستأجرين من قبل البورجوازية الريفية ، **وبطالة الفلاحين** خلال **الفصل الجاف** ، **أقول : إن كل عيوب التخلف** هذه ، تجعل أي تقدم في حكم المستحيل .

ويحق لنا أن نتساءل أخيراً : هل يحكم تكاثر السكان على العالم الهندي بالبؤس وبالفوضى ، بالتالي ؟ من المعتقد أن العالم الهندي كان يحوي ١٠٠ مليون نسمة سنة ١٨٠٠ و ٢٥٠ مليون في ١٩٢١ ، ولكن **توسعاً ديموغرافياً خارقاً** ، جعل العالم الهندي يضم حوالي ٦٠٠ مليون نسمة في ١٩٦٠ ، و ٧٩٠ مليون عام ١٩٧٦ ، و ٩٠٠ مليون في ١٩٨٢ .

وبعد أن ظل الأجل المرتقب قصيراً ، ووفيات الأطفال جسيمة لمدة طويلة ، انخفضت نسبة الوفيات إلى ١٤ مقابل ١٠ في فرنسا التي يعتبر سكانها بالطبع أكثر شيخوخة لكثرة المتقدمين في السن ، لأن الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة يؤلفون ١٤ ٪ من السكان ، مقابل ٣ ٪ لا غير في دول العالم الهندي . ولكن **ارتفاع نسبة المواليد** هي التي سمحت للعالم الهندي بالبقاء على مدى عشرات

القرون ، فضلاً عن شمولية التزاوج ، الذي يعتبر واجباً دينياً يحث على التناسل . ولا تزال نسبة الولادات اليوم تزيد عن ٣٤ بالألف في الهند ، و ٤٤ بالألف في الباكستان ، كي تبلغ ٤٧ بالألف في بنغلادش . وهذا ما يفسّر وجود فائض ينوف عن ١٠ ملايين نسمة في كل عام في ١٩٥٠ و ١٥ مليون حالياً . وتشجع حكومة الهند وباكستان على تحديد النسل ، كما تعمد لتعقيم الرجال والنساء بصورة وقتية أو دائمة ، ولكن ذلك يلقى مقاومة جماهيرية يستغلها الديماغوجيون ، ويخضع لمزايدات سياسية تستغل شقاء الشعب .

أما الهجرة الخارجية فقد كانت ضئيلة للغاية دائماً ، ولكنها أبعد من أن تقدم العلاج الشافي . فهناك قرابة ٥ ملايين من أصل هندي يعيشون في الخارج ، أي في بيرمانيا ، وماليزيا ، وفي جزر المحيط الهادي والهندي ، وفي إفريقية الجنوبية وفي جزر الأنتيل وغويانة .

دول العالم الهندي

لا تزال أوروبا شديدة التجزّؤ السياسي ، مثلما يحتوي « الوطن العربي » على ٢٥ دولة ودويلة ، لهذا لا داعي للاستغراب من انقسام العالم الهندي في الوقت الحاضر . ويتخبط هذا العالم المذكور في عدد من الاختلافات ، مما يبعث على الخشية من يقظة الحساسيات الدينية والعنصرية أو اللغوية في المستقبل .

الجمهورية الهندية : ومساحتها ٣٢٦٨٠٩٠ كيلومتر مربع ، كان يسكنها ٥٠٠ مليون نسمة في ١٩٦٨ و ٦٥٠ مليون في ١٩٧٩ ، وأكثر من ٧٠٠ مليون في ١٩٨٢ ، أي تزيد الكثافة فيها عن ٢١٨ نسمة في الكيلومتر المربع . وهي أكثر دول العالم سكاناً بعد الصين ، وهي عالم الهندوسية .

الباكستان : ومساحتها ٨٠٣٩٤٤ كيلومتر مربع . كان عـدد سكانهـا ٧٢,٣٧ مليون نسمة عام ١٩٧٦ ، وأكثر من ٨٣ مليون في ١٩٨١ ، أي ذات كثافة تزيد عن ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع . وهي ثالث دولة إسلامية في العالم بعـد أنـدونيسيـا وبنغلادش .

بنغلادش : ومسـاحتهـا ١٤٣٠٠٠ كيلومتر مربع ، سكانهـا ٧٦,٨٢ مليون في ١٩٧٥ و ٨٦,٦٥ مليون في ١٩٧٩ ، وحوالي ٩٠ مليـون في ١٩٨٢ ، وهي ثـاني دولـة إسلامية من حيث عدد السكان في العالم . وتتصل الكثـافـة فيهـا إلى أكثر من ٦٣٠ نسمة في الكيلومتر مربع .

سريلانكا : مساحتهـا ٦٥٦١٠ كيلومتر مربع ، وهي سيلان سـابقـاً ، وكان عدد سكانهـا في ١٩٧٦ / ١٤,٢٧ مليونـاً ، و ١٥ مليون في ١٩٨٠ ، وتصل الكثـافـة فيها إلى ٢٣٠ نسمة في الكيلومتر المربع .

نيبال : مساحتها ١٤٠٧٩٧ كيلومتر مربع ، أي تقارب بنغلادش ، وسكانهـا ١٢,٨٦ مليون في ١٩٧٦ و ١٣,٧ مليون عـام ١٩٧٩ و ١٥ مليون في ١٩٨١ ، وتصـل الكثافة فيها إلى ١٠٠ نسمة / كيلومتر مربع .

بهوتان : ومساحتها ٤٧٠٠٠ كيلومتر مربع ، وسكانها ١,٠٣ مليون نسمة سنة ١٩٧٦ ، و ١,٣ مليون عام ١٩٧٧ ، وتقـارب الكثـافـة الوسطى فيهـا ٢٥ نسمـة في الكيلومتر المربع .

كشمير وجامّو : ومسـاحتهـا ٢٢٢٨٠٠ كيلومتر مربع ، وسكانهـا ٤,٦ ملايين في ١٩٧٦ وقرابة ٥ ملايين حالياً والكثافة ٢٣ نسمة كم٢ .

جمهورية الاتحاد الهندي

فسيفساء بشرية

يعتبر الاتحاد الهندي الوريث الرئيسي لامبراطورية الهند البريطانية ، التي ما إن تخلصت من الاستعمار في عام ١٩٤٧ حتى تعرضت للتقسيم . وإذا كان « التقسيم » قد حلّ **المشكلة الدينية** ، بمنح الباكستان المناطق ذات الأكثرية المسلمة ، فإنه قد تمخض عن تقسيم منطقتين متجانستين هما البنغال في الشرق ، والبنجاب في الغرب ، مما أدى لهجرة ١٧ مليون نسمة في كلا الاتجاهين وإلى نشوب ثلاثة حروب بين الدولتين . وكان الخوف من الهند ، هو الذي يوحّد الباكستان الشرقية أي « بنغلادش الحالية » مع الغربية ، أكثر من الإسلام ، إذ كان شطرا الباكستان السابقة ، ينفصلان عن بعضهما بمسافة ١٥٠٠ كم جواً ، كما كان ميناء كراتشي ، يبعد بمسافة ٢٤٠٠ كم عن بنغلادش بالخط الحديدي أو بمسافة ٤٨٠٠ كم بحراً ، هذا كما تنفصل كراتشي نفسها عن أراضي البنجاب الطيبة بمقدار ١٠٠٠ كم من الصحاري ، وهكذا كان **انفصال بنغلادش متوقعاً في عام ١٩٧١** ، والتي أصبحت عبارة عن جيب ضمن أراضي الاتحاد الهندي ، وذات اقتصاد ضعيف ، تتعلق حياتها بحسن نوايا جارتها الكبرى أو بالعكس حيث شقاؤها .

ولكن **الاتحاد الهندي صمد أمام التمزقات السياسية والنزاعات اللغوية** ، على خلاف ما كان متوقعاً له ، وتبلغ رقعة هذه الجمهورية مساحة تعادل مساحة أوروبا الغربية أو ٣٢٦٨٠٩٠ كم^2 ، ولكنها أكثر سكاناً ، وهي عبارة

عن « **متاهة اجتماعية** » لا تستطيع التناقضات العديدة فيها ، من عرقية وطبقية ولغوية ودينية أن تنفي وجود صلات نسب عميقة .

ويبدو الاتحاد الهندي خليطاً على كل المستويات الثلاثة : العرقي واللغوي والديني وإذا استثنينا **الأقوام شبه المنغولية** عند تخوم التيبت وبيرمانيا ، فإن الهنود ينتسبون إلى مجموعتين عرقيتين . فهناك الزنوج من **ذوي التقاطيع الدقيقة ، وهم من السكان الأصليين بلا ريب** ، والذين زحزحوا تدريجياً من السهل السندي الغانجي ، **فاستوطنوا لوحدهم القسم الجنوبي** من شبه الجزيرة ، في حين يشكلون الطبقات الدنيا في المناطق الأخرى . أما **البيض فقد وفدوا** على شكل موجات متعاقبة من **الممرات الشمالية الغربية** ، بحيث أوجدوا استيطاناً نقياً إلى حد كبير في البنجاب ، ويتميزون بطول قامتهم ، وبلون بشرتهم الفاتح ، ولكنهم يتعرضون للتهجين فيما وراء ذلك بدرجات متفاوتة اللهم إلا في الطبقات العليا . وهكذا تصدّى **التزاوج الداخلي لمخض العروق دون أن يمنعه تماماً .**

ومن الممكن العثور على علاقات متبادلة بين العروق واللغات ، فأشباه المنغول ، في الشمال الشرقي ، يستعملون في تخاطبهم لهجات تيبيتية بيرمانية . أما الهنود الزنوج في الجنوب فيتكلمون **لغات دراڤيدية** تكتب بحروف « پالي » . **أما المجال اللغوي الهندي الأوروبي فينقسم إلى اثني عشرة لغة** متمايزة ، يكتب أكثرها بحروف « ناغاري » الموروثة عن السنسكريتية ، ويكون لحكومات الاتحاد عموماً أساس لغوي .

وإذا كان ٨٢ ٪ من **سكان الاتحاد ينتسبون إلى الهندوسية** ، فإن للهند **أقلياتها الدينية** . فهناك مذاهب قريبة من الهندوسية ، ولكنها ترفض نظام الطبقات ، مثل **الجائيين** في الغرب ، أو **السيخ** في البنجاب الذين يربو عددهم على ١٤ مليون نسمة . أما **المسلمون** ، على خلاف ماسبق فهم **مبعثرون**

ويؤلفون رغم التقسيم أقلية هامة عددياً وثقافياً ، ويشكلون ١٢ ٪ من السكان أو ٩٠ مليون نسمة .

غير أن **النصرانية** التي دخلت جنوب الهند في القرن الثالث ميلادي فقد انتشرت بين العديد من أبناء الطبقات الدنيا ، من فلاحين وصيادي أسماك . أما في العهد الاستعماري البريطاني ، فقد استطاعت البعثات التبشيرية أن تنشر النصرانية بين القبائل القاطنة في أسّام ، في أقصى الشرق وفي داخل شبه الجزيرة . غير أن **البوذية** التي ولدت في الهند في القرن السادس قبل الميلاد ، فليس لها بين سيلان « سريلانكا » وبين التيبت سوى القليل من الأتباع .



الديانات في الاتحاد الهندي

عدد أتباعها بالملايين في ١٩٧١

الهندوسية	٤٥٣,٣	مليون
الإسلام	٦١,٤	مليون
النصرانية	١٤,٢	مليون
السيخ	١٠,٤	مليون
البوذية	٣,٨	مليون
الجينية	٢,٦	مليون
المجوس	٠,١	مليون

☆ ☆ ☆

يعتبر **الاتحاد الهندي** استناداً إلى دستوره جمهورية علمانية اتحادية ، مؤلفة حالياً من ٢٢ ولاية ، متطابقة تقريباً مع الحدود اللغوية ، ومن مناطق : كالعاصمة دلهي ، والملحقات الجزرية ، مثل جزر لا كديف في الغرب ، وجزر آندامان في الشرق ، والمناطق الحدودية ، والممتلكات البرتغالية القديمة « غوا » أو الفرنسية مثل بونديشيري وماهيه وكاريكال .

ولا زال الاتحاد الهندي يعاني ، ضمن حدوده الاصطناعية من التقسيم الذي وقع في عام ١٩٤٧ ، والذي قسّم رقعة جغرافية متماسكة طبيعياً ، وفصل بين مناطق ذات اقتصاد متكامل ، وضاعف من أسباب النزاعات .

وعلى أثر نزوح ٦ ملايين هندوسي وسيخ ، عن منطقة البنجاب الغربي ، الذي أصبح تابعاً للباكستان ، فقد تركوا وراءهم ٢,٧ مليون هكتار من الأراضي التي شغلها ٦ ملايين مسلم لجؤوا من البنجاب الشرقي ، تاركين وراءهم ١,٩ مليون هكتار . أما في البنغال فقد نزح مليون مسلم نحو الباكستان الشرقية « بنغلادش » مقابل ٤ ملايين هندوسي تركوا بلاد الباكستان الشرقية كي يتكدسوا في كلكتا . أما البنغال الباكستاني ، أو بنغلادش الحالية ، فقد أصبحت معزولة عن مينائها الوحيد ، أي عن كلكتا .

☆ ☆ ☆

هذا وليس هناك من علاقة بين اللغات الدراڤيدية الأربع ، وبين اللغات الهندية الأوروبية : ذلك أن لغة التامول تستعمل كلغة أدبية لدى الدراڤيديين ، الذين حاولوا أحياناً تشكيل دولة « دراڤيدستان » . هذا وتتميز لغة الماراتي والبنجابي ولاسيا البنغالي ، المعدودة من جملة اللغات الهندية الأوروبية ، عن **الهندي** بشكل صريح ، والذي أصبح **اللغة الرسمية** للاتحاد الهندي ، علماً بأن الناطقين بهذه اللغة لا تتجاوز نسبتهم ٤٠ ٪ فقط من سكان الاتحاد الهندي . ويستعمل المسلمون اللغة الأوردية القريبة من لغة الهندي ، ولكنها تكتب بحروف عربية ، لأن **الأوردية هي اللغة الرسمية في الباكستان** . أما الإنكليزية التي يجهلها سواد الجماهير فلا تزال ضرورية للغاية في الصفقات التجارية ، أو في الحياة السياسية وفي المبادلات الدولية .

اللغات الرئيسية في الاتحاد الهندي
والمتكلمون بها بالملايين

الزمرة الهندية الأوروبية	
الهندي	٢١٠
بنغالي	٤٠
ماراتي	٤٠
بنجابي	١٣
الزمرة الدراڤيدية	
تيلوغو	٤٥
تامول	٣٦

الهند في مواجهة المشكلة الديموغرافية

لقد كانت شبه القارة الهندية تحمل دائماً خمس سكان الأرض . ففي خلال الفترة الاستعمارية ، كانت **الجائحات والمجاعات تعمل على تقليص النمو الديموغرافي** ، وقد كان في الاتحاد الهندي ضمن حدوده الحالية ٢٣٦ مليون نسمة في عام ١٨٩١ و ٣١٩ مليوناً في ١٩٤١ . ولكن قفز عدد السكان بين ١٩٥١ و ١٩٧١ وذلك بناء على الإحصائيات من ٣٦١ إلى ٥٤٨ مليون . ويقدر عدد السكان في ١٩٧٩ بحوالي ٦٦١ مليون و ٧٠٠ في ١٩٨٢ . وليس في نسبة التزايد السنوي وهي ٢ ٪ أي شيء استثنائي لأن نسبة التوالد ٣٤ بالألف ونسبة الوفيات ١٤ بالألف ، ولكنها تترك فائضاً في الولادات على الوفيات مقداره ١٤ مليون نسمة سنوياً ، أي يزيد سكان الهند سنوياً بما يعادل سكان العراق .

ولا تزال **نسبة الوفيات شديدة** ، وتصل إلى ١٢٩ بالألف ، أي يموت ١٣ ٪ من الأطفال قبل أن يكملوا عامهم الأول ، ولا يزال البؤس الفيزيولوجي عميقاً بسبب الطفيليات وسوء التغذية . ولكن أمكن درء الجائحات بفضل حملات التلقيح ، كما أن ضحايا الأمراض المستوطنة ، أصبحت أقل من الماضي كالبرداء . وإذا كانت الكثرة من الهنود يشكون من الجوع ، فإن الهنود الذين تصرعهم المسغبة أقل من الماضي . وقد **انخفضت نسبة المواليد** قليلاً فهبطت في خلال ربع قرن من **٠٤٥٪ إلى ٠٣٤٪** .

وقد أصبحت **الكثافة الوسطى في الهند تتجاوز الآن ٢١٤ نسمة بالكيلومتر المربع** . وهذا يؤلف اكتظاظاً سكانياً في أرض مدارية ذات ترب غالباً ما تكون ناضبة الخصوبة ، والتي يتألف ٧٠ ٪ من سكانها من فلاحين خاضعين لنزوات المناخ ، وأسرى نظام ملكية زراعية يتميز بعيوبه الاجتماعية وبعناصر التفكك الاقتصادي . وهكذا **لا ينمو الإنتاج الغذائي** ، مثلما **لا يتزايد الدخل القومي** بصورة **تزيد عن سرعة نمو السكان** . أما المناطق المكتظة بسكانها فليس أمامها سوى اللجوء إلى الهجرة . وهكذا يقصد البنغاليون بلاد آسّام في الشمال الشرقي ، حيث أصبحت الأراضي الصالحة للاستزراع نادرة ، هذا وتجذب المدن ريفيين يبحثون عن عمل محتمل ، بيد أن **١٠ ٪ من الهنود يعيشون في مدن ضخمة** يزيد سكانها عن ١٠٠٠٠٠ نسمة ، **ولا تؤثر الهجرات الداخلية** كثيراً على توزع السكان ، كما أن **الهجرة الخارجية** لا تمسّ سوى بعض المناطق الساحلية .

وابتداءً من عام ١٩٥١ ، ظهرت ضرورة **تحديد المواليد** ، فتم رفع سنّ الزواج القانوني للفتيات من ١٦ سنة في ١٩٥٦ إلى ١٨ سنة في ١٩٧٦ . وابتداءً من عام ١٩٦٥ حاولت وزارة الصحة والتخطيط العائلي أن تفرض بواسطة وسائل الإعلام **صورة أسرة سعيدة مع طفلين فقط** ، ولكن دونما طائل .

ويعرقل الفقر والجهل طريقة منع الحمل أكثر من التقاليد ، فعدد القرى التي تحوي على مستوصف لا يزيد عن ٥ ٪ وفي مثل أوضاع كهذه ظهر بأنه من الأفضل من أجل تخفيض الخصوبة ، **تعقيم الراغبين من المتطوعين والمتطوعات** مع تعويض نقدي ، وهكذا أمكن إجراء العملية الجراحية الصغرى لحوالي ١٢ مليون رجل و ٤ ملايين امرأة ، وكلهم في عمر متوسط قدره ٣٦ سنة ، ولكن بعد حدوث **العديد من الانحرافات** ، والاضطرابات ، صدر الأمر **الديماغوجي بإغلاق معسكرات التعقيم السيارة في عام ١٩٧٧** . ولتحاشي

حدوث قطيعة حتمية بين النمو الديموغرافي ، وبين نمو المصادر الغذائية ، يقتضي الأمر التوصل إلى القضاء على الحواجز النفسية ، فضلاً عن ضرورة تحقيق تقدم في مضمار تربية سواد الجماهير ، وتغذيتهم وتحسين حالتهم الاجتماعية .

☆ ☆ ☆

بعد أن ظل تكاثر **سكان الهند** لمدة طويلة محدوداً بسبب فرط الوفيات ، لا زال يعتبر معتدلاً بالنسبة لقطر من العالم الثالث ، وحالياً من الخامس بعد التصنيف الجديد . ولكن هذه النسبة تبدو عظيمة ضمن كتلة بشرية تزيد عن ٧٠٠ مليون نسمة غالباً ، أي بتزايد سنوي يبلغ ١٤ مليون نسمة .

كما يتصف **سكان الهند** بتفوق نسبة الذكورة ، فهناك ٩٤٠ أنثى مقابل كل ١٠٠٠ ذكر ، مما يؤدي لانخفاض الأجل المرتقب المتوسط ، والذي يبلغ ٥٠ سنة عند الولادة ، وإلى فرط نسبة الوفيات بين النسوة بسبب الزيجات المبكرة . وهكذا يكون هرم الأعمار ، هو هرم قطر فتيّ جداً لأن ٤٢ ٪ من السكان تقل أعمارهم عن ١٥ سنة ، ولكن نسبة الذين تقل أعمارهم عن ٢٠ سنة تصل إلى ٥١ ٪ ، في حين تقل نسبة الذين تزيد أعمارهم عن ٦٠ سنة عن ٦ ٪ مقابل ١٤ ٪ في اليابان . وفي ١٩٧٩ انخفضت نسبة الأولاد المئوية قليلاً فبلغت نسبة الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة ٤١ ٪ . ويرى الدكتور جوزيه كاسترو مؤلف كتاب « جغرافية الجوع السياسية » أن الغذاء النباتي هو المسؤول جزئياً عن ارتفاع الخصوبة لدى النسوة ، لأن الكبد يزيد من إفراز مادة الجريبين مما يزيد احتمالات الحمل لديهن ، بينما نجد ضعف في الخصوبة لدى الشعوب التي تكثر من استهلاك اللحم والبروتينات النبيلة الحيوانية تماماً ، كالحيوانات اللاحمة كالذئاب والنمور على خلاف الحيوانات النباتية كالأرانب ، وقديماً قال شاعرنا العربي :

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلات نزور

☆ ☆ ☆

وليست **الهندوسية ديانة موانيدية على الخصوص** . فهناك تقاليد لا تزال محترمة ، وتمتثل لها أكثرية الجماهير ، مثل منع زواج الأرامل من النسوة ، تعمل على تخفيض الخصوبة ، وهكذا يكون لدى النصارى ولا سيا المسلمين عدد وسطي من الأبناء أكثر من الهندوس .

بيد أن ممارسة منع الحمل ، على مختلف طرائقه ، لا يكون معروفاً أبداً أو مقبولاً لدى أكثر من عشر العائلات ، وغالباً ما يكون ذلك بعد حياة خصيبة أي عندما يكون لدى الزوجين أربعة أولاد أو أكثر ؛ ولهذا يقال في الهند : مائدة الفقير فقيرة ، ولكن فراشه خصيب .

وتـلاحـظ اختـلافـات كبيرة بين ولايـة وأخرى ، بحسبـان البنجـاب وولايــة كيرالا همــا أكثر الولايات الهندية تطوراً ، أو بين الأرياف والمدن حيث تكون نسبة الأولاد أقل ، وذلك بالتنـاسب مع النمو الاقتصـادي ولا سيما مع درجـة التعليم . ورغم كل أبعـاد الضغوط والوسـائل الموضوعـة تحت تصرف الجماهير ، فإن التخطيـط العـائلي لم ينجح إلا بصورة نسبيـة جـداً . بيـد أن انخفـاض التوالـد في الهنـد لا يكون بطيئاً إلا بالموازنة مع أهداف غير واقعيـة ، كتخفيض التوالـد إلى ٢٥ بـالألف ابتـداء من عـام ١٩٨٠ ، أو بالنسبة لنتائج حصلت في أقطار أقل اتساعاً وأقل سكاناً .

☆ ☆ ☆

هذا وتتباين الكثافة الكيلومترية كثيراً من ولاية لأخرى ، ومن منطقة لأخرى . فولاية كيرالا التي تزيد مساحتها قليلاً عن مساحة بلجيكا ، تحوي ٢٥ مليون نسمة ، وكثافـة تزيـد عن ٦١٠ نسمة في الكيلومتر المربع . وهكذا تعكس صورة الاستيطـان عمومـاً الثروة الزراعيـة وإمكـانـاتهـا . وعليه تكون الكثافة شديـدة جـداً في أطراف شبـه الجزيرة ، وفي السهل الغـانجي ، وتقل عن ذلـك في الـداخـل ، وضعيفـة إلى حـدّ مـا في الشمال الغربي ، اللهم إلا في النطـاقـات المرويـة . وتكـون ولايـة راجستـان التي تمتـد مع ذلـك فوق صحراء ثـار ، تكون ذات كثـافـة تزيـد عن ٧٥ نسمـة في الكيلومتر المربع .

أما الهجرة للخارج فلا يؤبه لها : فقبل عـام ١٩٣٠ ، وضمن إطـار الامبراطوريـة البريطـانيـة ، هاجر بضعـة ملايين من الهنود على شكل أفواج العمال الزراعيين coolies ، أو كتجـار واستقروا في بلاد المزارع الاستعمارية في جنوب شرق آسيا ، وسيلان وماليزيـا ، وفي جزر مزارع قصب السكر في المحيـط الهندي والمحيط الهادئ ، وفي جزر الآنتيل والغويانة وترينيداد ، وفي الناتال وأفريقيا الشرقيـة ، حيث لا زالت هناك جالية حقيقية من الهنود ، والتي تخلق مشكلات سيـاسيـة خطيرة بسبب سيـاسـة التمييز العنصري . غير أن أكثريـة البلاد المستقبلـة ، والتي أصبحت مستقلـة ، أغلقت أبوابهـا أمـام الهجرة بـل وراحت تطردهم مثل أوغنـدا . وقـد هـاجر العـديـد من الهنود المختلطين مع البـاكستـانيين إلى المملكـة المتحـدة ، وذلـك قبـل الاضطرابـات العرقيـة فيهـا بين ١٩٦١ و ١٩٨١ ، وقبـل تحـديـد هجرة أبنـاء الكومونولث الذي أعقب ذلك . ولا يزال يهاجر بعض الهنود على شكل مهـاجرين موقتين إلى الأقطـار النفطيـة في الخليـج العربي ، ولكن يهـاجر أيضـاً الكثيرون من حملـة الشهـادات العليـا من الأطبـاء والتكنولوجيين ، لأن عشر أطباء الهند يمارسون عملهم في الولايات المتحـدة وكنـدا وبريطـانيـا والبلاد النفطية العربية . ويقدر عدد الأطباء الهنود في الخارج عام ١٩٨٠ بأكثر من ١٢٥٠٠٠ طبيب .

☆ ☆ ☆

عيوب المجتمع الهندي

تقوم الهوية الهندية على صهر عناصر ثقافية دراڤيدية وهندية آرية في **نظام فلسفي ديني** ، هي **الهندوسية** ، والتي تؤثر طرائقها في التفكير والبنى الاجتماعية ، وكذلك على الديانات الواردة إلى البلاد كالإسلام والنصرانية . والهندوسية هي سلوك أكثر منها ديانة أفسدتها الأساطير الشعبية . كما يؤثر **احترام الحياة الحيوانية** ، القائمة على الاعتقاد بالتقمّص ، على العادات الغذائية وعلى التقنيات الزراعية ، مثلما يهين الاهتمام **بالطهارة الطقوسية** على العلاقات الاجتماعية .

وتؤلف **الطبقات هيكل المجتمع الهندي** ، ويمكن تفسيرها بالتمييز العرقي ، لأن لكلمة **قارنا** التي تعني **المجموعات الأربع من الطبقات** وهي : **البراهمة ، والنبلاء العسكريين ، والتجار ، والفلاحين** ، مدلولاً على اللون . وفي الهند ٣٠٠٠ طبقة (جاتي) ، وهي جماعات **متضامنة بواسطة الدم** (تزاوج داخلي) **والعمل** (مهنة تقليدية) و ٨٠ مليون نسمة خارج الطبقات أو « المنبوذون » الذين يختصّون بمهن تعتبر مهينة كمنظفي الثياب والدباغين ، أو الأقوام القبلية . وعلى الرغم من تعليمات غاندي الذي كان يرى في « المنبوذين » «مخلوقات الله » ، ورغم إلغاء **الطبقات في الدستور** ، فإن المنبوذين لازالوا يعيشون دوماً في أطراف القرى . أما في المدن المزدحمة ، الشديدة الاختلاط ، فمن الصعوبة بمكان تحاشي التماس مع « الأنجاس » كما أن الحواجز الاجتماعية تتخلى عن مكانها للحركية المهنية . فهناك العديد من المنبوذين الذين يعملون في التعليم ، أو الذين وصلوا للثراء العريض .

ويعود **تشنج البنى الاجتماعية** قبل كل شيء إلى الجهل ، لأن ٧٠ ٪ من

السكان لازالـوا من الأميين ، **وللعـزلـة** ، لأن ٨٠ ٪ من الهنـود يعيشـون في ٥٧٦٠٠٠ قريـة ، على صـورة مسـاكن متجمعـة ، في السهـول اللحقيـة ، أو فـوق الهضاب وبجوار موارد الماء . ويتألف المجتمع من جماعـات متسلسلـة منطويـة على نفسها ، أو منفتحـة على التقـدم في حـالات نـادرة ، كما في البنجـاب أو كيرالا في أقصى الجنوب الغربي مثلاً .

ويكـون التفـاوت الاجتماعي صـارخـاً في أكثر **المـدن** ، التي **تلعب دور ملاجئ لأفواج بلا جذور** ، وأكبر المـدن هي أكثرهـا جـاذبيـة . وهنـاك **٢٠ مدينة يتجاوز سكان كل منها ٥٠٠٠٠٠ نسمـة** ، وهي **مـدن** تقليـديـة ، أو مدن حج مثل بنارس Vanarasi ، أو عواصم مخلوعة ، غنيـة بـالقصور مثل آغرا ، أو **مراكز صناعية** ، ولا سيما الموانئ الثلاثة الناشئة عن **التجارة الاستعمارية** وهي : مـدراس (٢,٥ مليون نسمـة) ، بومبـاي (٦ ملايين) وكلكتـا وفيهـا مـا لا يقل عن ٧ ملايين مع أربـاضهـا الـواقعـة على ضفـاف نهر هـوغلي . أمـا **النمـو الأكثر سرعة فقد كان نمو دلهي ، العـاصمـة** التي تضـاعف عـدد سكانهـا ثلاث مرات منذ الاستقلال ، وهذا مع تزايد الدوائر الاتحادية ويسكنها قرابة ٣ ملايين نسمة .

ونجد اكتظاظ السكان في كل مكان وفي المدن يسير هـذا بصورة متوازيـة مع عجز الخدمات العامة ، كتوفر المياه . وهكذا تبـدو **كلكتـا** حيث تؤدي مصـاعب حركة الميناء وصناعة الجوت إلى استفحال البطالة ، وهي **عـاصمـة البؤس** نظراً لكثرة « الباستي » فيهـا ، وهي متـاهـات من دروب نتنـة ، وحيث تكثر العشش الترابية ، أو من الأغصان ، أو من صفائح خشبيـة عتيقـة ، وفي كلكتـا « جمـاهير غفيرة ، تولد على الرصيف وتتزوج على الرصيف وتموت على الرصيف » .

بقرة جوالة في شارع من بومباي :

قد تزعج هذه البقرة التائهة حيـاة السوق ، ولكن ليس هنـاك من يجرؤ على طرد هـذا الحيوان

المقدس . وتمنع التعاليم الهندوسية دوماً استهلاك لحم الأبقار وحتى ذبح الحيوانات الهرمة أو المريضة . وتساهم هذه المحظورات الدينية ومخلّفات نظام الطبقات جميعاً في كبح تطور الهند الاقتصادي . وكل من يحاول الخروج من الوضع الذي اكتسبه عند ولادته فإنما يعرّض نفسه لعداوة الرأي العام . كما أن التوقير الذي تتمتع به الطبقات التي تتبوّأ سدّة التسلسل الاجتماعي ، والتي تتألف غالباً من العاطلين عن العمل ، أو من الذين ينفرون من العمل اليدوي ، لا يكون أبداً من عوامل التحريض على التقدم . ويعمل أكثرية البراهمة اليوم في التعليم ، أو كموظفي مكاتب ، وأرباب فنادق أو مطاعم . لكن الجزارين هم من المسلمين . أما نجاحات الرأسمالية الهندية فهي من صنع الفئات غير الهندوسية ، فمؤسسة بيرلا قامت بجهود أحد الجائيين ، أما شركة تاتا الضخمة فهي ثمرة مبادهة أسرة من مجوس بومباي .

هذا ولا يؤلف البراهمة بالضرورة طبقة مسيطرة ، فهذه تكون محلياً هي الطبقة التي تدمج السلطة الاقتصادية مع درجة عالية نوعاً ما في تسلسل الطبقات . وتتعارض هذه المنظومة من القيم بصورة جذرية مع المدنيّة الصناعية . كما أن التضامن القائم بين أعضاء طبقة ما يسمح لهؤلاء بفرض إرادتهم على الطبقات الأخرى . فمدير مؤسسة ما لا يختار أعوانه من أكثر الناس كفاءة بل أفراداً من طبقته ، وهذا هو إكسير التخلف .

عن شارل بتلهايم « الهند المستقلة »

دار . آ . كولان ١٩٦٢

احصائيات

المدن الهندية الكبرى حسب إحصاء ١٩٧١

اسم المدينة	عدد السكان	اسم المدينة	عدد السكان	اسم المدينة	عدد السكان
كلكتا	٧٠٠٥٠٠٠	حيدر آباد	١٧٩٩٠٠٠	ناغبور	٨٦٦٠٠٠
بومباي	٥٩٦٨٠٠٠	بنغلور	١٦٤٨٠٠٠	بونا	٨٥٣٠٠٠
دلهي	٣٦٢٩٠٠٠	أحمد آباد	١٥٨٨٠٠٠	لكنو	٨٢٦٠٠٠
مدراس	٢٤٧٩٠٠٠	كانبور	١٢٧٣٠٠٠		

يكون **موقع دلهي** ، حيث تقرر أكثر من مرة مصير الهند وفاتحيها المتعاقبين ، عند تلاقي بلاد حوض الهندوس مع بلاد حوض الغانج . ولقد كانت دلهي القديمة عاصمة الأسر المالكة الإسلامية ، وكانت آخرها ، أسرة المغول ، التي حكمت بين القرن ١٦ والقرن ١٨ . وفي ١٩١١ قرر البريطانيون أن ينقلوا إليها المقر الإداري لامبراطورية الهند بعد مغادرة كلكتا . وبعد أن أصبحت نيودلهي عاصمة الاتحاد الهندي ظلت عبارة عن شكل مضلع رباعي ذات شوارع عريضة جداً تنفتح على عمارات ضخمة من الصخر الرملي الوردي ، كالقصر الجمهوري والبرلمان والوزارات .

مشكلة الأرض الزراعية

لقد كانت الضريبة العقارية في الهند ، الإنكليزية سابقاً ، تدفع مباشرة حسب المناطق ، من قبل مالك الأرض ، صغيراً كان أو كبيراً ، أو تجبى بواسطة « الأكّارين العموميين » أي « الزامندار » الذين كانوا يعمدون لمصادرة أملاك المتلكّئين عن الدفع ، لمصلحتهم . **وعند حلول الاستقلال ، كان الملاّكون المتغيّبون يملكون نصف المساحات** الزراعية . **وكان ثلث الفلاحين من الذين لا يملكون أرضاً** ، على شكل عمال زراعيين يشتغلون ما بين ١٣٠ إلى ١٨٠ يوماً في العام ، وكان **الثلث يزرع الأرض بطريقة المؤاجرة مساحات صغيرة جداً** ، تاركين للمالك نصف المحصول على الأقل . **وكانت أكثرية المالكين المستغلّين ، ذاتها ، لا تملك أكثر من هكتارين** ، وهو الحد الأدنى الحيوي لمعيشة أسرة واحدة ، وبالتالي كانت تضطر للاستقراض من الدائنين أو من بقالية القرية . وكانت **مسيرة الافتقار المتزايد هي** القدر المحتوم ، كما قال أستاذنا بيير جورج : « لا تسير الشعوب المتخلفة نحو الفقر المتزايد الذي بلغته منذ زمن بعيد ، بل تسير الآن قُدُماً نحو التسول » .

وقد أخذ الاتحاد الهندي بتطبيق الإصلاح الزراعي على مراحل ، غير أن كيفية تطبيق قوانين عام ١٩٥٠ كانت من اختصاص الولاية المحلية وليس من اختصاص السلطة الاتحادية . وهكذا تخلّى « الزامندار » عن الأراضي التي لم يكونوا « يزرعونها » مقابل تعويض نقدي ، إذ يكفي لأن يعتبر الإنسان « مزارعاً » إذا كان يقيم محلياً دون أن يمارس بالضروة زراعة حقوله مباشرة . وهكذا **كانت المساحة المصادرة والخاضعة للتوزيع محدودة** . كما أن **التشريع ، الذي كثيراً ما انحرف عن غرضه ، كان يحدد سقفاً لمساحة**

المستغلاّت ، يختلف باختلاف الولايات ، فكان هذا السقف ٧ هكتارات في كيرالا ، و ١١ في كشمير ، و ٢٥ في أسّام . وأصبح المستأجرون أفضل حماية ضد الطرد ، كما أصبح اقتسام المحصول أقل إجحافاً بالمستأجر . غير أن الملاكين انتقلوا إلى مرحلة الاستغلال المباشر بالاستعانة بعمال مأجورين . وهكذا تشكلت طبقة من كبار المستغلين التي استفادت من « الثورة الخضراء » في البنجاب وفي تاميلناد ، وفي ماهاراسترا « منطقة بومباي » وذلك باستعمال البذور المصطفاة ، والأسمدة الكيماوية والري بالتنقيط ، وحتى المكننة . وقد أعقب **تمركز الملكيات تمركز في المستغلات** وإذا كان ٨٠ ٪ من المساحة الزراعية المفيدة مزروعة الآن مباشرة من قبل نسبة مماثلة من الملاّكين المستغلّين ، فإن ٧٢ ٪ من هؤلاء لا تصل ملكياتهم إلى هكتارين .

وهكذا **تظل مشكلة الأرض الزراعية مطروحة** ، ويعمد المزارعون الصغار ، من ضعاف التجهيز ، أحياناً إلى تأجير الثور والمحراث . وينوء ثلث هؤلاء تحت نير **القروض** ، كما أن حقولهم مرهونة . أما العمال المياومون فهم عاطلون عن العمل **مدة ثمانية أشهر** خلال العام ، ويتزايد عددهم يوماً بعد يوم . كما لا يجد نداء « هبة الأرض » الموجّه إلى الأغنياء من طرف حركة « غرامدام » الكثير من الآذان الصاغية .

غير أن **المجتمع الريفي يتطور مع ذلك . فهناك** أكثر من ٤٠٠٠٠٠ قرية تنتسب إلى تجمع التطوير الجماعي . فالتعاضد يسمح بتعبيد الطرق بالإضافة إلى مشاريع الري الصغرى . وهناك **مرشدون** ، موظفون لدى الدولة ، يعلّمون الفلاحين أفضل التقنيّات ، ويوزعون عليهم البذور والمخصّبات . وهكذا فإن إقامة منظومة ناجعة للإقراض الزراعي ، وإيجاد تعاونيات فلاحية للتموين وللتسويق ، فضلاً عن تعاونيات الإنتاج ، ستؤدي جميعاً إلى تحسين أوضاع

المزارعين ، دون أن تحل ، مع ذلك ، مشكلة الملكية الزراعية ، لأن ٤٠ ٪ من الفلاحين في هذا اليوم من الذين لا يملكون أرضاً .

إن **نصف مساحة الهند مزروعة** بصورة متفاوتة ، وهي نسبة ممتازة تعادل النسبة في فرنسا ، مع أنها لاتزيد عن ٣,٥ ٪ في مصر وعن ٢ ٪ في المملكة العربية السعودية ، والتي تعني أيضاً أن هناك القليل من الأراضي الجديدة القابلة للاستزراع . وللحفاظ على ثروة غابيّة ضاع منها الكثير وانحطت ، لأن ١٣ ٪ منها عبارة عن غابة حقيقية ، فإن على قبائل شبه الجزيرة ومنطقة أسّام في الشرق أن يكفوا عن الزراعة المتنقّلة فوق الحريق ، وأن ينحصروا في رقعة محدودة . أما المزارع الحديثة ، ولا سيا مزارع الشاي ، والتي لا زال الإنكليز يحتفظون ببعضها ، فلا تغطي سوى مليون هكتار في أسّام وفي كيرالا ، في أقصى الجنوب الغربي ، وإذا كانت المساحة الزراعية المفيدة تمتد على رقعة تبلغ ١٦٥ مليون هكتار ، فإن ٣٣ مليون هكتار من الحقول هي التي تعطي محصولاً مزدوجاً في العام ، ولكن تظل رقعة ذات مساحة مماثلة بحالة بور .

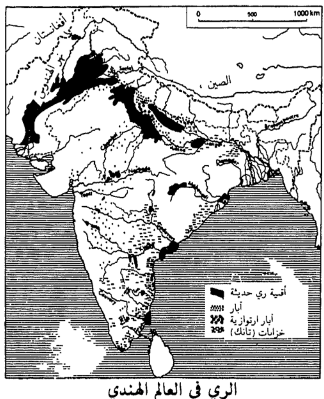
الحيّز المروي في البنجاب : تتصف الحقول في البنجاب بتقسيم هندسي ، وتتألف من لحقيات خصيبة . ولكن تكون الحقول إجمالاً قليلة المساحة . كما أن المستغلّين الذين يقطنون في قرى بعيدة ، يزرعون حوالي ٢٠ قطعة شديدة التبعثر شبيه بنظام المشاع الثابت في بلاد الشام . بيد أن البنجاب الهندي أو الباكستاني يؤلف منطقة متميزة . تلك هي المنطقة التي انحازت إلى « الثورة الخضراء » التي حققت نجاحات تقنية ، مثلما شهدت صدمات اجتماعية . وقد كتب رينيه دومون في جريدة لموند الدبلوماسية في ٢٠ حزيران ١٩٧٠ ما يلي : « لقد أصبح المالك ، الذي كان يبتزّ العائد العقاري من مستأجريه ، راغباً في زراعة أرضه مباشرة ، بعد أن أغرته الأسعار المرتفعة الناتجة عن المجاعة وارتفاع مردود النوعيات الجديدة من الحبوب . وإذا اشترى أدوات حديثة فإنه يكتفي بنصف مستأجريه ، الذين سيعملون كأجراء ، وسيطرد الزائدين ، وهكذا سرعان ما يحتكر المزارع الكبير الأسواق ويعجز الفلاح الصغير عن بيع فوائضه الزهيدة ، كما أن من العسير عليه الوصول إلى المصادر الرسمية للإقراض ، أما المرابي فمطالبه باهظة جداً . وهكذا أدت الثورة الخضراء إلى استفحال تمركز الأراضي ولاسيا البطالة ، وينصح الخبراء بتركيز وسائل التقدم على المناطق الغنية أي الخصيبة ، أو المروية ، أو الغزيرة الأمطار ، مثلما يرون الاهتمام بالمزارع التي تزيد مساحتها عن هكتارين ، لأنها هي الوحيدة القادرة على توظيف الأموال لانطلاق تنية استغلال ذاتي . أما إذا ظل الآخرون راكدين ، ومحرومين من العمل ، أو من القدرة الشرائية ، اللهم إلا إذا كان هناك عون حكومي ، فمن سيأكل الإنتاج المتزايد يا ترى ؟ » .

الزراعة : نجاحات متفاوتة

ليس في الهند منطقة تتوقف فيها الحياة النباتية بسبب البرد الشتوي ، حتى ولا في البنجاب ، هذا إذا استثنينا سفوح هيمالايا فوق ارتفاع يزيد عن ١٥٠٠ م . وإذا كانت هناك **مزروعات صيفية ومزروعات شتوية ، فذلك حسب حاجتها للماء** . وهكذا **تكون الزراعة الصيفية « خريف »** عامة : فتبذر الأرض عند هطول أوائل الأمطار الموسمية كي تجنى المحاصيل ابتداءً من أيلول حتى كانون الأول . فالذرة البيضاء والقطن والجوت وفستق العبيد « فول سوداني » هي مزروعات « خريف » . أما قصب السكر فيمكث في الأرض ما بين ١٢ إلى ١٨ شهراً وتقطع سوقه على دفعتين . ويبذر القمح في أواخر الموسميات الصيفية كي يحصد في شهر آذار أو نيسان . أما البقول كالحمّص والبزاليا والعدس والأعلاف ، فهي مزروعات شتوية أو « **ربيع** » بعلية وبالتالي **غير مضمونة** . بيد أن المحصول السنوي المزدوج فوق الحقل ذاته يكون محدوداً إذ لا يتجاوز خمس المساحة المزروعة . ويقتضي الجفاف أو الفيضان ، وقلة الأسمدة في المناطق الأخرى ، وجود **البور** الفصلي أو السنوي .

وتكون **ممارسة الري مرغوبة في أي مكان** ، حتى ولو كانت كمية الأمطار الوسطية لا تستدعي ذلك ، وذلك من أجل زيادة المحاصيل وتنظيم إنتاجها . ولكن **كثيراً** ما يعتمد هذا الري على تقنيات بالية وبدائية (شكل ٧) . ففي جنوب شرق الدكن ، تقوم **البرك الخازنة** بالاحتفاظ بمياه فصل الأمطار ، ولكنها سرعان ما تجف أو تردم بالوحول . أما في المناطق الأخرى فيعتمد على الآبار **ذات الشادف** التي ترفع المياه الباطنية . **وفي آخر القرن**

التاسع عشر ، أخذ البريطانيون **بتنفيذ برنامج مشاريع هيدروليكية تجعل الري ممكناً في كل فصول السنة** ، فأقاموا السدود التخزينية التي تحجز مياه الأنهار ومدّدوا الأقنية بين الأنهار التي توزعها بالراحة « على السارح » ضمن منظومة متشعّبة من السواقي . ومن الصحيح القول أن « حرب المياه » بين



الري في العالم الهندي

الشكل ٧

الباكستان والهند استدعت فيا بعد **حفر أقنية عرضانية** تجتاز الفواصل النهرية **لتغذية المجالات** المروية ، التي توسعت من جهة أخرى بفضل السد الجديد على نهر ستلج ، وهو سدّ **بهاكرا** ، وبفضل قناة راجستان التي تمتد باتجاه صحراء ثار وطولها ٨٠٠ كم . وعلى كل فقد سمح تنفيذ **مشاريع كبرى متعددة الأهداف** ، أي أروائية أو كهرمائية ، والمشاريع الصغرى ، وحفر **الآبار**

الأنبوبية وإقامة **مضخات ديزل أو كهربائية** ، أقول : سمح بتنفيذها **في كل الأمكنة** بزيادة رقعة المساحات القابلة للري ، فقفزت من ٢١ مليون هكتار في عام ١٩٤٧ إلى ٣٤ مليون هكتار حالياً أو **أكثر من ٢٠٪ من المساحة الزراعية المفيدة** ولا يزال **متوسط المردود ضعيفاً** فيصل إلى ١٢ كنتال بالنسبة للحبوب ، وذلك بسبب نزوات المناخ والافتقار إلى التسميد ، ونظراً لفقر الفلاح فهو لا يعمد أبداً لشراء الأسمدة الكيماوية ، ونظراً لحاجته للوقود فهو يقوم بحرق روث قطيع بقري عديد للغاية فعلاً ، بل هو أكبر قطيع بقري في العالم .

ومع ذلك تتحسن التقنيات . **ففي** فترة عشرين عاماً ، ارتفع **استهلاك المخصّبات الكيماوية عشرين مرة** . ويتألف عشر البذار من نوعيات عالية المردود ، مثل قمح « المعجزة » والرز « الفيليبيني » . بيد أن « **الثورة الزراعية** » تظل محدودة مع هذا ، ضمن أكثر المناطق تطوراً أو مقتصرة على أقل الفلاحين فقراً .

☆ ☆ ☆

الري : يعتمد الري الذي يسمح بتصحيح نظام مطري شديد التفاوت ، في المكان وفي الزمان ، يعتمد على تقنيات مختلفة :

ـ آبار لري حقول قريبة ، لا سيا في الفصل الجاف .

ـ سدود سطحية (تانك) تقوم خلف عصيبة تحجز وادياً صغيراً ، وتمتلئ بمياه الأمطار ، وتستخدم لتنظيم الموارد المائية في فصل الأمطار ، ولكنها تكون جافة على العموم في بقية العام .

ـ قنوات الفيضان التي تستمد مياهها من الأنهار خلال الزوْد (الفيضان) دون أن تكون لها أية فائدة في أوقات الشح (الصيهود ، التحاريق) .

ـ قنوات دائمة تتغذّى من سدود خازنة من أجل الري الدائم بالراحة في نطاق مروي منظم (السواقي ، محطات الضخ) . وهنا تستطيع المزارع أن تعطي محصولين في العام مع مردود مضمون طيب .

هذا وقد تتجاور هذه التقنيات المتنوعة جنباً إلى جنب . وتفتقر معظم أرجاء الهند لوسائل الري ، وإذا ما وجدت فكثيراً ما يكون أسلوب استخدامها رديئاً . وقد أنجزت الهند بعد استقلالها ، مشاريع أروائية كبرى كتنظيم وادي نهر دامودار المهدد بالفيضانات ، وذلك حسب أسلوب نظام نهر التينيسّي في الولايات المتحدة . وهناك مشاريع أخرى قيد التنفيذ . أمّا سد فاراخا ، على نهر الغانج ، فالمنتظر منه إنعاش دلتا البنغال الغربي « الميت » ، وربما كان ذلك على حساب بنغلادش ، التي ترفض استنزاف مياه هذا النهر بصورة مفرطة .



تقنيات ري عتيقة : يضطر معظم الفلاحين الهنود للاعتماد في ري حقولهم على وسائل تقليدية ، لا تكون نجاعتها وفائدتها وجدواها متناسبة مع الجهد المضني ، فلا زالت تستعمل هناك « النصبة » أي « الدلو » المصنوع من جلد ثور والذي يجره زوج من الأبقار الهزيلة من فوق بكرة ، كي ينصب الماء في قناة الري غير أن مضخة ري حديثة تكلف ٦٠٠٠ روبية ، أي ما يعادل الدخل المتوسط لمزرعة متوسطة في الاتحاد الهندي لمدة ٤ سنوات . وقد بطل هذا الأسلوب في وادي الفرات والخابور في سورية وفي المملكة العربية السعودية منذ أكثر من ٣٠ سنة .

☆ ☆ ☆

وهناك حقول مروية على شكل **مصاطب** في كشمير : إذ يحوي حوض سريناغار مشهد حقول رز على شكل مصاطب من نمط الشرق الأقصى ، وهي ظاهرة نادرة جداً في الاتحاد الهندي . وهنا يوزّع ماء السيول ، الذي يتم احتباسه بواسطة سكور صغيرة ، على الحقول المتدرجة ، ذات الحواف العشوائية كأنها خطوط كنتورية . غير أن صيانة الجدران الصغيرة والسواقي يتطلب عناية شديدة الدقة .



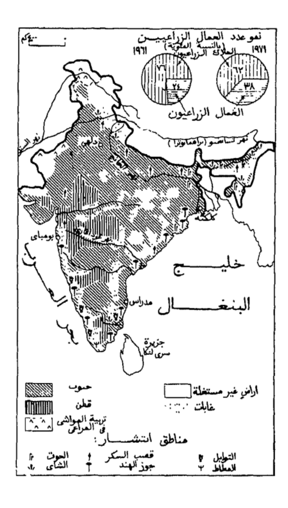
الزراعة الغذائية والتجارية « النقدية »

تستأثر **المحاصيل الغذائية بأربعة أخماس المساحات المزروعة** ، وتتألف من بقوليات ، ودرنيات ، كالمانيوق في كيرالا ، والبطاط في البنجاب ، ولا سيا الحبوب وهي الغذاء الوحيد تقريباً لدى الفقراء ، إذ يستهلك القمح على شكل أرغفة وأقراص ، مثلما تستهلك الذرة البيضاء على شكل حساء أكثر من الرز الذي بلغ إنتاجه ٥٤ مليون طن في عام ١٩٨١ الذي يبدو غالياً للغاية (شكل ٨) . **ولقد تضاعف إنتاج الحبوب خلال ثلاثين عاماً ، ولكن المحصول الذي يبلغ ١٣٢ مليون طن في ١٩٨١ لا يوفر أكثر من ٢٠٠ كغم لكل مواطن هندي** . ونظراً لعدم توفر وسائل تخزين ، فإن التلف يصيب ما بين ١٠ إلى ٢٠٪ من المحصول بسبب الحشرات والقوارض . وبعد السنوات العجاف التي قد تستدعي شراء كميات كثيفة من القمح ، بلغت ٦ ملايين طن في عام ١٩٧٨ ، فإن المحاصيل تبدو أكثر وفرة وأكثر انتظاماً حالياً . **ولكن الجراية الغذائية الوسطى** ، لا تبلغ ٢٠٠ حريرة (سعرة) في اليوم للفرد ، مقابل ٣٦٠٠ في الولايات المتحدة .

ولا يزال **استهلاك السكر والمواد الدسمة** هزيلاً ، مما يسمح بتصدير بعض الفائض . وتتصدر الهند **الدول المنتجة لقصب السكر** الذي يستخرج منه عصير حلو « غور » . وتزرع الهند أكثر **المحاصيل الزيتية** تنوعاً مثل السمسم والكولزا . أما السمن النباتي « مارغرين » **Vanaspati** فيصنع أساساً من النارجيل « جوز الهند » ، ولا سيا من أشجار نارجيل ولاية كيرالا ، أو من **فستق العبيد** « الفول السوداني » الذي يبلغ إنتاجه **ثلث المحصول العالمي**

والذي يصدر قسم منه من ميناء مدراس ، وبلغ إنتاج الهند من الزيوت النباتية ١١ مليون طن في ١٩٨١ .

أما **المواد النسيجية** فتكون ، على خلاف ما سبق ، مخصصة **للصناعة الوطنية** . فقد توسعت **زراعة الجوت** لتأمين حاجة مصانع كلكتا **في البنغال** وفي ولاية أوريسّا ، جنوب غرب كلكتا . ولكن الهند تضطر لاستيراد بقية حاجتها من « الليف الذهبي » من بنغلادش ، ويزرع **القطن** فوق مساحة تزيد على ٨ ملايين هكتار **في ظهير منطقة بومباي** ، ولكن زراعته تتراجع القهقرى أمام الحبوب ، وتكون الأنواع المزروعة من الأصناف الرخيصة الرديئة ،



الشكل ٨
زراعة الهند

كما يكون المردود متفاوتاً في الزمان والمكان ، لأن ١٠٪ من الحقول مروية وتشتري الهند الأقطان الممتازة من مصر .

وإذا كان ميزان المبادلات التجارية فائضاً نوعاً ما ، فذلك يعود **للشاي** الذي تنتجه مزارع **آسّام وكيرالا** والذي يصدّر نصفه للخارج ، وهو محصول تضاعف إنتاجه بعد أن حصلت البلاد على استقلالها ، إذ تنتج الهند ٣١٪ من إنتاج الشاي العالمي وتقدم ٤٠٪ من الشاي التجاري في العالم . وتعادل أصناف الشاي الهندية الأنواع السيلانية ، ولكنها دونها شهرة . اما المحاصيل الزراعية الأخرى مثل البهار والقهوة ومطاط كيرالا ، فتباع للخارج أيضاً ولكن دورها أقل أهمية .

ويتراوح إنتاج الهند من الشاي بين ٣٥٠٠٠٠ طن كما في ١٩٦٠ و ٣٧٥٠٠٠ طن كما في ١٩٦٤ (وقرابة ٦٠٠٠٠٠ طن حالياً . وتعتبر صناعة الشاي هامة جداً للهند لأنها توفر ربع دخلها من العملة الصعبة ، كما أنها أكثر الصناعات استخداماً للأيدي العاملة أو حوالي ١,٥ مليون شخص . وتقدم مقاطعة آسّام نصف الإنتاج ولكن أجود الأنواع هي التي تنمو فوق سفوح هيمالايا قرب مدينة دارجيلينغ . وعلى كل تقدم المقاطعات الهندية الشمالية لوحدها ٧٥ ٪ من الإنتاج . وتستحوذ مدينة كلكتا على بورص الشاي العالمية . وقد احتفلت هذه المدينة سنة ١٩٦١ بمرور ١٠٠ عام على تأسيسها ، وخطب رئيس الوزراء حينذاك وهو جواهر لال نهرو قائلاً : « لم يكن الشاي فقط شراباً كالمشروبات الأخرى ، بل لعب دوراً حيوياً إذ ساهم في تكوين تاريخ وحضارة عدد من أقطار جنوب شرق آسيا ، كما عمل القطن في أجزاء أخرى من العالم » . وفي الهند حوالي ٧٠٠٠ مزرعة للشاي مساحتها تقارب ٢٥٠٠٠٠ هكتار ، ويقع ثلثا هذه المساحة في مقاطعتي آسّام والبنغال الغربي والباقي في الجنوب .

وعلى الرغم من أن الهند هي أول دولة تصدّر الجلود والعظام ، فليس **لتربية الماشية من أهمية اقتصادية** . ومع ذلك تحوي البلاد قرابة **٢٠٠ مليون رأس من الأبقار** ، والثيران ذات السنام « زيبو » والجواميس ، وهي حيوانات ملحقة لا غنى عنها لأعمال الحراثة والنقل . غير أن هذه الحيوانات الرديئة التغذية ، والتي تقتات بالقش اليابس فوق الأراضي البور ، أو في الأراضي الحصيد « الفراز » ،

يجعلها حيوانات هزيلة لاتعطي سوى القليل من الحليب ، إذ لاتعطي البقرة الهندية أكثر من ٢٠٠ ليتر بالعام مقابل ٤٥٠٠ ليتر في هولندا .

غير أن لدى الهند مربي ماشية مهرة ، كما تم نقل **الثور الهندي المتوائم مع البيئة** المدارية إلى ولاية التكساس والبرازيل . وحيثما تكون المزروعات العلفية ممكنة ، كما في البنجاب ، فإن القطيع يتحول إلى ثروة حقيقية ، وعندما تكون الحقول أفضل تسميداً وفيما عدا ذلك لا توجد سوى ثيران مقدسة وبقرات تائهات .

وفي الهند حوالي ٤٥ مليون رأس من الأغنام يقدر إنتاجها السنوي من الصوف بمقدار ٣٤٠٠٠ طن سنوياً يستهلك أكثر من نصفه في معامل غزل ونسج الصوف المحلية والباقي يصدر للخارج ، ولديها مثل هذا العدد من الماعز التي ساهمت في تجريد البلاد من غطائها الغابي ، وفي منحها منظرها الكالح الأجرد وفي انجراف التربة .

☆ ☆ ☆

من الممكن أن نميز في المجال الهندي **ثلاثة نطاقات زراعية كبرى يتميز كل منها بنوع خاص** من الحبوب . فهناك نطاق القمح ، وهو محصول شتوي ، وينطبق على البنجاب وشمال غرب الدكن ، وحيث يتناوب مع القطن ، وهو المحصول الصيفي ، وفوق سهول الغانج العليا حيث يشترك مع قصب السكر . أما الرز فيزرع على الخصوص في السهول الساحلية بين بحر عمان وخليج البنغال ويمتد فوق كل الهند الرطبة ، أي في شرق شبه الجزيرة وآسّام ، وعلى وادي الغانج الأوسط وحتى كشمير . أما في البنغال فيتنافس مع الجوت ، وفي المناطق الأخرى مع قصب السكر . أما الذرة البيضاء الصيفية والدخن فينتشران في النصف الغربي من الدكن ، أما دخن « باجرا » ذو المردود الهزيل جداً فيزرع في أكثر الأراضي قحولة أو أقلها خصوبة ، ونجد في المناطق الأخرى الذرة البيضاء « جووار » والتي تتداخل مع محاصيل تجارية ، كالقطن فوق الأراضي السوداء ، ومع فستق العبيد فوق الرمال الحمراء . أما الشعير والذرة الصفراء ، فليس لهما أكثر من دور محلي كما في البنجاب وفي أودية هيمالايا .

☆ ☆ ☆

منذ ربع قرن تقريباً **يستجيب نمو الموارد الوطنية من الحبوب** ، وسطياً ، مع الحاجات المتزايدة بفعل النمو الديموغرافي . بيد أن الهند ، وعلى الخصوص المناطق الشمالية الشرقية كالبنغال الغربي ، وبيهار ، وأوريسّا ، شهدت أعواماً عجافاً على أثر انحباس الأمطار . ففي ١٩٦٦ مات نصف مليون هندي من الجوع خلال الصيف ، واضطر ١٠٠ مليون منهم أن يقيموا أودهم بجراية يومية لا تزيد عن ١٥٠ غراماً من الرز . وبالإضافة إلى الكوارث الطبيعية ، فإن نواقص التخزين ، لأن ملايين أطنان الحبوب تتلفها القوارض والحشرات والطيور ، وقلة وسائل النقل ، وضعف القدرة الشرائية لدى جماهير الهنود ، تؤلف جميعاً أسباب المجاعات المحتملة الوقوع دائماً . ومع هذا تتزايد مقادير الحبوب المتوفرة بسبب ارتفاع المردود وتوسع المساحات . وقد بلغ إنتاج شعير الرز ٧٨ مليون طن في ١٩٧٨ ، وهو في تقدم مستمر ، ولكن القمح هو الذي يقدم أفضل المحاصيل ، ويبلغ إنتاجه ٣١ مليون طن . وفضلاً عن الأصناف المحلية من القمح القاسي المتوائمة مع الجفاف في الزراعة الشتوية ذات المردود الضعيف ، فقد حلت في البنجاب أصناف طرية مختارة ، تعطي بعد الري ٦٠ كنتالاً بالهكتار ، وهي أرقام قياسية عالية .

☆ ☆ ☆

تؤمن الزراعة **الاستهلاك الذاتي** في القسم الأعظم من الهند ، أي من أجل غذاء وكساء العائلات الفلاحية ، والتي يكون الفائض الذي يدخل الدارة التجارية منها هزيلاً . ولكن المستغلّين في المناطق الأخرى ، ولا سيما أغناهم بالأرض ، يمارسون **زراعات البيع** cach-crops من أجل **الصناعة والتصدير** . وقد شجع البريطانيون ، أو فرضوا أحياناً ، هذه الزراعات التي تأتي في رأسها زراعة النباتات النسيجية ، كالقطن ، والجوت ، وقصب السكر ، وفستق العبيد ، ولكن لم تكن زراعة وحيدة ، إلا بالنسبة لمزارع آسّام (شاي) وكيرالا (هيڤيا وشاي) في مناطق تلال أو جبال .

☆ ☆ ☆

إحصائيات

المحاصيل التجارية (النقدية) في الاتحاد الهندي

آلاف الأطنان

	١٩٥٧	١٩٦٧	١٩٧٧	١٩٨١
سكر القصب	٢٠٤٠	٣٦٣٣	٥٢٣٩	٥٥٨٧
فستق العبيد	٤٣٣٩	٥٧٣١	٦٠٨٤	٦٢٠٠
قطن (ألياف)	٩١٥	١١٥٦	١١٥٠	١٣٦٠
جوت (ألياف)	٧٤٢	١١٤٦	١٢٦٢	١٤٥٠
قهوة	٣٦	٧٨	١٠٣	١٣١
شاي	٣٠٣	٣٨٣	٥٦٥	٥٦٥
مطاط	٢٤	٦٣	١٥٨	١٥٠

أسس الصناعة في الاتحاد الهندي

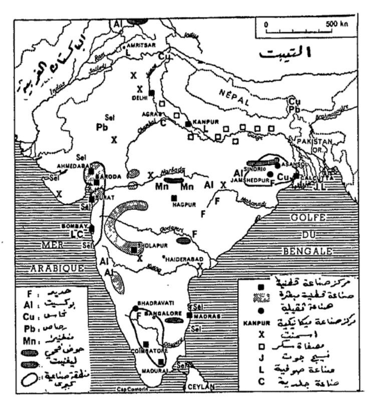
على الرغم من شهرة الهند قديماً بمنسوجاتها الحرفية التقليدية ، مثل أقمشة مدراس وكاليكوت والكشميري (الشال) فقد اضطرت البلاد ، بموجب « العقد الاستعماري » إلى تقديم القطن الخام إلى مصانع لانكشاير في بريطانيا . غير أن **الهند الإنكليزية ، شهدت مع ذلك بداية تصنيع** . فقبل عام ١٨٧٠ كانت مناجم الفحم في دامودار ، ومصانع الجوت في كلكتا ، والتي أنشأها الأيقوسيون ، والصناعة القطنية في بومباي والتي كانت في أيدي أثرياء الجائيين أو المجوس . وقد تمكّن **المجوسي (تاتا) في ١٩١١ أن ينشئ صناعة الحديد الهندية في** مدينة جمشدبور الصناعية قرب كلكتا . ولكن ظلت الصناعة الحديثة بعد الاستقلال محدودة تقريباً بصناعة الغزل والنسيج .

وحصلت بعد ذلك التاريخ **نجاحات حقيقية** . فقد تضاعف إنتاج الفحم

الحجري ثلاث مرات منذ ١٩٥٠ ، مثلما زاد إنتاج الفولاذ سبع مرات ، هذا رغم ضعف الإنتاجية والتنظيم الهزيل . ويتألف رؤساء المؤسسات الصناعية من رجال المال ، الذين يميلون لاكتناز المال أو توظيفه في المضاربات العقارية أكثر من استثماره في الصناعة . ويجد وكلاؤهم **المهندسين الأكفاء** ، ولكنهم يستأجرون من المتعهدين « المقاولين » **مستخدمين ناقصي التدريب أو كثيري التغيب** ، أو يجلبون شغّيلة من أبناء قبائل شبه جزيرة الدكن الذين يقبلون **بأجور البؤساء** . وإلى جانب الشركات المؤممة ، تفرض **التروستات العائلية** وجودها مثل شركات **بيرلا إخوان** التي تملك ٢٩١ مشروعاً صناعياً في قطاعات غاية في التنوع ، **ومؤسسات تاتا وأولاده** ، والتي يعمل في مصانعها ١٢٠٠٠٠ مستخدم في مدينة جمشدبور ، والتي تهتم بالصناعة الحديدية والميكانيكية . وكذلك في المشاريع المتعددة ، الشديدة التبعثر جغرافياً ، كالصناعات الكيماوية والمواد الدسمة ، والمنسوجات وصناعة السينما أو الصناعة الفندقية ، أي تقدم صورة مصغرة عن شركة ميتسوبيشي « المعينات الثلاثة » اليابانية التي تنتج الشاحنات والسيارات والمراوح والبرّادات والمشروبات المعلبة وعصير الفواكه والإسمنت ومصانع تعليب الأسماك وسفن الصيد في أعالي البحار الخ (شكل ٩ و ١٠) . . .

وتقوم وسائط النقل على شبكة خطوط حديدية لا بأس بكثافتها ، يعود ظهورها لأوّل مرة لشهر نيسان ١٨٥٣ تمتد على ٦١٠٠٠ كيلومتر ، وتحقق ٨٠٪ من تقليات البضائع أو ٢٢٠ مليون / طن و٧٪ من نقل المسافرين أو ٣٦١٢ مليون مسافر في عام ١٩٨١ ويعمل فيها ٦٠٠٠٠٠ موظف وفني وعامل . وتسير على الطرق عربات تجرها الثيران أكثر من الشاحنات ، ولا تكون الملاحة الداخلية على نهري الغانج وبراهما بوترا نشيطة . وتستغل الخطوط الجوية الهندية خطوطاً دولية أكثر بكثير من نشاطها الداخلي . ولدى الهند

أسطول تجاري جديد حمولته ٥ ملايين طنه[1] يرفع الراية الهندية ، غير أن حركة الموانئ الإجمالية لا تزيد عن ٨٠ مليون طن .



الشكل ٩

الثروات المعدنية والصناعات الرئيسية في الاتحاد الهندي

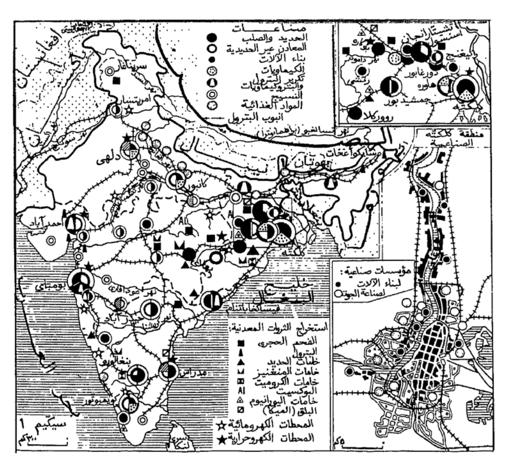
أما الهند التي تنتج ٩٠ مليون طن معادل بترول « طمب » وتستهلك ١٠٥ فتعتبر **فقيرة بمصادر الطاقة . فالفحم فيها من نوعية رديئة** ويوجد في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، ولكن إنتاجه الذي ارتفع إلى **١٠٥ ملايين طن** بين فحم وليغنيت في ١٩٧٨ و ١١٤ مليون طن في ١٩٨١ لا يساير ارتفاع الطلب . هذا وتكون **احتياطيات النفط والغاز محدودة** . فهناك حقول

---

(١) طنة مقياس دولي لسعة السفن يعادل ٢,٨٣ متر مكعب .

نفط آسّام التي تتصل بواسطة أنبوب بمصفاة باروني Barauni على نهر الغانج ، **ومكامن كجرات والآبار البحرية تجاه ساحل بومباي** ، والتي تبدو واعدة أكثر من سواها . وقد أنتجت الهند في عام ١٩٨١ مقدار ١٥ مليون طن من النفط مما يغطي **٤٠٪ من حاجاتها** ، والتي تحاول الهند تقليصها إرادياً ، وتمثل مشترياتها من البترول ولا سيما من إيران ٣٠٪ من مجمل استيرادها مقابل ١٠٪ فقط في عام ١٩٧٣ .

وتنتج المراكز الحرارية ٦٠٪ من الكهرباء أو ١٠١ مليار ك و س أي أقل من



الشكل ١٠

صناعة الهند

ثلث إنتـاج كنـدا التي يقل سكانهـا عن سكان الهنـد ٣٠ مرة . وهنـاك الكثير من القرى التي تنتظر الكهربة ، ولا يزيـد الاستهلاك الفردي في الهنـد من الكهربـاء في العـام عن ١٥٠ ك و س مقـابـل ١٤٣٦٣ ك و س لكل فرد كنـدي . ولمـا كان معدل استهلاك الفرد الهندي من الطاقة من معادل الفحم ، يسـاوي ٢٢٥ كغم فهو ينم عن تخلفها الصـارخ ، لأن استهلاك الفرد اليـابـاني يبلغ ٤٢٥٠ في العـام أو ١٩ ضعفاً .

☆ ☆ ☆

لقـد أورث البريطـانيون الاتحـاد الهنـدي **شبكـة خطـوط حـديـديـة** ، تعتبر شـاذة في قطر مستعمر . ولا زالت هذه الشبكة بعد تأميها تحوم حول مثلث كلكتا بومبـاي دلهي . وقـد تمت كهربـة أكثر الخطوط ازدحاماً (صورة رقم ٦) أو أقلها ربحـاً . أمـا **الموانئ البحـريـة** فقليلـة العـدد ورديئـة التجهيز ، ولهذا لا تكون قادرة على تحقيق المبادلات الدولية ضمن شروط طيبة ، ولا سيا بالنسبـة للمواد التي لا يمكن نقلها إلاّ بحراً . وأكبر ميناء وهو بومبـاي لا يزيـد نشـاط حركتـه عن ١٨ مليون طن من البضائع منها ١٢ مليون للاستيراد بين نفط وقمح .

☆ ☆ ☆

وتملك الهند مكامن واسعة من الفحم الدهني والليغنيت على شكل عروق سميكة غير متأثرة كثيراً بـالحركات التكتونيـة ، وعلى عمق قريب . ولكن عيبهـا هو وقـوعهـا غـالبـاً في الشمال الشرقي من شبـه الجزيرة وتقديمها وقوداً رديء النوعية ، كثير الرمـاد ، وضعيف القيمـة الحراريـة ، ويصعب تحويلـه إلى فحم كوك ، باستثناء فحم دامودار ، ولكن يصلح استعماله في المراكز الحرارية . ويتألف عمـال المنـاجم من فلاحين يعودون صيفاً إلى حقولهم ، والاستخراج قليل المكننة لأن الإنسان أرخص كلفة من الآلة .

☆ ☆ ☆

هذا ولم يتكشّف **التنقيب البترولي** عن أكثر من جيوب صغيرة . ولا تكون جيولوجيـة البلاد مشجعة بسبب شدة اتساع ترس shield الـدكن القـديم . ولكن البحث في عرض البحر قـد يخبئ بعض المفاجآت . ويتناسب التكرير الذي تبلغ طاقته ٢٦ مليون طن ، والذي يعـالج خـامـات نفـط الشرق الأوسط ، مع الحاجات الوطنية . وتكون معـامل التكرير السـاحليـة في أيـدي مجموعـات أجنبيـة مثل شركـة شل وشركـة كالتكس . ويعتبر اقتصـاد الهنـد من أكثر أمثـالـه تـأثراً بـارتفـاع سعر « الفـاتورة النفطية» بعد عام ١٩٧٣ .

وتبدو الطاقة الهيدروليكية الكامنة ضخمة ، ولكنها تشكو من عدم انتظام الأمطار الفصلي الذي يجبر على بناء سدود تخزينية عالية الكلفة . وتعمل المراكز الواقعة في جبال الغات ، عند أقدام هذه السلسلة ، اعتماداً على مياه مخزونة إلى الخلف منها . وتقع أكبر المراكز الكهرمائية في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، مثل هيراكود ، جنوب غرب كلكتا ، وعند أفواه الخوانق الهيمالائية ، كما في بهاكرا نانغال ، وتستخدم كذلك للري . أما المراكز التي تعمل على فحم الليغنيت ، مثل نيفلي ، قرب مدراس ، وعلى الفحم في دامودار ، أو على الفويل كما في بومباي ، فتعمل بصورة أكثر انتظاماً . وتعتبر الهند أول دولة بين دول العالم الثالث تملك مراكز كهربائية نووية ، شمالي بومباي ، ولكن لا تستمد من هذا من الطاقة سوى ٣٪ من كهربائها .



صورة (١)

قطار الحجاج إلى بنارس ، قرب إيندور (وادي ناربادا) ويحب الهندي السفر بالقطار وتتعرض القطارات إلى ازدحام رهيب وفوضى تميز العالم المتخلف

الاتحاد الهندي : دولة صناعية عظمى مستقبلية

إن الهند التي تحوي على **هضبة الدكن** ، **إنما تملك ترساً قديماً جيد التمعدن**[1] فهي تضم مليارات من أطنان **خامات الحديد العالية المحتوى** ، والتي أمكن تقديرها في الشمال الشرقي بين دامودار وناغبور ، وكذلك في غوا ، على الساحل الغربي . ويصدر نصف الفلزات المستخرجة بصورة رئيسية نحو اليابان ، أما الباقي فتستهلكه الصناعة الحديدية الهندية . هذا كما يستخرج من المناطق المذكورة ذاتها **المنغنيز والبوكسيت** الذي يشكل مخزونات ضخمة . وتستغل الهند أيضاً الإيليمنيت ، وهو خام التيتان ، من منطقة كيرالا ، والرصاص والزنك من راجستان .

غير أن مصاعب النقل والافتقار إلى رؤوس الأموال **تكبح من تطور الصناعات الاستخراجية** مثلما تعيق تطوير الصناعة الحديدية . وهناك مؤسسة قومية تعمل على تسيير مصانع **الفولاذ المنضمّة** ، التي قامت منذ حوالي ربع قرن فوق مناجم الفحم الحجري في دامودار أو حول « الحزام الحديدي » ، الذي يمر من دورغابور بمعونة بريطانية ، وفي بوركلا بمساعدة ألمانية ، وفي بهيلائي وثم في بوكارو بدعم سوڤياتي ، وهناك مصنع ساحلي قيد الإنشاء في ميناء ڤيزاغاباتام يقوم بفضل المال والخبرة اليابانيين . وقد سكبت صناعة الحديد الهندية ١٠,٥ ملايين طن من الفولاذ في ١٩٨١ ولكن الاستهلاك الفردي من هذا المعدن لا يزيد عن ١٥ كغم مقابل طن واحد للفرد في بلجيكا .

---

(١) كلمة ترس أو مجن تقابل كلمة shield بالإنكليزية و bouclier بالفرنسية ، وهناك خطأ دارج وشنيع في الترجمة ، لأن ترجمتها بكلمة درع يدل على جهل عميق بالمدلول الأجنبي والعربي .

وتتفوق الصناعة النسيجية دوماً من حيث عدد العاملين فيها ، وتمثل عشر قيمة الصادارات ، **وتحتكر كلكتا صناعة نسج الجوت** التي تنتج ٥٠٪ من الصناعة العالمية لمنسوجات الجوت والأكياس والتي تتعرض للمنافسة بفعل ظهور طرائق أخرى للتغليف والتعبئة مثل أكياس « غرارات » خيوط النايلون ؛ المستعملة في تعبئة الدقيق وسواه من السلع . هذا **وتتبوأ الهند المرتبة الرابعة العالمية في صناعة الأقطان** ، ولا تزال المراكز الكبرى واقعة في **بومباي وأحمد آباد** . غير أن الصناعة القطنية ولا سيا النسيجية ، التي هي حرفية ، تظل غالباً مبعثرة في مناطق زراعة القطن على الخصوص . وأمام قلة الأقطان المحلية ، فقد اضطرت هذه الصناعة إلى أن تدمج في أقشتها قطناً مستورداً بمقادير متزايدة ، أو خيوطاً اصطناعية . كما أن عليها أن تجابه في الأسواق الخارجية منافسة هونغ كونغ أو منافسة الباكستان .

أما **الصناعات الخفيفة الاستهلاكية** الأخرى ، فتكون على العكس في **عنفوان تطورها** : فتصنع الهند **الدراجات ، وماكنات الخياطة ، وأجهزة الراديو** وتأتي في رأس دول الجنوب في هذا المضار ، ومبيدات الحشرات ، والمضادات للحيويات أو للعطور . أما **بالنسبة لسلع التجهيز** ؛ فإن شراء **براءات الاختراع** ، أو الاشتراك مع شركات أخرى منتجة أجنبية ، يكون ضرورياً . ولكن الهند تجاوزت مرحلة التجميع بإنشائها صناعة سيارات يقارب إنتاجها ١٠٠٠٠٠ سيارة ، وتبني آلات الخطوط الحديدية ، مثلما تبيع مكائن صانعة ذات تكنولوجية بسيطة .

ولا تزال **الصناعة الهندية إلى جانب الصناعة الحرفية ، عاجزة عن تأمين العمل لأكثر من ١٢٪ من الأيدي العاملة** . وهي تشكو من مظاهر قصور كقدم آلاتها ، ومن **توزع جغرافي غير متوازن** . وتقع **الصناعات الثقيلة في معظمها في الشمال الشرقي** ، حيث يوجد حوض

دامودار الذي يلقب « **الرور الهندي** » مثلما نجد مشاهد الاكتشافات المنجمية ومعسكرات العمال في قلب الغابة الكثيفة في نطاق التيرائي ، أي في السفوح الدنيا لجبال هيمالايا . وإذا استثنينا البنجاب ، حيث تقوم بعض الورشات الصناعية الريفية : كصناعة الآلات والأصواف أو راحات كرة المضرب « تينّيس » ، فإن المصانع تقع في بعض المدن ذات **التقاليد الصناعية مثل كانبور ، أحمدآباد ، بانغالور** ، غربي مدراس ، والتي هي مركز الصناعات الدقيقة ، ولا سيا حول **بومباي وكلكتا** .

☆ ☆ ☆

الصناعة النسيجية : تحتل الصناعات النسيجية الهندية ، التي هي ورشة تقاليد قديمة جداً ، والتي تدعمها دوماً صناعة حرفية نشيطة ، تحتل من حيث حجم إنتاجها المرتبة الرابعة في العالم بعد الصين والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة ، وتتقدم على اليابان ، مثلما تحتل المرتبة الأولى في ميدان الصادرات بلا منازع ، وخاصة الأقمشة القطنية وأقمشة الجوت . ويكون توزع هذه الصناعات جغرافياً خاضعاً بصورة متفاوتة لاعتبارات قرب المواد الأولية ، مثل الجوت في البنغال ، والقطن في الدكن أو في البنجاب ، والأصواف في هيمالايا كما في كشمير .

غير أن استمرار الصناعة الحرفية يطرح عدداً لا بأس به من المشكلات . وفي مقدمتها مشكلة بقائها على مدى الزمن . ويمكن تفسير ذلك بالحماية الجغرافية التي تلعب دورها بالنسبة لبعض السلع الثقيلة الوزن ، كالخزفيات ، وبقاء الأذواق التقليدية ، التي تأخذ الصناعة الحرفية على عاتقها مهمة إرضائها كالمجوهرات والحلي . ويعمل تمثل التقنيات الجديدة ، في بعض الحالات ، على دعم الصناعة الحرفية : كاستخدام صناعة الألبسة مكائن الخياطة . غير أن العامل الجوهري في بقائها يبدو كامناً في ظاهرة نقص الاستخدام التي تسمح ببقاء الأجور المنخفضة ، واستغلال الأولاد من جانب البالغين ، وعدم استمرارية العمل ، وهكذا ندرك كيف تستطيع الصناعة الحرفية البقاء على قيد الحياة ، وأن تظهر ناجعة جداً أحياناً باعتبارها مؤسسة قائمة . في حين أن العمال الحرفيين يشكون أشد أنواع الإملاق .

عن ج دوپوي . « آسيا الجنوبية »

نشر P.U.F . ١٩٦٩

إحصائيات

آلاف الأطنان

		غزول القطن	غزول الجوت
الهند	١٩٥٧	٧٦٠	٧٨
بنغلادش	١٩٦٧	٨٩٥	١١٤٠
باكستان	١٩٧٧	٨٤٧	١٠٥٥
		٣٧	٥٤٠
		٢٨٨	—

☆ ☆ ☆

تتحدد مواقع **الصناعة الثقيلة** بوجود المواد الأولية ، ومصادر الطاقة . وتقع كل مركّبات صناعة الحديد الكبرى في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة . ولهذا يكون نقل الفولاذ نحو بومباي والبنجاب أو الجنوب ، بواسطة قطارات مزدحمة بطيئاً وعالي التكلفة .

ولدى الهند صناعة ألمنيوم تنتج حوالي ٢٠٠٠٠٠ طن ، ومركبات صناعية كياوية تنتج الأسمدة الآزوتية فوق مناجم فحم دامودار أو فحم ليغنيت حوض نيفيلي Neiveli ، وبجوار المراكز الكهرمائية أو مصافي النفط . وإذا قارنا مستوى الصناعات الثقيلة مع الإنتاج الفرنسي وجدناه لا يزال متواضعاً لأن الهند تنتج ٤٥٪ من إنتاج فرنسا من الفولاذ ، وثلث إنتاج فرنسا من الأسمدة أو ٦ ملايين طن ، وثلث الإسمنت الفرنسي البالغ ٢٠ مليون طن .

إحصائيات

ملايين الأطنان

	فحم وليغنيت	خام الحديد (محتوى من الحديد)	الفولاذ
١٩٥٠	٣٢,٨	١,٩	١,٥
١٩٦٠	٥٢,٧	٦,٩	٣,٣
١٩٧٠	٧٧,٨	١٩,٦	٦,٢
١٩٧٦	—	٢٧,٢	—
١٩٧٨	١٠٥,١	٢٢,١	—

الاتحاد الهندي : في طريقه إلى التنمية

لقد كان على الاتحاد الهندي ، حسب قول مؤسسه جواهر لال نهرو ، **أن يبني اقتصاداً حديثاً ومجتمعاً اشتراكياً** « بصورة منسجمة مع عبقرية الشعب الهندي خاصة » . **وتشرف الدولة** على القطاعات الحساسة : **الطاقة ، المواصلات والنقل ، الصناعات الأساسية والتجهيز** ، ولكنها تتفاوض على أهداف الخطة مع شركاء اجتماعيين ، أي مع أرباب العمل والنقابات . وترمي **المخططات الخمسية** ، وهي مؤشرات وليست ملزمات ، إلى زيادة الدخل القومي ، وتقليص الفوارق الاجتماعية ، وعلى الخصوص منح البلاد الاستقلال الاقتصادي .

وكان المخطط الأول ١٩٥١ ـ ١٩٥٥ ، يتمحور حول المشاريع الهيدروليكية ، وقد كان عبارة عن نصف نجاح ، أما الثاني ١٩٥٦ ـ ٦١ فقد عمل على تنمية الصناعة الثقيلة ولكن دون أن يحقق أهدافه . وقد ساهم تعاقب **المواسم الزراعية الرديئة ، وعبء النفقات العسكرية ، والتنافس بين الولايات ، والاندفاع الديموغرافي ، على كبح النمو** ، الذي كان في حد ذاته بطيئاً وغير منتظم . ومنذ ثلاثين عاماً ارتفع الدخل المتوسط للفرد الهندي بحوالي الثلث ، أو بمعدل دولار واحد في السنة ، ليبلغ ١٧٠ دولاراً . في حين تضاعف الدخل الفردي في أقطار أوربا الغربية أكثر من ثلاث مرات في نفس الفترة ليصل وسطياً إلى ٥٠٠٠ دولار ، وهذا على الرغم المساعدات والهبات الغذائية الوافدة من الغرب والشرق ، بحسبان الهند زعيمة دول العالم الثالث ومن المؤسسين لكتلة دول عدم الانحياز .

ولا يزال الناتج القومي الخام PNB ، الذي تقدم الزراعة ٤٦ ٪ منه دون

مثيله في اسبانيا ! أما بالنسبة للفرد الواحد ، فلا يزيد عن ١٧٠ دولار كما ذكرنا ، ومنذ ١٩٧٠ لايزيد الارتفاع السنوي لهذا المعدل وسطياً عن ٠,٥ ٪ وإذا كان الاتحاد الهندي لايغطس في مستنقع الفقر أكثر ماهو عليه ، مثل بنغلادش ، أو ، الصومال ، أو السودان وسواها من دول العالم الخامس ، فإن الاتحاد الهندي **يظل النموذج الأمثل لقطر فقير في طريقه إلى التنمية .**

ومع ذلك يعبّر تنوع المبادلات التجارية عن تقدم اقتصادي . فقبل ٢٠ سنة كانت نسبة صادراتها من المنتجات الزراعية ومن تربية الماشية تعادل ٣٠ ٪ والفلزات ٦ ٪ والمنسوجات الجاهزة ٣٥ ٪ . وكان الشاي والجوت والقطن لوحدها والتي كانت تصدر بحالة خام أو مصنّعة تمثل حينذاك ٥٥ ٪ من الصادرات . أما الآن فإن قيمة **المكائن المصدّرة يعادل صادرات المنسوجات** ، كما أن الفولاذ أصبح مساوياً لخامات الحديد من حيث القيمة في ميزان الصادرات . ولاتزال **الهند تشتري** دوماً **سلع التجهيز** بنسبة ٢٠ ٪ **والحبوب** ، وكذلك المواد الأولية ، ولاسيما **النفط** والذي أصبح يعادل ٣٠ ٪ من قيمة استيرادها رغم التخفيضات التي منحتها إياها الدول العربية المصدرة للنفط . ويعاني **ميزان المبادلات عجزاً خفيفاً** ، ولكنه يتعوض بمصروفات السواح الأجانب وتحويلات الشغيلة المهاجرين والمعونة الدولية .

وفي خلال المخططين الأوليين كان ٢٠ ٪ من الاستثمارات تأتي من العون الخارجي كما كان الاتحاد السوفيتي يمنح الهند الحيادية أكثر مما كان يعطي للصين الشيوعية . وبعدئذ تشكل « **نادي معونة الهند** » الذي سمح لها بتخفيف أزمتها الغذائية وبتجهيز نفسها . وفي كل عام تتلقى الهند ما يعادل ٢ ٪ من ناتجها القومي الخام على شكل هبات وقروض ، حتى أن فوائد الدين الخارجي تمتص ٢٠ ٪ من قيمة صادراتها ، . وقد كان هذا الدعم الخارجي مفيداً لاقتصادها ففي خلال المخطط السادس ١٩٧٨ ـ ١٩٨٣ ، ترمي الهند إلى أن توظف كل سنة ١٦ ٪

من ناتجها القومي الخام ، ولاسيا من أجل تحسين إنتاجيتها الزراعية ولتشجيع صناعاتها الريفية .

☆ ☆ ☆

منظر من أحد شوارع كلكتا : لقد اجتذبت بداية التصنيع العديد من الريفيين باتجاه المدن بحثاً عن عمل محتمل . بيد أن التجهيزات العمرانية تعجز عن الاستجابة لمثل هذا التدفق البشري . ففي كلكتا التي يقدر عدد سكانها بين ٧ أو ١٢ مليوناً ، فإن الأحياء المجهزة بالمياه الجارية ومجاري المياه الوسخة ، لاتحوي أكثر من مليون نسمة . وفي المدن الهندية حوالي ١٠ ملايين رجل بلا عمل منتظم ، في حين يرتفع عدد هؤلاء في الريف إلى ٥٠ مليون . وهكذا ندرك أن الهند لاتتخلص من فقرها المدقع إلا بصورة بطيئة جداً ، كما يبدو أن مسيرتها نحو الحياة الأفضل ستكون طويلة جداً ، وربما دون منفذ نجاة محتمل إذا لم تجد المشكلة الديموغرافية حلاً ناجعاً كما فعلت الصين في ١٩٨١ إذ لم تسمح للأسرة الواحدة بأكثر من مولود واحد .

تم طبيعة **المبادلات الخارجية** عن قطر يسير في اتجاه التصنيع السريع . فقد أصبح أكثر من نصف الصادرات عبارة عن منتجات مصنعة ، كسلع الاستهلاك ٣٧ ٪ ، وسلع التجهيز ١٧ ٪ مقابل ٢٣ ٪ للمواد الأولية و ٢٢ ٪ للمنتجات الغذائية . وليس بعيداً عن الهند أن تعادل مشترياتها وبين مبيعاتها من المواد التجهيزية ، كأن تبيع مصانع « مفتاح باليد » ، كمصانع السكر مثلاً من بلاد العالم الثالث . وتبدو الهند بالموازنة مع جارتيها المسلمتين ، الباكستان ، وبنغلادش ، ذات مستوى تصنيع عال . هذا كما نجحت الهند في تنويع علائها التجاريين . فقد أصبحت إنكلترا ، وهي الدولة المستعمرة السابقة ، تأتي بعد اليابان التي تشتري القسم الأعظم من الخامات المعدنية ، والولايات المتحدة وحتى الاتحاد السوفيتي الذي أصبح أول زبون للشاي الهندي .

الطفل الهندي : يمكن تصنيف الاتحاد الهندي ، بين أمم العالم الثالث ، على أنه يدخل في الأمم « الطافية émergente » نظراً لنجاح صناعاته ولمستواه التكنولوجي . ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار فقره الجماهيري أو شدة فوارقه الاجتماعية ، والأمية المستفحلة ، وسوء التغذية ، ووضع المرأة المتدني ، ووضع الأطفال ، فهو يظل دوماً أمة « كادحة » وأكثر الأمم الفقيرة سكاناً .

وفي الهند ١٦,٥ مليون طفل يعملون في شروط وأوضاع لا إنسانية . فهناك مجموعة مصانع عيدان الثقاب[1] تستخدم مابين ٢٠٠٠٠ و ٢٨٠٠٠ طفل ، لاتتجاوز أعمار بعضهم خمسة أعوام ، والذين يعملون من الساعة ٣ صباحاً حتى الساعة ١٩ ليلاً .

---

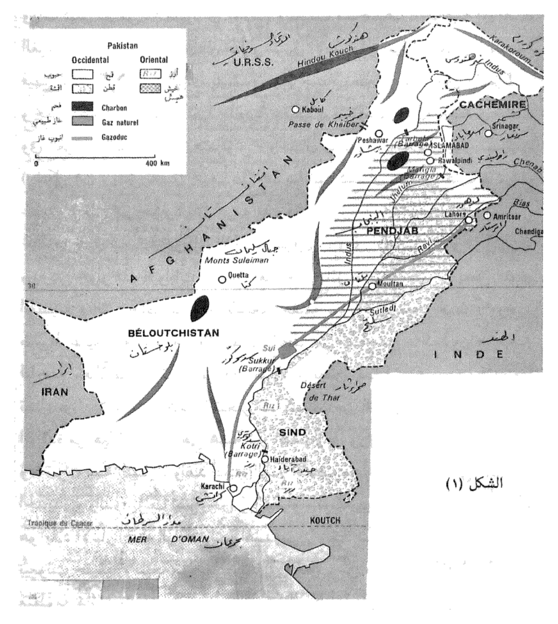
(١) أو الكبريت في بلاد الشام ، والشخاط في العراق ، والوقيد في المغرب العربي

الباكستان

إنها دولة قامت على أساس **ديني بحت** ، فقد تطلّع شاعر كبير هو (**محمد** إقبال) في عام ١٩٣٠ ، إلى إنشاء دولة إسلامية منفصلة عن الهند ، دولة تتحدى الجغرافيا والاعتبارات الاقتصادية . وقد نشأت باكستان فعلاً نتيجة رغبة عدد قليل من الرجال السياسيين ، فكان أبوها زعيم الرابطة الإسلامية (**محمد جنّه**) . وتكون باكستان التي هي دولة **إسلامية** ، أي دولة الأطهار ، لأن كلمة باك بالفارسية تعني الطاهر ، شديدة التعلق بالإسلام ، ويذكرنا علمها المؤلف من هلال ونجمة بيضاء ، فوق أرضية خضراء ، بالأصول الدينية وبيقظة الإسلام في آن واحد ، والتي تخصّ جزءاً من عالمنا الحالي ، هذا كما تحتفظ الباكستان بالتقاليد العسكرية الإنكليزية ، مثلما تبقى اللغة الإنكليزية هي اللغة الرسمية تقريباً .

وعاصمة هذه الدولة **إسلام آباد** ، وهي مدينة حديثة ، قامت في ١٩٦١ في شمال غرب البلاد يسكنها ١٠٠٠٠٠ نسمة ، قرب بلدة راولبندي العسكرية التي تحوي ٧٥٠٠٠٠ نسمة . ولكلمة باكستان مدلول جغرافي وسياسي في الوقت ذاته . فقد اقتبست حروفها من أسماء بعض مناطق ، كان يطمح مؤسسو هذه الدولة الفتية إلى توحّدها . فكلمة ب = تعني بنجاب وآ = أفغانستان و ك = كشمير ، و س = السند ، و تان = المقطع الأخير من كلمة بلوتشيستان . ولكن أفغانستان وكشمير ، ظلتا في خارج الحدود الحالية لجمهورية باكستان . كما عملت الهند على فصل جناحها الشرقي الذي كان يدعى باكستان الشرقية فظهرت دولة فقيرة جديدة هي بنغلادش .

الباكستان بلاد القمح والقطن : وكان يسكنها ٤٦ مليون نسمة في ١٩٦٨ ، وارتفع عددهم إلى ٧٢,٣٧ مليون في ١٩٧٦ وإلى ٧٦,٨ في ١٩٧٧ . وبالتأكيد أكثر من ٨٤ مليوناً في ١٩٨٢ . وتنتسب مشاهدها الجغرافية إلى الهند الغربية الجافة ، أو بالأحرى إلى أقطار الشرق الأدنى مثل إيران والعراق . ويسود فيها كبار الملاكين ، الذي يعيشون على حساب صغار الفلاحين والشركاء . ويجعل **تضريسها** منها ، ثغراً حدودياً حقيقياً . فتنتصب جبال عالية في الشمال وفي الغرب ، تتمثل بسلسلة هندكوش ، وجبال سليمان ، وسلاسل بيلوتشيستان (شكل ١) ، والتي تعمل جميعاً على حماية الباكستان . ولكن هناك ممرات عديدة ، مثل **ممر خيبر** الذي تحرسه مدينة بيشاور ٣٥٠٠٠٠ نسمة و**ممر كيّتا** ، تجتازها طرق سحيقة تقود إلى الاتحاد السوفيتي ، وإلى أفغانستان وإلى إيران . ويعيش بجوار هذه البوابات الشمالية الغربية ، قبائل متنوعة حتى أن بعض القرى الحصينة هناك ، تختص بصناعة الأسلحة الخفيفة . ويؤدي ابتعاد المحيط ، ووجود ضغوط عالية شبه مدارية خلال القسم الأعظم من العام من باكستان **منطقة قاحلة** ، فالأمطار لا تزيد عن ٥٠٠ مم إلاّ في بعض المناطق المحدودة وكثيراً ما تقل عن ٢٠٠ مم ، وهكذا لا تنجو الباكستان من الصحراء إلاّ بفضل الأنهار الوافدة من هيالايا ، إذن هي **هبة نهر الهندوس** وروافده ، مثلما كانت مصر ولا تزال هبة النيل . ولقد أدمج القسم الأعظم من **البنجاب** ضمن الدولة الجديدة ، والذي يؤلف أغنى أرض زراعية أو « لومبارديا المدارية » ، والبنجاب هو بلاد الأنهار الخمسة الرافدة لنهر الهندوس . ولقد شكلت مخاريط انصبابها بيمونت حقيقياً ، نتيجة تلاحمها ، يمتد إلى الجنوب من هيالايا . ولقد استطاعت منظومة هائلة من قنوات الري ، أنشأها الإنكليز إبّان حكمهم ، أن تحوّل مياه الأنهار الجبلية نحو الفواصل النهرية الفسيحة (شكل ٢) ، مما سمح بريّ خمسة ملايين هكتار . وينتج البنجاب القمح والدخن والقطن والبذور الزيتية



الشكل (١)

اقتصاديات الباكستان

كالسمسم وقصب السكر ، أي ما يكفي لتغذيـة ٧٠ مليون نسمـة من السكان . غير أن مفتاح منظومة الري برغبات الدولة المجاورة .



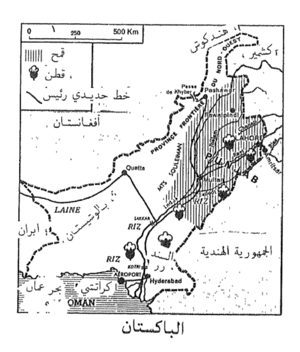
قنوات ⟵ أراضٍ مروية جبال
الحدود بين الباكستان والجمهورية الهندية -----

نظام الري في البنجاب

الشكل ٢

وتضم مدينة **لاهور** التي أصبحت مدينة حدودية ، قرابة ٢,٥ مليون نسمة ، وهي أكبر سوق في البنجاب الباكستاني ، وهي أكبر مركز ثقافي إسلامي ، وغنيـة بـالأبنيـة الأثريـة التي شيّـدهـا أبـاطرة المنغول المسلمون . أمـا في الجنوب فتكون **بلوشيستان** ، **والسند** عبارة عن صحارى حقيقية رملية ، تتجول فيها قطعان الجمال والأغنام بحثاً عن كلأ هزيل . وتقوم في بلوشيستان **قنوات** بـاطنيـة ، تجمع ميـاه الجبـال ، وتقوم عليهـا بعض الـواحـات . أمـا في **السنـد** ، فقـد سمـح سـد **سوكّور** (شكل ٣) ، الذي أضيف إليه سـد **كوتري** أن يروي مسـاحـة تعـادل أرض مصر الزراعية ، تقوم عليها زراعة **الرز والقطن** . أمـا دلتـا نهر السنـد فلا زال رقعة خاوية . وقد تحول مينـاء الصيـد في **كراتشي** الـذي يسكنـه ٤ ملايين نسمة ، إلى ميناء كبير لتصدير القمح والقطن في القرن الماضي ، ويقوم فيه حاليـاً

بازار شرقي كبير فضلاً عن مرسى بحري كبير وميناء جوي . وبعد أن كانت هذه المدينة عاصمة موقتة بعد ١٩٤٧ تضخمت بسبب تدفق اللاجئين . ومن المدن الشهيرة في البلاد : **ملتان** الواقعة في البنجاب ، ويقطنها ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، وحيدر آباد في شمال كراتشي وفيها ٧٥٠٠٠٠ نسمة وليالبور وفيها ٩٠٠٠٠٠ نسمة وباوالبور . هذا وتعتبر اللغة الأوردية اللغة القومية ويؤلف المسلمون ٩٧٪ من السكان ، ولا تزيد نسبة النصارى عن ١,٣٪ .



الباكستان

الشكل ٣

وتعاني الباكستان بصفتها دولة متخلفة من الأمية ، التي بلغت نسبتها ٨٠٪ في ١٩٥١ وتبلغ حالياً ٧٠٪ ، مثلما تعاني من مشكلة **السيخ** الذين يقارب عددهم ١,٥ مليون ، ولا يتحملون حكم دولة الباكستان بسهولة . وهناك **الباتان** وهم قبائل تنتسب إلى الأفغانيين ، وظلوا حتى عام ١٩٧٧ يحاولون الإنضام إلى أفغانستان المجاورة . ولما كانت الباكستان تتمتع **بوضع استراتيجي** عند ملتقى

العالم الإسلامي مع آسيا الوسطى السوفياتية أي التركستان ، وآسيا الصينية ، والعالم الهندي فهي تكابد من حياة عسيرة ، ولا سيا بعد لجوء ٢,٥ مليون أفغاني إليها بعد أحداث عام ١٩٨٠ وتدخل القوات السوفياتية .

وعلى أثر التقسيم في ١٩٤٧ أصبح اقتصاد الباكستان زراعياً صرفاً لأن مصانع القطن والخبراء أصبحوا في الاتحاد الهندي . هذا ويبلغ إنتاج البلاد من القمح ٤ ملايين طن وقرابة ١,٥ مليون طن من الرز . ولما كان إنتاج القطن الطويل التيلة ، يصل إلى ٤٠٠٠٠٠ طن ، فإن الباكستان تحتل مكانة مرموقة بين الدول المصدرة للقطن ، أي تعادل مصر في إنتاجها كا وتخصص مساحات كبيرة من أراضيها لإنتاج البذور الزيتية كالكولزا و الخردل والحمّص والأشجار المثمرة كالفستق في الشمال وأخيراً قصب السكر في الجنوب .

هذا وقد حققت هذه الدولة رغم خوض الباكستان حربين ضد الهند ، كانت آخرها في ١٩٧١ والتي تمخضت عن ظهور دولة بنغلادش في مكان باكستان الشرقية ، أقول : حققت بعض النجاحات . فمنذ ١٩٥٨ سمح تطبيق الإصلاح الزراعي بالقضاء على الملكيات الكبرى مع تعويض كبار الملاكين لمصلحة الفلاحين المستأجرين أو الشركاء . وتوسعت الأراضي المروية ، كا أصبح الفلاحون يقومون بأنفسهم باتخاذ التدابير المؤدية لتحسين أوضاعهم . غير أن تبديل العقليات والعادات لا يتم بين عشية وضحاها . **وقامت الدولة بوظيفة المتعهد المقاول والصناعي والمخطط** ، واستدعت رؤوس الأموال الأجنبية ، التي أصبحت تشكل ٤٠٪ من الاستثمارات الموظفة في البلاد ، حتى أن تسديد القروض الأجنبية يمتص ١٠٪ من موارد البلاد من العملة الصعبة .

وأخذت باكستان باستغلال **مناجم** الملح ، ومكامن الكروم . أما إنتاج الفحم الحجري والنفط فلا يكفي حاجة البلاد ، وإن كان قد حقق بعض التقدم ، فتنتج البلاد ١,٥ مليون طن من الفحم ، وقرابة مليون طن من النفط ،

هـذا كما يكثر **الغـاز الطبيعي** في إقليم السنـد في موقع سوي Sui ، حيث ينطلق منه خط أنـابيب ، يتفرع نحو لاهور في الشمال الشرقي ، ونحو كراتشي في الجنوب الغربي . وهكذا تعتبر الطـاقـة **الكهرمـائيـة** إلى جـانب **الغـاز** ، **أهم مصـادر الطاقة في مستقبل البلاد** . وقد قامت مراكز لإنتـاج الطـاقـة الكهرمـائيـة ، ومصانع الغزل والنسيج القطني ، والمنتجات الكيماوية وترسانات البناء البحري ، مثلمـا دخلت مصـانـع الإسمنت مرحلـة الإنتـــاج . مثلمـــا أنتجت البـلاد مقـــدار ١,٢ مليون طن من الفولاذ في ١٩٧٠ .

وتتجـاوز حركـة مينـاء كراتشي ٥ مـلايين طن بـالعـام . ولكن العجـز في التجـارة الخـارجيـة يظـل من أكثر المشكـلات مرارة ، لأن ٨٠٪ من الصـــادرات تتـــألف من القطن ، في حين أن ٦٠٪ من المستـــوردات يتـــألف من منتجـــات مصنوعة ، وتنال الباكستـان معونـة لابـأس بها من دول الخليج العربي ، ولا سيما من المملكة العربية السعودية ومن البنك الإسلامي .

ويتعلق اقتصاد الباكستان بعلاقاتها مع الهند . وقـد أمكن التوصل لمعـاهـدة لاقتسام مياه نهر الهندوس في ١٩٦٠ ، تحتفظ الهند بموجبهـا بميـاه الروافـد الثلاثـة الشرقية ، في حين تتصرف الباكستان بمياه الأنهار الثلاثة الغربية ، وهي الهندوس وجهلام وشناب ، وتنظمها من أجل الري ولإنتاج الطاقة الكهرمائية .

غير أن تزايد السكان العشوائي ، هو الذي يفسّر تدابير تحديد النسل في بلـد إسلامي ، أي تمـاثـل تركيـا ومصر وتـونس وبنغـلادش . ويـبـدو بقـاء وتمـاسـك الباكستان رغم كل ما انتابها باعثاً على الدهشة . وتـدين بحيـاتهـا بلا ريب لوجود نخبة إداريـة وعسكريـة ، تشكلت على أيـدي البريطـانيين . ولكن قبل كل شيء إلى شدة التماسك الذي حققه الإسلام .

☆ ☆ ☆

بنغلادش

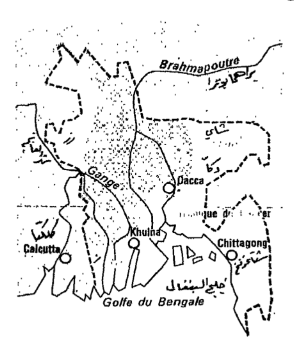
مساحتها ١٤٢٠٠٠ كيلو متر مربع ، وكان عدد سكانها ٥٦ مليون نسمة في ١٩٦٨ و ٨٥ مليون في ١٩٧٧ وأكثر من ٩٠ مليون في ١٩٨٢ بحيث تزيد الكثافة عن ٦٣٠ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد .

وهي بلاد رطبة ، ذات أرض منبسطة وخصيبة ، تنتسب في مشاهدها لآسيا الجنوبية الشرقية . وهي تحتل بالواقع القسم الأعظم من أوسع دلتا في العالم ، هو **البنغال** . وقد قام هنا نهر الغانج وبراهما بوترا بردم منخفض تكتوني بكتلة جسيمة من لحقيات « طمي وغرين » حديثة وخصيبة . هذا وينجذب نهر **الغانج** نحو شرقي الدلتا الأكثر انخفاضاً ، حيث تجنح إلى التلاقي والتلاحم مع براهما بوترا ، بحيث يتخلى في غربي البنغال ، أي في أراضي الاتحاد الهندي(شكل ١) ، عن أراضٍ سيئة الصرف ، وحيث تستفحل البرداء « الملاريا » بينما يروي بفيضاناته أراضي بلاد بنغلادش ، التي تخشى اتساع المستنقعات في الشرق ، وتصاعد الملح إلى سطح التربة في الجزء الغربي من البلاد .

هذا وتكون الأمطا غزيرة ومنتظمة ، تبلغ المترين وسطياً في العام ، وتتعرض البلاد لفيضانات الأنهار التي تسمح للفلاحين البنغاليين بالحصول على موسمين من الرز في العام ، وبالقيام بزراعة **الجوت** في الفصل الرطب ، والذي تستخدم أليافه في صناعة الأكياس والبسط والقلوع .

ولما كان الجوت يمثل الزراعة التجارية الكبرى ، فهو الذي يجعل الميزان

التجاري إيجابياً في بنغلادش ، بيد أن جمهورية الهند عمدت بعد تقسيم الهند في ١٩٤٧ إلى التوسع في زراعة الجوت في أراضيها وأصبحت منافسة لزراعة الجوت في بنغلادش . وعلى كل يمثل إنتاج بنغلادش من الجوت ٧٥ ٪ من المحصول العالمي أو أكثر من مليون طن . وتنتشر مزارع **الشاي** فوق التلال . وتبنى البيوت فوق العصيبات اللحقية التي تواكب ضفاف الأنهار ، للتخلص من مخاطر الفيضان ، وذلك بين أشجار المانجة والبامبو والأشجار المثمرة الأخرى فوق مستوى المستنقع الفسيح المزروع بالرز . وتمثل الزراعة ٦٠ ٪ من الناتج القومي ويعمل فيها ٧٥ ٪ من السكان العاملين .



الشكل ١

غير أن انطباع الغنى الطبيعي ، يبدو خداعاً ، فالفلاحون شديدو الفقر ويتعلق مصيرهم بأسعار محصول تصديري وحيد هو الجوت .

وتنتج البلاد ما يزيد على ١٢٠٠٠ طن من السكر من القصب .

أما الصناعة الريفية التي كانت مزدهرة في القرن الثامن عشر ، فقد انحطت ويكون محصول الرز أحياناً غير كاف لتغذية سكان تصل كثافتهم في بعض البقاع إلى أكثر من ٧٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، وتتعرض البلاد للمجاعات بصورة دورية .

هذا ولا تختلف بنغلادش عن شقيقتها الباكستان من حيث ارتفاع نسبة الأميين إذ تصل إلى ٧٥ ٪ كما كان التقسيم ضاراً جداً بها لأن مصانع غزل الجوت ونسجه كانت تقع في أراضي الجمهورية الهندية ، ولذا يكون مصير زراعته تحت رحمة مصانع كلكتا . وأقامت هذه البلاد خلال وحدتها مع الباكستان مصانع هامة لغزل القطن ونسجه نظراً لرطوبة جو هذه البلاد ، بحيث تغزل من القطن مازنته ٤٠٠٠٠ طن في العام . وقد توسعت المساحات المروية بعد أن قامت شركات تعاونية بتنفيذ مشاريع ضخمة للقطاع العام .

هذا وقد بدأ اكتشاف مكمن غاز هام في هذه البلاد ، يقدر احتياطيه بحوالي ٣٠٠ مليار متر مكعب منذ بضعة أعوام ، ودخل مرحلة الاستغلال .

هذا وتعمل الدولة على تحسين تجهيز ميناء **شيتا غونغ** ، التي يبلغ مقدار سكانها المليونين . أما العاصمة **دكّا** فيبلغ عدد سكانها ٢,٥ مليون نسمة . كما أقامت بنغلادش ميناءً جديداً في **خولنا** في الغرب ، كي تصبح بنغلادش مستقلة تماماً عن سيطرة كلكتا .

وتصدر البلاد الجوت والشاي والجلود ، وتستورد تجهيزات النقل والحديد والفولاذ والإسمنت . ويؤلف المسلمون ٨٠ ٪ من سكان البلاد ، والهندوس ١٥ ٪ والبوذيون ، والنصارى ٥ ٪ .

☆ ☆ ☆

أندونيسيا

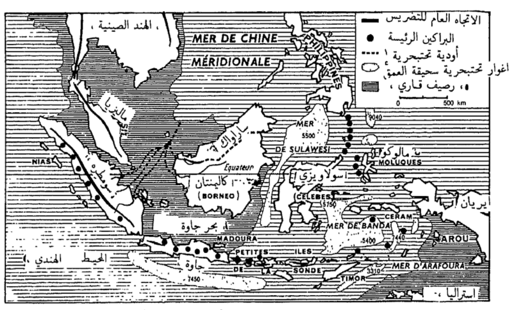
ترتصف على طرفي خط الاستواء ، بين جنوب شرقي آسيا ، وبين القارة الأوسترالية ، وذلك على مسافة تقارب المسافة الواقعة بين نواكشوط ، عاصمة جمهورية موريتانيا الإسلامية ، وبين مسقط ، عاصمة سلطنة بلاد عمان ، أو أكثر من ٥٠٠٠ كيلومتر ، أقول ترتصف قلائد من جزر يؤلف مجموعها أوسع أرخبيل في العالم . وكانت تدعى آنسولند ، أو جزر الصوند . ويقع القسم الأعظم من هذا الأرخبيل تحت سلطة دولة فتيّة ، ولدت من مستعمرة هولندية شاسعة ، كانت تدعى **جزر الهند الشرقية** ، والتي حصلت على استقلالها في عام ١٩٤٩ بعد كفاح مرير ، وأصبح اسمها **أندونيسيا** . وهذه الدولة التي هي أكثر دول آسيا الجنوبية الشرقية اتساعاً ، إذ تمتد مساحتها على قرابة مليوني كيلو متر مربع ، أو ١٩١٩٢٧٠ كيلو متر مربع بعد أن ضمت إليها النصف الغربي من جزيرة غينيا الجديدة في عام ١٩٦٣ ، واستردتها من هولندا ، والنصف الشرقي من جزيرة تيمور في عام ١٩٧٦ ، وكان يسكنها ١٥٠,٢ مليون (في ١٩٨١) ، بعد أن كانوا ٩٦ مليوناً في ١٩٦٢ ، وتعتبر أكبر دولة إسلامية ، لأن أكثر من ٨٠٪ من سكانها مسلمون ، ويؤلفون سدس مسلمي العالم .

أولاً : الملامح الطبيعية الكبرى

الأرخبيل الأندونيسي : ويضم قرابة ٣٠٠٠ جزيرة منها ٣٥٠ جزيرة ، تتجاوز مساحة كل منها ١٠٠ كيلو متر مربع . وعلى العموم يستفحل تفتت الجزر في الوسط ، ومن الشمال إلى الجنوب . فبعد الأراضي المتكتلة في جزيرة **سومطرة** غرباً وجزيرة **كاليمنتان** (بورنيو) شمالاً ، تتعاقب جزر متوسطة الأبعاد مثل : **جاوا** و **سولاويزي** ، أو سيليب سابقاً ، ومن ثم ، وإلى الشرق من جاوا ، يظهر نثير من جزر الصوند ، أهمها **بالي** ، **فلوريس** ، **تيمور** وجزر **مالوكو** ، أو مولوك سابقاً ، وتنبثق من الشرق من الأرخبيل ، جزيرة **غينيا الجديدة** التي تدعى إيريان الغربية .

البنية والتضريس

ينتسب القسم الغربي من الأرخبيل ، أي جزر صومطرة ، جاوا ، كاليمنتان ، إلى قارة آسيا وتتألف من أجزاء عائمة من عتبة تحتمائية ، تدعى الصوند لا يتجاوز عمقها المتوسط ٥٥ متراً والتي لا تزيد أعماقها عن ٢٠٠ م إطلاقاً (شكل ١) . وترتبط هذه الجزر الكبرى بسلاسل ثلاثية ملتوية ، نذكر منها القوس الممتد من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي في كاليمنتان ، والممتد من جزيرة مندناءو ، في الفيليپين . أما القوس الماليزي الصرف ، والذي نهض مع سائر السلاسل الألبية ، فينعطف من الشمال الغربي نحو الشرق منطلقاً من بيرمانيا ويمر من صومطرا ، وجاوا ، ويستمر في جزيرة بالي وفلوريس . وقد عامت هذه العتبة كلياً خلال حقبة الزحف الجمودي ، وشكلت ما يدعى « أرض الصوند » فكانت امتداداً للقارة الآسيوية ، وبعد ذوبان الجليد في نهاية آخر



مخطط البنية والتضريس في اندونيسيا

الشكل ١

زحف جمودي في شمال أوروبا وأمريكا ، تعرضت هذه العتبـة للخفس وتجزأت إلى هذه الجزر الكبرى الحالية .

أمـا في **الجـزء الشرقي الأقصى من الأرخبيـل** فـإن بحر آرافـورا يحجب تحت مياهه الرقيقة عتبة أخرى تدعى عتبة سـاهول ، والتي تتـألف منهـا جزيرة غينيا الجديدة ، والتي تختص أندونيسيا بنصفها الغربي ، وهو إيريـان ، ويتـألف نصفها الشرقي من جمهوريـة پـاپوازيـا المستقلـة ، أو غينيـا الجـديـدة الشرقيـة ، وثم قارة أوستراليا .

ويمتد بين هاتين العتبتين ، وكذلك على الحافـة الجنوبيـة الشرقيـة من عتبـة الصونـد ، أي عنـد التقاء قطاعين قليليْ المقاومة من القشرة الأرضية ، يمتد نطاق كان مسرحاً لزلازل شديدة ، ولانهيـارات ولانكسـارات . ويكون هذا النطاق كثير الأثلام البحريـة السحيقـة ، الضيقـة تـارة ، والعريضـة تـارة أخرى ، وذات حواف عديمة الانتظـام ، وتهبـط هـذه الحفر إلى حوالي ٧٥٠٠ م . جنوب جزيرة جـاوا وفي بحر پاندا ، شرقي جزيرة سيلاويزي .

وقد نهضت أطواق الآتول atoll المرجانية كلما هبط قعر البحر ، وغطست التشكلات المرجـانيـة ذات السفوح الشديدة الانحـدار ، والتي تتوج تلـك « الآتولات » إلى أكثر من ٢٠٠٠ م ، كما يمكن العثور على مرجانيات ميتة على ارتفاعات مختلفة ، مثل تلك المصـاطب السـاحليـة التي تنهض حتى ١٣٠٠ م في وسط جزيرة تيمور ، ومن جهة أخرى كانت تلك الكوارث التحتانيـة مصحوبـة **بنشـاط بركاني** كثيف .

البركنة

يتجلّى عـدم استقرار أرض أنـدونيسيـا على شكل ظواهر بركانيـة عـديـدة ، وبـالكثير من الزلازل . وتشتمل البـلاد على ٣٠٠ بركان ، منهـا حـوالي ٥٠ بركانـاً نـاشطـة . وتحوي جزيرة جـاوا لـوحـدهـا ، فـوق ركيزتهـا المؤلفـة من الصخـور الرسوبية الثلاثية الملتوية ، مقدار ١٣٠ بركاناً ، منهـا ٣٢ بركانـاً نـاشطـاً . ويعود معظم هذه البراكين للحقب الجيولوجي الرابع . وتنتسب هـذه البراكين إلى نمـاذج متنوعـة جـداً : فهنـاك مخـاريـط منتظمـة تنهض أحيـانـاً حتى ارتفـاع ينـاهـز

٤٠٠٠ م ، وهنـاك أيضاً مخـاريـط مشـدوقـة ذات فـوهـات « كراتر » أطـلاليـة المظهر ، هذا فضلاً عن هياكل بركانية متكتلة تثقبها « كالديرات » واسعة يتجاوز قطرها ١٠ كيلو مترات أحياناً ، وناتجـة عن انفجـارات ، أو عن انهيـارات أعقبت ثـورانـاً عنيفـاً ، هـذا عـدا عن المـداخن البركانيـة « فـوميرول » ، التي تنبثـق خواصرهـا ، أو تملؤهـا ميـاه بحيرات ، مثل بحيرة تـوبـا في صـومطرة ، وهي أكثر البحيرات البركانيـة اتسـاعـاً في البلاد ، كما نجـد في هـذه الجزر براكين ذات فوهـة مزدوجـة ، أو تحمل على خواصرهـا براكين إضـافيـة ، هـذا فضلاً عن مسـاحـات واسعة منسجمة ، مؤلفة من لابات بركانيـة ، ومن الطف Tufs . أمـا بعض الجزر فليست أكثر من براكين بسيطة .

« تكاد تكون كل الثورانات الحـاليـة تقريبـاً من النمـط الانفجـاري . وأشهرهـا هو ثوران بركان **كراكاتوا** ، الـذي أطـاح في عـام ١٨٨٣ بـإحـدى جـزر مضيـق الصـونـد وفتتهـا . وقـد بلغت أصـوات الانفجـار ، مسـامع كل سكان الأرخبيل وتلوثت طبقـات الجـو العليـا بـالرمـاد فـوق كل سطـح الكرة الأرضية ، وبلغ عدد الضحـايـا ٣٦٠٠٠ قتيل ، هلكوا غـالبـاً نتيجـة غزو المـد raz de mareé ، الـذي نتجت عن موجة اندفعت نحو كل السهول المجاورة ، فاندفعت الموجة المذكورة نحو الخلجان العميقة في المضيق ، ورفعت مستوى المياه لمقدار ٢٣ متراً فوق المستوى العـادي ، وحملت المراكب الراسيـة في الموانئ لمسـافـة بعيـدة داخـل الأراضي . ولا يـزال الإنسـان يعثر في المنطقـة على طبقـة من رمـاد سمكهـا ١٠ سم تحت لحقيات السفوح .

عن روبكان « العالم الماليزي »

وإذا كانت هـذه الكوارث نـادرة نوعـاً مـا ، فـإن من المـألوف كثيراً رؤيـة مسكوبـات اللابـة ، ولا سيما المسكوبـات الوحليـة ، أو لاهـار ، وهي عبـارة عن انزلاقات مواد بركانية مشبعـة بـالميـاه النـاجمـة عن أمطـار غزيرة ، أو عن تفريغ فجائي لمياه بحيرات الفوهات « كراتر » .

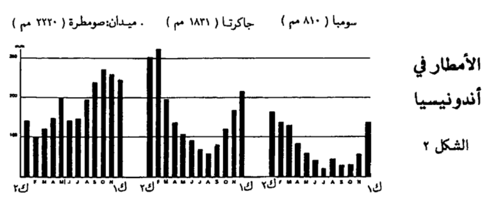
غير أن منافع البركنة تفوق مخاطرها . فـالترب ذات الأصل البركاني تمتـد في

أندونيسيا على مساحات واسعة ، وتتمتع بخصوبة فريدة ، كما تؤلف التضاريس بفضل نفاذية معظم صخورها خزانات طبيعية لمياه ثمينة جداً ، من أجل ري المناطق الواقعة في أسفلها ، لأن الماء ، كما قيل : « أرخص موجود وأغلا مفقود »

المناخ والنبات

تقع أربعة أخماس أندونيسيا جنوب خط العرض العاشر شمال خط الإستواء وجنوبه . وهكذا يكون المناخ متميزاً **بحرارة** منتظمة مرتفعة نوعاً ما . وتتراوح متوسطات درجات الحرارة حول ٢٦ درجة ، كما تكون الفروقات ضعيفة جداً خلال العام . ففي جاكرتا لاتزيد السعة عن درجة واحدة بين أكثر الشهور حرارة وهي ٢٦,٤ وبين أقلها حرارة أي ٢٥,٤ . ونظراً للتأثير البحري لا يكون **الحر** متطرفاً أبداً ، ولا يتجاوز الحد الأقصى للحرارة المطلقة ٣٥ درجة ولكن الحر يظل ثقيلاً مستمراً . وجبال نصف الكرة الجنوبي هي وحدها التي تتعرض للانجماد خلال الفصل الجاف .

أما نظام **الأمطار** فيحوي على تنوع أكبر وتكون الأمطار على العموم غزيرة ، لأن أندونيسيا لاتقع ضمن النطاق الاستوائي الرطيب بحد ذاته فحسب بل تكون محاطة بمساحات محيطية شاسعة للغاية . وهكذاتتجاوز شطيرة الأمطار الهاطلة سنوياً في بعض النقاط ٦ أو ٧ أمتار ، كما في مدينة بادانغ على الساحل الغربي من جزيرة صومطرة ، أو في وسط جزيرة جاوا (شكل ٢) .



الأمطار في أندونيسيا

الشكل ٢

وفيما عدا الاختلافات الناجمة عن فوارق درجات العرض ، فإن نظام **الرياح** هو الذي يفسّر تفاوت هذه الأمطار . فنظراً لوقوع أندونيسيا ضمن نطاق آسيا الموسمية ، فهي تخضع بالتالي لرياح متناوبة : أي تتعرض لرياح أليزة « تجارية » نصف الكرة الشمالي خلال فصل الشتاء الشمالي وتكون مطيرة ، ولرياح أليزة نصف الكرة الجنوبي خلال الصيف الشمالي . هذا وتكون رياح أليزة نصف الكرة الجنوبي المدعومة بوجود أنتيسيكلون ، مستقر حينئذ فوق أوستراليا ، في فصل الشتاء الجنوبي ، في الشرق ، أقول : تكون بالتالي ، عبارة عن رياح جافة .

وإذا كانت كمية الأمطار وتوزعها خلال العام متّبدلة باختلاف المواقع ، فيمكن القول بأنها أكثر انتظاماً في توزعها بجوار خط الاستواء . ونجد في مدينة ميدان الواقعة في شمال صومطرة ، أن كل الأشهر تكون مطيرة ، مع وجود حَدّين أقصيين عند مرور الشمس في السمت ، أي في الاعتدالين . وتقل هذه الأمطار تدريجياً باتجاه الشرق . وهكذا تنال سومبا ٨١٠ مم مثلما تطول فترة الجفاف . وهكذا تهطل أكثر الأمطار على السفوح المعرضة للرياح ، كما تسقط الحدود القصوى فوق جبال صومطرة وجبال جاوا ، حيث تصل كمية المياه الهاطلة إلى ٧ أمتار ، وكذلك في داخل جزيرة كاليمنتان « بورنيو » .

ونظراً إلى كون معظم هذه الأمطار ذات طابع طوفاني ، فإن أكثرية الأنهار تكون غزيرة التغذية ، وبالتالي ذات انحدارات شديدة ، وتنقل نتيجة ذلك مقادير كبيرة من الطمي . وهي ذات فائدة كبيرة للري . مثلما تكون قطاعاتها السفلى صالحة للملاحة أحياناً . وأخيراً يوائم تحالف الحر مع الرطوبة انتشار **الغابات** التي لا تزال تغطي ، رغم عمليات الاستزراع ، وممارسة الزراعة فوق الحريق « لادانغ » ، ثلاثة أرباع مساحة جزيرة كاليمنتان ، و ٧٠٪ من جزيرة سولاويزي ، ومالاكو ، و ٦٠٪ من جزيرة صومطرة ، و٢٥٪ من جاوا ، ومعظم إيريان الغربية أو ١٢٠ مليون هكتار ، أو ثلثي مساحة البلاد ، منها ٤,٢ ملايين هكتار صالحة للاستغلال الاقتصادي . وتتألف الغابات من أشجار ضخمة ذات خشب ثمين ، ومن الملتفّات ، ومن النباتات الراكبة ، ومن أقصاب البامبو التي يصل قطرها إلى ٧٥ سم . وتتقهقر هذه الغابات في العديد من المناطق وتتحول أحياناً إلى السافانا التي تسود في جزر الصوند الصغرى ، الأكثر جفافاً ، وعلى كل لا تمثل صادرات الخشب حتى الآن سوى ١,٥٪ من قيمة الصادرات الكلية في البلاد .

المساحات والسكان والكثافة في الجزر الرئيسية
في الأرخبيل الأندونيسي

جزيرة أو أرخبيل	مساحة كم²	٪	ملايين السكان	٪	كثافة نسمة/كم²
كالمنتان	٥٤٠٠٠٠	٢٨,٥	٥	٤,٢	٩
صومطرة	٤٣٥٠٠٠	٢٢,٩	٢١	١٨	٤٤
إيريان بارات	٤٢٢٠٠٠	٢٢,٢	١	٠,٨	٢
سولاويزي	١٩٠٠٠٠	١٠	٨,٥	٧	٤٥
جاوا	١٣٠٠٠٠	٧	٧٦	٦٣	٥٧٦
نوزاتنّغارا	١٠٠٠٠٠	٥,٣	٦,٥	٥,٥	٦٥
مالوكو	٧٥٠٠٠	٤	١	٠,٨	١٣

ثانياً : السكان والتطور السياسي

لقد ظل عدد السكان راكداً تقريباً أو يتزايد بسرعة بطيئة جداً حتى نهاية الثلث الأخير من القرن الماضي . فكانت نسبة التوالد القريبة من الحدود الطبيعية المفروضة حسب وتيرة الخصوبة ، وهي ٤٥ بالألف ، كانت مصحوبة بنسبة عالية من الوفيات ، الناجمة عن أوضاع معاشية منحطة جداً . وابتداءً من عام ١٩٣٠ ، وبفضل التقدم في الشروط الصحية ولتحسن الغذاء ، حصل هبوط متسارع في نسبة الوفيات دون تعويض مرافق في وتيرة الولادات . وراح عدد السكان يتكاثر ابتداءً من ذلك التاريخ بصورة أكثر تسارعاً ، وتبلغ حالياً نسبة النمو الطبيعي ٢,٤٪ في العام ، أي يتضاعف عدد السكان مرة كل ٣٠ سنة . وبلغ سكان أندونسيا أكثر من ١٥٠ مليون نسمة في ١٩٨١ .

توزعهم :

من الواضح في مثل هذه الأوضاع أن البلاد تتجه نحو أزمة خطيرة جداً ، لا سيا وأن السكان يتركزون في بعض الجزر مثل جاوا و بالى ، حيث يزدحم

السكان والموارد محدودة . وربما تصبح حالة هاتين الجزيرتين مأساوية على المدى القريب . ففي عام ١٩٠٠ كانت الكثافة تقل عن ٢٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، وفي عام ١٩٨٥ ستصل الكثافة في جاوا إلى أكثر من ٧٠٠ نسمة في كم^2 ، مع أن الكثافة الوسطى في البلاد لن تتجاوز ٨٥ نسمة كم^2 .

ويعتبر الشعب الأندونيسي في أيامنا شعب فلاحين ، لأن نسبة الذين يعيشون في مدن يزيد تعدادها من ٢٠٠٠٠ نسمة لا تزيد عن ٢٠٪ . إذن يبدو من الإنصاف في حالة كهذه أن تحسب كثافة السكان استناداً إلى المساحة المزروعة . ففي عام ١٩٧٠ بلغت في جاوا وفي مادورا وفي بالي وسطياً ٨٣٣ نسمة في الكيلو متر المربع وتقارب الألف حالياً ، ولكنها وصلت في مصر إلى ١٢٢٥ في ١٩٨٢ ، هذا في حين أن بقية جزر أندونيسيا أقل استيطاناً وبالأحرى ، تبدو وكأنها صحارى خضراء خالية من السكان .

حلول الأزمة الديموغرافية : هجرة ما بين الجزر :

لقد تراءى للمسؤولين أن استيطاناً أكثر انسجاماً لجزر الأرخبيل هو الحل الأمثل . ولكن ذلك يصطدم بمصاعب لم يمكن التغلب عليها حتى الآن . وفي الواقع لاشيء يغري جماهير الريفيين الجاويين بالذهاب لإعمار مناطق شحيحة حيث لن يجدوا سوى الغابة العذراء ، أو ساڤانات فقيرة ، نضب معين تربتها بسبب المعاملة القاسية التي خضعت لها بسبب نظام زراعة الحريق « لادانغ » التي تستفحل في كل الجزر باستثناء جاوا . ومن ناحية أخرى ، فإن الفلاح الجاوي الذي اعتاد على زراعة متقنة ، دقيقة للغاية ، تتخذ شكل زراعة بستنة لا يستطيع أن يتواءم مع عمل مرهق ، ومضن ، من أجل الاستزراع ، ومع تقنيات زراعية هي تقنيّات الجبهات الطلائعية .

وأخيراً فإن استيطاناً طلائعياً يتطلب غالباً عون الدولة المادي ، هذه

الدولة التي لا تبدو حالياً قادرة على أن تقدمها لأن عمليات الهجرة الداخلية فيما بين الجزر لم تعط سوى نتائج هزيلة . ومن ناحية أخرى ، إذا كان هناك ٢٠٠٠٠ عائلة تغادر جاوا وسطياً في العام كي تقيم في الجزر الأخرى ، ولا سيا في صومطرة ، فإن عائلات كثيرة أيضاً تأتي لتجرّب حظها في جاوا . وبين عام ١٩٦٠ و ١٩٦٥ غادر الجزيرة ٢٠٥٣٠٠٠ نسمة ، ولكن في مقابل ذلك وفد عليها ٣٣٨٣٠٠٠ شخص ليقيموا فيها ، وأخيراً فإن تهجير أسرة واحدة كي تقيم في جزيرة أخرى يكلف أكثر من ٢٥٠٠٠ دولار على الأقل .

تحديد النسل :

لقد تعرقل تطبيق برنامج تحديد المواليد حتى الآن لأسباب سياسية ، نظراً لسياسة التوسع التي دعا إليها الرئيس سوكارنو لاعتبارات ديماغوجية غير مسؤولة ولا مدروسة ، غير أنه يبدو من الواضح أكثر فأكثر بأن الإتجاه يذهب نحو هذا الحل بعد تلاشي المعارضة الرسمية . بقي على الدولة أن تقوم بتكوين أشخاص مهيئين كي ينشروا التعليم ، وللتغلب على لامبالاة وبلادة جماهير الريفيين الشديدة العزلة . وهكذا ينطلق برنامج مراقبة التوالد ببطء شديد . ولابأس من أن نذكر أن نسبة التوالد ٣٨ بالألف والوفيات ١٤ بالألف ووفيات الأطفال ١٣٧ بالألف مقابل ٩ في اليابان ومتوسط العمر ٤٨ سنة . وتحتل أندونيسيا المرتبة الخامسة في العالم في عدد سكانها .

ثالثاً : الاقتصاد

لاتزال الزراعة هي الفعالية الاقتصادية السائدة . فهي تقدم ٥٦٪ من الناتج القومي الخام ، وتوفر العمل لثلاثة أرباع السكان . ومع ذلك فإن الرقعة المزروعة لا تزيد عن ١١,٦٪ من مساحة البلاد . ويتم استغلال الأرض بواسطة فلاحين من الملاكين الصغار ، وتكون المساحة الإجمالية أكبر بست مرات من المساحة المغطاة بالمزارع الكبرى الرأسمالية الحديثة .

المزروعات :

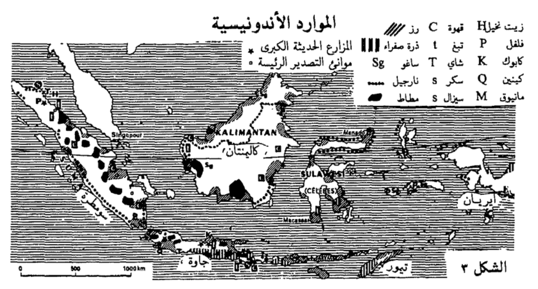
من المنتظر أن يكون **للمـزروعـات الغـذائيـة** التي تنتشر على ١٤ مليـون هكتـار أكبر الأهميـة . وتحتل المكانـة الأولى بين هـذه المـزروعـات زراعـة الرز ، والواقع يكون الرز أسـاس التغـذيـة . فهـو يـزرع على مسـاحـة تبلـغ ٨ مـلايين هكتار ، كما أن معظم الأراضي المخصصة للرز تقع في جاوا ويتراوح الإنتاج بين ١٥ و ٢٣ مليون طن ويكـون المردود الـذي يصـل إلى ٢٠ كنتـال بـالهكتـار من أعلى مثيلاته في الأقطار الآسيوية الأخرى ولا تتفوق عليه سوى اليـابـان طبعـاً . ومع ذلك توجد أحياناً فترات مسغبة ، ولا سيما في بعض أقاليم الأرخبيل (وسط وشرق جـاوا ، وجزيرة لومبـوك) . ويختلف استهـلاك الرز حسب المنـاطـق ، وتقـوم محاصيل أخرى غـذائيـة بتكميل دور الرز أو تحل محلـه أحيـانـاً كالـذرة الصفراء ، والمانيوق الذي يبلغ إنتاجه ١٣ مليون طن ، والبطاطا الحلوة ويصل انتـاجهـا الى أكثر من ٣ ملايين طن ، وفستق العبيـد الـذي يـزيـد إنتـاجـه عن ٦٠٠٠٠٠ طن والصويا وانتاجه ٥٥٠٠٠٠ طن . وهناك محاصيل غذائية أخرى نذكر منهـا قصب السكر وإنتـاجـه يفوق ١،٩ مليون طن وزيت النخيـل ٥٠٠٠٠٠ طن ، والشـاي ٧٥٠٠٠ طن او خمس الإنتـاج الهنـدي والقهـوة ٢٠٠٠٠٠ طن والتبـغ ٩٠٠٠٠ طن (شكل ٣) .

هـذاوعنـدمـا تكون المشكلات الغـذائيـة أقل حـدّة فـإن المستغلات الصغيرة تستطيع أن تنصرف لمزروعات نقديـة : فهي تنتج على السـواحل جوز النـارجيل « جوز الهنـدا أو الكوپرا » ، والكاپوك ، وقـدراً كبيراً من المطـاط والقهوة . أمـا المزارع الرأسمالية فتمر بـأزمـة طويلـة بسبب الانخفـاض العـام والمستمر في الأسعـار العالمية . وفضلاً عن ذلك تضررت هذه المزارع ومنشآتها الملحقـة نتيجـة التخريب الناتج عن معارك الحرب العالمية الثانية وحرب الاستقلال والاحتلال الياباني لأن فترة الكفاح من أجل الاستقلال امتدت حتى ١٩٤٩ .

وقد أدت هذه الاضطرابات إلى إهمال نهائي لمساحة ٣٥٠٠٠٠ هكتار والتي احتلت جزئياً من قبل معمّرين جدد لا خبرة كافية لديهم . وتقهقر وضع المزارع الكبرى أيضاً في أعقاب التأميات في ١٩٥٧ والتي اشتملت ٥٤٢ مزرعة كبرى حديثة ، مما أدى لنزوح الأخصائيين الهولنديين والذين هبط عددهم من ٦٠٠٠٠ مهندس إلى حوالي العشر فقط .

هذا ولا يكون الأخصّائيون الأندونيسيون على المستوى التقني ذاته ، مما أدّى لهبوط المردود ، وإلى ما هو أكثر خطورة عن ذلك وهو انخفاض نوعية المنتجات المهيأة للتصدير . وهكذا تضررت أوضاع السلع التصديرية الأندونيسية في الأسواق الخارجية . أما فيا يتعلق بالتبغ فإن وضعه قد هبط بصورة قاضية بسبب المقاطعة الهولندية . وفضلاً عن ذلك فإن التضخم قد دفع بالمزارعين إلى تخصيص مزارعهم كلياً أو على الأقل أعطوا الأرجحية للمزروعات المستهلكة محلياً .

غير أن أندونيسيا تظل مع ذلك ثاني منتج عالمي للمطاط الطبيعي أو ٨٠٠٠٠٠ طن ، وتحتفظ بمكانتها بين العشرة الأوائل في إنتاج القهوة أو الشاي وزيت النخيل . وهكذا نستشف أن اقتصاد أندونيسيا يظل زراعياً صرفاً ، ولا



الشكل ٣

يسد حاجاتها ، كما أن المحاصيل النقدية تبدو عاجزة عن تعديل الميزان التجاري ، كما أن تربية الماشية التي لا يلائمها المناخ تكون قليلة الفائدة .

تربية الماشية :

لا تزال تعتبر نشاطها زهيداً في أندونيسيا لأن عدد الأبقار لايزيد عن ٧ ملايين رأس والأغنام ٣,٣ ملايين والخنازير التي يحول الإسلام السائد دون انتشار تربيتها ، والتي يصل عددها إلى ٤,٤ ملايين ، ويشجع عليها المبشرون الذين استغلوا فقر سكان المناطق المنعزلة وجهلهم وأخرجوا أكثر من مليوني مسلم من دينهم . وهكذا نجد أن وضع تربية الماشية أشبه ما يكون بوضع مصر وبنغلادش بسبب اكتظاظ السكان ، فتغذية الماشية ترمي لإهمال الأراضي الزراعية ، وهنا يدخل الإنسان والحيوان في تنافس ، لأن ما يخّصص للحيوان يحرم منه الإنسان ، ولا سيما في الجزر التي تكون الكثافة السكانية فيها عالية حيث لا يكون هناك مكان لتربية الماشية وينجم عن ذلك عوز في استهلاك اللحم ضمن النظام الغذائي لدى الأندونيسيين الذين لا يستهلك الفرد منهم وسطياً سوى ٥ كغ من اللحم في العام ، أو نصف استهلاك الفرد في البلاد العربية غير البترولية او سبع مايستهلكه الفرد في أمريكا الشمالية وأوربا الغربية .

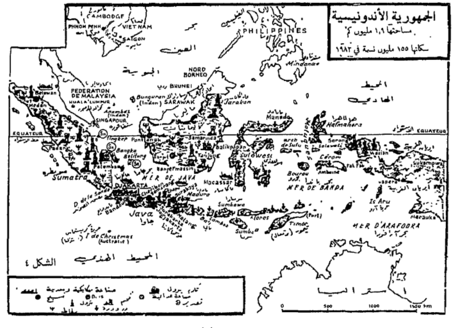
صيد الأسماك :

على الرغم من الموارد الهائلة من الأسماك في البحار الأندونيسية ، فإن استهلاك الأسماك لا يزال ضعيفاً جداً ، أو ٤,٥ كغم للفرد في العام مقابل ٥٠ كغم للفرد الياباني . ويصل مجمل إنتاج الصيد البحري إلى ١,٢ مليون طن بالعام . ويعود سوء استغلال ثروة البحر إلى حالة أسطول الصيد العتيقة ، والذي لا زال يعمل في المرحلة الحرفية .

الصناعة

قطاع الطاقة والمناجم : لقد اهتم الهولنديون على الخصوص بتنمية الصناعة الاستخراجية التي تسمح للبلد المستعمِر بالحصول على المواد الخام التي تفتقر إليها صناعاته التحويلية في بلده . وهكذا كانت أندونيسيا لا تملك عند استقلالها سوى صناعة وطنية جنينية . **والقطاع البترولي** هو الذي كان دوماً يثير أكبر قدر من الاهتمام ، والذي استقطب أكبر قدر من الاستثمارات (شكل ٤) .

ولهذا الاهتمام ما يبرره نظراً للنجاح العظيم الذي حققته حملات التنقيب التي قامت بها ٢٤ شركة أجنبية . أضف إلى ذلك أن احتياطات أنعشت الكثير من الآمال ، ولا سيما في صومطرة وكاليمنتان ،كما أن التنقيب في قيعان البحار القارية والذي بدأ منذ فترة وجيزة يسمح بقياس الرقعة الهائلة التي تنتشر عليها الحقول النفطية . والواقع لاتكون عتبة الصوند وهي أكبر عتبة مغمورة في العالم ، مغطاة بأكثر من قشرة مائية رقيقة ، لأن عمقها المتوسط ٥٥ م أي تماثل ارضية الخليج العربي وأفضل من وضع حقول بحر الشمال . ويتميز البترول الأندونيسي بأنه

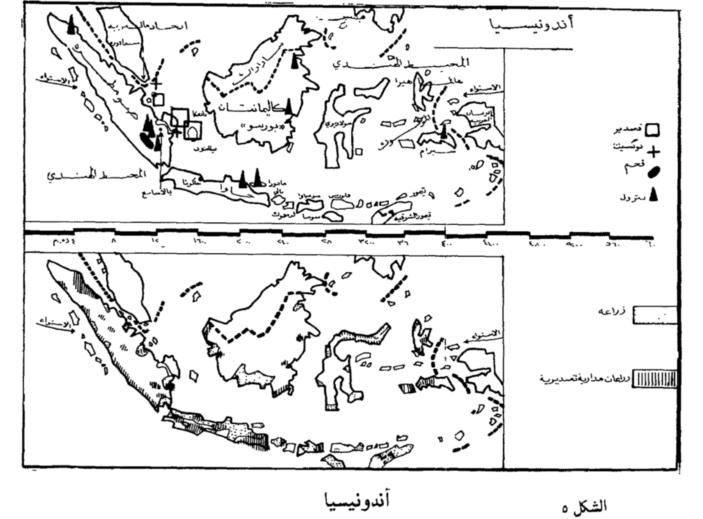


الشكل ٤

أقل تلويثاً من بترول الشرق الأوسط ، لأن محتواه من الكبريت ضئيلاً . وهذه النوعية تستجيب للاهتمامات المتزايدة في الأقطار الصناعية ، وأخيراً فإن الإنتاج يستجيب لأهداف سياسية ، ولا سيا رغبة الأقطار المستهلكة بتنويع مصادر تموينها . وبفضل هذه الظروف المشجعة جداً ، فقد أنتجت أندونيسيا في عام ١٩٧٥ مقدار ٦٣ مليون طن نفط وصعد إلى ٩٩ مليون طن عام ١٩٨١ من حقول كاليمنتان وصومطرة ، في حين لم تنتج البلاد سوى ٣٠٠٠٠٠ طن في عام ١٩٤٦ ، وعلى عكس ذلك تبدو مواردها من الفحم الحجري هزيلاً إذ لا يزيد إنتاجها من هذا النوع من الوقود عن ٢٥٠٠٠٠ طن سنوياً وعلى الخصوص من مناجم صومطرة (شكل ٥) .

أما فيا يتعلق **بالكهرباء** فليس هناك أي أوجه شبه بين الموارد الكامنة وبين الوضع الحالي للاستغلال . فهناك مشاريع كبرى قيد الدراسة لتجهيز الشلالات ولا سيا في صومطرة على نهر آزاهنت Asahant في حين تم تنفيذ مشاريع أخرى مثل مركز جاتيلوبور Jati Lubur على مسافة ١٠٠ كم من العاصمة جاكرتا بالتعاون مع فرنسا . ولا تتميز هذه المشاريع في أنها تزيد الإنتاج الكهربائي فحسب وهو ٣ مليار ك و س في ١٩٧٣ ، والذي يمكن زيادته أيضاً باستخدام النفط كوقود بل سيسمح أيضاً بزيادة المردود الزراعي ، عن طريق توسيع رقعة المساحة المروية ، وتأمين تنظيم صبيب الأنهار في سافلة السدود ، مما يخفف بذلك من أثر الفيضانات الهدامة التي تهدد في كل عام السهول الدنيا . وأخيراً ستسمح الكهرباء للقرى بتربية الأسماك الحوضية على نطاق واسع .

أما بالنسبة **للغاز الطبيعي** فيزيد إنتاجه عن ٣ مليارات م٣ وكان ٢,٤ مليار عام ١٩٧٧ ويكون إنتاجه على نطاق واسع مشتركاً مع إنتاج الوقود السائل . وتتجاوز مخزوناته ٤٠٠ مليار م٣ .



أندونيسيا

الشكل ٥

وفيما عدا المنتجات التقليدية كالقصدير فإن أندونيسيا تملك مخزونات هائلة من فلزات معدنية غير حديدية كالنحاس والنيكل والبوكسيت .

فالقصدير كان معروفاً منذ أمد طويل باعتباره الثروة الرئيسية في البلاد ، ويمثل مكانة لابأس بها في قائمة الصادرات . ويتركز إنتاجه نسبياً في نطاق يقع إلى الجنوب من سنغافورة أي في جزيرة بانغكا ، وجزيرة بيليتونغ Belitung ، وسنغكب Singkep ، وكذلك في البحار الضحلة التي تنبثق منها هذه الجزر .

وتحوي المكامن التحمائية ثلثي الاحتياطات . وفي عام ١٩٤٠ كان القصدير أحد أوائل صادرات البلاد وظل حتى عام ١٩٥٣ ـ ٥٤ وهو التاريخ الذي بلغ فيه الإنتاج ٣٥٠٠٠ طن ، ومن ثم حصل هبوط شديد ، ثم استقر الإنتاج حوالي ٢٠٠٠٠ طن في ١٩٧١ كي يبلغ ٢٥١٠٠ طن في ١٩٧٤ فاحتلت المكانة الرابعة في العالم ، ويعود هذا الانخفاض لنقص الخبرة التقنية لدى الكادرات وصعوبات النقل وتراكب مسؤوليات الإدارة والتسيير بين الدوائر الوطنية الكبرى المكلفة بهذا الاستخراج .

أما **البوكسيت** فيستغل من جزيرة بانتان Bintan في أرخبيل ريو Riau جنوبي سنغافورة . غير أن التجهيز الآلي يعود رغم شدة العناية به إلى الفترة الاستعمارية . وتحتوي الخامات على ٥٥٪ من الآلومين وتتراوح المدخرات بين ٢٠ إلى ٢٥ مليون طن ، وقد تجاوز الإنتاج ١,٢ مليون طن في ١٩٧٤ وارتفع إلى ١,٣ مليون طن في ١٩٧٧ .

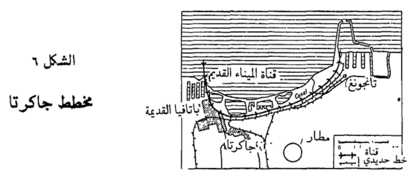
هذا ويستغل **النيكل** حالياً من منجم واحد في جزيرة پومالو Pomalu جنوب شرق جزيرة سيليب Célèbes . وبلغ إنتاج هذا المنجم المكشوف ٢٠٠٠٠٠ طن في عام ١٩٧٢ من الخامات مقابل ٢١٠٠٠ طن من المعدن في ١٩٧٧ ، ولكن عثر على مكمن آخر شمال پومالو قدرت مدخراته بحوالي ١٠٠ مليون طن من

فلزات غناها بالمعدن ٢٪ . وهناك الكثير من الموارد الأخرى التي تنتظر الاستثمارات المالية الضرورية للتنقيب عنها ولاستغلالها كالنحاس الذي قدرت مخزوناته بحوالي ٢٥ مليون طن من فلزات تصل نسبة محتواها المعدني إلى ٣٪ في ايريان الغربية ، والذهب والفضة والمنغنيز والألماس والكبريت والاسفلت الخ .

ويذكر استاذنا روبكان Robequain أن إنتاج أندونيسيا من السكر كان في ١٩٦٠ يؤلف ٥٪ من الإنتاج العالمي ، وكانت تصدر ٧٠٪ من ألياف الكاپوك ، و ٧٩٪ من البهار ، و ٣٨٪ من المطاط و ٣٠٪ من مسحوق النارجيل ومن زيته ، و ٢٣٪ من السيزال ، و ١٧٪ من الشاي و ٢٠٪ من زيت النخيل و ٦٪ من القهوة العالمية .

الصناعات الخفيفة والمنتجة لسلع الاستهلاك : يعود قيام أوائل المؤسسات الصناعية في أندونيسيا لعام ١٩٢٠ ، وكانت بالأساس عبارة عن صناعات تحويلية لمنتجات زراعية كمضارب الرز ، ومصانع المطاط ، والشاي ومصانع تحميص القهوة ، وصناعة السكر إلخ .. وقامت صناعات أخرى بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ لتكمل تلك الصناعات الجنينية ، ولكنها كانت تقوم دائماً على عاتق استثمارات أجنبية غالباً . فقد قام مصنع عجلات (إطارات . كفرات) شركة غوديير الأمريكية في بوغور Bogor عام ١٩٣٤ . وجاءت شركة اونيلفر Unilever وقررت أن تطور إنتاج المرغرين ، وزيوت الاستهلاك والصابون . وظلت كل هذه الأنشطة ولا زالت متركزة في معظمها في العاصمة جاكرتا (شكل ٦) ، ثم قامت مصانع جعة وموّلتها رؤوس أموال ألمانية وبلجيكية . وبدأت صناعة الأدوات الكهربائية بمبادرة من شركة ايفريدي Eveready وصناعة الأحذية بمبادرة من شركة باتا ، وصناعة الأصبغة والورنيش بواسطة شركة Lindeteves و Reynault والحبر بواسطة شركة Talens و Gimborn ، وأنشئت شركة لتجميع الدراجات على يد شركة Bersumij ، كما حصلت أندونيسيا على

ترخيص بصنع القليل من الأدوات الزراعية . أما في مجال الصناعة النسيجية ، فقد أنشئت مجموعة مؤلفة من ٥٠ مؤسسة هولندية عام ١٩٣٣ شركة نسيج جاوا في مدينة تيغال Tegal ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية أقامت شركة Leces مصنع ورق في شرق الجزيرة .



الشكل ٦

مخطط جاكرتا

ويمكن القول أن الصناعة الأندونيسية الحالية لاتزال تستند في معظمها على هذا الأساس .

المواصلات

الملاحة البحرية : نظراً لشدة اتساع الأرخبيل الذي يمتد على مسافة تعادل امتداد الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ، ونظراً لشدة تقاطيع الأراضي ، تلعب المواصلات دوراً أساسياً في حياة البلاد . وتكون المواصلات البحرية هي المسيطرة لأن ٦٠٪ من النقليات من الأطنان الكيلو مترية تتم بواسطة السفن . ولهذا يكون لتجهيز الموانئ ، وتنظيم الأنهار ، وصيانة وتحديث الأسطول التجاري الأفضلية المطلقة على عناصر البنية التحتية infrastructure الأخرى . غير أن التجارة بين الجزر ، بما في ذلك نقليات المساحلة Coasting trade = Cabotage التي تتم انطلاقاً من نقاط في الجزيرة ذاتها ، لم تكن تتجاوز في عام ١٩٦٥ مقدار ٥,٥ ملايين طن . ويدل هذا الرقم على ضعف درجة اندماج

مختلف الجزر على المستوى الاقتصادي . وتتم هذه التجارة بالأساس بواسطة شركتين وطنيتين هما : پلني ، وباخترا عظيغونا ، اللتين قامتا على أنقاض الشركة الهولندية القديمة وهي شركة KPM . ويجب البحث عن الأسباب التي تفسّر هذا الضعف وحتى في قدرة النقل في قلة التجهيزات المخصصة لصيانة الأسطول كالافتقار إلى أحواض إصلاح السفن ، وإلى قطع الغيار ، ونقص الخبرة لدى الموظفين العاملين في مختلف العمليات الضرورية لتشغيل السفن بصورة اعتيادية ، حتى أصبحت أكثرية وحدات الأسطول التجاري الآندونيسي بحاجة لإبدالها بسفن أجنبية ، وقد غرقت إحدى هذه السفن في ١٩٨٢ وذهب معها أكثر من ٢٠٠ ضحية من المسافرين .

وفضلاً عن ذلك فإن أدوات التفريغ والنقل والتخزين كالمنجنيقات والرافعات والأرصفة العائمة والأرصفة والمستودعات ، قليلة بشكل رهيب أو أصبحت غير صالحة للاستعمال أو لا يمكن بلوغها بسبب الإطماء الذي تشكو منه غالبية الموانئ . ويفسّر هذا الوضع الكارثي وجود العديد من السفن الشراعية ، ولكن من عمر قديم ، تعيش وتخلّد نمط ملاحة غير معاصرة وغير مزامنة ، وتقوم بنصيب لابأس به من التجارة ولاسيا نقل الأخشاب وجوز النارجيل . أما الملاحة المحيطية التي تحقق المواصلات مع الأقطار الأجنبية فتتم أساساً بواسطة عملاء أندونيسيا التجاريين ، من سفن إنكليزية ويابانية وأمريكية ونروجية .

وإذا كان عدد موانئ أندونيسيا يناهز ٥٠٠ ميناء موزعة على سواحل الأرخبيل فإن هناك ٦٠ ميناء فقط مجهزة بمياه عميقة مما يسمح لسبعة عشر ميناء منها بأن تكون مفتوحة للتجارة الدولية ، وأخيراً هناك ثلاثة موانئ لها نشاط يتجاوز الأهمية الاقتصادية لظهيرها .

ـ فهناك ميناء تانجو تغپريوك الذي لا يقوم بخدمة العاصمة فحسب بل مجمل القسم الغربي من الأرخبيل .

ـ وميناء تانجيغ پرساك ، وهو ميناء مدينـة سورابـايـا الـذي يلعب الـدور نفسه بـالنسبـة للقسم الأوسـط من أنـدونيسيـا ، أي شرقي جـاوا ، مـادورا ، جزر الصوند ، وجنوب كليمنتان .

ـ ماكاسّار ، وهو الميناء الرئيسي لجزيرة سيليب ويجمع كل تجارة أنـدونيسيـا الشرقية .

وأخيراً هناك بعض الموانئ ذات العلاقات المباشرة مع الخـارج ، وذلـك إمـا لقربها من العـالم الأجنبي مثل مينـاء بيلاوان قرب ميـدان Medan الـذي يواجـه سنغـافورة ومـاليزيـا ، أو للنوعيـة الفريـدة للمـادة الأوليـة المصـدّرة مثل مينـاء پالامپانغ وهو ميناء تصدير النفط المستخرج من جنوب جزيرة صومطرة .

الملاحة النهرية : وتلعب دوراً ثانوياً نسبياً ، بسبب ضعف قابلية الأنهار للملاحة ، ولقلة طولها وعمقهـا ، وكثيراً مـا تظهر الجنـادل في سررهـا التي تمنع أي صعود في النهر . ولكن لبعضها أهمية خاصة لفقـدان أيـة وسيلـة نقل أخرى كما في كالينتان وفي صومطرة وفي إيريان .

النقـل الجـوي : ولا يـزال في حـالـة جنينيـة لأن شركـة GIA غـارودا أندونيسيـان آيرواي ، وهي الشركـة الوطنيـة الكبرى ، وتملـك بضع عشرات من الطـائرات ، تختلف طـاقتهـا وعمرهـا كثيراً لأن أفضـل الطـائرات هي المخصصـة للخطوط الدولية وهناك شركات أخرى خاصة مثل ميرپاتي ، زمرود ، وتملك كل منها ١٢ طائرة تحقق بالتعاون مع شركة غارودا الاتصالات الداخلية .

وفي عام ١٩٧٠ قطعت طائرات غارودا ١٥ مليون كم ونقلت ٣٥٠٠٠٠ مسـافر و ٥٠٠٠ طن شحن .

المواصلات الأرضية : وتتصف بدورها الضئيل نسبيـاً وتقوم بنسبـة ٤٠٪

من مجموع حركة النقل . وتقوم السكك الحديدية بمقدار ١٥٪ و ٢٥٪ على الطرق وذلك لتفاوت نموها على المستوى الإقليمي .

ويشهد وضع الخطوط الحديدية مثل شبكة الطرق ، بكل أمانة ، على مظاهر الاقتصاد الاستعماري .

وهكذا تحوي صومطرة قرابة ٢٠٠٠ كم من خطوط حديدية متباينة من حيث صفاتها التقنية ومواقع قيامها . والواقع ليس هناك من شبكة حقيقية بل عدد من القطع ذات الوظيفة المحلية أقيمت لخدمة مؤسسات تعدينية أو مزارع رأسمالية عصرية . أما جاوا فتملك شبكة حقيقية طولها ٦٦٤٠ كم تصل العاصمة مع مدينة سورابايا في شرق الجزيرة بواسطة طريقين متميزين : الأول يواكب السهول الساحلية الشمالية والثاني يتلوّى بين البراكين ويحاذي الساحل الجنوبي . ولا تكون الشبكة والعربات وسائر التجهيزات قديمة فحسب بل تشكو من تلفها الناجم عن غياب الصيانة .

وعلى الرغم من الجهود المخلصة لصيانة شبكة الطرق فإن ٢٥٪ فقط تعتبر في حالة مرضية ، و ١٥٪ في حالة متوسطة ، والباقي في حالة رديئة جداً . أما عدد السيارات فهو رغم قلته في تزايد ولا سيا بسبب استيراد عدد كبير من السيارات النفعية كسيارات الجيب .

المبادلات الخارجية :

وتشهد مثلما تشهد المواصلات على عدم اكتمال الجهاز الاقتصادي في البلاد . وهي تدل على شدة اختلال في طبيعة المواد المتبادلة فالتصدير يقتصر على المواد الخام . ويحتل البترول بينها مكانة سامية والخامات المعدنية ولا سيا القصدير اللذان يقدمان لوحدهما نصف العملة الصعبة للبلاد . أما باقي العائدات فتأتي من بيع المحاصيل الزراعية التي تباع بحالة قريبة من الخام ، في حين يكون الاستيراد مؤلفاً من مواد مصنوعة أو منتجات استهلاكية .

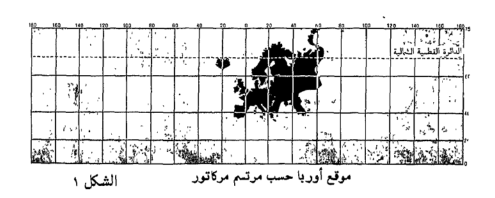
وفي عام ١٩٧٧ بلغت قيمة الصادرات ١٠,٨ مليارات دولار كان النفط يؤلف ٦٠٪ من قيمتها ثم المطاط ، ومسحوق النارجيل (الكوپرا) ، والقصدير والتبغ وزيت النخيل والشاي والقهوة ، أما استيرادات العام ذاته فبلغت ٦,٢ مليارات دولار كانت سلع التجهيز تؤلف ٦٢٪ والمنتجات الغذائية ٨٪ .

الميزان التجاري لعام ١٩٦٩ بملايين الدولارات

الصادرات	٨٣١	الواردات	٦٩٧
منتجات زراعية	٣١٨	مواد أولية ومنتجات صناعية أساسية	٢٤
منها المطاط	١٨٠	سلع تجهيزية	٤٩٩
قهوة	٤٧	سلع استهلاكية	١٠٦
نفط خام	٣٣٣	متنوعات	٦٨
منتجات مكررة كالقصدير	٤٠		

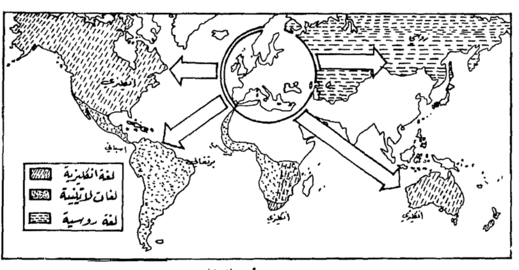
وفي ١٩٨١ بلغت قيمة الصادرات ٢٢٢٦٠ مليون دولار والواردات ١٣٢٧٢ مليون دولار .

ولكن المعضلة الكبرى في أندونيسيا لا تختلف كثيراً عن مثيلتها في الكثير من دول العالم المتخلف ؛ وهي الفساد في الجهاز الحكومي ، أو الرشوة التي تتخذ شكل وباء .



موقع أوربا حسب مرتسم مركاتور

الشكل ١



انتشار اللغات الأوربية في العالم

الشكل ٢

الفصل الخامس

أوروبا[1]

الصفات الأصيلة لقارة أوروبا

أو البر الكبير عند الجغرافيين العرب

أولاً - لقد حظيت أوروبا بدور وموقع لا بديل لها ولا مثيل :

١ - تحتل أوروبا في قلب العالم مكانة متميزة (شكل ١) :

آ - إن أوروبا هي عقدة المواصلات الكبرى في « نصف الكرة القاري » : ففي مقابل الواجهة المحيطية للكرة ، والتي تتألف على الخصوص من المحيط الهادي الفسيح ، نجد « نصف الكرة القاري » الذي يجمع كل الأراضي اليابسة تقريباً . ولما كانت أوروبا تقع ، على وجه الدقة ، في وسط نصف الكرة هذا ، لذا تكون أوروبا إذن ، عقدة المواصلات الكبرى ، أو « قطب » العالم الأرضي . وهكذا تتشابك فيها الطرق البحرية والجوية الرئيسية العالمية على شكل شبكة خيوط شديدة الكثافة . وهي في وضع طيب لاستقبال البضائع من سائر الجهات فضلاً عن أكثر تيارات الأفكار تنوعاً ، وهي بالتالي المكان المتاز في عالمنا ، حيث تستطيع أن تتمخض ، في إثر تماس وتفاعل أكثر المؤثرات تنوعاً ، أقول : أن تتمخض وتنطلق بكل سهولة تلك « الشرارات » الخلاقة التي تتولد عنها أنشطة اقتصادية جديدة أو ثقافية (شكل ٢) .

---

(١) أوربا هي كلمة ناتجة عن تحريف لكلمة فينيقية ، أي كنعانية قديمة وهي إيرب Ereb ومعناها مغرب الشمس .

وعلى خلاف ذلـك فهي تتمتع أيضـاً في وضـع طيب كي تنشر في سـائر أنحـاء العالم ابتكاراتها المادية والفكرية . وهكذا يبدو دورها العالمي مسجلاً في الطبيعـة ولا يمكن انتزاعه منها . ولقد شهـد العـالم كلـه ذلـك ، فبعـد أن تعرضت أوروبـا للـدمـار في أعقـاب حربين عـالميتين متقـاربتين للغـايـة ، واعتقـد الآخرون باحتضارها ، سرعان مانهضت أوروبا وقد تجدد شبابهـا ، وبكل عنفوانهـا ، بشكل أثار الإعجاب ، وخرجت من بين الأطلال لتنبعث أكثر قوة وأكثر إيماناً بـدورهـا العالمي .

ب ـ كما تتمتع أوروبـا بـأفضل بقـاع الأرض من حيث الشروط الطبيعيـة : فعلى الرغم من صغر مسـاحتهـا التي لاتزيـد عن ١٠ مـلايين كيلـو متر مربـع ، أو خمسة ملايين فقط ، إذا استبعدنا الاتحاد السوفياتي منهـا ، أو مـا يعـادل ٣ ٪ من مساحة اليابسة ، فإن هذا « الرأس المتقـدم من قـارة آسيـا » يحوي مـالا يقل عن ٥٠٠ مليون نسمة (عدا الاتحاد السوفيتي) ، أو ما يعـادل ١٢ ٪ من سكان العـالم . وتكون أوروبا إحدى الأمكنة المتميزة في العالم حيث كانت الطبيعـة أكثر كرمـاً . فهي تقدم لسكانها قائمة طويلة من الموارد ، وهـذا على خلاف القـارات الأخرى ، إذ تكاد تكون قابلة للسكنى في كل أرجـائهـا ، ذلـك أن أبعـد نقـاطهـا شمالاً ، هو رأس الشمال ، يقع على عرض ٥٧٠,١٠ ، كما أن أبعد نقطة فيها بـاتجـاه الجنوب هو رأس ماروكي (أي المغربي) في إسبانيـا ، المطل على مضيق جبل طـارق ، أو بحر الزقاق ، والواقع على درجة عرض ٥٣٦,٢ . وأبعد النقاط بـاتجـاه الغرب هو رأس روكا في البرتغال على خط طول ٥٩,٣٠ غرب غرينيتش ، وهكذا لاتملك أوروبـا أكثر من ثلاث حزم ساعية مقابل ١١ في الاتحاد السوفيـاتي . وهكـذا تقع كلهـا في النطاق المعتدل .

ومن نـاحيـة أخرى إذا نظرنـا إلى أبعـادهـا ، وتـوزع عنـاصرهـا الطبيعيـة وجدناها أفضل بقاع العالم من حيث كونها على « مقياس الإنسان » .

ولعل أحسن أوراقها الرابحة هي أنها أكثر بقاع العالم سماحـة للبحر بـالتسلل

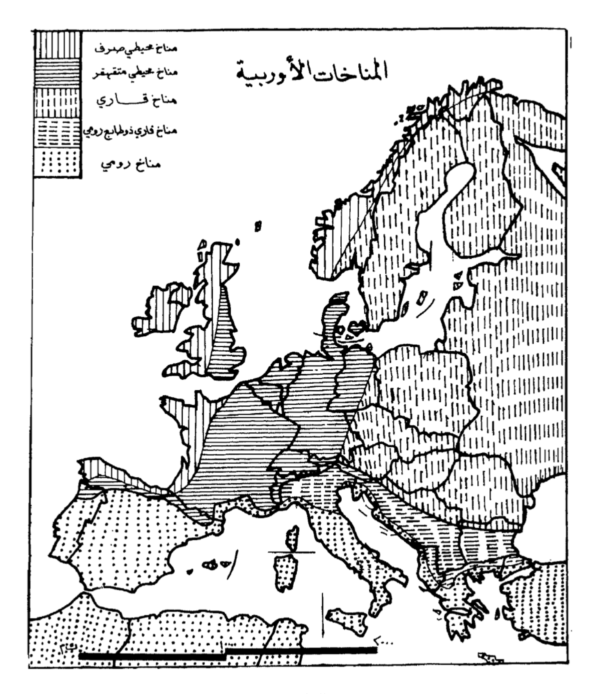
وبالنفاذ إلى داخل أراضيها بعمق . وهكذا نجدها من الشمال ومن الغرب ومن الجنوب ، تعرض ثلاث واجهات تكون تسنّناتها العريضة مواتية للنشاط البحري .

وهكذا يبلغ طول سواحلها ٣٧٩٠٠ كم ، كما أن المحيطات والبحار التي تتوغل في القارة وتنتهي على شكل بحار داخلية وخلجان عميقة تعمل على تقطيع القارة إلى جزر وإلى أشباه جزر ، عملت منذ أبعد العصور التاريخية السحيقة ، على أن تمنح أوروبا ميّزة لامثيل لها .

أما المناخ فهو ميزة أخرى في أوروبا ، فإذا استثنينا الشمال الأقصى أو الجنوب الأقصى ، فإن درجات الحرارة تظل محصورة ضمن قيم وسطى ولا تفرض على الإنسان وعلى أنشطته أي عائق حقيقي . وعلى كل ذلك فإن المناخ الأوروبي يقدم بفضل تنوعه تنوعاً في الإمكانات ، ولاسيا الزراعة منها ، والتي يبدو حشدها في مثل هذه الرقعة المحدودة ظاهرة استثنائية في العالم (شكل ٣) .

لقد تم تسجيل أعلى درجة حرارة مطلقة في اشبيلية وكانت ٥١ درجة ، أما الحرارة الدنيا فقد سجلت في اوست تسيلما حوالي - ٥٧١ . أما الحرارة الوسطى المئوية فنجدها بالتالي إلى جانب متوسطات الأمطار :

اسم المدينة	الحرارة الوسطى السنوية	متوسط الأمطار السنوية (مم)	اسم المدينة	الحرارة الوسطى السنوية	متوسط الأمطار السنوية (مم)
أثينا	٥١٧,٧	٣٤٩	براغ	٩,٢	٤٩٠
روما	١٥,٤	٨٠٣	صوفيا	٩,١	٦٥٠
نيس	١٥	٨٥٧	برلين	٩,١	٥٧٠
استانبول	١٤,٣	٧٣٣	أوسلو	٥,٨	٦٤٥
مدريد	١٣,٣	٤١٩	ريكياڤيك	٣,٩	٨٧٠
بلغراد	١١,١	٦١٩	موسكو	٣,٩	٥١٣
بودابست	١٠,٦	٦٣٨	هامرفست	٢,١	٥٥٨
ڤيينا	٩,٦	٦٨٠	أرخانجلسك	٠,٣	٣٨٧


المناخات الأوربية
مناخ محيطي صرف
مناخ محيطي متقهقر
مناخ قاري
مناخ قاري ذو طابع رومي
مناخ رومي

الشكل ٣

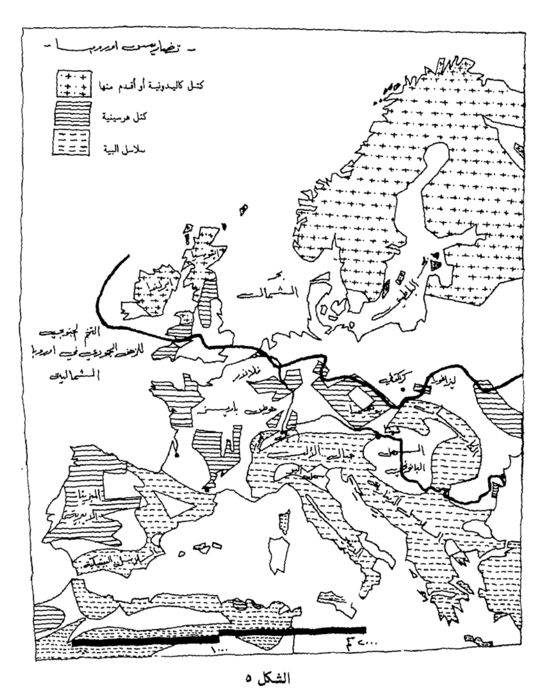
كما تبدو أوروبا متمتعة بطبيعة تضريسها ذاته . فقد تعرضت **جبالها** القديمة الشمالية العائدة للالتواءات الكاليدونية ، وجبالها المركزية الناجمة عن الالتواء الهرسيني ، تعرضت لحتّ érosion شديد ، سوّاها أكثر من مرة ، أو تعرضت إلى انهدامات ، بحيث لاتخلق اية صعوبات جدّية في وجه المواصلات . ومن ناحية أخرى تنفتح هاتان الزمرتان من الجبال على سهل فسيح يتجه من الغرب نحو الشرق ، يؤلف طريقاً ممتازاً بين أوربا الغربية ، وبين أوربا الشرقية (شكل ٤) . أما جبالها الجنوبية الناتجة عن الالتواء الألبي (شكل ٥) ، والتي تؤلف ارتفاعاتها أحياناً عائقاً أمام المواصلات ، فإنها تكون في أكثر الأحيان « مهوّاةً » بأودية عريضة وعميقة كيّفتها الجموديات الرباعية ، والتي تستغلها طرق المواصلات بكل سهولة . ونجد أخيراً أن **السهول** هي المتفوقة على نطاق واسع ، وتتمثل بالحوض الباريسي والسهول الجرمانية البولونية الكبرى حيث تمتد الأراضي الزراعية الغنية المؤلفة من أحواض رسوبية ومن سهول لحقية ، في حين نجد في الجنوب سهول مقدمات السلاسل الألبية والمتمددة بين السلاسل الجبلية العالية مثل : سهل الإيبر ، وسهل البو ، والسهل الهنغاري الخ ، ولهذا تندر الأراضي العقيمة ، وحتى في الجبال ، كما يكون تنوع المشاهد غير محدود .

وأخيراً إذا كانت أوروبا تفتقر إلى البترول ، باستثناء حوض بحر الشمال ، فإن علاقاتها البحرية قادرة على تلافي ذلك بكل سهولة ، كما أصبحت تستغل منذ القرن التاسع عشر مكامن غزيرة **من الفحم** ، مثلما تملك قدرة كهرمائية كامنة عظيمة . وهكذا استطاعت أن تكون رائدة تلك **المدنيّة الميكانيكية** ، أم الرخاء والثراء ، والتي يجهد العالم قاطبة سعياً إلى بلوغ مثلها .

٢ ـ هذا كما تكون أوروبا « منفتحة على العالم » من حيث طبيعتها ومن حيث حاجتها : فبينما ظلت المدنيّتان الكبيرتان في العالم الآسيوي ، أي الهندية والصينية ، مقتصرتين على الإطار الأرضي الضيق نسبياً ، الذي نشأتا فيه ولم


خارطة أوروبا التضريسية العامة
بحر الشمال
الأطلنطي
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
البحر الأدرياتيكي
أنقرة

الشكل ٤



الشكل ٥

- تضاريس أوروبا -

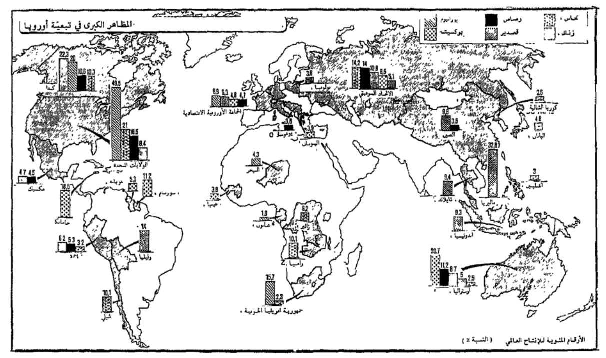
تخرجا منه ، فإن المدنية الأوروبية كانت **مدنية فاتحة** توطدت دعائمها فوق كل القارات ، وإن كان ذلك بصورة متفاوتة .

فقد عمل الفكر الأوروبي ، وريث العقلانية الإغريقية ، على تجريد قوى الطبيعة من أية صفة خارقة أو سحرية ، فأصبحت خاضعة لقوانين ، وما على الإنسان إلاّ أن يكتشفها كي يروّضها ، وليخضعها وليجعلها في خدمته . ومن هذا نستخلص ثلاثة ملامح نوعية في « العبقرية الأوروبية » وهي :

- حب الإكتشاف .
- الميل إلى العلوم التطبيقية .
- ذوق التنظيم والانضباط .

وقد كان من جراء تحالف هذه الملامح المذكورة مع النزعة البحرية التي منحتها الطبيعة لقارة أوروبا ، أن حدث ذلك التوسع الاستعماري المذهل بين نهاية القرن الخامس عشر على أيدي البرتغاليين والإسبان ، وحتى فجر القرن العشرين على أيدي الإنكليز والفرنسيين والذي عمل على إخضاع معظم أجزاء العالم لسيطرة أوروبا تدريجياً من الناحية السياسية ، ذلك الاستعمار ، الذي لاتزال ذيوله الاقتصادية والفكرية والمادية ماثلة حتى الآن ، ويجنح تقليد أوروبا في أزيائها وأنماط معيشتها ، وقبل كل شيء في سفاسفها ، نحو الاستفحال لدى الشعوب التي خضعت سابقاً لأوروبا ، ولاسيا في الأمور التي لاتتطلب جهداً عقلياً عنيداً ، كوسائل الترفيه والترف والمتعة الرخيصة ؛ إذ يقول (غاستون بوتول) ، العالم الاجتماعي الفرنسي الكبير : « من السهل على الشعوب المتخلفة استيراد ثمار الحضارة الأوربية بكل سهولة ، ولكنها تعجز غالباً عن استيراد بذورها » .

ولكن بعد أن حكمت أوروبا العالم ، أصبحت في حالة تبعيّة له بعد تحرره سياسياً (شكل ٦) .



الشكل ٦

اقتبست الإحصائيات المذكورة أعلاه والمشار إلى كل مادة أولية منها بنسبة إنتاجها المئوي العالمي من « حولية الفلزات والمعادن » لعام ١٩٧٢ ولم نذكر في كل حالة سوى الأقطار المنتجة الرئيسية . وهي تغطي بالنسبة للقصدير ٨٥,٤٪ من الإنتاج العالمي . ومن الرصاص ٧٤٪ ، ومن البوكسيت ٨١,٥٪ ، ومن الزنك ٧٨,٦٪ ، ومن النحاس ٨٢,٩٪ . أما فيما يتعلق بالأورانيوم فإن إحصائيات البلدان الاشتراكية غير معروفة لهذا اقتصرت الإحصاءات على إنتاج العالم الغربي . أما مقدار ١٣٨٠ طن في الجماعة الاقتصادية الأوروبية والتي تمثل ٦,٩٪ فتصدر عن المناجم الفرنسية . وهنا نلاحظ التفوق الذي تتمتع به الأقطار الأربعة التالية في العالم وهي : الولايات المتحدة ، كندا ، استراليا ، والاتحاد السوفيتي والتي تملك عملياً مروحة واسعة من المواد الأولية التي أصبحت نادرة أكثر فأكثر وعلى خلاف ذلك نجد تبعية أوروبا صارخة واضحة .

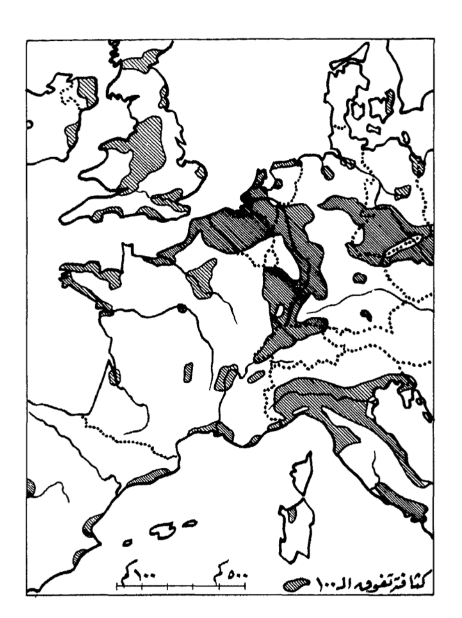
فبعد أن أقامت اقتصادها على أساس من المبادلات بين القارات ، لم تعد قادرة اليوم أن تستغني ، بعد زوال السيطرة الاستعمارية المباشرة ، عن المواد الأولية ولا عن أسواق التصدير الواقعة فيما وراء البحار ، ذلك أن خمسي التجارة العالمية العابرة للمحيطات إنما تتم بين أوروبا وبقية العالم . ولكن إذا اقتصرت أوروبا على موارد أرضها فحسب ، فإنها سرعان ماتسقط في وضع ميؤس منه ، ولكنها تستعيض عن فقرها الطبيعي بغناها التكنولوجي وبسمّوها العلمي .

٣ ـ غير أن أوروبا ليست متجانسة : ففي الجنوب والشرق لاتزال تحتفظ ببعض سمات التأخر :

والواقع لم تكن الحيوية الأوروبية لتتفتّح وتنتشر إلا في أوروبا الشمالية الغربية وأوروبا الوسطى ، إذ لم تشترك أوروبا الجنوبية والشرقية أبداً في إبداع هذه المدنية ونشرها ، إلا بصورة غير منتظمة ومحدودة جداً . .

آ ـ وتتمركز قدرة أوروبا في أوروبا **الوسطى والشمالية والغربية** . فعلى طول محور يمتد من بريطانيا إلى بوهيميا في أوروبا الوسطى ، تتجمّع أكثر الكتل السكانية كثافة (شكل ٧) ، وأكثر الزراعات غنى ، وأكثر الصناعات والموانئ فعالية ونشاطاً ، وأكبر عدد من المختبرات والأبحاث والاختراعات . ويمتد النشاط العظيم هذا جنوباً ، ليطغى على القسم الأعظم من فرنسا وعلى إيطاليا الشمالية ، وتتطاول نحو الأقطار الاسكنديناڤية حيث يكون الثراء والمدنية الراقية إلى جانب كثافة سكانية ضعيفة .

ب ـ أما أوروبا المتوسطية ، أو الرومية ، التي كانت تؤلف الواجهة النشيطة من أوروبا في العصور القديمة وفي العصر الوسيط ، فقد أصيبت بالركود لمصلحة الواجهة الأطلنطية من أوروبا ، وذلك ابتداءً من الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرن السادس عشر ، ولم تسترد أكثر من فاعلية ضامرة ، حتى بعد فتح



الشكل ٧

أوروبا الغربية نطاق الكثافات الشديدة

قناة السويس . ولما كان هذا القسم من أوروبا يفتقر إلى الفحم ، فهو لم يساهم في الثورة الصناعية الكبرى خلال القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من كثرة السكان في أوروبا الجنوبية ، وذلك في الأرياف على الأقل ، فإنها لا تزال تحمل ، كما في

جنوب إيطاليا مثلاً ، بعض الملامح التي تتصف بها الأقطار المتخلفة[1].

جـ ـ **أما أوروبا الشرقيـة** فهي أقل أجزاء أوروبـا انفتـاحـاً على البحر . فهي تمتد تدريجياً في هذه الكتلة القـاريـة الكبرى ، أي تتوغل في أوراسيـا ، ممـا جعلهـا تتعرض في المـاضي ، أكثر من مرة ، لغـزوات جحـافـل البرابرة الأشـداء ، القادمين من سهوب آسيا الوسطى ، ابتداءً من عصر آتّيلا سنـة ٤٣٤ م حتى زحف جنكيزخان وتيمورلنك في مطلع القرن الخـامس عشر . وقـد كانت تعيش في بنيـة اجتماعيـة شـديـدة التسلسـل حيث كان يهمن كبـار مـلاّكي الأراضي ، إلى أن ظهر النظام الشيوعي في أعقاب الثورة البلشفية في ١٩١٧ في روسيا والذي انتشر ليشمل سائر أقطار أوروبا الشرقية بعد عام ١٩٤٥ . أما من وجهة النظر الاقتصادية ، فلم تكن أوروبا الشرقية أكثر من خزان بشري ، ومصدر للمواد الغذائية أو لمواد الخـام والتي كانت أوروبـا الغربيـة والوسطى تستمـد منهـا حـاجـاتهـا . ولا تـزال تحـوي بالتالي ، حتى الآن ، ملامح من تخلف لم تتخلص منها تمـامـاً إلا منـذ فترة قريبـة جداً .

ثـانيـاً : بعـد شرور وأضرار الحربين العـالميتين تسير أوروبـا نحـو الوحدة :

بعد أن ظلت أوروبـا ، ولمـدة طويلـة ، دون منـافس في العـالم ، خـامرهـا اعتقاد في أنها قادرة على الانهاك ، دون عقاب ، في نزاعات داخلية وانقسامـات . فلم تتعرض أية قارة لمثل الحروب التي شنتها أقطار أوروبا على بعضها بعضـاً حتى كادت تشرف على المـوت في أعقـاب الحربين العـالميتين الأخيرتين ، كما فرضت

---

(١) أو الأقطار الناقصة النمو ، أو النامية ، أو السائرة في طريق النمو ، أو دول العالم الثالث ، أو عالم الجنوب ، أو الأمم الكادحة ، أو الأمم المتأخرة .

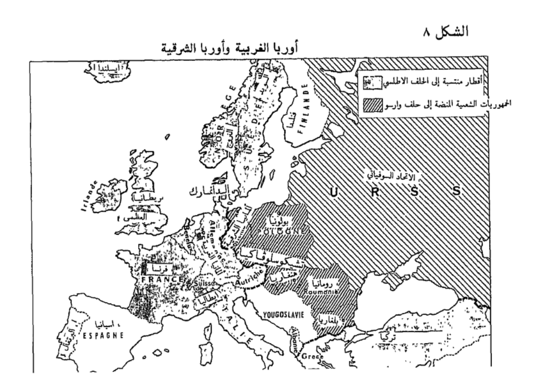
الحرب العالمية الثانية عليها « الستار الحديدي » ، وهو أكبر شرخ عميق شهدتـه في تاريخها كله . وفي هذا العصر الذي أصبحت فيه القوة من نصيب دول ذات أبعـاد كبيرة ، فإن تجزئة أوروبا سيـاسيـاً جعل منهـا « محميـة » أو أحيـانـاً « تـابعـة » للولايات المتحدة من ناحية وللاتحاد السوفييتي من نـاحيـة أخرى . ونتيجـة هـذا الظرف الفريد نشأت محاولات التجمع .

١ ـ لقد أراد الكوميكون تجميع أقطار « الديموقراطية الشعبية » :

لقد أصبحت كل أقطار أوروبا الشرقية ، فور انتهاء الحرب العالمية الثانيـة ، عبارة عن « ديموقراطيات شعبية » كان النظـام الشيوعي فيهـا منقولاً حرفيـاً عن النظام المعمول به في الاتحاد السوفياتي . وامتدت رقعتها نوعاً مـا لتشمل سيليزيـا البـولـونيـة وألمـانيـا الشرقيـة وتشيكـوسلـوفـاكيـا ، أي على أوروبـا الـوسطى (شكل ٨) ، التي سبق لها أن ازدهرت فيها الصناعة الحديثة . ولكن إذا استثنينا هذه القطاعات الهامشية ، فإن الديموقراطيات الشعبية ورثت الجزء الأكثر تـأخراً في أوروبا . وهنا بُذلت جهود كبيرة في سبيل التحديث الاقتصادي .

الشكل ٨

أوربا الغربية وأوربا الشرقية



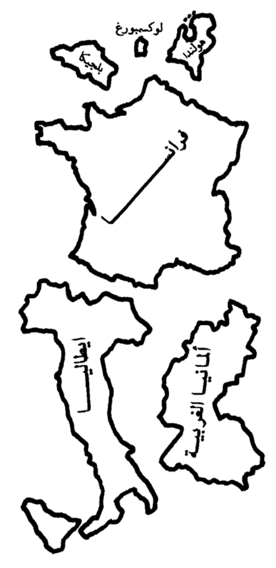
وقد قادت صلة النسب بين هذه الأنظمة أو الأهداف التي تسعى إليها منذ ١٩٤٩ ، إلى أن تشكل ، بتوجيه من الاتحاد السوفياتي ، **مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل** ، الذي غلبت عليه تسمية الكوميكون اختصاراً . وقد استهدف هذا الكوميكون ، عن طريق التنسيق بين مخططات كل قطر ، ومن خلال تخطيط المبادلات بين سائر أعضائه ، إلى نوع من تخصّص في كل قطر من أقطار أوروبا الشرقية حسب قدراته وحسب حاجات الدول الأخرى . غير أن هذه المؤسسة تعرضت إلى محن متنوعة ، وتعرقلت أنشطتها بسبب يقظة القومية مجدداً في أوروبا الشرقية ، وعجزت عن إقامة سلطة فعّالة . ولم تستطع أبداً أن تقترب من « اندماج » حقيقي كالذي تحاول بلدان السوق المشتركة أن تقيمه في الغرب .

٢ ـ أوروبا الست : محاولة اندماجية :

وعلى خلاف ذلك ترمي الدول السبع وهي : ألمانيا الاتحادية ، وفرنسا ، وإيطاليا ، ودول البينولوكس الثلاث ، إلى انصهار اقتصادياتها بصورة تدريجية وثابتة (شكل ٩) .

آ ـ فمنذ ١٩٥١ أقامت **الجماعة الأوروبية للفحم والفولاذ** : أو « ج . أ . ف . ف C. E. F. A » نظام حرية الانتقال ، دون أي رسم جمركي على مجمل أراضي الدول الست ، وذلك بالنسبة للفحم وخامات الحديد والصهير (فونت) والفولاذ ، والذي تنتج منه قرابة ١٠٠ مليون طن ، أي ما يعادل إنتاج الاتحاد السوفيتي ذاته . ولأول مرة أصبحت كل دولة تحوّل جزءاً من سيادتها إلى **منظمة فوق قومية** ، أي إلى **السلطة العليا** ، التي تتخذ من لوكسمبورغ مقراً لها ، وتنطبق حرية الانتقال هذه على الأشخاص أيضاً ، وهذا بين دول كانت متعادية

سابقاً ، فمتى تتوصل الدول العربية « الشقيقة » لمثل هذا المستوى ؟ بل متى تكف عن الاحتراب[1] ؟



الشكل ٩

دول السوق الأوروبية المشتركة

---

(١) كقول البحتري

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكّرت القربى ففاضت دموعها

ب ـ أما **الجماعة الاقتصادية الأوروبية** : (ج . أ . إ) أو C.E.E والتي تـدعى عـادة « **السـوق المشتركـة** » فقـد ظهرت في عـام ١٩٥٧ نتيجـة لمعـاهـدة رومـا ، وامتـدت منظومـة « ج . أ . ف . ف » لتشمل كل اقتصـاد دول أوروبـا الست . وألغيت رسوم الجمارك على مراحل ضمن منظومـة « ج . إ . أ » ، في حين كانت التعرفة الجمركية باتجاه الخارج تقوم تدريجيـاً ، بيـد أن « ج . إ . أ » ليست عبارة عن اتحاد جمركي ، بل تحـاول التقـدم كي تجعل الشروط الاجتماعيـة والماليـة والتشريعية في الإنتاج متماثلة في كل الأقطار المنضمة إليها ، ولتحقيق حريـة تنقل الأيدي العاملة ورؤوس الأموال . إذن ترمي الجماعة إلى **اندمـاج حقيقـي** وكلي لاقتصاد الدول الست ، في الوقت الذي تسعى فيه لإقـامـة سوق يضم ٢٢٥ مليون نسمة .

هـذا وتكـون « ج . إ . أ » شـأن « ج . أ . ف . ف » تحت إدارة منظمــة **فوق قومية** supranational ، هي اللجنة **الأوروبية** ، ومقرها في بروكسل .

وتمثـل السـوق الأوروبيـة ، فـوق رقعـة أكثر ضيقـاً بكثير ، قـدرة زراعيــة وصنـاعيـة تقف على قـدم المسـاواة مـع قـدرة كل من **الاتحـاد السـوفيـاتي** أو **الولايات المتحدة الأمريكية** . وقد ظهرت آثاره عن طريق النتائج الناجحة في ميدان المنافسة وعن طريق الاتفـاقيـات الـدوليـة بين الشركات ، وعن طريق سوق فسيحة متوفرة أمام كل مؤسسة ، هذا بالإضافة إلى **نجـاحـات اقتصـاديـة سريعة** .

غير أن السـوق المشتركـة التي حققت إنجـازاً متقـدمـاً جـداً على المستـوى الصنـاعي ، تعـاني ، على عكس ذلـك ، من مصـاعب خطيرة في سبيـل تـوحيـد **زراعة** الـدول الست ، ذلـك أن مزارعي كل قطر يتمتعون بـدعم وتوجيـه مختلف عن القطر الآخر وذلك حسب سياسة الدول الوطنية . كما يجب أخيراً التصـدي في

يوم قريب **لمشكلة العملة المشتركة** ، التي ستكون تتويجاً لهذه المساعي ، ولعل **الأورودولار** هو أحد مظاهر هذا الاتجاه .

جـ ـ أما **الأوراتوم** ، ويعني الجماعة الأوروبية للطاقة الذرية ، فقد تأسست بموجب معاهدة « ج . أ . إ » ذاتها . وترمي هذه المؤسسة ، عن طريق المشاركة في البحث النووي ، وفي الموارد من المواد المشعة ، إلى تسهيل ازدهار إنتاج الطاقة النووية ، التي لا يزال استخدامها في الطاقة بعيداً عن متناول الأمم الصغرى ، ولتوفير تسهيلات لأوروبا الست مماثلة لتلك التي يتمتع بها كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، ولتحسين حصيلتها الطاقية التي جعلها فقر حقولها النفطية تشكو من العجز ومن التبعية .

د ـ انصهار المنظمات الثلاث : وقد ظهر ذلك أمراً محتوماً منذ نهاية الستينات ، وكان ذلك تجسيداً لنجاح مجمل عملية الاندماج الاقتصادي الذي سبق لنا ذكره .

٣ ـ من أوروبا « الست » إلى أوروبا « التسع » في ١٩٧٣

لما كانت السوق المشتركة عبارة عن خير وبركة على أعضائها ، وشوكة في حلق الدول التي لم تشترك فيها ، فقد دفعت الضرورة إلى توسيع مجاله عن طريق انتسابات جديدة ، حتى لقد انضمت إليه اليونان وتركيا ومختلف أقطار أفريقيا السوداء . غير أن إمكانات توسيعه تتعلق قبل كل شيء ببريطانيا العظمى ، التي تظل الدولة الأوروبية الكبيرة التي ظلت بعيدة عنه .

فبعد أن كانت إنكلترا مرتابة بل ومعادية ، وذلك بسبب تقاليدها و« جزرّيتها » وبقوة مصالحها غير الأوروبية ، ردّت على تشكيل « ج . أ . إ » بأن شكّلت في ١٩٥٩ « **التجمع الأوروبي للتجارة الحرة** » ولم يكن ذلك

أكثر من رد فاتر ومحدود ، بشكل ضيق في المجال التجاري ، على نشاط « ج . أ . إ » .

ولكن قررت المملكة المتحدة وإيرلندا والدانمارك في ١٩٧١ العزوف عن سياستها السابقة والتفاوض في سبيل **الانتساب** إلى « ج . أ . إ » وانتسبت فعلاً في الأول من كانون الثاني ١٩٧٣ .

وتؤلف هذه الكتلة الأوروبية « التسع » قوة تزيد عن ٣٢٥ مليون نسمة ، تنتج ٤٢ مليون طن من القمح وتملك ٧٥ مليون رأس من الأبقار ، و ٢٧٥ مليون طن من الفحم ، و ٨٠٠ مليون طن من القدرة على تكرير النفط ، وتنتج أكثر من ١٢٠٠ مليار ك و س من الكهرباء وتنتج حوالي ١٥٠ مليون طن من **الفولاذ** ، فضلاً عن ١٣ مليون سيارة في العام .

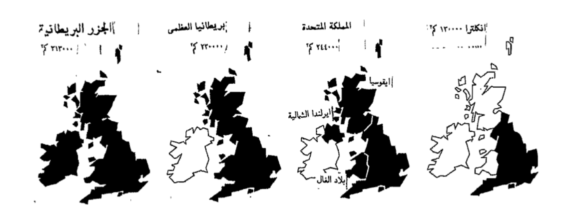
وهكذا تبدو قدرة أوروبا « التسع » معادلة **إحصائياً** بصورة محسوسة **للأرقام المماثلة في الولايات المتحدة** ، وبل وتتجاوزها أحياناً ، غير أن قوة أوروبا « التسع » تتعلق بالواقع **بدرجة تآخذها** ، مما يجعل الحفاظ عليها ودعمها ، بالتالي أكثر صعوبة ، كلما كان عدد الأعضاء المنتسبين أكبر عدداً . ومنذ ١٩٧٤ أخذت بريطانيا تعيد النظر في قضية انتسابها لاعتبارات سياستها الزراعية ، كما أن المصاعب الاقتصادية العالمية لاتعمل على تقوية اتحاد التسع ، بقدر ماتدفع بالأحرى نحو « ليعمل كل حسب مصلحته » .

☆ ☆ ☆

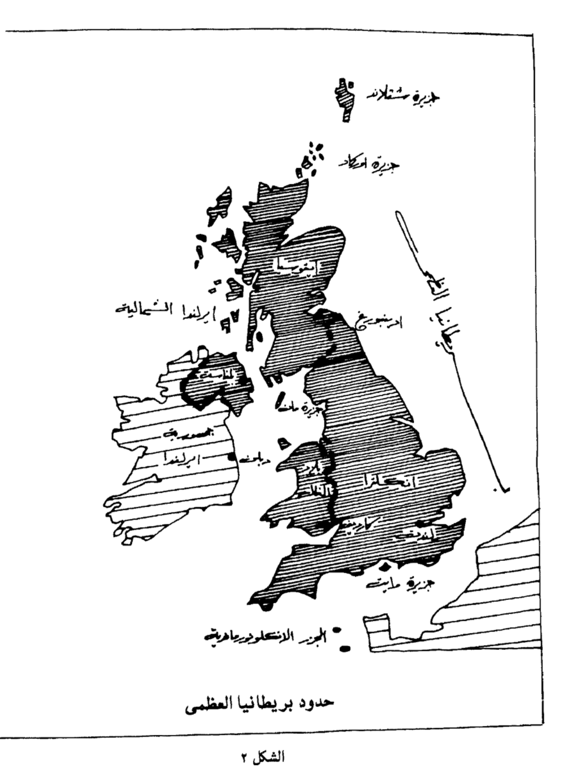
الجزر البريطانية

تبلغ المساحة الكلية للجزر البريطانية ٣١٣٠٠٠ كيلومتر مربع ، وتضم جزيرتين رئيسيتين : جزيرة **بريطانيا العظمى** ، ذات الشكل المثلثي الكثير التعاريج ، والتي ينفصل عنها عدة أرخبيلات : في الشمال جزر شتلاند ، وجزر أوركاد ، وجزر هبريد ، وفي الغرب جزر مان وجزر آنكلسي ، وفي الجنوب جزر سيللي ، وجزيرة وايت ، والجزر الأنكلو النورماندية ، وأهمها جيرسي وغيرنيسي القريبة جداً من سواحل فرنسا . وتبلغ مساحة هذه المجموعة ٢٣٠٠٠٠ كم٢ . أما جزيرة **إيرلندا** ذات الشكل الرباعي ، فلا تزيد مساحتها عن ٨٣٠٠٠ كم٢ (شكل ١ وشكل ٢) .

وتتجمع الجزر البريطانية فوق عتبة قارية تغمرها مياه البحر على عمق



الشكل ١



حدود بريطانيا العظمى

الشكل ٢

لا يزيد عن ٢٠٠ م ، وتنفصل عن القارة بمضيق بادوكاليه ، الذي لا يزيد عرضه عن ثلاثين كيلومتراً ، غمرته المياه في مطلع الدور الرابع . ولا زالت هذه الجزر تحتفظ بأهم الصفات الطبيعية الأوروبية ، كما تتميز بتعقيدها الأثنوغرافي الناجم عن تعاقب الفتوحات عليها ، فقد سكنها السلتيون والجرمان بالإضافة إلى التجزؤ السياسي الناجم عن تاريخها المعقد .

فالمملكة المتحدة ومساحتها ٢٤٤ ألف كم٢ ، تضم إنكلترا ومساحتها ١٣٠٠٠٠ كم٢ ، وإيقوسيا ومساحتها ٧٩٠٠٠ كم٢ ، وبلاد الغال ٢١٠٠٠ كم٢ ، وجزيرة مان والجزر الإنكلو النورماندية ، ويؤلف المجموع ما يسمى بريطانيا العظمى ، كما تحتفظ بإيرلندا الشمالية أو أولستر ومساحتها ١٤٠٠٠ كم٢ . أما ما تبقى من جزيرة إيرلندا ، فيؤلف جمهورية إيرلندا ومساحتها ٧٠٢٨٠ كم٢ ، وقد انفصلت عن المملكة البريطانية عام ١٩٢١ .

وبعد أن كانت المملكة المتحدة أول دولة عالمية في القرن التاسع عشر ، أصبحت في القرن العشرين إحدى كبريات الدول المغلوبة اقتصادياً أمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي واليابان ، ولكنها تقاوم هذا التقهقر بعناد وبشكل ناجع ، وفي عام ١٩٧٦ كان الدخل الفردي في إنكلترا ٤٠٧٠ دولاراً مقابل ٦٣٥٠ في فرنسا و ٦٨٧٠ في ألمانيا الغربية .

☆ ☆ ☆

أسس القوة البريطانية

نستطيع أن نميز من خلال تعقيد التقنية والتجارية والرأسمالية في هذه الدولة ، التي تعتبر أقدم قلاع الحضارة الغربية ، ثلاثة عناصر تؤلف أسس هذه الدولة ، التي لا تزال تحتل المكانة الثالثة بالعالم وهذه الأسس هي : علاقاتها ومواصلاتها ، غنى إنتاج الطاقة ، وأخيراً البنية المهنية والتوزع الجغرافي لسكانها المتكاثفين .

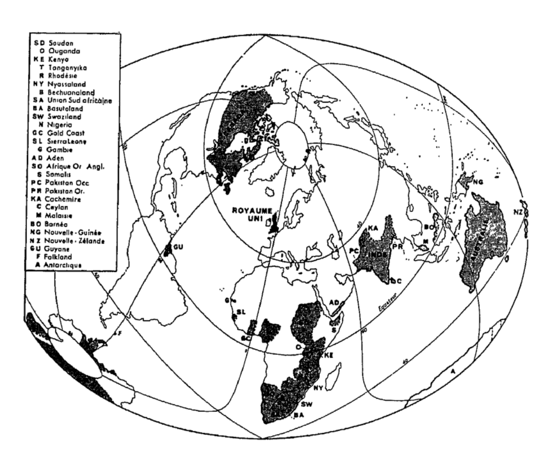
أهمية علاقاتها ومواصلاتها :

فهي تملك أسطولاً تجارياً ، يؤلف أداة المبادلات المتناسبة مع الامبراطورية البريطانية ، ومع تماسك منطقة الاسترليني ، مما يجعله ذا مقياس عالمي لأنه يحتل المرتبة الثالثة .

أ ـ الامبراطورية البريطانية : إن الاكتشافات الجغرافية الكبرى في القرن السادس عشر ، وتطور وسائل المواصلات في القرن الماضي ، هي التي تفسر سبب كون الامبراطورية البريطانية أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ العالم . فهي تغطي مساحة قدرها ٢٧ مليون كيلومتر مربع ، أو خمس مساحة اليابسة ، وتضم أكثر من ٩٢٥ مليون نسمة ، أو ربع سكان الأرض ، في حين لا تؤلف مساحة الجزر البريطانية سوى ٠,٨ ٪ من مجموع مساحة هذه الامبراطورية ، كما أن عدد سكان بريطانيا يؤلفون أقل من عشر سكان هذه الامبراطورية .

هذا وتكون الكيانات السياسية متنوعة جداً في هذه الامبراطورية

(شكل ٣) . فأكثر الأقطار تطوراً ، تؤلف دولاً مستقلة أو دول الدومينيون ، والتي تقف على قدم المساواة مع المملكة المتحدة ، كي تشكل الكومونولث



الشكل ٣

الامبراطورية البريطانية في ١٩٤٥

البريطاني الذي ظهر للوجود عام ١٩٢٦ ، والذي كان مقتصراً على دول ذات سكان من أصل أوروبي وذوي حضارة أوروبية أيضاً ، مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا واتحاد جنوب أفريقيا (الذي انفصل عن الكومونولث في عام ١٩٦٠) وبعد الحرب العالمية الثانية ، انضمت إلى رابطة الشعوب البريطانية دول جديدة وهي : الجمهورية الهندية والباكستان التي انفصلت في مطلع السبعينات

وسيلان ، ثم تلاها اتحاد ماليزيا وغانا ونيجيريـا وسيراليون وقبرص وجـامـائيـك وغو يانا البريطانية[1] .

وهكذا تتناثر الأقطار المتضامنة حول المملكة المتحدة من المحيـط الأطلسي ، حيث ترتصف على طول السواحل الأمريكية حتى المحيط الهادي ، وبـذلـك تحصر في داخلها المحيط الهنـدي . وكانت تحرس طريق السويس قواعـد بحريـة وجويـة تمتد من جبل طـارق إلى مـالطـة وقبرص وعـدن وعمـان والبحرين ، وتمتـد هـذه القواعد إلى الشرق الأقصى ، بواسطة قاعـدتي سنغـافورة وهونغ كونغ . والواقع هو أن تماسك هذه الامبراطورية المبعثرة ، يبدو على الصعيد المالي والمعنوي أكثر منـه على الصعيـد الإداري . ومـع أن سكان الكـومـونـولث فقـدوا صفـة المـواطنين البريطـانيين ، فـإن السكان من ذوي الأصل البريطـاني البحت ـ لأن حوالي ١٠ ملايين ، غادروا خلال القرن الماضي والحـالي جزيرتهم ليستوطنوا مـا يسمى اليوم بالكومونولث ، بالإضافة إلى النخبة المحلية التي تعلمت في الكليـات البريطـانيـة ـ تحتفظ ، بالإضافة إلى اللغة ، بـالروح وبطراز الحيـاة الإنكليزيـة ، فضلاً عن نوع من عبـادة العظمـة البريطـانيـة ، التي تلت « العصر الفيكتوري » . وقـد أثبتت الحربان العالميتان ، مدى الولاء للتاج من كندا إلى أواسـط أفريقيـا . وإذا كانت المؤتمرات الامبراطوريـة لا تعوض تمـامـاً فقـدان البرلـان الامبراطوري ، فـإن كل الـدول التي كانت تحت حكم بريطـانيـا ونـالت استقـلالهـا ، انضمت إلى رابطـة

---

(١) يتألف الكومونولث البريطاني من الدول الآتية :

أ ـ في أوربا : المملكة المتحدة . مالطة . قبرص .

ب ـ في أمريكا : باهاما . بليز . برمودة . كندا . جامايكا . ترينيداد وتوباغو . برباد . غويانا . غرناطة .

جـ ـ في إفريقيـا : بوتسوانـا . غـانـا . زامبيـا . غـامبيـا . كينيـا . لوسوتو . نيجيريـا . سيراليون . أوغنـدا . تانزانيا . مالاوي . موريس . سوازيلاند أو (نغوانا) .

د ـ في آسيا وأوقيانوسيا : أستراليا . نيوزيلندا . فيجي . الهند . بنغلادش . ماليزيا . نورو . پاپوازيا . غينيا الجديدة . ساموا الغربية . سيشل . سنغافورة . سيريلانكا . تونغا .

الشعوب البريطانية ، باستثناء جمهورية إيرلندا ، وفلسطين ، وبورما ، وجمهورية السودان والباكستان ، وعمدت بريطانيا إلى متابعة سياسة التنازلات البنّاءة في أقطار أفريقيا الجنوبية الشرقية ، تاركة السياسة الاستعمارية التقليدية لأشكال أخرى من الهيمنة الاقتصادية ، حتى انها ألغت وزارة المستعمرات في ٣١ تموز عام ١٩٣٣ ودمجتها في وزارة الكومونولث .

ب ـ منطقة الإسترليني : إن سياسة الأفضلية الامبراطورية على الصعيد الجمركي ، واتباع منهج الحماية ابتداء من عام ١٩٣٢ بالنسبة لسائر مناطق العالم ، وهي من أشكال الانطواء الاقتصادي البريطاني ، أقول إن هذه السياسة قد زادت في المبادلات في داخل الامبراطورية ، التي تمتص ٤٤ ٪ من قيمة صادرات المملكة المتحدة ، والتي تغذي ٣٩ ٪ من استيراد الدولة المذكورة . وفي عام ١٩٣٩ ، أوجدت بريطانيا تدبيراً مالياً لمقابلة التفوق الأمريكي بالاستعانة بمراقبة النقد ، بحيث أصبحت الدولارات الناتجة عن تجارة رابحة ، كتجارة ماليزيا المصدرة للمطاط إلى الولايات المتحدة ، تحت تصرف الجميع ضمن منطقة الإسترليني[1] ، التي كانت تضم الامبراطورية البريطانية باستثناء كندا ، الداخلة في منطقة الدولار ، وإيرلندا وبورما ومصر .

وإذا كانت منطقة الإسترليني تضطر لأن تشتري : القمح والقطن الخام السكر ، والتبغ ، وفلزات الحديد ، والمواد التجهيزية ، فإنها تنتج بالمقابل ، وذلك على مقياس تجاري عالمي ، كل مادة الجوت (من بنغلادش) وتسعة أعشار الشاي (الهند وسيريلانكا) وحوالي ثلث المنغنيز (غانا) وأكثر من ثلث صوف العالم (أستراليا) والكاكاو (غانا ونيجيريا) وحوالي نصف المطاط والقصدير

---

(١) لقد اقتبست عبارة الجنيه الإسترليني من كلمة إسترلين ، وهي وحدة نقدية كانت مستعملة في القرن الثاني عشر .

(ماليزيا) والكروم (زيمبابويه) وسدس رصاص العالم وعشر التوتياء ، والبذور الزيتية المدارية ، والبوكسيت (غويانا) كما يعتبر الذهب (غانا وأستراليا) من أهم ثروات رابطة الشعوب البريطانية . وإجمالاً تهين منطقة الإسترليني على ربع **التجارة العالمية .**

جـ ـ الأسطول التجاري : يلعب الأسطول التجاري البريطاني دوراً رئيسياً في اقتصاد المملكة المتحدة ، سواء عن طريق تخفيض ثمن الكلفة أو عن طريق « الصادرات اللامرئية » التي تنتج عن استخدامه بواسطة الأقطار الأخرى .

وقد نشأ الأسطول التجاري على أثر صدور صك الملاحة الأول عام ١٦١٥ ، والصك الثاني في عام ١٦٥١ وأخذ ينمو بسرعة منذ القرن الثامن عشر مع نمو التجارة الاستعمارية . غير أن تطوره وهيمنته الحقيقيتين يعودان للثورة الصناعية في القرن الماضي ، فقفزت حمولته من ٢,٢ مليون طنّة (الطنّة tonneau في مقياس السفن يعادل حجم ٢,٨٣ م٣) في عام ١٨١٠ إلى ٦,٦ مليون طنة عام ١٨٨٠ وإلى ٩,٣ مليون طنة في عام ١٩٠٠ وإلى ١٨,٦ مليون في ١٩١٤ . ولكن زال هذا التفوق على أثر الأزمة الأوروبية في القرن العشرين . وهكذا بعد أن كان الأسطول التجاري البريطاني يمثل في عام ١٩٠٠ (٥٦ ٪) من الأسطول التجاري العالمي أصبح يمثل في عام ١٩١٤ (٤٤ ٪) منه ، وثلث الأسطول العالمي عام ١٩٣٨ وكانت حمولته ١٦ مليون طنة . وبعد أن تعرض لأضرار كبيرة أثناء الحرب العالمية الثانية . أعيد بناؤه مجدداً فبلغت حمولته في عام ١٩٧٩ مقدار ٣٣ مليون طنة ، ولم يكن يفوقه سوى أسطول اليابان ، وحمولته ٤٠ مليون طنة ولكن من حيث النوعية ومن حيث فعاليته يعتبر **أول أسطول تجاري بالعالم .**

ويدل على أهمية الأسطول التجاري الإقليمي البريطاني ، ويعادل عشر حمولة الأسطول الكلي ، امتداد السواحل البريطانية ذاتها وارتباط الموانئ

بالنقليات الداخلية ، سواء أكانت بالسكك الحديدية أو بالطرق . ولا تؤلف سفن الترامب Tramps التي تماثل سيارات الشحن العامة من حيث نشاطها ، أكثر من عشر الأسطول التجاري ، وتبدو كأنها شكل غير متناسب مع عصر السرعة والتخطيط في القرن العشرين . ولكن تشكل سفن الليبنرز Liners وهي بواخر تسير على خطوط منتظمة ، نصف الأسطول وتخص أهم الشركات الملاحية العالمية مثل « شركة أشباه الجزر الشرقية » ، التي تشرف على ٣٠٠ باخرة تسير على خطوط آسيا وكندا وشركة « كونارد » التي تملك السفن الجبارة أمثال « كوين ماري » و « كوين إليزابيت » وشركة « رويال ميل » . كما أن نمو الأسطول البترولي بسرعة بفضل شركة الناقلات البريطانية .B.P وشركة البترول الأنكلوسكسونية أو « شل » ، جعل هذا الأسطول يمثل ثلث الأسطول البترولي العالمي ، ويحتل المكانة الأولى ، بعد ليبريا والنرويج من حيث الحمولة الصافية أو ١٠ ملايين طنة . وهكذا يؤمن الأسطول البريطاني ٦٠ ٪ من النقليات بين موانئ المملكة المتحدة و ٥٠ ٪ من النقليات مع موانئ الكومونولث و ٣٠ ٪ من النقليات بين بريطانيا العظمى والأقطار الأجنبية ، وتأتي ١٥ ٪ من أرباح هذا الأسطول من قيامه بالمبادلات بين الأقطار الأجنبية . وهكذا يظل الاقتصاد البريطاني مستنداً على الهيمنة على البحر أو « الثالوقراطية » .

قوة الإنتاج الطاقي :

يتصرف المواطن في المملكة المتحدة بنسبة من الطاقة ، تعد من أكبر أمثالها في العالم .

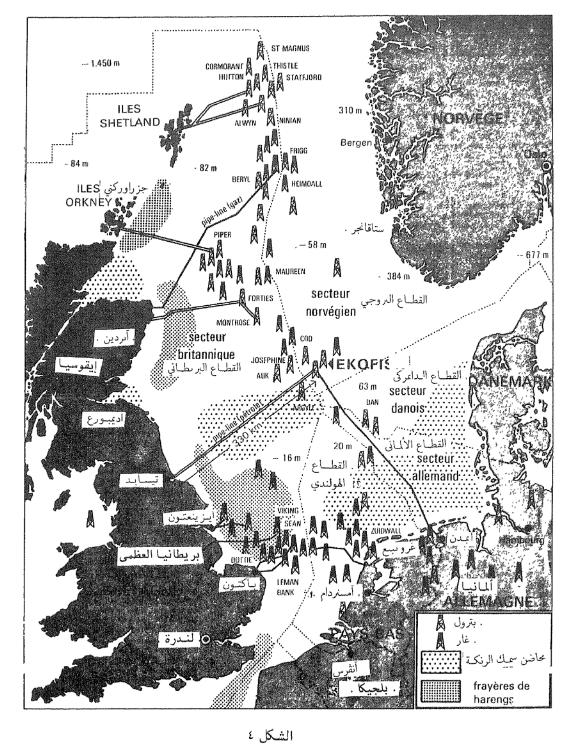
فالنسبة الفردية للطاقة تبلغ ٤,٦٥ طناً من الفحم أو ما يعادلها من حيث القيمة الحرورية من المنتجات البترولية ، أو من القوة الكهرمائية أي يقف خلف المواطن الهولندي الذي يستهلك ٥,١٢ أطنان ، وهي أكبر نسبة في أوروبا الغربية . ولكن أكثر من النسبة السويدية وهي ٣,٨٤ أطنان أو البلجيكية

البالغة ٣,٧٥ أطنان ، والألمانية وهي ٣,٢٨ أطنان ، والفرنسية وتقدر بـ ٢,٣٤ من الأطنان . كانت مشكلة الطاقة تعتبر من أخطر المشاكل التي تواجه المملكة المتحدة ، التي سبقتها الولايات المتحدة ، والتي يستهلك الفرد فيها ٨ أطنان أو في كندا ٦,٨ طن وذلك قبل دخول حقول نفط بحر الشمال مرحلة الإنتاج في ١٩٦٧ (شكل ٤) .

أ ـ أهمية وتطور الثروة الفحمية : يقدم الفحم الحجري حالياً ٨٧ ٪ **من الطاقة البريطانية .** وبفضل استخدام الفحم لوحده في بريطانيا في المراكز الحرورية ذات المردود العالي ، والتي حلت مكان المكائن البخارية ذات المردود الهزيل ، ارتفع إنتاج الكهرباء في هذه البلاد إلى حوالي ٣٠٠ مليار كيلواط ساعي أو ستة أمثال إنتاجها عام ١٩٤٦ رغم إهمالها التام تقريباً لثرواتها من الفحم الأبيض ، ولكن عشرها من أصل نووي .

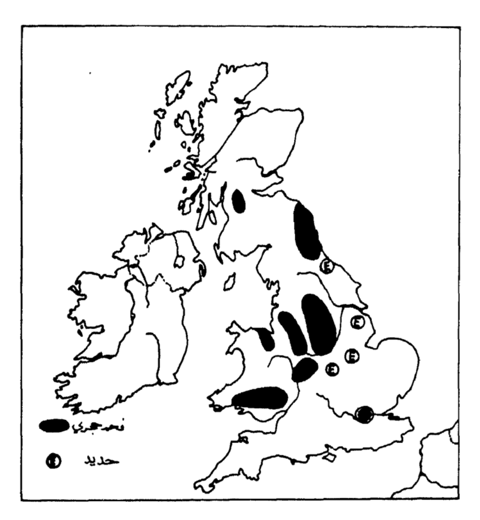
ولكن مشكلة الفحم لا تزال حادة جداً . فالإنتاج الذي ضرب الرقم القياسي عام ١٩١٣ حيث بلغ ٢٨٧ مليوناً من الأطنان ، والذي كان يسمح بتصدير ٩٣ مليون ، انخفض إلى ١٨٠ مليون طن في عام ١٩٤٥ ، وإلى ١٢٨ مليون طن عام ١٩٨١ ، حتى ان بريطانيا أصبحت مستوردة للفحم منذ عام ١٩٧٤ (شكل ٥) . ورغم تزايد الإنتاج بعد الحرب العالمية الثانية ، فلا يزال الإنتاج غير كاف ليس فقط لوجود تصدير مرغوب جداً من أجل دعم التوازن المالي بل وحتى لسد حاجات الاقتصاد البريطاني من هذه المادة لأن الإنتاج الصناعي زاد بحوالي ٦٠ ٪ بالنسبة لعام ١٩٣٨ .

ومع أن الطبقات الفحمية القريبة من سطح الأرض ، وأكثرها ثخانة والتي اتجهت إليها[1] صناعة استخراج الفحم بالبدء ، قد نضب معينها نوعاً ما ، فإن المصاعب نجمت أيضاً عن **تأخر تجهيز وتناقص اليد العاملة .** فحتى الحرب العالمية الثانية كان القانون الإنكليزي الذي يعطي لمالك الأرض ملكية ما تحتها ،



ST MAGNUS
CORMORANT
THISTLE
HUTTON
STATFJORD
— 1.450 m
ILES SHETLAND
ALWYN
NINIAN
310 m
NORVEGE
Bergen
Oslo
FRIGG
- 84 m
- 82 m
BERYL
HEIMDALL
ILES ORKNEY
جزراوركني
pipe-line (gaz)
PIPER
ستافانجر .
— 58 m
-- 677 m
MAUREEN
- 384 m
secteur norvégien
القطاع النروجي
FORTIES
MONTROSE
secteur britannique
القطاع البريطاني
آبردين .
إيقوسيا
COD
JOSEPHINE
AUK
EKOFISK
القطاع الدانمركي
secteur danois
DANEMARK
63 m
DAN
اديمبورغ
pipe-line (pétrole)
330 km
20 m
— 16 m
القطاع الهولندي
القطاع الألماني
secteur allemand
تيسايد
ايزينغتون
VIKING
SEAN
ZUIDWALL
بريطانيا العظمى
أمدن
Hambourg
باكتون
LEMAN BANK
آمستردام .
ألمانيا
ALLEMAGNE
PAYS BAS
لندرة
أنفرس
بلجيكا .
بترول .
غاز .
محاضن سمك الرنكة
frayères de harengs

الشكل ٤



الشكل ٥

حقول الفحم والحديد في بريطانيا

قد أوجد عـدداً كبيراً من المنـاجم الصغيرة العـاجزة عن تحسين وسـائلها وزيـادة إنتاجيتها . ومن جهة أخرى ظلت أجرة العـاملين في المنـاجم في مستوى منخفض جـداً ، فكانت تقل بحـوالي الثلث عن أجرة العمال في الصنـاعـات الأخرى . لهـذا انخفض عدد العاملين في المناجم والراغبين في ذلـك حتى ضمن العـائلات التي يعمل أبناؤها في المناجم منذ أجيال . وأصبح الوضع خطيراً بعد الحرب العالمية الثانيـة ، لأن عدد العاملين في المناجم لم يزد عن ٧٠٠٠٠٠ مقابل ١١٠٠٠٠٠ في عام ١٩١٣ ،

وكانت أعمار ٤٤ ٪ من هؤلاء تزيد عن ٤٠ سنة ، كما كانت الآلات قديمة وسيئة الصيانة كما كان مردود العامل دون مستوى قبل الحرب الثانية .

وقد أدت ضرورة إعادة تنظيم الصناعة المنجمية ، وتوظيف رساميل ضخمة إلى **تأميم** يخالف التقاليد البريطانية . وهكذا قامت هيئة الفحم القومية في عام ١٩٤٧ فارتفع الإنتاج إلى ١٩٣ مليون طن أو ١٠ ٪ من إنتاج العالم من الفحم . وقد أمكن الحصول على ذلك بفضل جعل العمل ميكانيكياً إلى حد كبير ، ولكن دون مستوى مناجم فرنسا أو ألمانيا ، ولكن هذا الجهد يدل على أن الإدارة المالية رديئة في معظم أحواض الفحم ، فلا يزال التصدير في تناقص (٥ ملايين طن) والاستيراد (١٠ ملايين طن) في تزايد . ومع أن هناك إمكانية لاستمرار صناعة استخراج الفحم حسب النسق الحالي خلال مدة تتراوح بين ٥ و ٦ قرون قادمة ، فإن هذا الفحم خسر دوره العالمي إلى الأبد . كما أن دوره الداخلي المتفوق في اقتصاد المملكة المتحدة يتناقص بالنسبة لمصادر القدرة الأخرى .

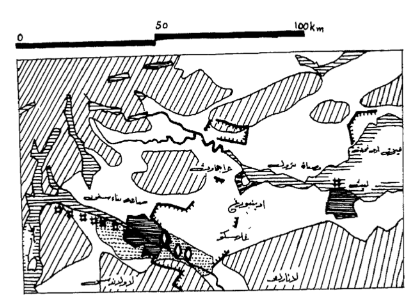
ب ـ حصة المملكة المتحدة في الإنتاج العالمي للبترول : لم تكن المنتجات البترولية تمثل حتى قبل ١٥ سنة أكثر من ٢٤ ٪ من **الطاقة البريطانية** ، كما لم تكن الامبراطورية تنتج الكثير من البترول . لهذا كانت تدين المملكة المتحدة إلى أسطولها وإلى رساميلها ، التي تلعب دوراً هاماً جداً بالنسبة لهذه المادة الحيوية . فهناك شركتان كبيرتان تستخرج من مختلف حقول النفط بالعالم ١٧ ٪ من الإنتاج **العالمي** في الأقطار غير الاشتراكية . وهما شركة **رويال دوتش شل** (وهي شركة إنكليزية هولندية تشكل الرساميل البريطانية ٤٠ ٪ فيها) ، التي تستحوذ على ١١ ٪ من الإنتاج العالمي ، وشركة **البترول البريطانية B.P** التي تقدم ٦ ٪ من الإنتاج **العالمي** .

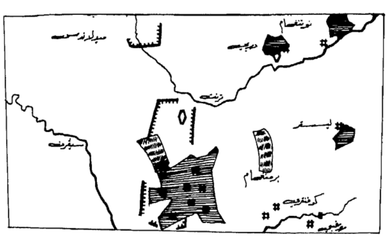
فشركة رويال دوتش شل وهي أكبر تروست أوروبي ، تضم ٤٠٠ فرع في

مختلف الـدول ، وتستخـدم ٢٥٠٠٠٠ شخص في أقطـار مختلفـة حيث تستخرج وتشتري وتصفي البترول . ففي عـام ١٩٦١ حصلت على ٥٠ مليـون طن تقريبـاً من أقطار أمريكا الجنوبية وخـاصـة من فنزويلا وكولومبيـا وعلى ١٥ مليون طن من أندونيسيا (من جزيرتي كالمنتان وسومطرا) وعلى ٣٠ مليون طن من الشرق الأوسـط ، حيث كانت تحصل على ٢٣,٧٥ ٪ من إنتـاج شركـة بترول العراق قبـل ١٩٧٠ و ١٤ ٪ من إنتاج إيران الذي كانت تشرف عليه مجموعة شركات عـالميـة . كما تستخدم شركـة شل أسطولاً من النـاقلات حمولتهـا ٨,٦ ملايين طن ـ منهـا سفن حمولتها ٣ ملايين طن تعتبر ضمن ملكيتها الخاصة ـ من أسـاس أسطول عـالمي من الناقلات البترولية حمولته ٤٨ مليون طن ، كما تملـك أيضاً حوالي ٢٨٠٠٠ كيلومتر من الأنابيب الناقلة للنفط . كما أن مصافيها البالغ عددها ٤٨ مصفاة ، عـالجت في عام ١٩٧٩ مقـدار ١٤٨ مليون طن من البترول أو حوالي ١٤ ٪ من بترول الأقطـار الرأسمالية مثلما تزداد مكانتها أكثر فأكثر في مضمار الصناعة الكيماوية . أمـا شركـة البترول البريطانية فهي محدودة بـالأسـاس في الشرق الأوسـط ، فهي تملـك ٤٠ ٪ من إنتاج مجموعـة الشركات العـالميـة التي حلت محل شركـة الأنكلو إيرانيـان عـام ١٩٥٤ بعد تأميم البترول الإيراني على يد الدكتور (محمد مصدق) ، كما كانت تملـك ٥٠ ٪ من إنتـاج الكـويت و ٢٣,٧٥ ٪ من إنتـاج شركـة البترول العراقيـة قبـل تأميمها . وتبلغ حمولة أسطول ناقلات البترول الخـاص بهـذه الشركـة ٢ مليون طن أو ٤ ٪ من الأسطول البترولي العالمي كما تملـك ميـنـاءين في غرانجماوث وفي جزيرة غرين Grains Ile de هما الوحيـدان في بريطـانيـا والقـادران على استقبـال أضخم ناقلات النفط (شكل ٦) .

ولكن الوضـع تغير تمـامـاً منـذ ١٣ سنـة إذ أصبحت حقـول نفـط بحر الشمال تغطي حاجة بريطانيا من الغاز بل وأصبحت هذه الدولة تصـدر النفـط بعـد أن أصبحت تنتـج ٤٥ مليـار متر مكعب من الغــاز و ١٠٠ مليـون طن في ١٩٨١ من البترول .


جبال وتلال
مساحات مبنية
أحواض فحم
صناعات حديدية
صناعات آلات حديدية
صناعات كيماوية
صناعات نسيجية


0
50
100km


نوتنغهام
ترنت
ليستر
برمنغهام

الشكل ٦

وهكذا تظهر شركة شل وشركة البترول البريطانية أهم الشركات الإنكليزية إلى جانب شركة الصناعة الكيماوية Imperial Chemical والشركة الإنكليزية الهولندية للزيوت النباتية Unilever والتي تلعب جميعاً دوراً جوهرياً في الاقتصاد البريطاني . فمن ناحية ، تقدم شركة شل وشركة البترول البريطانية ، البترول مع حق الأفضلية ، بالجنيهات الاسترلينية . ومن ناحية أخرى فإن المبيعات التي تقوم بها هاتان الشركتان بالعالم - لأن العائدات الصافية لشركة شل ارتفعت في عام ١٩٨٠ إلى عشرة مليارات من الجنيهات - تؤلف واردات مالية تزداد قيمتها لأنها تدفع بالدولارات ، كما أنهما أوجدتا في بريطانيا **صناعة بترولية هامة** .

فقدرة المصافي البريطانية البالغة ١٤٨ مليون طن بالعام ، والتي تضاعفت ثلاثين مرة منذ عام ١٩٣٨ ، والواقعة خاصة في ميناء فاولي Fawley حيث توجد أكبر مصفاة بترول في أوروبا وفي ميناء غرانجماوث ، تجعل بريطانيا تحتل المكانة الثالثة بالعالم خلف الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وقبل فنزويلا وكندا . هذا وتستهلك بريطانيا حوالي ٣٥ مليون طن من البترول وتعيد تصدير حوالي ١٣ مليون ، ثلثها من أجل استهلاك السفن . وقد شيدت مصفاة في ميلفورد هافن Milford-Haven في بلاد الغال فضلاً عن ميناء يستطيع استقبال الناقلات الجبارة التي تأتي عن طريق الكاب .

جـ - ملامح الطاقة الذرية : تحاول بريطانيا أكثر من أية دولة أخرى ، تنظيم إنتاج ذري لأغراض صناعية ، فهناك برنامج كبير يقضي إنجاز بناء « نطاق ذري » ، يشتمل على ١٩ مركزاً تقع عند مصبات الأنهار الرئيسية ، تمثل طاقة إجمالية تتراوح بين ١٤٠٠٠ ميغاواط ، أي ضعف البرنامج الأمريكي ، وهذه الطاقة ستمثل ربع الإنتاج الكهربائي البريطاني في عام ٢٠٠٠ .

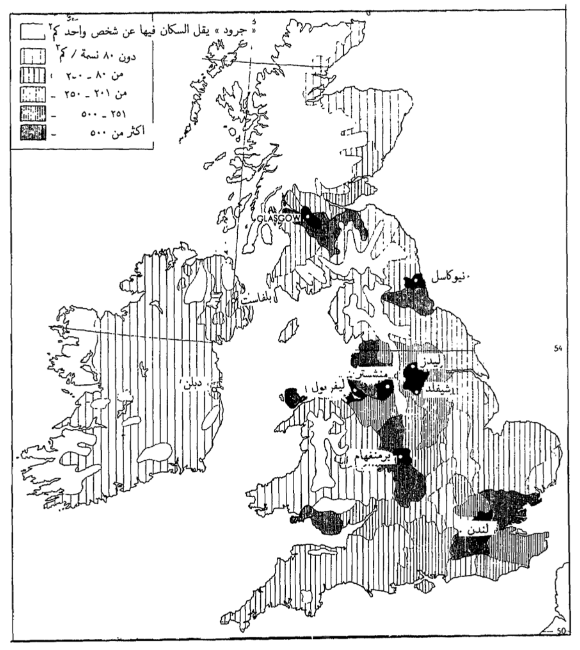
وتتم في الوقت الحاضر معالجة فلزات الأورانيوم المستوردة من اتحاد جنوب

أفريقيا ، استناداً إلى الدراسات التي تمت في هارويل ، قرب مدينة ريدينغ ، وفي مدينة سبرينغفيلد في مقاطعة لانكاشاير . كما يصنع البلوتونيوم في ويندسكايل في مقاطعة كمبرلاند ، كما يحول (أورانيوم ٢٣٨) إلى (أورانيوم ٢٣٥) في كابنهورست ، وسيعقب بناء أول مركز في كالدرهول في مقاطعة كمبرلاند وقدرته ٥٠ ميغاواط بناء مركز آنان Annan في إيقوسيا . وهكذا تتطلب أكثر دول أوروبا تمسكاً بالتقاليد من هذه **الثورة بالطاقة** مستقبلاً أكثر مجداً وازدهاراً .

الشعب البريطاني :

لا يمكن فصل النهضة الديموغرافية البريطانية عن الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر . فبعد أن كانت التقديرات تشير إلى أن عدد سكان بريطانيا عام ١٧٥١ لم يتجاوز ٧,٥ ملايين ، ارتفع هذا العدد إلى ٢١ مليون بعد قرن من هذا التاريخ ، وإلى ٣٠ مليون عام ١٨٨١ ، وإلى أكثر من ٥٤ مليون عام ١٩٦٦ ، وإلى ٥٦ مليون في ١٩٨٢ . ورغم أن بريطانيا قدمت خلال هذه الفترة حوالي ٢٠ مليوناً من المهاجرين فقد تضاعف عدد سكانها ٤ مرات في مدة ١٥٠ سنة بينما لم يزد عدد سكان فرنسا في هذه الفترة أكثر من ٦٠ ٪ واستقبلت ٣ ملايين مهاجر . ويبلغ عدد سكان المملكة المتحدة حالياً ٥٦ مليون نسمة ، أي كثافة تقارب ٢٣٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، أو ثلاثة أمثال الكثافة في فرنسا . أما في إنكلترا التي يبلغ عدد سكانها ٤٧ مليون نسمة فترتفع الكثافة إلى ٣٢٥ نسمة في الكيلومتر المربع ، أو أربعة أمثال الكثافة في فرنسا (شكل ٧) . غير أن نسق التزايد الديموغرافي الذي بلغ أقصاه عام ١٨٨٠ ، قد أخذ بالانخفاض تدريجياً حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم بسرعة بعدئذ . ولكن الحرب العالمية الثانية أدت إلى توقف هذا التناقص وهكذا كان التزايد الطبيعي في المملكة المتحدة دون ٤ بالألف ، أي من أخفض أمثاله بالعالم شأن نسبة التوالد فيها . ويبدو أن نظرية الاقتصادي

الإنكليزي مالتوس ، الـذي نـادى في عـام ١٧٩٨ بخطر تزايـد النوع البشري ، قـد لاقت في بريطانيا ، أكثر من أية منطقة أخرى في أوروبا الشمالية الغربية ، أهمية



الكثافة السكانية الحالية في الجزر البريطانية

الشكل ٧

جديدة . وتبلغ نسبة التوالد حالياً ١٢ بالألف والوفيات ١٢ بالألف ، أي هناك توقف ديموغرافي ، وتهبط نسبة وفيات الأطفال الذين هم دون العام إلى ١٤ بالألف ، والأجل المرتقب ٧٢ سنة .

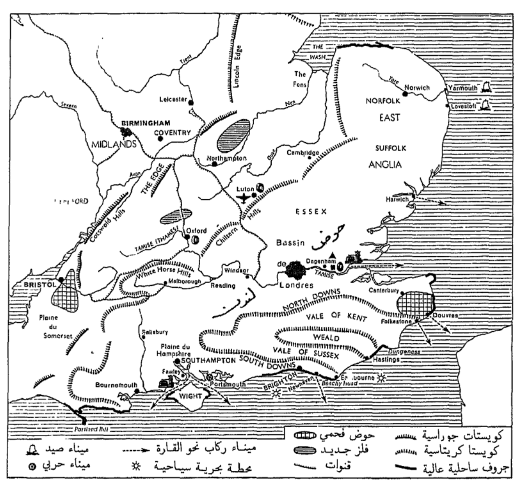
أ ـ **تمركز سكان المدن** : يبدو تمركز السكان في المملكة المتحدة أشد أمثاله بالعالم فتضم المدن ٨٥ ٪ من السكان ، بينما لا تزيد النسبة في فرنسا عن ٦٥ ٪ . ولا تحتوي المدن التي تضم أقل من ١٠٠٠٠ نسمة ، على أكثر من ١٦ ٪ من سكان المدن مقابل ٤٨ ٪ في فرنسا . بينما تضم المدن التي تحوي أكثر من ١٠٠٠٠٠ نسمة ٤٨ ٪ من سكان المدن مقابل ٢٧ ٪ في فرنسا . وتحاط كل مدينة كبيرة بنثير من المراكز الصغرى التي تتعلق بها اقتصادياً . وتؤلف المدينة مع هذه المجموعة مناطق عمرانية حقيقية تسمى في بريطانيا Conurbations أو المدن الجسيمة . ويعيش ٤٠ ٪ من البريطانيين في ٧ مدن جسيمة ، تضم كل منها أكثر من مليون نسمة . فمدينة لندن الكبرى لوحدها تحوي على ٨,٤ ملايين نسمة أي أن سكانها يفوق عن عدد سكان الريف البريطاني كله . وتعتبر ثامن مدينة في العالم من حيث عدد السكان .

وتحتوي بريطانيا على **بنية اجتماعية** فريدة جداً لا تترك أكثر من ٥ ٪ من مجموع السكان للقطاع الزراعي المسمى « القطاع الأولي » مقابل ٢٠ ٪ في فرنسا و ٥٠ ٪ في سورية و ٧٠ ٪ في تركيا ، ويشتغل في « القطاع الثاني » أي المنجمي والصناعي ٤٧ ٪ من السكان مقابل ٣٨,٨ ٪ من السكان في فرنسا و ١١,٨ ٪ في سوريا . ويشتغل الباقي أي ٤٧ ٪ من السكان في « القطاع الثالث » ، أي القطاع غير المنتج مباشرة مقابل ٣٥,٧ ٪ في فرنسا و ٣٦ ٪ في سوريا . ويعمل في هذا القطاع الأخير في بريطانيا ٧ ٪ منهم في النقل و ١٣ ٪ في التجارة . وبالإضافة إلى هذه الصفات المذكورة يبدو هذا الاختلال في التوازن بين مختلف القطاعات كنموذج مثالي للحضارة الصناعية والتجارية « الغربية » .

ب ـ الفروق البشرية في هذا القطر القديم : تحتوي الجزر البريطانية على تباينات كبرى على الصعيد البشري . فقد اجتاحتها بالماضي موجتان رئيسيتان من السلتيين (بروتون وغايل Gaëls) قدموا إليها في الفترة الواقعة بين القرن الرابع والأول قبل الميلاد ، والذين طردوا فيا بعد نحو الغرب على يد الجرمان (انكلوسكسون واسكاندينافيين) ، وجاء الفتح الروماني في عهد يوليوس قيصر ، فشمل إنكلترا الحالية حتى جدار هادمريان ، وتلاه الفتح النورماندي في عام ١٠٦٦ فعملا على خلق الحضارة البريطانية الأولى وأدخلا تعديلاً طفيفاً على الأساس البشري الذي تمخضت عنه ثلاثة شعوب متميزة هي : **الإيرلنديون** وهم من أصل سلتي بحت ، **والإيقوسيون** ويغلب عليهم الطابع السلتي أكثر من الطابع السكسوني ، **والإنكليز** وهم من أصل أنكلوسكسوني . وإذا كان العنصران الأوليان قد قدما أكثر الشخصيات لمعاناً في تاريخ هذه الجزر ، فإن الشعب الإنكليزي ، المتصف بهدوئه ، ولكن بعناده وواقعيته ، هو الذي ضرب للعالم المثل عن الحرية الخالية من الفوضى ، وأوجد نموذج الرجل الراقي « الجنتلمان » المتصف بروح دينية محترمة للتقاليد ، تحتفظ منذ تخرجها من المدرسة بعادة ضبط النفس . وذلك الرجل الذي يقاوم المناخ القاسي بممارسة ضروب الرياضة الوطنية بالإضافة إلى حب « المنزل » والذي لا يتأثر كثيراً بأشكال الحضارات الأخرى المحيطة به بالخارج فيحمل معه إلى أي مكان « العظمة البريطانية » .

كما تشير تباينات الكثافة السكانية إلى هذا التفوق الإنكليزي . فالكثافة في جمهورية إيرلندا تبلغ ٣٣ نسمة بالكيلومتر المربع ، وتصل إلى ٦٧ في إيقوسيا وإلى ٩٨ في أولستر ، أي إيرلندا الشمالية الشرقية ، و ١٢٥ في بلاد الغال ، ولكنها تقفز إلى ٣١٥ في إنكلترا ، ولا تفسر هذه الكثافة المتفاوتة بالصفات العرقية بقدر ما تفسر بالتفوق الاقتصادي المتعلق بالإطار الطبيعي . فالأراضي المرتفعة الغربية والسهول الإيرلندية المتصفة جميعاً بالترب الفقيرة

المعرضة للرياح الرطبة والبعيدة عن المنطقة الحية المجاورة لبحر الشمال ، تحتفظ بسكان من أصل سلتي ، يعيشون في أنماط معيشة أقل تطوراً فلا تزيد الكثافة عندهم عن ١٠ أشخاص في الكيلومتر المربع . أما السهول الإنكليزية ، وإلى حد ما شريط الأراضي المنخفضة الإيقوسية ، فتتمتع بمناخ أكثر تشمساً وبأراض أكثر خصباً تشرف من الشرق على بحر الشمال ، وتطيف بها من الغرب المناطق الفحمية لذا ترتفع الكثافة فيها إلى ٤٠٠ شخص في الكيلومتر المربع ، وتضم بالإضافة إلى أكثرية السكان مجموع الثروة والقوة البريطانيتين (شكل ٨) .



سهول جنوب شرق انكلترا

الشكل ٨

المناطق الناقصة النمو

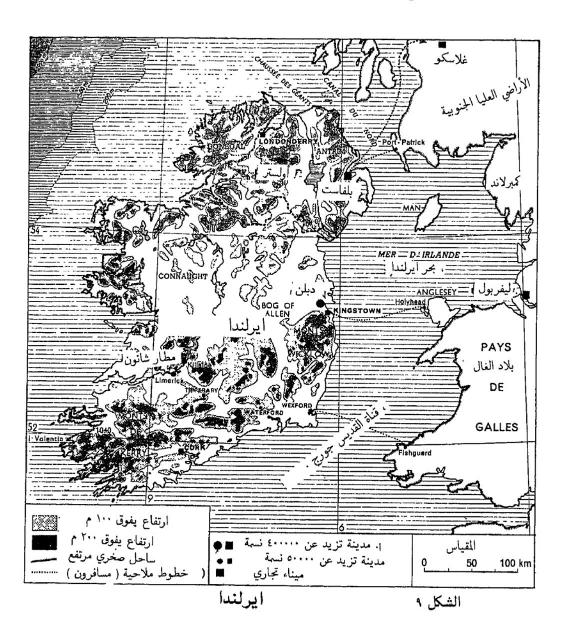
على خلاف جزيرة بريطانيا العظمى التي يتنافر فيها فقر الكتل الجبلية مع غنى الأحواض الصناعية التي تطيف بها في أغلب الأحيان ، فإن إيرلندا جميعها من جبال وسهول ، تنتسب إلى أقل المناطق البريطانية تطوراً .

إيرلندا :

أ ـ أسباب التأخر الإيرلندي : هناك شريطان من الأراضي المتبلورة يطيفان من الشمال ومن الجنوب بالسهل الأوسط المفتوح نحو بحر إيرلندا ، أكثر من انفتاحه نحو المحيط الأطلسي ، فالكتل الجبلية الشمالية ، التي اختلطت بها التدفقات البازلتية والتي تشتمل على أعمدة غريبة تدعى درب الجبابرة ، سبق لها أن تعرضت للتأثير الجليدي . بينما كتل الجنوب وهي أكثر ارتفاعاً (إذ تنهض في جبال كيرى إلى ١٠٤٠ م) (شكل ٩) ، تحتوي على وديان أكثر جمالاً ، مثل وادي تيبراري Tipperary في السهل ، والمؤلف من قاعدة من الصخور الكلسية التي تغطيها تلال مورينية ، كما يؤلف نهر شانون ، وهو نهر غزير ، سلسلة من البحيرات . وتعمل الرياح والرطوبة المحيطة على جعل المراعي والأراضي البور زينة إيرلندا الخضراء نظراً لفقرها بالغابات ، وإذا كانت البحيرات ، وهي فتنة المناظر الإيرلندية ، تغطي ٢ ٪ من المساحة العامة فإن ١٣ ٪ من المساحة تشغلها مستنقعات الطورب ، حيث يكون كل شيء قاتماً ، من أرض ، ومياه ، وبيوت ، والتي تعطي وقوداً غليظاً ، يحلق دخانه الحاد دائماً فوق الأمكنة المأهولة . والخلاصة : أن إيرلندا هي قطر فقير .

غير أن التاريخ هو المسؤول الرئيسي عن التأخر الإيرلندي . فبعد أن أخضعهم كرومويل في القرن السابع عشر ، لم يستطع **السلتيون الكاثوليك** الإيرلنديون أن يتحرروا من سيطرة إنكلترا الأنكلوسكسونية والبروتستانية إلا في

القرن العشرين . ففي عام ١٩٢١ أصبحت إيرلندا المحرومة من مقاطعة أولستر ، دولة حرة ضمن إطار الكومنولث ، وفي عام ١٩٣٨ أصبحت دولة مستقلة . وفي عام ١٩٤٨ جمهورية منفصلة عن الكومنولث . وقد نتج عن هذا الاحتلال الإنكليزي من النموذج الاستعماري ، والذي استمر ثلاثة قرون ، أن وجدت إيرلندا



الشكل ٩ ايرلندا

نفسها في عام ١٩٢١ في أوضاع متردية ، كضعف التصنيع المقصود ، الذي كان يسمح بتصريف منتجات الصناعة الإنكليزية ، وبنية زراعية تفتت المنطقة الفقيرة بالغرب إلى ملكيات صغيرة تقل عن ١٠ هكتارات ، بينما كانت الأراضي الأكثر خصباً بالجنوب وبالشرق على شكل ملكيات كبرى متخصصة منصرفة إلى تربية الماشية أكثر من زراعة الحبوب ، فبعد أن كان عدد سكان الجزيرة قد ارتفع إلى ٨,٥ ملايين نسمة قبل قرن من الزمن ، انخفض إلى النصف بعد المجاعة القاتلة ، التي نجمت في عام ١٨٤٦ عن مرض أصاب البطاطا والتي أعقبتها هجرة اتجهت نحو الولايات المتحدة . بيد أن منطقة أولستر التي يقطنها معمرون من أصل إيقوسي وبروتستان لم تتعرض لمأساة المسألة الإيرلندية إلا مؤخراً .

ب ـ **جمهورية إيرلندا** : دولة مستقلة ، ولكنها ريفية بنسبة ٦٠ ٪ ومحرومة من الرساميل ومن كل حياة بحرية ، رغم أن سواحلها كثيرة التعاريج إذا نظرنا إليها بالتفصيل (شكل ١٠) . ولم تتمكن هذه الجمهورية بعد من خلق اقتصاد مستقل عن اقتصاد المملكة المتحدة . فتحتل البراري والمراعي ٤٥ ٪ من المساحة ، أما الأراضي القابلة للزراعة فلا تزيد عن ١٨ ٪ مخصص نصفها لزراعة الشوفان وربعها للبطاطا . وتحتوي إيرلندا على قطيع من الأبقار يبلغ تعداده أربعة ملايين ، مخصص بشكل رئيسي لإنتاج اللحم ، لأن التسمين النهائي يتم في بريطانيا (شكل ١١) ، بينما تربى الأبقار في المنطقة الجنوبية الشرقية من أجل إنتاج الزبدة ، التي تسمح فضلاتها بتربية الخنازير . كما تتم تربية الأغنام في الجبال والخيول الصغيرة من نوع بوني Poney في السهول لوحة التخصص الرعوي المعد لتموين السوق الإنكليزية . وتتم التجارة الخارجية كلها تقريباً بواسطة ميناء دون لوغهير Dun laoghaire (اسمه سابقاً كينغستون) وميناء دبلن على بواخر بريطانية حيث توجه نحو المملكة المتحدة أربعة أخماس صادراتها ، وتتلقى منها نصف استيرادها على شكل منتجات مصنوعة وبترول وفحم ، ويكون ميزانها



الرياس يوازي البنية على الساحل المعترض - ج غ ارلنده

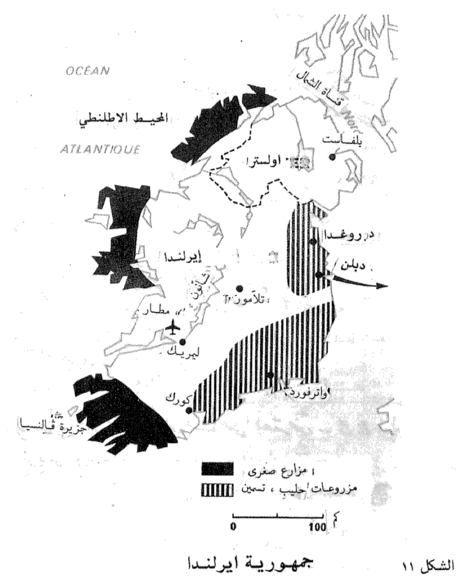
الرياس الإيرلندي . الارتفاعات بالأقدام (٣٣ سم)

الشكل ١٠

التجاري خاسراً بمقدار النصف . ويؤدي وجود مليون إيرلندي في المملكة المتحدة يتمتعون فعلاً بحقوق المواطنين البريطانيين ، وهيمنة اللغة الإنكليزية ، رغم أن اللغة الغاليَّة أصبحت من ناحية المبدأ لغة قومية ، تؤدي جميع هذه العوامل إلى

تقوية العلاقات الإجبارية بين هاتين الدولتين المتكاملتين اقتصادياً ، والداخلتين في كتلة الجنيه الاسترليني .

وبما لا ريب فيه أن تطوراً موائماً يحدث في هذه البلاد ، فقد قامت مراكز كهربائية تستخدم فحم الطورب ، كما قام مركز كهربائي في موقع كيلّلالو



الشكل ١١ جمهورية ايرلندا

Killalоe ، على نهر شانون ، تقدم إجمالاً طاقة قدرها ١,٥ مليار كيلواط ساعي كما تم بناء مصفاة بترول في (وايت - غايت) قرب مدينة كورك . وإذا كانت بعض الصناعات غير الحليبية تحول منتجات الأرض مثل معامل الجعة والتقطير ، لا تزال تنحصر في العاصمة دوبلن ، وهي المدينة الكبرى الوحيدة التي تضم ٥٧٠٠٠٠ نسمة ، فإن صناعات أخرى أضيفت إليها مثل صناعة الأسمدة الكيماوية ، ومختلف أدوات الاستهلاك . كما قامت في مدينة كورك مؤسسة لتركيب سيارات فورد ، ومعمل آخر في جزيرة فالانسيا بالغرب لصناعة الكابلات تحت البحرية . ويستخدم مطار شانون موقع إيرلندا في النهاية الشمالية الغربية لقارة أوروبا . وقد قام في إيرلندا مركز للصناعات الكيماوية لإنتاج ١٥٠ ألف طن من الأسمدة سنوياً ، يعمل فيه ٣٠٠ عامل في بلدة (شلتون - آبي) بجوار مدينة آركلو . ولكن عدد سكان جمهورية إيرلندا البالغ ٣,٥ مليون ، أي كثافة تبلغ ٤٢ نسمة في الكيلومتر المربع ، لم يزد عما كان عليه عام ١٩٣٨ ، لأن التزايد السنوي البالغ ٢٥٠٠٠ نسمة يغذي بالفعل هجرة تحرم البلاد من عناصرها الشابة وتجعل نسبة الوفيات مرتفعة نسبياً . وتظل البلاد كلها عبارة عن قطر متخلف .

جـ - أولستر : تعادل مساحة هذه المنطقة خمس مساحة الجزيرة ، ولكن عدد سكانها يعادل نصف سكان إيرلندا ، فتبلغ الكثافة فيها ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وهي كثافة ضعيفة بالنسبة لبقية المملكة المتحدة ، ولكنها تعادل ضعف الكثافة في بقية الجزيرة . وتكون الزراعة فيها أكثر توازناً وصناعتها أكثر أهمية ، غير أن مدينة بلفاست التي يبلغ عدد سكانها ٤٥٠٠٠٠ نسمة تضم صناعة الكتان وهو تخصص إقليمي ، وصناعة بناء السفن وطائرات كوميت الناتجتين عن علاقاتها مع مدينة غلاسقو . وهكذا يبدو ازدهار منطقة أولستر غريباً عن جزيرة إيرلندا .

وبما أن جمهورية إيرلندا Eire تعني بنفس الوقت كل الجزيرة ، لذلك تطالب حكومة إيرلندا بمنطقة أولستر ، وذلك لأسباب اقتصادية ومعنوية . كما أن الدعم الذي يقدمه المهاجرون لهذه القضية ، حيث تضم نيويورك أكبر مجموعة إيرلندية بالعالم ، يدل على الوفاء العميق الذي يكنه لوطنه الصغير هذا الشعب المرح والمحارب ، والذي يتميز بحبه للأساطير الروائية أو المجيدة العائدة لماضيه ، وبحبه للحرية . والواقع هناك هوة من سوء التفاهم تفصل الروح السلتية عن النفسية الأنكلوسكسونية ، أدت إلى حوادث دامية واغتيالات سياسية وإضرابات عن الطعام حتى الموت ، وهذا منذ أواخر السبعينات حتى الآن .

الكتل الجبلية في بريطانيا العظمى

تتتابع الأراضي المرتفعة التي تشرف بعنف على الساحل الأطلسي ، وتنحدر بهدوء نحو السهول المطلة على بحر الشمال ، من الشمال نحو الجنوب في القسم الغربي من جزيرة بريطانيا العظمى . ولها صفات مشتركة هي : استدارة تضاريسها ورداءة تربها السيليسية المتشكلة محلياً ، أو الناتجة عن مورينات الجموديات الرباعية ، وتؤدي قساوة المناخ إلى حصر المزروعات في الأراضي التي يقل ارتفاعها عن ٣٠٠ م ، كما أن فقر الغطاء النباتي الغابي حرم هذه المنطقة بالماضي من قيام صناعة مستندة على الخشب كصناعة أوروبا القارية . ولا زالت ثروتها من الفحم الأبيض غير مستغلة ، نظراً لأن اقتصاد بريطانيا لا يزال يقوم على الفحم والنفط مجدداً . وتكون الكثافة السكانية الريفية بالأساس ضعيفة جداً في هذه المنطقة .

أ ـ الكتل الإيقوسية :

تعتبر الأراضي المرتفعة التي تشغل أربعة أخماس إيقوسيا فقيرة **بشكل خاص** . فهي كتل متماسكة واقعة في شمال خط العرض ٥٥ وتنتسب إلى السلاسل

الكاليدونية التي عامت في مطلع الدور الأول ، مما يجعل توضعات الطبقات الفحمية للزمن الكاربونيفيري محصورة في **الأراضي المنخفضة الانهدامية** في القسم الأوسط من المنطقة .

وإلى الشمال من منطقة **الأراضي المنخفضة** ، تقع الأراضي العالية (الهايلاند) ، التي تضم الهايلاند الشمالية وجبال غرامبيان المنفصلة عن بعضها بممر غليني مور الانهدامي ، الذي تحول حديثاً إلى قناة تسمى القناة الكاليدونية الصالحة للملاحة .

وتقوم في هذه المنطقة قرى صغيرة جداً ، يعيش فيها فلاحون يزرعون البطاطا والشوفان وهو أساس الوجبة الإيقوسية الوطنية المسماة « بوريدج » ، ويربون الأغنام في المراعي المشاع ولكنهم يتركون معظم الأراضي على شكل أراضي بور ، يمتلكها ملاكون كبار أقوياء . ويمثل هذا التسلسل الاجتماعي ، إلى جانب تماسك « العشير » ، واستخدام اللغة الغالية من قبل حوالي خمس سكان الأراضي المرتفعة ، والعقيدة البربسبيترية ، واحترام تقاليد الأجداد ، **طابع الماضي العميق** .

ويبعث صيد سمك الهارانغ « الرنجة » النشاط في الموانئ حتى جزر أوركاد وشتلاند ، وكل الساحل المشرف على بحر الشمال ، وأهم هذه الموانئ هو آبردين ١٨٠٠٠٠ نسمة الذي يملك أيضاً أكبر معمل للسوبرفوسفات في إيقوسيا (شكل ١٢) . وهناك نوع من تحسين ينفذ إلى القسم الشرقي من الهايلاند الذي دخلته حيازة زراعية أقل فقراً كما تنشط السياحة التي يجذبها فولكلور دائم الحيوية .

وإلى الجنوب من الأراضي المنخفضة « لاولاند » تقع منطقة الآبلاند الجنوبية وجبال شيفيوت التي بنى عليها الامبراطور هادريان أسواره . وهنا تتقدم تربية الأبقار الحلوبة ابتداء من الأراضي المنخفضة نحو الخاصرة الشمالية للآبلاند

الجنوبية . كما ساعدت تربية الغنم على نمو الصناعة الصوفية وأجواخ شفيوت ، كما تنتج جزر هبريد أجواخ تويد ، التي تغزل وتنسج في القرى بحيث يحافظ قدم هذه البنية الصناعية الحرفية على نوعية هذه المصنوعات .

ب ـ الكتل الجبلية الإنكليزية :

إذا كانت منطقة **كمبرلاند** ومنطقة **بلاد الغال** تؤلفان كتلتين جبليتين ثقيلتين ، فإن **سلسلة البنين** ، الضيقة والممتدة على مسافة ٢٤٠ كم ، ومجموعة **كورنوايل** الشديدة التجزؤ واليسيرة المواصلات ، تقع بين هذه الكتل الجبلية المختلفة . وهناك منخفضات غضارية مثل ميدلاند ، توجه أنهاراً هادئة ـ مثل نهري ميرسي وسيفرن ـ نحو مصبات عميقة مثل **قنال بريستول** .



الشكل ١٢

وتربية الأغنام تمارس في الكتل الإنكليزية ، كما هو الحال في كتل إيقوسيا ، ذات الأصواف الجيدة ، كما تربى العجول بفضل وجود المراعي الدائمة حيث تسمن

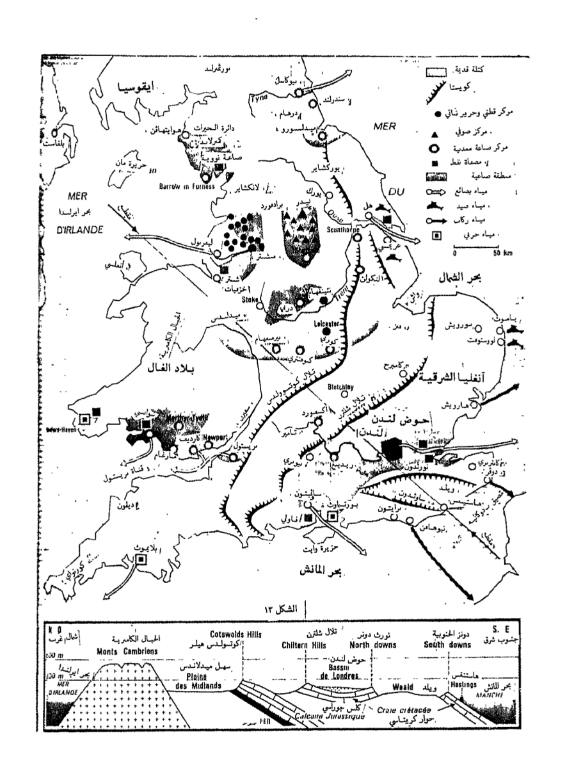
فيما بعد بالسهول القريبة . وتجري في منطقة كورنوايل تربية الثيران المعدة للذبح . كما يقصد السواح العديدون منطقة كمبرلاند الغنية بالبحيرات . وتقع الثروات الحقيقية للمنطقة الجبلية في هوامشها . فالساحل الجنوبي لمنطقة كورنواي يؤلف « إطاراً ذهبياً » مؤلفاً من مزارع الأشجار المثمرة كالتفاحيات والباكوريات ، والزهور (في جزر Scilly) وترسل حاصلاتها إلى العاصمة ، كما ترسل جزر الأنكلونورماندية حاصلاتها أيضاً ، فضلاً عن وجود موانئ صيد تختص بصيد سمك الأسقمري أو الماكرو ، وميناء حربي شهير هو ميناء بلايموث (شكل ١٣) .

الزراعة البريطانية ومناطق الزراعة الحثيثة

لا تقدم زراعة المملكة أكثر من ٣ ٪ من الدخل القومي ولا يعمل بها سوى ٢,٧ ٪ مقابل ٤٪ في ١٩٧٠ (شكل ١٤) أو ٦٦٠٠٠٠ نسمة من السكان العاملين ومع أن الزراعة قد دفعت إلى المؤخرة ظاهرياً لمصلحة النشاط الصناعي والتجاري ، فإنها تؤلف مع ذلك في هذا القطر ذي الإمكانيات الزراعية المحدودة ، نوعاً من نجاح تقني رائع لأنها تقدم ٤٠ ٪ من السعرات الحرارية و ٥٠ ٪ من قيمة الاستهلاك الوطني من منتجات الأرض .

الشروط العامة :

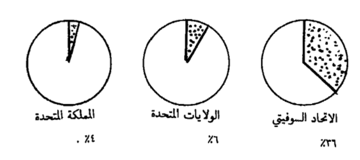
تؤلف الزراعة البريطانية خاتمة مطاف لتطوير ريفي طويل . فبعد نظام الحقول المفتوحة الذي كان سائداً في العصر الوسيط حيث كانت الدورة الزراعية ثلاثية مع حرية الرعي فوق الأراضي البور ، جاء نظام تسييج الأراضي التي حصل عليها كبار الملاكين ، الذين استعاضوا عن البور ، بزراعات علفية ومراع اصطناعية من أجل تغذية الماشية الكبيرة . وقد نتج عن « الثورة الصناعية » في القرن الثامن عشر ، اشتداد الهجرة الريفية التي استمرت حتى القرن التاسع عشر على أثر إلغاء قوانين الحماية الجمركية على الحبوب في عام ١٨٤٦ ، وبسبب التوسع



كتلة قديمة
كويستا
مركز قطني وحرير ثاني
مركز صوفي
مركز صناعة معدنية
مصفاة نفط
منطقة صناعية
ميناء بضائع
ميناء صيد
ميناء ركاب
ميناء حربي
0 50 km
ايقوسيا
MER
DU
MER
بحر ايرلندا
D'IRLANDE
بحر الشمال
بلاد الغال
آنغليا الشرقية
حوض لندن
بحر المانش
نيوكاسل
Tyne
سندرلند
درهام
ميدلسبورو
دائرة البحيرات
جزيرة مان
بلفاست
Barrow in Furness
لانكشاير
يوركشاير
يورك
ليدز
برادفورد
هل
Scunthorpe
ليفربول
مانشستر
Stoke
Leicester
نوتنغهام
دربي
لنكولن
نورويش
يارموث
لوستوفت
برمنغهام
كوفنتري
كامبريج
Bletchley
Merthyr-Tydfil
Newport
كارديف
بريستول
قناة بريستول
ديفون
بلايموث
أكسفورد
ريدينغ
سوثمبتون
بورتسموث
حزيرة وايت
برايتون
نيوهافن
هاستنغس
ويلد
دوفر
كانتربري
هارويش
لندن
تلال كوتسولدس
تلال شلترن
الجبال الكامبرية
N O
شمال غرب
الجبال الكامبرية
Monts Cambriens
Cotswolds Hills
كوتسولدس هيلز
تلال شلترن
Chiltern Hills
نورث دونز
North downs
دونز الجنوبية
South downs
S. E
جنوب شرق
سهل ميدلاندس
Plaine des Midlands
حوض لندن
Bassin de Londres
بحر ايرلندا
MER D'IRLANDE
Weald
ويلد
هاستنغس
Hastings
بحر المانش
MANCHE
كلس جوراسي
Calcaire Jurassique
Craie crétacée
FER

الشكل ١٣

في تربية الماشية المتمشية مع قابلية طبيعة هـذه البلاد للتوسع في المراعي ، ولتزايـد استهلاك سكان المدن من اللحم والحليب ، وتناقصت المساحة المزروعة قمحاً بنسبة ٤٠ ٪ بين ١٨٨٠ و ١٩٣٨ .



الزراعة البريطانية ونسبة العاملين في الزراعة لبقية السكان

الشكل ١٤

وقد نتج عن الحرب العالمية الثانيـة وعلى أثر تنـاقص استيراد المواد الغـذائيـة بفعل حرب الغواصـات ، أن تـوسعت زراعـة الحبـوب من جـديـد . ولكن هـذا الاتجـاه تبـاطـأ بمجرد انتهـاء الحرب . وعلى كل تشغل زراعـة الحبوب حوالي ربع المساحة الزراعية في حين تجنح تربية الماشية للتوسع .

والقـاعـدة هي **الملكيـــة الكبرى** في حين أن الملكيـــة الصغرى والاستغـلال المباشر هو الشذوذ ، فحوالي ثلث مساحة بريطانيا يتألف من ٩٠٠ مزرعـة كبرى فقـط و٥٠٪ من المـزارع تتجـاوز مسـاحتهـا ٥٠ هكتـار مقـابـل ٣٠٪ في فرنسـا . وينطبـق الاستغـلال غير المبـاشر على ٧٠٪ من المسـاحـات المـزروعـة لأن هنـاك متعهـــدين زراعيين أو Farmers ذوي مستـــوى معيشـــة وصنف اجتماعي عـــاليين يشرفون على العمال الـزراعيين الـذين يـؤلفـون ثلثي السكان الريفيين العـاملين ، بينما لا يمثل العمال الزراعيون في فرنسا وفي الولايات المتحدة سوى خمس العـاملين

بـالزراعـة . وبعـد أن كان المسكن الريفي مبعثراً منـذ القرن ١٨ يجنـح الآن نحـو التجمع ، بحيث يتجه الريف البريطاني الآن نحو التحضر .

وإذا تركنا جانباً المناطق ذات الاقتصاد التقليـدي العتيق التي تكلمنـا عنهـا آنفاً ، فإن **الصفة العلمية** للزراعة البريطانية تبدو رائعة كما أن الآلة تـدخل على نطاق واسع فيها .

وهناك دورات زراعية على غاية من التعقيد تمـارس في هـذه البلاد بـإرشـاد المراكز التجريبية في روثمستد Rothmsted وتمنح الحكومة علاوات للذين يحصلون على أفضل مردود . وتعتبر كثـافـة الجرارات ، وهي جرار واحـد لكل ٢٠ هكتـار محروث ، تعتبر أعلى كثافة بالعالم بينما تكون النسبة جرار واحـد لكل ٥٠ هكتـار في فرنسـا . كما أن تربيـة المـاشيـة تخضـع لاصطفـاء متقـدم جـداً . فعروق الغنم البريطانية انتشرت في بقاع كثيرة من العالم وخـاصـة في أستراليـا ، كما سـاهمت في تحسين عروق الغنم الأرجنتينية . كما أن لأبقار درهام ولخنـازير يوركشـاير شهرة عالمية .

وإجمالاً يمكن القول أن السياسة الزراعية الإنكليزية ، هي أذكى سيـاسـة من نوعها بالعالم .

المناطق الزراعية الكبرى :

على عكس إيرلنـدا القطر الزراعي القليـل التطـور ، وعلى خـلاف اقتصـاد الكتل الجبليـة ، وهي منطقـة زراعـات فقيرة وتربيـة عجول ، نجـد أن **سهـول بريطانيا العظمى** تستقطب أهم الثروات الزراعية في البلاد (شكل ١٥) .

ففي الشمال تكـون منطقـة **الـلاولانـد** الأيقـوسيـة عبـارة عن حفرة ردمتهـا لحقيات خصيبة ، تتناثر فيها بعض التلاع البركانية . ويؤدي وجود مـدينـة غلاسقو إلى التخصص في تربية الماشيـة في غرب هـذه المنطقـة الرطيبـة ، بينمـا تميز الحبوب ،

التي يسود بينها الشوفان ، السهول الشرقية الغنية في منطقة فـايف ولوثيـان وفي السهل الشمالي الشرقي الأكثر جفافاً .



الشكل ١٥

وتؤلف **السهول الإنكليزية** المجال الرئيسي للزراعة في المملكة المتحدة ، لأن المراعي الفقيرة لا تشغل سوى عشر المساحة في إنكلترا مقابل ثلثي مساحة أيقوسيا وثلث بلاد الغال .

وتنحصر **تربية الماشية** خاصة في السهول الغضارية ولا سيا في المنخفضات المحيطة بجبال البنين ، الغنية بالمروج الخضراء الدائمة والقريبة من الكتل الجبلية ، التي تربي العجول ، ومن مراكز الاستهلاك في المناطق السوداء أي الصناعية .

وتحتل **الأراضي المحروثة** ذات الترب الحوارية بالشرق ، ذات المناخ الأكثر جفافاً ، حوالي ٢٧٪ من الأراضي الزراعية الإنكليزية . فنجد زراعة الحبوب في مناطق **داونز** Downs إلى جانب تربية واسعة للأغنام على الذرى الجافة وتربية الأبقار في حوض لندن ، لتأمين استهلاك العاصمة كما تهيمن زراعة الحبوب في منطقة آيست آنغليا (شمال شرق لندن) وفي يوركشاير ، كما تتسع زراعة الخضار حول لندن وفي منطقة فنس Fens وعلى الساحل الجنوبي .

الإنتاج :

تشغل كل من زراعة **القمح والشوفان** ، وهما زراعات غذائية ، وزراعة **الشعير** الخصص لتغذية الماشية ولإنتاج الجعة والويسكي ، تشغل حوالي مليون هكتار لكل من هذه الأنواع الثلاثة ويصل إنتاج القمح في بريطانيا إلى ٥,٢ مليون طن والشعير إلى ١٠ ملايين طن والشوفان إلى ٨٠٠٠٠٠ طن . ويبلغ تعداد قطيع الأغنام حوالي ٢٩ مليون رأس ، وقد تناقص عدد الأغنام قليلاً منذ حوالي ٧٥ سنة ، بينما ازداد عدد الأبقار بمقدار الضعف فيبلغ ١٤ مليون رأس . كما ساعد ازدهار الصناعة الحليبية على تزايد عدد قطيع الخنازير فبلغ ٧,٦ ملايين .

كما تتوسع زراعة الشوندر السكري والبطاطا ٥ ملايين طن ، وهما من الزراعات الصناعية مثلما تزدهر أيضاً زراعة الخضار والفواكه .

ولا يكفي هذا الإنتاج لتغذية سكان البلاد . وهكذا تستورد المملكة المتحدة حوالي ثلثي القمح الذي تستهلكه وثلث اللحم وثلثي الجبن وأربعة أخماس السكر والزيوت النباتية وتسعة أعشار الزبدة المستهلكة . وتؤلف مشترياتها الغذائية خمسي قيمة استيرادها .

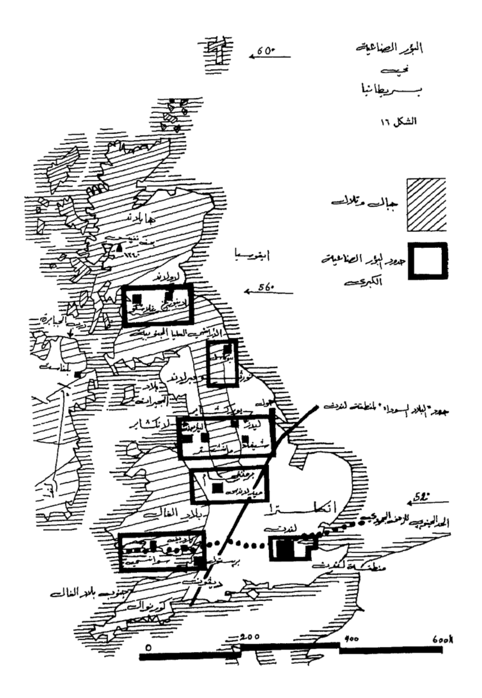
الصناعة والمراكز الصناعية

تحتل المملكة المتحدة المكانة الخامسة بالعالم بين الدول الصناعية بينما تحتل المكانة الثانية بين دول أوروبا الغربية . فيشتغل بالصناعة أكثر من نصف سكانها العاملين وتقدم ٤٥٪ من الدخل القومي . وقد ارتفعت قدرتها الصناعية بنسبة الثلثين منذ عام ١٩٣٨ ، كما يمثل تصدير المنتجات المصنوعة خمس الصادرات العالمية من السلع الصناعية .

تطور الصناعة ومواطنها :

تدين المملكة المتحدة بأسبقيتها في الميدان الصناعي ، التي حصلت عليها في القرن الثامن عشر ، والتي حافظت عليها حتى مطلع القرن العشرين ، إلى الفحم الحجري . كما تدين بذلك أيضاً إلى اختراعات خبرائها التقنيين ، كاكتشاف الفرن العالي العامل بفحم الكوك في عام ١٧٠٩ ، والماكنة البخارية عام ١٧٦٩ ، ونول النسيج وآلة الغزل .

وقبيل الحرب العالمية الأولى ، كان معظم المراكز الصناعية البريطانية متمركزاً في البلاد السوداء أو « بلاك كانتري » وهو اسم يدل بآن واحد على الفحم الحجري ، وإلى اللون الأسود والوسخ الذي يميز كل المدن الصناعية الإنكليزية (شكل ١٦) .


البؤر الصناعية
في
بريطانيا
60°
جبال وتلال
حدود البؤر الصناعية
الكبرى
هايلاند
أيقوسيا
56°
ادنبورغ
غلاسكو
الأراضي العليا الجنوبية
بلفاست
لانكشاير
ليدز
شيفلد
مانشستر
برمنغهام
انكلترا
52°
بلاد الغال
لندن
منطقة لندن
بريستول
كارديف
سوانسي
جنوب بلاد الغال
كورنوال
0
200
400
600

الشكل ١٦

وبعد الحرب العالمية الأولى نتج عن أزمة الصناعات التقليدية وتزايد إنتاج الكهرباء ، التي هي عامل تبعثر القوة المحركة ، أن تناقص سكان بعض المناطق الفحمية مثل جنوب بلاد الغال ونورثمبرلاند . في حين أدى نشوء صناعات جديدة كياوية وميكانيكية إلى توسع واضح في مدينة لندن وفي مدن السهل أي البلاد الخضراء . غير أنه على أثر الحرب العالمية الثانية منحت الصناعات الحربية الحياة للمناطق القديمة التي تناقص سكانها وقد استمرت حيوية هذه المناطق بعد عام ١٩٤٦ على أثر انصراف المعامل الحربية نحو فعاليات السلم (شكل ١٧) .

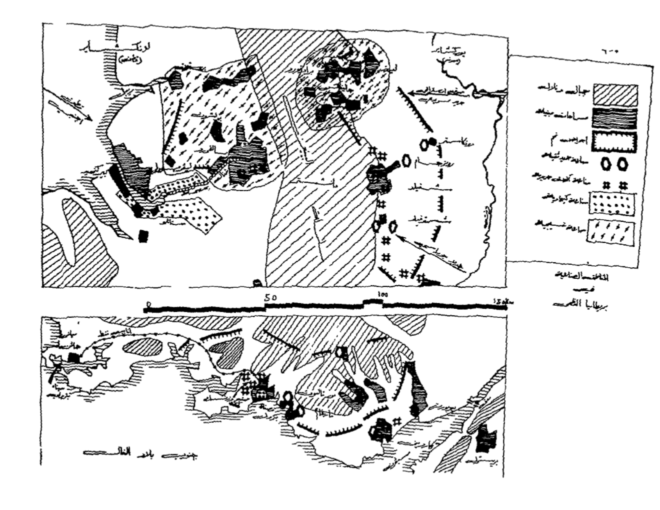
وحالياً يميز في بريطانيا العظمى نموذجان للمناطق الصناعية : من جهة عند قدم الكتل الجبلية أو « **البلاد السوداء** » التي لا تطمس فعاليتها الجديدة تفوق الصناعات التقليدية ومن جهة أخرى **المنطقة اللندنية** التي قامت فيها صناعات حديثة انتشرت في سهول الجنوب الشرقي الخضراء .

الأحواض الفحمية :

ينتج حوض يوركشاير حوالي ٨٠ مليون طن فحم ، أو ما يقارب ٤٠٪ من مجموع الإنتاج ، ويفسر توضع طبقات الفحم المنتظمة في مقعر عند أسفل جبال البنين وحداثة توسع استغلال الحوض نسبياً تفوق الاستخراج الميكانيكي ، وارتفاع إنتاجية العامل ، بحيث يكون ثمن كلفة طون الفحم المستخرج أخفض من أي منطقة أخرى .

أما باقي الأحواض ، فتتصف على العموم بقدم استغلالها مع كلفة استخراج عالية جداً .

وفي منطقة **ثمبرلاند** ، يمتد حالياً استخراج الفحم باتجاه الشرق من طبقات أكثر عمقاً تقع أحياناً تحت مياه البحر . وينتج هذا الحوض ٤٥ مليون طن أو ٢٠٪ من المجموع البريطاني . كما لاتنتج المنطقة **الغالية الجنوبية** التي كانت منطقة


المناطق الصناعية
في
بريطانيا العظمى
جنوب بلاد الغال
شفيلد
0
50
100

الشكل ١٧

تصدير كبرى حالياً أكثر من ٢٥ مليون طن مقابل ٥٧ مليون عام ١٩١٣ ، مثلما لا تقدم أحواض الفحم الثلاثة في **ميدلاند** سوى ٢٥ مليون طن شأن **الأحواض الايقوسية** التي كانت تنتج ٤٢ مليون طن في عام ١٩١٣ ، ولا ينتج حوض لانكشاير سوى ٢٠ مليون طن .

الغاز الطبيعي :

هناك ١٦ شركة تبحث حالياً عن الغاز الطبيعي في بحر الشمال ، واكتشفت بضع مكامن بجوار الساحل الشمالي الشرقي البريطاني . ففي ١٦ / ٥ / ١٩٦٦ اكتشفت شركة « كانسيل » الإنكليزية حقلاً قابلاً للاستغلال من الغاز الطبيعي .

ويقع هذا الحوض على بعد حوالي ١١ كم من مدينة سكاربورو في مقاطعة يوركشاير . وتقدر إمكانيات هذا الحوض الإنتاجية بين ٥ ـ ١٠ ملايين قدم مكعب باليوم .

وحتى عام ١٩٧٠ لم يكن في بريطانيا سوى مكمنين للغاز ، أحدهما يستثمر في Eskdale في يوركشاير والآخر قرب أديمبورغ في ايقوسيا . ومع هذا الاكتشاف الجديد في بحر الشمال ستقدر الطاقة التي سيقدمها الغاز بما يعادل ١٦ مليون طن فحم . وسيستغل قسم من الغاز لإنتاج الطاقة الكهربائية وأهم حقول الغاز هو حقل فريغ Frigg وأهم حقول النفط هي حقل ايكوفيسك وحقل ستانفيورد في شمال شرق جزر شتلاند .

الصناعة الحديدية البريطانية :

يعمل في هذه الصناعة ٤,٧ ملايين عامل أو حوالي نصف اليد العاملة في الصناعات التحويلية مقابل ٣٠٪ في سنة ١٩٣٨ ، وتغذي من حيث القيمة نصف الصادرات تقريباً مقابل الثلث عام ١٩٣٨ .

أ ـ **فالصناعة الحديدية البحتة** تمنح المملكة المتحدة المقام الثامن في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وألمانيا الغربية واليابان والصين وإيطاليا وبولونيا .

فقد ظلت مناطق الميدلاند وايقوسيا وبلاد الغال تستغل حتى أواسط القرن الماضي « البلاك باند » ، وهي طبقات غنية بالفحم وبفلز الحديد المتطبق خلالها . ولكن نضب معين هذه الطبقات . فانتقلت الصناعة الحديدية عندها نحو الأحواض الفحمية الساحلية التي تستطيع استيراد الفلزات المستوردة بحراً ، من جهة أخرى نحو الكويستا الجوراسية ، الغنية بالفلزات الفوسفورية المماثلة لفلزات اللورين الفرنسية ، والتي أصبح استغلالها ممكناً ابتداء من عام ١٨٧٨ بفضل اكتشاف (توماس وغيلكريست) لوسائل نزع الفوسفور من جهة أخرى .

وتقدم منطقة **الكويستا الجوراسية** حالياً معظم الإنتاج البريطاني من فلزات الحديد البالغ ١٥ مليون طن من الحديد البريطاني ، وخاصة حول مدينة نورثامبتون .

وتستورد **الأحواض الفحمية الساحلية** ١٠ ملايين طن من الفلزات العالية النسبة من السويد ، ومن أقطار المغرب ، ومن إسبانيا ، وفرنسا ، وسيراليون ، وكندا . ويتفوق إنتاج الفونت على الفولاذ في منطقة النورثمبرلاند ، والفولاذ على الفونت في جنوب الغال وايقوسيا . ويعادل هذا الإنتاج الساحلي بالإضافة إلى إنتاج المراكز الثانوية في جنوب بلاد الغال وكمبرلاند والمنطقة اللندنية حوالي ٥٠٪ من الفونت و٦٠٪ من الفولاذ البريطانيين .

وتختص **الأحواض الفحمية الداخلية** في إنتاج أنواع الفولاذ الممتازة كما في منطقة ميدلاند ويوركشاير الوسطى وبعد أن كانت بريطانيا تنتج نصف الفولاذ العالمي قبل ٨٠ عاماً إذ بها لا تنتج حالياً أكثر من ٧٪ منه غير أن إنتاجها

ارتفع بين عـام ١٩٣٨ وعـام ١٩٧٣ من ٧ ملايين طن فونت إلى ١٥ ومن ١٠ ملايين طن فـولاذ إلى ٢٦,٧ . وقـد بلـغ الإنتـاج عــام ١٩٧٣ / ١٦,٦ مليـون طن فـونت و٢٦,٧ مليـون طن فـولاذ وهبـط في ١٩٨١ إلى ٩,٦ مليـون طن من الفـونت وإلى ١٥,٥ مليون طن من الفولاذ .

المعادن غير الحديدية : بعد أن نضبت المناجم الإنكليزية أصبحت المملكة المتحـدة تستورد هـذه الفلـزات وتصفيهـا بجـوار المـوانئ ، كما في ليفربـول ولنـدن وسوانسي فاحتلت بذلك الدرجة الثانيـة في مضمار تصفيـة القصـدير والثـامنـة في تصفية النحاس في منطقة الميدلاند وخاصـة في بيرمنغهـام وفي منطقـة يوركشـاير (في مدينة شيفلد) وفي جنوب بلاد الغال (مدينـة سوانسي) . وتكون صنـاعـة الألمنيـوم أكثر أهميـة لأنهـا تنتـج حـاليـاً ٣٠٠٠٠٠ طـون من الألمنيـوم اعتماداً على الآلومين المستورد في معامل متفرقة في منطقة الهايلاند .

ب ـ للصناعات الحديدية التحويلية أهمية تمنح المملكة المتحـدة مكانـة عالية من حيث بعض الاختصـاصـات التقليـديـة ، ومن نـاحيـة تنوع المنتجـات الحالية . **فصناعة بناء السفن** تكون ناشطة خاصة في ترسـانـات نهر الكلايـد حول مدينـة غلاسقو ، حيث تبني عـادة أضخم السفن مثل كوين مـاري وكوين اليزابيت ، وفي مصبـات أنهـار النورثمبرلانـد ومصب التـاين (نيوكاسـل) ونهر تي (ميــدلسبـورو) ونهر وير (سنــدرلانــد) حيث تبنى سفن الشحن ونــاقـلات النفط . غير أن التفوق البريطاني يبدو في هذا المضمار مهدداً ، لأن المملكة المتحدة لم تنزل إلى البحر سوى ١٥٪ من السفن العالمية التي تم بناؤها عام ١٩٦١ مقابل ٦٠٪ عـام ١٩١٣ بينمـا أنزلت اليـابـان للبحر في عـام ١٩٦١ / ٢٣٪ من السفن المبنيـة في تلك السنة ، وأنزلت إلى البحر في عام ١٩٨١ سفنـاً بلغت حمولتهـا ٣٣٩٠٠٠ مليون طنة مقابل ٨,٨ مليون طنة في اليابان في حين تفوقت تـايوان على بريطـانيـا في هذا المضمار .

هذا وتحتل **صناعة السيارات** المكانة الرابعة بالعالم وراء اليابان والولايات المتحدة وألمانيا الغربية ، ويعمل في هذه الصناعة ٣٠٠٠٠٠ عامل . وتنتج وسطياً ٢ مليون سيارة بالسنة يصدر منها للخارج حوالي ٤٠٪ من الإنتاج . ولكن هذه الصناعة تقع تحت التهديد الياباني والألماني والأميركي ، لأن شركات السيارات الأميركية أقامت فروعاً لها في ضواحي لندن ، وقد بنت في ١٩٧٧ مقدار ١,٣٢ مليون سيارة سياحية (في برمنغهام وكوفنتري) مقابل ٣٨٧٠٠٠ سيارة نفعية للاستخدام العام .

ونذكر من بين **الصناعات الميكانيكية التقليدية** ، صناعة بناء قاطرات وعربات السكك الحديدية التي تحتل المكانة الثالثة بالعالم ، وتصدر نصف إنتاجها ، وصناعة المكائن الزراعية (في سهل الجنوب الشرقي) وصناعات ماكينات النسيج في منطقة لانكاشاير ووست ريدينغ .

هذا وتتقدم **الصناعات الحديثة** : مثل صناعة الطائرات التي تمثل الدرجة الثالثة بالعالم ، ويأتي نصف إنتاجها من منطقة سهول الجنوب الشرقي . وصناعة آلات الضبط مثل الأجهزة الكهربائية وخاصة في منطقة لندن .

جـ ـ النماذج المختلفة لمناطق الصناعات المعدنية :

وقد نتجت عن توسع صناعة راقية جداً في بريطانيا مع مشاهد حضرية فريدة وهي :

مناطق الصناعات المعدنية الساحلية : أي في نورثمبرلاند ، وجنوب بلاد الغال وبجوار نهر الكلايد ، وتختص بالصناعات المعدنية نصف الجاهزة ، وفي صناعة بناء السفن وقاطرات السكة الحديدية وفي المعادن غير الحديدية . واستقر عدد سكان بعض المدن الكبرى القديمة في القرن ١٩ أمثال كارديف ونيوكاسل ، بحدود ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . أما غلاسقو فتتوسع قليلاً وعدد سكانها ١,٧ مليون نسمة

ما عدا برستول ذات الصناعات المتنوعة والتي ارتفع عدد سكانها بحدود الثلثين منذ عام ١٩٢١ فوصل إلى ٤٥٠,٠٠٠ نسمة .

ومن المناطق الصناعية المعدنية الداخلية نذكر الميدلاند ، التي انحطت فيها الصناعة المعدنية المحلية ، فاختصت منذ مطلع القرن ١٩ بصناعة معدنية شديدة التنوع كالأنابيب والبراغي وأسلاك النحاس والسيارات والأدوات المنزلية والآلات الصانعة والأدوات الكهربائية . فتحتوي **بيرمنغهام** وسكانها ١,١ مليون نسمة ، على مركز تجاري و إداري تقوم حوله أحياء تضم مؤسسات صناعية وأحياء عمالية تسود فيها كآبة الهندسة خلف منطقة منجمية ذات أرض مقلوبة ، تكثر فيها برك الماء ، وتهيمن عليها تلال أتربة المناجم وفضلات صناعة المعادن ، وأبنية المعامل المهجورة الواقعة بين أحياء العمال والمعامل والمحطات . وتلحق بها مدن تابعة بحيث يربو سكان المجموع على المليونين . ونجد نفس الفعالية الاقتصادية في شيشاير (Crewe) وفي يوركشاير الجنوبية كما في مدينة ذربي ذات الصناعات الميكانيكية العديدة التي تتراوح بين حصادة المرج وسيارة رولزرويس الفخمة .

وبمقابل ذلك نجد **الصناعة المعدنية في البلاد الخضراء** في الجنوب الشرقي حيث تتبعثر الصناعات الشديدة التخصص ، مثل صناعة السيارات والطائرات والصناعات الكهربائية بين مدن السهل الصغرى ، وأهمها معامل سيارات موريس في أوكسفورد .

الصناعة النسيجية ومناطقها :

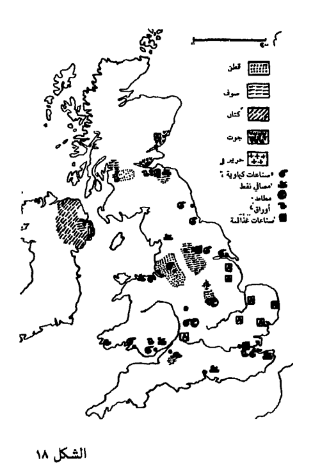
تتعرض الصناعات النسيجية ، التي كان دورها أساسياً في الاقتصاد البريطاني ، إلى أزمة خطيرة . فهي لم تعد تؤمن العمل لأكثر من ٨٪ من الأيدي العاملة ، ولا تحتل في التجارة أكثر من ٩٪ .

وتتمركز الصناعة القطنية في لانكاشاير بسبب رطوبة المناخ الموائمة لغزل الألياف ، ولنقاوة مياه نهر ميرسي ، ولوجود حوض فحمي ومنجم ملح صخري

شيشاير (وهي مادة ثمينة للصباغ) ولسهولة الاستيراد بواسطة ميناء ليفربول وبواسطة قناة مانشستر . وتؤلف منطقة الكلايد المركز البريطاني الثاني لهذه الصناعة (شكل ١٨) .

ويغزل القطن في جنوب شرق لانكاشاير (في مدينتي بولتون وأولدهام) وينسج في الشمال الشرقي (في مدينتي بلاكبون وبريستون) . ولكن لا تزال الآلات قديمة . وهكذا لم تصدر مانشستر ، التي هي المركز الكبير لتوزيع المنسوجات المنتهية ، أكثر من ربع الإنتاج الذي انحدر إلى المكانة السابعة في العالم بعد أن كانت تصدر ٨٠٪ في عام ١٩١٣

وتتمركز **الصناعة الصوفية** خاصة في الويست ريدينغ (يوركشاير الشمالية) ، وتنسج قسماً من الصوف الذي تستورده لندن ، بينما تنسج مدينة وكيفيلد الصوف الذي يستورد بواسطة ميناء هل (Hull) . وينسج الصوف الممشط وهو اختصاص بريطاني بحت في مدينة برادفورد وعدد سكانها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة بينما ينسج الصوف المندوف والخشن في مدينة ليدز وسكانها ٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وهكذا يحتل إنتاج منطقة ويست ريدينغ المكانة الثانية بالعالم .



الشكل ١٨

الإنتاج الصناعي الخفيف في بريطانيا

ويصنع الجوت في دندي Dundee ، والكتان والقنب في بلفـاست ، والحرير في دربي ، وهي صناعات نسيجية ذات أهمية ثـانويـة ، ولكن تزدهر المنسوجـات الاصطناعية كصناعة الفيبران التي تحتل المكانة الرابعة بـالعـالم ، وصنـاعـة الحرير الاصطناعي ، والنايلون التي تحتل المكانة العالمية الثالثة .

الصناعات الأخرى :

تحتوي بريطانيا على كل الصناعات المعروفة تقريباً .

فالصناعات الكيماوية التي ظلت بـالمقـام الثـاني مـدة طويلـة تضـاعفت قدرتها ثلاث مرات منذ عـام ١٩٣٨ تحت إشراف شركـة « الصنـاعـات الكيميـائيـة الامبراطورية المحدودة » وقد قامت هذه الصنـاعـات بـالبـدء قرب مـانشستر فوق ملح منطقة شيشاير ، ثم توسعت في مناطق الصناعات الحـديـديـة مستفيـدة من فضلات صناعة فحم الكوك كما في نورثمبرلاند ومن جوار مصافي البترول بعـدئـذ . وتشرف شركة (أونيلفر) على صناعـة الزيوت النبـاتيـة والصـابون والمطـاحن كما تقوم مصانع الاسمنت قرب التاميز ، المكانة الثانيـة في التصـدير العـالمي . وتتوزع الصنـاعـات الغـذائيـة في السهـول الـزراعيـة والمـوانئ . وتصنـع مـدينـة ليستر Leicester الأحذية ولندن الألبسة .

الموانئ البريطانية

لا يفوق نشاط الموانئ البريطانية إلا موانئ الولايـات المتحـدة واليـابـان . ولكن المملكة المتحدة تأتي بعـد هولنـدا وبلجيكا من وجهـة النظر إلى نسبـة هـذا النشاط إلى عدد السكان .

العوامل الملائمة :

إنها قبل كل شيء شروط الموضع الناجـة عن كثرة تعرجـات السواحل وكثرة

المصبات بحيث لا توجد في بريطانيا نقطة تبعد عن موجة المد البحري أكثر من ١٢٠ كم .

أما شروط الموقع فهي أكثر مناسبة أيضاً ، نظراً لغنى الأقطار الأوروبية والأميركية التي تتوسط الموانئ البريطانية بينها ، بالإضافة إلى الاقتصاد الحثيث السائد في ظهير هذه الموانئ والذي يتصل معها بسهولة ويسر .

وتتم المواصلات بواسطة الأقنية النهرية ، التي حفرت في القرن ١٨ والتي تؤلف منطقة ميدلاند عقدتها الوسطى ، ولكن تتفوق على الأقنية المواصلات بواسطة الخطوط الحديدية ، التي يعادل نشاطها ضعف نشاط مثيلتها في فرنسا . وتحتل كثافتها المكانة الثالثة بالعالم بعد بلجيكا وهولندا ؛ وتلعب الطرق المعبدة دورها رغم كثرة تعرجاتها ، وتم تنفيذ مشروع لبناء ثلاثة طرق كبرى (أوتوروت) بين لندن ويوركشاير ولانكاشاير من جهة ، وبين موانئ بحر المانش . كما ترتبط الموانئ ببعضها بواسطة السفن الساحلية التي يؤلف نشاطها ٣٦٪ من نشاط الأسطول التجاري البريطاني .

النماذج المختلفة للموانئ :

إن الموانئ المتخصصة هي موانئ الفحم الحجري ، والموانئ العسكرية مثل بروتسماوث وبلايموث وموانئ سفر الركاب .

وهكذا نجد أن موانئ الصيد تتناثر على طول بحر الشمال . فالموانئ الايقوسية العديدة تمارس صيداً حرفياً كصيد القشريات والقواقع وصيد سمك الهارانغ في عرض البحر ، وتبلغ ما تصيده ثلث الإنتاج البريطاني من الأسماك . أما الموانئ الإنكليزية وموانئ منطقة بلاد الغال ، فتمارس صيد الأسماك في بحر الشمال عدا موانئ غريمسبي وهول وفليتوود التي يتجه صيادوها نحو المحيط

الأطلسي . وتقع في موانئ الصيد المذكورة شركات الصيد الكبرى مثل ميناء غريمسبي الذي يحتل المكانة الأولى بالعالم .

وتؤمن بعض موانئ المسافرين العلاقات بين الجزر ومع القارة الأوروبية ، وتقع أكثر هذه الموانئ على بحر المانش ومنطقة بادوكاليه كميناء دوفر ، ولا تتلقى هذه الموانئ ، عدا المسافرين ، سوى البضائع الخفيفة أو السلع القابلة للفساد المرسلة إلى لندن . غير أن الموانئ ذات الفعاليات المتنوعة هي التي تؤمن المواصلات عبر المحيطات ، فمن ميناء ليفربول تنطلق السفن الكبرى باتجاه الولايات المتحدة ، كما أصبح ميناء ساوثامبتون ميناءً كبيراً لتوقف السفن العابرة للمحيط .

أما الموانئ ذات الفعاليات المتنوعة ، فهي موانئ إقليمية تخدم مدينة معينة أو منطقة اقتصادية فيفوق نشاط مينائي هل وغلاسقو من حيث القيمة أو الوزن نشاط مينائي كارديف أو نيوكاسل ، وهما يعملان لخدمة مناطق صناعات حديدية فقط .

ويؤمن ميناء ليفربول العلاقات مع إيرلندا ، مثلما كان ميناء استعمارياً خسر دوره كمستودع دولي للمنتجات المدارية ، ويرتبط ميناء مانشستر مباشرة بنهر ميرسي بواسطة قنال شيب ويقوم باستيراد القطن المصري وبتصدير الأقمشة القطنية . ويظل ميناء ليفربول المصرف الوحيد لمقاطعة لانكاشاير ، فيستورد القطن الأميركي والمواد الغذائية والمواد الأولية المتنوعة ويصدر المنتجات المصنوعة بفضل ارتباطاته مع منطقة الميدلاند واليوركشاير .

ويعتبر ميناء ليفربول ثاني ميناء بريطاني من ناحية وزن البضائع المنقولة ١٧ مليون طون ومن ناحية النظر إلى قيمة السلع ، ولعلاقاته مع القارة الأميركية . ولهذا الميناء علاقات متفرعة تعادل علاقات ميناء لندن .

لندن الميناء والمدينة :

ميناء لندن : لقد نتج موقع ميناء لندن عن وجود مخاضة ويستمينستر التي كانت تسمح للطريق الذاهب من الجنوب للشمال باجتياز نهر التاميز في مكان كانت تصعد إليه موجة المد . وبعد أن كان أول ميناء بالعالم في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، أصبح الآن في المكانة الخامسة بعد نيويورك وروتردام وهامبتون رود والكويت .

وقد أمكن تنظيم مجرى التاميز بحيث أصبح عمقه في وسط النهر ٩,١٥ م في حالة الجزر ، كما تم حفر أحواض أو « دوك » تدريجياً باتجاه سافلة النهر ، ضمن اللحقيات ، وذلك على مسافة تقارب ٤٠ كيلو متر . وتستقبل الأحواض الواقعة قرب نواة المدينة القديمة « السيتي » الحاصلات التقليدية التي تعتبر لندن سوقاً عالمياً لها مثل الصوف ومشروب الروم والسكر ، وباتجاه السافلة ، تتلقى اللحوم والحبوب وقرب المصب الإسمنت والأخشاب والبترول الخام ، الذي يصفى في مصافي شل هافن وفي « ثامسهافن » .

ـ نشاط الميناء : تبلغ الحمولة الصافية ٥٨ مليون طن ، مما يجعل هذا الميناء أول ميناء بريطاني ، إذ يقوم بربع التجارة الخارجية البريطانية وبسدس التجارة الساحلية في المملكة المتحدة . ويكون حجم الاستيراد ضعف التصدير .

وتستقبل لندن من مجموع استيراد المملكة المتحدة من المواد الغذائية ما يعادل : ثلثي الشاي ونصف السكر والكاكاو واللحم والزبدة . أما بالنسبة للمواد الخام فتستقبل نصف المطاط ، وثلثي الصوف ومعجونة الورق .

وإذا كانت لندن قد خسرت دورها كعنبر عالمي للبضائع الثمينة ، وإذا كان دورها كميناء وطني للتوزيع في تقهقر ، فإن لندن أصبحت على الخصوص ميناء

يعمل لخدمة كتلة بشرية تزيد عن ثمانية ملايين نسمة وميناءً إقليمياً للسهول الجنوبية الشرقية .

لندن الكبرى : كانت لندن تضم في القرن السابع عشر ٦٠٠٠٠٠ نسمة ، في الوقت الذي كانت فيه بريستول وهي ثاني مدينة في المملكة حينذاك ، لا تحوي سوى ٣٠٠٠٠ نسمة . أما اليوم فإن كونتية لندن تضم ٣,٤ ملايين نسمة فوق مساحة قدرها ٣٠٠ كيلومتر مربع ، بينما تضم لندن الكبرى أكثر من ٨,٤ ملايين نسمة .

ـ **وظائفها العمرانية :** وأهم هذه الوظائف الوظيفة **التجارية** ، والوظيفة **المالية** ، ومقرهما السيتي التي تتفرغ ليلاً ويوم الأحد من محتواها البشري . بينما تضم في أوقات العمل ، نصف مليون نسمة ، وفيها نجد سلطة الميناء ، وأسواق البورصة والسمسرة على عينات البضائع ، والبنوك وشركات التأمين وهنا يقع قلب منطقة الاسترليني والقوة البريطانية . أما في عالية السيتي فنجد المركز **الإداري** والمركز **السياسي** . حيث يقع قصر بكنغهام الملكي ، وقصر البرلمان . ويكون للمركز **الثقافي** (الجامعة) الواقع في شمالي المدينة ، أهمية تقل نسبياً عن أهمية جامعة باريس . أما على الضفة اليمنى فيقع الحي السكني الذي تقطنه الطبقات الوسطى من مستخدمين وموظفين ، وعلى الضفة اليسرى يقع حي الويست آند ، وهو حي الطبقات الغنية ويمتد تدريجياً نحو الجنوب والغرب .

ـ **أما الوظيفة الصناعية :** فتقوم في شرق المدينة . قرب الميناء حيث تقطن طبقة عاملة كثيفة مزدحمة في المساكن الرديئة أو Slums في أحياء إيست آند . وتقع الصناعات التقليدية مثل صناعة الألبسة والموبيليا والطباعة ، وصناعة الفراشي ، والمحفوظات قرب مركز لندن . وتتمركز صناعة الورق والإسمنت قرب كريفزاند Gravesend ، بينما تقوم الصناعات الميكانيكية مثل صناعة الطائرات والسيارات والأدوات الكهربائية ، والصناعات الكيماوية ، في الجهة الجنوبية

الشرقية والشمال الشرقي ومجدداً في شمال غرب لنـدن . وتقوم خلف لنـدن الكبرى الصناعات في المدن المجاورة مثل ريدينغ ، كما تتحول القرى إلى (مدن مهاجع) ، ينتقل سكانها يومياً إلى أعمالهم بواسطة السيارات والقطـارات أكثر من القطـارات الأرضية (المتروبوليتان) .

ويضيف جو لندن ذو السماء الرمادية ، وذو البيوت المصنوعة من القرميـد ، الذي تحوله الرطوبة نحو اللون الأسود مع الزمن ، تأثيره إلى رتابة مناظر المـدينـة ولكن إذا افتقرت لندن من الجمال فهي تملـك جوهـا الخـاص الـذي هو عبـارة عن خليط يعسر وصفه ، مؤلف من الضباب والـدخـان ورائحـة تبغ فرجينيـا ، ومن سخام تخترقه بعض النفحات البحرية .

التجارة البريطانية

تمثل المبادلات التجارية التي يستند عليهـا كل اقتصـاد المملكـة المتحـدة من حيث القيمة ١٢٪ من صادرات العالم و١٠٪ من استيراده .

الدور الحيوي لهذه المبادلات :

ففي مجـال **الاستيراد** تمثـل **الحـاصـلات الغـذائيـة** : كاللحـوم والحبـوب والشاي ، والقهوة ، ومنتجات الألبان ، والسكر والتبغ حوالي ١٦٪ مقابل ٤٩٪ في عام ١٩٣٨ **والمواد الأولية** : كالفلزات المعدنية والصوف والخشب والقطن بنسبـة ١٠,٣٪ **والمنتجـات المصنـوعـة** (وثلثهـا من المعـادن المنتهيـة) بنسبـة ٢٣٪ **والوقود** بنسبة ١٨٪ لأن استيرادهـا من الفحم الحجري في تزايـد ، وأصبحت من الدول المصدرة للبترول . ويلاحظ في قائمة **الصادرات** ضعف الدور الـذي تلعبـه المنتجـات الغـذائيـة التي لا تمثل سـوى ٦,٥٪ والمـواد الأوليـة ٣٪ منـذ أن انحطت فعـاليـة إعـادة التصـدير والتوزيع ، وضعف صـادرات الوقـود وهي ٥٪ منـذ أن

توقفت بريطانيا عن تصدير الفحم للخارج ، مما سمح بارتفاع نسبة تصدير المنتجات المصنوعة التي أصبحت تمثل ٤٠٪ وتتألف هذه بنسبة النصف من آلات ميكانيكية فصادرات المكائن الكهربائية ، التي تتجاوز صادرات المنتجات التعدينية ، وتعادل تسعة أعشار المنتجات الكيماوية وثلث المصنوعات النسيجية .

وإذا كانت المملكة المتحدة لم تعد بعد اليوم مستودع سلع العالم ، لأن المواد التي تصدرها ثانية لا تمثل أكثر من ٥٪ من مبيعاتها ، فإن تجارتها تقدم لها ثلاثة أخماس غذائها ، و١٣٪ من وقودها ، و٥٠٪ من فلزات حديدها ، وكل معادنها غير الحديدية تقريباً ، وخشبها وصوفها ، وكل قطنها . إذن فتجارتها هي التي تمون صناعتها إلى حد بعيد والتي يذهب ربع إنتاجها للتصدير .

والعجز التجاري البارز ، سواء من ناحية الوزن أو القيمة ، وهو من ظواهر الأزمة الأوروبية في القرن العشرين ، أصبح من نصيب بريطانيا منذ عام ١٩٣٥ ، إذ بلغ عجزها ٤ مليارات جنيه استرليني في عام ١٩٧٧ ، وفي الوقت الحاضر ، يبدو العجز خفيفاً بالنسبة لمنطقه الاسترليني وبالنسبة لأقطار أوروبا الغربية . ولكن عدم التوازن التجاري يكون أكثر وضوحاً تجاه الأقطار غير الاسترلينية مثل أمريكا الجنوبية ، التي تصدر اللحم لبريطانيا ، وأقطار البحر المتوسط التي تصدر الفواكه ، والكتلة الاشتراكية . ولكن نصف العجز الكلي ينتج عن علاقات بريطانيا مع أقطار منطقة الدولار حيث تستورد المملكة المتحدة منها القمح والقطن والسكر والتبغ .

بيد أن **ميزان المدفوعات** يمثل في السنين الأخيرة ، فائضاً محترماً جداً ، أي أن العجز التجاري يتسدد وزيادة بفضل مختلف « الصادرات اللامرئية » التي أخذت تلعب دورها منذ القرن الماضي ، (وأهمها أرباح الأموال الموظفة بالخارج وأرباح الأسطول الخ) . غير أن هذه الصادرات تناقصت خلال الحرب العالمية

الثانية ، لأن المملكة المتحدة التي بذلت جهداً خارقاً خلال الحرب المذكورة قسرتها الحرب على سحب ربع أموالها في الخارج .

هذا وقد اضطرت المملكة المتحدة من أجل إعادة بناء مدنها المتهدمة وبناء أسطولها إلى الاستدانة ، حتى ان احتياطيها أقل بكثير من مطاليب دائنيها . وهكذا يظل التوازن المالي البريطاني متقلقلاً .

ملامح اتجاه الاقتصاد البريطاني

لقد عمدت المملكة المتحدة إلى تخفيض استيرادها الذي بلغ ١٨٪ من استيراد دول العالم ، و١٢٪ في عام ١٩٥٦ ، كما انخفضت صادراتها التي بلغت ١٠٪ من صادرات العالم عام ١٩٣٧ وظلت كذلك في ١٩٥٦ . ويفسر هذا النجاح النسبي بتوسع صناعاتها وبسياسة التقشف التي سلكتها .

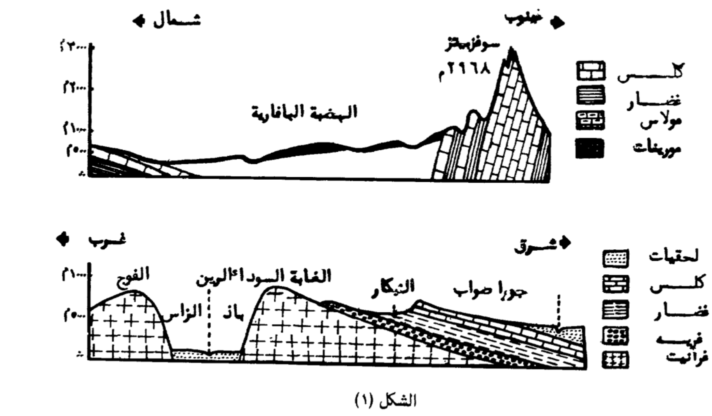
غير أن التوازن البريطاني يتعلق بتماسك منطقة الاسترليني . فالمملكة المتحدة تجد في هذه المنطقة ٤٥٪ من وزن صادراتها واستيرادها . كما تستورد منها ٣٩٪ من استيرادها ، وترسل إليها ٤٤٪ من صادراتها . فهي تستمد من هذه المنطقة كل الفائض الغذائي كما تشترك مع كندا في شراء كل الفائض المعدني ، كما تصدر لهذه المنطقة ، وخاصة نحو أفريقيا ، أكثر شطر من منتجاتها الصناعية . كما تستفيد بريطانيا من أن منطقة الاسترليني التي يتوازن ميزانها بصعوبة ، تملك فائضاً من الدولارات ، على خلاف المملكة المتحدة . وقد أصبح الهم الرئيسي للعاصمة البريطانية ، لا سيا وأن تصنيع الدومنيون صار أمراً لا يمكن مقاومته ، هو حماية المنطقة الاسترلينية من دخول رؤوس الأموال الأميركية ، وهذا ما يفترض ثبات التوظيفات الإنكليزية وكفايتها .

كما يظهر التنافس بين الجنيه والنقد النادر ، وخاصة الدولار ، بشكل أوضح في بقية أنحاء العالم . وتتجه لندن نحو توسيع علاقاتها التجارية مع الأقطار

الاشتراكية ولا سيا الصين والبلدان النفطية العربية . كما يخلق نشاط السوق المشتركة الأوروبية مشكلة خطيرة بالنسبة للمملكة المتحدة ، كما تثير مسألة انتساب المملكة المتحدة للسوق المشتركة هياجاً في الرأي العام البريطاني ، ولدى الدول الأوروبية إلى أن انتسبت إلى هذه السوق في السبعينات على مضض . فتجارة هذه السوق أصبحت تعادل تجارة منطقة الدولار أو تجارة منطقة الاسترليني . فالتجارة الألمانية التي كانت تعادل نصف التجارة البريطانية في عام ١٩٥٠ أصبحت لا تقل عنها حالياً ، وهكذا أصبحت الصادرات الألمانية تقدم ١٦٪ من الصادرات العالمية من المنتجات المصنوعة مقابل ١٩٪ لبريطانيا و٢٥٪ للولايات المتحدة .

غير أن العلاقات تتجه نحو الانسجام بين المملكة المتحدة والقارة الأوروبية . فترابط الشبكة الكهربائية الإنكليزية الفرنسية ، الذي ابتدأ في عام ١٩٦٠ ، يفيد من تأخير ساعة بين حدي الاستهلاك الشديدين ، كما يبدو أن النفق الذي سيمر منه الخط الحديدي تحت بحر المانش سيتحقق قريباً . وهكذا نجد أن المملكة المتحدة التي توثق علاقاتها مع منطقة الاسترليني والكومنولث ، تتخلى تدريجياً عن عزلتها بالنسبة لباقي أوروبا وتعمل جاهدة لدعم كيانها الاقتصادي في منظمة السوق الأوروبية .

☆ ☆ ☆



شمال
جنوب
٣٠٠٠م
٢٠٠٠م
١٠٠٠م
٥٠٠م
٠
٢٩٦٨م
الهضبة البافارية
كلس
غضار
مولاس
مورينات
غرب
شرق
١٠٠٠م
٥٠٠م
٠
الفوج
الزاس
باز
الراين
الغابة السوداء
النيكار
جورا صواب
لحقيات
كلس
غضار
غرانيت

الشكل (١)

ألمانيا

تعتبر أوروبا الوسطى منطقة « ضغط ديموغرافي » واقتصادي مرتفع .

فهي مكان تلاقي شعوب ، يمثل السلاف والجرمان بينها أكثر المجموعات اللغوية أهمية . ويؤلف الألمان شعباً في حالة مسيرة ، شعباً غني بالتناقضات ، يبحث بصورة دائبة عن وحدته مثلما يبحث عن حدوده .

١ ـ مقدمة عن أوروبا الوسطى الجرمانية

تشتمل أوروبا الوسطى على ثلاث مناطق طبيعية هي : النطاق الألبي بالجنوب ، النطاق الهرسيني في الوسط ، وأخيراً السهل الجرماني البولوني الكبير .

وتؤلف أوروبا الوسطى ، التي تعتبر إقليماً انتقالياً ، امتداداً ملطفاً للمناطق المجاورة . فهي أقل تجزؤاً ـ على شكل جزر وأشباه جزر ـ من أوربا الغربية . وهي أقل قارية من الاتحاد السوفييتي المتلاحم الأجزاء . كما أن طبوغرافيتها تبدو ذات مظاهر أقل تنوعاً من الأقطار المطلة على البحر المتوسط . غير أن تضاريس أوربا الوسطى تحوي عدة مجموعات طبيعية كبرى .

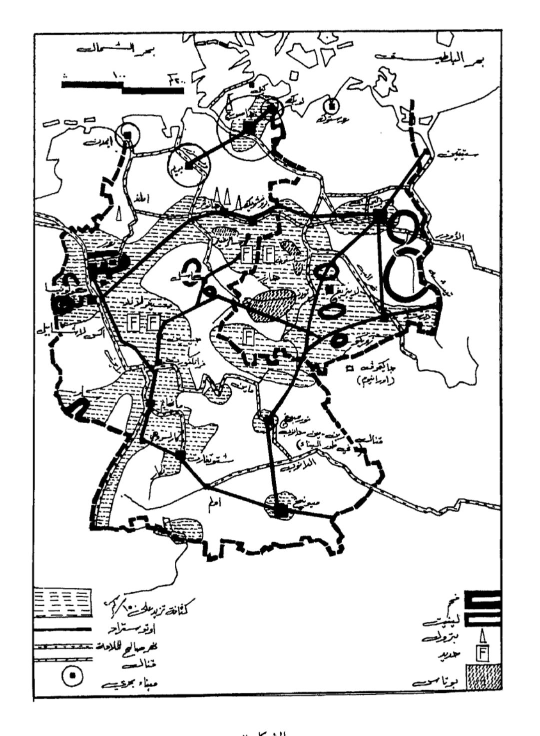
أولاً ـ ففي الجنوب تؤلف كل من جبال **الألب والكاربات** قوساً جبلياً ، مؤلفاً من كتلة هائلة من الصخور الرسوبية ، التي نهضت والتوت خلال الدور الثالث ، وتعرضت بعدئذ للحت الجمودي والنهري فضلاً عن العوامل الجوية الأخرى .

هذا ويمتد **القوس الألبي** على مسافة ١٣٠٠ كيلومتر ، ابتداء من خليج جنوا إلى حوض فيينا ، ففي الغرب تكون جبال الألب أقل عرضاً ولكنها أكثر ارتفاعاً ، فيرتفع جبل **مون بلان** M. Blanc إلى ٤٨٠٧ م وهو أعلى جبل في أوروبا كلها ، وجبل **سيرفان** Cervin إلى ٤٤٨١ م . وتظهر جبال الألب الشرقية أكثر عرضاً وأقل ارتفاعاً إذ يتجاوز عرضها ٣٠٠ كم ، ولكن ارتفاعها يقل عن ٣٠٠٠ م .

ثانياً ـ وتتألف أوربا الوسطى ، في قسمها الأوسط ، من أشباه سهول ناهضة ومتصابية[1] بفعل الحركات المولدة للجبال التي حدثت في الحقب الثالث . وقد أدت الحركات الشاقولية ، أي التخلعات ، إلى تشكيل فسيفساء حقيقية من جبال تفصلها الحفر الانهدامية عن بعضها . وهكذا نميز من الغرب إلى الشرق الكتل التالية : الكتلة الشيستية الرينانية ، الغابة السوداء (شكل ١) ، هارز ، جبال تورنج ، الكتلة البوهيمية ، كتلة الصليب Lysa Gora . ويندر أن يتجاوز ارتفاع هذه الكتل الجبلية المذكورة مقدار ١٥٠٠ م . وتتجه خطوط تضاريسها وتخلعاتها تارة من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي (اتجاه الكتلة الشيستية الرينانية) وتارة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي (اتجاه هارز) . ويتمازج هذان الاتجاهان الرباعيان كي يؤلفا حصناً جبلياً في قلب أوروبا الوسطى ، يدعى **الرباعي البوهيمي** ، الذي يعتبر موطن الشعب التشيكي . وقد نتج عن النبات الكثيف الذي كان يغطي الكتل الجبلية هنا خلال العصر الفحمي (الدور الأول) ، نشوء أحواض رسوبية فحمية ، تفسر قيام النهضة الصناعية في منطقة السار ، ورينانيا ، وساكس ، وسيليزيا في الشرق (شكل ٢) .

---

(١) جبال متصابية : هي جبال أتى عليها الحت فسواها تقريباً ثم تعرضت لحركات أنهضتها مما سمح للحت من جديد بأن يوجد فيها تضاريس من نوع جديد ، وتعتبر جبال الأبالاش نموذجاً عنها .



الشكل ٢

أسس اقتصاد ألمانيا

وبين هذه الجبال تشكلت حوضات رسوبية بفعل الرسوبات التي خلفتها البحار الطاغية على الركيزة القديمة خلال الدور الثاني والثالث . وأوسع هذه الأحواض هو حوض صوآب فرانكونيا الذي يماثل الحوض الباريسي في تكوينه ، ويقع هذا الحوض شرقي الغابة السوداء ، وشمالي الدانوب وغرب كتلة بوهيميا .

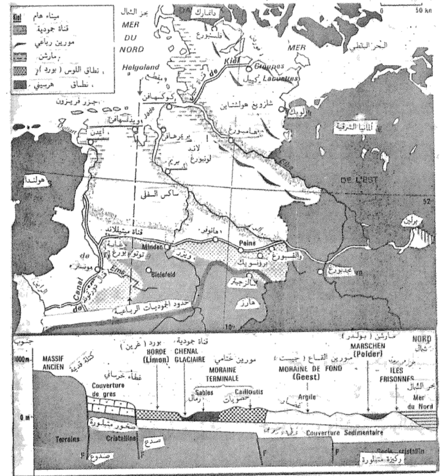
وقد أضفى الحت النهري على الكتل المتصابية تقاطيع مدورة تكثر فيها الوديان العريضة . كما تكيفت الجبال والحوضات الهرسينية أيضاً بنظام الحت الجو جمودي Périglaciaire خلال مطلع الدور الرباعي . فقد أدى الانجماد إلى تفلق الصخور . كما عمل الريح في ذلك العصر على تركيم العناصر الناعمة المورينية التي شكلت تربة اللوس الخصيبة . وبذلك تشكل نطاق البورد Borde الغني الذي يمتد من وستفاليا (شرقي بلجيكا) حتى غاليسيا الواقعة قرب حدود أوكرانيا . كما عملت حوادث جريان التربة على حجب السفوح وقيعان الوديان ، وتقطعت هذه الركامات فيما بعد على شكل مصاطب .

ثالثاً ـ ونجد في الشمال **السهل الجرماني البولوني الكبير** ، الذي لا يتجاوز ارتفاعه ٣٠٠ م ، وهو سهل نجم عن التركيم الجمودي . فقد حجبت المورينات التي خلفتها الجموديات الاسكندينافية الواسعة (قبعات جمودية Inlandsis) الركيزة العائدة للدور الأول وغطاءها الرسوبي ، تلك الجموديات التي زحفت خلال الدور الرابع حتى جوار الكتل الجبلية في أوروبا الوسطى ، على شكل ثلاثة زحوف متعاقبة ، كانت الأخيرة أهمها . وتكون التضاريس مشوشة جداً ، مؤلفة من تلاع غضارية وحصوية يندر أن تسمو لأكثر من ١٧٠ م في ألمانيا الشرقية . وتنفصل هذه التلال عن بعضها بمساحات شاسعة منبسطة تتناثر فوقها مئات البحيرات الضحلة . وتؤلف مورينات القاع ، القليلة السماكة ، والغضارية التركيب ، أفضل المناطق الزراعية . وقد شكلت عصيبات المورين الختامي تلالاً مقوسة ذات سفح شديد باتجاه الشمال ، كان الجليد يشغلها بالماضي

(شكل ٣) . وتدل الخطوط المتعرجة لهذه التلال على ألسنة الجموديات القديمة الكبرى . وقد عملت الأنهار التي كانت تنساب من تحت الجموديات ، على رسم سبحات البحيرات المتطاولة من الشمال للجنوب مثلما عملت على غسل وفرز الأنقاض المورينية ، فنشرت أغشية رملية وحصوية . ولما كانت مياه ذوب الجموديات عاجزة عن أن تجد لنفسها مصرفاً نحو الشمال ، بسبب إقامة القبعات الجمودية ، فقد حفرت أخاديد عريضة تدعى « الوديان البدائية » ، التي كانت تصب باتجاه الغرب . وقد سلكت الأنهار الحالية هذه الأقنية التي تركتها الجموديات ، مثل نهر الإلب ، والأودر ، والفستولا مما ساعد على إقامة شبكة من القنوات الملاحية .

وتغلب على السهل الجرماني البولوني الترب الرملية والحصوية ، عملت ظاهرة غسل التربة على تحويلها إلى تربة بودزول غير ملائمة للحياة الزراعية . كما أن تصريف المياه لا يزال هنا عسيراً . ويكون المناخ هنا قاسياً . فالثلج يقيم فوق الأرض أكثر من شهرين بالعام ، ولا تظهر التربة إلا في نيسان . ولكن الأمطار تكون وفيرة نسبياً إذ تتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ مم . ولهذا يكون النبات هزيلاً ، مؤلفاً من غابات شاسعة من الراتنجيات والسندر . كما أن فقر التربة لا يسمح إلا بقيام زراعات فقيرة الأنواع مثل : الجاودار ، والشعير ، والشوفان والأعلاف والبطاطا ، ولكن هذه المزروعات تطورت بشكل علمي وتعطي محاصيل عظيمة ، شأن تربية الماشية كالخيول والأبقار والغنم .

وبينما كانت ألمانيا الوسطى والجنوبية مجزأة بفعل التضاريس ، فقد كان السهل الشمالي مواتياً لنشوء وتطور دولة كبيرة الرقعة ، عملت كنقطة ارتكاز لنشوء دولة عظمى ، ونقصد بها الدولة البروسية . كما أن الصخور الرسوبية العميقة ، تحوي على احتياطات هامة من الحديد ، والبوتاس والملح ، وفحم الليغنيت ، والنفط .



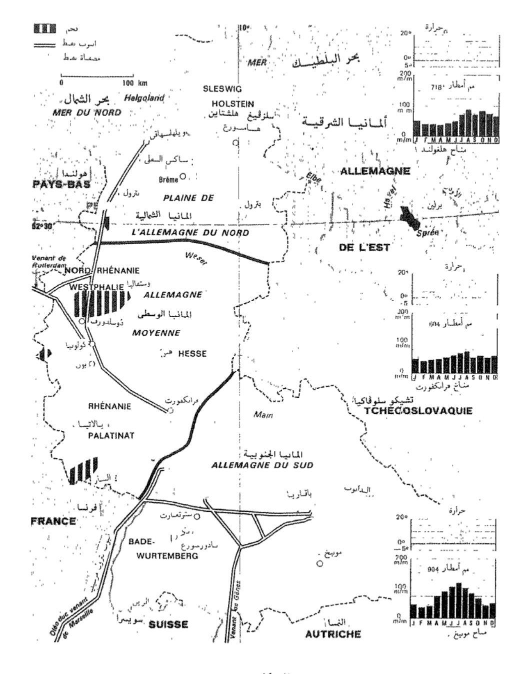
المانيا الشمالية : مقطع من الجنوب إلى الشمال

الشكل ٣

وإن لأوروبا الوسطى مناخاً قارياً يزداد شدة باتجاه الشرق ، كما تحوي على مساحات كبيرة من الغابات ، فضلاً عن طرق ملاحية ممتازة مثل : نهر الراين ، والإلب ، والدانوب .

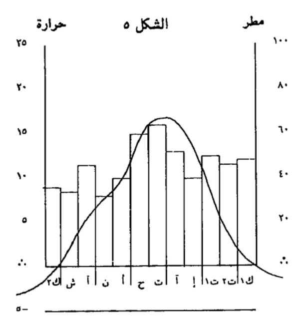
وهكذا يحوي مناخ أوروبا الوسطى على كل المناخات الانتقالية بين المناخ المحيطي لأوروبا الغربية وبين مناخ روسيا القاري . والحقيقة هي أن عدة تيارات هوائية تتجابه في أواسط أوربا : مثل الهواء شبه المداري ، وكتلة الهواء القطبية البحرية القادمة من المحيط الأطلسي ، وكتلة الهواء القاري المندفعة من آنتيسيكلون سيبريا . ولهذا تكون فصول الشتاء طويلة ، وقاسية ، رطيبة . ويحدث الانجماد خلال ٧٧ يوماً سنوياً في برلين . ويصبح الصيف حاراً بالجنوب ، بينما يكون الربيع والخريف جافين (شكل ٤ و ٥) .

وقد عملت **التضاريس** على خلق العديد من **الاختلافات الإقليمية** . فالسعة الحرارية تستفحل في الأحواض الداخلية ، بينما تتلطف على الجبال . وتتجاوز الأمطار مقدار ٨٠٠ مم على الكتل الهرسينية وعلى السلاسل الألبية . ولهذا تكون هذه المرتفعات مجالاً ممتازاً للغابات . ولهذا تحمل هذه الجبال بالإضافة إلى أسمائها عبارة « Wald » أي « غابة » ، مثل شفارزفالد = الغابة السوداء ، وتورنجفالد = أي غابة تورنج ، وتختلط هنا أشجار الزان مع البلوط والمخروطيات . كما عمل الألمان على تحريج الكثير من المناطق المرتفعة ، بحيث تهيمن الغابة على كل الجبال والأحواض في النطاق الهرسيني ، وقد انتزع السكان قسماً من أراضيهم الزراعية على حساب الغابة . كما تحتل غابة الراتنجيات وذات الأوراق النفضية مكاناً فسيحاً في السهل الجرماني البولوني . وهكذا يكون ربع أوروبا الوسطى مستوراً بالغابة في الوقت الحاضر . والأمر الذي يلفت النظر والفريد من نوعه هو تواجد كثافات سكانية عالية مع نسبة عالية من المساحات الغابية .



MER DU NORD
Helgoland
SLESWIG
HOLSTEIN
MER
ALLEMAGNE
PAYS-BAS
Brême
PLAINE DE
L'ALLEMAGNE DU NORD
DE L'EST
Weser
Elbe
Havel
Sprée
NORD RHÉNANIE
WESTPHALIE
ALLEMAGNE
MOYENNE
HESSE
RHÉNANIE
PALATINAT
TCHECOSLOVAQUIE
Main
ALLEMAGNE DU SUD
FRANCE
BADE-
WURTEMBERG
SUISSE
AUTRICHE
100 km

الشكل ٤



مناخ باريسي
العرض ٢٥,٣٠
مجموع المطر السنوي ٥٨٠ مم

مركز برلين
الارتفاع ٥٠ م
معدل الحرارة السنوي ٨,٥°

٢ ـ ألمانيا الوسطى

تطلق عبارة ألمانيا الوسطى على مجموع الكتل الجبلية القديمة الهرسينية ، المؤلفة من هضاب فسيحة ، فقيرة دوماً ، ومن وديان ذات أكواع متعمقة تجتازها وتغوص فيها ، وفي هذه الأودية تتمركز طرق المواصلات والمدن . وتحوي الكتل القديمة في ألمانيا الوسطى على ثلاثة مشاهد مختلفة :

ففي الكتلة **الشيستية الرينانية** ، تحتل الهضاب كل المساحة تقريباً ، وتكون الأودية نادرة ومتعرجة . أما في منطقة هس فالهضاب تكون أكثر تجزؤاً ، والوديان أكثر عدداً وعرضاً . وأخيراً نجد منطقة تورنج التي تصبح فيها الهضاب أكثر تفتتاً ، وتعرض الوديان كثيراً ، وتصبح عبارة عن أحواض كبيرة مزدهرة .

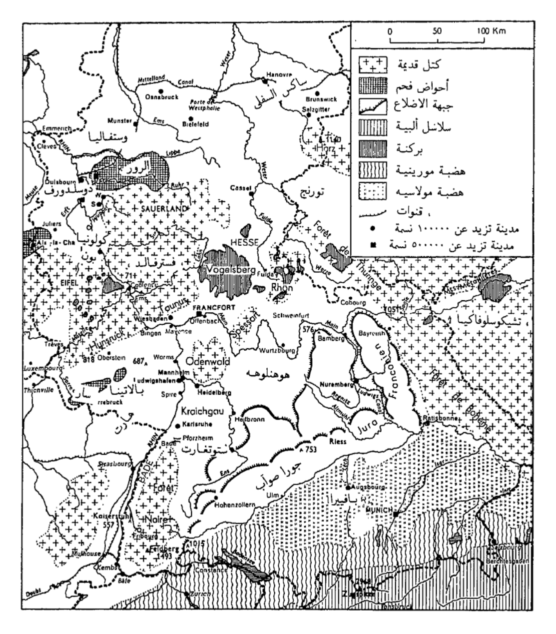
١ ـ **الكتلة الشيستية الرينانية ـ** تبلغ الهضاب ، في هذه الكتلة التي يجتازها نهر الراين ، ارتفاعات تتجاوز ٧٠٠ م (أعلى قمة تقع في تاونوس ٨٠ م٨) . ويكون المناخ هنا قاسياً جبلياً ، ويكون سطح الهضبة غنياً بمستنقعات فحم الطورب ، رتيباً وعارياً . أما الوديان فتكون مناطق موائمة لاستيطان السكان ، فقد أوجد عمقها مواقع محمية من الرياح الباردة ، كما أن السفوح المتجهة نحو الشمس في الأكواع المتعمقة تكون مستورة بالكروم . في حين تكون الزراعة نادرة فوق الهضاب والسكان قليلي العدد رغم وجود صناعة قليلة الأهمية تقوم على صناعة الجلود والورق واستغلال الحديد في وادي سيغ Sieg .

ونجد ضمن الأكواع المتعمقة سهولاً حوضية الشكل وعميقة ، كثيفة السكان ، وحاوية على مدن كثيرة ، بعضها قديم . كما اعترى المنطقة حوادث خسف في الدور الثالث فأوجدت سهولاً جميلة غنية جداً ، ومأهولة بسكان كثيرين . وقد أدت هذه الانهدامات لوجود عديد من الينابيع المعدنية مثل ايمس Ems قرب مصب نهر لاهن Lahn ، ومدينة ويسبادن Wiesbaden في أسفل جبل تاونوس قرب فرانكفورت (شكل ٦) .

وتقع منطقة السار Sarre في جنوب غرب إقليم هنسروك ، وغرب هاردت ، وهنا يقع حوض فحمي هام يقدم الوقود لصناعة حديدية ثقيلة ولمعامل الزجاج والخزف ، فضلاً عن معامل البيرة والأحذية والألبسة ، مما يجعل من إقليم السار منطقة كثيفة السكان جداً ، تصل إلى ٥٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع .

٢ ـ وتكون كتل منطقة هيس Hesse أكثر تنوعاً وثروة من المنطقة السابقة ، لأنها أقل ارتفاعاً (غابة هيس ، وبركان فوجلسبرغ القديم) وأكثر تخلعاً بكثير ، مما جعل محاور المواصلات تخترقها على نطاق واسع . وتكون ترب الهضاب رديئة ، رطبة ، ومستنقعية وبالتالي عقيمة . وتغطي الغابة أكثر من

ثلث سطح الجبال والزراعة الموجودة فقيرة تقوم على الشوفان والجاودار والبطاطا .



الشكل (٦)

ألمانية الرينانية

ولكن الوديان تسمح لخطوط المواصلات بأن تسلكها . وتأخذ هذه الوديان اتجاهين ينفتحان على نهر الراين بواسطة نهر لاهن ، ونهر الماين Main وكينزيغ اللذين يقودان إلى نهر فولدا ونحو نهر الويزر . وبذلك ينفتح نوع من باب طبيعي نحو سهل الشمال عن طريق مدينة غوتنجن ، وباب آخر نحو تورنج والساكس بواسطة مدينة آيزناخ Eisenach .

وتحتوي هذه الوديان أيضاً على عدد من الأحواض الخصبة الصغيرة ، فصناعة الحديد تكون هنا قديمة . كما قامت حالياً في المنطقة الصناعة الكيماوية ، والحديدية ، والخزف ، واستخراج حجارة البناء . ولكن الدور الرئيسي للمنطقة هو أنها منطقة عبور . فهنا نجد أقدم الطرق وأهمها في ألمانيا ، ومن هنا مر الرومان ومن هنا نفذت المسيحية إلى ألمانيا . وظلت المدن القديمة الواقعة على هذه الطرق ضئيلة باستثناء مدينة كاسل Cassel التي تعتبر مدينة كبرى إذ تضم أكثر من ٣٥٠٠٠٠ نسمة وتزدهر فيها صناعة القاطرات والمكائن .

٣ ـ إقليم **تورنج** ويقع إلى الشرق من كتلة هيس ، ويتألف من أحواض زراعية مزدهرة ، تطيف بها جبال غنية بالمناجم ، وهذا الازدواج بالغنى جعل من هذه المنطقة أغنى مناطق ألمانيا .

وتؤلف هذه الجبال أربعة خطوط متوازية تتجه من الشمال للجنوب ، وتتألف جميعاً من صخور قديمة ، هي من بقايا الجبال الهرسينية القديمة التي براها الحت ، والتي نهضت بفعل الحركة الألبية . ففي الشمال ترتفع التلال شبه الهرسينية إلى علو لا يزيد كثيراً عن السهل الواقع بين برونسويك وماغدبورغ . وإلى الجنوب من ذلك تظهر منطقة هارز ، التي تؤلف تضريساً بارزاً يرتفع في جبل بروكن إلى ١١٤١ م . فهذا الارتفاع والانعزال جعلا منه أكثر مناطق ألمانيا الوسطى رطوبة . فالجبهة المتجهة إلى البحر تنال أكثر من متر من التهطال . وتؤدي كثرة الثلوج إلى جعل الأنهار غزيرة المياه مما ساعد على بناء سدود لتوليد

الطاقة الكهرمائية . وتغطي الغابة ثلاثة أرباع مساحة المنطقة وتكون الفعالية الرئيسية هي الصناعة . وتملك الحافة الشمالية والشرقية من إقليم هارز أغنى مكامن نحاس ألمانيا ، في إيزليبن ، ومكامن بوتاس غنية جداً كانت الأولى في العالم قبل اكتشاف البوتاس في كندا ، وتتوزع المدن على حواف كتلة هارز .

وإلى الجنوب من ذلك تقع غابة تورنج التي تؤلف ظهرة من جبال أكثر طولاً ، ولكن أقل ارتفاعاً ٩٨٣ م وهي عبارة عن جبال قديمة براها الحت على شكل هضاب رتيبة جداً ، ويخترقها طريق يسلك عمودها الفقري . وتظهر هذه المنطقة مستورة بالغابات لدرجة تنعدم فيها الزراعة ، وتقل أهمية تربية الماشية ، وتكون الفعالية الرئيسية للسكان هي الصناعة : كاستخراج الحديد ، وصناعة الزجاج بفضل الرمال وخاصة صناعة الأشياء الخشبية ، ومع ذلك تبدو المنطقة مأهولة جداً بالسكان ، إذ تقارب الكثافة هنا ١٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع .

وفي النهاية الجنوبية لإقليم تورنج تظهر كتلة غرانيتية تنبثق منها قمة فيختل جيبرج ١٠٥٣ م Fichtel Gebirge ، تطيف بها هضاب فقيرة تتناثر عليها المستنقعات التوربية ، وتحتل الغابة نصف المساحة . ولكن هذه المنطقة هي مفترق طرق قديمة بين الشمال والجنوب مثل مدينة هوف على نهر سال Saale وبايروت على نهر الماين Main ، كما أن طريقاً يساير نهر ايجر Eger يؤدي إلى شمال بوهيميا .

وتظهر في الأحواض المتبعثرة بين جبال تورنج توضعات جمودية وتربة لوس مما يمنح المنطقة خصوبة ممتازة (حبوب وخضار) ، يضاف إلى ذلك عذوبة المناخ الناجمة عن الحماية من الرياح . وأغنى هذه الأحواض الوادي الذهبي أو غولدنه آويه Goldne Aue .

كما تأخذ الصناعة هنا أهمية كبيرة بفضل جوار المناجم الجبلية ، فتشتهر

المنطقة بالصناعة الكيماوية القائمة على بوتاس ستاسفورت ، والحديدية في ارفورت ، والزجاج الذي نتجت عنه صناعة البصريات (معامل يينا الشهيرة iéna) ، وتهيمن عليها جميعاً الصناعة النسيجية .

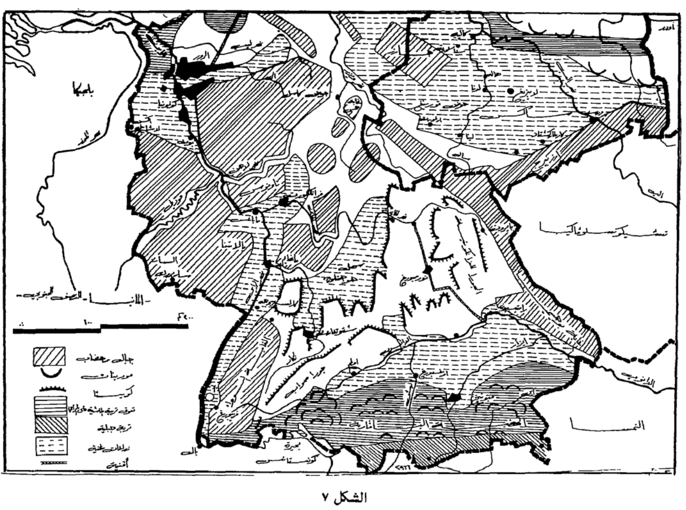
كما أن الوديان الخصبة والصناعية ، تعتبر محاور مرور لاسيا الجنوبية منها ، حيث يمر طريق هام جداً من الغرب للشرق أدى لقيام مدن عند كل تقاطع مع واد آخر بين مدينتي آيزناخ Eisenach وشمسنيتز ، كارل ماركس شتاد حالياً ، ومدينة آرفورت وفيمار Weimar وييناً وآلتنبورغ إلخ ..

٣ ـ ألمانيا الجنوبية

١ ـ حافة سهل الراين :

لقد نتج سهل الراين عن انهدام ، معاصر تقريباً لنهوض جبال الألب ، بين أربع كتل بارزة قليلاً هي جبال الفوج ١٤٢٦ م والغابة السوداء ١٤٩٥ م في الجنوب ، وجبل الرعد Mont Tonnère ٦٨٧ م واودنلفلد ٦٥٩ م في الشمال .

وقد أدى الانهدام إلى تمييز هضاب خرسانية Sandstone يكون ارتفاعها دون الجبال السالفة الذكر ، تعرضت لخفس في أواسطها ، مما جعل منها مناطق مرور عرضانية مثل ممر سافرن Saverne على الجانب الفرنسي في شمال الألزاس ، والذي يقابل تماماً ممر كريشغاو Kraichgau في إقليم باد الألماني المقابل شرقاً . كما حدثت انكسارات جانبية أدت إلى ظهور خلجان حقيقية في خواصر الجبال المذكورة تشكل استطالات لسهل الراين . وهكذا ظهر في الاتجاه الهرسيني نفسه ، أي من الجنوب الغربي للشمال الشرقي ، حوض ماينس Mayence و وتراو Wetterau حيث تتلاقى الأنهار التالية: كينزيغ ، ماين ، ناهه Nahe والراين (شكل ٧) .



ألمانيا - النصف الجنوبي
بلجيكا
تشيكوسلوفاكيا
النمسا
بحيرة كونستانس
جبال وهضاب
مورينات
كويستا
تربة جبلية

الشكل ٧

وتوجه **الغابة السوداء** نحو الغرب سفحاً شديداً ناجماً عن الصدوع ، غزير الأمطار ، وجيد التعرض للشمس مما يسمح للكرمة ولمزارع الكرز أن تصعد نحو المرتفعات . وعلى العكس نجد السفح الضعيف الميل الذي يتجه نحو الشرق ، والذي ينحدر عنه نهر الدانوب ونهر النكار ، عبارة عن منطقة قاسية ، كثيرة الغابات ، يعتاش سكانه من صناعة ريفية تقوم على الخشب وصناعة الساعات وأدوات الموسيقى ، ومن صناعة نسيجية قديمة ومن سياحة نشيطة . ولكن منطقة أودنفالد Odenwald الشمالية تبدو أكثر فقراً وشبه خالية ، ويستغل سكانها القلائل غابات البلوط والشوح ، فضلاً عن قطع الصخور .

٢ ـ صوآب Souabe وفرانكونيا :

وتمتد في شرق هذه المناطق السابقة الذكر ، وحتى الدانوب ، هضاب يخترقها نهر النكار ونهر الماين . وهي عبارة عن حوض رسوبي تتنضد فيه طبقات مائلة نحو الخارج (نحو الجنوب الشرقي) تعود للدور الثاني ، وتكون هذه الطبقات أحدث كلما ابتعدنا شرقاً عن نهر الراين .

وتعطي المقاطع القاسية لهذه الصخور جروفاً مرتصفة خلف بعضها البعض ، أي كويستات « ضلوع » متوازية تقريباً ، ومعقوفة ، مع سفح شديد يتجه نحو الغرب ، تتقدمه تلاع شاهدة ، وسفحاً ضعيف الميل يلتفت نحو الشرق . وقد اتجهت الوديان نحو الشمال الغربي بسبب نهوض جبال الألب من جهة ، وبسبب خفس سهل الراين من جهة أخرى .

وأجمل كويستا هي التي تتألف من الصخر الجوراسي ، والتي ترسم جرفاً يزيد ارتفاعه عن ٤٠٠ م أحياناً ، وتبلغ ١٠٠٠ م فوق سطح البحر ، تمتد على طول مقداره ٤٢٠ كيلو متر . وتبدأ هذه الكويستا من جوار هضبة الغابة السوداء عند مدينة بال السويسرية . ويجتاز نهر الدانوب هذه الكويستا عند مدينة

دونو شنغن ، ثم تؤلف هذه الكويستا مرتفعات راوهه ألب Rauhe Alb الرتيبة المستمرة ، والجافة الكئيبة ، ولكن تتوجها قصور تاريخية عند حافتها وفوق التلاع الشاهدة التي تتقدمها .

وقد تعرضت هذه الكويستا لصدوع عديدة ، أدت لوجود براكين صغيرة خامدة فضلاً عن ظهور حوض انهدامي ، هو حوض ريس Ries ، الذي استطاع بواسطته وادي فورنيتز Wornitz أن يخترق الكويستا كي يلتحق بنهر الدانوب .

وإلى الشمال من ذلك ترسم حافة الكويستا زاوية قائمة باتجاه الشمال فتشكل جبال الجورا الفرانكونية ، والتي تؤلف حافتها الشمالية شرفة عريضة تطل على مدينة كوبورغ Cobourg ، والتي يفصلها عن كتلة بوهيمية القديمة حوض بايروث ، الذي يسلكه نهر الماين .

وتكون الوديان والأحواض الحتية في هذه الهضاب والكويستات (الأضلاع) هي المناطق المفيدة ، ففي الهضاب التي يجتازها نهرا النكار والدانوب ، تظهر بعض السهول الغنية بتوضعات اللوس الخصيبة ، وحيث تكثر القرى الواقعة في أواسط حقولها ، وحيث تجود زراعة القمح ، والكروم ، والأشجار المثمرة ، وحشيشة الدينار . وتكون الملكية صغيرة في هذه المنطقة . ويجعل المناخ العذب ، الذي يتمتع بحماية المرتفعات ، من هذه المنطقة إقليماً دافئاً بالنسبة للألمان . ولكن الأهمية الأولى تنتج عن طرق المواصلات التي تخترق المنطقة ، مما أدى لازدهار المدن منذ القديم .

وأهم الطرق هنا تقع في وادي الماين والنكار . فالأول ينفتح مباشرة على الدانوب بواسطة مدينة فورث Furth ونورمبورغ وراتيزبون ، والذي تدين له مدينة نورمبورغ بأهميتها التاريخية ، وبرونقها الذي تحتفظ به ، وبتقدمها الاقتصادي الحديث ، إذ تقوم فيها صناعات مثل : صناعة البيرة ، والألعاب ، وصناعة المعادن ، وأدوات الكهرباء .

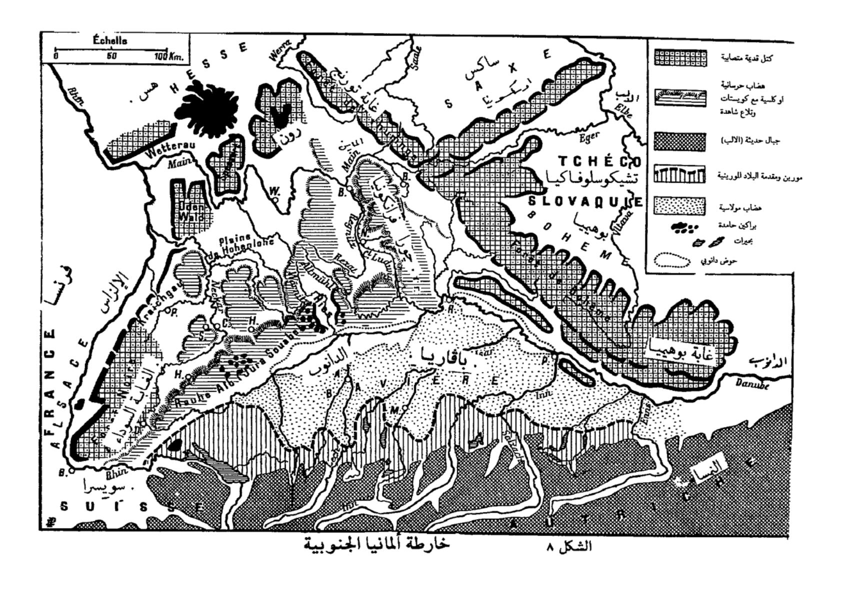
هـذا ولا يسلـك طريـق النكار الـوادي ذاتـه ، بـل يصـل مبـاشرة منطقــة كريشغاو الانهدامية ، ماراً بمدينة كارلسروهـه ، وبمنطقـة ريس Ries الانهـداميـة أيضاً . ويجتـاز الطريق نهر النكار قرب مـدينـة شتوتغـارت Stuttgart التي تعتبر مدينة صناعية تضم ٧٥٠ ألف نسمة ، وتقوم فيها صنـاعـة نسيج ، وورق وجلود ، وسيارات فضلاً عن دورها الثقافي .

٣ ـ بافاريا :

ويكون العنصر التضاريسي البارز هو السلسلة الألبية رغم أن إقليم بـافـاريـا لا يضم سوى الحافة الشمالية القصوى (قمة زوغز بيتزه ٢٩٦٠ م) . وهـذه المنطقـة الألبيـة الـوحيـدة في ألمـانيـا عبـارة عن بـلاد غـابـات ومراع وسـط الأشكال المورفولوجية الجمودية (حلبات ، معالف ، بحيرات) (شكل ٨) .

وقد نتج عن ذلك قيام صناعة خشبية ريفية ، كما امتـدت إلى هـذه المنطقـة الصنـاعـة السويسريـة القـائمـة على نسج القطن والتطريـز . وتتجـه الطرق نحـو الجنوب بواسطة نهر إين Inn وتتألف من طرق معبدة ومن خطوط حديدية .

وتمتد هضاب فسيحة ، عند أقدام جبال الألب ، يظل ارتفـاعهـا كبيراً نوعـاً ما ، تتراوح بين ٦٠٠ و ٩٠٠ ، ، فتقع مدينة مونيخ عاصمة بـاڤـاريـا على ارتفـاع ٥٣٠ م . والمنطقة الألمـانيـة المحميـة بواسطـة التضـاريس ، والجميلـة ، هي الضفـة الشمالية لبحيرة كونستانس . أما الهضـاب فتتـألف من مورينـات ومن توضعـات نهريـة جموديـة خلفتهـا جموديـات الألب الربـاعيـة ، ممـا أدى لـوجـود عـدد من البحيرات الجميلة المتطاولة في الحوضات الختامية terminaux . وقد عملت لحقيـات الوديان العنيفة على حجز الوديـان الضعيفـة ممـا أوجـد مستنقعـات يقع أهمهـا في سـافلـة مـدينـة مونيخ « مونشن » . ويبـدو سطـح الهضبـة خصبـاً نسبيـاً ولكن الارتفاع يجعل مناخها قاسيـاً جـداً . تلـك هي إذن منطقـة رطبـة ومخضوضرة ،



الشكل ٨ خارطة ألمانيا الجنوبية

غنية بالمراعي ، وبحقول الجاودار والبطاطا ، وقليلة السكان نسبياً .

وأخيراً تنحدر من أسفل الركامات المورينية ، باتجاه الدانوب ، شرطان من هضاب مؤلفة من أغطية حصوية وخرسانية (المولاس) ، وهي عبارة عن أنقاض لأول عملية تهديم لجبال الألب ، وتكون هذه الشرطان محززة بعدد كبير من الوديان المروحية التي تتصل مباشرة بنهر الدانوب ، مثل : وادي لش Lech ، وإيزار Isar ، وإين Inn قرب الحدود . وتكون هذه الوديان عريضة ، رطبة ، غنية بالتورب ، أما الهضاب فرتيبة وجافة . ولكن المجموع كثير الأحراج ، ويزرع سكان القرى القليلة المراعي الاصطناعية من أجل الماشية . كما يحوي باطن الأرض فحم الليغنيت .

ويسمح سطح الهضاب بقيام مواصلات سهلة من الغرب للشرق فوق هوامش المورينات . وقامت مدن كبرى على الطرق القديمة التي تسمح باختصار الطريق الدانوبي ، مثل مونيخ التي زادت أهميتها بعد مد الخط الحديدي باتجاه نهر Inn وممر برنر Brenner الذي يخترق الألب . ومونيخ مقر ملكي قديم ومركز حياة ثقافية وصناعية (بيرة ، صناعات متنوعة) ومن مدن ألمانيا الكبيرة ، فيها ١,٣ مليون نسمة .

وأخيراً يؤلف وادي الدانوب ، مع عقفته الشمالية ، هامشاً لكل المناطق البافارية وأداة الاتصال بين هضاب صوآب وفرانكونيا ، ومع وادي الراين ، مثلما يصل باتجاه آخر مع النمسا والسهل الهنغاري .

وقد قام هذا الوادي بين السفح اللطيف الصاعد شمالاً والعائد للهضاب الكلسية البافارية ، وبين السفح الهادئ الجنوبي الهابط من الجنوب والمؤلف من أنقاض جبال الألب . فتارة يغوص الوادي في خوانق عميقة حفرها في صخور المولاس الرخوة أو في الصخور القاسية (مثل ممر باسو Bassau) والممر الذي يقع

في عالية راتيزبون Ratisbonne ، وتارة يسير في حوضات عريضة كما في المنطقة الواقعة بين أولم Ulm واينغولشتاد .

وتكون هذه الحوضات الدانوبية مستنقعية ، حاوية على التورب ، ولكن عندما تقوم فيها مشاريع تجفيف وصرف ، فإنها تعطي ترباً غنية ، تتألف أحياناً من اللوس وتنجح فيها زراعة القمح والتبغ وحشيشة الدينار والكتان والقنب .

٤ ـ إقليم ساكس :

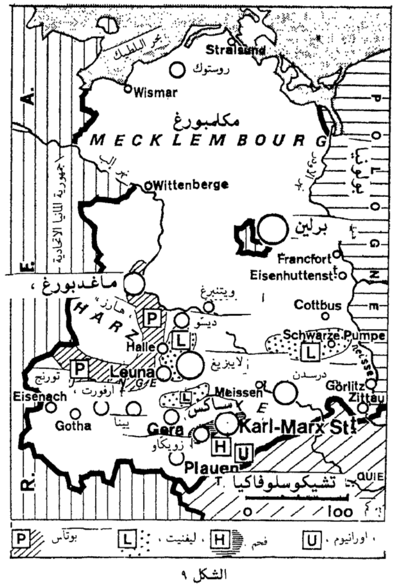
وتتميز جغرافية هذه المنطقة بتجاور مشهدين مختلفين هما المناجم ومياه أنهار الكتل الجبلية القديمة ، مما أدى لنشوء صناعة كبرى ، كما نتج عن التوضعات الحديثة في السهول الكبرى ، والمؤلفة من ترب خصبة لوسية ومن تربة سوداء تقع إلى الجنوب من التوضعات المورينية الشمالية . كما يضيف القسم الأعلى ، من الأنهار الرئيسية ، إلى هذين العاملين عنصر ازدهار آخر هو سهولة المواصلات .

هذا ويتألف السفح الجنوبي من إقليم ساكس من جبال المعادن Erzgebirge التي تسمو إلى ١٢٤٠ م . وتخترق هذه التضاريس المتصابية المسواة عند قممها والمدورة عند سفوحها ، أنهار مفروضة ، رائعة الجمال ، كما في منطقة سويسرا السكسونية حول نهر إلب Elbe عند مخرجه من كتلة بوهيميا .

وتحوي هذه الجبال على حوض فحمي صغير (حوض زويكّاو Zwickau) (شكل ٩) وثروة كبيرة من الغابات ، مما أوجد صناعة تعدينية قديمة ، وصناعة زجاج ، وخزف وبورسلان ، بالإضافة إلى صناعة معادن موزعة في سائر المدن . كما اتسعت صناعة النسيج القديمة ، المعتمدة على القوى الكهربائية كثيراً لا سيا صناعة القطن والصوف لا سيا في مدينة كارل ماركس شتاد (قديماً شمينتز) التي تضم ٣٠٠٠٠٠ نسمة .

هكذا تكون الزراعة هامة على الحافة الجبلية فقد دعمت التربة بالأسمدة كي

تعطي محاصيل غذائية للسكان العاملين في الصناعة : جاودار ، شوفان ، بطاطا ، بقر حلوب . كما كانت المواصلات ولا زالت كثيفة عند هذه الحافة الجبلية ، وخاصة عند تقاطع طرق تورنج ، مثل (هالّه ٣٥٠٠٠٠ نسمة) ، وطريق بوهيميا . وعلى هذا الطريق الأخير ، المفتوح على وادي نهر الإلب Elbe ، تقع العاصمة الفنية والثقافية درسدن ، التي يرتفع عدد سكانها إلى نصف مليون .



الشكل ٩

وأخيراً نجد في قلب هذه المنطقة الجبلية ، مدينة تستفيد من ميزاتها الجغرافية ، عند أحد أكبر عقد المواصلات الألمانية الوسطى ، وهي مدينة لايبزيغ (٦٠٠ ألف نسمة) ، إذ تتلاقى فيها الطرق البرية والحديدية ، فضلاً عن كونها مركزاً ثقافياً وصناعياً (صناعة معدنية ، نسيج ، طباعة) ومقراً لمعرض سنوي قديم .

وإلى الشمال من ذلك ، أي في السهل السكسوني (نسبة إلى إقليم ساكس) تظهر الحصويات النهرية الجمودية الفقيرة ، من جديد ، حيث تغطيها النباتات القصبية . ولكنها تكون مستورة في بعض المناطق بغشاء رقيق من اللوس ، مما يمنحها خصوبة رائعة . ونظراً لقلة سماكة الرسوبيات الحديثة فإن باطن الأرض لا يكون بعيداً مما سمح باكتشاف ثروات معدنية مثل : بوتاس ستاسفورت وفحم الليغنيت . ولهذا تكون الصناعة متنوعة من حيث التفاصيل (قاطرات ، مصافي نفط ، معامل جعة) . وتتجاوز الكثافة الكيلومترية ١٥٠ نسمة ، كما تندعم فعالية المنطقة بتقاطع طرق المواصلات التي تفسر وجود مدن كبيرة عديدة مثل : ماغدبورغ (٣,٥ ألف نسمة) . وتقوم هذه المنطقة بتحقيق الاتصال بين السهل البحري الشمالي الكبير مع الكتل الجبلية الصناعية في الوسط والجنوب ، ومع المنطقة التعدينية الكبرى في وستفاليا ، التي يجتازها نهر الراين الذي يقوم بربط ألمانيا الجنوبية مع بحر الشمال .

الطرق الملاحية :

هذا وتنحدر أنهار أوروبا الوسطى نحو بحر الشمال بواسطة نهر الراين ، والويزر والإلب Elbe ونحو بحر البلطيك بواسطة نهر الأودر ، ونحو البحر الأسود بواسطة نهر الدانوب .

فنهر الراين الذي يبلغ طوله ١٣٢٠ كم عبارة عن نهر جبلي في مجراه الألبي حيث تفيض مياهه صيفاً . ثم لا يلبث أن يتحول تدريجياً إلى نهر محيطي ، مع زود شتوي ، ولكنه يحتفظ على مدى العام بصبيب ثابت ، ويؤلف أحد أجود

الطرق الملاحية في العالم ، إذ يعتبر الشريان الكبير في اقتصاد أوروبا الغربية .

أما **الدانوب** الذي يفوق نهر الراين طولاً ، ٢٩٠٠ كم ، فهو أقل فائدة ، لأنه يتعرض للافتقار المائي عبر سهول أوروبا الشرقية حيث يستفحل الشح[1] في فصل الصيف . وينتهي عند مصبه بدلتا مستنقعية في بحر شبه مغلق هو البحر الأسود . أما أنهار السهل الألماني مثل ويزر وإلب وأودر ، فهي تسلك قنوات خلفتها الجموديات قبل أن تدرك بحر الشمال ، أو بحر البلطي . وتفيض هذه الأنهار في الربيع في أعقاب ذوبان الثلوج فوق الجبال الوسطى . وتتجمد خلال فصل الشتاء .

شعب ألمانيا والدول الألمانية

١ ـ تضم أوروبا الوسطى فسيفساء حقيقية من الشعوب : وقد بلغ حب التوسع الجرماني حداً جعل الألمان ، في مناسبات عديدة ، يدفعون بحدودهم لما وراء أراضي الأمم المجاورة .

كما كانت أوروبا الوسطى أيضاً ، عبارة عن نطاق اجتياح لشعوب انتشرت بعدئذ فوق أجزاء أخرى من أوروبا . فالسلتيون مثلاً قدموا من الشرق باتجاه الغرب مخترقين الفسحات الغابية الطبيعية . وكانت طرق الهجرات الكبرى هي التالية :

ـ في الوسط ، نطاق الأراضي الليمونية بين الكتل الهرسينية والسهل الشمالي المستور بالغابات .

ـ في الجنوب ، طريق الدانوب الذي يؤدي إلى الحفرة الرينانية .

---

(١) الشح وتقابل التحاريق في مصر والصيهود في العراق أي étiage بالفرنسية و Low water mark بالإنكليزية .

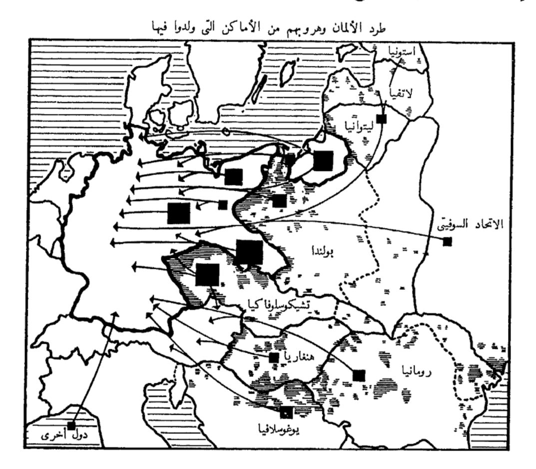
ـ في الشمال ، قرب بحر الشمال ، حيث يوجد نطاق اللحقيات alluvions الساحلية أومارشن . وتؤلف المجموعة اللغوية الجرمانية ٩٥ مليون أهم مجموعة في أوروبا الوسطى ، التي تضم ١٦٢ مليون نسمة . ويأتي بعدهم السلاف (بولونيون ، تشيك ، سلوفاك في الشمال والكروات والسلوفين والصرب في الجنوب) والمجر والرومانيون . وقد تبدلت مواقع هذه الشعوب وحدودها باستمرار خلال التاريخ . وقد كان تكوين الأمم متأخراً جداً بالموازنة مع أوروبا الغربية . كما كان مصحوباً بحروب نشبت بين الجرمان والسلاف والهنغاريين والرومانيين . وكان التوسع الجرماني أكثر الظواهر التاريخية الحديثة أهمية .

فقد زحف الجرمان الذين يعود أصلهم ، كما يعتقد ، للمناطق الدانمركية والفنلندية ، ببطء باتجاه الغرب . وكان السلتيون ، جيرانهم ، عبارة عن مدربين لهم على مدنية أكثر رقياً ، إذ كان الجرمان من الشعوب البرابرة التي كانت تقطن في خارج تخوم الامبراطورية الرومانية المحصنة limes . فقد كانوا يقيمون بين نهر الإلب والراين قبل أن ينفذوا في القرن الرابع الميلادي على شكل غزاة أو رعايا إلى داخل الامبراطورية . وهكذا خلفوا وراءهم فراغات سرعان ما شغلها السلاف . وباشر الجرمان في القرن العاشر عملية استرداد طويلة استعادوا على إثرها الأقطار التي احتلها السلاف في شرق نهر الإلب . فاستعمر المنقبون عن المعادن الكتل الجبلية الهرسينية . كما سلك المعمرون colons والجنود مجاري الأنهار ، فأقاموا المدن التجارية والقلاع الحصينة عند مفترق الطرق الهامة . وهكذا نتجت الدولة البروسية عن زلق حدود إقليم براندبورغ (منطقة برلين) ، وتوسعت على شكل دولة استعمارية حقيقية أصبحت فيها الروح العسكرية والوظيفية الطابع المميز للعقلية الجرمانية .

وبين ١٨٧٠ و ١٩٤٥ انهمك الألمان في البحث عن الغزو الاقتصادي أو الهيمنة السياسية على حساب شعوب أوروبا الوسطى .

بيد أن الهزيمة الألمانية في آخر الحرب العالمية الثانية قد أدت إلى تغيير الجغرافيا البشرية في أوروبا الوسطى إلى حد كبير :

١ ـ فقد قام السلاف بطرد الألمان باتجاه الغرب . فانكمشت الرقعة الألمانية إلى ٣٥٧٠٠٠ كيلو متر مربع (شكل ١٠) .



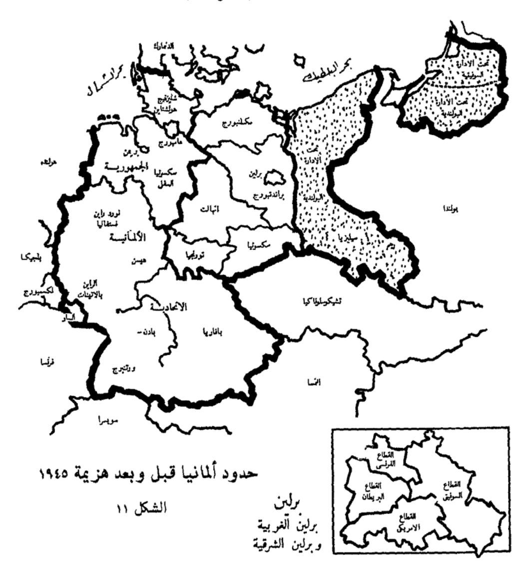
الشكل ١٠

أراضي المستوطنين الألمانية في شرق أوروبا الوسطى

الحدود القومية ١٩٣٧   الحدود القومية في ١٩٤٥

٢ ـ كما تم إبعاد ملايين الألمان من الأقطار السلافية ، أو هربوا باتجاه ألمانيا كلاجئين .

وهكذا تلاشت تقريباً كل الأقليات القومية المتسربة من ماض بعيد إلى داخل شعوب أخرى . وهكذا جعلت هذه الحركة السكانية الواسعة جداً من القوميات المختلفة شعوباً أكثر تجانساً ، بحيث تظهر الحدود اللغوية اليوم غير مختلفة كثيراً عن الحدود السياسية في ألمانيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا وهنغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا (شكل ١١) .



حدود ألمانيا قبل وبعد هزيمة ١٩٤٥

الشكل ١١

برلين
برلين الغربية
وبرلين الشرقية

وهكذا خرج بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٦ ما يقرب من ٩ ملايين ألماني ، بحيث أصبح السكان الألمان في المناطق الألمانية القديمة قلة نادرة لا يزيد عددهم اليوم عن ٧٨٠ ألف شخص .

٢ ـ ولا يمثل الشعب الألماني عرقاً بل جماعة قومية تبحث عن حدودها :

فليس هناك من عرق ألماني ، إذ كانت أوروبا الوسطى دائماً عبارة عن ملتقى شعوب امتزجت ببعضها خلال التاريخ . فالألماني الجنوبي يختلف عن الألماني الشمالي . فهو أقصر قامة ، ويميل للسمرة ، ويعتبر الجرمان أكثر العناصر تفوقاً بين الألمان ، فلهم نموذج شمالي اسكاندينافي ، كما يوجد ألمان من أصل لاتيني في المناطق الراينانية ، أو على الأقل من الغاليين الجرمان . أما البروسيون الذين يعتبرون من أعرق الألمان فيعودون لأصل اختلط فيه الجرمان والروس البيض .

هذا ويؤلف الألمان مجموعة ذات ملامح نفسية وخلقية شديدة الوضوح . ولكن شخصية الألماني كفرد ، تبدو أحياناً عسيرة التمييز ، لأنها تتمثل بالشعر والغناء والموسيقى . ولكنها تتخذ صورة دقيقة بالتجمع وفي الإطارات الاجتماعية والقومية . فالألمان يميلون نحو التعاون والتجمع ، واحترام التسلسل الاجتماعي والسياسي ، وحب التنظيم ، والعلم ، والبحث . وقد أظهر الألمان بعد أن اندمجوا في جماعة قومية ، أي في امبراطورية (الرايخ) ، أسلوباً موحداً في العاطفة والإحساس بنوع من سمو صاحبه ميل للمبالغة والإفراط . غير أن ألمانيا أعطت للعالم حكمة غوته وشمولية كانت Kant .

ويظهر الشعب الألماني فوق الخارطة وكأنه مستقبل مستديم . فليس لألمانيا مركز مثل باريس بالنسبة لفرنسا أو موسكو بالنسبة للروس . فهي دولة قارية أكثر منها بحرية ، إذ لم تستطع أن تحصل في يوم من الأيام على منفذ يطل على

مـوانئ بحر الشمال الكبرى ، مثـل آنفرس وروتردام التي تعتبر رئـة المنـاطـق الرينـانيـة . ونظراً لوقـوعهـا على محـاور المـواصـلات الكبرى التي تصـل أوروبـا الشرقية بالغربيـة فهي تبـدو وكأنهـا تبحث عن حـدودهـا ، سواء في الغرب أم في الشرق ، أي على حساب السلاف أو سكان الأقطار الدانوبية .

ـ ومن وجهة النظر التاريخية ، فقد حقق الألمان قيام ثلاث امبراطوريات ، هي الامبراطورية الجرمانية في العصر الوسيط ، والريخ البسماركي الـذي تكون في النصف الثـاني من القرن المـاضي ، وأخيراً الرايـخ الهتلري الـذي كانت تحرضـه نظريات عرقية ، والـذي كان نهماً في تحقيق « المجـال الحيوي » والهيمنـة ، مما أدى بألمانيا لكارثة ١٩٤٥ .

٣ ـ وقد عانت ألمانيا من تنـازع الحلفـاء فتمزقت . فهنـاك اليوم دولتان ألمانيتان ، أو « نسران بلا رأس » :

ـ فقـد أدت هـزيمـة عـام ١٩٤٥ إلى انكمـاش ألمـانيـا على مسـاحـة قـدرهـا ٣٥٧٠٠٠ كم٢ ، أي خسرت مسـاحـة قـدرهـا ١١٤٠٠٠ كيلو متر مربع . فـأصبحت مدينـة كونيغسبرغ (كالينيغراد) والأراضي المجـاورة ١٢٠٠٠ كم٢ ملحقـة بـالاتحـاد السوفييتي ، كما خسرت منـاطق شرقيـة أخرى مثل سيليزيـا وبـوميرانيـا وجنـوبي بروسيـا الشرقيـة التي انـدمجت في بولونيـا . وأصبح نهر الأودر ورافـده نهر نييسـه Neisse تخماً لألمانيـا الحـاليـة ، أي حرمت من المنـاطق التي استعمرتهـا بعـد القرن الرابع عشر .

ـ كما أن الوحدة السياسية ، التي حققتها متأخرة ، بعد ١٨٧١ ، قد تلاشت . فقد جزئت ألمانيا اعتباطياً إلى عـدة منـاطق في أعقـاب النزاع الكبير بين الحلفـاء (مؤتمر موسكو ١٩٤٧) .

ـ فهناك **ألمـانيـا الغربيـة أو الاتحـاديـة** ، ومسـاحتهـا ٢٤٨٤٥٤ كم٢ (٦٢

مليون نسمة) وعاصمتها بون الواقعة على نهر الراين ، وهي منطقة سكنها الجرمان منذ عهد طويل ، وذات اقتصاد ليبيرالي أو رأسمالي ، ضمت إليها منطقة السار سنة ١٩٥٧ في أعقاب استفتاء .

ـ **ألمانيا الشرقية** ، أو الجمهورية الديموقراطية ١٠٨٠٠٠ كم٢ (١٧,٥ مليون نسمة) ، وهي منطقة سلافية قديمة ، استعمرها الجرمان بين العهد الكارولنجي والقرن السادس عشر ، وتتمتع ببنية اشتراكية على غرار الديموقراطيات الشعبية في أوروبا الشرقية .

ـ **مدينة برلين الغربية** ٤٨٠ كم٢ وفيها ٢,٤ ملايين نسمة ، وتنقسم إلى جزئين هما صورة مصغرة من ألمانيا الغربية والشرقية . فالقسم الغربي عبارة عن جيب من ألمانيا الاتحادية ، في حين أن القسم الشرقي يشكل عاصمة جمهورية ألمانيا الديموقراطية حيث تبلغ الكثافة فيها ٤٥٠ نسمة في الكيلو متر مربع .

ولم تحصل ألمانيا حتى اليوم على معاهدة صلح يمنحها كياناً نهائياً . فلا زال الحلفاء من وجهة النظر القانونية سادة في هذا البلد المغلوب والممزق .

٤ ـ تضم دولتا ألمانيا ، فوق أرضهما الصغيرة الرقعة ، سكاناً متكاثفين ، فضلاً عن اللاجئين العديدين .

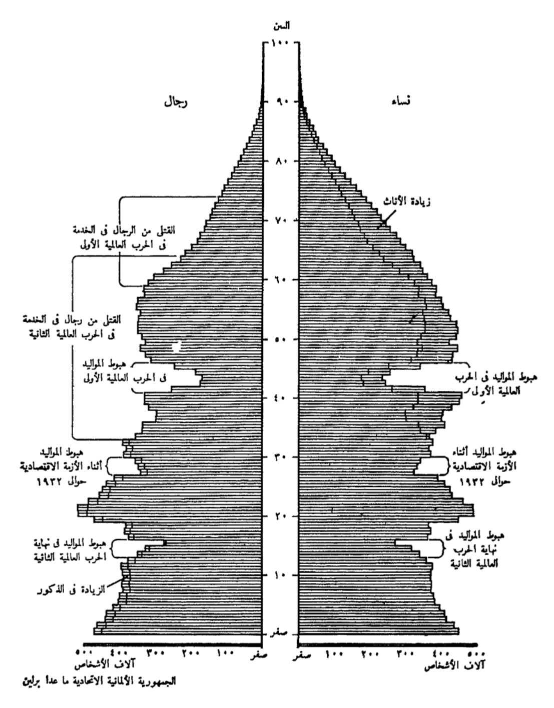
فقد ازداد تعداد الشعب الألماني بسرعة بعد تحقيق الوحدة سنة ١٨٧١ . وتدين ألمانيا المعاصرة ، في قوتها الاقتصادية وفي قوتها العسكرية ، ولحد كبير ، لاتصاف شعبها بالخصب الديموغرافي . ولنضف إلى ذلك أن هناك أقليات ألمانية قوية في البرازيل الجنوبية ، وفي الأرجنتين والشيلي كما أن الألمان ساهم لحد كبير في تكوين الشعب الأميركي . ففي أمريكا ٢٥ مليون ينحدرون من أصل ألماني منهم ٢٠ مليون في الولايات المتحدة .

فقد كانت ألمانيا تضم عام ١٨٧١ (بما فيها الألزاس واللورين) ٤٠ مليون نسمة بينما كانت فرنسا تحتوي حينذاك على ٣٨ مليون . وفي ١٩١٣ كان عدد السكان ٦٥ مليوناً ، أي أكثر من عدد سكان فرنسا بمرة ونصف . وبعد تقليص مساحتها إلى ٤٧٠٠٠٠ كم٢ بعد معاهدة فرساي عام ١٩١٩ كان لا يزال فيها ٦٧ مليون نسمة في عام ١٩٣٧ . وإذا كان انكسار عام ١٩٤٥ قد أدى لانكماش رقعة مساحتها مرة أخرى فإن عدد السكان في دولتي ألمانيا كان كبيراً أي ٨٠ مليون ، والكثافة تزيد عن ٢٠٠ شخص في الكم٢ .

من الصحيح القول أن ألمانيا خسرت أكثر من ٦ ملايين نسمة خلال الحرب العالمية الثانية ، منهم ٤ ملايين من العسكريين . وبذلك فقدت جزءاً كبيراً من فئات القادرين على العمل .

وأصبح العنصر النسائي أكبر بكثير من فئات الذكور . ففي ألمانيا الغربية لوحدها فائض من النساء مقداره مليونان . كما أصبحت نسبة المواليد ضعيفة لا تتجاوز ١٨ بالألف في ١٩٦٥ وهبطت إلى ١٠ بالألف مقابل ١٢ بالألف للوفيات أي أن الشعب الألماني في تناقص غير أن هذه الخسائر المريعة قد تعوضت بتدفق ١٣ مليون لاجئ تقريباً طردوا من المناطق الشرقية التي ضمت إلى بولونيا ، وبوهيميا ، وهنغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا . فقد كان الألمان يؤلفون في أوروبا الشرقية والدانوبية جاليات احتفظت بطابعها القومي . وبعودتهم إلى وطنهم ، أوجدوا مشاكل عسيرة ، بسبب عددهم ، لاسيما قضايا السكن ، والتشغيل ، استطاع الألمان حلها بنجاح ، وهناك مجال للتساؤل فيما إذا كان طرد هؤلاء الألمان قد سبب لأوروبا الوسطى أضراراً تماثل تلك التي عانتها فرنسا بعد نفي البروتستان منها أو التي أصيبت بها إسبانيا بعد طرد العرب قسراً (شكل ١٢) .

هذا وقد أصبح السكان متكاثفين في كل المناطق ، وحتى في المناطق الجبلية مثل الغابة السوداء ، وهارز ، وغابة تورنج . وحيثما عجزت الزراعة عن التغلب على الأراضي الفقيرة ، فإن الصناعة قامت كي تجتذب السكان . وأقل المناطق سكاناً هي الأراضي المستنقعية ، وميادين التورب الواقعة في سهل الشمال الكبير . وتصل الكثافة إلى أكثر من ٢٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع في حوض نهر الراين وفي المنطقة الممتدة من وستفاليا في الغرب حتى إقليم الساكس بالشرق ، وفي نطاق الهامش الساحلي .



هرم أعمار السكان في ألمانيا الاتحادية في ١٩٦٥

الشكل ١٢

٥ ـ الحياة الريفية والحضارة العمرانية

تشتمل ألمانيا على عدة نماذج من القرى نتجت عن عدة مراحل من إعمار الأرض . ويعتقد الباحثون أن الفلاحين قد أخذوا في البداية ، بزراعة السهوب والغابات المفتوحة . فتميز القرى المتكتلة ذات الحقول الشريطية مناطق تربة اللوس المتجانسة التي خضعت للزراعة قبل سواها ، أما في المناطق الدانوبية وفي بافاريا والغابة السوداء فتكون الدساكر ذات بيوت منعزلة مما يدل على إعمار أقل قدماً . وتصبح المساكن مبعثرة تماماً فوق ترب البودزول في السهل الشمالي الكبير الواقع غرب نهر إلب ، وهذه تشهد على استيطان فردي فوق الأرض ، وإلى الشرق من نهر الإلب تصبح القرى التي تعود لما قبل القرن الثاني عشر نادرة ، وتتخذ القرى شكلاً خطياً ممتدة على طول الطرق التي تمت حولها عملية كسر الأرض (أي استزراعها لأول مرة) ، فنجد قرى بجوار المستنقعات ، وقرى دفاعية ذات شكل دائري . كما تدل قرى كبار الإقطاعيين البروسيين على مناطق أعمرت حديثاً .

هذا كما تبدو شبكة المدن قديمة جداً ، فمنذ العصر الروماني ، ولاسيما منذ مطلع العصر الوسيط ، كانت أوروبا الوسطى تشتمل على مدن محصنة ومدن تجارة ، وخاصة مدن الجسور المرتبطة بالملاحة النهرية أو الطرق البرية ، أي مدن نجمت عن إعمار أوروبا واستيطانها باتجاه الشرق ، وقد تحول بعضها إلى مدن حرة كانت عبارة عن دويلات مستقلة حقيقية . كما أن مدناً أخرى مثل كالسروهة وفايمار أو بون حازت على أهمية خاصة بصفتها عواصم أمارات ، أو نواب أو كمدن جامعية . هذا كما حافظ التصنيع على حيوية شبكة من مدن صغرى ووسطى خلال النصف الثاني من القرن الماضي . غير أنه عمل على تورم مراكز تجارية قديمة مثل كولونيا ، وبعض العواصم الإقليمية شأن درسدن ومونيخ

(مونشن بالألماني) . كما بعث مدناً منجمية ، لم تكن معروفة ، ومراكز نشيطة بالصناعات الكيماوية المعدنية مثل ايِّسن Essen . وبعد أن كانت مدينة دورتموند ولودفيغهافن ، ودوسلدروف ، لاتضم كل منها سوى ١٠٠٠٠ نسمة في سنة ١٨٠٠ ، أصبحت كل منها تحوي أكثر من المليون من السكان .

وقد تهدمت مدن عديدة خلال الحرب العالمية الثانية بفعل القنابل ، ولكن أعيد بناء الأحياء المتخربة بسرعة ، سواء بإعادة طابعها السابق ، أو عن طريق اتباع هندسة عمرانية وظيفية . وهكذا حلت عمارات واسعة مكعبة ، تضم مكاتب الشركات الكبرى ومخازن التجارة ، مكان أحياء تعود للعصر الوسيط في فرانكفورت حول الكاتدرائية وقصر رومر حيث كان يتم انتخاب الأباطرة . كما قامت عمارات شاهقة جعلت من قلب مدينة دوسلدورف مدينة تماثل مدن الولايات المتحدة . أما بناء مدينة هانوفر فقد أصبح أكثر تواضعاً واعتدالاً .

ويقطن تسعة أعشار الألمان في المدن . ويمكننا اعتبار إقليم الرور كمنطقة حضرية بحتة ، إذ تضم ٧ ملايين نسمة فوق مساحة تقل عن مساحة لبنان ، لأن مساحة الرور لاتتعدى ٨٣٠٠ كم٢ ، أي أن الكثافة تزيد هنا عن ٨٤٣ شخص في كل كيلو متر مربع ، ويقطنون جميعاً في مدن متقاربة يزيد تعداد كل منها عن ١٠٠ ألف نسمة . وتحوي ألمانيا على ثلاث مدن يزيد سكان كل منها عن المليون ونصف وهي برلين وهامبورغ ومونيخ . وفي ألمانيا ٢٠ مدينة تحوي كل منها على أكثر من ٣٠٠٠٠٠ نسمة تعتبر كل منها ، من وجهة النظر الاقتصادية ، عاصمة إقليمية .

وإجمالاً كان في ألمانيا الغربية عام ١٩٨٢ (٣) مدن فيها أكثر من مليون و ٨ مدن يتراوح سكانها بين نصف مليون ومليون و ٤٥ مدينةتضم بين ١٠٠ ألف ونصف مليون ، أي أن مجموع المدن التي يتجاوز سكانها ١٠٠ ألف نسمة بلغ ٥٦ مدينة .

المدن الألمانية التي يزيد سكانها عن ٤٠٠ ألف نسمة

برلين الغربية	٢٠٠٠٠٠٠	شتوغارت	٥٨٦٠٠٠
برلين الشرقية	١١١٢٠٠٠	لايبزيغ	٥٦٦٠٠٠
هامبورغ	١٧٠٠٠٠٠	هانوفر	٥٤٣٠٠٠
ميونيخ	١٣١٤٠٠٠	بريمن	٥٦٤٠٠٠
كولونيا	٩٨٠٠٠٠	دويسبورغ	٥٧٤٠٠٠
ايسن	٦٦٥٠٠٠	درسدن	٥١٢٠٠٠
دوسلدورف	٦٠٨٠٠٠	نورمبورغ	٤٩٠٠٠٠
فرنكفورت نهر الماين	٦٣٣٠٠٠	ووبرتال	٤٩٠٠٠٠
دورتموند	٦١٨٠٠٠		

٦ ـ حيوية الدولتين الألمانيتين :

لقد أصبحت دولتا ألمانيا ، بعد بضعة أعوام من انتهاء الحرب ، قوتين اقتصاديتين ، تحرضهما ديناميكية رائعة ، قل أن نجد بالتاريخ أمثلة مشابهة لهما .

فبعد أن كانت ألمانيا دولة مقهورة ، ومقسمة ، وبعد أن انضم شطر منها إلى « المنظومة الغربية » من جهة ، واندمج الثاني في « المنظومة الاشتراكية » من ناحية أخرى ، إذ بها تنهض بسرعة مثل الكرة التي لاترتطم بالأرض إلا لترتفع لأكثر من مستواها الأولي .

ففي عام ١٩٤٥ احتل الحلفاء ألمانيا واقتطعت منها مناطق واسعة في الشرق ، كما فقدت موقتاً إقليم السار بالغرب . وبذلك خسرت ألمانيا حوضي الفحم الشهيرين أي حوض سيليزيا العليا والسار ، فضلا عن أقاليم زراعة كانت توفر الغذاء للمناطق الصناعية . وظهر الألمان وكأنهم لايتألفون إلا من الأطفال والنساء والكهول فكان في ألمانيا عام ١٩٦١ (١١١٧) إمرأة مقابل كل ١٠٠٠ رجل ، كما أن عدد اللاجئين الضخم قد رفع من تعداد العاطلين عن العمل . وكان التهديم الذي لحق بالممتلكات مذهلاً . فقد تهدم ٥٣ ٪ من مساكن مدينة هامبورغ مثلا . وتخرب ٦,٤ ملايين مسكن من مجموع ١٦ مليون . وكان الدين العام هائلا والرصيد النقدي منعدما . غير أن التدمير بفعل الطائرات لم ينل القدرة

الصناعية بشكل خطير ، إذ لم يتخرب سوى ١٠ ٪ من المؤسسات الصناعية و ٢٠ ٪ من المعامل النسيجية . ونصت اتفاقيات بوتسدام عام ١٩٤٥ على معاملة ألمانيا « كوحدة اقتصادية » بشرط نزع السلاح منها ، كما حرمت من إنتاج الصناعات ذات الهدف الستراتيجي كصناعة الفولاذ التي تقنن إنتاجها . كما تم تفكيك معامل السلاح التي استحوذ عليها الحلفاء . كما نصت اتفاقيات بوتسدام على تدمير القدرة الصناعية الألمانية وفرض غرامات تدفعها للحلفاء . أي بكلمة موجزة أصبحت ألمانيا معدمة .

ولكن أصبح العالم اليوم يعجب « بمعجزة » دولتي ألمانيا الاقتصادية ، أي معجزة في الغرب ، وأخرى في الشرق .

ـ **فألمانيا الغربية** الرأسمالية تبدو اليوم أكثر أقطار أوروبا الغربية ازدهاراً ، وأول دولة في السوق الأوروبية المشتركة ، لدرجة أصبحت تلقب « بأوروبا العمليات الاقتصادية والتروستات » . وهكذا نجد أن استثماراتها الاقتصادية التي تبلغ ٧٤٠ دولار للفرد بالعام (مقابل ٣٨٠ في فرنسا و ٣٠٠ في بريطانيا) تسمح لها بأن تسارع في تقدمها السنوي . كما ازداد الدخل القومي بمقدار ٥١ ٪ بين ١٩٥٨ و ١٩٦٣ . ويتراكم فيها القطع النادر نتيجة صادراتها الهائلة ، فبلغت موجودات البنوك من الذهب والعملة الصعبة أكثر من ٤٠ مليار مارك في ١٩٦٨ . وأصبحت سوية المعيشة فيها مرتفعة مما زاد الطلب على السلع الاستهلاكية ، إذ زاد استهلاك الورق فيها بين ١٩٥٠ و ١٩٥٩ من ١,٦ مليون طن إلى ٣,٨ مليون . وفي ١٩٦١ كان الدخل القومي يزداد سنوياً بمعدل ٧,٣ ٪ مقابل ٣,٢ في الولايات المتحدة مع أن تزايد السكان فيها كان لايزيد عن ١ ٪ بالسنة . وبين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦١ ارتفع الاستهلاك فيها بحوالي ٣ أمثال . ويزيد عدد البيوت الجديدة في كل القرى والمدن عن عدد المساكن التي تعود لما قبل الحرب .

ـ أما **ألمانيا الشرقية** الاشتراكية فقد راحت تنشر في معرض لايبزيغ أنواعاً عديدة من المنتجات الاستهلاكية والصناعية بحيث أصبحت أكبر الدول المصدرة لمثل هذه المصنوعات بين الديموقراطيات الشعبية ، وقامت فيها صناعة ثقيلة من

العدم ، لدرجة أن دول أوروبا الغربية أصبحت تعتبر ألمانيا الشرقية الحصن الطليعي أو « حربة الرمح » الشيوعية الموجهة نحو الغرب . كما أن ازدياد الإنتاج أخذ يسمح بنوع من تحسين في سوية معيشة الألمان الشرقيين .

بيد أن الطموح للوحدة لازال قائماً على طرفي حدود ١٩٤٥ . فالمشاهد الجغرافية التي كيّفها الإعمار القديم للأرض ، لاتزال كما هي سواء في ألمانيا الوسطى أو الشمالية والتي توزعت بين دولتي ألمانيا .

كما يبدو تقسيم برلين غريباً كما لو جزئت دمشق حسب خط يمر من شارع الميدان حتى نهاية المهاجرين ماراً بجادة الصالحية .

بيد أن أكثر الحدود اعتباطية قد تجعل من شعب واحد أُمّتين غير متجانستين بسبب اختلاف التربية والمناخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي فيهما . فالتخم الذي يفصل ألمانيا الغربية عن شقيقتها الشرقية يشهد على تفوق الإنسان على الطبيعة وعلى التاريخ .

ألمانيا الاتحادية

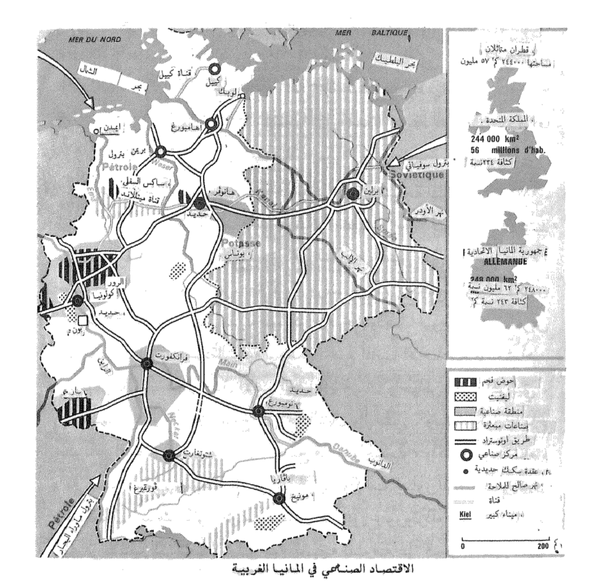
تعتبر ألمانيا الاتحادية أكثر أهمية من سائر النواحي من أختها الشرقية . إذ تبلغ مساحتها ، مع برلين الغربية ، ٢٤٨٥٢٨ كم٢ ، وارتفع عدد سكانها إلى ٦١,٣ مليوناً في أواسط ١٩٧٩ وتبلغ كثافة السكان فيها ٢٤٦ نسمة . ونظراً لوقوعها غربي نهر الإلب ، فهي تملك في المناطق الرينانية مركز الثقل الاقتصادي والديموغرافي والثقافي للمجموعة الجرمانية .

وتماثل ألمانيا الاتحادية ، من حيث النظر إلى مساحتها وعدد سكانها ، المملكة المتحدة (شكل ١٣) ، غير أن حيويتها الاقتصادية أكبر بكثير . فقد استطاعت اعادة بناء الاقتصاد الألماني وتوفر لسكانها ، فوق مساحة متقلصة جداً ، رخاء لم يعهدوه في تاريخهم .

أولاً - كيان ألمانيا الغربية

تتألف ألمانيا الغربية من اتحاد أقاليم تتخذ بون عاصمة لها .

فقد ولدت ألمانيا الغربية من اندماج مناطق الاحتلال الأميركية والإنكليزية ، والفرنسية ، وكان تفكير المحتلين ولاسيا الأميركان يرمي إلى جعل المناطق الغربية الثلاث سداً في وجه السوفيات ، وهكذا تخلى الحلفاء تدريجياً عن تفكيك المعامل ونقلها لبلادهم . فسمحوا لمناطق احتلالهم بأن تؤلف دولة ذات سيادة تقريباً ، ثم اعتبروها شريكاً وأخيراً حليفاً .



الاقتصـاد الصنـاعي في المانيـا الغربيـة

الشكل ١٣

وقد جعل دستور ١٩٤٩ من ألمانيا الغربية اتحاداً من مناطق :
بادن ـ فورتمبورغ ، راينانيا ـ بالاتينا ، راينانيا ـ فستفاليا ، هس ، ساكس السفلى ، شلزفيلغ هولشتاين ، بريمن ، هامبورغ ، التي ضمت إليها ولاية السار في عام ١٩٥٧ في أعقاب استفتاء . ولكل من هذه الأقاليم برلمانه ، ووزراؤه المكلفون بالشؤون المحلية . وتمنح ألمانيا الاتحادية المركزية التقاليد الاتحادية العزيزة على بعض الولايات مثل باڤاريا ، ولمدن حرة مثل بريمن وهامبورغ ، وقد اختارت عاصمة لها مدينة سكنية وجامعية صغيرة واقعة على حافة نهر الراين الغربية هي بون (٣٥٠٠٠٠ نسمة) .

ـ هذا وتحتل ألمانيا الغربية مساحة تعادل نصف مساحة ألمانيا عام ١٩٣٨ . وبعد أن تجزأت بشكل غريب اتخذت شكلا متطاولاً بين الجنوب والشمال يمتد على ٨٠٠ كم ، أي من جبال الألب حتى بحر الشمال ، وتضيق حتى لا يزيد عرضها أحياناً من الشرق للغرب عن ٣٠٠ كم بين فرنسا وإقليم تورنج . وبينما تكون حدودها الشمالية على عرض مدينة موسكو ، إذ بحدودها الجنوبية تهبط لعرض مماثل لضفاف البحر الأسود الشمالية . وهكذا تجمع ألمانيا الاتحادية كل مشاهد أوروبا الوسطى ، فتضم جبال الألب العليا إلى جبال وأحواض العالم الهرسيني ، وإلى السهل الشمالي الكبير المفتوح على بحر الشمال والبلطي . وبينما يكون المناخ تحت تأثير المحيط الأطلسي بالشمال ، يصبح قارياً بالجنوب ، وأكثر قساوة شتاء ، وأكثر تشمساً صيفاً . ويوجه كل من نهر الراين والإلب محاور المواصلات الكبرى باتجاه الشمال ، بذلك يكون كل من ميناءي هامبورغ وروتردام الهولندي المنفذ الطبيعي لألمانيا الغربية ، لأن للواجهة الضيقة المشرفة على البحر البلطي أهمية تجارية ضئيلة .

ـ **مشكلة اللاجئين واندماجهم** : لقد نجحت ألمانيا الغربية في دمج ١٣ مليون لاجئ أو مبعد ، منهم ٣ ملايين قدموا من ألمانيا الشرقية ، ويؤلف هؤلاء

قرابة ربع الشعب الألماني في دولة كانت غاصة بالسكان قبل قدومهم . فقد تألم هؤلاء كثيراً بعد مغادرتهم أوروبا الدانوبية وبولونيا أو ألمانيا الشرقية . وقد تم إسكانهم بالبدء في المخيمات ، وفي القرى القديمة أو في بيوت ريفية شيدت خصيصاً لهم . وأخذت الدولة على عاتقها أمر معيشة الذين كانوا عاجزين عن العمل . ولم ينجح أكثر الفلاحين في أن يصبحوا ملاكين لمزارع جديدة . ونزح الكثير من اللاجئين نحو المدن أو نحو المصانع التي كانت في أمسّ الحاجة للأيدي العاملة . وبعد وقت وجيز أصبح كلهم تقريباً يقيمون في منازل لائقة واندمجوا في مجتمع الجديد ، ضمن قطر خربته الحرب ، كان يتكفل بمعيشة ٦ ملايين عاطل عن العمل سنة ١٩٥٢ .

وقد كانت هذه المعجزة الأولى ممكنة بفضل تضامن الشعب الألماني ، الذي ارتضى باقتسام الأعباء ، وأيضاً بفضل التكوين الثقافي والمهني لدى اللاجئين ومرونتهم . وهكذا شكلت هذه الطبقة الكادحة الضخمة المؤلفة من الوافدين ثروة اقتصادية أكثر منها عبئاً ثقيلاً .

وبذلك ازدادت قدرة ألمانيا الاتحادية اقتصادياً ، لأنها تضم اليوم عمالاً أكثر مما كان لمجموع ألمانيا سنة ١٩٣٩ . إذ أمكن إيجاد مجالات عمل جديدة لستة ملايين شخص منذ ١٩٥٠ رغم تناقص عدد العاملين في القطاع الزراعي ، بحيث يمكن القول أن الاندماج قد أصبح ناجزاً بعد ٢٠ عاماً من النزوح ، فتلاشى حزب اللاجئين ، كما كثرت أعداد الزيجات بين السكان القدامى وبين الوافدين الجدد أو بين أبنائهم . كما أدى ذلك الاختلاط إلى مخض في المذاهب لدرجة أن الحواجز بين البروتستان والكاثوليك قد غدت أقل وضوحاً من الماضي . كما أن كثيراً من الألمان الشرقيين الذين سبق لهم أن حصلوا على تعليم مهني طيب ، قد وفروا لألمانيا الغربية أيد عاملة جاهزة تنال أجراً عالياً ، إلى أن تم بناء جدار برلين فتوقفت عمليات الهروب تقريباً ولا سيما بسبب ارتفاع الأجور ذاتها في ألمانيا الشرقية .

ـ ألمانيا الغربية تصبح امبراطورية صناعية جرمانيـة : لقـد كان ١٠٠٠٠ شخص يعـالجون ، سنـة ١٩٤٦ ، في مستشفى مـدينـة دوسلـدورف بسبب أمراض نـاجمـة عن الجوع ، كما أصيب ١٠٠٠٠٠ نسمـة في مـدينـة هـامبورغ بمرض أوديما Oedéme الجـوع . ولكن في سنـة ١٩٥٢ اضطر المسؤولـون الإداريـون في مجلس دوسلدورف التشريعي ، إلى استبدال الكراسي بمقاعـد أكثر عرضاً . . . إذ ارتفعت نسبة الإنتاج الصناعي بمعدل ٢٠٣ بالمئة بين ١٩٥٠ و ١٩٦٤ (مقابل ١٤٧٪ في فرنسا ، و٧٧٪ في الولايات المتحدة و٥٤٪ في بريطانيا) وتعتبر هذه النسبة من أكبر مثيلاتها في العالم . وأصبحت ألمانيا الغربية في عدد قليل من السنين أول دولة اقتصادية ومالية في أوروبا ، وثالث قوة اقتصادية بالعالم ، بعد الولايات المتحـدة والاتحاد السوفييتي ، وقبل بريطانيا إلى أن حلت اليـابـان مكانهـا . وقـد أفلحت جمهورية بون في بعث القوة الاقتصادية والألمانية لـدى الطبقـات الثريـة ، أي أن ألمانيا الغربية هي دولة بورجوازية وامتداد لألمانيا السابقة .

ويمكن تفسير هذه المعجزة الألمانية الثانية بالعوامل التالية :

ـ حيوية الرأسمالية فيها .
ـ العون الأجنبي .
ـ السياسة الاقتصادية التي اتبعتها الحكومة الاتحادية .

ـ وقد تمت النهضة أولاً بتأثير الإصلاح النقدي في ١٩ حزيران ١٩٤٩ ، الـذي خصم ٩٣,٥٪ من قيمة الأوراق النقـديـة وحسـابـات المصـارف . وأوجـدت مـاركاً جـديـداً سرعـان مـا وثق بـه الجمهور . وخرجت المخزونـات سريعـاً من عنـابرهـا وظهرت في مخازن البيع وفرة مفاجئة في السلع . وعـاد الجمهور لشراء البضـائع من جديد . وبعد أن كان الناس يصطفون أمـام المخـابز على شكل طوابير منتظمـة في ١٩ حزيران ١٩٤٩ راح الخبـازون يرسلون الخبز الممتـاز لمنـازل زبـائنهم . وتبـدل

المناخ المعنوي فقد احتفظت ألمانيا بثرواتها الفحمية ، وبتنظيمها التجاري والمصرفي الرائع ، وبشبكة مواصلاتها البديعة .

واستطاع جهازها الإنتاجي الذي لم يتضرر كثيراً من الحرب ، أن يحقق أرباحاً مرتفعة في سوق لا يزال بعيداً عن الإشباع . وانكب الألمان على العمل كي يخرجوا من المحنة . وعاد أرباب العمل الانضباطيون لتكوين الشركات الكبرى (كارتل) ، كما أن العمال ، الذين لا يقلون انضباطاً أيضاً ، أجّلوا مطالبهم الاجتماعية . وهكذا أظهر الجميع تنظيماً في الجهود جعل المراقبين يقولون : إن الألمان يعيشون لكي يعملوا ، وأنهم يحبون الغمل للعمل .

كما كان الانبعاث الاقتصادي مدفوعاً أيضاً بفعل الإنكلوسكسون ، الذين كانوا يأملون في أن يروا منطقتي احتلالهم قادرتين على تصدير المواد المصنوعة كي تستطيع استيراد المواد الغذائية التي كانت بحاجة إليها ، وعوضاً عن أن يقدم الإنكليز ، ولا سيما الأميركان ، الغذاء للألمان بالمجان فقد عملوا على مساعدتهم كي يخرجوا من البؤس . فألغوا الأوامر التي كانت تحد من الإنتاج الصناعي ، وردوا أخيراً المناجم والمصانع لأصحابها السابقين . كما ساعد العون المالي الأميركي الألمان على شراء وتجديد معاملهم . هذا ودخل الرأسمال الأجنبي في كثير من الشركات الكبرى وأقيمت فروع لشركات (فورد ، جنرال موتورز تحت أسماء سيارات وطنية مثل أوپل وتاونوس) . وظهرت ألمانيا كبلد أمين بالنسبة لرؤوس الأموال منذ أن ظهر الإصلاح السياسي مصحوباً بنهضة اقتصادية .

ـ وتفسر المعجزة الألمانية أخيراً بالاستقرار السياسي والاجتماعي ، وبالسياسة الاقتصادية التي اتبعتها الحكومة الاتحادية ، وكان الاقتصاد الاجتماعي للسوق الذي تبناه المستشار (ارهارد) عبارة عن ليبيرالية جديدة تؤمن الرخاء للجميع . وكان همّ الحكام خلق سوق متنافس ، متحرر من المراقبة ومن الاحتكارات الخاصة أيضاً ، بحيث تتولد الوثبة الاقتصادية من المنافسة الحرة ومن حب الكسب .

وقد سمح تكدس رؤوس الأموال بتحقيق توظيفات (استثمارات) منتجة ، استفاد منها كل عناصر المجتمع . وهكذا أعقب اقتصاد الاستهلاك اقتصاد الإنتاج . ونشأت رأسمالية شعبية ، وألغي تأميم بعض الشركات ، مثل فولغسفاغن ، وبيعت أسهمها للجمهور وللعمال الذين راحوا يهتمون بحسن سير العمل ونجاعته .

ولم تقف الدولة موقفاً سلبياً فقد كفلت استقرار العملة . وشجعت أيضاً على توظيف الأموال ، والاستقراض ، وتحديث المؤسسات الصناعية . فانضمت برغبة إلى المجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ ، وبعدئذ انضمت إلى السوق المشتركة . واستفاد الألمان من حرمانهم من الجيش خلال بضعة أعوام ، إذ لم يكونوا ينؤون تحت وطأة ضرائب ثقيلة ، فاستطاعوا تمويل المؤسسات الصناعية ذاتياً . وشجعت الدولة أيضاً عملية فتح أسواق خارجية .

واستغل الألمان ببراعة تخفيض الحواجز الجمركية في أوروبا الغربية وسرعان مااكتسبوا نفسية ميالة للتصدير ، وهم يعرفون بصورة عجيبة دراسة الأسواق وظهروا متماسكين أمام المنافسة . وهكذا أصبحت ألمانيا الغربية مخبراً واسعاً يطرح فيه الصانع سلع الاستهلاك والتجهيز على العالم أجمع ، كي يؤمن معيشة ٦٠ مليون ألماني ، معيشة تتحسن باستمرار وبصورة متسارعة . وأصبحت الصادرات تمثل ٢٠٪ من الإنتاج الوطني مقابل ٤٪ من إنتاج الولايات المتحدة . ويؤلف نجاح التصدير أساس القوة الصناعية الجديدة .

وعندما يسأل أحد الألمان عن أسباب نهضتهم المذهلة ، فإنهم يجيبون على العموم قائلين : « نحن لا نعرف الاضرابات ولا توجيهية الدولة » ولكن النقابات العمالية ترغب بإلحاح أن يكون تزايد الإنتاجية مصحوباً بتحسن موازٍ في مستوى معيشة العمال .

ـ الألمان والرخاء : وعلى أثر النهضة الاقتصادية ، أصبح الدخل القومي

الألماني مرتفعاً لدرجة تجاوز معها الدخل القومي الفرنسي[1] . وأصبحت ألمانيا أكبر دولة دائنة في أوروبا بسبب تكديسها الذهب والقطع النادر . ونظراً لضمانة المارك باحتياطي الذهب ، وبفضل أرباح التجارة الخارجية ، فقد صارت العملة الألمانية صلبة مثل الفرنك السويسري : ويعتبر المارك من أوائل العملات في العالم . واستطاعت ألمانيا أن تستحوذ على نوع من هيمنة في سوق الرساميل بالعالم . فهي توظف الأموال في معظم أرجاء الأرض . واحتلت فرانكفورت مكانة سامية كسوق مالي أوروبي .

ـ ونتيجة لذلك فقد لحقت سوية معاش الألماني بالفرنسي وثم تجاوزته ، وأصبح أجر العامل الألماني يعادل زميله الأمريكي في ١٩٨٠ رغم ضعف العلاوات العائلية ورخص أجور النساء . وشجع تكاثر عدد سكان المدن وانتظام خدمات التوزيع فيها على زيادة الاستهلاك الذي ارتفع بنسبة ٨٠٪ خلال عشرة أعوام (مقابل ٤٨٪ في فرنسا) . وإذا كانت حظيرة السيارات السياحية الألمانية تضم قرابة ١٥ مليون سيارة فإن ٦ ملايين سيارة منها تخص العمال ، ويقضي ٥ ملايين ألماني سنوياً عطلتهم الصيفية في الخارج . وتملك ٩٠٪ الأسر الألمانية جهاز تلفزيون وتملك ألمانيا عشر محطات للبث التلفزيوني . ويعتبر الألماني أكبر مستهلك للتبغ بين شعوب أوروبا الغربية .

---

(١) على الرغم من أن الأمم الصناعية والدول المنتجة للنفط لاتؤلف سوى ثلث سكان العالم فهي تستحوذ على أكبر شطر من الثروة العالمية . وفي ٥٠ بلداً يقل الناتج القومي الخام عن ٥٠٠ دولار للفرد بالعام . وكان الدخل الفردي عام ١٩٧٨ كما يلي في الدول الآتية : الولايات المتحدة ٩٦٨٧ دولار ، الإمارات العربية ٣٠٠٠٠ ، الكويت ١٣٠٠٠ ، السويد ١٠٥٤٣ ، كندا ٨٧٣٥ ، سويسرا ١٣٣٣٥ ، فرنسا ٨٨٥١ ، ألمانيا الغربية ١٠٤١٩ ، بريطانيا ٥٥٤٥ ، ليبيا ٧٢٦٢ ، لبنان ٦٥٠ ، تركيا ١٠٥٩ ، السعودية ٨٣١٩ ، العراق ١٦٢٠ ، الأردن ٨٤٢ ، إيران ١٩٨٨ ، تونس ٩٨٨ ، البرازيل ١٦٣٥ ، المغرب ٦٥٤ ، مصر ٤٨٥ ، باكستان ٢٣٥ ، السودان ٢٠٧ ، أندونيسيا ٢٤٠ ، الهند ١٥٩ ، أثيوبيا ١٠٣ ، نيجريا ٧١٧ ، موريتانيا ٣٥٣ ، ملاوي ١٨٤ ، استراليا ٨١٦٠ ، اليابان ٨٤٧٦ ، الاتحاد السوفياتي ٣٩٩٠ ، رومانيا ٢٦٧٠ ، فنزويلا ٣٠٢٤ ، إفريقيا الجنوبية ١٥٩٤ ، المكسيك ١٤٠٣ ، الجزائر ١١٠٠ ، كوريا الجنوبية ١٢٨٥ ، الفيليبين ٥٠٦ ، الصين ٣٩٠ ، أفغانستان ١٣٠ ، فنلندا ٧١٣٢ ، سوريا ٩٥٩ .

ثانياً ـ المناطق الاقتصادية الكبرى

نجد في **الغرب** نطاقاً يتراكم فيه السكان والثروات ، يكون محوره نهر الراين ، نطاقاً يتناقض مع نطاق ذي اقتصاد ضعيف يمتد بمحاذاة ألمانيا الشرقية ، ابتداء من شلزويغ Sleswig حتى الحدود التشيكية .

وتشتمل ألمانيا الاتحادية من الشمال للجنوب ثلاث مناطق ألمانية تقليدية هي : ألمانيا الشمالية ، ألمانيا الوسطى ، وألمانيا الجنوبية .

١ ـ المناطق الصناعية في ألمانيا الوسطى

لقد سبق أن رأينا أن ألمانيا الوسطى هي عبارة عن فسيفساء من كتل هرسينية ، ومن أحواض ووديان ، ولكنها تؤلف المحور الصناعي في الجمهورية الاتحادية ، فألمانيا الوسطى تضم « بلاد » راينانيا والبالاتينات ، وراينانيا ـ فستفاليا ، وهيس Hesse وتبدو مجزأة بكتل جبلية هرسينية .

ففي الغرب تظهر الكتلة الشيستية الراينانية وهي عبارة عن هضبة مؤلفة من صخور الشيست والكوارتزيت ، ذات ارتفاع يتراوح بين ٤٠٠ و ٨٠٠ م ، وهي امتداد لهضبة الأردين الفرنسية البلجيكية ، وتبرز فيها مسكوبات من اللابة ومن فوهات البراكين الانفجارية Maare التي ترقد فيها البحيرات أحياناً . ويشق نهر الراين فيها ممراً عميقاً كانت تكثر عليه الجنادل في الماضي

وإلى الشرق ، تظهر جبال هسّ كالجزر وهي جبال فيزر Weser وغابة توتوبورغ Teutoborg حيث تجابه الجرمان والرومان ، وجبال هارز ، وهي منطقة المناجم ، وأخيراً مرتفعات فوجلسبرغ Vogelsberg البركانية ورون Rhon .

وهناك ممرات تتسلل بين هذه الجبال مثل حوض الماين Main الأعلى ،

وحوض هيَّس ، وحوض مونستر . ونجد في ألمانيا الوسطى المناطق الصناعية الرئيسية الثلاث في ألمانيا الاتحادية :

ـ حوض السار ومنطقة فرانكفورت ، إلى الجنوب من الكتلة الشيستية الراينانية .

المنطقة الراينانية الوستفالية ، إلى الشمال من الكتلة الشيستية الراينانية .

أ ـ إقليم السار : ومساحته لاتزيد عن ربع مساحة لبنان أو ٢٥٦٧ كم٢ ، وهي منطقة غنية بمناجم الفحم وبالصناعة الحديدية . ويتألف مظهر السار من تلال شيشستية ، تغطيها المراعي ، وغابات الزان والراتنجيات . ويقع الحوض الفحمي في مقعر Synclinal موجّه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي . ويحوي هذا الحوض على ذخر من الفحم مقداره ١٢ مليار طن . ويتروا ح الإنتاج حول ١٦ مليون طن بالعام ، ونوعية الفحم تسمح بتحويله إلى فحم الكوك الذي يعتبر أساسياً في صناعة الحديد .

ويستخدم في ثلاث صناعات قديمة وقوية جداً : هي الصناعة الحديدية ، صناعة الزجاج ، وصناعة الخزف الصيني . وتهيمن على الصناعة الحديدية بضع شركات كبرى مثل روشلنغ Roechling ، التي تنتج قرابة ٥ ملايين طن من الفولاذ . أما الصناعات الكيماوية فتعالج نفايات الفحم . كما تؤمن صناعة الألبسة والأحذية ، والتبغ ، والجعة حاجات هذه المنطقة الغاصة بالسكان ، والتي تضم قرابة مليون نسمة . بحيث تصل الكثافة إلى ٤٠٠ نسمة .

ولا يحوي إقليم السار سوى مدينة كبيرة هي ساربروك ١٥٠٠٠٠ نسمة . وتتناثر المناجم والمعامل في الغابة . وكثيراً ما يظل عامل المنجم أو العامل في الصناعة فلاحاً ، فقسم من الأسرة يزرع حقلاً صغيراً ويربي الخنازير .

ب ـ إقليم فرانكفورت : وكانت الصناعة هنا بنت التجارة . فقد كانت

منطقة فرانكفورت وماينس Mayence إقليماً ذا طابع أصيل في ألمـانيـا الوسطى . ولا يدين بنشاطه لوجود حوض فحمي ، بل لموقعه الممتـاز ولسهولـة المواصلات ، ولحركية الأيدي العاملة ، وأخيراً لكثرة الرساميل ، لأن أسرة روتشيلـد اليهوديـة وصاحبة المصارف العالمية تعود أصلاً لهذه المدينة . وتقع منطقة فرانكفورت عنـد أقدام جبال تـاونوس Taunus وعنـد تقـاطع طريق الراين الأوسـط مع واديي نهر المـاين والنكار ، في سهل غني بإنتـاج القمـح ، والشـونـدر السكري (البنجر) ، والتبغ ، فضلاً عن قطعان ماشية هامة . وتلعب المدن الصنـاعيـة هنـا دور مراكز استقطاب للأيدي العاملة العديدة التي تأتي كل يوم بالقطـار أو بـالبـاصـات من الأرياف المجاورة . وتستمد المنطقة مصادر القدرة من الفحم ، ومن الغـاز (القـادم من إقليم الرور) ومن البترول . وتكـون الصنـاعـات هنـا ، القـائمـة على صنـع المكائن ، والكيمياء ، والبصريات ، وصناعة الجلود ، والنسيج ، والمطاط ، مختصة جداً ومعتمدة على التصدير للغاية . وستزداد أهمية المنطقة بعد تحسين الاتصـال بين نهر الدانوب ونهر الراين بواسطة نهر الماين الذي يحدد قناة الارتباط .

ـ مدينة **فرانكفورت** : وفيها ٧٠٠ ألف نسمة ، كانت في الماضي عاصمة اتحاد جرمـاني . وتلعب اليوم دور العنكبوت في وسـط شبكتهـا لكثرة تشعب السكـك الحديدية منها ، كما تحوي أحـد أكبر مطـارات أوروبـا ، وهي مكان التقـاء طرق سيارات عديدة ، كما انها مركز عمليات تجارية وصفقات ، ومصـارف ، ومعـارض مشهورة . وهي في الوقت نفســه بؤرة تحوي الكثير من المصـانع الصغيرة لصنـاعـة الثيـاب ، مثلمـا تحوي مقر معـامـل كبرى مثـل سيـارات أوبـل Opel ، التي بلـغ إنتاجها ٨٥٠ ألف سيـارة عـام ١٩٧٩ . وكانت الأحيـاء القـديمـة في فرانكفورت ، والتي عـاش فيهـا غوتـه ، عبـارة عن متحف لفن العصور الوسطى ، وذلـك قبـل تدميرها أثناء الحرب العالمية الثانية . هذا وأصبحت **دارمشتـاد** Darmstadt التي كانت مقر حاكم إقليم هيس ، مدينة صنـاعيـة ، مثل مـدينـة **فيسبـادن** الشهيرة

بمياهها المعدنية وهيدلبرغ ذات الشهرة الجامعية القديمة . أما مدينتا **مانهايم ولودفيغهافن** فهما مدينتان توأمان تشتهران بالصناعة الكيماوية الكبرى ، ويبلغ عدد سكانهما ٤٠٠ ألف نسمة ، وبذلك تتفوقان على مدينة **ماينس** الواقعة على نهر سپير Spire ومدينة **فورمس** Worms الفخورتين بكنائسهما الرومانية وحيث كانت تعقد المجامع الدينية .

جـ ـ **إقليم راينانيا ـ وستفاليا** : ويضم هذا الإقليم ١٦ مليون نسمة أو ٣٠٪ من سكان ألمانيا الغربية ، فوق مساحة لاتزيد عن ٣٠ ألف كم٢ أو أقل من محافظة دير الزور في سورية التي تزيد عن ٣٣ ألف كم٢ . ويضم هذا الإقليم العاصمة بون كما يستحوذ على الشطر الأعظم من صناعة ألمانيا كلها .

ويستند الدور المهين الذي يقوم به الإقليم الرايناني الوستفالي في الاقتصاد الألماني على الأسس التالية : وجود سهول توفر الغذاء ، وجود شريان نهري كبير هو نهر الراين الذي خلق إمكانات تجارية رائعة ، وأخيراً على غنى باطن الأرض بمصادر القدرة .

ـ فإلى الشمال من خوانق الراين تنفتح السهول اللحقية في حوض كولونيا وحوض مونستر . فالسهول الفسيحة التي تطيف بمدينة كولونيا التي تضم ٩٠٠٠٠٠ نسمة . تشتهر بزراعة الحبوب . أما مدينة مونستر فهي مركز منطقة تهتم بالمراعي وتربي الأبقار والخنازير . ومع ذلك لا يكفي إنتاج هذين السهلين لتغذية المدن المنجمية والصناعية المجاورة كما تجود صناعة الخمور مثلما تنجح زراعة الفواكه في جنوب المناطق الرايناينة مثلما تقدم الكتلة الشيستية الرايناينة الأخشاب الضرورية لمناجم الفحم .

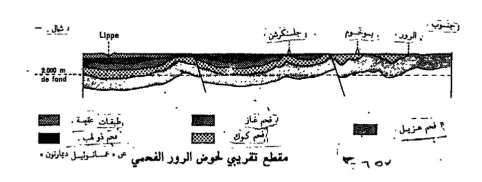
وقد مهّد لقيام الصناعة قِدم المواصلات هنا وكثافتها ، على طول وادي الراين . كما كانت الصناعة أحياناً وليدة التجارة في هذه المنطقة . فهذا النهر هو

أحد أهم عناصر اقتصاد أوروبا الغربية ، وهو يعود لأصل ألبي ، ويحتفظ في الكتلة الشيستية الراينانية بمجرى عميق تكثر فيه العتبات الصخرية . ويصبح في وستفاليا نهراً قوياً وهادئاً . ينتج ارتفاع مياهه في الخريف والشتاء ، عن أمطار تجلبها السيكلونات المحيطية والتي تنضاف لمياه الفيض الربيعي والصيفي ، الناجمة عن ذوب ثلوج وجموديات جبال الألب والكتل الجبلية الهرسينية . ويظل صبيبه قوياً على مدى العام ، فيبلغ ٢٢٠٠ متر مكعب / ثانية عند دخوله هولندا (أو ٣ أمثال صبيب الفرات عند البوكمال) . وفضلاً عن جودة هذا النهر الطبيعية فقد روّضه الإنسان . فقد اغتنت شبكته بقنوات وبأنهار نظمت مجاريها ، كنهر الموزيل . وتمخر عباب مياه هذا النهر سفن أسطول تبلغ حمولته السنوية ٨,٥ مليون طن ، تحمل أعلاماً هولندية وألمانية وفرنسية وبلجيكيه وسويسرية . ويبلغ وزن المواد التي تنقل فوق مياهه ١٤٠ مليون طن من البضائع : كالحديد ، والحبوب ، والقطن ، والبترول والتي تذهب للمناطق المطلة على هذا النهر ، والفحم وفحم الكوك ، ومنتجات الصناعة الحديدية التي يقدمها إقليم الرور والتي تصدر للخارج لدرجة تصبح معها ضفاف النهر في إقليم الرور عبارة عن ميناء متصل . فمدينة دويسبورغ هي أول ميناء نهري في أوروبا وتعادل حركة البضائع فيه نشاط ميناء مرسيليا الفرنسي .

ـ وفضلاً عن ذلك فإن الثروات الكامنة في المحروقات هي التي تجعل من راينانيا ـ وستفاليا قلب الاقتصاد الألماني . فحوض آخن Aix-la-Chapelle الصغير الواقع قرب الحدود الفرنسية البلجيكية والذي يعتبر امتداداً لحوض لياج Liège البلجيكي ، يقدم ٧ ملايين طن من الفحم بالعام . هذا ويستعمل فحم الليغنيت ، الذي يقدمه حوض كولونيا الغني ، بشكل خاص ، في مراكز توليد الكهرباء .

هذا وينتج مكمن الرور لوحده ١٢٠ مليون طن من فحم ينتجه ٤٠٠٠٠٠

عامل منجم . وقد بدأ استغلال الفحم في هذه المنطقة في القرن الثالث عشر ، في الجنوب ، حيث تتكشف طبقات الانتراسيت والفحم الهزيل بجوار نهر الرور Rhur . ثم امتد الاستثمار شمالاً باتجاه ليبّه حيث تهبط الآبار إلى أعماق تزيد عن ١٠٠٠ م ، كي تدرك طبقات الفحم الدهني ، وفحم الغاز ، والفحم الملتهب (شكل ١٤) وتكون طبقات الفحم سميكة دوماً والتجهيز ممتازاً . ويبدو الذخر غير قابل للنفاذ . وهكذا يستخرج حالياً من الفحم الدهني مقدار ٤٣ مليون طن من الكوك الممتاز ، مثلما يستخرج ١٠ مليارات متر مكعب من الغاز الذي يوزع بالأنابيب على كل ألمانيا .



الشكل ١٤

بيد أن أهمية الفحم في تناقص ، فبعض المناجم قد أغلقت ، والإنتاج راكد بلا زيادة . فالبترول يستورد بالسفن النهرية أو بالأنابيب كي يتم تكريره في معامل ضخمة في جوار نهر الراين (كولونيا جيلسن كيرشن) وبذلك أصبح الرور أكثر فأكثر مستورداً للطاقة .

- **أهمية إقليم الرايناني الوستفالي :** تعتبر هذه المنطقة أكبر تجمع صناعي في أوروبا ، إذ يقدم ٨٠٪ من الفحم و ٧٥٪ من الفولاذ ، وأكثر من نصف المنتجات الكيماوية والمنسوجات في كل ألمانيا الاتحادية . أو بعبارة أخرى يقع في هذه

المنطقة أكبر تراكم للصناعات والسكان في كل أوروبا . وهنا تقع بون ، العاصمة .

ولا تكون الصناعات متمركزة في حوض الرور الفحمي ، بل تتناثر في كل الإقليم مما يسمح بالتعرف على عدة مناطق أساسية .

- **فالقسم الشمالي من الحوض الفحمي** ، أي في منطقة ليبّه Lippe هو عبارة عن إقليم جديد لاستثمار الفحم . فقد حفرت الآبار العميقة في إقليم لا يزال ريفياً ، ويطيف بالآبار المذكورة معامل تحويل الفحم الدهني إلى فحم الكوك ، والمراكز الكهربائية التي ترسل تيارها نحو المنطقة الوسطى . ويطغى المظهر الصناعي تدريجياً على منطقة مونستر ، التي لا تزال تحتفظ بطابع فلاحي . وتكون المدن الكبرى نادرة هنا وأهمها : ريكلنهاوزن ، وهام Hamm التي تعتبر أكبر محطة جديدة لتوزيع السلع واستقبالها .

- **في الوسط** نجد منطقة الفحم الدهني ، الذي بدأ استغلاله في وقت أسبق ، لذا تعتبر **منطقة سوداء** بكل معنى الكلمة ، لكثرة دخان المعامل . وهنا تجمعت أكبر المعامل الكيماوية التي تستمد مادتها الأولية من الفحم Carbochimie وأقدر مجموعات معامل الحديد والفولاذ التي تنتج ٤٤ مليون طن فولاذ (أي أكثر من فرنسا)[1] . ولكن تتجه هذه المنطقة أكثر فأكثر نحو صناعة أنواع فولاذ بطريقة الأوكسجين ، وفي الفرن الكهربائي ، ونحو صناعة المعادن غير الحديدية (وخاصة الألمنيوم) ، ونحو صناعة المكائن الثقيلة . وقد صاحب تكاثر الصناعات تمركز السكان بشدة في المدن .

---

(١) كان إنتاج الفولاذ في العام عام ١٩٨١ كما يلي حسب أهمية الدول : الولايات المتحدة ١٠٨,٨ مليون طن ، الاتحاد السوفييتي ١٤٩ ، اليابان ١٠١,٦ ، ألمانيا الغربية ٤١,٧ ، بريطانيا ١٥,٥ ، أوروبا الشرقية ٤٥ ، فرنسا ٢١,٢ ، إيطاليا ٢٤,٦ ، بلجيكا ١٢,٢ ، لوكسمبورغ ٣,٧ ، الصين ٣٥,٦ ، تركيا ١,٨ ، الهند ١٠,٥ ، هولندا ٥,٤ ، ومجموع الإنتاج العالمي ٧٤٦ . وإنتاج الوطن العربي من هذه المادة لا يتجاوز حاليا ٥ ملايين طن في جمهورية مصر العربية والجزائر وتونس وقطر .

فكثافة السكان تزيد هنا عن ١٠٠٠ نسمة بالكيلو متر المربع . وتندر هنا الحقول والمراعي . فعلى مسافة ١٠٠ كم من الغرب إلى الشرق لا نجد سوى غابة من المداخن والمصانع التي تنتج الغاز ، ومن خطوط حديدية تمر فوق الجسور ، ومحيطا من المنازل ونثيراً من الاحياء العمالية . فقد التأمت كل جراح الحرب ، بعد أن قامت معامل جديدة تماما كان مقرها برلين سابقا ، أو بواسطة شركات أمريكية مثل فورد . وبالاختصار نجد مشهد مدن صغيرة عصرية للغاية ، تنتشر فيها الحدائق العامة ، وملاعب الرياضة ، التي منحت الجمال لمنطقة صناعية سوداء كانت كئيبة جدا .

وترتصف المـــدن الكبرى على محـــور يمتـــد من الغرب للشرق ، أي من نهر الراين حتى دورتموند . فيتجاوز عدد سكان كل من ايسّن ودورتموند ٦١٧٠٠٠ نسمة ، مثلما يزيد عدد سكان كل من دويسبورغ ، وجلسن كيرشن وبوشوم عن ٣٠٠٠٠٠ ولم يكن في أي من هذه المدن المذكورة أكثر من ٦٠٠٠٠ نسمة عام ١٨٧١ أي قبل قرن كامل من الزمن .

- **وفي جنوب الرور** ، تكون الصناعات أقل ارتباطاً بالفحم . فقد كانت الأيدي العاملة العديدة والخبيرة تعمل منذ القديم هنا في صناعة الخشب وحديد سيغرلاند Siegerland أو كانت تنصرف لصناعة الغزل والنسيج . وقد ازدهرت صناعة سلع الاستهلاك من جديد خلال القرن التاسع عشر والعشرين بفضل وجود سوق هامة وطرق مواصلات كبرى . فتشتهر مدينة **ووبرتال** في غزل القطن ونسجه ، كما تنصرف مدينة **آخن** لصناعة الصوف . أما مدينة **كريفلد** ومدينة **مونشن غلاباخ** فتعرفان بصناعة المنسوجات الاصطناعية مثلما تصنع أنوال النسيج ، وصناعات الألبسة والجلد ، كما أن الصناعات الكيماوية تكون أيضاً هنا ذات أهمية ، أما مدينة سولنجن ، ورمشيد Rcmscheid فتصنعان الأدوات المنزلية ، والأدوات الميكانيكية ، والمكائن الصانعة . وتقع في قلب هذه المنطقة الصناعية القديمة والمتجددة مدينة **دوسلدورف** (٧٠٠٠٠٠ نسمة) ، وهي مدينة

صناعية ، أو عاصمة اقتصادية حقيقية ، استقرت فيها الشركات الكبرى ، والمخازن الضخمة ، والبنوك الجبارة .

ـ وتقع منطقة **كولونيا** إلى الجنوب من المنطقة السابقة ، التي نمت على ضفة الراين . فتعتبر مدينة **ليفركوزن** عاصمة الصناعات الكيماوية ، ولا سيما معامل باير Bayer ، التي تنتج لوحدها ربع إنتاج خيوط النسيج الاصطناعي .

وتضم مدينة **كولونيا** ٨٥٠٠٠٠ نسمة ، وهي مدينة أخذت أهميتها من الجسر الذي يمر فوقه الطريق الذي يصل فرنسا بالسهل الأوروبي الشمالي ، فضلا عن وظيفتها كميناء نشيط على نهر الراين ، ومركز مالي ، ومقر صناعات غذائية وميكانيكية لا سيما صناعة سيارات تاونس Taunus التي أنتجت ٦١٣٥٧٩ سيارة عام ١٩٦٩ ولها علاقة وثيقة بشركة فورد الأمريكية .

غير أن ألمانيا الوسطى ليست الركيزة الصناعية الوحيدة في ألمانيا الاتحادية . فقد تسلّل التصنيع نحو الجنوب ، أي إلى منطقة بادن وورتمبورغ ، إلى الشمال ، وإلى سكسونيا السفلى ، وضفاف بحر الشمال .

٢ ـ المناطق الريفية في ألمانيا الجنوبية

ألمانيا الجنوبية الجبلية : لقد ظلت هذه المنطقة ريفية خلال أمد طويل ، ولكنها أخذت تتجه الآن نحو الصناعة . هذا وتمتد ألمانيا الجنوبية من نهر الراين حتى جبال بوهيميا التشيكية ، وتضم إقليمين هما بافاريا في الشرق وبادن فورتمبرغ في الغرب .

وتنصرف مياه ألمانيا الجنوبية بواسطة نهر الدانوب الذي ينبع من منطقة الغابة السوداء ، وبواسطة روافده المنحدرة من جبال الألب التي تؤلف حاجزاً في الجنوب ، أما الغابة السوداء وجبال بوهيميا فهي أكثر الكتل الهرسينية الألمانية ارتفاعاً .

وقد تأثرت ألمانيا الجنوبية كثيراً بالنفوذ الروماني فظلت كاثوليكية رغم حركة الإصلاح . ولا يختلف التخم الشمالي للكاثوليكية كثيراً عن تخوم الامبراطورية الرومانية في القرن الميلادي الثاني . وتتصف هذه المنطقة بطابعها الريفي ، حيث تهيمن الملكية الصغيرة . « فالإنسان البافاري متفتح القلب مرح ، فلا نجد في أي منطقة من ألمانيا نفس الذوق العفوي لبساطة الحياة ، ونفس الحيوية المرحة . فالفن ليس احتكاراً لطبقة معينة ، بل هو من اهتمام الشعب كله . فقد كان للرقص وللموسيقى الريفية ، ولمسرح القرية ، وللنحت ، وللرسم ، وللأدب الشعبي تقاليد راسخة هنا منذ القديم » .

ـ غير أن الصناعة تزحف اليوم نحو الجنوب في ألمانيا الاتحادية لتجنب اختناق منطقة الرور والاستفادة من الأيدي العاملة الوفيرة المؤلفة غالباً من اللاجئين . كما تجد الصناعة محلياً طاقة وفيرة تتألف من الفحم الأبيض ، والفحم الذي ينقل بواسطة نهر الراين ، والبترول الذي يصل مدينة كارلسروهه ومدينة انجولشتات (على الدانوب) بواسطة الأنابيب الأوروبية الجنوبية ، والذي يتم تكريره محلياً . ويكون هذا الإقليم الذي تكثر فيه المراعي والغابات ناشطاً سياحياً بالصيف ، وبالمتزلقين على الثلوج (سكي) في الشتاء . وقد دخلت المنطقة الصناعات التحويلية الحديثة ، ليس إلى المدن القديمة أولم وريجنسبوغ Ratisonne وانجولشتات ، أو في مدن شهيرة مثل شتوتغارت ٦٥٠٠٠٠ ، ونورمبورغ ٤٨٥٠٠٠ ، ومونيخ ١,٤ مليون فحسب بل في كل ثنايا الوديان . فكل قرية من إقليم فرتنبرغ أصبحت صناعية . وهكذا يتزايد سكان إقليم بادن فرتنبرغ بسرعة تفوق تزايدهم في الإقليم الراياني الوستفالي .

وتحوي ألمانيا الجنوبية على مشاهد أكثر تنوعاً من سائر المناطق الألمانية ويمكننا أن نميز فيها ثلاث مناطق هي :

ـ الغابة السوداء وسهل بادن .

- حوض صوآب فرانكونيا (شرق الغابة السوداء وشمال الدانوب الأعلى) .

- جبال الألب والهضبة البافارية .

إقليم بادن - ويقع في شرقي مرتفعات الغابة السوداء ، وهي منطقة غنية . ففي جنوب غرب ألمانيا تهين الغابة السوداء على سهل بادن . وتكون الغابة السوداء عبارة عن كتلة متبلورة غير متناظرة ، تنتشر عليها غابات الشوح القاتمة . وإلى الشمال من ذلك يعود الغطاء الخرساني للظهور في تلال اودنفالد Odenwald . ويكون السكان قليلي الكثافة ولكن السياحة نشيطة . وتنتشر القرى مصطفة فوق درجات ترتفع قليلاً عن سهل الراين . وقد نفذت الصناعة إلى هوامش هذه الكتلة ، وفي الوديان الجنوبية التي تنحدر نحو مدينة بال السويسرية ، وعلى طول نهر الدانوب الأعلى ونهر النكار (صناعة الساعات ، نسيج ، كيمياكهربائية) .

ويتألف **سهل بادن** الواقع بين نهر اين والغابة السوداء من جزء من الحفرة الكبيرة ، التي تمتد على مسافة ٣٠٠ كم من فتحة بورغونيا في فرنسا حتى الكتلة الشيستية الراينانية . وهنا تجود زراعة الحبوب والتبغ وحشيشة الدينار ، التي تدخل في صناعة الجعة ، والأشجار المثمرة فوق مصاطب تربة اللوس . كما تؤلف الغابات والمراعي شرطاناً بجوار نهر الراين . كما تغطي الكروم الأراضي الواقعة فوق التلال وفوق كتلة كايزرتوهل البركانية . وأهم مدينة هنا هي فرايبورغ الواقعة عند تماس السهل بالجبل . وبعد أن كانت كارلسروهه مقر محكمة العدل الفيديرالية ، أصبحت ميناء على نهر الراين ، بفضل قناة طولها ٢ كم ، ومدينة صناعية (تكرير نفط ، أجهزة كهربائية) ومركزاً للأبحاث النووية . وبلغت صناعة إقليم بادن درجة من الحيوية جعلتها تجذب يومياً أكثر من ٦٠٠٠ عامل الزاسي فرنسي .

- **حوض صوآب فرانكونيا** : ويحوي على منخفضات خصيبة وعلى مركزين صناعيين هامين هما شتوتغارت ونورمبورغ . فقد استطاع الحت أن يكشف في حوض صوآب فرانكونيا الرسوبي تضاريس الكويستا الكلسية والخرسانية . ويكون ظهر الكويستات عبارة عن هضاب قاحلة وغابية . وتتكاثف الحياة البشرية في المنخفضات ذات التربة اللوسية ، عند أقدام جبهات الكويستات وفي الوديان حيث يزرع القمح وحشيشة الدينار والتبغ والأشجار المثمرة والكرمة ، وتتناثر القرى الكبيرة في الأرياف المفتوحة ، وحيث تكون الملكيات صغيرة .

هذا ويفتح كل من وادي الماين والنكار طرقاً تجارية كبرى بين بلاد الراين والمنطقة الدانوبية أو الألبية . فقد كانت هذه الطرق موائمة لازدهار المدن التجارية ، التي تحولت اليوم نحو الصناعة . فتضم مدينة شتوتغارت (٦٥٠ ألف نسمة) ، عاصمة إقليم فورتمبورغ ، صناعات متنوعة جداً ، نذكر منها صناعة السيارات من ماركة بورش Porsche ومعامل مرسيدس الضخمة ، التي أنتجت ٢٥٩٠٠٠ سيارة عام ١٩٧٩ ، وأجهزة تصوير من ماركة زايس Zeiss . وتختص أولم بصناعة السيارات الشاحنة والتلفزيونات . أما مدينة نورمبورغ ، التي تؤوي ٤٩٠٠٠٠ نسمة ، والواقعة على قناة تصل الدانوب بنهر الماين فتشتهر بمدينتها القديمة ، التي ظلت سليمة حتى نهاية الحرب الماضية وبصناعة لعب الأطفال . وتقوم فيها معامل كثيرة للجعة ، فضلاً عن صناعات ميكانيكية (كميونات ، أوتوبوس) وكهربائية ، وصناعات الكترونية .

- **بافاريا** : **وقد ظل هذا الإقليم ريفياً ، غير أن مونيخ مدينة صناعية هامة ، وثالث مدينة ألمانية لأنها تضم أكثر من ١,٣٥ مليون نسمة .**

فبين وادي الدانوب وجبال الألب تظهر الهضبة البافارية وكأنها بيونت Piémont حقيقي يعود لأصل نهري جمودي . كما أن جبال الألب البافارية وهي

عبارة عن مقدمة كلسية لجبال الألب ، تكون أحياناً جافة قاحلة ، تحزّزها الجموديات وتزدان ببحيرات تجتذب شاليهاتها Chalets (بيوت خشبية جبلية) العديد من السواح . ويلعب مركز غارميش Garmisch دور محطة لرياضة الشتاء واقع تحت أعلى قمة في كل ألمانيا هي قمة زوغتبيتزة ٢٩٦٣ م .

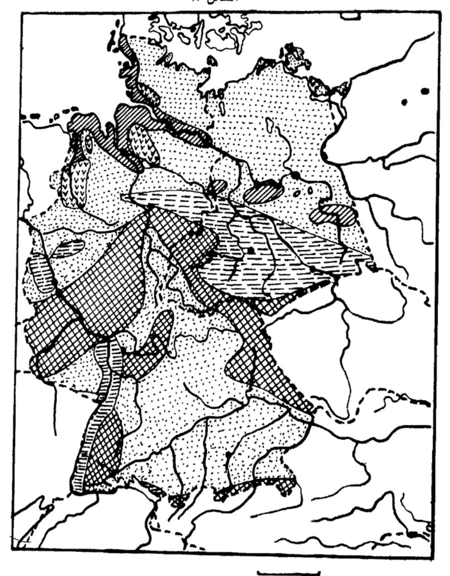
ولا تزال المنخفضات التوربية ، والأراضي البائرة والغابات (شكل ١٥) ، تحتل مساحات كبيرة ومع ذلك تربى الخنازير والأبقار ، لأن المنطقة أكبر منتج للألبان ومشتقاتها في ألمانيا الاتحادية ، كما يزرع القمح والجاودار في فسحات الغابات . وقد نجح الفلاحون البافاريون على أرضهم العقيمة بفضل جدهم ، وبتكنيك متقدم . أما المصاطب اللوسية التي تواكب مجرى الدانوب وروافده فتجود فيها الأشجار المثمرة وحقول التبغ وحشيشة الدينار .

وتعود مدن بافاريا أحياناً ، في القدم ، للاحتلال الروماني . فهي تحرس ممرات الطرق التي تعبر جبال الألب (برنر Brenner) أو طريق الدانوب الذي يؤدي إلى فيينا . وقد توسعت هذه المدن بفضل التجارة ، والأعمال المصرفية ، وفي العصر الحديث بواسطة الصناعة . فقد كانت مدينة اوغسبورغ Augsburg في القرن السادس عشر ، مدينة صيارفة الامبراطور شارلكان ، ويظهر نشاطها اليوم بالصناعة النسيجية وصنع المكائن .

أما مونيخ (مونش عند الألمان) والتي تحوي ١,٣٥ مليون نسمة فهي عاصمة بافاريا ، وبؤرة ثقافية وفنية . وتقوم فيها معامل جعة شهيرة وصناعات تحويلية متنوعة جداً (تجهيزات السكك الحديدية ، أحذية ، بصريات ، مطاط تركيبي ، مصنوعات كهربائية) .

ألمانيا الشرقية والغربية

الشكل ١٥



غابة مكسورة

زراعة غنية فوق الطمي

مناطق غابية

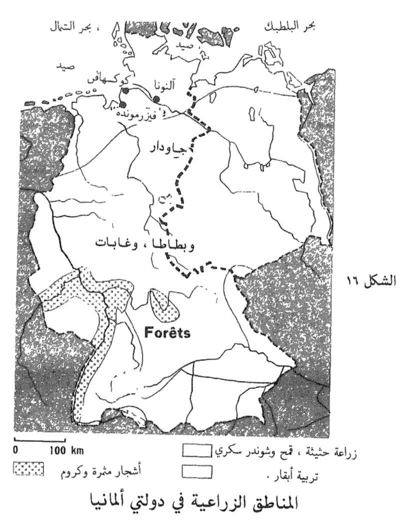
طورب وأراضي رملية عميقة

براري رطبة

٣ ـ المناطق الصناعية والموانىء في السهل الشمالي

السهل الشمالي : وهو سهل رتيب واسع دخلته الصناعة في منطقة سكسونيا السفلى . إذ تتألف ألمانيا الشمالية من منطقتي سكسونيا السفلى (مقاطعتي هـانوفر واولدنبورغ) ومن إقليم شلزفيغ هولشتاين (شكل ١٦) .

تلـك هي أكثر منـاطق ألمـانيـا فقراً وشحّاً . فبين حـدود هـولنـدا وألمـانيـا



الشكل ١٦

المناطق الزراعية في دولتي ألمانيا

الشرقيـة ، لانجـد أي تضريس يلفت النظر في هـذه الفيـافي الرتيبـة التي تشغلهـا نباتات الخلنج Bruyére التى ترقد فوق ترب سيليسية ، والمستنقعات ، والغـابـات الراتنجية . غير أننا نعثر في ولايـة شلزفيغ هولشتـاين الواقعـة جنوب الـدانمـارك مبـاشرة ، والتي زارتهـا الجموديـات قبل فترة تقـع قبـل ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ سنـة ، تلالاً بحيرية تنم عن مشاهد ألمانيا الشرقية . وقام الإنسان بحرق الغـابـة وقطع كل التورب واستصلح التربة للسيطرة على تربة عقيمـة بحيث نجح في زراعـة الجـاودار وتربية الماشيـة ، والشوفـان والبطـاطـا . وتعتبر تربيـة النحل المصـدر التقليـدي للرزق في فيافي لونيبورغ Lunebourg الواقعة بين بريمن وهامبورغ .

ـ أما الكثافات البشرية الريفية الشـديـدة ، فنجـدهـا إلى الجنوب من هـذا الإقليم أي في نطـاق البورده Borde الغني بتربـة اللوس ، والـذي يمتـد على عرض مدينة هانوفر على مسافة ٢٠٠ كم وبعرض يتراوح بين ٥٠و١٠ كم . ويقوم الملاكون الصغار ، المجتمعون في قرى ، بزراعة القمح والشمندر السكري . وفي هـذا النطـاق المتميز ظهرت المراكز الصناعية . فالطبقات الرسوبيـة البـاطنيـة تحوي على ثروات معـدنيـة كبيرة ، إذ يستثمر النفـط والغـاز الطبيعي في منطقـة إمس Ems ، والبوتاس في منطقة هانوفر ، والحديد ، الفقير في نسبته ، والمعادن غير الحديديـة بجوار منطقـة هـارز Harz (جنـوب هـانـوفر) ، كما يكثر هنـا فحم الليغنيت إلى جـانب قليل من الفحم الحجري . وتبعث الصنـاعـة النشـاط في سبحـة من المـدن الكبرى مثـل هـانـوفر "تي تضم ٦٠٠ ألف نسمـة ، وبرونشفـايـغ Brunswick وتتصل هـذه المـدن بـالخطـوط الحـديـديـة وبـالطرق العريضـة وبقنـاة ميتلنـد Mittcland ، وتهتم هذه المدن بالتجارة وبصنـاعـة الشـاحنـات ، أي الكميونـات ، والسيـارات حيث تقـوم معـامـل فـولغسفـاغن ، في مـدينـة فـولفسبـورغ قرب برونشفـايغ ، والتي تنتج قرابـة ثلاثـة ملايين سيـارة بـالعـام ومعـامل المنتجـات الكيماويـة ، والمنسوجـات الصوفيـة ، والصنـاعـات الغـذائيـة المتنوعـة . وتحتوي

مدينتا سالزغيتر Salzgitter وبينه Peine الواقعتين جنوب شرق هانوفر ، وقرب مناجم حديد هارز ، على معامل صناعة الحديد الكبيرة .

وهكذا حققت منطقة سكسونيا السفلى ، نجاحات رائعة فصناعاتها أصبحت تماثل الآن صناعات الرور .

- **سواحل بحر الشمال :** وتحتوي هذه السواحل على حقول بولدر غنية ومصبات أنهار عميقة تؤوي مينائي بريمن وهامبورغ الكبيرين . والواقع لاتملك ألمانيا الاتحادية سوى واجهة ضيقة من سواحل تنقسم إلى جزأين لوجود شبه جزيرة جوتلند الدانماركية .

- فسواحل بحر الشمال هي امتداد للسواحل الهولندية . وتكون منبسطة . وقد قطعها طغيان البحر على شكل خلجان (دولارت ، جاد) وإلى مصاب خليجية (مصب الويزر والإلب) . كما عمل البحر على عزل جزر تشكل سلسلة تكاد تكون مستمرة موازية للساحل ، هي الجزر الفريزونية . وقد عمل الإنسان هنا على تحويل مساحات واسعة من الوحول التي تتكشف أثناء الجزر إلى حقول غنية خصيبة ، تدعى هنا مارشن تماماً كما فعل ويفعل الهولنديون[1] . وتخصص هذه الحقول ، أو البولدر ، لتربية الماشية الكبيرة ، وتكون كثافة السكان هنا كبيرة ويقطن السكان في بيوت مرصوفة على طول الحواجز الاصطناعية أو في قرى باتجاه الداخل .

- أما ساحل بحر الشمال فهو ساحل غمري حديث . فنجد هنا جروفاً حوارية ، تنتشر فيها الخلجان من نوع رياس Rias كما في سواحل هولشتاين . غير أن البحر البلطي لا يعرف الحركة التجارية الكبيرة المعهودة في أوروبا الغربية . فموانئ البلطي ، التي تكون أحياناً ذات ماض مجيد ، مثل **كييل**

---

(١) هناك مثل هولندي يقول لقد صنع الله البحر وعلى الهولندي صنع سواحله .

ولوبك ، لا تتمتع بأهمية تماثل موانئ المصبات النهرية والتي تتعرض لحركة المد والجزر الشديدة في بحر الشمال .

ـ وترتبط مدينة **إمدن** الواقعة عند مصب نهر إيمس ، قرب الحدود الهولندية الشمالية ، بحوض الرور بقناة وتصرف بعض الإنتاج الألماني القادم من وستفاليا . هذا وتتلقى مدينة **ولهلمز هافن** البترول الخام الذي يضخ إلى بلاد الراين بواسطة الأنابيب . ولا زالت مدينة **بريمن** (٦٠٠,٠٠٠ نسمة) على نهر الويزر Weser ميناء ركاب وبضائع فضلاً عن مركّب كامل في الصناعة الحديدية ، يعتمد على استيراد فلزات الحديد من الخارج .

وتعتبر **هامبورغ** أول ميناء وثاني مدينة في كل ألمانيا وفيها ١,٨٥٠,٠٠٠ نسمة ، ويقع الميناء على ذراع من نهر الإلب على مسافة ٨٠ كم من البحر . وبعد أن دمرتها الحرب استعادت نشاطها ، ولكن بعنفوان أكبر ، وتقوم بتأمين تصريف تجارة ظهيرها التشيكي وتتاجر مع أقطار الشرق والغرب . وقد نشأت **الصناعة** فيها عن التجارة الكبرى وعن الرساميل المتكدسة لدى بورجوازية قديمة (أهم ترسانات بناء السفن الألمانية ، معامل تكرير بترول ، مصاهر نحاس ، صناعات ميكانيكية ، وكيماوية وغذائية متنوعة) . وتتم الاتصالات مع غيرها بواسطة نهر الإلب وبقنوات تنطلق من النهر المذكور وبالعديد من السكك الحديدية .

ثالثاً ـ ديناميكية ألمانيا الاقتصادية

تتلخص عوامل قدرة ألمانيا الصناعية في أوروبا الغربية في عاملين :

ـ عن تنظيم اقتصادي ناجع .

ـ عن غناها بمصادر الطاقة .

فالنشاط الصناعي ، الذي يشمل كل أرجاء ألمانيا ، يهين على الحياة

الألمانيـة . فعـدد السكان العـاملين الـذي يبلغ ٢٨ مليون نسمـة ، يعمل منهم ٣,٥ مليون فقـط في القطـاع الأولى ، أي في الصيـد والـزراعـة والمنـاجم ، في حين أن ١٢,٣ مليون يعملون في القطاع الثاني أي في الصناعة ، و ١١,٢ ملايين في القطاع الثلاثي ، أي يزيد عدد العاملين في الصنـاعـة أربع مرات عن العـاملين في ميـدان الزراعـة . وبـذلـك يمكن مقـارنـة ألمـانيـا بكل من الـولايـات المتحـدة والاتحـاد السوفييتي اللذين يملكان ثروات أكثر بكثير .

وتروي معظم الأساطير الألمانيـة قصص أقزام حـاذقين يستوطنون الجبـال . وقد ورثت الصناعة الألمانية التقاليد الصناعية القديمة : مثل صناعـة الحيـاكـة في وستفاليا ، واستثمار مناجم الهارز . بيد أن الثورة الصناعية تفجرت هنـا متـأخرة عن بريطـانيـا وفرنسـا . وكان على ألمـانيـا أن تنتظر نشـوء سـوق داخلي وحيـد Zollverein ، ثم الوثبة التي تلت تحقيق الامبراطورية الألمانية كي تنشـأ في سنوات قليلة صناعة كبيرة تتمتع بديناميكية فريدة .

ـ وقـد كان لـدى الصنـاعـة الألمـانيـة دومـاً هيئـة أركان مؤلفـة من التقنيين والعلماء . فلم تستند الصناعـة في أي مكان في العـالم مثلمـا استنـدت هنـا على العلم التطبيقي ولم تستخدم بصورة أكثر دقة أبحـاث المخـابر الجيـدة التجهيز . وقـد كان التمركـز الصنـاعي مبكراً جـداً ، واتخـذ اتسـاعـاً مـدهشـاً . فما يسمى كـونـزرن Konzern هي عبارة عن مجموعات من مؤسسات ترتبط بالمشـاركـة المـاليـة . فهي تضم إنتـاج المواد الخـام وصنع المنتجـات المصنوعـة . وبـذلـك تحتكر عمليـاً إنتـاج الصناعات الرئيسيـة ، كما تؤمن لهـا قـدرتهـا الإشراف على الأسواق . ولم يكن منع التمركز بعد الحرب العالمية الثانية أكثر من حادث عابر ، إذ لم تتبدل بنى الصناعـة الألمـانيـة الكبرى بـالواقع . فقـد عـادت امبراطوريـة كروب Krupp مع هيئتهـا الرئـاسيـة ، مثلمـا عـادت سيطرة رجـال الصنـاعـة في إقليم الرور ، بحيث يعمل في مصانع كروب وملحقاتها ١٠٠٠٠٠ عامل أوما يعادل كل الطبقة العاملـة في المملكـة

المغربية . ففي مجال الصناعة الثقيلة نجد أن ثمانية شركات ضخمة ، منها كروب ، تنتج ثلاثة أرباع إنتاج الفولاذ . وتحتل شركة Thyssen أول مكانة في أوروبا (٨ ملايين طن فولاذ) . وتهيمن شركة كروب على مؤسسات صناعة الفحم ، ومعامل فولاذ راينهاوزن ، والصناعة المعدنية المتنوعة في مدينة إيسن . وتهيمن شركة سيمنس و A. E. G. على الصناعات الكهربائية ، مثلما تسيطر شركة باير وباديش آنيلين على الصناعات الكيماوية . فتملك شركة باديش آنيلين في مدينة لودفيغهافن أكبر معمل في العالم ، معمل يتألف من ١٥٠٠ بناية صناعية و ٢٠٠ كم من الخطوط الحديدية ، و٢ مليون طن من المواد الأولية ، و ٤٦٠٠٠ عامل ومستخدم ، وتصنع هذه الشركة ٣٠٠٠ مادة (أصبغة ، أسمدة ، لدائن . . .) وتصدر أكثر من ثلث منتجاتها الكيماوية ، البالغة مليون طن ، إلى الأسواق الخارجية .

أما شركة فولكسفاغن فتنتج ثلاثة أمثال إنتاج رينو الفرنسية . وهكذا تجنح المؤسسات الصناعية الألمانية لاتخاذ أبعاد أميركية .

- ويعتبر اقتصاد ألمانيا الغربية قائماً على الفحم . بيد أن إنتاج الفحم الذي بلغ ١٤٠ مليون طن بالإضافة إلى ١٠ ملايين طن من الليغنيت في ١٩٦٥ ، يجنح الآن للتدني فهبط إلى ٨٨,٥ مليون طن فحم و ١٢٣ مليون طن ليغنيت في ١٩٨١ ، لكننا لا نجد فوق القارة الأوروبية ثروات مماثلة من الوقود الصلب إلا في بريطانيا وأوكرانيا . وتطيف مكامن الفحم بالكتل الهرسينية فيقع حوض السار والرور جنوب وشمال الكتلة الشيستية الراينانية ، أما حوض سكسونيا السفلى الصغير فيقع في السهل الشمالي . وإذا كانت القدرة الحرورية لليغنيت تعادل ثلث قدرة الفحم الحجري[1] فإن توضعات هذه المادة ، وهي

(١) تعني عبارة TEC (طمف) طن معادل فحم حجري . وهي وحدة لقياس الطاقة التي تسمح بموازنة مختلف مصادر الطاقة بين بعضها حسب المعادلة التالية :
١ طن فحم = ١ TEC أي طمف أو ط م ف .

بقايا غابات واسعة تعود للدور الجيولوجي الثالث ، مدفونة تحت الرمال والوحول البحيرية ، واللاغونات أو في المصبات النهرية الواسعة ، تظهر هذه التوضعات على شكل طبقات ثخينة تتراوح بين ١٠ و ٩٠ م ، تستغل أحياناً تحت السماء في السهول الرسوبية .

ولم تهمل ألمانيا موارد القدرة الأخرى كالفحم الأبيض والنفط ، فقد بنيت سدود في جبال الألب البافارية وفي شمال الكتلة الشيستية الراينانية . وأنتجت ألمانيا الغربية من الكهرباء في ١٩٦٥ ما يعادل إنتاج بريطانيا تقريباً أي ١٧٠ مليار كيلو واط ساعي منها ١٢ مليار من أصل كهرمائي كي يرتفع إلى ٣٦٨,٧ مليار ك و س في ١٩٨١ . كما تم التنقيب في باطن الأرض بشكل نشيط بحيث أصبحت منطقة هانوفر وحوض نهر إيمس Ems وجوار الحدود الهولندية ، تقدم قرابة ٤,٥ ملايين طن من البترول في ١٩٨١ . وتستورد ألمانيا النفط بواسطة موانئ بحر الشمال (روتردام الهولندي ، وهلمزهافن وهامبورغ) وعن طريق موانئ البحر الأبيض المتوسط (مرسيليا ، جنوا) حيث يضخ النفط بواسطة الأنابيب الطويلة نحو معامل التكرير التي تواكب مجرى نهر الراين ، مثلما تمتد من حدود هولندا حتى كارلسروهه .

وتكرر ألمانيا الغربية ١٥٢,٩ مليون طن من النفط بالعام والذي يؤلف ٥٠٪ من الطاقة التي تستهلكها مقابل ٤٠٪ للفحم . وتبدو احتياطات ألمانيا من الغاز الطبيعي عظيمة ، ويقدر الإنتاج بحوالي ١,٩ مليار متر مكعب بالعام . وهكذا يبدو الفحم عرضة لمنافسة قاسية لدرجة تدعو لضرورة دعم إنتاجه بشكل اصطناعي والرضى بشرائه بسعر عال .

= ١ طن ليغنيت = ٠,٦ TEC (طمف) .
١ طن منتجات نفطية = ١,٥ TEC (طمف) .
١٠٠٠ م^{3} غاز طبيعي = ١,٣ TEC (طمف) .
١٠٠٠ ك و س = ٠,٦ TEC (طمف) .

ويتكشف باطن الأرض في سكسونيا السفلى عن مقادير ضخمة من البوتاس والملح الصخري . كما تعتبر ألمانيا بلداً منتجاً للمعادن المتنوعة منذ القديم ، غير أن مكامن الرصاص والتوتياء والفضة في إقليم هارز ، وفي الكتلة الشيستية الراينانية التي استغلت منذ أمد طويل ، قد شارفت على النفاد . كما يعتبر إنتاج فلزات الحديد في منطقة هارز وسيغرلاند وبافاريا (٣ ملايين من المعدن الصافي) غير كاف بأي حال من الأحوال . لذا تلجأ ألمانيا إلى صهر الخردة التي تشتريها وإلى استيراد فلزات السويد الغنية ، وفلزات لابرادور ، وأمريكا الجنوبية وموريتانيا بمقادير ضخمة لسد حاجة الصناعة الحديدية الألمانية .

ألمانيا الغربية رابع دولة صناعية في العالم :

تنتج ألمانيا الاتحادية ١٢٪ من الإنتاج الصناعي في العالم مقابل ٣٠٪ في الولايات المتحدة و ٢٢٪ في الاتحاد السوفياتي و ١٨٪ في اليابان . فقد ولدت **صناعة المعادن** في ألمانيا في العصر الوسيط في الجبال الهرسينية الغنية بالمعادن والتي كانت تقدم غاباتها الوقود اللازم . ثم انزلقت في القرن الماضي نحو الأحواض الفحمية ، كي تنتشر في القرن العشرين في سائر أرجاء البلاد . وهكذا تستطيع ألمانيا أن تنتج قائمة طويلة من المنتجات المعدنية ، بدءاً من الصهير والفولاذ حتى أكثر الأدوات تعقيداً (الكترونيك بشكل خاص) ومكائن صانعة ، وأكثر المكائن الصناعية تنوعاً (رولمانات ، سيارات مثل أوبل ، وديملربنز ، وهانوماغ وهنشل ، ومان) ، بحيث صدرت في عام ١٩٦٩ (٢,٠٥٠,٠٠٠) سيارة أي ٥٧٪ من إنتاجها من السيارات فأصبحت أول دولة مصدرة للسيارات في العالم إلى أن تفوقت عليها اليابان في ١٩٨٢ ، فضلاً عن سيارات فورد (تاونس) وفولغسفاغن ، مثلما تصدر قسماً كبيراً للأسواق الخارجية فضلاً عن سوق داخلي قدير ، لأن في ألمانيا سيارة لكل ٣ أشخاص مقابل ١٢٣ مليون سيارة في الولايات المتحدة عام ١٩٨١ مقابل ٢٣٠ مليون نسمة . ويبلغ مجمل إنتاجها من أنواع

السيارات السياحية ٤ ملايين سيارة و ٣١٢٠٠٠ سيارة نفعية في عام ١٩٧٧ . وتنتج ألمانيا ٤٦ مليون طن فولاذ ، كما أن ترسانات بناء السفن فيها دون مثيلاتها في اليابان وبريطانيا . وهكذا تبدو المنافسة الألمانية قوية في كل الاختصاصات .

- أما في ميدان **الصناعة الكيماوية** فقد ظلت مدة طويلة بلا مثيل وتحتفظ بالمكانة الأولى في أوروبا . وتدين بمكانتها هذه إلى علمائها الكيماويين الذين عرفوا أن يستخرجوا من الفحم عدداً من المنتجات الثانوية ، وأن يوفروا لألمانيا منتجات تعويضية Ersatz عديدة . وتخرج من معامل البترو كيمياء والفحميكيمياء منتجات عديدة مثل الأصبغة والدهانات ، ومواد التصوير والصيدلة ، والمواد البلاستيكية ، والمذيبات ، والأسمدة والمطاط التركيبي .

- أما الصناعات الأخرى ، فلا تتعلق كثيراً بالثروة الفحمية . فعلى **صناعة النسيج** أن تستورد موادها الأولية من قطن وصوف ، ولهذا تستعمل ألمانيا الألياف الاصطناعية والتركيبية أكثر فأكثر . ولا تكون شهرتها بالنسيج كبيرة . غير أن الغابات التي تغطي ٢٨٪ من رقعة ألمانيا الغربية تغذي العديد من الصناعات الخشبية ، كصناعة الألعاب ، وعجينة الورق . كما ساعد إنتاج السيللوز على تطوير **الأنسجة الاصطناعية** مثل الرايون ولاسيا الفيبران . وتقوم **صناعة البناء** بإعادة تشييد المساكن حسب نسق سريع ، فهي تقيم شقة في كل دقيقة . وقد بنت ألمانيا ١٣ مليون شقة منذ ١٩٤٥ . كما تحتفظ صناعة الزجاج والبصريات والطباعة بشهرتها القديمة .

- ولا تزال المعامل متجمعة في منطقة الرور التي تحتفظ بتفوق لا ينازعها عليه منازع ، غير أن اللامركزية الصناعية أصبحت شعاراً ، لأن الصناعة راحت تنتشر في منطقة الراين الأوسط ووادي الماين ، وسكسونيا السفلى والسار ، مثلما أصبحت تستقر في المدن ، ذلك لأن بعثرة المؤسسات الصناعية ، والأيدي العاملة في الأرياف يطبع مجموع البلاد بطابع الاقتصاد الصناعي .

الزراعة :

تتخذ الزراعة **طابعاً علمياً** ، فرغم فقر الترب ، فهي تكفي لتغذية الشعب الألماني مدة ٨ شهور بالعام . والواقع لم يضحِّ الألمان بزراعتهم كما فعل الإنكليز في القرن الماضي . فقد حاولوا أن ينتجوا من أرضهم القسم الأعظم من تموينهم رغم جدب تربهم الحامضة غالباً أو من نموذج بودزولي . غير أن كثافة السكان تفرض الحصول على إنتاجية زراعية عالية ومردود مرتفع وتغطي الأراضي الزراعية ٤٥,١٪ من مساحة البلاد ، والأراضي العقيمة ١٤,٧٪ .

وللزراعة الألمانية طابعاً **تقدمياً** بسبب شدة استخدام الأسمدة الكيماوية وباستعمال العديد من المكائن الزراعية (مليون جرار) ، ويزيد على ذلك من حيث الأهمية **التعليم الزراعي** . ففوق مساحة واحدة تستعمل ألمانيا ضعف ماتستعمله فرنسا من أسمدة وجرارات . كما تكثر معاهد الأبحاث الزراعية والتعليم الزراعي . ففي إقليم بافاريا مستشار زراعي واحد لكل ١٠٠ مزارع كما يتم اصطفاء الماشية بدقة حسب القواعد المتبعة في الدانمارك وهولندا[١] .

هذا ويسيطر الاستغلال المباشر والملكية الوسطى والصغرى في بلاد الراين وفي بافاريا . ولا تزال حيازات كبرى في السهل الشمالي . ولكن اللاجئين حصلوا على قطع من الأرض ومن أملاك الدولة ومن غابات الدولة . وهنا بقيت الحيازات الكبرى كي تستطيع إنتاج مواد غذائية بمقادير كبيرة . ويؤلف اللاجئون واحد من ١٢ من جملة المزارعين . وهكذا تبدو الأرياف الألمانية اليوم مفرطة بسكانها . وفي ألمانيا ١,٦ مليون مزرعة تمتد كل منها على رقعة مساحتها ٨ هكتارات فقط . وعلى هذه المساحات الصغيرة تؤدي المكننة وتكثيف الزراعة

---

(١) تنتج البقرة الحلوب مقدار ٥٠٠٠ لتر بالعام في الدانمرك مقابل ٤٥٠٠ لتر في هولندا ، و ٣٩٠٠ لتر في الولايات المتحدة و ٣١٠٠ لتر في بريطانيا و ٢٩٠٠ لتر في فرنسا و ٢٠٠ لتر فقط في الهند .

أحياناً ، إلى استدانة المزارعين الذين يلجؤون للقروض أو يتركون الأرض[1] .

ـ وتنطبق الأقاليم الزراعية على الصفات الطبيعية للتربة . فلا زالت الغابة والأراضي الرديئة البور تغطي مساحات كبيرة على الجبال وفوق السهول الرملية الشمالية . ويسود القمح والشوندر السكري على ترب اللوس في ألمانيا الوسطى (نطاق البورد) ، ويبلغ مردود القمح الوسطي ٤٠ كنتالاً بالهكتار مقابل ٨ في البلدان العربية . وتكون زراعة الجاودار والبطاطا مصحوبة بتربية الخنازير في السهل الشمالي . أما أراضي الجنوب الطيبة ، ذات المناخ الأكثر لطفاً ، فتجود فيها زراعة القمح والبرسيم وخاصة حشيشة الدينار والتبغ والأشجار المثمرة ، كما تكثر الكروم على سفوح الوديان المعرضة للشمس .

ويؤمن الإنتاج الحيواني للمزارعين ثلاثة أرباع دخلهم ، ويخصص ثلثا إنتاج الحبوب (شعير ، شوفان) لتغذية الماشية الكبيرة . كما تغطى المراعي حقول البولدر والمستنقعات المجففة عند هامش بحر الشمال ، والمناطق الجبلية كالألب والغابة السوداء والسفوح البافارية .

أما زراعة الخضار والثمار فتميز المناطق المحيطة بالمدن الكبرى .

ـ هذا ويستمد الألماني غذاءه بالدرجة الأولى من البطاطا التي يبلغ إنتاجها ١٢ مليون طن ، وبالدرجة الثانية من لحم الخنزير ودهنه ، وبالدرجة الثالثة من الحبوب ، إذ يبلغ إنتاج الجاودار ٣,٦ مليون طن والقمح ٧,٢ مليون طن ، وأخيراً من سكر الشوندر ٢,٩ مليون طن . وقد ازداد استهلاك لحوم الأبقار والأغنام والحليب والبيض والطيور والثمار (تفاح وهي أول دولة أوروبية منتجة ، كرز ، خوخ) بشكل يلفت النظر : ويحاول المزارع الصغير إرضاء حاجات سكان المدن

(١) ينتج كل فلاح أمريكي ما يكفي لإطعام ٤٦ شخصاً ، والفرنسي ٢٥ شخصاً . والسوفياتي ١٥ شخصاً والأفريقي شخصين .

المتزايدة . هذا ويؤمن الصيد البحري ، الذي يمارس من أساطيل تنطلق من كوكسهافن ومن آلتونا ومن فيزرمونده ، غذاء أضافياً ذا قيمة عالية .

ـ هذا وتدعم الدولة المزارعين بتحديد أسعار بيع عالية ، مما يجعل المنتجات الزراعية الألمانية غير منافسة في الأسواق الخارجية . وهناك « المخطط الأخضر » الرامي إلى تشجيع إنتاج اللحم والألبان . ويؤدي تجميل الأراضي إلى القضاء على انخفاض مداخيل الفلاحين بالنسبة للتي توفرها الصناعة . فالزراعة التي يعمل فيها ٨٪ من السكان العاملين لا تقدم سوى ٦٪ من الدخل القومي في ألمانيا الغربية . وهي تؤمن ثلثي الحاجات الغذائية للبلاد في حين يحصل البريطانيون على نتائج مماثلة بنصف العدد من المزارعين .

المواصلات :

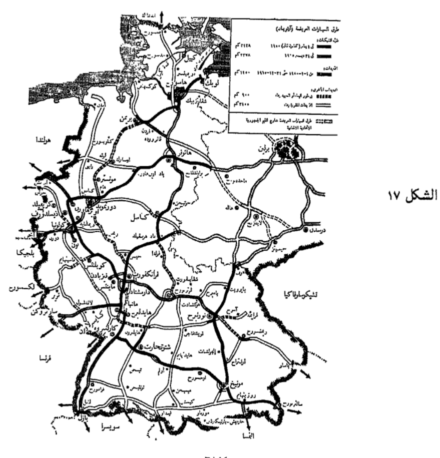
لقد تحقق توازن رائع بين مختلف وسائل النقل : من خطوط حديدية وطرق مائية وبرية . فالشروط الطبيعية موائمة لإقامة شبكة مواصلات . فالعتبات والسهول الانهدامية قد هيأت نقاط التقاطع في ألمانيا الوسطى والجنوبية . أما السهل الشمالي فلا يحوي على عائق ذي بال . وتكون مجاري الأنهار هادئة وغالباً صالحة للملاحة ، وتتلاقى الطرق الدانوبية الجنوبية مع محور الراين مثلما تتصل به طرق السهل الكبير الجمودي في الشمال . ولكن الإنسان هو الذي نظم ونسق هذا التجهيز البديع .

فليس للملاحة النهرية أهمية بالعالم كالأهمية التي تكسبها هنا ، اللهم إلا في هولندا . فهي تقوم بثلث نقليات البضائع ، وتتصرف بطرق ملاحية طولها ٤٦٠٠ كم تكون أحياناً قابلة لتحمل سفن نهرية حمولتها ١٥٠٠ طن . وقد تم تنظيم معظم الأنهار تقريباً على يد الإنسان فقد قطعت أذرع نهر الراين كما نسفت العتبات الصخرية الضحلة . وتصعد في هذا النهر سفن تتراوح حمولتها بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ طن وتعادل حركة السفن فيه الحركة في البحيرات الكبرى الأمريكية .

وتعتبر مدينة كارلسروهه ومـانهـايم وكولونيـا ودوسلـدورف ودويسبورغ من أكبر الموانئ النهرية في العالم .

وتربط قناة ميتلاند سهل ألمانيا الشمالي بنهر الراين والإلب لمصلحـة مينـاءي بريمن وهامبورغ ، كما يربط نهر الموزيل بعـد تنظيم مجراه منطقـة الرور بمنطقـة اللـورين الفرنسيـة . كما سـاعـد تنظيم مجرى نهر النكار على نهضـة مـدينـة شتوتغارت . هذا وقد أصلحت الاتصالات المـائيـة بين الراين والـدانوب بواسطـة نهر المـاين فـأصبحت فرانكفـورت وريجنسبـورغ عبـارة عن مينـاءين نهريين كبيرين .

ـ وتملـك ألمـانيـا نصف طرق السيـارات العريضـة في أوروبـا « اوتـوبـان » (شكل ١٧) ومحور الشبكة هو طريق هامبورغ ـ فرانكفورت ـ بال . وبعد أن



الشكل ١٧

تم بناؤه لأغراض استراتيجية في العهد الهتلري ، لم يعد الآن كافياً لحركة السيارات الكثيفة عليه ولا سيا بالنسبة للشاحنات الثقيلة .

ـ ولا تفوق الشبكة الحديدية الألمانية التي يبلغ طولها ٣٥٠٠٠ كم من ناحية الكثافة إلا الشبكة البلجيكية . ولكنها أقل مركزية من الشبكة الفرنسية . وتعتبر كولونيا وهانوفر ومونيخ عقدة طرق حديدية مثل برلين . وإذا كانت سرعة القطارات أقل من فرنسا واليابان فإن الخطوط الحديدية الألمانية تؤمن نقليات عظيمة للركاب وللمنتجات الثقيلة كالفحم ، ولا سيا على مسافات قصيرة . وتبدو كهربة الخطوط متقدمة جداً .

ـ ويكون النشاط الملاحي البحري متمركزاً ، على الواجهة البحرية الضيقة ، في بضعة موانئ كبيرة على بحر الشمال مثل : ايمدن وفيلهلمزهافن وبريمن (١٦ مليون طن منقولة سنوياً) وهامبورغ (٣٦ مليون طن) . وتحتكر هامبورغ لوحدها نصف التجارة البحرية الألمانية فأصبحت أحد أكبر موانئ أوروبا . وقد تم حفر قناة كييل سنة ١٨٩٥ لتحاشي المرور بالمضائق الدانمركية ، وتمر فيها كل سنة سفن يبلغ مجموع حمولتها ٦٠ مليون طن . وتبلغ حمولة الأسطول التجاري الألماني الغربي ٨ ملايين طنة وعاد للظهور على كل بحار العالم . أما شبكة خطوط الطيران الألمانية (لوفتهانزا) فتشع من فرانكفورت ودوسلدورف على مختلف أرجاء العالم .

هذا ولا تتوقف طرق المواصلات عن التحسين . فتمتد طرق « الأوتوستراد » دوماً وبكثافة أكبر من الشمال للجنوب ومن الغرب نحو الشرق . كما أن قناة كييل التي غطيت جزئياً لم تعد تشكل عائقاً أمام المواصلات البرية بين ألمانيا والأقطار الأسكندينافية . كما تتصل ألمانيا بالدانمارك بواسطة السفن الناقلة للقطارات والسيارات .

التجارة الألمانية :

لقد احتلت ألمانيا الغربية المكانة الثانية بالعالم في ميدان التجارة . فهي بحاجة إلى استيراد مقادير عظيمة من المواد الغذائية ومن المواد الأولية (معادن ، بترول ، منسوجات) . وتعرض إنتاجها الوطني في معارض هانوفر وكولونيا وفرانكفورت ، وتسهل رخص أسعار منتجاتها المصنوعة ، وتميز وسائلها التجارية ، والمهارة التي يظهرها السماسرة الألمان ، فتح أسواق عديدة لمنتجاتها ، وحتى في أوروبا الشرقية .

وهكذا تصدر ألمانيا ٥٥ ٪ من إنتاجها من السيارات ، وثلث ماكنات الخياطة ، وأكثر من نصف الألعاب ، ونصف إنتاجها الكيماوي ومكائنها الصانعة . وتظهر سياراتها الشعبية (فولغسفاكن) في كل طرق العالم . وتصدر ألمانيا الغربية لوحدها ١٣ ٪ من الصادرات العالمية .

وقد خسرت قسماً من زبائنها في أوروبا الشرقية والدانوبية ، ولكنها تزيد في تجارتها . أولاً : مع فرنسا التي أصبحت أهم زبائنها ومع باقي أقطار السوق المشتركة (٣٠ ٪ من مجموع تجارتها) . ثانياً : مع الولايات المتحدة . ثالثاً : مع البلدان المتخلفة في أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق العربي وتركيا والشرق الأقصى بما في ذلك الصين ، حيث تقوم الشركات الألمانية بعد استعانتها بحكومتها بتنفيذ مشاريع كبرى وتقدم أدوات تجهيزية . ويدخل عملاؤها إلى مكاتب المهندسين والدوائر التي تنكب على تنفيذ المخططات الحكومية . ويكون بحثها عن الأسواق من مقياس عالمي كما أن ميزانها التجاري رابح دوماً .

المشكلات الألمانية :

لقد أوجدت ألمانيا الاتحادية مجتمعاً يتصف بقوة الاستهلاك تماماً كما فعلت الولايات المتحدة . فتعاقبت على البلاد بضع « موجات » من التهافت على

الاستهلاك : غذاء ، مسكن ، كساء ، أدوات منزلية ، سيارات ، أسفار ورحلات . وهكذا خلقت ألمانيا الغربية مجتمعاً مستقراً متمتعاً بالرخاء قبل توحيد دولتي ألمانيا . ولا يتعلق مصير برلين الغربية بها بقدر ما يتعلق بالدولتين الجبارتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .

وبلغت « المعجزة الألمانية » درجة جعلت من العمال الألمان الذين كانوا بالواقع محققي الانتعاش الاقتصادي ، يشتركون هم أيضاً في الازدهار والرخاء العام ، ويجنحون اليوم لتأليف طبقة وسطى . وترتفع الأجور بسرعة تفوق زيادة الأسعار ، بحيث تستحوذ الأجور على ٦٠ ٪ من الدخل القومي ، وأصبح الفقر نادراً . كما أدى توقف الهجرة من الشرق إلى استنفاذ كل احتياط الأيدي العاملة . وقد يؤدي انكماش أرباح العمل إلى تحديد الاستثمارات وكبح جماح التوسع الاقتصادي .

وللاقتصاد الألماني أساس زراعي ضيق . فليس لألمانيا سوق داخلي مماثل لسوق الولايات المتحدة لتصريف إنتاجها الصناعي لأن أمريكا لا تصدر أكثر من عشر إنتاجها . كما لا تماثل إنكلترا التي تعتبر قلب امبراطورية كبرى هي الكومونولث . وهكذا يبدو الازدهار الاقتصادي الألماني تحت رحمة التجارة مع العالم الأجنبي ، لأنها بحاجة ماسة إلى التصدير . وقد نجحت في ترسيخ أقدامها في أسواق بعيدة في أمريكا وآسيا ، وتنتظر الكثير من السوق المشتركة الذي تؤلف أحد أركانه . ولكن هيمنة الصادرات على الواردات يؤدي لتراكم رؤوس الأموال لديها ، مما يؤدي لافتقار زبائنها للمال السائل مما يدفعهم لعقد اتفاقات تجارية مع دول أخرى . وهكذا يبدو الاستقرار الاقتصادي الألماني قابلاً للزعزعة ويعرف الألمان ذلك جيداً وفي مطلع الثانينات أخذت ألمانيا تعاني من البطالة التي تصيب عشر الطبقة العاملة تقريباً .

وإذا ما تناقصت الصادرات ، فيمكن مع ذلك الحفاظ على الرخاء بفعل

فعالية صناعة البناء والصناعات الملحقة بها ، أوعن طريق زيادة نفقات الدفاع واستهلاك الأفراد .

والخلاصة يمكن القول : ان ألمانيا الغربية دولة كبرى تعتمد على التصدير الصناعي بالدرجة الأولى شأنها شأن بقية الدول المتقدمة العالية التصنيع .

وهذا على خلاف الدول المتخلفة التي تعتمد على تصدير المواد الخام لضعف التصنيع فيها أو انعدامه مثل :

الدولة	المنتجات	قيمتها بالنسبة للصادرات الكلية
غانا	كاكاو	٦٣ ٪
إيران	البترول	٧٥ ٪
السودان	قطن	٦٠ ٪
النيجر	خامات الاورانيوم	٩٠ ٪
موريتانيا	خام الحديد	٨٠ ٪

ألمانيا الشرقية

أو (جمهورية ألمانيا الديموقراطية)

١ ـ تعريف

لقد أصبحت منطقة الاحتلال السوفياتية السابقة جمهورية ديموقراطية شعبية . وتبلغ مساحتها ١٠٩٠٠٠ كيلو متر مربع يقطنها ١٧ مليون نسمة (كثافة ١٥٥ نسمة في كم٢) . وتقل مساحة هذه الجمهورية عن نصف مساحة ألمانيا الاتحادية ، ولا يزيد تعداد سكانها عن سكان ولاية راينانيا ـ وستفاليا ، ولكنها تعتبر ثاني دولة صناعية في العالم الشيوعي . وتبلغ نسبة التوالد فيها ١٤ ٪ مقابل ١٢ ٪ للوفيات ، والعمر المتوسط ٧٢ سنة ويعيش ٧٧ ٪ من السكان في المدن .

دولة قامت لتبقى :

لقد كانت الجمهورية الديموقراطية الألمانية عبارة عن كيان عرضي ولكنها استطاعت أن تبني لها كياناً صلباً قابلاً للبقاء . فبعد القطيعة التي وقعت بين الحلفاء في عام ١٩٤٧ اتخذت السياسة السوفياتية اتجاهاً آخر في منطقة احتلالها . فبعد أن كانت عمليات تفكيك المصانع ناشطة في فترة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ مثلما كا كانت المؤسسات الصناعية الألمانية تتحول إلى شركات سوفياتية (حتى عام ١٩٥٣) ، سرعان ما عزفت روسيا عن هذه السياسة تماماً . وهكذا شكلت المناطق الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي جمهورية ألمانيا الديموقراطية في ٧ تشرين الأول ١٩٤٩ (شكل ١٨) .



جمهورية ألمانيا الديموقراطية

الشكل ١٨

35 0 35 70

ـ وتمتد الجمهورية الديموقراطية من بوهيميا جنوباً حتى بحر البلطي . وفي الشرق يفصلها نهر الأودر ورافده نهر نييسّه عن الأقطار السلافية . وفي الغرب يفصلها خط طوله ١٤٠٠ كم عن ألمانيا الفيديرالية . وتحتوي هذه الدولة الجديدة على قسم كبير من حوض نهر الإلب وروافده ، مثل : نهر سالـه Saale وهافل Havel ، غير أن مصب نهر الإلب الذي تقع عليه هامبورغ لا يخصها ، وكذلك مصب نهر الأودر حيث خسرت مدينة ستيتن Stettin الواقعة غربي النهر المذكور . وتبلغ مساحتها ضعف مساحة سويسرا ، ولكن لا تزيد عن ربع مساحة دولة ألمانيا عام ١٩٣٩ . ويمكن مقارنتها مع جارتها تشيكوسلوفاكيا ، من ناحية أبعادها ، وقدرتها الاقتصادية ، ومن وجهة النظر إلى بنيتها الاقتصادية والاجتماعية .

ـ وقد كان الاستيطان الجرماني في هذه المنطقة الألمانية حديثاً نسبياً ، فالاستيطان الألماني الذي أعقب القرن العاشر ، لم يستطع أن يطغى تماماً على السكان السلاف السابقين ، ففي إقليم لوزاس Lusace ، الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من البلاد ، لا زال السوراب يحتفظون بلسانهم السلافي ، كما أن إقليم فلامينغ المجاور يوحي دائماً بإعمار الأرض من قبل الفلمنك Flamands أقرباء الهولنديين . وتسود الديانة البروتستانتية على ألمانيا الشرقية لحد كبير ، رغم قدوم ألمان كاثوليك نزحوا من إقليم سيليزيا الذي ألحق ببولونيا ، بينما يتوازن الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا الغربية . ولا زالت مدينة فيتنبرغ Wittenberg التي نشر فيها لوثر تعاليمه والواقعة على نهر الإلب مركز الإيمان الإنجيلي . ورغم فصل الكنيسة عن الدولة لا تزال البروتستانتية تؤلف إحدى القوى المعنوية في الدولة الجديدة .

ـ وقد اتخذت ألمانيا الشرقية شكل دولة موحدة ، فقد حل مكان الولايات القديمة ، وهي : براندبورغ ، مكلمبورغ ، تورنجيا ، ساكسونيا ، سكسونيا

اينهالت ، خمس عشرة محافظة دون تقاليد سياسية . وبعد أن كانت السلطة المركزية تقيم بالبدء في ضاحية بانكاو Pankow ، أصبحت تستقر الآن في برلين نفسها .

ـ هذا وقد اندمجت ألمانيا الشرقية في أسرة الديموقراطيات الشعبية . وتعتبر أكثر الدول الاشتراكية تصنيعاً بعد الاتحاد السوفييتي ، فهي التي تملك أكبر نسبة من العمال الصناعيين بين السكان ، وتتفوق في تجارتها الخارجية على بولونيا . وإذا كانت ألمانيا الغربية تبني في أعين الأميركان دولة نموذجية من الأسلوب الرأسمالي ، فإن ألمانيا الشرقية تظهر في عيون السوفيات كدولة اشتراكية نموذجية .

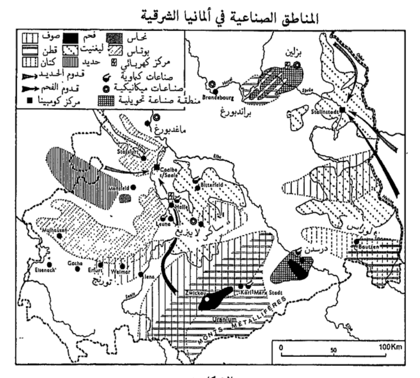
فوق مساحة مقدارها ١٠٩٠٠٠ كم٢ ، لا يتجاوز عدد السكان ١٧ مليون نسمة بما في ذلك برلين الشرقية . وبذلك تبلغ الكثافة في ألمانيا الشرقية ١٥٥ نسمة ، أي أقل من الكثافة في ألمانيا الغربية . رغم قدوم بضعة ملايين من اللاجئين أو المبعدين ، الذي غادروا المناطق المنضمة إلى بولونيا أو منطقة السوديت التشيكية . وتماثل ألمانيا الشرقية وضع إيرلندا في أنها خسرت مادتها الحيوية عن طريق الهجرة ، فمنذ عام ١٩٥٠ غادر ٤٢٥٠٠٠ ألماني ألمانيا الاتحادية باتجاه ألمانيا الشرقية ، مقابل ٢,٦ مليون شخص لاجئ من ألمانيا الشرقية باتجاه الاتحادية ، وتيار هذه الهجرة معروف قبل ١٩٣٩ ، ولكن التقسيم السياسي لألمانيا بعد الحرب ، أدى إلى استفحال هذه الظاهرة التي جعلت وجود وكيان ألمانيا الشرقية كله في خطر . وقد لعبت أمريكا عن طريق الإذاعة والإغراء ، دوراً كبيراً في هذه العملية الاستنزافية . ومنذ ١٩٦١ وبعد بناء جدار برلين ورفع الأجور في ألمانيا الشرقية ، توقفت هذه الهجرة التي كانت تنال الأيدي العاملة والخبراء ، ولكن المشكلة هي أن تزايد السكان السنوي لا يزال ضعيفاً .

٢ ـ القسم الجنوبي من ألمانيا الديموقراطية

تضم ألمانيا الشرقية في الجنوب نطاقاً هرسينياً مؤلفاً من كتل ومن أحواض . وتعتبر منطقة تورنجيا وسكسونيا مناطق صناعية تقليدية تنصرف للصناعة التحويلية (شكل ١٩) .

وهكذا تشتمل ألمانيا الديوقراطية على إقليمين طبيعيين : أي جزء من العالم الهرسيني في الجنوب ، وجزء من السهل الأوروبي الشمالي الكبير . ويكون المناخ قارياً في جميع أنحاء البلاد بالشمال ، وأكثر تشمساً في الجنوب . فيتألف النطاق الهرسيني الجنوبي من منطقة هارز ، ومن حوض تورنجيا ، ومن كتل تورنجيا وسكسونيا ، والسهل السكسوني . وقد أدت ترب اللوس في السهل ، وموارد الغابة والمعادن غير الحديدية في الجبل ، إلى تثبيت عدد كبير من السكان منذ القديم في هذه المنطقة ، كانوا يتألفون من مزارعين ومن نساجين ومن معدّنين .

المناطق الصناعية في ألمانيا الشرقية



الشكل ١٩

وعلى الرغم من إقامة مراكز صناعية ثقيلة إلى الشمال من هذه المنطقة ، فإن إقليمي تورنجيا وسكسونيا لا يزالان المنطقة الاقتصادية الأساسية في ألمانيا الديموقراطية .

- ويتألف إقليم تورنجيا أو تورنج من حوض رسوبي يخترقه نهر ساله بين غابة تورنج وبين هارز .

- أما غابة تورنجيا فهي عبارة عن ظهرة من صخور متبلورة ممتدة من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي ، وتغطيها الغابة في كل مكان . وقد جذبت الثروات المعدنية الأقوام الجرمانية في الماضي والتي نضبت مناجمها اليوم . غير أننا نجد في منطقة سوهل Suhl (الواقعة في أقصى الجنوب الغربي من الجمهورية) أن هناك أكثر من ٥٠,٠٠٠ عامل مختص في الصناعات الدقيقة جداً كالأسلحة النارية ، والدراجات النارية ، والساعات والأدوات الكهربائية . ويرتفع جبل هارز ١١٤٢ م عند حدود ألمانيا الغربية ، ويعتبر آخر جبل هرسيني باتجاه الشمال ، ولا تزال غابات الشوح المظلمة تخفي فيه الأنفاق القديمة التي هجرها عمال التعدين . وبين هذه الجبال التي تصفعها الرياح ، والتي استغلها الإنسان ، نجد حوض تورنجيا المؤلف من هضاب كلسية وخرسانية ، ولكنها لا تخلو من سهول اللوس المزروعة منذ القديم والتي تدعى حقل الذهب Goldene Aue . وتنتشر في هذه المنطقة القرى الكبيرة ، وكانت المدن القديمة هنا عبارة عن أسواق ، ومقر قصور الأمراء ، وذلك قبل أن تظهر فيها الصناعات الحديثة . وهكذا ترتصف هنا مدن غوتا وارفورت ٢٢٥٠٠٠ نسمة فيار وينا Iéna من الغرب باتجاه الشرق ، وقد حصلت هذه المدن على شهرة قديمة في الصناعات الميكانيكية . وقد ولدت صناعة الزجاج وصناعة البصريات في مدينة ينا (شركة زايس) من استغلال الرمال والملح الصخري . وأكبر مدينة هنا هي هاله Halle ، التي تضم ٢٨٠ ألف نسمة ، تقع عند التماس مع السهل الشمالي .

ـ ويؤلف إقليم سكسونيا المنطقة الصناعية الرئيسية في ألمانيا الشرقية . ولكنه لا يستطيع أن يلعب دوراً مماثلاً للدور الذي يلعبه الرور في ألمانيا الغربية . فبينما يتميز الرور فعلاً بهيمنة الصناعات الثقيلة ، نجد أن سكسونيا هي منطقة الورشات ateliers ، حيث تسود الصناعة الخفيفة بتأثير بيئة بشرية قديمة التكوين .

ويتاخم إقليم سكسونيا بلاد بوهيميا ، أي تخترقه مياه نهر الإلب . فإلى جانب وجود جبل فقير هو جبل المعادن Erzgebirge ١٢٤٤ م بالجنوب ، تمدده شرقاً هضاب الخرسان في سويسرا السكسونية ، نجد أن إقليم سكسونيا يضم أيضاً سهلاً لوسياً غنياً[١] في الشمال يشتهر بالزراعة الحثيثة . ولكن كثافة السكان تكون عالية في جميع الأنحاء ، إذ تزيد عن ١٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، وهذا يعود لشدة انتشار الصناعة . فلا نجد أي جبل بالعالم كثيف السكان مثل جبل ارزجبرغه .

وتقوم الحياة الصناعية على وفرة الأيدي العاملة المتمرسة الماهرة من قديم أكثر مما تقوم على الثروات المعدنية أو على موارد الطاقة . فحوض زويكو الصغير لا ينتج أكثر من بضعة ملايين الأطنان من الفحم . كما أن مناجم الرصاص الفضية في منطقة فريبيرغ قد شارفت على النضوب . ولا تتمركز الصناعة في المدن الكبيرة فحسب ، بل تتناثر في المدن الصغرى وفي وديان الجبال . ولا يزال الكثير من المؤسسات يحتفظ بطابع حرفي . كما أن الصناعة المنزلية لا تزال باقية بفضل انتشار الكهرباء . ويشتهر إقليم سكسونيا بصناعة الخشب (أثاث وألعاب) وبغزل القطن ونسجه ، وبصناعة الألياف الاصطناعية والتركيبية (بيرلون) ، وذلك حول منطقة كارل ماركس شتاد[٢] ، التي تضم ٣٠٥

---

(١) تربة اللوس Loess هي تربة من أصل ريحي وخصيبة جداً ، وتوجد في الصين الشمالية وأوكرانيا وبصورة متفرقة في ألمانيا وفرنسا ، وبولونيا .

(٢) كان اسمها شمينتز وتغير اسمها عام ١٩٥٣ .

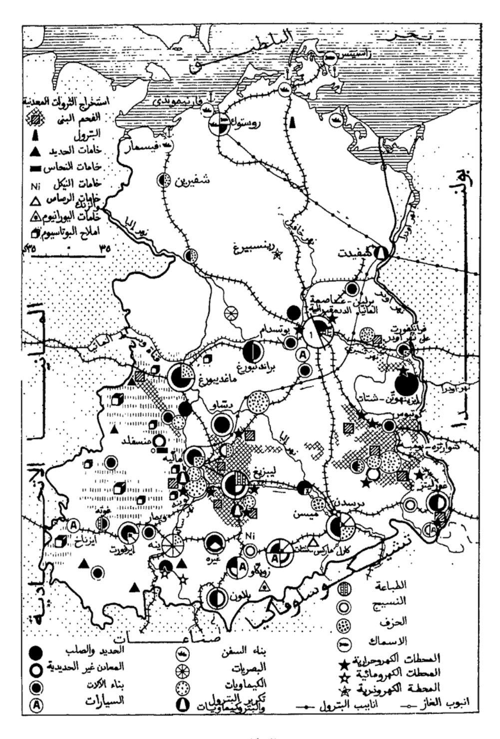
آلاف نسمة وتشتهر بالدانتيل مثلما تشتهر مدينة بلاون Plauen بالتطريز وبالدانتيل وبالأقمشة المزركشة . كما تقوم هنا صناعة المكائن الدقيقة والمكائن الصانعة والأصبغة اللازمة لصناعة النسيج . وتحوي مدينة ميسن Meissen (قرب درسدن) على معامل بورسلان وخزف صيني مشهورة . وراحت الصناعة تزحف نحو الشمال ، أي نحو مناجم الليغنيت ، الذي يستخرج من بين حقول القمح والشوندر السكري في السهل السكسوني . وقد قامت معامل لاستخراج البنزين التركيبي والمنتجات الكيماوية قبل ١٩٣٩ في مدينتي لونا (غرب لايبزيغ) وفي بوهلن (شكل ٢٠) .

هذا ويضم إقليم سكسونيا مدينتين كبيرتين واقعتين عن مفرق طرق أوروبا الوسطى : وهما درسدن ٦٢٥,٠٠٠ نسمة ، على نهر الإلب ولايبزيغ على نهر إلستر Elster . فمدينة درسدن التي تحوي أكثر من نصف مليون نسمة ، هي عاصمة مملكة سكسونيا القديمة ، تحتوي على صناعات تتطلب خبرة تقنية عالية (أجهزة تصويرية ، وسينمائية ، وتلفزيونات ، ومكائن مكتبية) .

أما لايبزيغ ٦٠٠,٠٠٠ نسمة فهي شهيرة بمعارضها التجارية ذات النشاط الكبير والتي تعود للقرن الثاني عشر . وقد نتجت الصناعة التي تنتشر في ضواحي المدينة عن وظيفة لايبزيغ التجارية : كصناعة الورق والطباعة ، والألبسة ، والصناعات الميكانيكية ، وعلى كل ليس لمدن سكسونيا بهجة مدن ألمانيا الجنوبية ولا الطابع الفني البارز في مدن حوض الراين .

٣ ـ السهل الشمالي

وتتألف منه معظم أراضي جمهورية ألمانيا الديموقراطية ، إذ يقع فيه إقليما براندبورغ ومكلمبورغ . فإلى الشمال من سكسونيا وتورنجيا يمتد ، بين نهر الإلب والأودر ، سهل رتيب تحتفظ أرضه السيئة الصرف بكثير من ملامح الزحوف الجمودية الرباعية . ويتخذ هذا السهل في ألمانيا الديموقراطية مظاهر خاصة . فبعد أن يكون ضيقاً في غرب نهر الإلب بفعل تقدم الكتل الهرسينية نحو الشمال ،



الشكل ٢٠

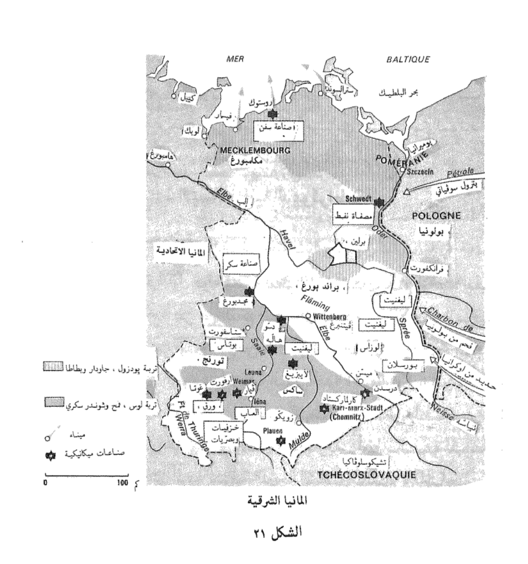
صناعة جمهورية ألمانيا الديمقراطية

يأخذ بالاتساع عرضاً في شرق النهر المذكور ، ولا تزال الأشكال المورفولوجية الجمودية محتفظة بكثير من مظاهرها الأصيلة . بيد أن المناخ يصبح أكثر قساوة وجفافاً بسبب الحاجز التضريسي المؤلف من جبال هارز وسلاسل الفيزر Wezer . لهذا تكون القرى في الشرق أقل عدداً من الغرب . وكان كبار الملاكين النبلاء يؤلفون ، حتى الحرب العالمية الثانية ، نوعاً من طبقة استغلالية ، حيث كان العمال المياومون والعمال الزراعيون يزرعون حقول النبلاء . غير أن طبيعة التربة تخلق مع ذلك بعض التنوع .

ـ فنطاق البورده الواقع في الجنوب ، في منطقة ماغدبورغ ، ينتج القمح والشوندر السكري بصورة تكاد تكون صناعية ، فوق تربة اللوس . لكن استغلال الليغنيت والبوتاس سمح بإقامة معامل كيماوية . وبعد أن كانت مدينة ماغدبورغ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة تقوم بحراسة ممر على الإلب وبالاحتفاظ بسوق تجاري هام ، أصبحت بؤرة حديثة للصناعات الميكانيكية الثقيلة .

وقد أوجدت منطقة براندبورغ ، الواقعة في قلب الجمهورية الديموقراطية ، بالماضي ، دولة متماسكة حققت الوحدة الألمانية ، هي الدولة البروسية . وقد تكونت دولة براندبورغ بين الوديان البدائية التي كانت تجري فيها مياه ذوب الجموديات الرباعية ، في منخفض مركزي يقترب فيه نهر الإلب ونهر الأودر من بعضهما . وكان إقليم براندبورغ « بلاد الرمال » في ألمانيا أيام فريديريك الثاني . فكانت المستنقعات والمراعي الرطبة وغابات الصنوبر لا تزال تغطي مساحات كبيرة . وكان نمو الدولة الحديثة مصحوباً بإخضاع تربة عقيمة تدعى جيست ، تحوي على أفق قاس وكتيم كما في ترب البودزول . واستدعى الأمر استدعاء معمّرين أجانب ، وقلع التورب وحرقه ، وتصريف المياه ، وقطع الغابات ، وجلب كميات هائلة من الأسمدة المتنوعة . وتنتج منطقة براندبورغ الجاودار والبطاطا ، كما تربي الأبقار الحلوبة والخنازير ، وتزرع الخضار في ضواحي

برلين . وقد كان نمو برلين بركة على الاقتصاد الريفي ، ولكن العاصمة حالت دون نمو أية مدينة هامة بجوارها (شكل ٢١) .



المانيا الشرقية

الشكل ٢١

ـ وإلى الشمال من ذلك كانت تراكات مورينات القاع عظيمة في مكلمبورغ وبوميرانيا ، التي تحتفظ ألمانيا الشرقية بجزء منها . وتتبعثر بين التلال المورينية بحيرات عديدة هي زينة المساحات الغابية . وقام الإعمار الجرماني باستصلاح الترب الغضارية التي تنجح فيها زراعة الحبوب التي تغذي الخنازير والأغنام .

ـ وقد نجم ساحل البحر البلطي عن تغريق حديث نسبياً : فهو عبارة عن ساحل مسنّن لكثرة المصبات النهرية ، والبروزات الصخرية والخلجان العميقة . وتظهر أمام الساحل جزيرة حوارية تدعى روغن Rugen ، وعلى هذا الساحل المجزأ بالحدود السياسية لم تقم موانئ هامة ، لأن ميناءي فيسمار وسترالسوند أقل أهمية من ميناء روستوك ٢١٠,٠٠٠ نسمة ، الذي تم بناؤه عام ١٩٥٨ .

٤ ـ اقتصاد ألمانيا الديموقراطية

الثروات المعدنية :

تعتبر ألمانيا الشرقية أول دولة منتجة لفحم **الليغنيت** بالعالم أو ٢٥٨ مليون طن في ١٩٨٠ و ٥٠٠,٠٠٠ طن من الفحم فقط ، أي تتقدم على الاتحاد السوفييتي وعلى ألمانيا الغربية . فهي تنتج أكثر من ثلث الإنتاج العالمي من هذه المادة . وتنتج منطقة لوزاس (الزاوية الجنوبية الشرقية من الجمهورية) ٤٥,٣ ٪ من الليغنيت الألماني (إحصاء ١٩٦٤) . ويقدم الليغنيت ٨٢ ٪ من الطاقة ، كما أصبح وبصورة متزايدة مادة أولية في الصناعة الكيماوية . أما بالنسبة للبوتاس ٣,١ ملايين طن ، فتحتل ألمانيا الشرقية الدرجة الثالثة بالعالم في إنتاجه بعد الولايات المتحدة وألمانيا الغربية . وبعد أن كانت أهم مناجمه تقع في شمال الهارز ، قرب مدينة ستاسفورت ، أصبح معظم الإنتاج اليوم يأتي من حوض تورنج ومن وادي ويرا Werra جنوب غرب تورنج . هذا وتنتج ألمانيا الشرقية النحاس في شرقي الهارز ، والرصاص والزنك والفضة من منطقة ارزغبرغه ، فضلاً عن استغلال النيكل والمنغنيز والولفرام من عهد قريب .

الصناعة :

تعتبر الصناعة أهم عامل في الثورة الاجتماعية ، لهذا تقوم ألمانيا الشرقية ببناء صناعة ثقيلة جديدة بكل ما في الكلمة من معنى . لأنها تريد أن تكون « دولة العمال والفلاحين » . وينتسب الجهاز السياسي في البلاد إلى الحزب الاشتراكي الموحد ، وهو حزب الطبقة العاملة حصراً . وهدف الدولة هو بناء الاشتراكية ، أي الانتقال « من الفردية الأنانية إلى التفكير الجماعي أي نحن » ، عن طريق التخطيط ، وهو القانون الرسمي للنظام القائم . وتشرف على تنظيم الاقتصاد برامج خمسية أعقبتها برامج سباعية ، وتحدد منحنى النمو في الإنتاج الزراعي والصناعي ، وتحاول أن ترفع المستوى التقني والعلمي عند المنتجين .

لقد كان للصناعة قواعد راسخة في برلين ، وفي تورنجيا وسكسونيا ، قلعة الصناعة في ألمانيا الشرقية . وكانت تتصرف بوسائل مواصلات حديدية وبرية ممتازة ، ولكن هذه الصناعة كانت تحويلية بالأساس . وكانت المؤسسات الصغيرة والوسطى ذات الطابع العائلي هي السائدة ، وكان التمركز الصناعي أقل وضوحاً من سائر أنحاء ألمانيا . وقد تقلص التجهيز الصناعي كثيراً بفعل الحرب ، لأن القسم الأعظم من درسدن قد تخرب عام ١٩٤٥ خلال بضع دقائق بسبب الغارات الجوية البريطانية الأمريكية ، ثم بسبب تفكيك المصانع لمصلحة السوفيات . وأخيراً عملت الحدود الجديدة على قطع ألمانيا الديموقراطية عن حوضي الفحم في سيليزيا وفي الرور مثلما حرمتها من فلزات الحديد ومن المواد الأولية .

تحويل بنية الصناعة جذرياً :

أولاً : إن كل المصانع الهامة هي « ملك للشعب » . فالدولة تعيّن مدير المصنع . كما أن التنظيم النقابي يحتوي العمال الذين يتجمعون في فرق الإنتاج .

ثانياً : ونظراً لاندماج ألمانيا الديموقراطية في عالم اشتراكي يجهد في تقسيم العمل ، فقد أخذت على عاتقها تقديم آلات التجهيز التي يحتاجها الاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الشعبية ، وذلك بفضل الأيدي العاملة الخبيرة المتوفرة لديها . واستطاعت هذه الجمهورية الديمقراطية خلال بضعة أعوام ، وبعد جهود جبارة وتضحيات عظيمة ، أن تحصل لنفسها على تجهيز أساسي رائع (إنتاج الطاقة ، الصناعة الحديدية الثقيلة ، وتجهيز الموانئ) ، بحيث أصبح إنتاجها الصناعي الحالي يعادل إنتاج الصناعة الألمانية أيام هتلر .

- وقد أصبح الليغنيت « الذهب الأسمر » في قطر فقير بالفحم ومحروم من النفط ، ركناً اقتصادياً وتعوم رائحته المعهودة في الهواء فوق كل البلاد تقريباً . فهذا الفحم الفج ، المشبع بالمياه ، يكثر في السهل السكسوني ، وفي براندبورغ ، ولاسيا في منطقة لوزاس السفلى . وتستخرج ألمانيا الشرقية منه ٢٥٨ مليون طن أو ٣٥ ٪ من الإنتاج العالمي . وبعد كبسه في قوالب يباع هذا الفحم من أجل التدفئة المنزلية ، كما يؤلف وقود المراكز الكهربائية الحرورية ، بحيث يوفر القسم الأعظم من إنتاج الكهرباء البالغ ٩٢ مليار كيلواط ساعي . كما أصبح المادة الأولى في الصناعات الحديدية والكيماوية . وبالفعل وبعد بحوث صعبة وعسيرة استطاعت معامل الكوك القائمة على الليغنيت ، لاسيا المعمل القائم في لاوخهامر في منطقة لوزاس ، أن تنتج فحم كوك يستخدم في الأفران المنخفضة (وليس في العالية) لتحاشي الضغط المفرط . وتنتج هذه المعامل زيوت وقود تركيبية من الليغنيت ، فضلاً عن زيوت التشحيم ، وكل المادة الأولية لصناعة الكاربوكيمياء ، وأدى لقيام مدينة جديدة حديثة يبلغ عدد سكانها ١٠٠ ألف نسمة تدعى بومبنوار .

- وراح البترول المستورد يزاحم الليغنيت ، بعد أن قام « أنبوب الصداقة » بنقل ٥ ملايين طن من النفط إلى مدينة شويدت Schwedt على ضفة الأودر ،

وهو نفط قـادم من منطقـة بـاكو الثـانيـة في الاتحـاد السوفييتي . وتقـدم معـامل البتروكيمياء القائمة في المدينـة المـذكورة المواد الأوليـة لشبكـة واسعـة من المعـامل الكيماوية وتبلغ طاقة المصافي في ألمانيا الشرقية ٢٠ مليون طن .

ـ غير أن ألمانيا الشرقية أقامت أساساً من الصناعة الحديـديـة . فقـد انبثقت كومبينات لصناعة الحديد ، مصحوبة بمدن جديدة يزيـد سكان كل منهـا عن ٢٠ ألف نسمـة قرب الأنهـار . فتتلقى مـدينـة **آيزنهوتنشتـاد** « مـدينـة المصـاهر » الحديد الأوكراني والكوك من سيليزيا البولونية . كما تستخدم مدينة **كالبه** Calbe الواقعة على نهر السال ، كوك الليغنيت وفلزات الحديد الفقيرة والحامضـة (كثيرة الرمل السيليسي) القادمة من هارز . كما قامت معامل لإنتـاج الفولاذ في مـدينـة ريـيزا Riesa في سكسـونيـا وفي برانـدبـورغ قرب برلين ، بعـد أن أعيـد بنـاؤهـا وتوسعت . غير أن هـذه الصنـاعـة الحـديـديـة ، التي قـامت فوق قواعـد سريعـة العطب ، أو بعيـدة ، لا تكفي أبـداً للحـاجـات المحليـة ، ولا يكـون تطـورهـا يسيراً ، لذا لا تنتج ألمانيا الشرقية حالياً سوى ٧ ملايين طن من الفولاذ ، أو أقل من نصف إنتاج بلجيكا . غير أن صناعـة المعـادن غير الحـديـديـة ، الموروثـة من تقـاليـد تعـود للعصر الـوسيـط ، والتي يشجعهـا وجـود فلـزات منطقتي هـارز وارزغبرغه ، تتعرف على ازدهار ملحوظ . كما تعتبر مناجم اليورانيوم في ارزغبرغه والتي تستثمرها شركة سوفيـاتيـة ألمـانيـة وهي شركـة ويزموت ، أكبر مثيلاتها في أوروبـا وأكثرهـا إنتـاجـاً . أضف إلى ذلـك أن منـاجم النحـاس في هـارز تتطور بسرعة تثير الاهتمام .

ـ وأخيراً عملت ألمانيا الشرقية على تجهيز واجهتها البحريـة بـالموانئ ، وبنت أسطولاً تجارياً حمولتـه ١,٥ مليون طن . وبعـد أن كان مينـاء **روستوك** عبـارة عن ميناء صيد صغير عام ١٩٣٩ ، أصبح ميناءً عالمياً يتصل بـالبحر البلطي بقنـاة عميقة ويبلغ نشاطه السنوي ١٠ ملايين طن .

وقد استحوذت هذه الأعمال الإنشائية الكبيرة على طاقة ورساميل ألمانيا الشرقية .

الصادرات الألمانية الشرقية :

تجري ألمانيا الديمقراطية مبادلات تجارية عظيمة ولا سيا مع الاتحاد السوفييتي الذي يمتص نصف تجارتها الخارجية ، كما تزود العالم الاشتراكي بمنتجات صناعاتها المتنوعة .

هذا وتقدم الصناعات الميكانيكية أكثر من ٥٥٪ من الصادرات . هذا وقد اتخذت صناعة المكائن الثقيلة والخفيفة ، والقاطرات ، والشاحنات ، وأجهزة البصريات ، وتجهيزات المكاتب ، والراديو ، والتصوير ، المتمتعة جميعاً بمستوى تقني عال ، اتخذت أهمية كبيرة في برلين الشرقية وماغدبورغ وفي سكسونيا (إقليم لايبزيغ ، كارل ماركس شتاد) ، وفي تورنجيا (هاله ، ارفورت) . كما تتميز موانئ البلطي بورشات بناء السفن .

وتؤلف الصناعات الكيماوية العمود الثاني في هيكل الصناعة الجديد في ألمانيا الشرقية . وقد ساعد على ذلك ثروات باطن الأرض الهائلة في مادة الليغنيت ، والملح الصخري ، والبوتاس (ثالث منتج عالمي) والتي بدأ استغلالها منذ ١٨٥٢ في منطقة ستاسفورت . وتقوم الصناعات المذكورة بجوار هذه المكامن في السهل السكسوني عند مدينة لونا وشكوباو Schkopau وفي منطقة لايبزيغ (في مدن بيترفلد ، وولفن ، بوهلن) ، حيث نجد كومبينات ضخمة تنتج مواد أساسية من ناحية (حمض الكبريت ، كربور الكلسيوم ، بنزين تركيبي ، مواد أولية بلاستيكية) ومنتجات متنوعة لا حصر لها ، مثل أفلام التصوير ، آلفا ، والمطاط الاصطناعي (بونا ١٥٠,٠٠٠ طن) والألياف التركيبية (أول دولة في إنتاج هذه المادة وفي استهلاكها بالنسبة للفرد) من جهة أخرى ، وأنتجت في ١٩٧٧ أكثر من ١٦٧٠٠٠ سيارة .

ـ أما الصناعات **التقليدية** الخشبية ، والجلدية ، والزجاجية ، والطباعة ، والمنسوجات فتحتفظ بأهميتها القديمة بمنطقة ارزغبرغه ، وفي سكسونيا تورنجيا ، ولكنها لا تتقدم بسرعة .

الإنتاج الزراعي :

وهو لا يكفي لسد الحاجات المحلية ، وتظهر الاشتراكية على المشاهد الريفية في ألمانيا الشرقية ، فبينما تكون الأراضي الزراعية مجزأة إلى قطع صغيرة ، هي ملكية المزارعين المستقلين ، فإن الحقول تظهر بالشرق متكتلة وتمتد بلا حدود حول القرى التعاونية .

ـ فالإصلاح الزراعي الذي جرى في فترة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ، قد قضى على الملكيات التي تزيد مساحتها عن ١٠٠ هكتار ، التي كانت تغطي ربع الرقعة المزروعة . فقد زالت الأريستوقراطية الأرضية ، التي كانت تتألف من ١٢٠٠٠ أسرة ، كانت عماد الدولة البروسية ، زالت من الوجود . فقد تجزأت مزارعها الفسيحة وتوزعت على ٥٦٠,٠٠٠ أسرة من فلاحين فقراء ، ومن لاجئين ، ومن عمال زراعيين . وهكذا تم الانتقال من الديموقراطية الزراعية إلى النظام التعاوني بين ١٩٥٢ و ١٩٦٠ . وبذلك أصبح الفلاحون أعضاء في تعاونيات الإنتاج الزراعي ، من مختلف النماذج ، بحيث جمعت أراضيهم في مستغلات شاسعة تعاونية ، تتراوح مساحتها بين ٢٠٠٠ هكتار وأكثر . وتتم الأعمال على أيدي فرق الإنتاج مثلما يخضع الانتاج لتعليمات الخطة . غير أن الفلاح التعاوني يحتفظ بمزرعة صغيرة خاصة به تؤمن شطراً كبيراً من الاستهلاك العائلي ، ولكن النظام القائم يعمل على تطوير التربية السياسية والتكوين المهني للقضاء على كل مظهر من مظاهر الاختلاف في سوية الحياة بين المدينة والريف ولتحقيق « النهضة الريفية » . غير أن مزارع الدولة لا تغطي أكثر من ٦٪ من المساحة المزروعة .

بيد أن إقبال الفلاحين على النظام السائد يبدو عسيراً . فبعضهم يشكو من

ثقل مطـاليب الـدولـة ، كما يكثر التغيب عن العمل ، كما تبـدو الأيـدي العـاملـة الريفية قليلة ، ذلك لأن النظام التعـاوني سبق المكننـة ، ومع هـذا يتزايـد عـدد الجرارات بسرعة .

وتملك ألمانيا الشرقيـة في الجنوب أراضي طيبـة لوسيـة ، أمـا الأراضي الفقيرة المتـوسطـة الخصب في الشمال ، والأراضي الفقيرة فقـد تشبعت منـذ زمن طـويـل بالأسمدة البوتاسية والآزوتيـة التركيبيـة . غير أن كميـة المحـاصيل تبـدو مستقرة ، وإذا حذفنا مفعول التقلبات المناخيـة فـإن الإنتـاج الزراعي يتراوح بين ٣ مليون طن من القمـح و ٢ مليـون و ١,٦ مليــون طن من الجــاودار ، و ٧ مليــون من البطاطا و ٠,٧ مليون طن من السكر أو ٩ ملايين طن من الشونـدر . وعلى الرغم من التقدم الحاصل في ميدان تربية الماشية ، فـإن الإنتـاج الزراعي بـالنسبـة لكل فرد يقارب إنتاج ١٩٣٨ . فـالبلاد لا تكفي نفسهـا من الفواكـه فتستورد الحبوب والبذور الزيتية واللحم ومنتجات الألبان .

المشكلات الاقتصادية :

ممـا لا شـك فيـه هـو أن فكرة القـادة في ألمـانيـا الشرقيـة هي أن الاقتصـاد الاشتراكي سيؤدي للحيـاة الأفضـل . فسيقطف العـامـل ثمرة جهـوده في أعقــاب تطوير الجهاز الإنتاجي . فمستوى حياة الفرد في جمهورية ألمانيا الديمقراطيـة كان سيعادل أو سيتجاوز مثيله في ألمـانيـا الاتحـاديـة قبل ١٩٦٥ . وقـد كانت النتـائج المادية مثيرة للإعجاب فعلاً . فقد تضاعف الإنتاج الصناعي الإجمالي ثلاث مرات منذ ١٩٥٠ .وكان التقـدم الصنـاعي متعـادلاً في الـدولتين الألمـانيتين . وبـذلـك أصبحت ألمانيا الديمقراطية خامس دولة صناعية في أوروبا . فالمستوى التقني فيها عال ، كما يرتفع مستوى الاستهلاك الفردي .

هـذا وتصب أنهـار ألمـانيـا الشرقيـة الكبرى ، أي نهر الألب والأودر ، تصب

خارج حدود الدولة ، أي في ميناءي هامبورغ التابع لألمانيا الغربية وفي ميناء ستيتن التابع لبولونيا . كما أن كثيراً من المواد الخام يجب استيرادها من الخارج ، كالبترول والحديد والكوك والقطن . غير أن ثمن كلفة الفولاذ الناتج من المواد المحلية كالليغنيت والحديد الرديء النوعية يبدو عالياً ، وهكذا تحتاج الصناعة الحديدية ، التي أقيمت بصورة اصطناعية ، لعون الدولة ولأسواق تقبل بالمراعاة . هذا كما أن إنتاجية العمل ونوعية الإنتاج لا تزالان دون المرغوب فيه ، مما دعا المسؤولين إلى تشجيع المبادهة الفردية ، والتخفيف من مركزية البيروقراطية .

وينصب الاهتمام على إنتاج الآلات التجهيزية التي تصدر في معظمها إلى الأقطار الاشتراكية وإلى الأقطار النامية . وتكون حركة البناء أقل أهمية من ألمانيا الغربية باستثناء العمران في مدينة برلين العاصمة . وحالياً يتم بناء قرابة ٨٠,٠٠٠ مسكن بالعام . كما أن صناعة السلع الاستهلاكية كالسيارات السياحية التي يبلغ إنتاجها ١٦٧٠٠٠ سيارة بالعام ، لا تحظى باهتمام كبير ، بحيث يظهر فارق محسوس بين تقدم الإنتاج الكلي وبين تطور الأجور والاستهلاك الفردي ، ولكن يعوض ذلك أهمية النفقات الاجتماعية كنوعية التعليم وديموقراطيته ، والضمان الصحي والرياضة .

ـ وتساعد المصاعب الاقتصادية على فهم المشكلات البشرية . وقد اعترف المسؤولون بأن تزايد معدلات الإنتاج دون ارتفاع موازٍ في الأجور كان أحد أسباب تمرد العمال سنة ١٩٥٣ ، الذي استغلته دول الغرب أسوأ استغلال . وتشكو ألمانيا الشرقية اليوم من قلة الأيدي العاملة والخبراء ، نظراً للنهضة الصناعية . والواقع فإن فائض الولادات على الوفيات يبدو قليلاً لمعالجة مشكلة نقص السكان . وقبل ١٩٦١ كانت العناصر المناوئة لقيام الاشتراكية (أطباء ، مهندسون ، جامعيون ، خبراء) تلجأ بتشجيع من الدعاية الغربية إلى برلين الغربية ، ومنها إلى ألمانيا الاتحادية . وقد أدت هذه الهجرة والهروب إلى الاعتماد

على الأيدي العاملة النسائية ، بحيث أصبح عدد النساء العاملات معادلاً للرجال العاملين .

هذا ولا تستطيع رؤوس الأموال الألمانية الشرقية أن تمول لوحدها المنجزات الصناعية الكبرى . ولكن لما كانت الصناعة الكيماوية الكبيرة في ألمانيا الشرقية ، تعمل لتقدم خدمة جليلة لاقتصاد الاتحاد السوفييتي ، فإن السوفييت لم يقصروا في تقديم المعونة الاقتصادية لألمانيا الديمقراطية لمساعدتها في بناء الاشتراكية .

٥ - برلين

لقد أصبحت برلين ، التي قامت بين المستنقعات والمورينات والغابات ، إحدى أكبر العواصم ، ولكنها إحدى أكبر النقاط الانفجارية في العالم . وتبلغ مساحتها ٨٨٤ كم٢ ، ويسكنها ٣,٣ مليون نسمة منها ٤٨١ كم٢ تخص برلين الغربية ، التي تضم ٢,٢ مليون نسمة بكثافة تبلغ ٤٤٤٦ نسمة كم٢ ، وهي جيب غربي واقع في قلب الجمهورية الديموقراطية ، ويحكمها مجلس شيوخ . وبعد مصاعب سياسية معقدة بين الاتحاد السوفييتي ودول الاحتلال الثلاث أي أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، أمكن التوصل لاتفاقية ٣ إيلول ١٩٧١ لأول مرة منذ نهاية الحرب ، بعد مفاوضات استمرت ثمانية عشر شهراً ، وهي حدث تاريخي هام .

هذا وتعجز الجغرافية الطبيعية عن فهم اختيار موقع برلين ، مثلما لا تفسر ازدهار هذه المدينة . فليس هناك أي مرتفع يستحق الذكر ، كما لا يمر فيها نهر صالح للملاحة مثل نهر التايمز أو السين . وهكذا يزحف نهر سبريه Sprée بين البحيرات الصغرى والسهول الرملية والغابة التي تعتني السلطات بها ، كي تكون حدائق طبيعية للسكان (شكل ٢٢) .

والواقع لقد كانت برلين عبارة عن تكوين سياسي . فقد ولدت المدينة في القرن الخامس عشر فوق جزيرة في نهر سبريه بين نهر الإلب والأدور . وظلت

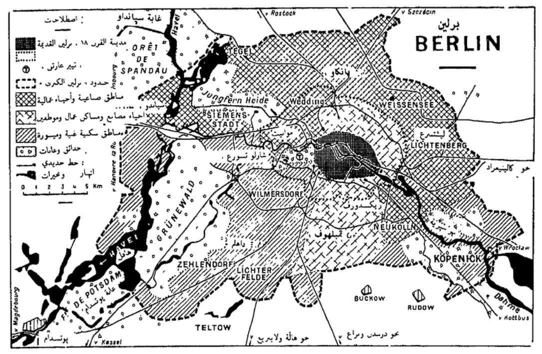
مدة طويلة عبارة عن سوق وحصن . ونالت بعض الأهمية في القرن السابع عشر والثامن عشر على أثر ظهور نفوذ نواب إقليم براندبورغ وتدفق البروتستانت الفرنسيين اللاجئين ، بعد اضطهادهم ببلادهم ، وأسسوا حياً خاصاً بهم هو حي موآبيت . وبلغ عدد سكان برلين ١٧٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٨٠٠ ، ولم تصبح مدينة كبيرة إلا في القرن التاسع عشر ، كعاصمة لدولة بروسيا ، ثم لألمانيا الموحدة سنة ١٨٧١ . وتوسعت المدينة بشكل خاص في اتجاه الغرب عند ظهور الأحياء الصناعية والسكنية . وأصبحت مساحتها أكبر رقعة من باريس بثماني مرات ، وكان سكانها سنة ١٩٣٩ قد بلغوا ٤,٣ ملايين .

وتعتبر برلين ذات أهمية تجارية ومالية وصناعية . فهذه المدينة هي عقدة طرق حديدية وطرق برية ومائية وخطوط جوية ، ففيها مطار تمبلهوف في الغرب وشوينفلد في الشرق . وتشتمل منطقتها على أربع قنوات جعلت منها ميناء نهرياً نشيطاً. وتملك برلين العديد من الصناعات التحويلية ، التي ساعد على قيامها وجود أيد عاملة غديدة وسوق استهلاكية ضخمة (صناعة الأدوات الكهربائية ، صناعة كهربائية كياوية ، ميكانيكية ، غذائية ، وصناعة الألبسة) . وتكون الدوائر الإدارية ، والفعاليات الثقافية والفنية نامية فيها أكثر من أية مدينة ألمانية أخرى .

وقد ظهرت هذه المدينة الضخمة المحرومة من الفن ، ومن الماضي ، وكأنها قد حكمت بالإعدام عندما أصبح سكانها متكدسين في ملاجئ تحت الأرض ، بين أطلال العمارات الكبرى العائدة للعهد الهتلري (وزارات . دوائر حكومية) ، أو بين عمارات القرن الثامن عشر .

ولكن برلين عادت اليوم بؤرة حياة ثقافية وفنية واستعادت حيويتها الاقتصادية ، وكانت عملية البناء سريعة جداً ، وخاصة في القطاع الغربي حيث وضع الغربيون ، ولا سيما الأمريكان ، كل ثقلهم على شكل مساعدات مالية .

أما في القطاع الشرقي ، فقد أعيد البناء حسب طراز حديث يماثل مدن الاتحاد السوفييتي ، ولا



الشكل ٢٢

سيا شارع كارل ماركس الشهير . ويحاول القطاع الغربي أن يتخذ هندسة بناء أميركية الطراز ، مع واجهات لماعة ، ومخازن ذات واجهات مغرية تنم عن كل الملامح الرأسمالية . ففيها مخازن ضخمة وتلمع شوارعها ليلاً بإعلانات النيون الدعائية .

غير أن الصناعة الثقيلة لا تستطيع أن تنمو فيها لأن المواد الأولية تحتاج لنفقات عالية جداً بسبب تكاليف النقل من بعيد . ولكن تظهر الصناعات التحويلية ، التي تقدم لها حكومة بون العون المالي ، والتي تستفيد من جودة الأيدي العاملة ، مزدهرة بشكل اصطناعي . أما في القطاع الشرقي فتقوم صناعة الأجهزة الكهربائية والألكترونية ، والعنفات ، كما تزدهر صناعة الملبوسات ، كما قامت صناعة الفولاذ والتصفيح في براندنبورغ أي إلى الغرب من برلين قليلاً .

غير أن المدينة تشكو من تقسيمها إلى أربعة قطاعات . وقد حرمت من نافذتها البحرية وهي ميناء ستيتن الذي أصبح تابعاً لبولونيا . ولم تستعد برلين مكانتها السامية في ألمانيا ، بحيث تظهر كمدينة لا معقولة ، أو صورة مصغرة عن ألمانيا ، تنم عن روح الشقاق الأوروبية والعالمية . وتمتد حدودها على مسافة ٤٥ كم

من الشمال للجنوب . هذا ولا تتصل برلين الغربية مع ألمانيا الاتحادية إلا بواسطة ثلاثة طرق سيارات وأربعة خطوط حديدية ، وثلاثـة ممرات جويـة وتنفصل عن برلين الشرقية . والخلاصـة تظهر برلين اليوم كظـاهرة سيـاسيـة ، ويـأمل العـالم والألمان تحسن الوضع السيـاسي والاقتصـادي بعـد اتفـاق أيلول ١٩٧١ الـذي سبق ذكره .

مدينة برلين بالأرقام :

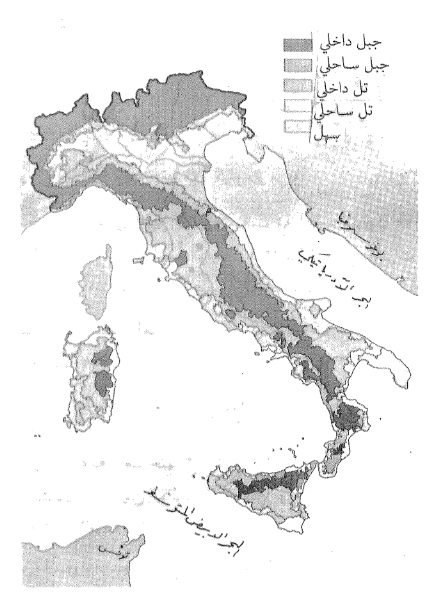
برلين الغربية : مساحتها ٤٧٩ كيلو متر مربع .

السكان : ٢,٤ مليون منهم ٧٣٪ بروتستانت ١١,٤٢٪ ، كاثوليك ، ٠,٢٪ يهود نسبة الولادات ١٠ بـالألف ، نسبـة الوفيـات ١٩,٩ بـالألف ، الصـادرات ٨٣٪ نحو ألمانيا الاتحادية ، ١٤٪ نحو البلاد الأجنبية ، ٣٪ نحو ألمانيا الشرقية .

الاستيراد : ٨٨٪ من ألمانيا الاتحاديـة ، ٩,٦٪ من الخـارج ، ٢,٤٪ من ألمـانيـا الشرقية ميزانيتها : ٧,٤ مليار مارك ١٩٧١ .

عدد الذين زاروا برلين الشرقية ٩٤,٢٦٧ نسمة .

برلين الشرقية : مساحتها ٤٠٣ كم٢ ، سكانها ١٠,٨ مليون نسمة (منهم ٧٠٪ منهم بروتستانت و ١٠٪ من الكاثوليـك . نسبـة الولادات ١٤,٥ بـالألف ، ونسبـة الوفيات ١٦,٤ بالألف) .



الطبغرافية الإيطالية

الشكل ١

إيطاليا

البيئة والناس

الإطار الطبيعي

تنقسم الرقعة الإيطالية البالغة مساحتها ٣٠١٠٠٠ كيلومتر مربع ، إلى **مجموعتين شديدتي الاختلاف** . فإيطاليا القارية عبارة عن سهل فسيح تحاصره جبال الألب ، أما إيطاليا الرومية ، أي الممتدة في البحر الأبيض المتوسط ، والتي تكون مصحوبة بجزيرتين كبيرتين ، هما سردينيا وصقلية ، فتتألف من شبه جزيرة طويلة تشكل سلسلة جبال الأپنين عمودها الفقري (شكل ١) . ويقوم المناخ بدعم هذا التناقض القاسي الذي يخلقه التضريس في جغرافية إيطاليا الطبيعية .

وهكذا تقوم جبال الألب والقسم الشمالي من السلسلة الأپينينية بحصر **سهل البو** من جهاته الثلاث ، والذي يدين بوجوده للعمل الإطمائي ، الذي قام به نهر البو وروافده . وقد أدت أرجحية الروافد الألبية على الأنهار الهابطة من جبال الأپينين ، على زحزحة الجذع الرئيسي لنهر البو باتجاه الجنوب . وتتعاقب بين حضيض جبال الألب وبين نهر البو ثلاثة نطاقات متوازية هي :

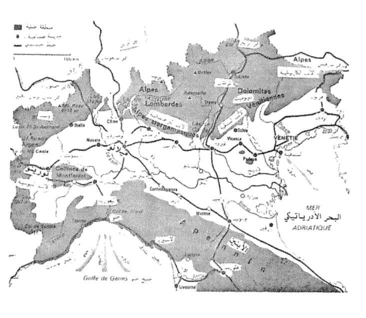
ـ تلال مقدمة الألب ، وهي مؤلفة من مورينات جمودية .

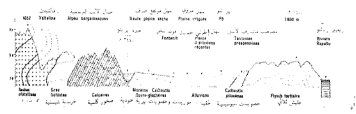
ـ مصاطب تتألف من أنقاض خشنة ، قليلة الخصوبة ، ولكن تنبجس منها باتجاه السافلة مياه باطنية ، على شكل خط من العيون يدعى فونتانيلي .

ـ السهل الإطمائي أو « اللحقي » ، وهو خصيب ولكنه يتعرض للفيضان في أكثر أجزائه انخفاضاً (شكل ٢) .

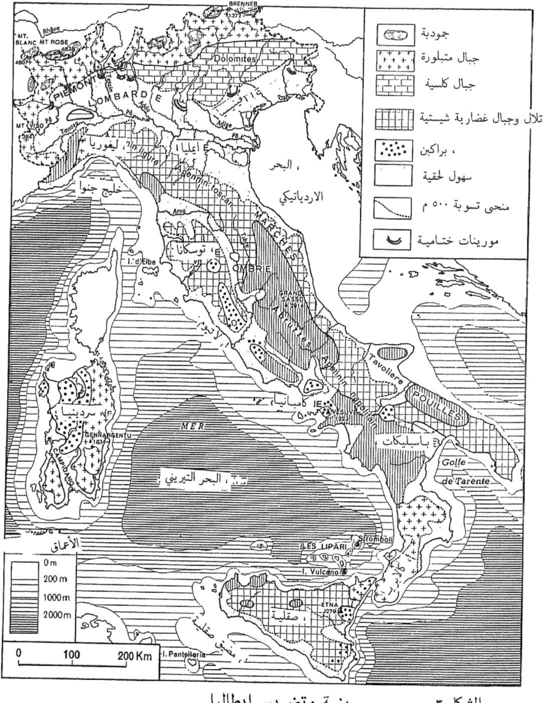
ويزداد عرض السهل باتجاه الشرق ، ويجري نهر الآديج بموازاة نهر البو ، بحيث تختلط لحقياته alluvions مع لحقيات نهر البو ، كي يؤلف دلتا فسيحة محفوفة بلاغونات . أما جبال **الألب الإيطالية** ، فتلعب دوراً هاماً بما تقدمه من مياه غزيرة ، وبما تحويه من دخلات مؤلفة من سهول لحقية ، تقود إلى فجوج تشكل ممرات تنشط بها حركة المرور الكثيفة .

الشكل ٢ ايطاليا الشمالية:مقطع من الحدود السويسرية إلى خليج جنوا





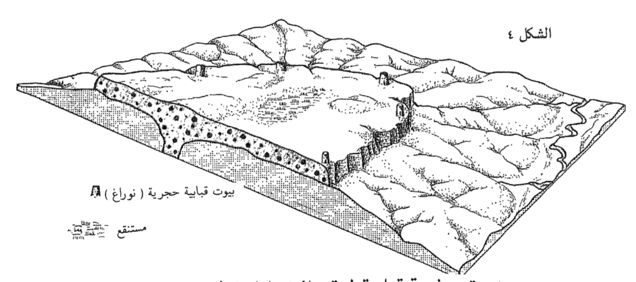
وتـؤلف جبـال الأپينين هيكل شبـه الجـزيرة الإيطـاليـة . ولكن مرتسم السلسلة لا يكون متوازياً مع مرتسم السواحل . فبينما ترسم الجبال منحنى محدباً



الشكل ٣ **بنية وتضريس ايطاليا**

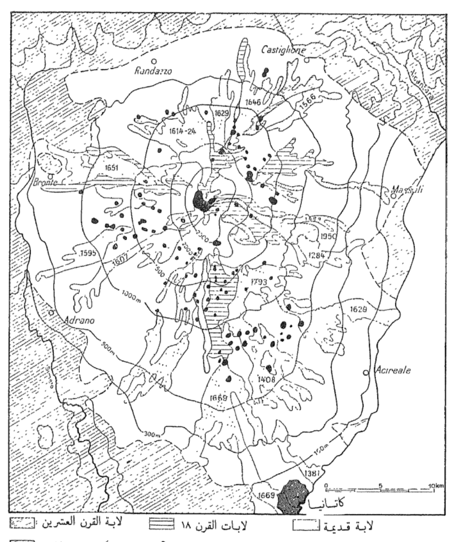
نحو الشمال الشرقي ، نجد السواحل تتحدّب نحو الجنوب الغربي ، بحيث تقوم جبال الأپنين بحصر ساحل الأدرياتيكي في الشمال ، في إقليم المارش Marches ، وساحل البحر التيريني في الجنوب ، وفي إقليم كالابريا . وهكذا تتسع السهول الغربية من توسكانيا حتى كامپانيا ، في حين تتسع سهول الشرق في الجنوب فقط ، أي في منطقتي پوليليا ولوكانيا . ولكن كل هذه السهول الإيطالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، بما في ذلك سهول صقلية الساحلية وسهل كامپيدانو السردينية ، لا تمثل جميعاً من حيث المساحة ثلث سهل الپو . وهكذا يكون لشبه الجزيرة الإيطالية تضريساً شديد الاضطراب ، مثل صقلية ، التي هي عبارة عن امتداد لشبه الجزيرة ، ما عدا سردينيا التي يتألف معظمها من كتلة قديمة ، كيّفها الحت على شكل هضاب كبيرة ، على درجة لا بأس بها من الارتفاع ، والمتدرجة والمتقطعة بوديان عميقة .

وتلعب الصخور البركانية إلى جانب الصخور الكلسية والغضاريات ، دوراً هاماً في الجنوب الإيطالي ، وهي شواهد عن نشاط تكتوني كان شديداً جداً في الماضي . وتحوي سردينيا موائد بازلتية واسعة (شكل ٤) ، وبراكين صغيرة



بيوت صخرية قبابية فوق مائدة بازلتية في سردينيا

خـامـدة . وترتصف بعض البراكين النـاشطـة بين ڤيزوف وإتنـا (شكل ٥) ، كما لا تـزال فـوهـات الميـادين الفليغريـة ، إلى الغرب من نـاپـولي ، تنفث دخـانها وتستغل الأبخرة الحرارية الأرضية في إقليم توسكانا ، لتشغيل مراكز كهربـائيـة في موقع لارديريللو Larderello . وهنـاك براكين تبـدو اليوم خـامـدة ، سبق لها أن نفثت رماداً استطاع أن يحزز فيها تلال روما السبعة .

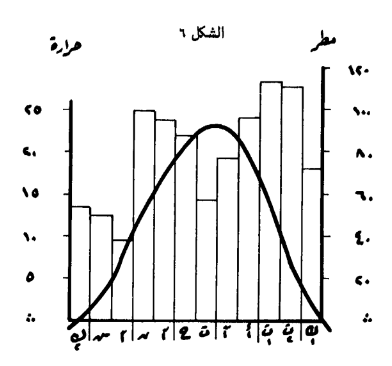


الشكل ٥ **بركان إتنا وسكوبات اللابة خلال التاريخ**

وبما أن شبه الجزيرة الإيطالية هي أرض فتية ، فهي غير مستقرة ، وبالتالي عرضة للزلازل . وقد أدى زلزال مسّينا في عـام ١٩٠٨ إلى هلاك ١٠٠,٠٠٠ نسمـة ، مثلمـا تعرض القسم الشرقي من شبـه الجزيرة إلى التخريـب في عـام ١٩٦٨ ، مثلمـا يتعرض إقليم فريول لزلازل متواصلة منذ بضعة أعوام .

هذا كما يعمل المناخ بدوره على تقسيم شبه الجزيرة إلى شطرين :

فسهل البو يتمتع بمناخ قاري ، رغم بعض المؤثرات الروميـة « المتوسطيـة » . ففي الشتاء تكون درجات الحرارة في ميلانو (شكل ٦) وفي تورينو أشـد قساوة



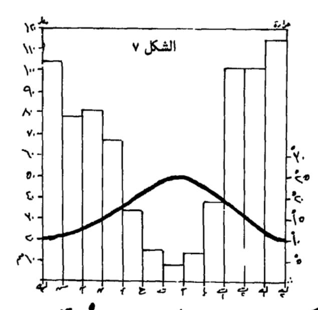
مناخ دانوبي - باريسي   مركز ميلانو

العرض ٤٥,٢٨   الارتفاع ٥٠ م

مجموع المطر السنوي ٩٩٧ مم   معدل الحرارة السنوي ١٢,٥°

مما هي في باريس ، مثلما تكثر فيها حوادث الانجماد . غير أن التسخّن الربيعي يكون سريعاً ، كما تكون حرارة أشهر الصيف مماثلة لصيف الجنوب الإيطالي . هذا ويكون فصل الصيف رطيباً لوقوعه بين فصلي ربيع وخريف مطيرين جداً ، في حين يكون الشتاء قليل الأمطار ، كثير الضباب .

هذا وتكون الفوارق الحرارية أقل من ذلك في المناخ الرومي السائد على شبه الجزيرة والجزر الإيطالية . فإذا كان الصيف حاراً جداً في كل الأمكنة ، فإن الشتاء يكون أكثر عذوبة كلما تقدمنا من توسكانيا باتجاه صقلية (شكل ٧) . وعلى عكس ذلك تكون الفصول متباينة جداً من حيث نظامها الحراري . فجفاف الصيف شامل ، حتى لقد يبلغ الأمر به أن يمتد على الشطر الأخير من الربيع والأول من الخريف ، لاسيا وأن الأمطار غالباً ما تهطل على شكل وابل



المركز : بالرمو (صقلية) العرض : ٣٨,٨° الارتفاع : ٧٠ م
نموذج المناخ : برتغالي هيليني معدل الحرارة السنوي : ١٧,٣°
معدل أقصى الحرارة : ٥,٥٤° معدل أدنى الحرارة : -١,٩° المطر السنوي : ٧٥٦ م

كارثي ، يضفي على الأنهار سمة سيلية ، ويؤدي إلى انزلاقات أرضية في الصخور الغضارية وانهيالات كتلية تدعى فران Frane .

ويؤدي هذا التضاد المناخي بين الشمال الإيطالي والجنوب إلى تنوع في نسق الحياة الزراعية الفصلي . ففي الشمال يعمل الحر والرطوبة خلال الصيف على تكثيف الأنشطة الزراعية . أما في الجنوب ، فتنتهي الحياة الزراعية في نهاية الربيع ، بعد مرور شتاء عذب يساعد على نمو المحاصيل وقبل اليبوسة الصيفية .

البراكين والزلازل

يحتوي بركان أتنا الواقع في شرقي صقلية ، على ثلاث بيئات متباينة كلما ازداد الارتفاع . وهكذا نميز بكل وضوح ما يلي :

- جزء مزروع يمتد من مستوى سطح البحر حتى ارتفاع ١٣٠٠ م ، حيث ينبت الزيتون والقطن وكل الأشجار المثمرة المميزة لجزيرة صقلية كالبرتقال والليمون والرمان .

- وفوق ذلك نجد قسماً حراجياً حتى ارتفاع ٢٠٠٠ م .

- وأخيراً وفيما فوق ذلك نجد الصخر العاري ، الذي يؤلف جدراناً عالية ، ومخاريط ، وفوهات جانبية تنبثق منها معظم الثورانات ، والفوهة المركزية التي ترتفع حتى ٣٣١٣ م . ويغطي الثلج المخروط خلال بضعة أشهر . ولهذا قامت هناك محطة سياحية كبرى ورياضة شتوية . ورغم تحذيرات الأدلاّء والمرشدين فقد أدّى تهوّر البعض إلى وقوع عدد من الضحايا على أثر ثوران بركان أتنا خلال صيف ١٩٧٩ .

وعندما تقع الزلازل في مناطق فقيرة ، كما حدث في ترابانى في صقلية أو فريول في إقليم البندقية ، فإن الدولة تضطر لأن تأخذ على عاتقها أمور الإسعاف وإعادة البناء . ورغم مرور بضعة أعوام على وقوع كارثة إقليم فريول ، فلا زال الآلاف من المتضررين يعيشون تحت الخيام .

البيئة والسكان

الديموغرافيا

إيطاليا بلد وفير السكان ، فقد تضاعف سكانها تقريباً منذ قرن واحد ، كي يبلغ **٥٨ مليوناً** من الأفراد (٥٦,٢ في ١٩٧٦) و (٥٧,٢ في ١٩٨١) . وهذا التقدم العددي ، الناجم عن المواليد ، كان أكبر من ذلك ، بل ومخيفاً ، لو لم تقم الهجرة النهائية ، في الوقت ذاته ، بانتزاع قرابة ٧ ملايين من الوطن الأم ، غادروا وطنهم كي يستقروا في الخارج .

وبعد أن ظل **النمو الطبيعي** مرتفعاً لمدة طويلة ، أخذ بالتباطؤ حالياً . ولما كانت نسبة التوالد تبلغ ١٤ بالألف ، والوفيات ١٠ بالألف ، أي كمثيلتيهما في فرنسا ، فإن الفائض السنوي لا يتجاوز ٣٠٠,٠٠٠ نسمة أو ٤ بالألف . ولكن الفوارق الإقليمية تكون كبيرة بالنسبة لهذا المعدل . فبعض المناطق الشمالية أصبحت عاجزة عن أن تعوض الوفيات بالمواليد ، في حين نجد في الجنوب مناطق يرتفع فيها النمو السكاني الطبيعي إلى ١٥ بالألف ، لأن للعائلات النابوليتانية أو الكالابرية أولاداً ؛ يبلغ ضعف أو ثلاثة أضعاف أبناء العائلات في ميلانو أو تورينو .

ويمثل عدد السكان بالنسبة لسائر أرجاء البلاد كثافة تبلغ **١٨٢ نسمة في الكيلومتر المربع** ، مع اختلافات تتراوح بين ٦٢ في سردينيا و ٣٨٨ في كامپانيا في جنوب شرق ناپولي .

غير أن رقعة البلاد الإيطالية تمثل مسرحاً **لهجرات عديدة** داخلية ، وهي هجرات يتعرض لها كل قطر آخذ بأسباب التصنيع ، وتتخذ شكل هجرة ريفية

نحو المدن الكبرى . ولكن تحدث في هذه البلاد ذات الطابع الجبلي الشديد ، حركة هبوط عامة نحو الوديان والسهول والسواحل ، أي تتفرغ الجبال من محتواها البشري . وأخيراً ولما كان التزايد الطبيعي على أشدّه كلما كانت المنطقة قليلة الحيوية الاقتصادية ، فإن هجرة تنطلق من الجنوب الفقير (شكل ٨) ، أي من إقليم ميزوجيورنو Mezzogiorno نحو الشمال .



الشكل ٨ ايطاليا الجنوبية وجزرها

وقد تكون هذه الهجرات **فصلية** ، لأن موسم الحصاد في إقليم تاڤوليره Tavoliere ، أو موسم جني العنب في منطقة پوپي Pouilles ، يؤدي لاجتذاب سكان المناطق المجاورة ، في حين أن أعمال زراعة الشوندر السكري في إيميليا Emilīe وشتل الرز وحصاده في سهل الپو ، تؤدي لانتقال أيد عاملة من مناطق بعيدة ، ولكن أكثر الهجرات كثافة هي الهجرات النهائية ، التي يقوم بها الجنوبيون بحثاً عن الوظائف والأعمال الحضرية في روما وفي ليغوريا أو لومبارديا أو منطقة البيمونت المؤلفة من السفوح الدنيا لجبال الألب . ويتكون هؤلاء من عائلات فقيرة تحتاج للمسكن وللتربية وللتدريب على أشغال جديدة . ويتألف ثلث العمال في معامل شركة فيات في تورينو من الجنوبيين[1] .

ولقد نتج عن **اكتظاظ السكان** هجرة ظلت ، ولمدة طويلة ، أمراً لابد منه للحفاظ على توازن البلاد الاقتصادي . وبعد أن ظلت هذه الهجرة متواضعة حتى عام ١٨٨٥ ، ومتجهة على الخصوص نحو المناطق الصناعية في أوروبا ، أخذت أبعاداً كبيرة لدى انفتاح الأقطار الجديدة بين ١٩٠٠ و ١٩١٤ ، وهكذا يعيش ٥,٢ ملايين إيطالي في الخارج . غير أن هذه الحركة تقلصت في الفترة الفاشيستية أيام حكم موسوليني والحرب العالمية الثانية ، أي بين ١٩٢٥ و ١٩٤٥ ، كي تعيد سيرتها بشكل معتدل ولكن منتظم ابتداء من سنة ١٩٤٥ . وإذا كانت لا تزال ناپولي نقطة انبعاث هجرة نحو الأمريكتين وأوستراليا ، فإن الأقطار الأوروبية عادت فأصبحت مناطق الجذب الرئيسية . وهكذا راح الكالابريون ، والصقلّيون ، وأيضاً البيمنتيون ، والبنادقة ، يقصدون سويسرا وبلدان الجماعة الاقتصادية الأوروبية ، حيث يكون دخول الطليان حراً . وهم يتواءمون بشكل طيب ، ويستقرون نهائياً بعد استقدام أسرهم . وهكذا تؤدي الهجرة الموقتة الناجحة إلى هجرة نهائية .

(١) تتألف كلمة فيات من أول حرف لأربعة كلمات هي : فابريكا ، إيطاليانو ، أوتوموبيله ، تورينو . أي المصنع الإيطالي للسيارات في مدينة تورينو .

هـذا وقـ .ـفضت **نسبـة العـاملين المئـويـة** من السكان ، فهبطت من ٥٩ ٪ في عام ١١ . ٣٥ في الوقت الحاضر وفي ذلك إشارة إلى التقـدم والتنميـة . ولكن هذه الأعداد في تزايد . وتجري عملية إعادة تكوين البنية الاجتماعية المهنيـة بصورة جذرية . فقد كانت الزراعة حتى عام ١٩٥١ تتصدر الأنشطة إذ كان يعمل فيها ٤٢ ٪ من الطليان مقابل ٣٢ ٪ في الصنـاعـة . وفي عـام ١٩٧٨ هبطت نسبـة العاملين في المجال الزراعي إلى أقل من ١٥ ٪ . ولكن نسبـة العـاملين في الصنـاعـة كانت ضعف هـذه النسبـة أو ٣٠ ٪ ، في حين يظـل للقطـاع الثـلاثي الأكثريـة المطلقة ، أو ٦٥ ٪ .

إحصائيات مجالات العمل في ١٩٧٨ بالآلاف

المجموع ٢٠٥٠٠

يعمل منهم في الزراعة التي تقدم ٩,١ ٪ من الدخل القومي ٢٩٥٠ ألف

يعمل منهم في الصناعة ٥٨٣٩ ألف

يعمل منهم في البناء ١٧٠٥ ألف

يعمل منهم في التجارة ٦٧٢٢ ألف

يعمل منهم في خدمات غير تجارية ٢٨٣٤ ألف

مواقع المساكن المعلقة :

تشتهر إيطاليـا بكثرة المواقع السـامقـة ، المتشبثـة فوق قمم الروابي ، أو التلال ، أو فوق خطوط ذرا التضاريس الوعرة . ويمكن تفسير هذا الاختيار عادة في أن الاهتمامات الدفاعية هي الدافعة لاتخـاذ مواقع كهذه . ولكن الأكثر صحة هو رد ذلك إلى سهولـة السيطرة على المسـاحـات المزروعـة ، الممتـدة على منحـدرات التلال ، تلـك الرقـع الـزراعيـة التي تنـدر في المنخفضـات الرطبـة الكثيرة الأحراش أو الـوخيـة لتفشي البرداء ، ولا سيما في قيعـان الأوديـة ، التي تحتلهـا سرر الأنهـار الفضفـاضـة أو السيـول الأبينينية .

وفي عصر قريب منـا ، وعلى أثر عمليـات استصـلاح الأراضي ، وقيـام الصنـاعـات في المنـاطـق المنخفضة ، أو على أثر تحسين شبكة المواصلات ، فقد ازدوجت المواقع المعلقة نوعـاً مـا ، بعـد أن دفعت بأحياء جديدة باتجاه الأسفل . وهكذا ظهر الكثير من المـدن السـاحليـة النـاشئـة عن استطـالـة مواقع داخلية ، أو بعبارة أخرى لظهور مواقع « بحرية » .

د . غريبودي . جغرافية إيطاليا الاقتصادية . دار بورداس

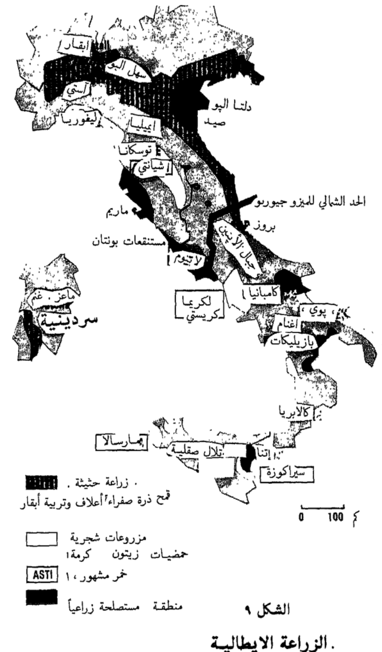
الحياة الزراعية

تتألف رقعة الأرض الإيطالية من سهول تشغل نسبة تقل عن الربع ، أو ٢٣ ٪ ومن تلال ٤٢ ٪ والباقي هو ٣٥ ٪ عبارة عن جبال . ولكن هذا لا يمنع من أن تبلغ **المساحة الزراعية المفيدة** امتداداً يصل إلى ١٧,٥ مليون هكتار أو ١٧٥ ألف كيلومتر مربع ، أو نسبة تقارب **٥٨ ٪ من مساحة البلاد** . وهكذا يتجلى الجهد المبذول خلال القرون العديدة الماضية ، للتغلب على الشرائط الطبيعية العسيرة ، كتطرف المناخ وفقر الترب الزراعية (شكل ٩) .

وهكذا يتخلّى الجبل عن سكانه تدريجياً ، فتترك الزراعة مكانها للأحراش التي تبلغ مساحتها ٦,٣ ملايين هكتار أو ٢٠ ٪ ، كما لم تعد المراعي الجبلية التي تؤلف ١٣ ٪ من مساحة البلاد ، تستقبل القطعان المنتجعة صيفاً . وعلى خلاف ذلك فإن **استغلال السهول** يزداد إتقاناً فيكون **الاستصلاح منهاجياً** . فتتم عملية التجفيف أولاً ، ثم يجري صرف مياه المستنقعات ، ثم تبنى الحواجز النهرية الجانبية للوقاية من الفيضانات ، وأخيراً يتم تحسين الأوضاع الصحية في المناطق الوبيئة . وقد شرع بتنفيذ هذه المشاريع في أيام جمهورية البندقية في القرن الثامن عشر ، كي يستأنفها كافور في نطاق البيمونت ، والبابوية في كامبانيا المجاورة لروما ، ومن ثم تعمّمت هذه العمليات الاستصلاحية . أما استصلاح الأحواض الجبلية ، فيرمي للوقاية من أضرار انجراف التربة ، وذلك بكسر حدة السيول . **أما الاستصلاح المتكامل فهو** عبارة عن تمازج الأسلوبين السابقين ، لأن حماية السهل لا يمكن أن تكون مضمونة إلاّ في الإشراف على الأنهار في حوض العالية . ويشتمل الاستصلاح أيضاً تنفيذ كل أشغال شبكة الطرق ، وبناء

القرى ، وجر المياه النقية ، والكهرباء ، الضرورية جميعها ، لاستغلال الأرض بصورة حثيثة عقلانية .

ويتوج الري عملية الاستصلاح ، ومع أنه يكون لزوماً في الجنوب ، حيث



الشكل ٩

الزراعة الايطالية .

تكون فترات الجفاف الصيفي أكثر طولاً ، فإننا نجده وقد اتسع نطاقه في الشمال مثل قناة ناڤيغليوغرانده في لومبارديا ، التي حفرت في القرن الثاني عشر ، وقناة كاڤور التي ظهرت بين عام ١٨٦٣ و ١٨٦٦ ، اعتماداً على نهر تيسّان الهابط من جبال الألب السويسرية ، وقناة ڤيرجيل ، وقنوات مينشيو ، ومياه شريط فونتانيلي ، التي تروي مساحة ١٠٠,٠٠٠ هكتار ، مما يحصر ثلاثة أرباع الأراضي المروية في سهل پادو ، جنوب غرب البندقية ، غير أن أشغال الري تتوسع مع ذلك في الجزء الواقع في نطاق البحر الأبيض المتوسط .

وإلى جانب ذلك يتسارع **التقدم التقني** . فقد أصبحت الزراعة عصرية أكثر ، لأن كل ١٠٠ هكتار من المساحة الزراعية المفيدة ، تتصرف بمقدار ٤,٥ جرارات ، كما تعمل في إيطاليا ٢٦٠٠٠ حصّادة درّاسة ، و ٧٠,٠٠٠ محطة للحلب الآلي ، كما يكون استهلاك الأسمدة في تقدم مضطرد لأن كل هكتار من المساحة الزراعية المفيدة أصبح ينال ٨٥ كيلوغرام . ونتج عن ذلك ارتفاع تظاهري في مردود الهكتار ، فبين ١٩٥٠ و ١٩٧٥ ، ارتفع هذا المردود من ١٦,٥ كنتال / هكتار إلى ٢٦,١ كنتال ، في حين زاد مردود الذرة الصفراء من ١٥,٥ كنتال إلى ٥٦,٧ ، على أثر انتشار الأنواع المجينة . وقفز مردود البطاطا من ٦٣ إلى ١٦٠ ، بينما ارتفع مردود الشوندر السكري من ٢٥٧ إلى ٣٩٤ .

وهكذا تمكنت إيطاليا من تحسين **درجة استقلالها في مضمار المواد الغذائية** . فإذا كان إنتاج الرز الذي يصل إلى ٧٠٠ ألف طن ، يفيض عن حاجة الاستهلاك بنسبة ٢٢٨ ٪ ، فإن القمح الذي يصل إنتاجه إلى ٩,٣ ملايين طن لا يغطي سوى ٨١ ٪ من الاستهلاك المحلي والذرة الصفراء ٥٠ ٪ ، مع أن إنتاجها يبلغ ٦,٥ ملايين طن . وتضطر إيطاليا لاستيراد ١٠ ملايين طن في العام من الذرة ، لتكميل حاجاتها الاستهلاكية . غير أن تربية الماشية في حالة تقدم مدهش ، ويبلغ تعداد القطيع البقري ٨,٢ ملايين رأس ، والأغنام ٨ ملايين ،

والخنـازير ٩ مـلايين رأس ، بحيث تتغطى الحـاجـات المحليـة من الحليب بمعـدل ٩٦ ٪ و ٧٤ ٪ في مجال اللحوم . أما إنتاج الخضـار ، كالبنـدورة ٢,٨ مليون طن ، وسكر الشوندر ١١ مليون طن ، والثمار ، والخمور التي يصل إنتاجهـا إلى ٦٤ مليون هكتولتر ، كي تحتل المرتبة الثانيـة في العـالم ، وزيت الزيتون ٣٣١٠ طن ، حيث تحتل الدرجة الأولى في العالم ، فيزيد عن الحـاجـة ، وتحسنت أسواقهـا الخـارجيـة بفضل السوق المشتركة الزراعية .

ويكون كل ذلـك مصحـوبـاً **بتحـولات اجتماعيـة كبيرة** . ولكن أبعـاد الحيـازات لا تزال صغيرة ، لأن ثلثيهـا يقـل عن خمسـة هكتـارات . ولكن ثلث المساحـة الزراعيـة المفيـدة (م ز م) ، يستغل حـاليـاً بواسطـة مؤسسـات تزيـد مساحة الواحدة منها عن ٥٠ هكتاراً . وهكـذا تتنـاقص أعـداد الأيـدي العـاملـة الزراعية ، كما أن نظام مؤاجرة الأرض آخـذ بـالتلاشي ، كما تتحسن أوضـاع العمال الزراعيين المأجورين . وعلى العموم أدت تـدابير الإصلاح الزراعي إلى تحول عميق في بعض مناطق البلاد على الصعيدين الاجتماعي والتقني .

	إحصائيات ١٩٧٨	**١٩٨١**
القمح	٨,٧٦٤,٠٠٠ طن	٨٩٢١٠٠ طن
ذرة صفراء	٦,٠٤٠,٠٠٠ طن	٧٠٧١٠٠٠ طن
خمر	٦٥,٠٠٠ مليون هكتولتر	٧٦٥٠٠ مليون هكتولتر
خضار	٣,٠٠٠,٠٠٠ طن	---
أبقار	٨,٨٠٠,٠٠٠ رأس	٨٧٣٤٠٠٠ رأس
أغنام	٨,٧٠٠,٠٠٠ رأس	٩٢٧٧٠٠٠ رأس

الإصلاح الزراعي : لا تكون عمليات الإصلاح الزراعي محصورة في الجنـوب . ولكن ٦٩ ٪ من عمليات توزيع الأراضي تمت في منطقة ميزّوجيورنو ، أو المناطق الفقيرة الواقعة جنوب خـط عرض روما ، وفي هـذه المنطقـة جرت أوائل عمليـات الإصلاح الزراعي ، والنص الأصلي للإصلاح هو قـانون سيغني الصادر في عام ١٩٥٠ .

وفي بعض المناطق التي تسود فيها الملكية الكبرى أو latifundia ، حدثت مصادرة أراضي كبار الملاكين التي تزيد عن ٣٠٠ هـ أو عن ٢٠٠ هـ في صقلية . أما الملاكون من أصحاب المزارع النموذجية ، أو الذين تعهدوا بتحسين أساليب استغلال أراضيهم ، فقد نجوا جزئياً أو كلياً من مصادرة أراضيهم . وقد جرى التعويض على الملاكين السابقين بسندات على الدولة لمدة ٢٥ سنة ، استناداً لقيمة أراضيهم في عام ١٩٤٧ .

وقد أخذت تسع دوائر إقليمية على عاتقها إعادة توزيع الأراضي . وكان المقصود من هذا التوزيع تكوين مستغلات صغيرة تؤمن معيشة أسرة متوسطة مؤلفة من ستة أشخاص . ومعنى هذا أن الرقعة تتعلق بخصوبة الأرض ، بحيث تتفاوت المساحة الموزعة بين ١,٤٤ هكتار فوق أراضي البولدر المستصلحة فوق أراضي بحيرة فوسينو Fucino السابقة ، والتي صودرت من مزرعة أمير تورلونيا البالغة ١٤٠٠٠ هكتار ، وبين ١٣ هكتاراً في جزيرة سردينيا .

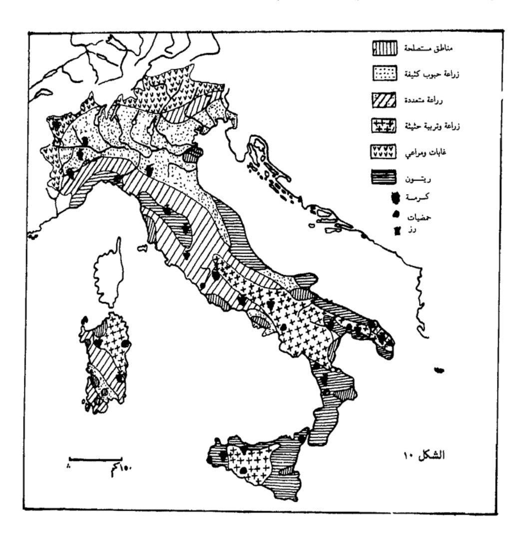
وعلى كل منتفع أن يسدّد قيمة المزرعة المبدئية خلال ٣٠ عاماً ، هذا فضلاً عن ثلثي قيمة التحديث . ولضمان نجاح عملية الإصلاح ، قامت مؤسسات إقليمية بتنظيم الرقعة الزراعية بأكملها ، كمكافحة الحت (انجراف التربة) وإنشاء مزارع جيدة التجهيز ، وجر المياه النقية والكهرباء ، ومدّ الطرقات وإنشاء الأبنية التعاونية . وهكذا أصبح على كل مستفيد أن يخضع لانضباط دقيق ، وعليه أن يبرهن عن مقدراته خلال ثلاثة أعوام ، قبل أن يتسلّم سند تمليكه ، مثلما يجب عليه أن يخضع للأنظمة التعاونية . وعليه أن يتعهد بالامتناع عن بيع أرضه أو تقسيمها خلال ثلاثين عاماً . وكان نجاح هذا المشروع هو توطين ١٠٠,٠٠٠ عائلة فوق ٧٠٠,٠٠٠ هكتار . ولكن « الجوع إلى الأرض » يتناقص مع الهجرة الريفية ، لأن الإلحاح ينصبّ الآن على التحديث .

تنوع الأرياف الزراعية :

تتفوق المزروعات الحقلية الوحيدة في **إيطاليا الشمالية** والاستثناء هو حدائق الزهور في ليغوريا ، وكروم العنب في مونتفيرّا ، ومزارع الأشجار المثمرة في منطقة ترانتان . هذا وتكون الذرة الصفراء « الشامية » قاعدة الدورة الزراعية في شمالي نهر البو ، في حين يلعب القمح الدور ذاته في الجنوب ، أي في إيميليا وروما نيه Romagne . وعلى أساس الدورة الزراعية الثلاثية تتعاقب مزروعات تربية الماشية ، أي الأعلاف ، ثم النباتات المعزوقة كالشوندر السكري ، وأخيراً الذرة والحنطة . بيد أن الحقول تكون مزروعة بالأشجار ، وعلى الخصوص فوق الترب الجافة الواقعة حول السهل . حيث تنتشر مزارع التفاح والدراق ، ابتداء من بولونيا إلى تورينو وحتى برغامه ، إلى جانب صفوف دوالي الكرمة العالية . وتتفوق زراعة الرز والمروج الطبيعية فوق الأراضي الثقيلة والرطبة في قلب سهل پادو . كما تهيمن زراعة الرز عند تخوم البيمونت ولومبارديا ، في حين تسود المروج كلما اقتربنا من البحر الآدرياتيكي . ويستأثر السهل بثلثي قطيع الأبقار ، والتي تجد في المروج الجبلية الألبية المجاورة أجود المراعي الصيفية (شكل ١٠) .

أما **إيطاليا الجنوبية** فتحوي على اختلافات أكبر في طرائق استغلال الأرض ففي المناطق الأقل تطوراً يعيش السكان المتجمّعون في قرى ضخمة من زراعة القمح ، ومن تربية الأغنام الواسعة التي ترعى الحصيد في السهل وفي مراعي المرتفعات . وفي سردينيا لا تزال تربية الأغنام بقصد صنع الجبن هي التي لا تزال سائدة رغم التوسع في الري مؤخراً ، والذي يوائم الزراعة الكثيفة .

وتجعل الزراعة المتعددة في السهول ، والتي تكون شديدة التنوع ، وحثيثة أكثر ، تجعل المنطقة الممتدة من توسكانيا حتى كامپانيا ، عبارة عن مشهد زراعي نكاد نعثر فيه على كل أنماط الزراعة . فتوفر محاصيل الخضار والفواكه والحبوب والماشية والخمر وزيت الزيتون المداخيل لعالم ريفي شديد التكاثف . وتظهر المزروعات الصناعية في سهل لاتيوم ولا سيما الشوندر السكري ، وفي كامپانيا



الشكل ١٠

حيث تسود زراعة التبغ والقنب ، وفي صقلية حيث القطن ، مثلما نجد زراعة الحمضيات المتسعة في صقلية وفي كالابريا ، عدا الكروم الشاسعة في پويليا ، وحول الباكوريات في كامپانيا ، والتي تكون أكثر مناظرها حداثة وأكثرها تسويقاً هي الواقعة في الجنوب .

مزرعة كبيرة لإنتاج الألبان

تلك هي مزرعة سانتا ماريا ديل كامپو ، الواقعة على مسافة ١٠ كم من كريمونا (على نهر الپو شرق ميلانو) ، والتي تبلغ مساحتها ١٠٠ هـ منها ٧ هكتارات تشغلها الأبنية القديمة والحديثة . وفي ١٩٥٠ كان نصف أراضيها عبارة عن مراع ، وربع مخصص لزراعة الحنطة والربع الأخير لزراعة الذرة الصفراء . وكانت تمارس فيها تربية دودة القز . وكانت تعمل فيها ٣٠ عائلة ، منها ٢٧ أسرة كعمال زراعيين . وحدث انقلاب كامل بين ١٩٥٠ و ١٩٧٠ ، فقد حلت المكائن محل الإنسان وتغيرت طبيعة الإنتاج . وفي ١٩٧٨ لم يبق سوى ٦ عائلات و ٨ عمال زراعيين ، ولكن كان هناك ٩ جرارات وعشرة آليات . وأصبح ثمانون هكتاراً مخصصة للذرة الصفراء ، المشتركة مع السلجم والشعير (محصولان سنويان) ، أما الباقي فيخصص للعلف الأخضر السنوي . وزاد عدد القطيع ليبلغ ٤٠٠ رأس ، ويكون المردود عالياً جداً . وتخصص كل المحاصيل لإطعام الماشية . ومهمة المستغلة الأولى هي إنتاج الحليب الذي يباع لشركة صناعية ويؤلف ٧٥ ٪ من دخل المزارع الذي يبيع من ناحية أخرى ، الثيران الصغار وعشرين بقرة في كل عام .

وقد تم مؤخراً تجميل المقاسم الزراعية ، وقد جرى تكميل الأبنية القديمة بزرائب كبيرة عصرية ، وبقاعة يمكن حلب ١٥٠ بقرة فيها خلال ثلاث ساعات ، وعنابر لتخزين العلف ، وخزان للاحتفاظ بالحليب إلخ .. ولكن معونات الدولة وقروضها هي التي سمحت بإنجاز هذه الإنجازات .

ويتناول العمال أجورهم شهرياً ، والتي تتراوح بين ٤٥٠٠٠٠ و ١ مليون لير ، ويتمتع كل منهم بسكن مجاني وبحديقة .

عن ل . تيرون

شروط الحياة الصناعية

كانت إيطاليا تعاني ، خلال الفترة التي كانت تحقق فيها وحدتها ، من تأخر صناعي كبير ، بالموازنة مع الأقطار الأوروبية الأخرى . ولم تكن الصناعة تمارس أي جاذبية على الرساميل كي تستثمر في الصناعة ، كما يمكن تفسير ذلك بفقدان الحديد والفحم .

وقد تم الإقلاع في عام ١٨٨٥ ، كما تمخضت الحربان العالميتان عن جهد كبير في هذا المضمار . ولكن بعد عام ١٩٤٥ بشكل خاص ، ساهمت المساعدة الأمريكية والانضمام للجماعات الاقتصادية الأوروبية المختلفة ، والنهضة في إنتاج الطاقة على أثر تجهيز القوى الكهرمائية واكتشاف الغاز الطبيعي ، وحيوية المؤسسات الحكومية الكبرى الخاصة ، أقول ساهمت في تحقيق ما أمكن تسميته **المعجزة الإيطالية** . وقد وفرت الصناعة فرص العمل لثلث القادرين عليه ، وساهمت بنسبة ٥٠ بالمئة من الدخل القومي الخام P.N.B ولكن سرعان ما مرت فترة الرخاء والازدهار ، ففي السبعينات أخذت الأوضاع الاجتماعية بالانحطاط ، وضاعت بعض الأسواق الخارجية ، سواء بسبب العدوانية الاقتصادية أو بنوعية المنتجات ، وأصبحت التبعية البترولية عائقاً ينوء بكل ثقله أكثر فأكثر .

وأدى الوضع الصناعي إلى ظهور ما يلي :

ـ **أيد عاملة وفيرة** ، هي أكثر من عرض مجالات الاستخدام ، لأن إيطاليا تحوي حالياً أكثر من مليوني عاطل عن العمل ، وأكثرهم من الشبان . ويؤثر هذا الوضع على مستوى الأجور ، غير أن « كيان الشغيلة » ، يتحدد بموجب القانون رقم ٣٠٠ الصادر في ٢٠ أيار ١٩٧٠ ، وذلك في كل المؤسسات التي تستخدم أكثر من

١٥ عاملاً ، أقول يحدد نواظم التوظيف بصورة دقيقة جـداً ، وتجعل من المستحيل تسريح العامل أو تطبيق الساعات الإضافية .

ـ **المؤسسات الكبرى** ، وهي رائـدة في فروعهـا ، وإذا كانت شركـة فيـات هي الأكثر شهرة ، ولا سيا في مجال سيـاراتهـا ، فـإن هنـاك مؤسسـات ذات وضع مسيطر أيضاً في ميادينها الخاصة بها ، مثل شركـة مونتيـديسون Montedison في ميـدان الصنـاعـة الكيمـاويـة والكهرمعـدنيـة ، وشركـة سنيـا ڤيسكوزا في حقـل المنسوجات الكيماوية ، وپيريللي في صناعة المطاط ، واوليڤيتّي في صناعة المكائن المكتبية .

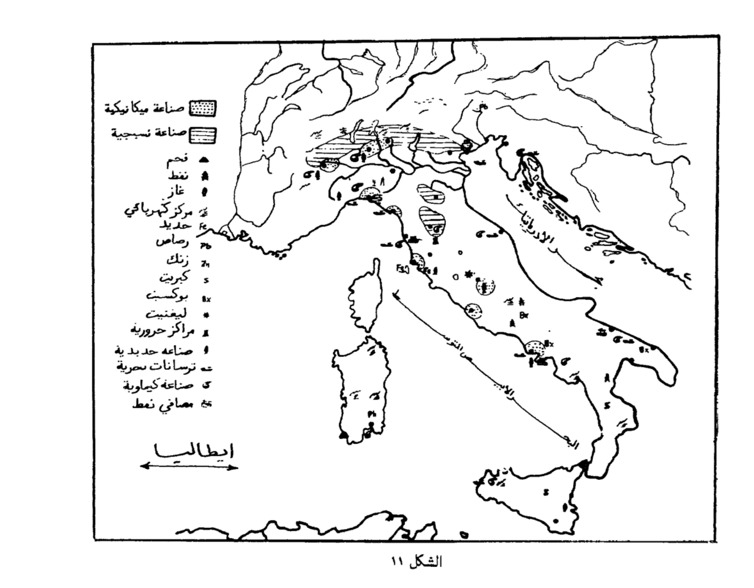
ـ **قطـاع حكـومي أسـاسي** : إذا استثنينـا الـدوائر الحكـوميـة الخـاصـة بـالـدولـة ، والتي تنتسب إلى القطـاع الثـلاثي ، كالخـدمـات العـامـة والخطـوط الحديدية ، فإن الدولة الإيطـاليـة تشرف على شطر كبير من الصنـاعـة . فهنـاك مؤسسات عامة تستغل المعـادن والفحم في جزيرة سردينيـا . ويتعلق البحث عن النفط واستخراجـه بمؤسسـة ايني Eni وتفرعـاتهـا . هـذا ويكون لمؤسسـة أ. ر. ي (معهد التعمير الصناعي) ، التي أنشئت في عام ١٩٣٣ ، بعـد أن أخـذت الـدولـة على عاتقها إدارة رؤوس أموال المشاريع الصناعية ، التي كانت تشرف عليها بنوك على شفير الإفلاس ، والتي أصبح وضعها الحالي منتظماً بقانون عـام ١٩٤٨ ، لتنميـة الاقتصاد القومي ولإنعاش الجنوب ، أقول يكون لهذه المؤسسة فروع عـديـدة تضم ١٣٠ مؤسسة صناعية ، يعمل فيها ٣٠٠,٠٠٠ عاملاً . ويؤلف هذا القطـاع سلاحـاً قديراً ، فعالاً ، في يد الدولة ، ولكنه يؤلف عبئاً ثقيلاً عليها .

ـ **وتلعب المؤسسات الصناعية الصغرى** دوراً هـامـاً ، لأنها تقـدم ٩٠٪ من إنتـاج الأثـاث و ٧٠٪ من الألبسـة والأحـذيـة . وتكـون الإدارة هنـا حرة والأيدي العاملة غير مصرّح عنها تماماً ، مما يجعل الأعباء الاجتماعية خفيفة ، لأنها تعيش على هامش القانون رقم ٣٠٠ ، وتكون هذه المؤسسات فضلاً عن ذلك منضمة

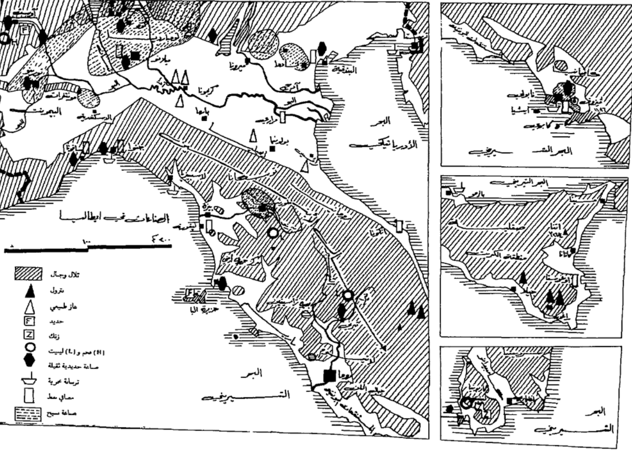
إلى ٢٥٠ رابطة توفر لها محاسن المركزية دون عوائقها .

أما فيما يتعلق بالتموين بالمواد الأولية ، فإن لإيطاليا موارد معدنية متنوعة ولكنها قليلة المقادير (شكل ١١ و ١٢) . وهكذا لا تقدم فلزات الحديد المستخرجة من جزيرة إلبه سوى ٢٪ من الحاجات المحلية . ويأتي الزنك والرصاص من سردينية والبوكسيت من غارغانو والزئبق من توسكانيا وكذلك البيريت . وكما هو الحال بالنسبة للطاقة فإن هناك حاجة ماسة للاعتماد على الاستيراد بصورة كثيفة ، كي تستطيع تأمين المواد الأولية للصناعة .

هولدنغ الدولة : لقد كانت هذه المؤسسات إحدى دوافع التوسع الصناعي الإيطالي خلال الخمسينات . فقد أنشئت الأولى العملاقة ، وهي « آ. ر. ي » و « ايني » بعد الحرب ، فوق أسس تجارية بحتة كشركتين بقصد الربح . وقد كانتا بالنسبة للدولة ، التي تعتبر في بلد آخذ بأسباب النمو ، أول مصدر لرؤوس الأموال ، وسيلة عملية لتحويل الأموال نحو الصناعات الأساسية ، دون التعرض لظاهرة الإخفاق التي كثيراً ما تصاحب المؤسسات الحكومية . وكان امبراطور شركة « آ. ر. ي » في فترة ما بعد الحرب ، هو غيزيب پتريللي ، وفي شركة « ايني » هانريكو ماتّي ، اللذان كانا يديران شركتين كأميرين مستقلين ، ولم يكونا عرضة لأي تدخل من طرف الحكومة ، باستثناء الإيعاز بخصوص الاستثمار الصناعي في اتجاه الجنوب الإيطالي . وقد بدأت الهموم تظهر عندما أصبح الاقتصاد الإيطالي هدفاً للمصاعب والأزمات خلال الستينات . فأنشأت الحكومة شركتين جديدتين من نوع « هولدنغ » ، هما « ايغام » Egam ، من أجل ضمان الشركات النسيجية والتعدينية التي تعاني من المصاعب ، وشركة « ايفيم » Efim ، لمدّ يد المعونة للشركات الخاسرة في مجالات عديدة من القطاعات الصناعية . وكانت الفكرة هي جعل هذه الشركات مزدهرة من جديد ، كي تحصل بعدئذ على إدارة خاصة بها . ولكن ظهر ذلك مستحيلاً ، لأن الأزمة الاقتصادية لم تتوقف عن التفاقم ، لهذا جرى التوسل بإلحاح إلى « آ. ر. ي » و « ايني » أن تتحاشى تصفية القطاعات التي تعاني من الأزمة ، والذي كان ذلك سيؤدي لا محالة إلى تسريحات في صفوف العمال ، ولكن أدى إبقاؤها على قيد الحياة إلى تحويل أرباح صادرة من قطاعات أخرى ، وهكذا بادرت شركة « آ. ر. ي » لنجدة أكبر شركة كيماوية إيطالية ، تعاني من المصاعب وهي شركة مونتيديزون . وقد أدى تفاقم الأزمة الاقتصادية مع التدخل السياسي ، إلى خسارة شركة « آ. ر. ي » مبلغ ٥,٨ ملايين دولار ، وارتفع مجمل ديونها إلى ١٥,٥ مليار في أواخر عام ١٩٧٦ ، في حين كانت ديون شركة « ايني » ٤,٧ مليارات ، كما صعدت ديون شركة مونتيديزون إلى أكثر من ٣ مليارات . مجلة المسائل الاقتصادية ـ ٥ تموز ١٩٧٨


صناعة ميكانيكية
صناعة نسيجية
فحم
نفط
غاز
مركز كهربائي
حديد
رصاص
زنك
كبريت
بوكسيت
ليغنيت
مراكز حرورية
صناعه حديدية
ترسانات بحرية
صناعة كيماوية
مصافي نفط
ايطاليا

الشكل ١١


الصناعات في ايطاليا
تلال وجبال
بترول
غاز طبيعي
حديد
زنك
(H) فحم و (L) ليجنيت
صناعة حديدية ثقيلة
ترسانة بحرية
مصافي نفط
صناعة نسيج
البحر
الأدرياتيكي
التيريني
البندقية
ميلانو
فيرونا
بادوفا
بولونيا
بارما
جنوا
ليفورنو
روما
جزيرة البا
صقلية
كاتانيا
اتنا
باليرمو
نابولي
البحر التيريني

الشكل ١٢

الطاقة والصناعة :

لإيطاليا **حصيلة طاقيّة قليلة** أصلاً. وبما أن إيطاليا دولة فقيرة بالفحم، لأن إنتاج الانتراسيت من ڤال داوست ، وفحم كاربونيا الايوسيني لا يزيد عن مليون طن ، فإنها تضطر لاستيراد أنواع لا غنى عنها للصناعة الحديدية فيها . وعلى كل لا توفر أنواع الوقود الصلب أكثر من ٧,٤٪ من الطاقة . وتقدم الكهرباء الأولية ما يزيد قليلاً عن ٨,٦٪ . وتعتبر المراكز الكهرمائية المصدر الرئيسي ، ويقع ٧٠٪ منها في جبال الألب ، التي تقدم على الخصوص الإنتاج الصيفي ، وتقدم شبه الجزيرة ٢٨٪ ذات الإنتاج الشتوي . ويتحقق ترابط هذه الشبكة أيضاً بواسطة المراكز الحرارية ، والطاقة الحرارية الأرضية في الارديرللو في توسكانيا والمراكز النووية الأربعة . غير أن الوقود السائل هو الذي يوفر القسم الأعظم من استهلاك الطاقة ، حيث يقدم النفط ٦٨,٥٪ والغاز الطبيعي ١٥,٥٪ ، وبالرغم من إنتاج غاز الميتان وطنياً ، فإن التبعية تظل كبيرة ، كما أن صعود أسعار النفط في أواسط السبعينات كان شديد التأثير وتستورد شطراً كبيراً من الغاز الجزائري بواسطة أنبوب بحري ينطلق من ميناء الصخيرة التونسي .

أما **الفروع الرئيسية الصناعية** فهي :

- **وتأتي المنسوجات والألبسة** في رأس القائمة ، نظراً لرسوخ قدم هذه الصناعة في التاريخ ولعدد العاملين فيها . وتكون صناعة القطن هي الأكثر نمواً ، ويقع ٩٥٪ منها في الشمال . أما الصناعة الصوفية ، فتعتمد جزئياً على تربية الماشية المحلية ، وتكون أكثر تبعثراً ، فنجدها في البيمونت وفي إقليم البندقية وفي توسكانيا . ولقد كان الحرير الطبيعي أحد أكبر الاهتمامات في مدن الحافة

الألبية . أما المنسوجات الكيماوية التي لحقت بالحرير ، بتأثير الشركات الكبرى مثل سنيافسكوزا بالنسبة للحرير النباتي ، ومونتيديزون بالنسبة للنايلون ، فقد انضمت في مصانع ضخمة حول ميلانو .

ـ **أما الصناعة الحديدية** ، فهي حديثة النشأة ، فإيطاليا المحرومة من فحم وطني ، والفقيرة بالحديد ، لم تستطع أن تصبّ أول سكيبة من الفونت إلا في ١٨٩٩ . ولقد ساهم دخولها في الجماعة الأوروبية للحديد والفولاذ وتمركز شركاتها الصناعية ، وعلى الخصوص مؤسسة فينسيدر Finsider والموقع الساحلي ، أقول ساهمت جميعاً في رفع الإنتاج الحالي إلى ١٣ مليون طن من الفونت (الصهير أو الحديد الزهر) ، و ٢٤,٦ مليون طن من الفولاذ في ١٩٨١ . وتعمل الأزمة الحالية على الحيلولة دون استخدام مصانع الحديد في الجنوب ، في إقليم تارنت ، بكامل طاقتها .

ـ **أما الصناعة الميكانيكية** فهي أحسن تواؤماً في قطر غني بالأيدي العاملة ، والذي يستطيع تصنيع منتجات الصناعة الحديدية . وهكذا نجد أن صناعة السفن ، تخلق حيوية ترسانات جنوا وتريستا ولاسبيزيا . غير أن فرع صناعة السيارات ، يظل أكثر شهرة على المستوى العالمي . وإذا كان إنتاج السيارات يبلغ وسطياً ١,٨ مليون سيارة ، فإن شركة فيات تقدم ٩٠٪ من هذا الإنتاج ، وتأخذ شركة آلفاروميئو على عاتقها إنتاج قسم من الباقي ، ولا سيا تجميع سيارات رينو الفرنسية . وتتدخل صناعة المركبات ذات العجلتين ، والصناعات الجوية والمكائن الزراعية والأدوات المكتبية ، والكهربائية المنزلية ، أو المنتجات الألكترونية في توفير العمل أيضاً لأكثر من ٩٠٠,٠٠٠ نسمة .

ـ **أما الصناعات الكيماوية** ، فتكون منضمة لمجموعات قوية ، تكون البتروكيمياء هي الأصل أحياناً . وعلى خلاف ذلك تكون الصناعات الغذائية شديدة التنوع والتبعثر ، فهناك ١٥٠٠ معمل للمعجنات الغذائية ، ولتصبير

الخضار والفواكه ، ومصانع السكر ، ومعاصر زيت الزيتون، وصناعة الأجبان في الشمال . ولم يعد لصناعة البناء والأشغال العامة تلك الحيوية التي كانت لها خلال الخمسينات والستينات ، لأن صناعة البناء لا تقدم أكثر من ١٦٠,٠٠٠ مسكن في العام ، كما أن عصر بناء طرق السيارات العريضة Autoroutes قد مضى .

	إحصائيات ١٩٧٨	١٩٨١
الكهرباء	١٦٧ مليار كيلواط	١٨١ مليار كيلواط
غاز طبيعي	١٣,٣ مليار م٣	١٤مليار م٣
فونت	١١,٤ مليون طن	١٢,٤ مليون طن
فولاذ	٢٤,٢ مليون طن	٢٤,٦ مليون طن
السيـــارات السياحية	١,٥١٠,٠٠٠ سيارة	١,٢٥ مليون سيارة
السيـــارات النفعية	١٤٧,٠٠٠ سيارة	١٦٤٩٠٠ سيارة

فيات لقد تأسس المعمل الصناعي للسيارات في تورينو FIAT في عام ١٨٩٩ ، على يد تسعة من مواطني تورينو ، منهم السنيور آنييلّلي التي لا تزال عائلته تدير المؤسسة ، مع ٥٠ عاملاً في ذلك الوقت . أما اليوم فتملك الشركة ٣٠ مصنعاً منها ١٨ في تورينو ، وفي منطقة البيمونت ، والتي توفر العمل لقرابة ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، وأكثر من ٣٧ مصنعاً آخر في خارج إيطاليا . وتنتج شركة فيات ، التي تحتل المكانة الثانية بين منتجي السيارات في أوروبا ، بعد « سيارة الشعب » « فولكسفاغن » والخامسة في العالم ، مقدار ٤,٣٪ من السيارات العالمية ، أو ١,٦ مليون سيارة في العام ، إلى جانب ٤٥٠٠٠ جرار « تراكتور » وعربات السكك الحديدية ، ومحركات السفن ، ومحركات طائرات ، ومكائن صانعة .

ويمكن تفسير مثل هذا النجاح بأساليب صناعية مؤتمتة للغاية . فيملك مصنع ميرافيوري في البيمونت مثلاً مصاهر حديد خاصة به ، وتكون كل سلسلة تجميع متخصصة في نوع من السيارات . ولتجميع ٤٠٠٠ قطعة ضرورية لبناء كل نموذج ، يكون من اللازم وجود ٢١٦ كيلو متر من الناقلات الهوائية ، و ٢٥ كيلو متر من الخطوط الحديدية ، و١٣ من الأنفاق الباطنية والعديد من الطرق .

ويتحقق التكوين المهني للعمال منذ عام ١٩٢٢ في مدرسة مركزية لتدريب عمال فيات ، حيث

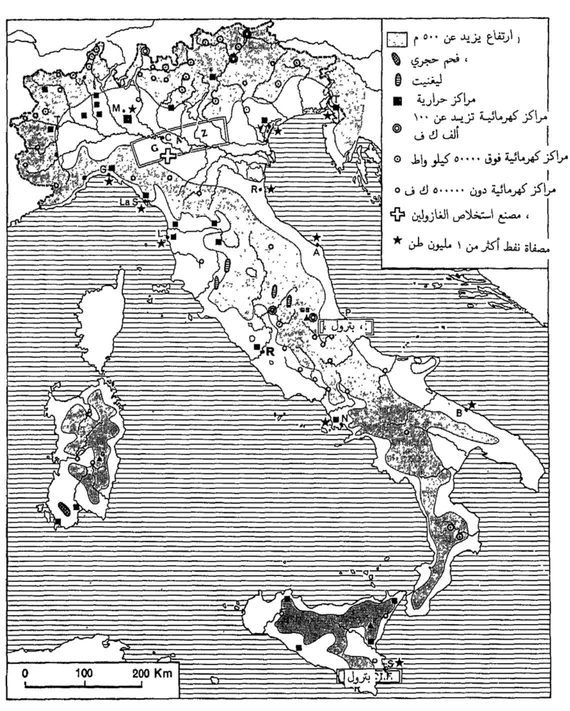
يضطلع بمهمة التدريس ١٢٠ مهندساً . وينصرف الكثير من الكوادر أيضاً إلى البحث الذي يمتص ما بين ٣ إلى ٤٪ من ميزانية الشركة .

ويتحقق الشطر الأعظم من التنمية عن طريق التمويل الذاتي ، بحيث لا يمثل الاستقراض أكثر من ٦ إلى ٧٪ من ميزانية الشركة . وقد اتبعت فيات في الوقت ذاته سياسة تكامل عمودي ، ففي العالية لديها معامل فولاذ خاصة ومصانع التصفيح منذ ١٩١٧ ، وفي السافلة تقوم بتنمية وبتوسيع شبكة مبيعاتها وورشة التصليح والصيانة ، سواء في إيطاليا ، حيث يبلغ عدد مراكز التصليح ٤٥٠٠ ، أو في الخارج حيث تملك ٥٣٠٠ مركز صيانة موزعة على ١٥٢ قطراً ، كما عقدت اتفاقات مع الاتحاد السوفييتي لإنتاج طراز لادا الروسية ، ومع پولونيا ، وراحت اعتباراً من ١٩٧٢ تنشر مصانع التجميع في البلاد الأجنبية . وأخيراً تعطي الإدارة اللامركزية المرونة التي لا غنى عنها ، بفضل ست إدارات مختصة بالإنتاج ، وتتمتع باستقلال ذاتي واسع .

أهمية الوقود السائل

يتجاوز استهلاك إيطاليا من النفط المئة مليون طن ، ولكن الإنتاج الوطني لا يعطي أكثر من من مليون طن ، يستمد على الخصوص من آبار صقلية ، من حقلي جيلا Gela و راقوزة ، أي في وضع يماثل وضع اليابان تقريباً بالنسبة للطاقة . ولقد حصلت شرابيني على امتيازات استغلال في أقطار الشرق الأوسط وفي المغرب ، وتقدم لبلادها النفط السوفياتي المكرر مقابل الأنابيب . ولتأمين حاجاتها المحلية وللتصدير ، تملك إيطاليا طاقة تكرير تبلغ ٢١٢ مليون طن ، تتوزع مصانعها على الخصوص على السواحل ، وأصبحت ذات فائض تصديري كبير منذ الأزمة النفطية في ١٩٧٣ .

وصعد إنتاج الغاز الطبيعي ـ بتحريض من شركة ينّي ـ منذ الحرب العالمية الثانية . وهكذا تنطلق من مكامن كورتيا عجيوره وكاڤياغه قرب مدينة بولونيا أنابيب طولها ٦٠٠٠ كم ، توزع غاز الميتان على سائر إيطاليا الشمالية . وقد اكتشفت مكامن جديدة في الجنوب وفي المياه الإقليمية على ساحل الآدرياتيكي تجاه راڤين . ولكن إيطاليا تعتمد أكثر فأكثر على استيراد غاز الصحراء الكبرى ، بواسطة ناقلات الغاز المميّع ، وبعد قليل ستمتد أنابيب تنقل الغاز من تونس وصقلية والغاز السوفياتي والهولندي بواسطة قنوات ضخمة .

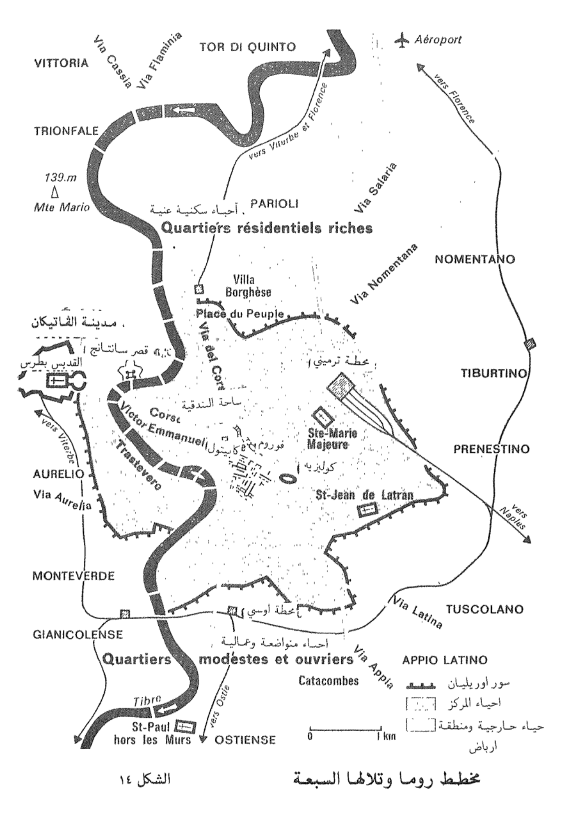


الشكل ١٣ مصادر الطاقة في إيطاليا

مدنية حضرية

بعد أن كانت **المدنية العمرانية** نامية على نطاق واسع منذ العصر القديم، راحت تزدهر في العصر الوسيط . وهناك القليل من الأقطار التي تحتفظ مثل إيطاليا بطابع المدن القديمة ، ذات الأحياء الحاوية على شوارع ضيقة محفوفة بحوانيت الباعة العتيقة والتي تتلاقى في ساحة مركزية ، حيث تقوم الكاتدرائية والقصر اللذان يجسّدان ثراء العمارات الهندسي . وتكون هذه المدن عديدة ، لأن تجزّؤ البلاد الطبغرافي ، قد ساعد على الاحتفاظ بالتجزؤ السياسي لمدة طويلة : وكثيراً ما نجد الأسوار ماثلة ، أو تتخلى أحياناً عن مكانها لشوارع عريضة دائرية. فلا تزال في إيطاليا « نفسية التحزبات المحلية » والتنافس بين الأحياء حتى أيامنا هذه (الپاليو في مدينة سيّان Sienne) الواقعة بين روما وفلورنسا .

هذا وقد كانت **الطفرة الديموغرافية** متأخرة في المدن : فقبل قرنين من الزمن لم يكن في ناپولي سوى ٣٥٠,٠٠٠ نسمة ، وروما ١٦٠,٠٠٠ نسمة ، وكل من پالرمو والبندقية ١٤٠,٠٠٠ نسمة وميلانو ١٣٠,٠٠٠ نسمة . وقد منحت الوحدة الإيطالية مدن العواصم القديمة حيوية جديدة مثل تورينو ، وبعدها فلورنسا وأخيراً روما . أما الدعم الصناعي للمدن فلم يظهر مفعوله إلاّ منذ ٩٠ سنة . ويعيش ثلثا الشعب الإيطالي في أيامنا في ٨٧٥ بلدة ، يزيد عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة . وتضم المدن التي تحوي أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، وعددها ٤٧ ، أكثر من ١٦ مليون نسمة . وهناك أربع مدن مليونية هي روما (شكل ١٤) وميلانو ونابولي وتورينو. هذا ولا تبدو المدن الشديدة الحيوية قادرة على ضبط نموها .



الشكل ١٤ مخطط روما وتلالها السبعة

وهناك « **عائلات حضرية** » تتفرّد بشكل صريح :

ـ فتحوي **إيطاليا الشمالية** نثيراً كثيفاً جداً من المدن ، مع هيكل عمراني جيد التسلسل ، حيث تهيمن المدينة العملاقة ميلانو ١,٨ مليون نسمة ، والمدينة الصناعية تورينو ١,٢٥ مليون ، والمدينتان الهامشيتان وهما جنوا ٩٠٠,٠٠٠ ، والبندقية ٤٠٠,٠٠٠ نسمة . وتتضافر كل العوامل هنا لتحقق شرائط التفتح العمراني ؛ كسهولة المواصلات في نطاق سهلي فسيح ، واتصالات ميسورة مع العالم الخارجي ، سواء عن طريق البحر أو عن طريق البر لوجود الممرات الألبية ، **وتماس مناطق** متكاملة نظراً لوجود **مدن حضيض الجبل على الهوامش** ، والأسواق الزراعية في قلب السهل ، والثروات الطاقيّة الجديدة **لوجود الطاقة** الكهرمائية في الألب ، والغاز الطبيعي في المناطق المنخفضة ، ولوجود تقاليد اريستوقراطية عريقة ومن ثم بورجوازية ، وغنى المنطقة بذوي المبادهات والرساميل ، ووجود وضع اقتصادي مسيطر منذ مدة قرن من الزمن .

ـ وليس **لإيطاليا الوسطى** صناعات حديثة مماثلة . فالمدن هنا تتخذ بالأحرى سيماء مدن متاحف ، مما يزيد جاذبيتها السياحية ، وتشذ فلورنسا عن هذه القاعدة ، ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، نظراً لأن إشعاعها يتجاوز إقليم توسكانيا ، وكذلك شأن العاصمة روما ، التي تضم أكثر من ٣ ملايين نسمة بفضل وظائفها اليومية .

ـ هذا وتكون **مدن الجنوب** عبارة عن بؤر فقر . فهي عبارة عن جزر محافظة اجتماعياً ، ومقر بؤس الجنوب أو الميزوجيورنو ، ولا تؤمّن صيانة عمائرها إلا بصعوبة كبيرة ، كما لا توفر المسكن لسكانها إلا بصعوبة ، بعد أن تعرضت لتدمير الحرب العالمية الثانية ، تواجه جميعاً ، حتى أكبرها وهي نابولي ، ١,٣ مليون نسمة ، وبالرمو ، ٧٥٠,٠٠٠ نسمة ، مشكلات خطيرة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي .

ميلانو : مدينة عملاقة (متروبول)

ميلانو هي أكثر من مدينة ، إنها منطقة حضرية مؤلفة من ١٧٠ ناحية ، تضم قرابة ٤ ملايين نسمة . وهي عاصمة إيطاليا الاقتصادية . ففيها تستقر شركات صناعة الحديد الكبرى مثل بريدا ، فالك ، والميكانيكية مثل ألفا روميئو ، واوتوبياتشي ، والكهرمعدنية والكيماوية مثل مونتيديزون ، پيريلّلي ، سنيافيسكوزا ، والغذائية مثل مدّتا وألمانتا ، حيث تضم ميلانو إداراتها المركزية ومصانعها ، شأن شركة « ايني » في حي ميتانو ، ضمن تلك العمارات الشائقة ، التي تعتبر تجسيداً لمجد إيطاليا الحديثة في المضمار الهندسي . وهنا أيضاً يقع أول مركز تجاري في البلاد مع معرضها الدولي حيث تعقد فيها ٣٠٪ من الصفقات التجارية ، وكذلك السلاسل الكبرى لتجارة التجزئة ، مثل شركة ستاندا ويناشنته ، وأكبر مركز مالي مع مصارفه وبورصة الأسهم . وهي أول بؤرة ثقافية : من لم يسمع بمسرح سكالا ، وبالجامعات وبدور النشر ، التي تشكل الإشعاع الدولي لهذه المدينة الكبرى ؟

غير أن تنظيم هذه المدينة لم يزل دون المرغوب ، إذ لم يمكن بعد السيطرة على نموها العمراني . فهناك نطاق عمراني جرى تنظيمه قبل الحرب العالمية الثانية ، والذي كان محصوراً ضمن شارع عريض دائري ، وهو يغطي ٣٠٠٠ هكتار ، ويضم ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . ويميز في داخله « المركز التاريخي » ، الذي يسكنه ٢٨٩ نسمة ، والمحدود بشارع يواكب مجرى القنوات القديمة . ذاك هو قلب المدينة مع الكنيسة الكبرى وقصر البلدية ومسرح سكالو . ويتحول هذا الحي إلى « سيتي » ، وتمتد حول المركز التاريخي وحتى الشارع الدائري الثاني ، أي شارع باستيوني ، أو الجدار الإسباني ، أحياء سكنية أو الخدمات الحضرية . ونجد فيما وراء ذلك مجموع كبير من مساكن تكاد تكون متماثلة مع بعض الأحياء المتخصصة مثل : « مركز الإدارة » قرب المحطة المركزية ، ناطحة سحاب شركة پيريلّلي . ونجد بعدئذ حي « أطراف » ميلانو ومساحته ١٥٢١٢ هكتاراً ويضم ١,١٢٦,٠٠٠ نسمة .

وقد نشأت مشكلات عديدة عن هذا التقدم العمراني ، كاختناق المواصلات رغم وجود المترو ، وتلوث الهواء والماء ، والمضاربة العقارية الشديدة . وقد ظهر مخطط عمراني بين النواحي المجاورة ولكن تنفيذه بطيء .

دلماسو وزملاؤه . المدن الإيطالية .

دار نشر لاروس ١٩٧٧

روما : يبدو أن روما التي تعتبر رأس إيطاليا ، ورأس النصرانية ، والتي تضم قرابة ثلاثة ملايين نسمة ، يبدو أنها استفادت فائدة ضخمة من وضعها المركزي ، سواء في شبه الجزيرة ، أو في مجمل البحر الأبيض المتوسط . ولكنها لم تستفد أحياناً وفي الوقت ذاته من هاتين الميزتين . فقد كادت هذه العاصمة

القديمة التي كان عدد سكانها يتجاوز المليون في العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية ، أقول كادت أن تتلاشى ، وأن تتعرض لحكم الفناء لولا استمرارية وظيفتها الدينية . ففي عام ١٨٧٢ لم تكن أكثر من مدينة متواضعة ، يسكنها حوالي ٢٤٠٠٠٠ نسمة ، وكانت شبه ضائعة في ريف روماني معزول ووخيم ، على مسافة ٥٠ كيلو متراً من مصب نهر التيبر المستنقعي . وكان عليها الانتظار حتى إنجاز الوحدة الإيطالية ، كي تسترد من جديد دورها كعاصمة سياسية . وهكذا عادت روما ، ببطء في البداية ، وبسرعة أكبر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، عادت مدينة كبيرة جداً . وتعتبر **وظيفتها السياسية والإدارية** جوهر وجودها . فلم تفلح هذه المدينة في أن تصبح بؤرة صناعية مرموقة ، فهي لا تستخدم أكثر من ٨٪ من سكانها العاملين في مصانعها وفي النقل ، بل هي عبارة عن مؤسسات ترتبط بمركز استهلاكي كبير ، وبذلك تتألف صناعاتها من صناعة الأجهزة التلفونية ، والأدوات المتعلقة بالأشغال العامة وبصناعة البناء ، وبصناعة النسيج التركيبي والمنتجات الصيدلانية ، وصناعة السجائر والجعة ، أو هي عبارة عن أنشطة خفيفة وذات إشعاع واسع كالسينما . ولا تظهر الوظيفة السياسية بالمشاهد الهندسية العمرانية فحسب ، بل بتكوين وظائف عمل جديدة وعديدة : ففي كل شهر يفد آلاف من أهل جنوب شبه الجزيرة إلى العاصمة التي لا تتوقف عن التوسع .

أما **الوظيفة الدينية** ، التي لا تنحصر في دولة الفاتيكان ، فإنها تساهم في دعم هذه العاصمة المهيبة . فلدى الفاتيكان الكثير من السفراء المعتمدين من قبل العديد من الدول الأجنبية ، وحتى من قبل الجمهورية الإيطالية ذاتها . وتعتبر كنيسة القديس بطرس قطب جذب للحجاج والسياح ، الذين يكونون شديدي التأثر بتكاثف الأبنية والمواقع التاريخية ، فوق أرخبيل عمراني مؤلف من سبعة تلال من صخر الطف البركاني ، التي تشرف من علو لا يتجاوز بضعة أمتار ، فوق سطح البرية الرومانية المنبسطة ، وتتحكم من قرب في المنخفضات التي يقوم فيها الفوروم وميدان مارس . غير أن هذه المدينة التي لم يكن لها ربض حقيقي أبداً ، تمتد اليوم لما وراء **سور الامبراطور أوريليان القديمة** ، أي فوق السهل الواقع إلى الجنوب من المدينة ، وعلى الهضاب الشمالية والشمالية الشرقية على ضفتي نهر التيبر .

المدن والمناطق
وحدة ومفارقات

نظراً لتأخر إيطاليا في تحقيق وحدتها السياسية ، فقد اتخذت لنفسها بُنى متمركزة ، وجعلت من روما عاصمة رمزية منذ عام ١٨٧٠ .

فهناك **وحدة لغوية** شبه شاملة ، لأن الإيطالية هي لهجة توسكانية قديمة ، ولكن اللغة الإيطالية تتجاوز الحدود إلى سويسرا ، لأنها هي السائدة في كانتون تيسّان Tessin ، هذا بينما يتكلم سكان إقليم ڤال داوست Val d'Aoste الفرنسية ، في الوقت الذي يتكلم سكان التيرول الجنوبي الألمانية . ولا يزال في قلب البلاد جيبان صغيرا الأبعاد هما جمهورية سان ماران[١] ، التي تعود إلى القرون الوسطى ، ومدينة الفاتيكان التي تؤلف كياناً رمزياً بعد اتفاقيات لاتران عام ١٩٢٩ ، التي تحد من سيادة البابوية الأرضية . هذا ويكون للجزيرتين الكبيرتين ، سردينية وصقلية ، أكثر من طابع خاص ، ولا سيما على الصعيد الاجتماعي ، مثل جماعة المافيا الرهيبة ، والناجمة عن بنى إقطاعية قديمة .

وقد كرّس الدستور الجمهوري لعام ١٨٤٨ ما يلي :

- **البنى الوحدوية** مع مستويات إدارية مختلفة وحياة سياسية : ٨٠٠٠ ناحية (كومّون) ، ٩٢ إقليم ، ٢٠ منطقة والسلطة المركزية .

---

(١) أو سان مارينو : جمهورية صغيرة ضمن شبه الجزيرة الإيطالية ، مساحتها ٦٤ كيلو متر مربع وسكانها ٤٠٠٠ نسمة ، وتقع إلى الشرق من فلورنسا قرب ساحل الأدرياتيكي ، عاصمتها سان ماران ٢٢٠٠ نسمة ، أرضها خصيبة ، يقال : انها تأسست في القرن الرابع عشر على يد سان مارينو ، وقد احتفظت دائماً باستقلالها . ويمارس السلطة التنفيذية فيها قائدين وصيّين يتم اختيارهما لمدة ٦ شهور ، بواسطة المجلس الكبير العام الذي يتم انتخابه مباشرة لمدة ٩ سنوات ، وقابل للتجديد بنسبة الثلث في كل ٣ أعوام .

ـ **الإقليمية** : فبين المناطق العشرين ، توجد خمس مناطق ذات كيان ذي استقلال ذاتي .

والحقيقة هناك القليل من الدول الأوروبية التي تحوي مثل إيطاليا من **مفارقات جوهرية إقليمية** .

فهناك مفارقات اقتصادية عظيمة بين الشمال والجنوب . فالجنوب يحتوي على الخصوص مجالات عمل زراعية ، في حين يضم الشمال لوحده ثلثي العمال الطليان من ذوي الأجور الصناعية ، وحتى لو صرفنا النظر عن عدد مجالات العمل ، فإن إنتاجية العمل ذاته تكون أشد قوة بكثير في الشمال مما هي في الجنوب . وهكذا تكون الزراعة عصرية جداً في الشمال ، كاستعمال الأسمدة **والميْكنة** ، في حين نرى في الجنوب مواكب العمال الزراعيين البؤساء ، مما يشكل دليلاً على نظام ريفي عتيق .

هذا ويتباين **مستوى المعيشة** لدى السكان بنسبة واحد إلى أربعة . فبعد المنطقة اللومباردية البيونتية حيث تمخض التصنيع عن رخاء عام ، نلاحظ أن الوضع يأخذ في التقهقر باتجاه البحر الآدرياتيكي ونحو وسط شبه الجزيرة والجنوب . ولا تزال إيطاليا الوسطى حاوية على مدن نشيطة وأرياف بهيجة ، توفر مصادر رزق عائلية على مستوى لائق . ولكن إلى الجنوب من روما تبدأ بالظهور مناطق يكون الفقر العام فيها هو القاعدة ، وتبلغ حدها الأقصى في بازيليكات (لوكانيا) ، أي عند بطن قدم الجزمة الإيطالية ، وفي مرتفعات كالابريا وفي غربي صقلية .

ويزيد من حدة هذه الاختلافات **الوضع الديموغرافي والبطالة** . ففي منطقة الميزّوجيورنو Mezzogiorno ، أي جنوب خط عرض روما تقريباً ، يكون النمو الديموغرافي هو الأكثر سرعة ، وهو طابع مميز للأقطار الناقصة النمو

وذات اقتصاد تغلب عليه الصفة الريفية ، وهذه المناطق هي التي تتعرض لأشد المصاعب . وفي الوقت الذي تتقهقر فيه البطالة كثيراً في الشمال ، لا يزال الجنوب يحتفظ بشكلين مألوفين من البطالة هما : البطالة الكلية التي تصيب أكثر من مليون نسمة ، والبطالة المقنعة ذات المشاهد العديدة ، مثل العمال الزراعيين الذين لا يعملون أكثر من ١٠٠ أو ١٥٠ يوماً في العام ، وصغار الفلاحين المحرومين من الأرض ، وصغار الحرفيين ، والباعة المتجولين في الأرياف ، أو في الشوارع من ذوي الكسب غير المنتظم ، وهكذا يكون الميزوجيورنو هو المجال الكبير للذين يتلقون العون الاجتماعي .

المشكلات الإقليمية :

لقد كان الكفاح ضد **الاختلافات الإقليمية** ، هو الاهتمام الأول لدى السلطات العامة الإيطالية ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا سيما العمل المستمر لفائدة **الميزوجيورنو** .

والواقع لقد كانت قوانين الإصلاح الزراعي لعام ١٩٥٠ ، تتخذ أبعاداً وتنوعات متوائمة بشكل خاص مع أوضاع الجنوب . ولكن جاء إنشاء صندوق الجنوب في عام ١٩٥٠ على الخصوص ، وهي مؤسسة ذات استقلال ذاتي قامت لمدة ١٠ سنوات ، ولكنه استقلال أصبح دائماً بصورة عملية ، ويستفيد من حصص في الميزانية الخمسية ، أقول : جاء ليضيف لتوظيفات الوزارات قوة تدخّل اقتصادي أصيل .

وقد استطاع هذا الصندوق أن يحصل على مصادر تمويل خارجية على شكل قروض من البنك الدولي ، ومن البنك الأوروبي للاستثمارات ، ولا سيما منح من اعتمادات عون التنمية الإقليمية ، التي تساعد المناطق الأخرى ، ضمن الجماعة الاقتصادية الأوروبية .

وقد اتجه **عمل** الصندوق في البداية نحو البرامج العقارية ، والتحديث الزراعي ، والبنى الأساسية في زمن كان الاهتمام فيه منصرفاً نحو ترجيح الكفاح ضد بطالة الريفيين ، والعزلة بالنسبة لبقية البلاد . وابتداءً من عام ١٩٥٧ انصرف الاهتمام نحو التصنيع ، ولا سيما إقامة وحدات كبيرة في بؤر التصنيع ، فأصبح لزاماً على هولدنغ الدولة أن يحقق ٤٠ بالمئة من استثماراته الجديدة في الجنوب . ففي تلك الفترة قامت مصانع مونتيكاتيني في برنديزي ، وشركة ايتالسيدر في تارنت ، وفيات في باري Bari ، وآلفاروميئو واوليڤتّي في نابولي ، وآنيك في جيلا Gela في جنوب صقلية . وقد أصبح التنظيم الإقليمي منذ عشرة أعوام أكثر اتساعاً ، فأصبحت السياحة تلعب دوراً أكثر أهمية ، وأصبح على الجنوب أن ينمو بصورة مستقلة أكثر من أن يحاول تقليد الشمال كي يلحق به .

وقد كانت **النتائج** مشجعة ، فقد أمكن استصلاح وريّ ٥٠٠,٠٠٠ هكتار في القطاعات المستصلحة بدعم الصندوق خلال ٢٠ سنة ، ولا سيا في سهول كاتان في صقلية ، وفي فلومندوزه في سردينيا ، وفي ڤولتورنو قرب نابولي ، وفي فورتوره قرب فوغجيا . وإذا حسبنا التقدم بالعملة الثابتة ، وجدنا أن قيمة الإنتاج الزراعي قد تضاعفت في الجنوب ، ولكن النجاحات كانت متفاوتة ، فقد كانت أكثر من ٧ ٪ في العام في السهول المستصلحة و ٢ ٪ في المناطق الأخرى .

وقد سمح قيام شبكة طاقيّة جديدة من غاز طبيعي وخطوط كهربائية ، فضلاً عن ٢٠٠٠ كيلو متر من الطرق الرئيسية والخطوط الحديدية ، والموانئ العصرية ، أقول : سمح للجنوب بتحقيق ١٧ بالمئة من الناتج الصناعي الإيطالي ، وكانت حصيلة التوظيف / التسريح في مجال الاستخدام إيجابية ، إذ زادت مجالات العمل بمقدار ٢٥٠,٠٠٠ بين ١٩٥١ و ١٩٧١ ، هذا على الرغم من أن الشركات الكبرى الصناعية لم تستطع أن تخلق مجالات **عمل** جديدة بسبب الأتمتة

automatisation المتقدمة ، مثلما لم تتمكن من إيجاد فئة صغار المقـاولين التي كانت تطمح إليها كثيراً . ولا تعمل كل هذه المصـانع التي أقيمت من أجل مرحلـة توسع اقتصادي بكامل طاقتها ، بحيث أصبح الاهتمام بعائديتها ، أو بجدواها الاقتصادية ثانوياً ، ولا تزال البطـالـة مستفحلـة . ترى مـا هو الوضع لو لم تستمر الهجرة التي نقلت نحو الشمال أو نحو الخارج مقدار ١,٨ مليون نسمة بين ١٩٥١ و ١٩٦٠ ومقـدار ٢,٣ مليون بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ ؟ وهكذا يظل وضع الجنوب هشّاً رغم كل الجهود ، وهذا على الخصوص في فترة المصاعب الاقتصـاديـة ، كما هو الحـال بعـد عـام ١٩٧٤ ولا سيما في مطلع الثمانينات .

كيف يمكن تفسير تأخر إقليم الميزّوجيورنو ؟

لا تفسّر العوامل الطبيعيـة كل شيء ، وإن كان من الصحيح القـول بـأن الجنـوب ظـل يحتفـظ بسهول مرزغيـة وخيمـة لأمـد طويل ، وبجبـال شـديـدة التخـديـد ، كما كانت المواصلات فيـه عسيرة ، ولا تقل موارد باطن الأرض فقراً عن موارد سطحها . ولكن للشمال أيضاً نطاقاته المعرضـة للفيضـان ، ومناطقه الوخيمة الوبيئة وتُربه الهزيلـة . هـذا كما لا يتوزع حـظ الجنوب التعيس في كل شبـه الجزيرة الممتـدة في البحر الأبيض المتـوسـط ، رغم وحـدتهـا الطبيعيـة التي لا جـدال فيهـا ، لا يتـوزع بشكل منسجم ، كما لا يتمتع الشمال في سائر مناطقه بنفس المستوى من الرخاء .

هذا مثلما لا يعود ذلك لعاهة موروثة ، ففي خلال العصور القديمة كانت صقليـة وسردينيـا من عنابر قمح القرطـاجيين ، ومن ثم الرومـان من بعـدهم ، وكانت كل من نـابولي وبـالرمو في مطلع القرن العشرين ، أكثر أهمية وازدهاراً من روما وميلانو .

ويلعب ثقل البنى الزراعيـة دوراً كبيراً ، فقـد عملت القرون العشرون التي سبقت من التـاريخ على جعل الجنوب بلاد الملكيات الواسعة . فمنذ العصور القديمة الرومانيـة ، كان تملّـك الأراضي العـامـة من قبل أعضـاء مجلس الشيوخ ، قـد أوجـد بيـة الأملاك العقـاريـة الواسعـة المستغلـة بصـورة واسعـة etensive . وقد عمل النظام الإقطاعي في فترة الحكم النورماندي والنظام "روتيني الإسبـاني على توطيـد هذه الأوضاع . وجاءت أوائل محاولات الإصلاح الزراعي لتؤدي إلى استفحال الوضع ، وذلك بالقضـاء على حقوق الاستغلال . وجاء إلغاء أملاك رجال الكنيسة ، ليزيد من ثراء بعض أغنياء أبنـاء المـدن أو بعض المضاربين العقاريين اليقظين . أما في المناطق التي كانت الملكية الواسعة لا تسيطر لوحدها ، فإن

الملكيات الفلاّحية المتفتتة بفعل تقسيم الإرث قد أصبحت من الصغر بحيث لا تؤمن معيشة أسرة عديدة بشكل لائق . ويستثنى من ذلك منطقة كامپانيا حول نابولي ، حيث كانت الملكيات الصغرى مستغلة بصورة حثيثة .

وجاءت أسرة الساڤوا الملكية ، التي ألغت الجمارك الداخلية وجعلت من إيطاليا دولة متمركزة على النمط الفرنسي ، لتعمل من حيث لا تدري على اختلال التوازن الإقليمي . وهكذا انطلق الشمال الذي كان في أوج التحويل الاقتصادي ، والذي تميز ببورجوازية نشيطة وجيدة التسليح برؤوس الأموال ، انطلق لفتح الجنوب ولتوسيع أسواقه مستفيداً من حماية جمركية قوية (تعريفة ١٨٨٧) ، والتي كانت تعارض بالمقابل تصريف محاصيل الجنوب الزراعية في الأقطار الأوروبية الأخرى .

وأخيراً لم يكن التاريخ الحديث موائماً أبداً لإقليم الميزّوجيورنو ، فعلى الرغم من بعض الإنجازات الكبرى والتي لم تكن ذات تأثير كبير على الصعيد الاجتماعي ، فإن الحكومة الفاشيستية لم تعمل الكثير لتحسين مصير الجنوب بصورة جذرية . وقد كان البؤس الذي يطرد الرجال دافعاً طيباً للمرشحين لاستعمار أفريقية ، والذي كان يدعو إليه نظام الحكم القائم . وكانت الحرب العالمية الثانية شديدة الضرر على الجنوب . يا لها من بقعة تتلقى شتى ضروب المصائب بما في ذلك المافيا التي تزدهر على حساب بؤس وترويع الصقلّيين ! .

حياة الاتصالات

وسائل المواصلات والتجارة الخارجية

تمنح **الشرائط ، التي يفرضها التضريس والمناخ** على وسائل المواصلات الإيطالية ، مشاهد ذات أصالة .

فهذه البلاد لا تملك طرقاً مائية صالحة للملاحة باستثناء سهل الپو ، ويبلغ طول الشبكة المائية ٢٠٠٠ كيلومتر من المقياس الصغير ، ولا تنقل أكثر من ثلاثة ملايين طن . ويكون بناء الخطوط الحديدية مرتفع الكلفة ، لكثرة الأشغال الفنية من أنفاق وجسور ، وهذا ما يحد من استغلال الخطوط الحديدية ذات المحاور العريضة . وقد كان نمو الشبكة الحديدية متأخراً ، فزاد طولها من ٢٠٠٠

كيلومتر عند تحقيق الوحدة الإيطالية إلى ٢٠,٠٠٠ كيلومتر حالياً . وتستغل الدولة مباشرة أربعة أخماس هذه الخطوط . وإذا استثنينا بعض الخطوط الكبرى التي جرى تصحيح مسارها ، فإن التحديث ينال أسلوب الجر على الخصوص ، ذلك لأن ثلاثة أرباع النقل يتم فوق خطوط مكهربة .

وهكذا يكون **الطريق البري** إذن أكثر وسائل النقل الداخلي شمولاً . فقد أضيفت إلى الطرق القومية ، منذ افتتاح وصلة ميلانو ڤاريزه ، مجموعة من طرق سيارات عريضة امتدت على ٥٠٠٠ كيلومتر ولاسيا باتجاه الجنوب . وهناك منظمة عامة هي آناس A.N.A.S ، التي تقوم ببناء محاور الطرق العريضة المجانية في منطقة الميزّوجيورنو ، في حين تقوم شركات حكومية بمد طرق دولية « أوتوستراد » أو شركات خاصة تتقاضى عليها رسم المرور .

وتترابط الخطوط الحديدية وطرق السيارات العريضة بالشبكات الأوروبية ، بواسطة إنجازات هندسية رائعة هي **الممرات الألبية** . وفي سبيل تيسير مرور القطارات ، تمّ في البداية فتح المحاور الكبرى نحو فرنسا ، انطلاقاً من تورينو وميلانو (نفق جنيس) ، أو نحو سويسرا وألمانيا من خلال ممر سمبلون وسان غوتار . ولقد استدعى اتساع واستمرار النقل البري بالشاحنات بعد الحرب العالمية الثانية فتح ممرات خاصة بها ، مثل ممر مونبلان وممر سانبرنار الكبير . وتكون الطرق المتجهة غرباً هي الأكثر حركة . وكذلك يعتبر ممر البرينّر الطريق المباشر من ألمانيا إلى إيطاليا عبر التيرول النمساوي ، وهو عبارة عن شارع عريض للسيارات وللخطوط الحديدية . وهناك أنابيب تجتاز الجبل لتوزّع النفط المفرّغ في الموانئ الإيطالية ، وهكذا تنقل الأنابيب العابرة لجبال الألب T.A.L مقدار ٣٥ مليون طن من الوقود السائل من تريستا إلى ألمانيا .

وتجعل **سياء البلاد الجغرافية** من الضرورة بمكان الاعتماد على المواصلات الجوية الداخلية بين الشمال والجنوب ، كما أن اتساع انتشار خط الساحل يهيئ

البلاد **لحياة بحرية** . وهكذا تملك إيطاليا أسطولاً تجارياً تزيد حمولته عن عشرة ملايين طن حمولة خام tjb ، وحسن التجهيز بناقلات النفط والغاز الحديثة ، والتي تخص مجموعة فينماره Finmere المدولنة étatique أو تتبع شركات خاصة . وهناك العديد من الموانئ الإيطالية ، غير أن عشرة منها ، تستأثر بمعظم الحركة البحرية نذكر منها جنوا وتريستا وأوغوستا ، والتي تقوم فيما بينها مواصلات بحرية ساحلية هامة . وتسمح الاتصالات فيما بين الجزر ، والاتصالات مع اليونان وتونس ، أو الاتجاهات الأخرى الأكثر بعداً ، والتي يقصدها السياح أو المهاجرون ، أقول تسمح بقيام مجال فسيح لسفن الركاب أو البواخر المختلطة .

أما في مجال **التجارة الخارجية** ، فإن إيطاليا تبيع على الخصوص منتجات صناعاتها الميكانيكية والنسيجية فضلاً عن السلع الغذائية من باكوريات وخمور وفواكه . أما في مجال الاستيراد فتكون المواد الأولية الضرورية للحياة الصناعية هي الغالبة ، مثل النفط وخامات **المعادن** وخردة الحديد Ferrailles والألياف النسيجية ، ولكنها تترك مع ذلك مجالاً واسعاً للمنتجات الغذائية أو المصنوعة . وتتعامل بصورة رئيسية مع بلاد السوق المشتركة على الصعيد التجاري . وبينما تترك المبادلات مع بلاد الجماعة الاقتصادية الأوروبية رصيداً إيجابياً ، نجد أن نسبة التغطية مع الأقطار المصدّرة للنفط لا تتجاوز ٦٤ بالمئة . ويكاد يكون **الميزان التجاري خاسراً باستمرار** ، ولكن يبدو أن العجز مستقر على حجم ثابت .

إحصائيات النقل والتجارة ١٩٧٨	**و ١٩٨١**
الأسطول ١١,٥ مليون طن حمولة خام	١٠,٦ مليون طنة حمولة خام
الاستيراد بمليارات الليرات ٤٧٨٣٦	١٠٣٦٧٥ مليار ليرة
التصدير بمليارات الليرات ٤٧٤٨٨	٨٨٠٧١ مليار ليرة

نسبة التجارة الخارجية إلى الناتج القومي الخام ٢٣,٤ ٪

السياحة وميزان المدفوعات

تتمتع إيطاليا **بجاذبية سياحية كبيرة** ، كعذوبة المناخ وطول مدة التشمس ، وروعة جمال المشاهد الساحلية أو الجبلية ، ولا سيا المحمية منها في أربعة منتزهات قومية ، وذكريات لا تحصى من التاريخ ، والأوابد ، ومرح الطبع الإيطالي ، والثروة الحرفية ، وجودة وتنوع مطاعمها . وقد بذل الطليان كل جهد ممكن ، وتفننوا في استغلال هذه الهبات الطبيعية والفنية . وظهرت مؤسسات خاصة في البداية ، مثل نادي السياحة الإيطالي منذ عام ١٨٩٤ ، ونادي السيارات الإيطالي في ١٨٩٨ ، والتي تشرف عليها مؤسسات الدولة مثل اينيت E.N.I.T وفروعها الإقليمية . هذا كما لجأت الحكومة إلى دعم ازدهار بنى الاستقبال بالتجهيزات والتمويل ، وهكذا تحوي إيطاليا ٤٠,٠٠٠ فندق ، فضلاً عن الموتيلات على طول المحاور الكبرى للطرق ، هذا عدا عن السلاسل الفندقية .

وتكون **الثروات السياحية الإيطالية** متنوعة ، وتجد تحت تصرفها إمكانات استقبال في كل الفصول .

ـ ففي محطات جبال الألب ، وبالدرجة الثانية محطات جبال الأپينين ، فصل رياضة شتوية غاية في النشاط ، كما في سستريار Sestrières ، وفي كورمايور ، وكويتنا دامپيزّو ، وفصل صيف تختلط خلاله جماهير الطليان المصطافين مع السفّار الأجانب المشتركين في رحلات جماعية ، عند انطلاقهم من بولزانو وميرانو باتجاه جبال دولوميت .

ـ وتضم السياحة الساحلية فصلاً ثانوياً شتوياً في الريڤييرا الليغورية ، وإلى الجنوب من ناپولي ، وفي تارومين أو في البندقية ، وفصلاً صيفياً رئيسياً حيث تتخذ بلاجات توسكانيا الفسيحة viareggio ، أو على سواحل الآدرياتيكي

(ريميني) كل فتنتهـا وسحرهـا ، وكـذلـك الحـال على ضفـاف البحيرات اللومباردية .

ـ محطات الحمامات المعدنية والاستشفاء ، والتي تتخذ أحياناً شهرة دولية مثل (آبانو ، سالسوماجيوره ، ومونتكانتيني) .

ـ هذا وتؤلف المدن الفنيّة أخيراً ، إلى جانب المعابد القديمة والكنائس والقصور والمتاحف الحديثة ، مجموعة أثرية قلما تفتقر منطقة إيطالية إليها .

وكانت إيطاليا تستقبل قبل ١٩٣٩ سنوياً حوالي ٣ ملايين **زائر أجنبي** ، ولكن هذا الرقم أصبح يتجاوز الآن ٤٠ مليوناً . وإذا استثنينا أولئك الذين تقل مدة إقامتهم عن ٢٤ ساعة ، أي أتباع الرحلات ، والطليان المقيمين في الخارج ، والذين يأتون لقضاء العطلة مع أسرهم ، فيبقى هناك حوالي ٢٧,٥ مليون سائح يقيم لفترة ما ، كما لوحظ ذلك في عام ١٩٧٧ . ويأتي هؤلاء غالباً بواسطة السيارة ، وتبلغ نسبتهم ٧٣ ٪ في حين تقل نسبة الذين يأتون بالباخرة يوماً بعد يوم ، ويؤلفون ١,٢ ٪ والطائرة ١٠,٣ ٪ . ولكن القطار يتفوق بنسبة تبلغ ١٥,٥ ٪ . ويأتي الألمان في المقدمة من حيث العدد ، فبلغ عددهم في السنة المذكورة ٧,٥ ملايين ، مثلما يتفوقون من حيث عدد ليالي المبيت ، ويليهم الفرنسيون والسويسريون الذين يقارب عددهم ٦ ملايين ، ويأتي بعدهم النمساويون ٣,٧ ملايين ، وسكان البينيلوكس ٣,٢ ملايين والبريطانيون ١,٧ مليون . وعلى الرغم من بعد الشقة على الأمريكيين ، فإن عددهم يصل إلى ٢,٣ مليون من الذين يمكثون في إيطاليا ، من خلال تجوالهم في أوروبا ، مدة ٣ أيام وسطياً .

وتأتي إيطاليا في **الدرجة الأولى بين الأقطار الأوروبية من حيث العائدات السياحية** ، التي بلغت في ١٩٧٧ مقدار ٤٧٦٢ مليون دولار مقابل

٤٣٧٧ مليون في فرنسا . ويعتبر فائض مداخيل السياحة البالغ ٣٨٦٨ مليون دولار في العام المذكور ، وسيلة جوهرية لتوازن ميزان المدفوعات في البلاد . أما في السنوات العجاف ، كما بين ١٩٧٤ و ١٩٧٦ ، فقد ساعد هذا الفائض مع مدخرات العمال الطليان العاملين في الخارج على تلافي شطر من العجز . كما ساعد منذ عام ١٩٧٧ بالإضافة للعون المالي الأجنبي على تثبيت وضع اللير الإيطالي بفضل تدفق العملة الصعبة .

البندقية : وهي بلا ريب أكثر المدن الإيطالية الكبرى إثارة للعجب ، ولكنها أكثرها عرضة للتهديد في الوقت ذاته . فهي تتميز بنشأتها ذاتها . فعلى أثر زحوف البرابرة ، التي عملت على سقوط الامبراطورية الرومانية ، وجدت الأقوام الڤينيتية ، ومنهم اشتق اسم ڤينيسيا ، أي البندقية ، ملجأ لها في الجزيرات التي تتناثر تجاه ساحل البحر الآدرياتيكي ذي اللاغونات lagunes . وكان أحد أكثر هذه النويّات أهمية هو أرخبيل ريالتو ، الذي حكمه في عام ٦٥٧ حاكم أو dux وهو جد الدوج . وفي ٨٢٨ سرق البنادقة بقايا جثمان القديس مرقص من الإسكندرية[1] ، ومن ثم أصبحت البندقية دولة عظمى بحرية في البحر الأبيض المتوسط ، وفي كل عام ، خلال الفترة الواقعة بين ١١٧٣ وحتى ١٧٩٧ ، كان يجري مهرجان كونّوبيو ، عند حلول عيد الصعود ، فيصعد الدوج متن طراد حربي اسمه بوسنتور Bucentaure ويرمي بخاتمه في البحر ، وهو رمز زواج مدينة البندقية مع الماء .

ولقد أغنى هذا التاريخ الطويل مدينة البندقية بروائع فنية ، وبالكنائس وبالقصور وبالمتاحف وبالعمارات شأن أقل منزل فيها ، والتي قامت فوق غابة من الأعمدة الخشبية المغروسة في الوحول . وتتلاحم ١١٧ جزيرة بواسطة ٤٠٠ قنطرة التي تتخلّلها القنوات ، إذ يتم كل انتقال من مكان لآخر بواسطة المراكب ذات المحرك ، وحتى جمع القمامة ، ونقل المرضى والموتى ، وكذلك تكون حركة تدخل رجال الشرطة والإطفاء بواسطة مركب الجندول . ويظل أهم طريق في المدينة هو الطريق المائي المسمى القناة الكبرى . غير أن هذا الموقع الجزيري يعتبر اليوم مصدر قلق ، فالمياه تتلوث بسرعة أكبر من سرعة تجددها ، مثلما فسد جو المدينة بسبب الدخان المتصاعد من المعامل الواقعة في الربض القاري في حي مسترو وپورتومرغيرا . ويؤلف انكباس subsidence القيعان البحرية تهديداً خطيراً للمدينة ، لأن ساحة القديس مرقص تتعرض أحياناً في حالة المد الأعظم إلى التغريق ، أي أن العنصر الذي يؤلف سحر البندقية قد يكون سبب فنائها .

---

(١) انظر وصف أفريقية تأليف الحسن الوزان « ليون الأفريقي » ، الذي صدر في الرياض في عام ١٩٧٩ وترجمه عبد الرحمن حميده .

فرنسا

جمهورية أوروبية تمتد على مساحة ٥٥١٠٠٠ كيلو متر مربع بما في ذلك البحيرات التي تشغل رقعة ٧٠٠٠ كيلو متر مربع ، يسكنها ٥٣,٢ مليون نسمة في ١٩٧٧ ، بعد أن كانوا ٤٦ مليون في ١٩٦٣ و ٤٢ مليون في ١٩٣٦ .

الموقع :

بما أنها تؤلف إحدى دول أوروبا الغربية ، فهي تقع بين درجة العرض ٤٢,٢ درجة و ٥١,٠٥ درجة شمالاً ، وتتخذ شكل سداسي الأضلاع ، ثلاثة أضلاع بحرية ، وثلاثة قارية ، بحيث لا تتعدى أية نقطة فيها مسافة ٥٠٠ كم عن البحر . وتطيف مياه بحر المانش ، وبحر الشمال ، والمحيط الأطلنطي والبحر الأبيض المتوسط بسواحل تمتد على ٣٢٠٠ كم ، كما تمتد حدودها البرية ، التي تلامس بلجيكا ولوكسمبورغ وألمانيا من الشمال الشرقي ، وألمانيا وسويسرا وإيطاليا من الشرق ، وإسبانيا من الجنوب الغربي على مسافة ٢١٠٠ كم . فهي دولة قارية وبحرية ، أطلنطية ومتوسطية « رومية »[1] في آن واحد .

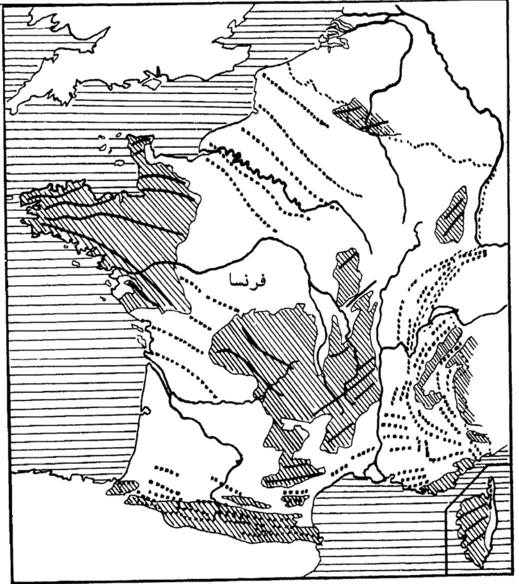
كما تقع على مسافة واحدة بين القطب وخط الاستواء ، لأن خط العرض ٤٥ يمر من بوردو ومن ڤالنس ، أي تقع في قلب النطاق المعتدل ، مثلما تحتل من جهة أخرى أكثر البرازخ الأوروبية ضيقاً التي تفصل بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلنطي . وبفضل هذا الموقع الفريد ، فقد كانت خلال التاريخ طريق مرور في السلم وفي الحرب ، ومكان التقاء مدنيات قادمة من البحر الأبيض المتوسط ومن الشمال .

---

(١) أي على بحر الروم وهو اسم البحر الأبيض المتوسط عند الجغرافيين العرب .

تشكل الأرض :

لقد تمخض الالتواء الهرسيني في نهايـة الحقب الأول ، عن ظهور كتل جبليـة فوق الموقع الحـالي لفرنسـا ، والتي كانت حتى ذلـك العصر مغمورة بميـاه البحـار ، كتل كانت طياتها متجهـة في الغرب من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي ، ومن



الشكل ١ ——— التواءات من الدور الأول (هرسينية)

.... التواءات أو تموجات من الدور الثالث (ألبية)

الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي في الشرق ، أي كانت تتخذ شكل رقم ٧ ضخم . وقد هاجم الحت erosion هذه السلاسل ، بعد أن ظهرت للوجود وحوّلها مع الزمن إلى شبه سهل . أما في الحقب الثاني ، فقد دخل البحر في منخفضات هذه السلسلة ولم يترك منها سوى أجزاء منعزلة ، هي الكتلة المركزية « الماسّيف سنترال » ، والكتلة الآرموريكية في شبه جزيرة بريتانيا ، والآردين قرب حدود بلجيكا ، وجبال الفوج ، والتيرينيد في أقصى الجنوب الشرقي ، وتشكلت حوضات كبيرة تكدست فيها طبقات رسوبية سميكة . واستمر الترسب خلال الحقب الثالث ، ومن ثم وعلى أثر تقهقر البحر ، عامت هذه الأحواض ، التي تؤلف الحوض الباريسي والحوض الأكيتاني ، والفلاندر . وقد عمل الالتواء الألبي في نهاية الحقب الثالث على انبثاق سلسلة جبال البيرينيه وسلسلة جبال الألب من أحد هذه الأحواض ، وهو مقعر حوض البحر الأبيض المتوسط ، الذي كان أحد أجزاء بحر التيتيس . وكان رد فعل الالتواء أن نهضت الكتلة المركزية وهضبة الآردين ، كما انفصلت جبال الفوج عن الغابة السوداء بانهدام وادي الراين . أما التيرينيد فقد انهار وخلف كتلة جبال المور ، أي « جبال المسلمين المغاربة » في جنوب شرق فرنسا ، وجبال ايسترل ، وجزيرة كورسيكا ، وتشكل ممر نهر الرون والساؤون . أما في الحقب الرابع فقد استقرت الجموديات في جبال الألب والبيرينيه والماسيف سنترال والفوج ، حيث عملت على تكييف التضاريس .

التضريس :

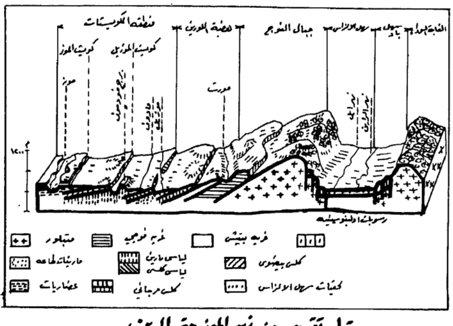
تضم فرنسا تضاريس شديدة التنوع ، ففيها الجبال والتلال والهضاب والسهول إلخ ... ولكن ارتفاعها المتوسط يظل ضعيفاً لا يتجاوز ٤٣٢ متراً ونستطيع أن نميز فيها ما يلي :

أولاً : الكتل القديمة : وهي عبارة عن أجزاء من السلسلة الهرسينية



(شكل ٢) . وتتخـذ الكتلـة الآرموريكيـة شكل مثلث ، ترتكـز قـاعـدتـه على الحوض الباريسي ، ويتجه رأسه نحو المحيط . وقد تحولت إلى حـالـة شبـه سهل ، فلا تحوي بالتالي سوى مرتفعات متواضعـة في ارتفـاعهـا مثل جبـال آرّيـه Arrée والجبـل الأسـود ، ولانـد مينيـه Méné ، والتي تطيف بمنخفضـات مثـل حـوض شـاتـولان وحـوض رين Rennes . أمـا المـاسّيف سنترال فتتـألف في الغرب من هضـاب مثل جبل ليموزان ، كومبراي ، مـارش ، ليـوزان الأدنى ، والتي تخترقهـا أوديـة عميقـة . ونجـد في الـوسـط وفي الشرق جبـالاً ضئيلـة الارتفـاع ، مثـل مـورڤـان ، شـاروليـه ، بـوجـوليـه ، ليـونّيـه وڤيڤـاريـه على الحـافـة الشرقيـة ، ومرتفعات فوريز ، ڤيليه ، مارجريد ، جيڤودان ، وجبـال اوڤيرنيـه البركانيـة ،

إلى جانب أحواض مثل ليمانيه ، بوي ، فوريز ، وروان ، التي تفصل بين هذه الكتل . وإلى الجنوب نجد هضاباً كلسية مرتفعة تدعى « القوص » تفصل ما بين كتل سيڤين وهضاب رويرغ المؤلفة من صخور متبلورة ، وسيغالا ، ولاكون ، واسپينوز والجبل الأسود . أما جبال الڤوچ في الشرق ، فتتميز بأشكالها الثقيلة والمدورة ، وبسفوحها غير المتناظرة حيث تكون الشرقية شديدة الانحدار . وتنقسم إلى جبال ڤوچ عليا متبلورة في الجنوب وفي الشرق (شكل ٣) ، وإلى جبال ڤوچ سفلى ، ذات صخور رملية في الشمال وفي الغرب . أما الآردين فهي هضبة قليلة الارتفاع ، تخترقها أودية ضيقة ومتعرّجة . أما جبال المور وإيسترل فهي من بقايا كتلة التيرينيد التي غاصت تحت مياه البحر الأبيض المتوسط .



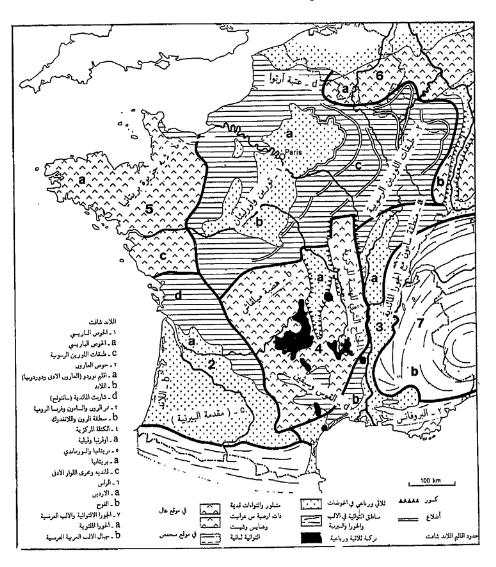
مقطع تقريبي من نهر الموز حتى الرين

الشكل ٣

ثانياً : الكتل الشابة : وهي بقية الالتواء الألبي ، والجبال البيرينيه تضريس مثلّم ، وتتألف من زمرة من أرتال جبلية تتجه من شرق الجنوب الشرقي

نحو غرب الجنوب الغربي . وتبلغ ارتفاع ٣٢٩٨ م في قمة ڤينيومال ، وتتقدمها سلسلة طلائعية بيرينية تتألف من البيرينيه الصغرى ، وبلانتوريل وكوربيير (شكل ٤) .

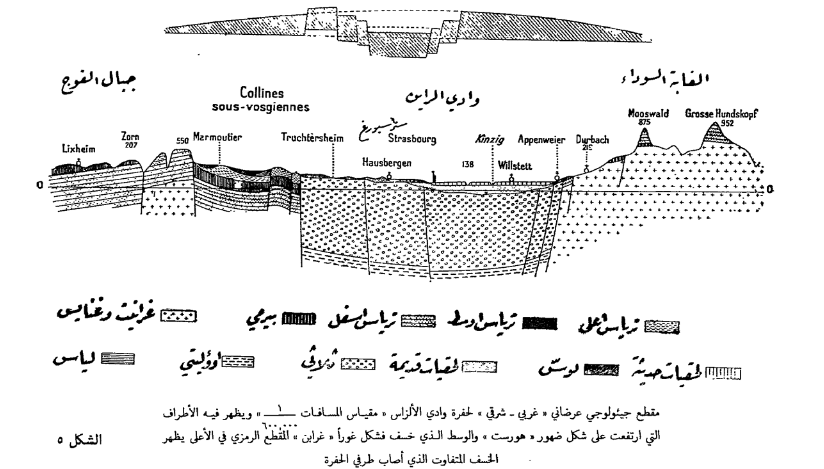
لاند شافت فرنسا



أما جبال الألب ، فتؤلف أكثر مناطق فرنسا ارتفاعاً . ويكون التضريس جريئاً رشيقاً بارزاً ، كما يكون وضع ارتصافها منتظماً . ونميز جبال الألب الشمالية الواضحة التجزئة ، وهي مقدمة الألب « البريئالب » والأخدود الألبي والكتل المركزية ونطاق ما بين الألب . أما جبال الألب الجنوبية فتكون ذات تضريس أكثر غموضاً . أما جبال الجورا فتضم قسماً التوائياً وأكثر ارتفاعاً ، يدعى الجبل في الشرق والهضبة في الغرب .

ثالثاً : وتحتل السهول والهضاب أكثر من نصف مساحة فرنسا ، ويمتد الحوض الباريسي بين بقايا السلسلة الهرسينية ، ويشكل حوضاً واسعاً تكون طبقات الصخور الرسوبية فيه مرتفعة على شكل هالات متوحدة المركز . ويميز فيه من الشرق تضريس أضلاع « كويستا » ، مثل أضلاع اللورين وأضلاع إيل دوفرانس وسهول ، مثل سهل شمپانيا ، مثلما يتألف الشمال من هضاب مثل بيكارديا ونورماندیا . أما من الجنوب فيظهر تأثير الماسيف سنترال ، كما في بلاد اللوار ، ويتميز إقليم الوسط بسهوله الواسعة مثل سهل بري ، وسهل بوس Beauce ، وبتلاله وبأوديته . هذا ويميل حوض أكيتانيا باتجاه المحيط الأطلنطي ، وهو منطقة تلال تتصل مع الحوض الباريسي بواسطة عتبة پواتو . ويضم هضاباً في الشمال **وبقايا** پيرينيه في الجنوب وميزاباً أوسط . ويجب أن نضيف إلى السهول منطقة الألزاس ، وهي حفرة انهدامية (شكل ٥) بين جبال الڤوج وبين الغابة السوداء في ألمانيا ، وسهول الساؤون ، والرون ، وسهل الشمال ، وسهول الجنوب المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

السواحل : وتحوي أكثر النماذج تنوعاً . فيكون الساحل على بحر الشمال منخفضاً ، منبسطاً ومحفوفاً بكثبان . أما على بحر المانش ، فتسود الجروف الساحلية الحوارية حتى نهر السين . ثم يصبح الساحل أكثر تنوعاً بين بلادكو



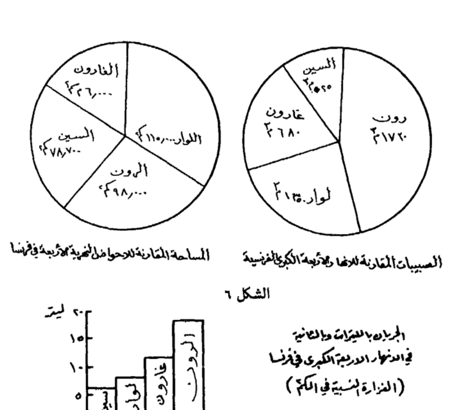
مقطع جيئولوجي عرضاني « غربي - شرقي » لحفرة وادي الألزاس « مقياس المسافات $\frac{١}{٦٠٠٠٠٠}$ » ويظهر فيه الأطراف التي ارتفعت على شكل ضهور « هورست » والوسط الذي خسف فشكل غوراً « غرابن » المقطع الرمزي في الأعلى يظهر الخسف المتفاوت الذي أصاب طرفي الحفرة

الشكل ٥

« عن ڤان ڤيرڤيك »

Caux وشبه جزيرة كوتنتان . أما بين كوتنتان ونهاية فينيستير فيتميز الساحل بكثرة التسنّنات ، وبتعدد الرؤوس والخلجان والجزر . ويكون الساحل على المحيط الأطلنطي شديد التقطع حتى نهر اللوار ، ثم يصبح منبسطاً ومحفوفاً بالكثبان في إقليم ڤانديه Vendée ، ثم يتحول إلى سهل منخفض ، ورملي حتى مصب نهر الآدور ، حيث يعود صخرياً . ويكون الساحل البيريني على البحر الأبيض المتوسط متقطعاً ، ثم يكون ساحل الروسيّون واللانغدوك منخفضاً ومحفوفاً باللاغونات . ويتصف ساحل البروڤانس بشدة التضرّس ومسنّناً بجونات عميقة . ويكون ساحل كورسيكا الغربي مرتفعاً ومتقطعاً ، بينما يكون الساحل الشرقي منخفضاً رملياً .

الشبكة الهيدروغرافية : وهنا أيضاً يسود تنوع كبير ، بدءاً من النهر الهادئ المنتظم حتى السيل الهدار على ساحل البحر الأبيض المتوسط . وتنحدر الأنهار من جبال البيرينيه ومن الألب ومن الڤوج ومن هضبة لانغر ومن الماسيف سنترال ، ومن مرتفعات فرنسا الغربية لتتلاقى في الحوض الباريسي ، وفي الحوض الأكيتاني ، وفي الأجزاء المنخفضة في الغرب . وأنهار فرنسا الرئيسية هي : **نهر السين** وهو طريق مائي كبير صالح للملاحة ذو نظام منتظم ويصل صبيبه المتوسط إلى ٥٢٠ م٣ / ثا . أما نهر **اللوار** فهو أطول أنهار فرنسا وأقلها انتظاماً ، ويصلح للملاحة في مجراه الأدنى ، ويكون مصحوباً بقناة في مجراه الأعلى ، ويصل صبيبه المتوسط السنوي إلى ١٣٥٠ م٣ / ثا . ويكون **نهر الغارون** عبارة عن سيل بيريني ، ثم يصبح نهر سهل أكيتانيا ، ويتخذ اسم الجيروند بعد مقرنه مع نهر دوردوني ، وهو صالح للملاحة في القسم الذي تصعد فيه موجة المد ، وهو أغزر أنهار فرنسا ، لأن صبيبه يصل إلى ٧٠٠ م٣ / ثا ، أي يقارب صبيب نهر الفرات في سورية . وينتهي نهر **الرون** على شكل دلتا ، والملاحة عليه عسيرة ويصل صبيبه إلى ١٧٢٠ م٣ / ثا أي يعادل ثلاثة أرباع صبيب نهر النيل تقريباً ،

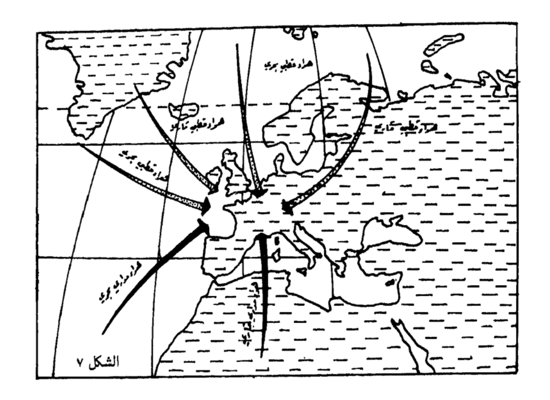


الشكل ٦

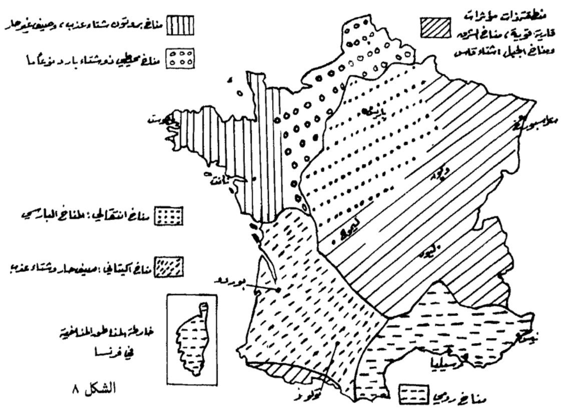
ولكن نهر **الراين** يشكل حدود فرنسا على مسافة ١٨١ كم ، ويشكل طريقاً ملاحياً ممتازاً ، وصبيبه الوسطي ٢٢٠٠ م٣ / ثا ، أي يزيد عن نهر الرون (شكل ٦) .

المناخ : تتمتع فرنسا بمناخ معتدل ، تدين به لموقعها على درجات العرض ، أي على مسافة متعادلة بين خط الاستواء والقطب الشمالي (شكل ٧) ، ولتأثير البحار التي تخفف درجات الحرارة المتطرفة ، ولوضع وتوجّه تضاريسها التي تسمح للرياح الغربية أن تمارس تأثيرها بعمق في داخل البلاد .

ويميز في فرنسا المناخ **البريتاني** ، المحيطي ، الرطب ، والعذب (شكل ٨) ، ونموذجه مدينة برست (شكل ٩) ، التي يكون متوسط حرارتها في كانون الثاني (يناير) ٧ درجات ، أي تعادل مدينة حلب في الشهر ذاته ، مع أنها واقعة على عرض يقل عن عرض مدينة برست بحوالي ١٢ درجة عرض ،



الشكل ٧



الشكل ٨

ومتوسط الصيف ١٧ درجـة . وتصل أمطـارهـا إلى ١١٥٠ مم ، ويبلغ عـدد أيـام المطر ١٥٠ يوماً في العام مقابل ٣٧٥ مم في حلب موزعة على ٤٥ يوماً .

وهناك المنـاخ **الأكيتـاني** المتميز بشتـائـه اللطيف وبصيفـه الحـار العـاصفي الكثير الآمطار ، والمناخ **الباريسي** المعتدل البرودة والرطب خلال الشتاء والحار نوعـاً مـا في الصيف (شكل ١٠) . ومنـاخ **الأوڤيرنيـه** ، وهـو قـاس ورطب ، كثير الضباب . والمناخ القاري وشتاؤه قاس وثلجي ، وصيفه حار وجـاف ، ففي ستراسبورغ يكون متوسط كانون الثـاني ـ ٢ ، ومتوسـط تموز ٢٠ درجـة ، ويصل عـدد أيـام الانجماد إلى ٩٥ يومـاً ، ويتسـاقـط الثلج مـدة ٢٠ يومـاً ، ويبلغ مجمـل التهطال السنوي ٦٢٠ ملم (شكل ١١) . هـذا ويكون **المنـاخ الرومي** ذا صيف حار جاف ، وشتاء عذب رغم هبوب الرياح العنيفة والباردة ، مثلمـا يتميز بفروق الحرارة . ففي مدينة ايكس آنبروڤانس أو مرسيليا يكون متوسط كانون الثـاني ٦ درجـات ويصـل إلى ٢٣ في تمـوز ، وتكـون الأمطـار فجـائيـة عنيفـة في الخريف والربيع ، ومجموع المطر ٥٥٠ مم ، ويصل عدد ساعات التشمس إلى ٢٥٠٠ وربما إلى ٣٢٠٠ ساعة (شكل ١٢) . وهناك أخيراً **المنـاخ الألبي** المتصف بقسـاوتـه وكثرة ثلوجه في الشتاء ، مع اختلافات شديدة في الحرارة بين الليل والنهار .

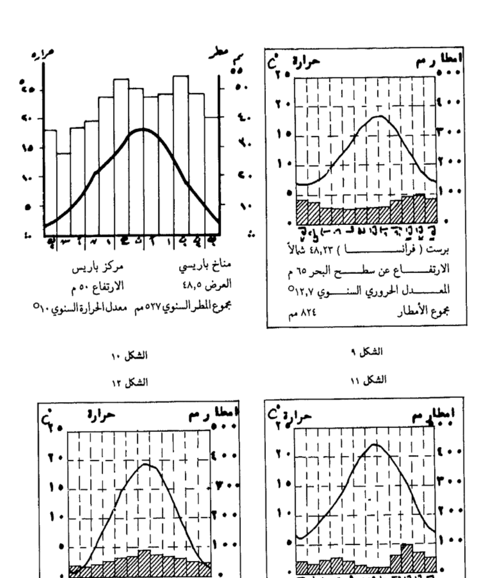
السكان :

بلغ عدد سكان الجمهورية الفرنسية ٥٤,٤ مليون عام ١٩٨٣ ، بعـد أن كان ٤٦ مليون عام ١٩٦٠ و ٤١,٩ مليون في عام ١٩٣٦ . وأصبحت الكثافة العامة ٩٩ نسمة في الكيلـومتر المربـع مقـابـل ٨١ نسمـة ١٩٦٠ . ويتصف الشعب الفرنسي بضعف التوالد لأن هذه النسبة تبلغ ١٤ بالألف والوفيات ١٠ بـالألف ، أي أن نسبـة النمو تبلـغ ٠,٤٪ في العـام ، أي يحتـاج الفرنسيـون إلى ١٥٠ سنـة كي يتضـاعف عـدد السكان ، في حين يكتفي العرب بمدة ربع قرن فقط كي يتضاعف عـددهم ، وتبلغ نسبة وفيات الأطفال ١٣ بـالألف مقـابل ١٤٠ في الجزائر . ويصل العمر المتوسـط

إلى ٧٣ سنة مقابل ٥٧ سنة في سورية . أما نسبة الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة فتكون ٢٤٪ مقابل ٤٨٪ في الجزائر ويؤلف الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٦٤ سنة ٦٢٪ مقابل ٤٩٪ في سورية ، ويشكل الذين تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة ١٤٪ مقابل ٣٪ في الجزائر . وأكثر المناطق سكاناً هي المنطقة الباريسية ، والمراكز الصناعية في اللورين والماسيف سنترال ، والسهول الزراعية في الشمال وفي الإلزاس ، وعلى سواحل بريتانيا ، والبروڤانس جنوباً ، وأودية الأنهار الكبرى ، ومناطق الزراعة المتخصصة مثل اللانغدوك وكونتا الخ . . وفي مقابل ذلك تكون الكثافة ضعيفة في الجبال ، كالماسيف سنترال وجبال البيرينيه وكورسيكا والسلاسل الألبية ، وفي المناطق ذات الترب الفقيرة ، كمناطق القوس الكلسية ، وشمبانيا البويّوز ، وبورغونيا العليا ، وسولوني الخ . .

وقد أخذ عدد سكان الأرياف بالتناقص باستمرار منذ أواسط القرن التاسع عشر لفائدة سكان المدن . فبعد أن كان ثلاثة أرباع سكان فرنسا من الريفيين قبل قرن من الزمن ، أصبح هؤلاء يمثلون الثلث في ١٩٦٠ وحالياً ٣٠٪ فقط .

وبعد أن كان عدد المدن ، التي يتجاوز عدد سكان كل منها ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، ٢٥ مدينة في ١٩٦٠ أصبح عددها في ١٩٨٠ ، ٥٦ مدينة ، وأهمها باريس العاصمة وسكانها مع ضواحيها ٨ ملايين نسمة ، ومرسيليا ١ مليون ، وليون ١,٢ مليون ، بوردو ٦٢٢,٠٠٠ ، نيس ٤٠٠,٠٠٠ ، طولوز ٤٤٥,٠٠٠ ، ليل ١٧٢,٠٠٠ ، نانت ٤٦٠,٠٠٠ ، ستراسبورغ ٣٤٠,٠٠٠ ، سانتتيان ٣٤٠,٠٠٠ ، الهاڤر ٢٧٠,٠٠٠ ، تولوز ٣٥٠,٠٠٠ ، روان ٣٩٠,٠٠٠ ، نانسي ٢٦٥,٠٠٠ ، رانس ٢٠٠,٠٠٠ ، روبيه ٩٥٠,٠٠٠ ، كليرمون فيرّان ٢٦٠,٠٠٠ ، ديجون ٢١٥,٠٠٠ ، غرينوبل ٤٠٠,٠٠٠ . ليموج ١٥٠ ألف ، رين ٢٠٠ ألف ، لومان ١٧٠ ألف ، نيم ١٣٠ ألف ، برست ١٧٠,٠٠٠ ، آنجيه ١٧٠,٠٠٠ .



الشكل ٩

الشكل ١٠

الشكل ١١

الشكل ١٢

الاقتصاد

تبدو التقنيات الزراعية والصناعية ، وهي وريثة تقاليد طويلة ، تحققت خلالها نوعيات الأيدي العاملة ، تبدو الآن هدفاً لتحويلات عميقة . وإذا كانت مصادر الطاقة أو المواد الأولية متنوعة ، فإنها تظل ، باستثناء الحديد والبوكسيت ، دون حاجة البلاد . بيد أن المنظورات المتوفرة بعد تنمية الطاقة النووية والبتروكيمياء ، تكاد تقلب المعطيات التقليدية رأساً على عقب ، **وتضع** حركة التمركزات الكبرى ، في المؤسسات ، **فرنسا** في عداد المجلين بين الأمم الصناعية .

هذا ويتوزع السكان العاملون ، وعددهم ٢١,٣ مليون فضلاً عن مليون عاطل عن العمل ، يتوزعون كما يلي :

١ ـ القطاع الأولي = الزراعة ، الغابات ، الصيد البري والبحري ، ويعمل فيه ٢,١ مليون أو ٩,٩٪ .

٢ ـ القطاع الثنائي = أي العاملون في الصناعة التحويلية وعددهم ٧,٩ ملايين أو ٣٧,٢٪ .

٣ ـ القطاع الثلاثي = أي قطاع الخدمات ويعمل فيه ١١,٢ مليون أو ٥٢,٧٪ .

الزراعة :

تعتبر نسبة ٩,٣٪ من أراضي فرنسا أراضي عقيمة . وتقدم الزراعة بفضل تنوع الترب والمناخات ، وبفضل البنية الاجتماعية وبسبب تفوق الملكية الصغرى ، تقدم منتجات متنوعة جداً . وعلى كل تتوزع نسبة الأراضي كما يلي : أراض قابلة للحراثة ١٧ مليون هـ أو ٣١٪ ، والمساحة المغطاة دوماً بالأعشاب (مراعٍ) ١٣,٣ مليون هـ أو ٢٤,٣٪ ، مزروعات ثمرية ٣٠٠,٠٠٠ هـ أو ٠,٥٪ ، الكرمة ١,٢ مليون هـ أو ٢,٣٪ ، وغابات وأحراش ١٤ مليون هـ أو ٢٦,٥٪ ،

مزروعات الخضار والزهور والحدائق العائلية ٣١٧,٠٠٠ هـ أو ٠,٥٪ ، مزروعات متنوعة وأراض زراعية غير مزروعة ٢,٧ مليون هـ أو ٠,٥٪ ، مستنقعات مستغلة ١٣٠,٠٠٠ هـ أو ٠,٢٪ ، أراض غير زراعية ٥ ملايين هـ أو ٩,٣٪ .

ويزرع القمح في سائر الأمكنة ، حتى أن حقوله تغطي ١٠٪ من رقعة البلاد ، ولكنه يتفوق خاصة في سهول الشمال وفي الحوض الباريسي ، والحوض الأكيتاني ، وتحتل فرنسا المكانة السادسة في العالم في إنتاجه ، ولكن ليس لدى فرنسا فائض كبير للتصدير ، ويزرع الجاودار في بريتانيا وفي الماسيف سنترال ، والشوفان في كل مكان تقريباً ، والشعير في الشمال وفي الشرق ، والذرة في الجنوب الغربي ، واختصاراً تحتل الحبوب ٩,٢ ملايين هـ أو ٥٤,١٪ من المساحات المزروعة . وتنمو البطاطا في كل مناطق فرنسا وحتى في المناطق الفقيرة . وتنتشر زراعة الخضار قرب المدن ، وفي الجنوب ، وفي منطقة تور وفي بريتانيا الخ . .

أما الكرمة فتنتشر في اللانغدوك ، وفي منطقة بوردو ، وفي بلاد اللوار وشمبانيا ، وبورغانيا والألزاس ، حتى أن فرنسا تنتج ثلث إنتاج العالم من الخمر . أما المحاصيل الزراعية فتتمثل بزراعة الشوندر التي تسود في إقليم الشمال ، بيكاردي ، وجنوب باريس . وتنتشر زراعة حشيشة الدينار التي تدخل في صناعة الجعة في الألزاس واللورين ، والتبغ في أكيتانيا ، والكتان في الشمال وبيكاردي ، والقنب الخ . .

وعلى كل تنتشر النباتات المعزوقة على ١,٣ مليون هـ أو ٧,٢٪ من المساحة ، والبقول الجافة ٧٤,٠٠٠ هـ أو ٠,٤٪ ، والمزروعات البقولية الحقلية ٢٠٠,٠٠٠ هـ أو ١,٢٪ ، والمزروعات العلفية ٥٢ مليون هـ أو ٣١٪ ، والبور ٢٣٣٠٠٠ أو ١,٤٪ ، والمزروعات الأخرى ٤٨٧٠٠٠ هـ أو ٢,٨٪ .

وتكون مقادير الإنتاج الزراعي بملايين الأطنان كما يلي : القمح ١٧ ، الشعير ١٠,٢ ، الشوفان ١,٩ ، الجاودار ٠,٣٧ ، الذرة الصفراء ٨,٦ . الرز ١٨٠٠٠

طن ، والشمنـدر السكري « البنجر » ٢٤,٥ مليون طن ، والسكر ٤ ملايين طن ، والبطـاطـا ٦,٤ مليـون طن ، والخمر ٥٢ مليـون هكتـوليتر ، والجعـة ٢٢ مليـون هكتوليتر ، والكتان ٤٢٠٠٠ طن ، والتبغ ٥٣٠٠٠ طن .

تربية الماشية :

وتكون متطورة جداً ، فتربّى الخيول في بريتانيـا ، وفي بولونّيـه ، وپرش ، ومنطقة تارب ويقارب عددها ٤٠٠,٠٠٠ رأس ، والأبقـار في منطقـة شـاروليـه ، أوكسوا ، ليموزان ، اڤيرنييه ، نورساندي ، شارنت وپواتو . ويبلغ عـددهـا ٢٣,٨ مليون رأس . أما الأغنام فتربّى في اللانغدوك ، الپروفانس ، القوص ، شمبانيـا ، پيّري ، ويبلغ عددهـا ١١,٢ مليون رأس ، والخنـازير ١١,٥ مليون رأس . وتنتج البلاد حوالي ٢٩ مليون طن من الحليب و ٥٦٠٠٠٠ طن من الزبدة ، ومليون طن من الأجبـان ، و ٣,٥ مليـون طن من اللحـوم . وتربّى الطيـور الأهليـة على الخصوص في منطقة بريسّ Bresse .

الغابة :

وتستغل الغـابـات في منطقـة الـلانـد قرب مصب الغـارون ، وفي الجبـال ، وتنتـج البـلاد ٢٨ مليـون م٣ من الخشب الجـذوع ، و ١١ مليـون م٣ من الخشب المنشور .

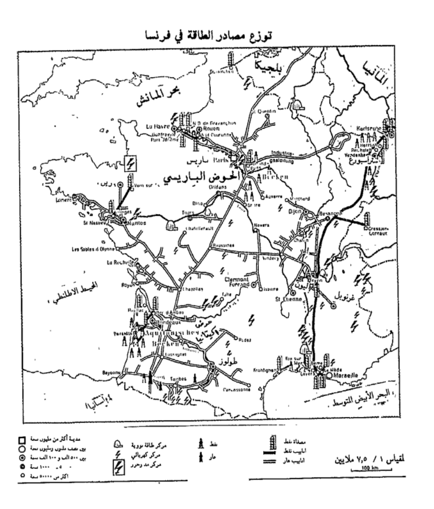
الصيد البحري :

ويكون هـذا نشيطـاً قرب السواحل وفي عرض البحر . ويبلغ إنتـاج البـلاد ٧١٢,٢٢٧ طن في سنـة ١٩٧٧ ، وأهم موانئـه بـولـونيـة ، لـوريـان ، كـونكارنـو ، فريكان ، لاروشيل ، دييپ .

الطاقة :

لا يكـون إنتـاج **الفحم** الفرنسي ، الـذي تقـع منـاجمـه في منطقـة الشمال

والكتلة المركزية ، واللورين كافياً . وقد بلغ إنتاجه ١٨ مليون طن عـام ١٩٧٧ . وتنتج منطقـة الشمال ومنطقـة پـادوكاليـه ٢٧٪ واللورين ٤١٪ . وتستورد البـلاد مقدار ٢٣,٧ مليون طن ، منها ٥ ملايين من ألمانيـا الغربيـة ومثلهـا من بولونيـا ، و ١,٨ مليون طن من الولايات المتحـدة ، وتصـدّر منـه مقـدار ٠,٥ مليون طن . أمـا إنتـاج **البترول** فضعيف ، ويصـل إنتـاجــه إلى مليـون طن ، ويستغـل من حوض أكيتـانيـا ، والحوض البـاريسي والألزاس . ولكن حوض أكيتـانيـا يقـدم مقادير متزايدة من الغاز ، فقد أنتجت البلاد مقدار ٦٤,٨ مليـار وحـدة حراريـة من حوض لاك وسان مارسيه (شكل ١٣) .



الشكل ١٣

هذا وتستورد فرنسا مقدار ١٢٠ مليون طن من النفط ، منها ٨٩ مليون طن من أقطار الشرق الأوسط ، وتقدم ليبيا ٢,٣٪ ، والجزائر ٤,١٪ ونيجيريا ٦,٧٪ ، والاتحاد السوفييتي ١,٢٪ وفنزيلا وبحر الشمال . ويصدر من منتجات البترول بعد تصنيعها ١٣,٦ مليون طن .

وتقع المصافي الكبرى في السين الأدنى ، وطاقتها ٥٦,٢ مليون طن (غونفرفيل) ، ومرسيليا بيّر ٤٣,٥ مليون طن ، والألزاس ٨,٨ مليون طن ، وجيروند ، وغرانپوي ، ودونج ، وتبلغ الطاقة العامة للتكرير ١١٩ مليون طن .

الكهرباء :

وبلغ إنتاجها الكلي ٢٦٥,٩ مليار ك و س ، وتؤلف الطاقة الحرارية في الشمال والمنطقة الباريسية ٥٥٪ . ولكن إمكانات فرنسا من الفحم الأبيض كبيرة في جبال الألب والپيرينيه والماسّيف سنترال والألزاس .. وقد تمّ بناء سدود كبيرة في جينيسّيا ، ودونزير ، وشامبون ، وسوتيه ، لاتروبير ، ماريج ، ليغل ، بور ، شاستانغ ، بروما ، ايغوزون ، وكمب . وتتجه البلاد لاستغلال المزيد من الطاقة الكهربائية ، وعلى كل تقدم جبال الألب ٥٥٪ من الفحم الأبيض ، والماسّيف سنترال والپيرينيه ٢٦٪ . وهناك المراكز النووية التي تقدم حالياً قرابة ٢٠ مليار ك و س ، من مركز شينون ، ماركول ، موندارّيه ، سان لوران ديزو أو مايعادل ٣٨,٧٪ من انتاج الكهرباء الفرنسية .

الصناعة :

تحتل فرنسا المكانة الأولى بين الدول الأوروبية في استخراج خامات الحديد بفضل مناجم اللورين (شكل ١٤) . فقد استخرجت في ١٩٧٧ مقدار ١١ مليون طن من المعدن الصافي . وهي أول بلد في العالم في إنتاج البوكسيت الذي تقدمه مناجم الجنوب ، ويبلغ إنتاجه مليوني طن . أما إنتاج المعادن الأخرى فهو

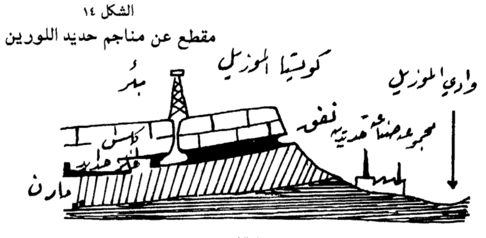
ضعيف ، باستثناء مكامن البوتاس في الألزاس ، وهكذا تنتج البلاد مقدار ٤٢,٠٠٠ طن من معدن الزنك و ٣٢,٠٠٠ طن من الرصاص، و ١,٧ مليون طن من البوتاس ، و ١,٩ مليون طن كبريت ، و ١٣٠,٠٠٠ طن من الملح .

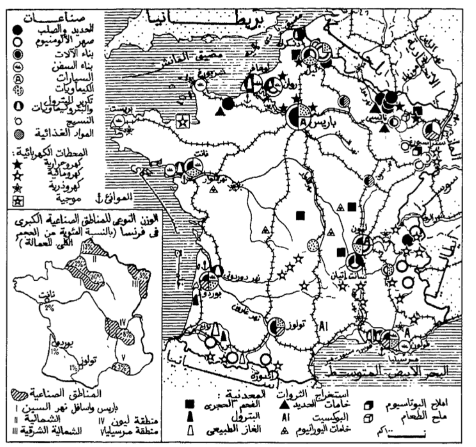
وتتمركز الصناعة الحديدية في الشمال ، وفي اللورين ، والماسّيف سنترال والنورماندي . أما الصناعة الكهرمعدنية فتتمركز مع الكهركيمياء في جبال الألب والپيرينيه . وعلى كل تملك فرنسا ٣٩ فرناً عالياً و ١١ مقلب توماس وثمانية أفران مارتان ، و ٦١ فرن كهربائي ، و ٢٦ منشأة لصنع الفولاذ على الأوكسجين . وقد أصابت أزمة عام ١٩٧٩ الصناعة الحديدية بقساوة . وتستخرج فرنسا ٣٦ مليون طن من خامات الحديد تحوي ١١ مليون طن من المعدن ، وتصدر ١١,٨ مليون طن من خامات الحديد نحو دول البينيلوكس وألمانيا الاتحادية ، وتستورد ١,٢ مليون طن من خامات الحديد من أفريقية . وكان إنتاجها في عام ١٩٨١ يتألف من ١٧,٢ مليون طن من الصهير (الفونت) و ٢١,٢ مليون طن من الفولاذ (شكل ١٥) .

أما المعادن غير الحديدية فقد كان إنتاجها عام ١٩٨١ يتألف من ١,٨ مليون طن من الألمنيوم ، و ٢٣٨٠٠٠ طن من الزنك الصافي و ١٨٤٠٠٠ طن من الرصاص الخالص .

الشكل ١٤

مقطع عن مناجم حديد اللورين





الشكل ١٥
صناعة فرنسا

مصادر الطاقة الأولية	الإنتاج ١٩٦٠	١٩٧٤	١٩٨١
الفحم (ملايين الأطنان)	٥٨,٣	٢٥,٧	١٨,٥
النفط الخام (ملايين الأطنان)	٢	١	١,٦
ملايين تيك[1]	٢,٨	١,٤	١,٥
تكرير المنتجات النفطية (مليون طن)	—	—	—
غاز طبيعي (مليون م٣)	٢	٧	٧
كهرباء هيدروليكية وحرارية (مليارك وس)	٧٢,١	١٨٠	٢٧٦

(١) تكون معامل التحويل المتعارف عليها كما يلي : طن واحد من النفط الخام = ١,٤ تيك (طن معادل فحم) . منتجات نفطية : ١ طن = ١,٥ تيك ، غاز : كل ١٠٠٠ وحدة حرارية = ٠,١٥ تيك . كهرباء : كل ١٠٠٠ ك و س = ٠,٤ تيك .

أما الصناعات الميكانيكية ، فكانت تتألف من إنتاج السيارات الذي بلغ ٢,٩ مليون سيارة سياحية عام ١٩٨١ ، وبذلك تحتل المرتبة الرابعة في العالم . وتقع مصانعها في باريس « رينو » ، لومان ، رين ، فلان ، سوشو ، هذا إلى جانب ٤١٤,٤٢١ سيارة نفعية في مدينتي ليون وڤينيسيّو .

أما صناعة السفن فقد قدمت ما حمولته ١,١٩٥,٣٠٠ طنّة في موانئ اللوار الأدنى ، دنكرك ، لوسيوتا . وتقع الصناعات الجوية في باريس وطولوز . وهناك صناعة البناء الكهربائي والألكتروني والمكائن الزراعية في فييرزون ، بوڤيه ، سان ديزييه ، وصناعة المكائن النسيجية في الشمال ، بلفور ،مولهوز ، ومكائن السكك الحديدية في كروزو ، ليل ، والمكائن الصانعة والأدوات المطبخية والساعات في الجورا ، والسكاكين في تييه ، لانغر .

أما الصناعات النسيجية فتقع في الشرق والشمال ووادي السين الأدنى والأوسط . وتعدّ هذه الصناعة من أقدم صناعات فرنسا ، وتشكو من عتق آلاتها الموروثة من العصر الحرفي : كتبعثر المؤسسات وصغر أبعادها . ويجري تجديد بنى هذه الصناعة مثلما تجري محاولات محو التمركز . أما الصناعات الغذائية فتقوم في المناطق الزراعية . وبلغ إنتاج فرنسا من الصوف المشّط ٧٢,٢٠٠ طن ، ومن الألياف الاصطناعية والتركيبية ٥٠,٠٠٠ طن ، ومن غزول الصوف ١٤١,٥٠٠ طن ، ومن منسوجات الصوف ٦٢,١٠٠ طن . هذا كما أنتجت في ١٩٧٧ مقدار ٢٢٩,٢٠٠ طن من غزل القطن و ١٨٥,٨٠٠ طن من أقمشة القطن والكتان والخليط ، مثلما أنتجت ٢٤,٧٠٠ طن من خيوط الجوت ، و ١٣,٦٠٠ طن من منسوجاته ، و ٣٣,٧٠٠ طن من السيزال .

وتتوطّن الصناعات الكيماوية الأساسية ، أي الصناعة الكيماوية الثقيلة ، بجوار مصادر التموين أو في الموانئ . وتوفر المحاجر الصخور الكلسية والجص من المنطقة الباريسية ، ومن وادي الرون ، والصودا من اللورين ، والملح من ممالح

الساحل كما في كامارغ وسواحل الأطلسي ، والبوتاس من الألزاس ، والكبريت من منطقة لاك قرب آبار الغاز . هذا وتنمو إلى جانب الأحواض الفحمية في الشمال وبجوار معامل تكرير النفط الصناعات الجديدة ، أي الكربوكيمياء ، والبتروكيمياء . أما الصناعات الكيماوية المتنوعة فهي أكثر تبعثراً .

وقد أنتجت فرنسا في ١٩٧٧ مقدار ٦٤٥,٠٠٠ طن من البوليثينيل ، و ٣٧٦,٠٠٠ طن من الميتانول ، ومن الآمونياك ١,٧٨١,٠٠٠ طن ، والأسمدة الآزوتية التركيبية ١,٤٦٩,٠٠٠ طن ، والحامض النتريكي ٦٨٢,٠٠٠ طن ، ومن السوبرفوسفات ٨٧٥,٠٠٠ طن والحامض الكبريتي ٤,٥ مليون طن ، والحامض الكلوهيدريكي ٦٧٤,٠٠٠ طن ، وكربونات الصود ١,٣٦٥,٠٠٠ طن ، والصودا الكاوية ١,٢٠ مليون طن .

المواصلات :

في مطلع عام ١٩٧٧ كانت فرنسا تملك ٣١,١٩٩ كم من الطرق البرية القومية ، و ٤٢٨٣ كم من طرق السيارات العريضة ، وحوالي ٣٨٠,٠٠٠ كم من طرق المحافظات و ٤٢٤,٠٠٠ كم من الدروب القروية . ويصيب كل ثلاثة مواطنين سيارة واحدة ، إذ كان في العام المذكور ٢,٤ مليون سيارة شحن و١٦,٣ مليون سيارة سياحية والنسبة ذاتها من الدراجات النارية والعادية . وتعتبر فرنسا من أكثر أقطار أوروبا حركية بالمواصلات الآلية motorisé .

وفي البلاد ٣٥١٨٠ كم من الخطوط الحديدية منها ٩٣٥٦ كم مكهربة ، وتصل الحركة إلى ٥١,٥ مليار مسافر / كم ، و ٦٨,٧ مليار طن / كم .

وبلغت حمولة أسطول البحرية التجارية ١٩٧٦ مقدار ١١ مليون طنة . أما حركة الموانئ فبلغت ٢٩٨ مليون طن بضائع ، منها ٨١ ٪ للمستوردات ، ويمثل البترول ٢٠٢ مليون طن ، والمسافرون ١١,٣ مليون . وأهم الموانئ حركة في ١٩٧٦

كانت مرسيليا ١٠٤ مليون طن ، الهافر ٨٠ مليون طن ، دنكرك ٣٣,٥ مليون طن ، روان ١٥,٦ مليون طن ، نانت سان نازير ١٥,٣ مليون ، بوردو ١٢ مليون ، سات Sète ٧,٤ ، لاروشيل ٣,٧ مليون طن .

أما الملاحة النهرية فتمتد على ٣٢٠٠ كم على الأنهار و ٤٤٠٠ كم على الأقنية ، التي لا تستعمل كثيراً لأن المراكب من المقياس الأوروبي من حمولة ١٣٠٠ طن لا تجري إلاّ على نهر الراين والموزيل والسين في سافلة باريس .

هذا وقد بلغت حركة الطيران في ١٩٧٧ ٢٧,٥ مليار مسافر / كم ، وحمولة ١,١ مليار طن / كم و ١٠٧,٢٠٠ طن / كم من البريد . وأهم مطارات فرنسا هي أورلي ، لوبورجيه ، رواسّي آن فرانس ، مرسيليا ، ونيس .

وتؤلف السياحة إحدى أوائل الأنشطة الاقتصادية الفرنسية وتوفر للبلاد في كل عام أكثر من ٢٠٠٠ مليون دولار من عائدات السواح الأجانب ، الذين بلغ عددهم ١٣,٤ مليون سائحاً عام ١٩٧٦ . ويقضي ٥٢ ٪ من الفرنسيين ٢٢ يوماً وسطياً عطلة في خارج منازلهم .

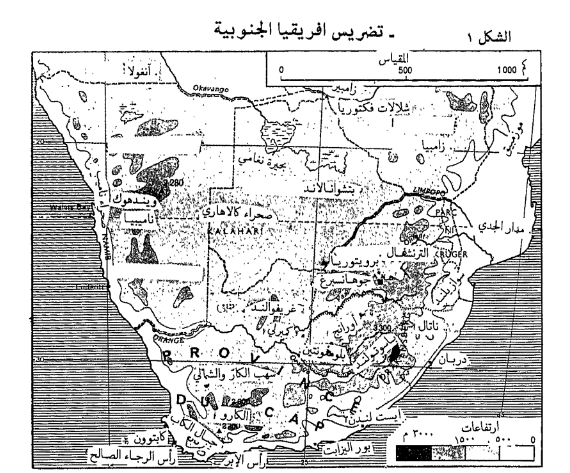
في عام ١٩٧١ كان ٥٩٪ من العائلات الفرنسية تملك سيارة واحدة على الأقل ، و٨٠٪ تملك ثلاجة ، و٧١٪ منها تملك جهاز تلفزيون و٥٤٪ تستعمل غسالة كهربائية و٤٠٪ تملك مسجّلة وكان هناك ١,٢ مليون أسرة تملك مسكناً ثانوياً في الريف أو على ساحل البحر أو في الجبل .

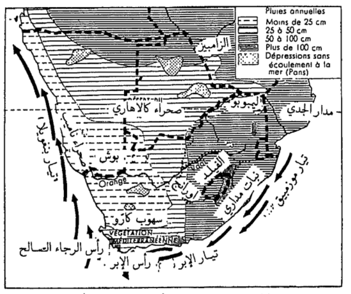
وتصدر فرنسا منتجات الترف والمنتجات الكيماوية والحديد الخام والبوكسيت ، والخمور العالية النوعية ، والفواكه ، ومنتجات الألبان ، والسلع المصنّعة من أقمشة ومكائن ، وتستورد المواد الأولية كالفحم الحجري والنفط والقطن والحرير والكتان والفلزات والمطاط والبذور الزيتية ، والمنتجات الغذائية كالحبوب واللحوم وبعض السلع المصنوعة .

وقد بلغت صادراتها في عام ١٩٨١ مقدار ٥٥٣ مليار فرنك ، كانت المنتجات المنتهية تؤلف ٢٦,٣ ٪ منها ، والمكائن ومعدات الخطوط الحديدية ، والطائرات « كاراڤيل وميستير » ، وسيارات ومنتجات خام ٢٨,٨ ٪ منها خامات الحديد والألياف النسيجية ، والمنتجات الزراعية ١٤ ٪ .

أما زبائنها فهي ألمانيا الاتحادية ، بلجيكا ، لوكسمبورغ ، إيطاليا ، إنكلترا ، هولندا ، والولايات المتحدة . أما استيرادها فقد بلغت قيمته ٦٥٨ مليار فرنك ، وتؤلف مستوردات الطاقة ٢١,٤ ٪ من حيث القيمة ، ولكن أربعة أخماس الوزن ، وهي البترول والخام والفحم ، ومنتجات منتهية ، وسلع تجهيز ١٧,٦ ٪ (كطائرات البوينغ وسلع من كل صنف) والزراعية ١٢,٥ ٪ ، كالخمور والثمار والباكوريات والمنتجات المدارية ومنتجات خام ٢٨,٨ ٪ ، وتتألف من قطن ومعجونة ورق ، ومطاط وفلزات غير حديدية . أما الدول المصدّرة لفرنسا فهي : ألمانيا الاتحادية ، بلجيكا ، لوكسمبورغ ، إيطاليا ، الولايات المتحدة ، هولندا ، وبريطانيا .

الشكل ١ ـ تضريس افريقيا الجنوبية





الشكل ٢ المنـاخ والنبات في افريقيا الجنوبية

الفصل السادس

جمهورية جنوب أفريقية

تشير عبارة أفريقية الجنوبية ، في المعنى الجغرافي البحت ، إلى كل الجزء الجنوبي من القارة الأفريقية الواقع جنوب خط العرض ١٠ جنوب خط الاستواء . وهكذا يمكن اعتبار جمهورية زيمبابوه ، وناميبيا ، وزامبيا ، وموزمبيق ، وبوتسوانا ، وسوازيلاند ، ولوسوتو ، وحتى أنغولا كأجزاء من أفريقية الجنوبية . غير أن من المألوف أن يخلط الكتّاب بين عبارة أفريقية الجنوبية وبين اتحاد جنوبي أفريقية ، لأن أهمية هذا الاتحاد تتجاوز إلى حد بعيد أهمية الدول المجاورة ، والواقع علينا أن نميز ما يلي :

١ ـ جمهورية **جنوب أفريقية** وتضم إقليم الكاپ ، الناتال ، ولاية أورانج الحرة ، الترانسفال ، والتي تبلغ مساحتها جميعاً ١,٢ مليون كيلومتر مربع أو ما يعادل مساحة مصر وسورية وفلسطين . وقد ظلت هذه الدولة المستقلة ، حتى عهد قريب ، عضواً في رابطة الشعوب البريطانية .

٢ ـ جنوب **غرب أفريقية** أو **ناميبيا** ، ومساحتها ٨٣٥,٠٠٠ كيلومتر مربع ، وهي مستعمرة المانية سابقة ، وعهدت جمعية الأمم في عام ١٩٢٠ لجمهورية جنوب أفريقية بإدارتها ، فاعتبرتها جزءاً لا يتجزأ من أرضها ، وتعارض استقلالها بضراوة .

ويحدّ جمهورية جنوب أفريقية من الشمال الشرقي سوازيلاند ، وموزمبيق ، وزيمبابوه ، ومن الشمال بتسوانا وناميبيا .

وتتصف هذه الجمهورية بأهمية مزدوجة : فتقدم هـذا القطر ونموه يجعل منـه أقوى دولة اقتصادية في القارة الأفريقيـة ، مثلمـا تختلف عن سـائر دول أفريقيـة السوداء بـارتفـاع نسبـة السكان البيض ، كما تتخـذ العلاقـات بين البيض والسـود وغيرهم من الأقوام الملوّنة كالهنود ، في هذه الدولـة ، مـدلولاً لا يخفى على إنسـان في عالمنا الحالي ، وهو ما يدعى بالتمييز العنصري الذي تحتل مشكلتـه حيّزاً هـامـاً من منـاقشـات أروقـة هيئــة الأمم المتحــدة ، ويتجلّى من حين لآخر على شكل مصادمات دامية بين السود من أبناء البلاد وبين المستوطنين البيض .

أولاً ـ الصفات العامة لأفريقية الجنوبية

التضريس :

تؤلف العتبات الأفريقية ، المنخفضـة في أواسـط القـارة ، والمنهضـة بـاتجـاه السواحل ، الهيكل الجوهري لتضريس المنطقة .

ففي إقليم الكاپ نجـد عـدة سـلاسـل جبليـة تتجــه من الغرب إلى الشرق ، وتتجـاوز في بعض الأمكنـة ٢٠٠٠ م ارتفـاعـاً . وقـد نتجت عن سلسلــة نشـأت تدريجياً خلال الحقب الجيولوجي الأول ، فكثيراً ما نجد طبقات رسوبيـة قـديمـة جداً لا زالت أفقيـة ، كجبل المـائـدة Table ، الـذي يطل على مـدينـة الكاپ . وتتمدد بين **جبال الكاپ** هذه هضـاب الكارّو Karros ، التي تزداد عرضـاً بـاتجـاه الداخل حتى ضفاف نهر الأورانج (شكل ١) .

وإلى الشرق من جمهوريـة جنـوب أفريقيـة يظهر نمـط من تضريس تشترك فيـه كل أقطـار أفريقيـة الشرقيـة . وهي أن الترس Shield القـديم ، الشـديـد النهوض ، قد اعترته كسور تتخذ اتجاهاً شمالياً جنوبيـاً ، ويطل على شكل شفـا ، أو جروف هائلة escarpements على سهول المحيط الهندي الساحلية .

وهكـذا ترتفـع جبـال **دراكنسبرغ** إلى ٣٣٠٠ م ، والتي تَنْصِبُ فـوق **سهـل**

الناتال جروفاً تثير الدّوار ، في حين تقوم أودية نهر الأورانج العليا وروافده ، في إقليم **لوسوتو** ، الرائع الجمال ، بتقطيع شرفات corniches وتلاع شاهدة من المسكوبات البركانية ، وهي دفقات بركانية لابيّة معاصرة لالتواءات الكاپ .

أما **الهضاب العليا في إقليم الأورانج والترانسفال** فلا تحوي على أكثر من سطوح هادئة ، تتراوح ارتفاعاتها بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ م ، لا تهيمن عليها سوى أرومات من تضريس أطلالي تدعى كوبجس Kopjs ، أو **راند** Rand ، وهي صفوف من ارتفاعات ناتجة عن سلسلة متتابعة مؤلفة من صخور قاسية .

ولا تنهض عتبات Plate formes جنوب أفريقية المائلة من كل جانب باتجاه حوض **كالاهاري الأوسط** إلاّ في حافة المحيط الأطلنطي في إقليم ناميبيا (جنوب غرب أفريقية سابقاً) .

الأوضاع المناخية والمشاهد النباتية

تحتل جمهورية جنوب أفريقية في نصف الكرة الجنوبي درجات عرض مماثلة لأقطار المغرب العربي والصحراء الكبرى في النصف الشمالي من الكرة الأرضية .

هذا ويكون **للهامش الجنوبي من إقليم الكاپ** ، مناخ مماثل لمناخ المرتفعات الساحلية أو « التل » في كل أقطار المغرب العربي (شكل ٢) ، أي ذات صيف حار جاف وشتاء عذب مع زخات مطر تجلبها الرياح الغربية . وهنا يمكن **لمزروعات البحر الأبيض المتوسط** التقليدية أن تزدهر .

ولكن ما ان نجتاز أوائل الحواجز الجبلية ، حتى تفرض القحولة نفسها في هضاب **الكارّو** تماماً ، كما نجد في الهضاب الجزائرية المرتفعة ، إذ لا نجد هنا سوى نباتاً **سهبياً** ، وتتحول مجاري المياه إلى أودية حقيقية ، لا تجري إلاّ بصورة عَرَضية كي تصب في منخفضات هي مستنقعات ملحية تماثل الشطوط في المغرب العربي أو السبخات في المشرق .

أما **ناميبيا** فتخضع لجفاف يماثل جفاف سواحل موريتانيا ، وهكذا يكون الساحل الأطلنطي أسوأ حظاً أيضاً حيث نجد صحراء ناميب . ففوق تيار مياه بنغويللا البارد ، يكون التبخر ضعيفاً للغاية ، كما تتكاثف رطوبة الهواء القادمة من عرض البحر على شكل ضباب ، ولهذا تقتحم الرياح الغربية إقليم ناميبيا على شكل هواء مجفِّف . وتمتد صحراء كالاهاري على مساحة تبلغ نصف مليون كيلومتر مربع ، وهي حوضة داخلية تسير نحو التجفف .

لا نجد هنا أشجاراً منعزلة في هذه السهول ، حيث تقوم الرياح بزيادة القحولة استفحالاً ، وكذلك بسبب قساوة الشتاء وشدة قيظ الصيف . كما أن النبات العشبي ذاته يشكو من ذلك ، فلا نجد سوى باقات من أعشاب جافة سرعان ما تتحول إلى اللون الرمادي ، الذي يماثل لون التربة المزيلة التي تحملها . والنباتات الوحيدة التي تبدو متوائمة مع هذه الأوضاع هي الفريبونيات ، والنباتات الشحمية الأخرى ، والتي تقبع في ظل الحجارة والقشرات crusts ، لتحمي نفسها من التبخر بدرعها الشوكي . ولم ندخل بعد في الصحراء ، بل ما زلنا في هضاب الكارّو ، وهي عبارة زنجية تحولت إلى اسم مميز لهذه المناطق .

ويؤلف نهر أوكاڤانغو القادم من مرتفعات آنغولا ، هنا دلتا ، داخلية . وكان يغذّي في القديم بحيرة نغامي التي كانت أكثر اتساعاً لدى اكتشافها على يد ليفنغستون في ١٨٤٩ ، مما هي عليه الآن ، إذ أصبحت بقية باقية من بحيرة تعادل بحيرة تشاد . ويؤلف المجرى الأدنى لنهر اوكاڤانغو متاهة معقدة من أذرع ومن أذرع كاذبة ، وتكون حافاتها بعد موسم الأمطار مأهولة بالزرافات والنعام ، ولكن الجفاف يحولها إلى غدران نتنة ، تحوم حولها سحب من البعوض تنشر الحيّات الرهيبة . ويجر المجرى الرئيسي مياهها لتغيض في مستنقعات مالحة ذات سراب خداع .

ج . ويلرس

أما على المناطق الشرقية من جمهورية جنوب أفريقية فتتغير الأوضاع المناخية بشكل جذري ، إذ تحمل إليها رياح الشمال الشرقي ، وهي موسميات الصيف الجنوبي ، ورياح الأليزة (التجارية) الجنوبية الشرقية ، المستفحلة بالشتاء ، تحمل إليها هواءً مدارياً مشحوناً بالرطوبة بفصل التيارين الدافئين وهما تيار موزمبيق في الشمال الشرقي وتيار الإبر في الجنوب . وهكذا يكون

لسهول الناتال الغزيرة الأمطار نبات مداري وغابات كثيفة ، تصعد لتتسلّق مرتفعات دراكنسبرغ المؤلفة من عقبات abrupts حادة .

أما على **هضاب الأورانج والترانسفال المرتفعة** فتقوم الفوارق الحرارية ، بالإضافة إلى قلة الأمطار ، على جعل الأحراج عبارة عن دغلات غابية صغيرة تطوّق المرتفعات الصغيرة المسماة كوبجس Kopjes ، أو تستقر في قيعان الراند Rands . أما في المناطق الأخرى فينتشر الڤلد Veld الرتيب ، وهي المروج الخضراء أو الرمادية حسب الفصل . غير أن الڤلد يتحول في المناطق المنخفضة الأكثر حرارة ، والواقع على تخوم الترانسفال الشمالية الشرقية ، إلى سافانة مشجّرة . وهنا تقع حديقة كروجر الوطنية الشهيرة .

ويمتد هذا البارك Parc على طول الحدود بين الترانسفال وموزمبيق على مسافة ٣٢٠ كم ، ويغطي مساحة ٢٠٨٠٠ كم٢ أو ضعف مساحة لبنان . ويمكن للإنسان أن يتجول فوق شبكة الطرق الممتدة على مسافة ١٤٠٠٠ كيلومتر بالسيارة ، وأن يرى على مسافة بضعة أمتار من سيارته الأسود واللبوات التي لا تبدي أي اكتراث بالإنسان ولا بالماكنة التي تحمله . ويقصد هذه الحديقة ٤٠,٠٠٠ زائر في كل عام ، كي يأخذوا صوراً لمناظرها ، وكي يمنحوا أنفسهم وهماً بأنهم كادوا يلامسون ملك الحيوانات .

جـ . آ . لوسور ١٩٥١

ثانياً : التطور الاقتصادي في جمهورية جنوب أفريقية

لقد احتلت جمهورية أفريقية الجنوبية مكانها بين الدول العصرية منذ مطلع القرن العشرين . وتدين بالكثير من نهضتها المدهشة إلى اكتشاف الذهب ، وكذلك أيضاً إلى استقرار البيض فيها منذ زمن قديم نسبياً وبوصولهم إلى الڤيلد .

ففي القرن السابع عشر والثامن عشر ، قدم معمّرون هولنديون انضمّ إليهم فيما بعد الهوغنوت الفرنسيون Huguenots ، وهم من أتباع مذهب بروتستانتي كالڤني ، وألمان استوطنوا منطقة الكاپ ، التي أصبحت تابعة لإنكلترا في عام

١٨١٥ . غير أن الكثير من المـزارعين ومن مربّي المـاشيـة البـوير Boers ، وهم بروتستان من أتبـاع مـذهب كالڤن المتشـددين والمتميزين بحيـاة قـاسيـة أبويّـة ، رفضوا قبول الوصـايـة البريطـانيـة ، وفي خلال القرن التـاسـع عشر ، انتشروا في الناتال ، الذي ضمته إنكلترا إليها في عـام ١٨٤٣ ، وفي الأورانج الـذي أصبح دولـة حرة منذ ١٨٣٦ ، ثم الترانسڤال الذي تأسس عام ١٨٤٤ . وقد أدت هجرات البوير إذن إلى استيطـان أبيض في قلب الڤيلـد ، أي شمال نهر الأورانج ، وذلـك قبل أن تحاول دول أوروبا الاستيلاء على داخل القارة السوداء .

وقـد عمل البـوير على مضـايقـة السكان الـوطنيين ، أو طردهم كي يقيمـوا في أجود الأراضي ، إلى أن اعتبروا أنفسهم أهـل جنـوب أفريقيـة الحقيقيين ، كشعب أفريقي **آفريكانر** Afrikaner ، بينمـا كان المهـاجرون البريطـانيـون في نظرهم عبارة عن دخلاء .

وقـد أدّت حرب البـوير التي استمرت من عـام ١٨٩٩ و ١٩٠٢ إلى دخـول الأورانج والترانسڤال مع إقليمي الكاپ والناتال في اتحـاد جنوب أفريقيـة ، الـذي نشر دستوره في عام ١٩١٠ وأصبح عبارة عن دومينيون بريطاني .

الاستيطان الأبيض وتجاور أنماط الحياة :

لقد كان التطور الاقتصادي من صنع **البيض** وكان يتم لمصلحتهم وهم الذين لا يـزيـد عـددهم عن ٥,٣ مـلايين أو ١٧,٨ ٪ من مجمـوع السكان . وإذا كان الأفريكانر يسيطرون على أكثر الأنشطة الزراعية وتربية المـاشيـة ، فـإن الإنكليز يشرفون غالباً على التجارة والمناجم والصنـاعـة . أمـا الزنوج وعـددهم يقـارب ٢٤ مليون ، والآسيويون من هنود وباكستانيين وسيلانيين ، وعـددهم قرابـة المليون ، فلا يحتلون سوى الوظائف الدنيا ، كخدم ، أو كعمال زراعيين ، وفي المنـاجم ، أو عمال في المصانع ، أو أصحاب حوانيت أو كموظفين من الدرجة الثانية .

ولا يزال الكثيرون من الزنوج يعيشون ضمن قبائلهم حياة شبه بدائية ضمن محتجزات خاصة réserves ، أو حظائر بشرية .

وقد كتب جاك ويلرس ، الجغرافي الفرنسي الشهير ، في عام ١٩٣٤ يقول : تكاد تكون جغرافيتنا التقليدية هي **جغرافية بيضاء** فنجد أن أصغر قرية ، لا تضم أكثر من بضع مئات من المعمّرين ، قد ذكرت بعناية على أطالسنا ، ولكننا نجهل حتى اسم القبائل التي تضم بضع مئات الآلاف من الأنفس . ومع هذا فإن **الجغرافيا السوداء** هي التي تقفز أكثر من سواها إلى عيون السواح والسفّار .

فهنا في أراضي البيض ، نجد قرية أوروبية ، مؤلفة من مزارع قد تكون إنكليزية أو هولندية ، أو تقدم لنا التناظر المألوف والمميز في الأقطار الجديدة . فنجد الكنيسة وبرج جرسها ، والبلدية وساعتها ، والعنابر ومزارع الأشجار المثمرة ، والكروم والمكائن الزراعية .

وعلى مسافة بضعة كيلومترات من ذلك نسقط في قلب بلاد قبائل الكافر Cafres ، ويكون تبدل اللوحة على غير انتظار ، حتى لنتصور أنفسنا في مشهد زنجي تمّ تشكيله بناء على رغبة أحد استوديوهات هوليود . فنرى حول أكواخ الطين البائسة ، ذات السقف المخروطي المصنوع من القش ، الأطفال ذوي البطون المنتفخة يلعبون في جو من الغبار والعراء ، أما النسوة المؤتزرات بالأقمشة الملونة فيذهبن إلى الينبوع ، وهن يحملن على رؤوسهن القرعات « اليقطين » التقليدية ، أو نراهن قابعات على الأرض وهن يجرشْن بعناد حبات الذرة البيضاء القاسية بين ألواح حجرية منبسطة وخشنة .

الاستغلال الزراعي

لا تغطي الأراضي الزراعية أكثر من رقعة محدودة ، أو ٥ ٪ من رقعة البلاد ، بسبب الجفاف وضآلة إمكانات الري .

فالنطاق الساحلي الضيق الواقع إلى الجنوب من إقليم الكاب ، يكون مقراً لزراعة متعددة غنية . فتنتج أكبر المزارع الأوروبية القمح المزروع بعلاً ، كما تسمح حقول البرسيم بقيام تربية ماشية حثيثة ، كحيوانات الذبح والأبقار الحلوبة . وقد بلغ إنتاج البلاد من القمح في عام ١٩٧٧ ١,٨ مليون طن ، كما بلغ

عـدد الأبقـار فيهـا ١٣ مليـون رأس . غير أن **كروم العنب** ومـزارع **الأشجـار المثمرة** هي التي تمنح جمهورية جنوب أفريقية دوراً هاماً كدولة مصـدّرة للخمر ، لأن إنتـاجهـا من الخمر بلغ ٦,٣ ملايين هكتولتر ، فضلاً عن الحمضيـات والفـواكـه الأخرى ، والشوفان ١١٢٠٠٠ طن .

أما في النـاتـال فقـد نظم البيض مزارع **قصب السكر والتبغ** وأنواع الثمار المستوردة كالآناناس ، كما نجحت زراعـة الشـاي فوق التلال ، ولمـا عجز هؤلاء عن تعبئة ما يكفي من الأيدي العاملة الزنجية المحلية ، استقدموا أيدٍ عـاملـة هنـديـة خلال النصف الثاني من القرن العشرين .

أما هضاب الداخل المؤهلة لتربية واسعة للماشية ، فوق مساحات شـاسعـة ، فنجد فيها نموذجين من أنماط الاستغلال الريفي :

يقوم الزنوج ضمن محتجزاتهم ، من كافريين وزولو بزراعات غـذائيـة إلى جـانب تربيـة مـاشيـة واسعة . ولا يملكون سوى وسـائل بسيطـة ، وتتـألف قراهم ، أي كرال Kraal ، من حلقـة أكواخ ذات جـدران مشيّـدة بـالحجر الغشيم ، ومتوّجـة بسقوف من قش ، بحيث تشكل رقعـة مسوّرة يمضي القطيـع الليل في داخلهـا . أمـا المـزارع الأوروبيـة فتتصرف بمسـاحـات واسعـة ، في إقليم الكارّو على الأخص . وتربي كل مـزرعـة منهـا بضعـة آلاف من رؤوس الأغنـام الجيـدة الأصـواف والتي ترعى في السهب ، ويحتاج كل رأس من الأغنام لمساحـة نصف هكتـار من المرعى . ويستخـدم أصحـاب المزارع رعـاة من الزنـوج ، أو كخـدم ، أو كعمال زراعيين مـع عـائـلاتهم . ويقيم هـؤلاء الـزنـوج في معـزلٍ ضمن معسكر يتألف من بضعة بيوت صغيرة غالباً ، أو على شكل دشرة hameau في حالـة المستغلات الواسعـة جـداً . أما في السهب فتتباعد المزارع بمسافة بضعة كيلومترات عن بعضها البعض . أما المـدن الصغرى أو dorps فتتباعد عن بعضها بمسافة ١٠٠ كيلومتر ، ويسكنها ما بين ٢٣٠٠ و ٤٠٠٠ نسمـة ، وهي مراكز تجـاريـة وإدارية وثقافية ، وهي عبارة عن واحات صغيرة لأن الري يتخذ فيها بعض الأهمية .

وهكذا نجد أن **تربية الأغنـام** من عرق مرينوس تؤلف ٨٠ ٪ من القطيع الذي يقارب تعداده ٣٢ مليون رأس ، مما يجعل من أفريقية الجنوبية دولة عـالميـة كبرى في تصدير **الأصواف الناعمة** التي يبلغ إنتاجها ١٥٠,٠٠٠ طن بالعام .

أما في الڤلد في أورانج ، ولاسيا في ڤلد الترانسڤال ، فإن المزارع الأوروبية تكون قادرة على تخصيص مساحات أكبر من الأراضي للزراعة ، فهناك تنتج الذرة الصفراء التي يصل إنتاجها إلى ١٠ ملايين طن ، بالإضافة إلى القمح والتبغ والفواكه ، مثلاً نجد المراعي الاصطناعية مما يسمح بظهور تربية أبقار كثيفة .

الثروات المعدنية :

لقد كان اكتشاف الألماس ، ثم الذهب خلال أواخر عقود القرن التاسع عشر ، واستغلال اليورانيوم حالياً ، عبارة عن أحداث حاسمة بالنسبة لاقتصاد جنوب أفريقية ، لأن هذه الثروات التعدينية تقدم للبلاد الشطر الأعظم من العوائد ، وتجذب إليها الرساميل وتعجّل عملية تجهيز البلاد . وتقع مناجم **ألماس** قرب كيمبرلي في إقليم الكاپ ، وفي بريتوريا وفي الترانسڤال ، حيث يستخرج من الصخر المحلي وحتى أعماق كبيرة ، مقادير جسيمة من الفلزات التي تخضع للعديد من العمليات الصناعية (شكل ٣) . ويتطلب استغلال هذه المناجم توظيفات مالية جسيمة أكثر مما هو الحال في زائير ، حيث لاتعمل الورشات أكثر من جرف سماكات قليلة من اللحقيات . وهناك شركة بريطانية قوية هي شركة دوبيرز De Beers تشرف على سوق الألماس العالمية بفضل إنتاج جنوب أفريقية الذي



مقطع لأفريقيا الجنوبية

الشكل ٠٣

يغلب عليه ألماس المجوهرات ، ويشكل ٦٥ ٪ من الاستهلاك العالمي ، وقد بلغ الإنتاج في عام ١٩٧٤ مقدار ٧,٥ ملايين قيراط و٧,٧ ملايين في ١٩٨٠ .

ولمناجم **الذهب** في الترنسفال دور أكثر أهمية . فهي تتطلب إنشاءات صناعية عظيمة وتستخدم جماهير غفيرة من العمال . وقد استطاعت أن تجعل من ويتواترستراند Witwaterstrand المشهورة باسم **راند** اختصاراً ، أول منطقة صناعية ، مثلما جعلت من مدينة **جوهانسبرغ** التي يسكنها ١,٧٠٠,٠٠٠ نسمة ، العاصمة الاقتصادية لكل جنوب أفريقية . وتتشكل خامات الذهب من نوع من خرسانة « صخر رملي » ذات حصباء مغلّفة بملاط كوارتزي قاسٍ جداً يضم وريقات وتبر تزن مابين ٥ غرامات و ١٠ غرامات بالطن الواحد ، و ٢٥ غراماً في أحسن الحالات . وترتصف هذه الكونغلوميرا على شكل عدة طبقات محصورة بين طبقات الحقب الأول ، والملتوية على شكل مقعر يتجه من الشرق إلى الغرب . ولما كان الأمر يستدعي استخراج الكونغلوميرا أو banket كان لا بدّ من حفر آبار وأنفاق مناجم تهبط إلى عمق يزيد مرتين أو ثلاث عن أعماق مناجم الفحم في شمالي فرنسا . ويجب رفع خامات تزن ملايين الأطنان كل عام ، وتهشيمها ، ثم طحنها ، واللجوء إلى عملية الغسل للتوصل إلى تمركز الذهب أو تثبيته بعمليات إرجاع كياوية ، ومن ثم تصفية المعدن الثمين في مصنع جرميستون الشهير ، قرب جوهانسبرغ والذي يعالج نصف إنتاج ذهب العالم . ويمكن تصور قدرة مثل هذه الصناعة والمشكلات التي يقتضي الأمر حلّها ، وقد أنتجت جمهورية جنوب أفريقية في عام ١٩٧٦ ٧٠٠,٠٠٠ كغم من الذهب ، أو ٧٠٠ طن مقابل ٦٥٥,٧ طن في عام ١٩٨١ .

أما مشكلة الأيدي العاملة فقد أصبحت حادة ذلك أن مناجم الراند تستخدم حالياً قرابة ٣٥٠,٠٠٠ عاملاً منهم ٣٠٠,٠٠٠ زنجي . وقد أنشأت إدارة المناجم مؤسسة مشتركة تقوم بتجميع الشغّيلة السود وتوزيعهم . وتوظف المؤسسة العمال بموجب عقد يمتد على ١٨ شهراً وسطياً ، وتوفر لهم الغذاء والمسكن في مجّمعات compounds لاتكون بالضرورة عبارة عن ثكنات شنيعة . ويتمتع الزنوج

بكل حريتهم في هذه المجمّعات ، ولكن عليهم أن يخضعوا لنظام منع التجول ليلاً . ويأتي عمال المناجم السود من السافانا ومن أنحاء الجمهورية ، مثلما يأتون من الأقطار المجاورة ، ويتكلمون لغات شديدة الاختلاف . وفي منتصف ١٩٨٢ طردت حكومة جنوب أفريقية أكثر من ١٧٠٠٠ عامل موزمبيقي دخلوا البلاد بصورة غير شرعية للعمل فيها ، وغالباً ما يكون المنجم بالنسبة لهم أول فرصة للتماس مع المدنية البيضاء ، وبمجرد وصولهم تبدأ تهيئتهم لحياتهم الجديدة ، ويدرّبون على تعلّم لهجة مساعدة ، ولكن أصبح تطويع العمال أكثر صعوبة ، لأن الأجور لا زالت منخفضة ، ولا تزيد عن ٥ دولارات باليوم أو ٣٠ ليرة سورية تقريباً ، هذا علماً بأن أجرة العامل المختص في اليابان والولايات المتحدة تتجاوز ٢٥ دولاراً بالساعة الواحدة . كما أن الصناعات التحويلية أصبحت توظف عمالاً من الزنوج بأعداد متزايدة ، فضلاً عن أن استقلال الدول المجاورة مثل أنغولا وموزمبيق جعل التعاقد مع العمال الأجانب أكثر صعوبة ومشقة .

كما أن **مشكلات المردود** تزداد استفحالاً ، هذا فضلاً عن أن نفقات التجهيز والاستغلال بلغت حداً جعلت تناقص نسبة محتوى الخامات تقود أحياناً لإغلاق بعض المناجم . وفي هذا الوقت أصبحت منطقة الراند القديمة ، الشرقية ، والوسطى والغربية ، تعطي أمارات النضوب ، وأصبح المردود في تناقص ويقتضي استخراج مقادير متزايدة ، وصلت إلى ٣ ملايين طن ، وكان محتوى الطن في حالتين يتراوح بين ٥ إلى ٦ غرامات بالطن .

غير أن فتح مناجم ذهب جديدة ، ذات مردود أفضل ، ولا سيما بعد أن جاء إنتاج **اليورانيوم** المستخرج من شوائب خامات الذهب ، ليفتح أمام شركات الراند منظورات وآفاقاً جديدة .

أما مناجم الفاروست راند وأورانج ، فقد بدأ التعرف عليها عشية الحرب العالمية الثانية أو فيما بعد . ويكون المحتوى من الذهب في خاماتها مرتفعة ، كما أن استخراج اليورانيوم يزيد أيضاً من الأرباح التي يمكن أن تحققها .

وقد كتب مراسل جريدة لموند الفرنسية بتاريخ ١٩٥٣/١١/٢٧ وهو نيدرغنغ يقول : « قمت بزيارة أحد هذه المناجم التي يستخرج منها الذهب واليورانيوم ، ويطلق على المستغلّة التعدينية اسم (المنظور المرح) ، والتي لا تختلف عن كثير من مثيلاتها في منطقة الراند ، وتتميز بفيلاّتها الباسمة التي يقطنها المهندسون و (بقريتها) الزنجية التي يعيش فيها ١٥٠,٠٠٠ عامل زنجي ، ومنشآتها السطحية التي لا تختلف كثيراً عن كثير من منشآت مناجم الفحم ، وعلى عمق ٢,٠٠٠ م يصبح الاختلاف على العكس محسوساً . فالحرارة تكون خانقة والرطوبة كبيرة جداً . وهناك ثلاث ورديّات تتناوب العمل

كل ٨ ساعات في أنفاق الاستخراج ، حيث تلمع المصابيح الجبهية التي يحملها العمال ، والتي تثير بريق الكوارتز الحاوي على الذهب . وهناك أنفاق أكثر عمقاً من ذلك حيث يعمل العمال في أعماق تصل إلى ٣,٠٠٠ م تحت الأرض .

وتمنح **شدة الطلب على اليورانيوم** أفريقيا الجنوبية مكانة جديدة في القضايا العالمية . ويبدو أن صادراتها من اليورانيوم أصبحت تعادل صادراتها من الذهب من حيث القيمة ، إذ بلغت مبيعاتها من هذه المادة ٤٠ مليون جنيه استرليني خلال عام ١٩٥٦ . والولايات المتحدة وكندا هما الدولتان الوحيدتان اللتان تنافسان أفريقية الجنوبية في هذا الإنتاج ، وكذلك جمهورية النيجر ، ولكن على مقياس أصغر بكثير . وبفضل العون المالي الذي قدمته الدولتان المشتريتان الرئيستان وهما الولايات المتحدة وبريطانيا استطاعت أفريقية الجنوبية بالفعل أن تجهز وتقيم المصانع التي تسمح لها باستخراج اليورانيوم في الوقت ذاته الذي تستخرج فيه الذهب وبلغ إنتاجها من اليورانيوم ٦٧٠٠ طن في ١٩٨١ .

ولما كان الإنتاج العادي المصحوب بإنتاج الذهب لا يسدّ الطلب ، فقد عمدت الشركات أيضاً للبحث عن اليورانيوم في أكداس تلال النفايات التعدينية المسماة دامبس Dumps ، والتي اندمجت مع تقادم الزمن في طبيعة المشهد الجغرافي ، ويعطي « استغلال البقايا » هذا فكرة عن المكانة التي احتلها إنتاج اليورانيوم إلى جانب استغلال الذهب .

وهناك مستغلاّت أخرى تنتج الذهب بكميات زهيدة ، كما في الترنسفال الشمالية ، والألماس من ناميبيا ، وتحتل جمهورية جنوب أفريقية الدرجة الثانية في العالم في إنتاج البلاتين بفضل مناجم الترنسفال .

وإلى جانب ذلك أنتجت جنوب أفريقية في عام ١٩٨٠ قرابة ١٨,٤ مليون طن من خامات الحديد و١٨٥,٠٠٠ طن من النحاس ، و٥٢٥٨ طن من المنغنيز ، وكمية من المانيزيت ، و ٣٨٠ طن من الأميانت و٢٩٠٠ طن من القصدير .

هذا وتملك جنوب أفريقية **شبكة خطوط حديدية** تعتبر أكثف وأنشط شبكة في القارة السوداء . كما أن موانئها مؤهلة لحركة تجارية واسعة . ويخدم ميناء **دربن** الذي يضم ٥٠٠,٠٠٠ نسمة إقليم الترنسفال ، الذي يجد مصرفاً لسلعه

في ميناء لورنزوماركيز في موزمبيق . أما ميناء **پورإليزابت** وفيه ٤٥٠ ألف نسمة ، فيقوم بتصريف أصواف منطقة الكارّو . وتحتل مدينة **الكاپ** وفيها ٢,٥ مليون نسمة موضعاً ممتازاً لتوقف السفن التي تمر من رأس الرجاء الصالح ، وكذلك بالنسبة لكل تجارة أفريقية الجنوبية ، وقد استفادت كثيراً من أزمة إغلاق قناة السويس بعد حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ بين العرب والكيان الصهيوني .

وتبدو **النهضة الصناعية** في جمهورية جنوب أفريقية **سريعة جداً** ، ذلك أن إنتاجها من الفحم الحجري الذي يناهز ١١٥ مليون طن يؤمن شطراً لا بأس به من إنتاج **الكهرباء** ، أو ٩٥,٧ مليار ك و س في ١٩٨١ ، لأنه يتعذر تنمية مواردها من الطاقة الكهرمائية في الناتال وفي إقليم الڤال Vaal والتي تؤلف ٢٪ لاغير . وإذا كانت البلاد تفتقر للنفط فإن **صناعة الحديد** في تقدم ، إذ تقع مناجم حديد قرب بريتوريا وتؤمن حاجات مصانعها الحديدية التي تنتج ٨,٧ ملايين طن من الفولاذ ، مقابل ٢,٤ مليون طن فقط عام ١٩٦٠ . هذا وتعالج خامات النحاس التي تستخرج من إقليم الكاپ ومن ناميبيا والذي يبلغ انتاجه ١٧,٠٠٠ طن ، والكروم التي تقع مناجمه في الترنسڤال ، والذي يبلغ إنتاجه ١٠٦٩ طن وتحتل بذلك المرتبة الثانية في العالم ، والمنغنيز من منطقة الكاپ وتعالجه في مصاهر محلية . ولدى هذه الدولة صناعات نسيجية ، وصناعة إسمنت تقدم ٧,٦ ملايين طن بالعام .

هذا وتصنع جنوب أفريقية حالياً قاطرات ومكائن وسيارات ، فضلاً عن الصناعات الغذائية والكيماوية التي تتطور بسرعة . وتشتمل الصادرات الصوفية على نسبة متزايدة من أصواف ممشطة أو مغسولة ، وتقوم مصانع پورإليزابت بغزل ونسج أصواف تسد حاجات السوق المحلية من الأقمشة ومن الملبوسات الصوفية .

هذا ولدى جمهورية جنوب أفريقية صناعة صيد بحري متقدمة لا سيا على

سواحل إقليم الكاپ وسواحل ناميبيا حيث التيار البارد والهائمات « البلانكتون » ، وتصل كمية صيدها إلى ٦١١,٠٠٠ (١٩٨١) طن من الأسماك ، مثلما صادت ١٨١٧ حوت بالين في موسم ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ .

نمو المدن :

تقع مدينة **جوهانسبرغ** في الترانسفال ، وهي أكبر مدينة في جمهورية جنوب أفريقية ويسكنها حوالي ١,٧ مليون نسمة ، وهي عاصمة البلاد الاقتصادية ، ورابع مدينة في قارة أفريقية بعد القاهرة والاسكندرية والدار البيضاء . أما **بريتوريا** : فهي العاصمة الإدارية ويربو عدد سكانها على ٦٠٠ ألف نسمة . وهي أكثر هدوءاً وتتمركز فيها معظم الهيئات السياسية والإدارية في الجمهورية .

لقد كانت **جوهانسبرغ معسكراً تعدينياً تحول إلى مدينة عملاقة حديثة** . فحول ناطحات السحاب الناصعة البياض في الوسط ، تقوم تلال نفايات المناجم terrils ، التي لاتتوقف عن التضخم والتعاظم . وتثور في أواخر الفصل الجاف ، أي في آب وايلول ، عواصف رملية حقيقية تجتاح الشوارع المستقيمة . وقد قال أحد الظرفاء اللاذعين يوماً ما : « إن جوهانسبرغ هي المدينة الوحيدة في العالم التي يمكن للإنسان أن يصاب فيها بمرض الرئة الصّواني دون أن يهبط إلى قعر منجم » . والواقع يعني هذا بالطبع نكتة مفرطة ، ولكن من الصحيح القول ان هذه التلال العالية المؤلفة من فضلات خامات الذهب المعالجة ، تطرح منذ فترة طويلة مشكلات عسيرة الحل أمام مهندسي المدن .

لموند : نيدرغنغ ١٩٥٣/١٢/٣

أما في إقليم الناتال فتضم **دربن** قرابة ثلاثة أرباع المليون من البيض والسود والهنود . وتحوي مدينة **الكاپ** ، وهي المدينة القديمة الاستعمارية التي تحتل موقعاً بديعاً ، حوالي ١,٢٥ مليون نسمة ، وهي العاصمة التشريعية ، ويسكنها البيض والزنوج والماليزيون ونسبة عالية من الهجناء . أما بقية مدن جمهورية جنوب أفريقية مثل پورإليزابت وسكانها ٤٥٠ ألف نسمة ، وايست لندن وفيها

١٥٠ ألف نسمة في إقليم الكاب ، ومدينة **كيمبرلي وبلومفونتين** ويسكنها ١٦٠,٠٠٠ نسمة وهي عاصمة إقليم أورانج ، فتتوسع أيضاً رغم وظائفها الاقتصادية المحدودة نسبياً .

وتقسم البلاد إدارياً إلى أربعة أقاليم هي : الكاب ، ناتال ، ولاية أورانج الحرة ، والترانسفال (شكل ٤) .

الاستيطان والمواصلات في اتحاد جنوب افريقيا

الشكل ٤

ثالثاً : المآسي الإنسانية في جمهورية أفريقية الجنوبية

يبدو أن قوم **البوشمان** وقوم **الهوتنتوت** ، الذين ينتسبون نوعاً ما إلى أقزام أفريقية الوسطى ، هم أقدم الذين استوطنوا أفريقية الجنوبية ، كما يعمل

اختلاط الهوتنتوت مع بيض منطقة الكاب ، في الماضي ، ومع الزنوج فيما بعد ، وعمق بؤس البوشمان البدائيين ، على تلاشي هذين العرقين تدريجياً .

يعيش البوشمان في سافانا بتشوانالاند بصورة بائسة ويتغذون بنوع من بطيخ صغير وبعض الدرنيات التي يقتلعونها من الأرض مع عدد قليل من رؤوس الماعز ويصطادون بالاستعانة بكلابهم بعض الحيوانات . ولا يعرفون الأكواخ بل يقطنون في كهوف كانت تسكنها الوحوش . ومع ذلك كان أجدادهم يعرفون فن الرسم على جدران المغاور ، وأصبح بعضهم رعاة ممتازين وحتى صيادي بحر مهرة . ولكن المدنية التي يتحاشونها والتي تغلفهم ستقضي قريباً على الآلاف القليلة الباقية منهم .

« جاك ويلرس » .

أما **البانتو** الذين استوطنوا تدريجياً شرقي أفريقية الشرقية ، فقد طردوا البوشمان والهوتنتوت نحو صحراءي كالاهاري وكارّو . وجاءت أقوام شديدة المراس من البانتو ، مثل **الكافريين** ، والزولو ، والماتابيليه ، وقاوموا تقدم البوير ، الذي يؤلفون اليوم ثلثي البيض من سكان جنوب أفريقية أو أكثر من ثلاثة ملايين ، مثلما تصدوا للتقدم البريطاني فيما بعد . ولا زال الكثير من هؤلاء الزنوج يعيشون في المحتجزات ، ويؤلفون قرى « كرال » أو قبائل . ولكن أكثرهم يعيشون في تماسّ مع البيض وفي أوضاع متدنّية .

ويظهر هذا الوضع الأدنى بشكل صارخ في قضايا السكن والمواصلات . وهكذا يقسر التمييز العنصري آلاف زنوج مدينة جوهانسبرغ على الانتظار خلال ساعة أو ساعتين عند « مواقف باصات الوطنيين » ، ريثما يصل الأوتوبوس الذي سينقلهم إلى حيّهم البعيد ، في المدن أو المساكن التي تقيمها البلدية لهم خصّيصاً أو إلى أحياء القصدير ، التي تدعى مدن شانتي **Shanty** حيث تتتابع الأكواخ الكئيبة حتى مسافة ٢٥ كم عن المدينة الكبرى فوق الأراضي الجرداء .

هذا ويتقاضى الزنوج الذي يقارب عددهم المليون ، من الذين يعملون في الصناعة ، أجوراً أفضل نوعاً ما من ٥٠٠,٠٠٠ عامل منجم ، بيد أنهم لا يتمتعون بالمسكن ولا بوسائل النقل . ولكنهم جميعاً ينالون أجوراً تقل عن زملائهم البيض . ويعمل الزنوج كعمال زراعيين أو كخدم ، ويبدو أن عدد الخدم الملوّنين في أفريقية الجنوبية مدهشاً ، ويعيشون في أوضاع لا تختلف في شيء عن أوضاع الرقيق .

ويؤلف الآسيويون والهجناء أقلية لا تشعر بأنها أقل من الزنوج قهراً وإذلالاً . ويجتمع **الهنود** في الناتال ، ويقارب عددهم النصف مليون ويشكلون ٣٪ والصينيون ٣٠ ألفاً ، وماليزيو الكاب ١٢٠,٠٠٠ نسمة ، كما لا يستطيع **هجناء الكاپ** الذين يقارب عددهم المليون ونصف أن يحتلوا أكثر من وظائف ثانوية . ولما كان الآسيويون عبارة عن منافسين للأوروبيين في المجال التجاري ، فقد صدر قرار في عام ١٩١٥ يحول بينهم وبين دخول البلاد .

انقسام البيض :

لا تزال الخصومة بين **الأفريكانر** وبين **بريطاني جنوب أفريقية** قضية قائمة وإن كان الطرفان متحدين في عدائهم وازدرائهم للملوّنين . ولقد استطاعت حكومة الجمهورية أن تضع على قدم المساواة اللغة الأفريكانية المشتقة من الهولندية ، واللغة الإنكليزية ، وذلك في عام ١٩١٠ ، كما استطاعت أن توجد راية وطنية ترفرق إلى جانب العلم البريطاني في ١٩٢٧ ، مثلما تمكنت من التصرف بذهبها بحرية ، دون أن تتعلق بلندن في ١٩٤٧ ، ومع ذلك استمرت المطالب « القومية » ، وذلك قبل أن تنفصل نهائياً عن رابطة الكومونولث البريطاني بسبب مشكلة التمييز العنصري .

ويحتل الأفريكانيون مكانة متزايدة الأهمية في الدولة دون التخلّي عن نفسيتهم المتفرّدة .

وإذا كان لايزال الناس الأصل الإنكليزي يلعبون دوراً مسيطراً في الاقتصاد ويستحوذون على ٨٠٪ من الثروة القومية في أفريقية الجنوبية ، فإن تفوق الأفريكانر العددي هو البارز ، لأنهم يؤلفون ثلثي البيض . كما يتمتعون بشدة توالد تزيد دوماً في نسبتهم المئوية في مجمل السكان ، مثلما يتميزون باستعمال اللغتين الإنكليزية والأفريكانية ، في حين أن الإنكليز لا يرتضون لأنفسهم تعلم الأفريكانية التي لا تصلح للاستعمال في خارج البلاد ، كما أن لهم ثقة شبه صوفية بأن لهم الحق على هذه الأرض التي كانوا أول من استقر بها ، ويتوافدون في كل يوم بأعداد متزايدة للاستقرار في المدن وشغل الوظائف الإدارية والتوصل إلى المراكز العليا . غير أن المطالب التي ينادي بها أكثر الأفريكانر تطرفاً

تثير قلق إنكليز جنوب أفريقية ، وتشوش دوماً العلاقات السياسية في داخل الجمهورية . كما يكون لهاتين الجماعتين المتميزتين من البيض موقفاً مختلفاً تجاه الهجرة الأوروبية ، فالبيض يحبذون قدوم الإنكليز ، بينما يرجح الأفريكانر مجيء الألمان والهولنديين .

هذا كما لاتخلو الرغبة في التوسع الأرضي من ضغوط خارجية معاكسة ، ذلك أن أفريقية الجنوبية لا تعترف بحق الأمم المتحدة في إدارة شؤون ناميبيا ، لأن جمهورية جنوب أفريقية تفضل إلحاقها تماماً بأراضيها ، حتى أنها لاحقت ثوار ناميبيا لداخل أراضي أنغولا في عام ١٩٨١ .

أما اليوم فقد أصبحت أفريقية الجنوبية جمهورية مستقلة تماماً ، حرة من أية علاقة سياسية مع المملكة المتحدة والكومونولث ، كما تبنّت عملتها الوطنية وهي الراند ويزيد سعره قليلاً عن الدولار ، والذي حل محل الجنيه البريطاني .

التمييز العنصري :

لا يزال **حاجز اللون** ينوء بكلكله على حياة أفريقية الجنوبية . ففيما عدا الاحتكاكات التي لا غنى عنها بين البيض وأتباعهم الملونين ، فإن الأوروبيين يتجاهلون ويريدون تجاهل السود .

ويخشى الأفريكانر أكثر مما يخشى البريطانيون ، من نتائج الاندفاع الديموغرافي السريع جداً ، والذي يميز الجماعات الملونة . وإذا كان عدد البيض يناهز الخمسة ملايين تجاه خمسة وعشرين مليوناً من الزنوج ، ومليونين من المجناء ، و ٦٠٠,٠٠٠ آسيوي ، ففي نهاية القرن قد يصل عدد البيض إلى ٦ ملايين ، مقابل ٣٥ مليوناً من الزنوج و ٤ ملايين من المجناء ومليوني آسيوي .

ترى هل سيتمكن المد الملون من إغراق المدنية الأوروبية في أفريقية الجنوبية ، كما يفكر البيض المتعصّبون ؟ ولا يرى هؤلاء إلاّ حلاً واحداً لمشكلة تعايش العروق ، وهو التمييز الصريح ، أو نظام العزل apartheid .

وإليكم فكرة أحد أعضاء الحكومة ، الذي كان في السلطة بين ١٩٤٨ و ١٩٦٠ : « ستقول لي انه ما از يتمدّن الملونون حتى يهرعون إلى رفض البقاء تحت وصاية البيض طبعاً ، ولكن لا يعني هذا أن علينا أن نتخلى عن حكم أفريقية الجنوبية أمام الملونين . أليس من الطبيعي أن يتمسك البيض بالحفاظ على هويتهم ، وثقافتهم وعلى مكانتهم في هذه القارة ، وألاّ يتصوّروا احتال طردهم أو تهجينهم ؟ »

وترمي سياسة العزل إلى إسكان كل عرق في مناطق متميزة ، حيث يمكنهم التطور حسب حركيتهم الخاصة بحيث تكون المدن مقسومة إلى أحياء موزعة حسب المجموعات العرقية المختلفة .

ولكن سياسة العزل التي تدخل حيّز التطبيق ستؤدي وتؤدي حالياً إلى تسميم العلاقات المتوترة بحد ذاتها بين العروق القاطنة في أفريقية الجنوبية ، وستظهر بالضرورة ، في أعين الملونين ، كتعبير تعسّفي عن سيطرة البيض .

ففي جوهانسبرغ مثلاً اضطر ١٠٠,٠٠٠ نسمة من المليونين إلى النزوح عن مساكنهم تطبيقاً لقوانين التمييز . كما أن ستة مناطق حضرية مخصصة للبيض أصبح واجباً على السود أن يخلوها ، كما أن على ٢٢٠٠٠ هندي أن يتركوا دكاكينهم ومساكنهم لسكنى الحي المخصص لهم على مسافة ٣٠ كم عن قلب المدينة .

وهكذا تنوء مأساة العروق ، مأساة هذين « العالمَيْن اللذين يتقابلان في الشوارع دون أن ينظر أحدهما في عيني الآخر » تنوء بثقلها أكثر فأكثر على مصير أفريقية الجنوبية أكثر مما تنوء على نجاحاتها المادية .

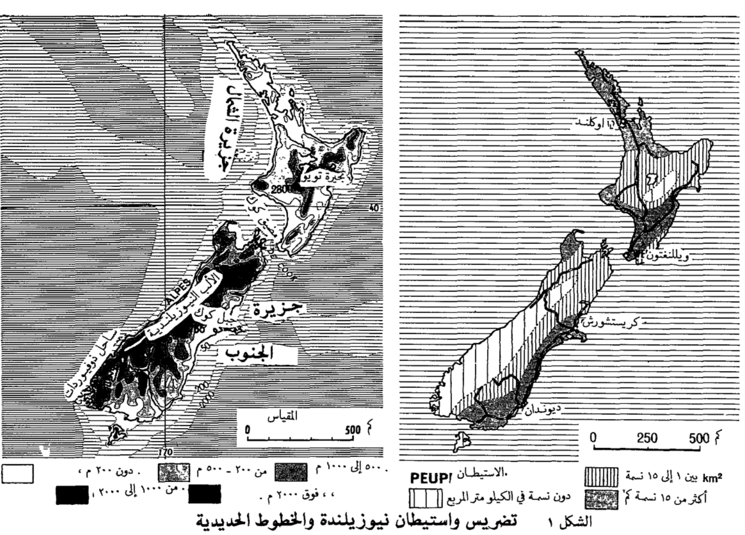
جمهورية جنوب أفريقيا في مطلع الثمانينات

يبدو وضعها عسيراً ، فبعد اضطرابات سويتو في ١٩٧٦ جاءت المشكلة العرقية الجديدة لتثير العنف والتمرد . بيد أن مستوى معاش السكان البيض لم يكن في أي يوم مضى بمثل هذه السوية من الارتفاع . فقد انخفضت الضرائب ، وخفّضت الضرائب على الأرباح من ٤٦ ٪ إلى ٤٢ ٪ ، وتوزع شركات تعدين الذهب أرباحاً سنوية تبلغ ٢٠ أو ٢٢ ٪ من قيمة الأسهم ، مثلما زادت الرواتب والمعاشات التقاعدية . ويتصف الميزان التجاري بفائض كبير بفضل ارتفاع سعر الذهب ولتحسن وضع الصادرات الأخرى كالفحم والكروم والمنغنيز . غير أن الوضع لا يخلو من الغيوم ، فميزانية عام ١٩٨٠ خصصت ١٢ ٪ زيادة على مصروفات الدفاع الوطني أو ما يعادل سدس الميزانية ، مثلما أدخلت زيادة على نفقات النقل والمناجم بحوالي ٣٦ ٪ في حين خفضت القروض المخصصة للصناعة بمقدار ٢٢ ٪ . هذا

ويزيد قلق الأوساط الدولية بسبب مصاعب التميز العنصري ، وراحت الاستثمارات المباشرة تنكمش كما أصبح الحصول على القروض الخارجية أكثر صعوبة ، مثلما راحت الهجرة البيضاء من البلاد تتفوق على الهجرة إليها . كما أوقفت إيران صادراتها من النفط إلى جنوب أفريقيا تماماً بعد أن كانت أكبر دولة مصدرة للنفط لهذه الجمهورية . وقد انخفض المستوى المعاشي الإجمالي بصورة خفيفة خلال السنوات الأربع الأخيرة ويستقر التضخم فوق ١٢ ٪ سنوياً ولا سيما وأن البطالة أصبحت مأساوية بين الجماهير السوداء ويبلغ عددهم المليون أو ٦٠٠,٠٠٠ في مناطق سكنى البيض ويتقدّم في كل عام ٢٠٠,٠٠٠ شخص جديد لسوق العمل .

هذا كما يلاحظ وجود بطالة وافتقار إلى الأيدي العاملة الماهرة بين ظهراني البيض . وتبدو تبعية الطاقة خطيرة رغم العثور على بدائل ثانوية إذ لم يعد النفط يمثل سوى خمس الحاجات إلى الطاقة نظراً لتوفر الطاقة الكهرمائية والفحم في مكامن هامة . وهناك برنامج ضخم للتوسع في إنتاج الكهرباء فقد قامت ثلاثة مراكز طاقة حرارية وتمّ بناء سد في غرب مقاطعة الكاب . بيد أن النفط يظل مادة لاغنى عنها في مجال النقل والمواصلات والدفاع والزراعة . وعلى الرغم من التنقيب المكثف عن النفط لم يمكن العثور على أي بئر منتجة . وهكذا اضطرت البلاد إلى اللجوء لبعض التدابير كشراء النفط من السوق الحرة بأسعار أكثر ارتفاعاً وإقامة مخزونات استراتيجية تكفي لمدة ثلاثة أعوام على الأقل وربما لخمسة وتقنين شديد في الاستهلاك اعتباراً من حزيران ١٩٧٩ واستعمال الفحم المسيّل في مصانع ساسول Sasol لأن مصانع ساسول رقم ١ لاتنتج ٥ ٪ من الحاجة إلى الوقود السائل وقدّم ساسول رقم ٢ ٢٥ ٪ في عام ١٩٨٠ لولا أنه تعرض لعملية تخريب ، ويتم بناء مصنعين مماثلين من النمط نفسه ، وأفريقيا الجنوبية هي القطر الوحيد في العالم الذي يمارس بانتظام إقامة هذا النوع من المؤسسات ، وتفكر البلاد في استعمال الإيتانول éthanol انطلاقاً من منتجات نباتية كالذرة الصفراء والخشب والشوندر السكري . وهناك تفكير بالحصول على مابين ١٥ و ٢٠ ٪ من الوقود السائل من إنتاج الميتانول والإيتانول مقابل ٤٧ ٪ انطلاقاً من محروقات سائلة مستمدة من الفحم . وقد بلغ الإنتاج التعديني مستويات قياسية من الأسعار أو ١٢ مليار دولار (+ ٢٧,٥ ٪ عن ١٩٧٨) . ويعود هذا في معظمه للارتفاع المذهل في أسعار الذهب وهو المادة الرئيسة في صادرات جنوب أفريقيا . وقد بلغت المبيعات ٧ مليارات مقابل ٤,٥ في ١٩٧٨ وزادت أيضاً أثمان مبيعات الفحم ، الذي شهد ازدهاراً كبيراً منذ ظهور أزمة الطاقة ، وتصديرها إلى أوروبا والشرق الأقصى بحيث أصبحت جنوب أفريقيا ثاني دولة تصدر الفحم إلى فرنسا (٦٠٠ مليون دولار) ، وصادرات النحاس بقيمة ٢٣٣,٧ ملايين دولار ، ومبيعات ضخمة من الألماس على يد شركة دوبير De Beers بلغت ٦٧٠ مليون دولار . وتعتبر أفريقيا الجنوبية أكبر بلد مصدر للأقطار الغربية بالنسبة للعديد من المواد الاستراتيجية كالمنغنيز والكروم والأورانيوم . ويتمركز أربعة أخماس الإنتاج الصناعي في أربعة مراكز عمرانية هي : جوهانسبورغ -

بريتوريا ، الكاب ، دربان ، بور اليزابت . أما الزنوج القاطنون بين ظهراني البيض home lands والذين يؤلفون ثلث مجموع السكان فلا يقدمون أكثر من ٢,٥ إلى ٣ ٪ من الناتج القومي الخام . ويبذل جهد كبير في سبيل التخلص من مركزية الفعاليات الاقتصادية ولكن دون نجاح يذكر . وهناك رغبة لدى الحكومة في توسيع دور الدولة ولكن ذلك لا يحظى بالإجماع . وتعاني أفريقيا الجنوبية من تبعية كبرى في التجارة الدولية التي تمثل ٥٠ ٪ من الناتج القومي الخام (٢٥ ٪ مع اليابان ، ٤١ ٪ مع ألمانيا الاتحادية و ١٤ ٪ مع الولايات المتحدة) . وتبلغ نسبة التجارة الخارجية مع ستة أقطار أكثر من الثلثين وهي : المملكة المتحدة والولايات المتحدة وألمانيا الغربية واليابان وفرنسا وإيطاليا . وتتقدم ألمانيا بشكل مدهش في هذا المجال . وتصدر أفريقيا الجنوبية بالأساس الذهب والمنتجات الزراعية والمواد الأولية التعدينية والمنتجات نصف المصنوعة ، وتستورد سلع الاستهلاك بنسبة ٢٠ ٪ والمواد التجهيزية ٥٠ ٪ والمنتجات الخام وشبه المصنوعة ٣٠ ٪ . وتقوم في البلاد ٢٢٠٠ مؤسسة صناعية واستخراجية وزراعية منها ١٢٠٠ بريطانية أي النصف و ٤٥٠ ألمانية و ٣٥٠ أمريكية ولا تتجاوز نسبة مبادلاتها مع الأقطار الأفريقية ١٠ ٪ .



الشكل ١ تضريس واستيطان نيوزيلندة والخطوط الحديدية

أستراليا ونيوزيلندة

لقد جرى إعمار قارة أستراليا وجزيرتي نيوزيلندة ، المنفصلتين عن بعضهما بمسافات محيطية يتراوح عرضها بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ كيلومتر ، والتائهة في قلب البحار الجنوبية ، والمتقاطرة antipodes مع قارة أوروبا ، على أيدي البريطانيين ، وذلك منذ مطلع القرن التاسع عشر .

فعلى الرغم من الاستقلال الكامل لهاتين الدولتين ، فإن كلاً منهما يؤلف **دومينيون** ناءٍ ومنعزل ، ولا زالا **أكثر أعضاء الكومونولث تشبثاً به** ، ويؤلفان أكثر قواعد النفوذ البريطاني متانة فيما وراء البحار ، ذلك أن كلاً من أستراليا ونيوزيلندة يحتفظان بالسمة البريطانية بكل حذافيرها . وقد ساعد على ذلك عزلة السكان وطبيعتهم . غير أن الأستراليين والنيوزيلنديين يتميزون جميعاً بتعلقهم الغيور بالمدنيّة البريطانية ما داموا يخشون مغبّة جوار الجماهير الآسيوية الكثيفة .

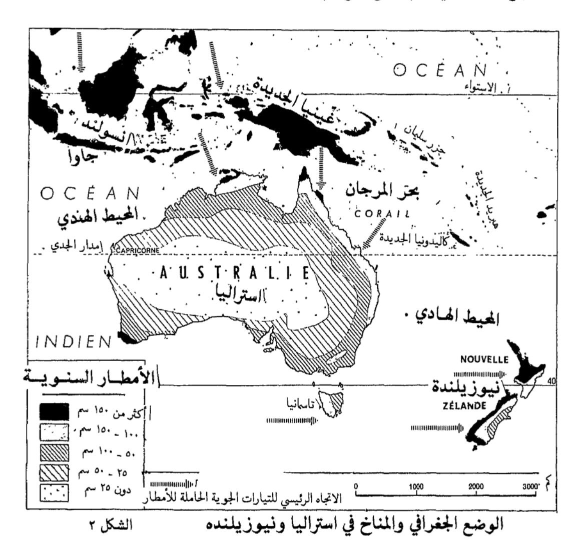
لقد اتخذت نيوزيلندة كل ملامح بريطانيا العظمى ، فتبنّت كل تقاليدها ، حتى تلك العقلية التي أصبحت متراخية في إنكلترا القديمة ذاتها . ففي يوم الأحد يشاهد السائح فوق مروج الساحات البلدية ، وذلك في كل أرجاء الجزيرتين ، كيف ينهمك اتباع لعبة البولنغ ، ولاعبي الكروكيت ، وهم بلباسهم الأبيض ، وبقبعاتهم العريضة ، في هذين النوعين من الرياضة التقليدية ، المريحة ، بجوار المزارع الصغيرة التي تتمدد بجوار المدن ، مثل مدينة أوكلاند ، لمسافة ٥٠ كيلومتراً ، وذلك ضمن ديكور بريطاني بحت .

« ب . لوران »

أولاً : الشروط الطبيعية

أستراليا ذات القلب اليابس

الكتلة القارية الأسترالية : تكاد أستراليا بمساحتها البالغة ٧,٦٨٦,٨١٠ كيلومتر مربع تعادل مساحة أوروبا ، فهي أصغر القارات وأكبر جزيرة في العالم . فهي تمثل في نصف الكرة الجنوبي ، بين المحيط الهندي والمحيط الهادي ، كتلة قارية حقيقية ذات حواف صلدة ، ذلك أن السواحل فيها تكون فعلاً نادرة الفجوات الساحلية : (شكل ١ و ٢)



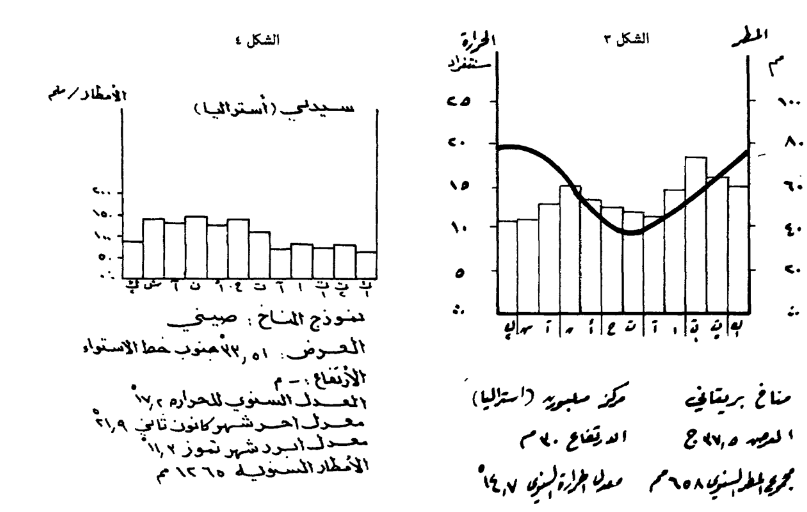
الوضع الجغرافي والمناخ في استراليا ونيوزيلنده — الشكل ٢

ففي الشمال الشرقي تؤلف أرصفة **الحاجز الكبير** المرجانية « جداراً » يمتد على طول ١٦٠٠ كيلومتر ، ويبتعد عن الساحل مسافة تتراوح بين ١٠ و ٢٠٠ كيلومتر ، ويتوسط خليج **كاربنتري** بين **شبه جزيرة يورك** شرقاً **وشبه جزيرة آرنهم** غرباً .

وفي **الجنوب** يظل **الخليج الأسترالي الكبير** شديد الانفتاح في حين يتسلّل **خليج سبنسر ، وخليج سان ڤنسان** بعمق أكبر في داخل الأرض . هذا ويقوم **مضيق پاس** بفصل أستراليا عن جزيرة **تاسمانيا** .

المناخ وقحولته : نظراً لوقوع القارة الأسترالية بين خطي العرض ١٠ و ٤٠ جنوباً فإن المدار يخترقها تقريباً من وسطها ، مثل وضع الصحراء الكبرى في نصف الكرة الشمالي . وهكذا تخضع لتأثير الضغوط العليا شبه المدارية والتي تفرض الجفاف على مثل هذه العروض ، ولا ينجو من هذه القحولة المهينة سوى المناطق الهامشية ، فتجلب الرياح الموسمية على شمال القارة وشرقها خلال الصيف الجنوبي هواء صادراً من جزر آنسولندة ومن بحر المرجان ، والمحيط الهادي . وهكذا يستفيد المناخ الحار ، من النمط المداري ، من فصل أمطار غزيرة . ولكن المناخ يصبح معتدلاً في النهايتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية ، وكذلك جزيرة تاسمانيا ، ذلك أن درجات العرض المحصورة بين ٣٥ و ٤٣ جنوباً ، بالإضافة إلى تأثير الرياح الغربية الكبرى Westerlies هي التي تفسّر وجود فصل لطيف شتاءً ، وهطول أمطار محيطية (شكل ٣و٤)

ولكن يظل ثلاثة أرباع مساحة أستراليا في الداخل قاحلاً . فهنا يسجل الترمومتر درجات حرارة شديدة الاختلاف . فبينما يكون النهار شديد الحر تتعرض الليالي لبرد قارس وتكون الأمطار عبارة عن زوابع قصيرة تتصف بعدم وجود أي نظام لها .



الشكل ٣
المطر
مم
الحرارة
سنتغراد
٢٥
٢٠
١٥
١٠
٥
٠
١٠٠
٨٠
٦٠
٤٠
٢٠
٠
مناخ بريطاني
مركز ملبورن (استراليا)
العرض ٣٧,٥ ج
الارتفاع ٤٠ م
مجموع المطر السنوي ٦٥٨ مم
معدل الحرارة السنوي ١٤,٧°
الشكل ٤
الأمطار / ملم
سيدني (أستراليا)
٢٠٠
١٥٠
١٠٠
٥٠
٠٠
نموذج المناخ : صيني
العرض: ٥١ ,٣٣° جنوب خط الاستواء
الارتفاع : – م
المعدل السنوي للحرارة ١٧,٢°
معدل احر شهر كانون ثاني ٢١,٩°
معدل ابرد شهر تموز ١١,٢°
الأمطار السنوية ١٢٦٥ مم

ارتصاف التضاريس

هناك تاج من الأراضي المرتفعة يطيف بالمنخفض الأوسط ، ذاك هو شكل التضريس الأسترالي ، مما يساهم في استفحال جفاف الداخل .

وتتألف أستراليا من ركيزة قديمة ، تسترها غالباً صخور رملية ظلّت تؤلف طبقات أفقية ، ولم تتأثر بأكثر من انعطافات خلال الحقب الجيولوجية ، فهي عبارة عن عتبة متفاوتة في ارتفاعاتها ، وهكذا لا تحوي أستراليا أية سلسلة جبلية حقيقية .

وتنبثق من **هضبة أستراليا الغربية** الفسيحة التي يتراوح ارتفاعها بين ٤٠٠ و ٥٠٠ م ، بعض سلاسل من مرتفعات تتجاوز الألف متر ، مثل جبال ماكدونل وموسغريف في قلب القارة الأسترالية . وفي الوسط تظهر سهول ركامية تحتل أطراف خليج كاربنتاريا في الشمال ، ومنطقة بحيرة آيره ، التي تهبط عن سوية البحار بمقدار ١٢ م ، وعلى أطراف حوض دارلنغ . وقد عملت بعض الصدوع في هذا **المنخفض المركزي** على انبثاق الركيزة القديمة في بعض الأمكنة ، مثل جبال فليندرز ، الواقعة في شمال مصب نهر مورّايْ .

وتظهر في الشرق **سلسلة الكورديللير الأسترالية** ، المؤلفة من قبة من الصخور القديمة ، ذات خاصرة شديدة الانحدار من طرف السهول الساحلية ، ولا يتخذ تضريسها بعض العنف إلا في الجنوب ، كما في الجبال الزرقاء ، وجبال سنووي حيث ترتفع إلى ٢٢٤٠ م في قمة كوسيوسكو ، وذلك بتأثير كسور حدثت في الحقب الثالث والتي تحكّمت في توجيه جبل غامبييه ، ومضيق پاس وجبال تاسمانيا التي تسمو إلى ١٥٤٥ م ، من الغرب نحو الشرق .

المشاهد النباتية والهيدروغرافيا

يعمل المناخ والتضريس في أستراليا على حصر المناطق الرطبة والمخضوضرة في

هامش ضيق . ففي هذه المناطق الواقعة في الشمال وفي الشمال الشرقي تنتشر غابات مدارية وساڤانات ، أما في الجنوب الشرقي وفي الجنوب الغربي فتنتشر مروج فوق السهول ، وغابات متدرجة فوق المرتفعات الغزيرة الأمطار . وهكذا تنحدر من الجبال الزرقاء ، ومن جبال سنووي أنهار جيدة التغذية أهمها نهر موراي وطوله ١٩٥٠ كم ، ونهر مورمبيدجي ، رافد موراي ، ونهر دارلنغ رافد موراي .

ولكن سرعان ما يأخذ النبات في الانحطاط والهزال باتجاه الداخل . وهنا ندخل مجال البوش busch ذي الشجيرات العقدية والقميئة ، مبعثرة فوق أرض متجففة ، دون عشب . وقد نصادف أيضاً مناطق أشد فقراً عندما يتفوق السكروب Scrub ، وهي دغيلات متراصّة لا يمكن التوغل فيها ، مؤلفة من شوكيات عديمة الأوراق ، ولكنها مسلّحة بأشواك تكون أحياناً سامة .

وإذا كانت البقاع المحرومة من أي نبات لا تحتل سوى القليل من الأمكنة فإن قلب أستراليا « الميت » يضم صحاري لا تقل رهبة عن أسوأ فيافي الصحراء الكبرى .

ويؤدي التبخر وتجفف الترب إلى الحيلولة دون وجود أي جريان مائي في الأودية . وهكذا تظل سرر الأودية creeks الحصوية جافة على الدوام تقريباً ، ولكن نجد على ضفافها نباتات شحمية تشهد على وجود الماء المتسرب نحو أعماق اللحقيات alluvions . وهكذا تنهمر على أثر العواصف المطرية كميات كبيرة من المياه الوحلية في هذه الأودية الجافة وتجري لمسافة ١٠ أو ٢٠ كم وأحياناً أكثر من ذلك ، ولكن سرعان ما ينضب معين هذه الموجة العارمة . كما أن نهر دارلنغ نفسه ، الذي يتحدّر من سلسلة الكورديللير « السراة » الشرقية ، يفقد صبيبه الأصلي عند اختراقه المنخفض الأوسط ، وعند النصف الأدنى من مجراه لا يكون أكثر من وادٍ سيلي هزيل . وتنتهي الأودية الوقتية ، أو كريك ، في سهول تحجب تربتها الغضارية أوحال خطرة والتي تكون منخفضاتها مشغولة بسبخات ذات ضفاف متبدلة .

ويعتمد سكان هذه المناطق على أغشية المياه الباطنية للحصول على الماء الذي لا حياة لهم

بدونه . وهكذا تم حفر ٤٠٠٠ بئر عميقة في **الحوض الأرتوازي الكبير** ، والتي تنتج ماء شديد التعدن لا تستسيغ شربه سوى الحيوانات ، ولكن من أجل سقي المزروعات يجب الاعتاد على أغشية مياه أقرب من سطح الأرض ، والتي تكون بالتالي ذات مخزونات محدودة ، لأنها عبارة عن احتياطات جيولوجية لا تتجدد على المدى القصير .

أرض غير مضيافة

لقد ظلت أستراليا المعزولة ، والخاضعة لشروط طبيعية غير موائمة ، ظلت حتى القرن التاسع عشر **أرضاً بدائية** لا تملك سوى القليل من الجاذبية أمام الإعمار والاستيطان .

وإذا كانت بعض النباتات المحلية مثل الأوكاليبتوس[1] والسنط تقدم بعض الموارد ، فإن الكثير منها كان ضاراً بالإنسان وبالتربة ، لهذا كان من الضروري أقْلمة كل النباتات المزروعة تقريباً .

أما العالم الحيواني ، **الوحيش** ، الأسترالي الذي كان مقطوعاً عن بقية العالم ، فقد كان يحوي على بعض أنواع الثدييات الدنيا التي تلاشت منذ بضع عشرات الملايين من السنين من القارات الأخرى ، كالكنغر مثلاً . وهكذا اضطر أوائل المعمرين البريطانيين إلى استقدام الحيوانات الأهلية . غير أن هذه المبادرات لم تكن دائماً موفقة ، وهكذا تكاثرت الأرانب والكلاب بأعداد مذهلة في مناطق الدغيلات « بوش » حتى أصبحت تؤلف محنة مخيفة أمام تربية الأغنام .

إذن كانت أستراليا ، أكثر من أية بقعة في العالم ، بلداً جديداً وكان على الإنسان أن يصنع فيه كل شيء .

لقد ظلت جزيرة الكنغر التي تمتد على طول ١٧٠ كم ، والتي تمتد في مواجهة خليج سان ڤنسان ، ظلت حتى أواسط القرن العشرين عبارة عن منطقة عاجزة عن توفير معيشة أكثر من ١٠٠٠

(١) ويسمى خطأ الكينا في سورية والكافور في مصر .

نسمة . فلم تكن تنتج سوى القليل من الشعير ، والقليل من صمغ المشاب ، والقليل أيضاً من دهن الأوكاليبتوس . أما باقي نباتها فكان يماثل النجيل الذي تصنع منه المكانس . وظل المزارعون قابعين في سهول الطرف الشرقي من الجزيرة ، وهو الوحيد الخصيب تقريباً . وكانت كل محاولاتهم لاستزراع المناطق الأخرى عرضة للفشل .

وعندما فكرت الحكومة ابتداءً من عام ١٩٤٥ في منح قطع من الأراضي للجنود المسرّحين ، قررت أن تقيم مزارع جديدة فوق المناطق الشاغرة من الجزيرة ، ولكن العملية لم تكن ميسورة فقد اضطرت إلى اقتلاع أشواك العلّيق بواسطة سلاسل ضخمة تسحبها الجرارات ، وقامت الجرافات بتسوية الأراضي ، وأعقبتها المحاريث التي غرست فيها سككها لعمق نصف متر ، ثم تلتها عملية تمشيط الأرض لصنع الأثلام التي تلقّت بذار نبات المراعي المقبلة ، وقامت طيارات عديدة بنثر أطنان الأسمدة فوق الأرض .

وهكذا أمكن استصلاح ٥٠,٠٠٠ هكتار وتم تمديد ٤٠٠ كيلومتر من السياجات لتحديد الحيازات الجديدة الممنوحة للمعمّرين الجدد ، ولبناء حوالي ١٠٠ مزرعة نموذجية بكامل تجهيزاتها . وفي عام ١٩٤٦ أصبحت الجزيرة تؤمن المرعى لقطعان بلغ تعدادها ٨٥,٠٠٠ رأس ، وفي ١٩٥٢ أصبحت أعدادها ١٥٠,٠٠٠ رأس ولكن البرامج تستهدف رفع عدد القطيع إلى مقدار ٥٠٠,٠٠٠ رأس .

نيوزيلندة

وتتألف الجزيرتان من قوس جبلي في المحيط الهادي الجنوبي ، ولا تزيد مساحتها عن ٢٧٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ، أي ما يعادل مساحة سورية والأردن . ولهذا لا يكون لهما الطابع القاري الذي رأينا في أستراليا ، التي تزيد مساحتها أكثر من ٣٠ مرة عن نيوزيلندة . وتنفصل **جزيرة الشمال** عن **جزيرة الجنوب** بمضيق كوك ، فتمتدان على شكل قوس طوله ١٥٠٠ كم ولا يتجاوز ٣٠٠ كم عرضاً في حده الأقصى . ويكون **التضريس عنيفاً والمناخ رطباً** مما يجعل الشروط الطبيعية أفضل بكثير مما هي في أستراليا .

وهكذا تنتصب في جزيرة الجنوب جبال **الألب النيوزيلندية** وهي سلاسل من أعراف ومن جموديات عند حافة الساحل الغربي الذي يبدو مفرّضاً بالفيوردات ، ويصل ارتفاع هذه السلسلة ذات التكوين الحديث إلى ٣٧٦٥ متراً

في جبـل كـوك . وتطـل سفـوحهـا الشرقيـة على بحيرات قـابعـة في قعر الأوديـة الجمودية السابقة ، هذا فضلاً عن سهول ساحلية تتفاوت في اتساعها .

أما جزيرة الشمال ، أو الجزيرة « المدخّنة » كما يسميهـا السكان الوطنيون من الماؤوري Maoris فقد انتابتها انكسارات حديثة جداً ، لا تزال قادرة على الحركة في أعقاب الزلازل . ونجـد بين الحـافتين الجبليتين ، في الشرق وفي الغرب ، حفرة متوسطة تحتلها بحيرة توپو ، وتضم عدداً من البراكين الناشطـة ، وبراكين وحل ، ونافورات مياه حارة geysers .

هذا وتسكـب الرياح الغربية على الجزيرتين مقادير ضخمـة من التهطـالات الغزيرة مع حد أقصى شتوي نظراً لهيمنة المنـاخ المعتـدل المحيطي . غير أن الجزيرة الشمالية التي تقع على درجـة عرض تمـاثل البرتغـال في نصف الكرة الشمالي تتصف بصيف حار وبشتاء عذب وتختلط في نبات غاباتها عنـاصر روميـة « متوسطيـة » كالسنديان مع نباتات مدارية كالنخيل .

أمـا جـزيرة الجنـوب ، ذات الصيف اللطيف الحرارة ، والشتـاء الـواضـح ، فتكون ذات جبـال مستـورة بـالمخروطيـات ، في حين تتلقى السهـول الشرقيـة ، الواقعة خلف حاجز جبال الألب النيوزيلنـديـة المكثفـة للأمطـار ، أقل من متر واحد من المطر السنوي ، وتنتشر فيها المروج العديمة الأشجار .

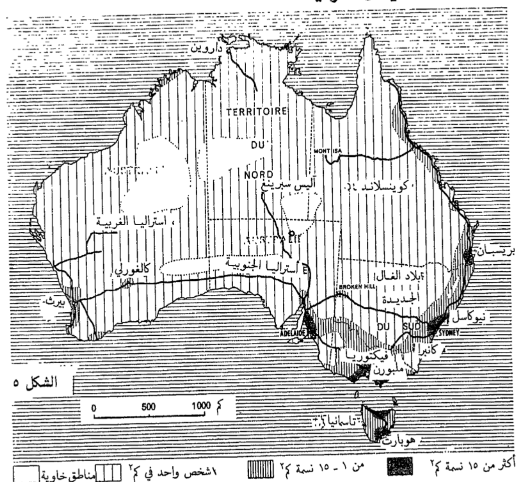
ثانياً : السكان والاستيطان

يتجاوز عدد سكان أستراليا حالياً ١٥ مليون نسمة ، وكانوا حسب تقـديرات ١٩٧٧ ، ١٤ مليوناً و ١٢,٩ مليوناً بعد إحصاء شهر آذار ١٩٦٢ ، في حين يبلغ عـدد سكان نيـوزيلنـدة ٣,٥ مـلايين نسمـة ، وكانـوا ٣,٢ مـلايين في عـام ١٩٧٧ و ٢,٤ مليون في ١٩٦١ .

وتكون ندرة الناس فوق هذه الأراضي ، حيث لا تزيد الكثـافـة الأستراليـة

عن شخصين في الكيلومتر المربع ، مقابل ١٢ نسمة في نيوزيلندة ، تكون محسوسة أكثر لشدة التناقض القائم بين سكان **الأرياف المتخلخلين** والمبعثرين ووجود مدن كبرى في **أقصى توسعها وازدهارها** (شكل ٥) .

استيطان استراليا ء والخطوط الحديدية الرئيسية



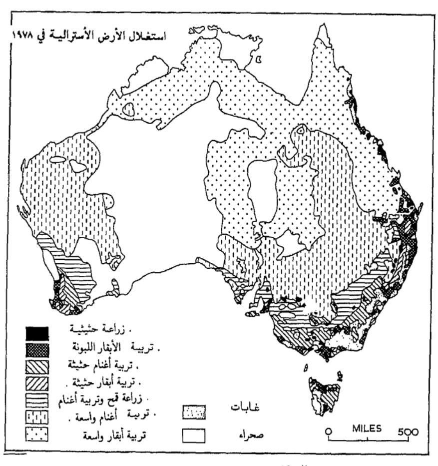
ففي أستراليا لا تزال مساحات شاسعة في قلب القارة خاوية من السكان . أما مناطق تربية الماشية الواسعة extensif التي تغطي معظم مساحة البلاد فلا تتجاوز الكثافة فيها شخص واحد في الكيلومتر المربع . بيد أن سيدني تضم أكثر من ٣ ملايين نسمة مقابل ٢,١ مليون قبل عشرين عاماً ، **وملبورن** ٢,٢ مليون ، **بريسبان** ٧٠٠,٠٠٠ ، **وآديلائيد** ٩٥٠,٠٠٠ نسمة ، **وبرت**

٨٠٠,٠٠٠ ، **وهوبارت** ١٧٥,٠٠٠ . وهكذا تستأثر عواصم الولايات الأسترالية بحوالي نصف سكان القارة (شكل ٦) .

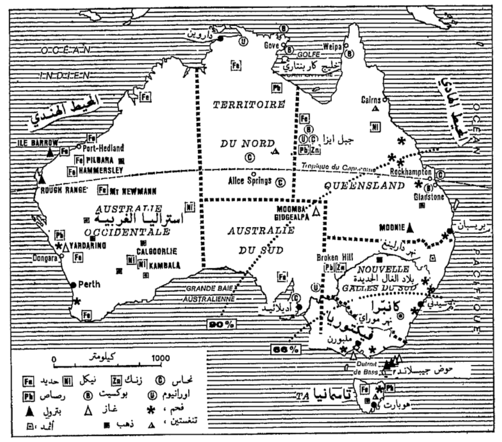
هذا ويحوي جنوب شرق الجزيرة مع العاصمتين المتنافستين ، أي سيدني وملبورن وفيها ٢٥٠,٠٠٠ نسمة ، مع أكثر المناطق الزراعية استغلالاً ، ثلثي سكان البلاد (شكل ٧) .

وعلى كل تقسم البلاد إلى ست ولايات ومنطقة واحدة ودائرة واحدة .

١ ـ **أستراليا الغربية :** ومساحتها ٢,٥ مليون كم٢ ، سكانها ١,٢ مليون ، عاصمتها پرث ، ومن المدن الهامة فيها فريمانتل ٢٥٠٠٠ نسمة ، وكالغورلي ٢٢٠٠٠ نسمة ، وبونبورغ ١٦٠٠٠ نسمة .



الشكل ٦



الشكل ٧

نجد فوق هذه الخارطة مواقع أهم الثروات المعدنية . وإذا كانت المناجم مبعثرة فوق مجمل رقعة البلاد فإن السكان ، على العكس ، شديدو التركز . لأن ٦٦٪ من الأستراليين يعيشون في مدن الجنوب الشرقي الأقصى و٩٠٪ في « القرن » المؤلف من ولاية ڤيكتوريا ، وبلاد الغال الجديدة وجزء من كويسلاند ومن أستراليا الجنوبية

٢ ـ أستراليا الجنوبية : ومساحتها ٨٠١,٤٠٠ كم٢ ، سكانها ٤,٥ ملايين ، عاصمتها سيدني ، ومن مدنها الهامة نيوكاسل ٢٦٠,٠٠٠ ، ولّونغونغ ١٥٠,٠٠٠ ، سسنوك ٣٧,٠٠٠ .

٣ ـ **كوينسلاند :** ١,٧ مليون كم٢ ، يسكنها ٢,٣ مليون نسمة ، عاصمتها بريسبان ، ومن مدنها الهامة تونسڤيل ٦٠,٠٠٠ ، تووومبا ٥٥,٠٠٠ ، وايبسويش ٥٤,٠٠٠ وروكهامبتون ٤٧,٠٠٠ .

٤ ـ **ڤكتوريا :** ٢٢٧,٦٠٠ كم٢ ، وفيها ٣,٧٥ ملايين ، وعاصمتها ملبورن ومن مدنها الشهيرة جيلونغ ١٢٠,٠٠٠ ، وبالآرال ٦٠,٠٠٠ ، ويندیغو ٤٤,٠٠٠ .

٥ ـ **منطقة الشمال :** ومساحتها ١,٣ مليون كم٢ ، وسكانها ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، عاصمتها داروين .

هذا وتصل نسبة التوالد الأسترالية إلى ١٧ بالألف والوفيات ٨ بالألف ، ونسبة وفيات الأطفال ١٤ بالألف ويصل العمر المتوسط إلى ٧٢ سنة ، وترتفع نسبة سكان المدن إلى ٨٦ ٪ .

أما في **زيلندة الجديدة** فتكون الكثافات السكانية الوسطى أعلى مما هي في أوستراليا ، غير أن جبال الجنوب ووسط جزيرة الشمال يظلاّن خاليين من السكان تقريباً ، ويعيش في مدينة **أوكلاند** ٨٥٠,٠٠٠ نسمة مقابل ٤٠٠ ألف قبل عشرين عاماً أو ٢٠٠,٠٠٠ في **ويللنغتون** العاصمة ، و ٣٥٠,٠٠٠ في كريستشورش ، و ١٣٥,٠٠٠ في دوندين ، أي يعيش في المدن ٨١ ٪ من السكان ، ولكن نصف السكان يتمركزون في هذه المدن الأربع الكبرى .

وتبلغ نسبة توالد سكان نيوزيلندة ١٨ بالألف ، مقابل ٨ بالألف للوفيات أي بزيادة سنوية تعادل ١ ٪ أي يحتاج السكان لمدة سبعين سنة لكي يتضاعف عددهم ، ولكن يصل العمر المتوسط عندهم إلى ٧٢ سنة مثل الأوستراليين مقابل ٥٥ سنة وسطياً في الأقطار العربية .

ولقد ظلت أستراليا ونيوزيلندة حتى مطلع القرن التاسع عشر منعزلتين عن الطرق البحرية الكبرى وخاليتين من السكان فعلاً .

أمـا **الأستراليـون الأصليـون** ، فكان عـددهم لا يتجـاوز بضـع عشرات الآلاف ، وظلـوا في مستـوى العصر الحجري ، ولا يحسب لهم حسـاب في تعـداد سكان أستراليا ، ويقدر عـددهم حـاليـاً بحوالي ٧٠,٠٠٠ نسمـة . ولا تزال تعيش في أراضي الشمال بعض مجموعاتهم حياة بدائية ضمن الأحراش ، أما في باقي المناطق فقد أمكن استخدامهم رعاة غنم . وقد وفـدوا إلى هـذه الجزيرة منـذ ٤٠,٠٠٠ سنـة من قارة آسيا نتيجة طردهم من قبل أقوام أقوى شكيمة أو نتيجة ضغط ديموغرافي . أمـا جماعـات **المـاؤوري** في نيوزيلنـدة فقـد كانوا يقطنون الجزيرة الشماليـة فقـط ، وهـؤلاء الـوطنيـون الـذين ينتسبـون إلى العرق البـولينيزي قـاومـوا في البـدايـة استيطان المعمرين البيض الإنكليز . أما الآن فيشكلون أقلية صغيرة يبلغ تعدادها ٣٠٠,٠٠٠ نسمـة ، أو أقـل من عشر السكان وأصبحـوا يتمثّلـون المـدنيـة الأوروبيـة الحديثة بسرعة .

أما **العنصر الأنكلوسكسوني** : فقـد وصل البيض الإنكليز لأول مرة لهـذه البلاد بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٧٨٨ بعد رحلة محفوفة بالأخطار استغرقت تسعـة أشهر ، وعلى متن السفينـة ١٠٣٠ شخصـاً ، يتـألفون من بعض الإداريين والجنـود والباقي من المحكومين من رجـال ونسـاء نتيجـة جرائم صغرى أو جرائم سيـاسيـة ، حكم عليهم بالنفي لمسافة تزيد عن ٢٠,٠٠٠ كم عن وطنهم كي يقضوا في المنفى مدة تتراوح بين ٧ و ١٤ سنـة أو مـدى الحيـاة ، ثم تلاهم البـاحثون عن الـذهب الـذين تدفقوا على البلاد حتى نهـايـة القرن التـاسع عشر ، ثم سـار على خطـاهم المعمرون الذين اعتمدوا على تربية الماشية فوق الأراضي التي منحتهم الدولة دون سند تمليـك أو squatters ، أو المزارعون الذين استأجروا أو اشتروا مزارعهم .

أمـا في نيوزيلنـدة فكان التشريـع العقـاري يشجـع على إنشـاء مـزارع ذات مساحة متوسطة .

أمـا في أستراليـا فلم يكن الكادسترو يغطي سوى رقعـة صغيرة من مسـاحـة

البلاد . ولكن يسمح لمحطات تربية الماشية أن تقوم فوق « أراضي التاج » وأن تمتد على مساحات تعادل مساحتها إحدى المحافظات السورية الصغرى .

وظل التطور الديموغرافي حتى عام ١٩٤٠ ناتجاً عن التزايد الطبيعي لدى السكان الأستراليين والنيوزيلنديين ، حيث كانت نسبة التوالد عالية نسبياً مع نسبة وفيات منخفضة ، بالإضافة إلى نسبة محددة من المهاجرين الذين لا يمكن أن يكونوا إلا من البيض . ولكن الأفضلية كانت للبريطانيين . ولما كانت رغبة الأستراليين والنيوزيلنديين في أن يظلوا من الشعوب البيضاء ذات المدنيّة البريطانية فقد منعوا أي هجرة آسيوية قد تؤدي إلى نشوء أقلية تعتبر غير قابلة للتمثيل وإلى تدهور الأجور ، وإلى انخفاض مستوى المعيشة . وقد استقدم الأستراليون بضع مئات من الأفغان عملوا في تربية الإبل التي كانوا بحاجة إليها لارتياد مناطق أستراليا الداخلية ، ولكن هؤلاء جاؤوا بدون نسائهم ، وتزوجوا من النساء الإنكليزيات فانصهروا ولم يعد لهم أثر حالياً .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، وبدأ خطر الاجتياح الياباني تراءى للعيان خطر قلة الاستيطان . وهكذا لجأت الحكومتان إلى تشجيع **الهجرة إلى البلاد** ، مع منح الأفضلية دوماً للأنكلوسكسون ، فاستقبلوا بترحاب أكبر الأوربيين من كل جانب مثل الهولنديين والألمان والطليان مع التشديد على تحقيق التمثل السريع .

لقد استقبلت الحكومة الأسترالية منذ فترة ١٩٤٧ ـ ١٩٦٠ ما بين ١٥٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ مهاجر في كل عام مما تجاوز وتيرة الهجرة بين ١٩٢٤ إلى ١٩٢٩ حيث كان معدل الهجرة السنوية يتراوح بين ٤٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ نسمة ، مثلما تجاوزت نسبة السنوات السابقة التي كانت أكثر ضعفاً ونسبة فترة ١٩٢٩ حتى ١٩٤٦ حيث كانت الهجرة متوقفة تماماً .

وهكذا تبدو الهجرة إلى أستراليا أكثر سرعة بمرتين مما كانت عليه الهجرة إلى الولايات المتحدة ، هذا إذا أخذنا نسبة السكان المقيمين بعين الاعتبار . فبعد أن كان عدد سكان أستراليا ٧,٦ ملايين في ١٩٤٧ قررت الحكومة رفع عدد السكان إلى ١٤ مليون نسمة حوالي العام ١٩٧٥ ، أو بمعنى آخر مضاعفة

سكان البلاد في خلال جيل واحد وهذا ما أنجزته بالتمام . والواقع أن مثل هذا البرنامج الجريء كان أمراً مفروضاً لأن أستراليا تفتقر للأيدي العاملة وتخشى نتائج اكتظاظ سكان قارة آسيا القريبة . ولقد صرّح وزير أسترالي في الخمسينات قائلاً : « إن الهجرة على المستوى الذي اخترناه تبدو مخاطرة عظيمة ومغامرة كبرى ، ولكنها مخاطرة يجب التسليم بها إذا أردنا لأنفسنا البقاء » .

وفي ١٩٦١ كان عدد سكان أستراليا قد تجاوز ١٠,٥ ملايين . وراحت الهجرة إلى أستراليا تتزايد خلال الستينات بمعدل قدوم ١٠٠,٠٠٠ نسمة في العام مع حد أقصى بلغ ١٨٥٠٠٠ نسمة في موسم ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ . ولكن كانت غالبية القادمين في هذه المرة من البريطانيين بسبب تعرض بلادهم لأزمات اقتصادية .

أما الهجرة الآسيوية ، التي كانت تمثل ٢,٥ ٪ من المهاجرين في ١٩٦٨ ـ ٦٩ ، فقد بلغت ٢٩ ٪ في عام ١٩٧٩ بعد تبني سياسة عدم التمييز في العرق واللون والقومية في ١٩٧٣ . وكانت هذه الظاهرة تشكل انقلاباً كاملاً في السياسة الرامية إلى قيام (أستراليا بيضاء) . ومنذ ١٩٧٠ أصبح الآسيويون يؤلفون أكبر زمرة من المهاجرين . وفي ١٩٦٩ طرح تدفق المهاجرين التساؤل التالي :

هل تستطيع أستراليا إدماج كل هذه الجماهير الوافدة ؟ هل يوجد ما يكفي من فرص العمل والمساكن ؟

وظهر الاهتمام بإمكانات النمو المستمر ، وباختناق المدن ، وبالتلوث ، وبنوعية المعيشة كما ظهرت الدعوة إلى تطبيق « قرائن » في اصطفاء المهاجرين .

وفي عام ١٩٧٥ ـ ٧٦ أدى رد فعل الحكومة تجاه الرأي العام وأمام تناقص في وتائر النمو الاقتصادية ومجالات العمل إلى هبوط عدد الوافدين إلى ٥٢٠٠٠ نسمة وهو أدنى رقم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

بيد أن أستراليا تحولت مرة أخرى إلى أرض استقبال اللاجئين من آسيا ومن لبنان . ففي عام ١٩٧٩ وفد ٢٢,٠٠٠ لاجئ قدموا من معسكرات اللاجئين في تايلاند ، كما جاء ١٣,٠٠٠ نسمة من الذين هربوا من جحيم الحرب الأهلية في لبنان ، كما رحبت أستراليا بدخول اللاجئين من الأنغوليين ومن الأحباش ، ومن السوريين ومن يهود الاتحاد السوفياتي .

غير أن بعض الذين وفدوا على أستراليا لم يستقروا فيها نهائياً . فعاد بعضهم إلى بلادهم الأصلية لمسائل عائلية ، أو لتألمهم من الغربة ، أو لصعوبة تواؤمهم مع البيئة الجديدة والانسجام معها ، ولكن يبدو أن ٨٠ ٪ من الذين قدموا منذ ١٩٤٥ اتخذوا من أستراليا وطناً لهم .

وتمارس نيوزيلندة سياسة مماثلة ، فقد استهدفت رفع عدد سكانها من ١,٧ مليون في ١٩٤٧ إلى أكثر من ٣ ملايين في ١٩٧٥ ، وهذا ما بلغته بصورة كاملة .

التنظيم السياسي والاجتماعي

تؤلف كل من أستراليا ونيوزيلندة دولة كاملة الاستقلال ضمن إطار الكومونولث البريطاني . وتشكل الولايات الأسترالية الست مع منطقة الشمال منذ ١٩٠١ الاتحاد الفيديرالي الأسترالي وعاصمته **كانبرّا** ، وهي مدينة جديدة ، قامت في ناحية اتحادية ويسكنها ٢٥٠,٠٠٠ نسمة بعد أن كان عدد سكانها لا يتجاوز ٢٦,٠٠٠ في ١٩٦٠ .

أما العاصمة النيوزيلندية ويلّلينغتون فتقع في الجزيرة الشمالية على مضيق كوك الذي يفصل بين الجزيرتين .

ويفتخر الأستراليون والنيوزيلنديون **بمستوى معاشي** يمكن مقارنته بمستوى معيشة الأمريكيين . ويحتل هذان الشعبان الفتيّان والنشيطان مكاناً متميزاً بين الأمم الديموقراطية والعصرية .

لقد تبنّت نيوزيلندة منذ عام ١٨٩٨ ـ وهي القطر الذي سبق الوطن الأصلي ، أي بريطانيا ، وكل الأقطار المتقدمة في أوروبا ـ أقول تبنّت مبدأ معاشات الشيخوخة وشملت كل مواطنيها بسرعة بنظام الضمان الاجتماعي الكامل .

ولقد اقتبس البريطانيون أنفسهم من النيوزيلنديين عدداً لابأس به من إصلاحاتهم الاجتماعية ، ولا سيا اشتراكية الطب . أما التنظيم العمالي فهو متقدم جداً والانتساب إلى النقابات إجباري . أما نسبة عدد السيارات لعدد السكان فتحتل أستراليا الطليعة في الإحصائيات العالمية بحيث تقف على قدم المساواة مع الأمريكان .

المواصلات

تضطر كل من أستراليا ونيوزيلندة ، أكثر من أي قطر في العالم ، إلى التغلب على المسافات والتباعد . وكل المدن الكبرى هي عبارة عن موانئ . ويحقق

الأسطول البريطاني القسم الأعظم من **الاتصالات البحرية** ، ومع ذلـك تملـك أستراليا أسطولاً تجاريـاً ارتفعت حمولتـه في عـام ١٩٧٥ إلى ١,٢٠٥,٢٤٨ طنـة . كما طرأ تطور عظيم على **المواصلات الجوية** مع أوروبا ، وأمريكا ، وآسيا .

وإذا كانت نيوزيلندة تملك شبكة كثيفة من الطرق الجيدة تمتد على ٩٢٠٠٠ كم ، ومن الخطوط الحديدية تصل إلى ٥٤٠٠ كم ، فإن أستراليا تشكو من عجز شبكة طرقها التي تمتد على مسافة ٩٠٠,٠٠٠ كم وخطوطها الحديدية التي لاتتجاوز ٤٢٠٠٠ كم (شكل ٨) . بيد أن الطائرة أصبحت فيها وسيلة النقل المألوفة .

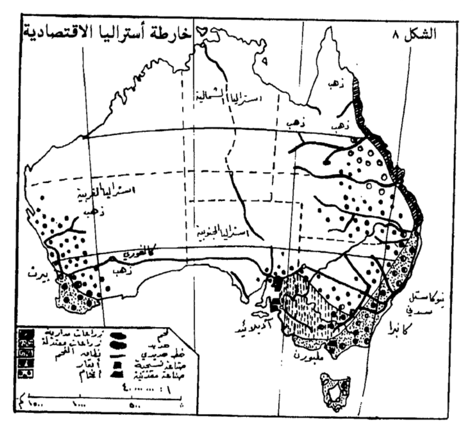
لقد تم مدّ السكك الحديدية بسهولة : وهكذا فإن الخط الحديدي الذي ينطلق من آديلائيد إلى پرث يجتاز سهل نيلاّبور الصحراوي بخط مستقيم طوله ١٠٣١ كم . ولكن لم يتم بناء سوى زمرة من خطوط نفوذ تنطلق من الساحل كي تبلغ المناطق الزراعية الرئيسية ، ومناطق تربية الماشية أو المراكز التعدينية . وترتبط هذه الخطوط بواسطة **الخط الأسترالي العابر للقارة** الذي يربط العواصم الخمس فيما بينها ، ولكنه يحتوي على أربعة طرق ذات مقياس مختلف . فقد أقامت كل ولاية طرقها الخاصة دون أن تهتم بتنسيق على مستوى اتحادي « فيديرالي » . ويؤدي عجز الشبكة الحديدية إلى شلل تطور بعض المناطق . ففي كوينسلاند مثلاً ، وخلال الجفاف الكبير في ١٩٥١ ، كانت آلاف الأبقار تنفق من العطش ومن الجوع على مسافة بضع عشرات الكيلومترات من المراعي الطيبة ، والتي كانت شدة ضعفها وهزالها تجعلها عاجزة عن بلوغها سيراً على قوائمها .

وقد أخذت الطائرة على عاتقها نقل كل الركاب تقريباً ، إذ تقوم بين المدن الكبرى عدة رحلات يومية ، مثلما يمكن طلب طائرات تكسي . وقد أصبحت الطائرة في مراكز تربية المواشي في الداخل وسيلة الحياة التي لاغنى عنها ، وبفضلها يمكن الذهاب إلى المدينة المجاورة الواقعة على مسافة ٢٠٠ أو ٣٠٠ كم من المسكن . وفي حالة المرض يمكن استدعاء « الطبيب الطائر » بواسطة اللاسلكي ، الذي يأتي لإسعافك في الحال ، كما يمكن ذبح المواشي محلياً وإرسال لحمها بالطائرة ، وعوضاً عن خطوط حديدية جديدة ، تعتمد أستراليا الآن أكثر فأكثر على الطائرة الشاحنة .

ثالثاً : التطور الاقتصادي

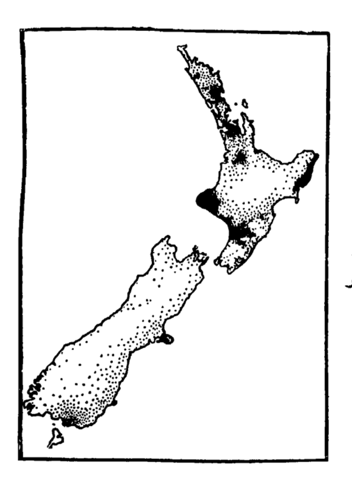
تؤلف نيوزيلندة مزرعة بريطانية ، في متقاطراتها ، أي في الطرف المقابل من الكرة الأرضية . وتأتي أهم موارد نيوزيلندة من مزارعها التي تستغل ٦٠٪ من أراضي البلاد . وهكذا يقدم المزارعون النيوزيلنديون ، المجهزون بأدوات عصرية ، بالإضافة إلى قطيع جيد الاصطفاء ، تعمل تحت تصرفهم مؤسسات تعاونية ضخمة ، ويقدمون منتجات ممتازة قادرة على منافسة أفضل السلع الأجنبية في أسواق إنكلترا .

وهكذا تنتج الزراعة المختلطة mixed farming فوق أراضي السهول الغنية ، التي تقوم فيها زراعة المحاصيل المتنوعة والمروج الرعوية ، تنتج الحبوب والفواكه ، كالحمضيات في الجزيرة الشمالية ، والتفاح في الجزيرة الجنوبية ، ولاسيا الحليب



وحيوانات الذبح ، من أبقار وخنازير (شكل ٩) . أما فوق الأراضي الأقل جودة فوق التلال والجبال ، فقد تحولت المروج الطبيعية والأراضي المستصلحة إلى مراعٍ تحتل في نيوزيلندة مساحة تفوق المساحة المخصصة للزراعة بعشر مرات ، وتسمح تربية الأغنام الواسعة ، التي تكون غالبيتها من العرق المتصالب الذي يعطي الصوف واللحم في الوقت ذاته . وهكذا تشكل الأراضي المخصصة لتربية الماشية ٩٠٪ من رقعة الأراضي المستغلة .

وتضم البلاد ٩,٧ مليون رأس من الأبقار و ٥٦ مليون رأس من الأغنام و ٠,٥ مليون من الخنازير . وتنتج نيوزيلندة مقدار ٦,٥ ملايين طن من



الشكل ٩

توزيع الأبقار في زيلندة الجديدة

كل نقطة في الشكل ترمز إلى (١٠٠٠) رأس من البقر

الحليب ، و ٢٥٧٠٠٠ طن من الزبدة و ١٠٤٠٠٠ طن من الجبن و ٣١١٠٠٠ طن من الصوف وأكثر من مليون طن من اللحم .

أما زراعتها فتقدم حوالي ٥٠٠,٠٠٠ طن من القمح و ٤٥٠٠٠ طن شوفان و ٣٦٠,٠٠٠ طن من الشعير و ٢٥٠,٠٠٠ طن من البطاطا .

وبعد أن كان **استغلال الغابة** في الماضي تخريبياً أصبح الآن خاضعاً للتنظيم وأوجد صناعة خشبية نشيطة ، ولاسيا صناعة الورق في مدينة كاوران بالجزيرة الجنوبية وتقوم مصائد الأسماك الساحلية بدور لابأس به في إنتاج الأسماك .

غير أن الموارد المعدنية في نيوزيلندة لاتسمح بقيام صناعة ثقيلة . وتنتج البلاد مقداراً من الذهب بلغ في عام ١٩٨٠ ٢١٨ كغم ، كما تنتج نيوزيلندة أكثر من ١,٥ مليون طن فحم وحوالي ربع مليون طن من فحم الليغنيت ، هذا فضلاً عن كمية من الفضة والتنغستين هذا كما تنتج نيوزيلندة أكثر من مليون طن من الأسمدة فضلاً عن ٢٠٠٠٠ طن من غزل الصوف .

بيد أن إمكانات **التجهيز الكهرمائي** تظل واسعة جداً ، ولاسيا في وسط الجزيرة الشمالية وفي جبال الألب بالجزيرة الجنوبية . ويناهز إنتاج نيوزيلندة حالياً ٢٢ مليار ك و س معظمها من الفحم الأبيض ، هذا فضلاً عن قيام مراكز كهربائية تعتمد على الطاقة الحرارية الأرضية ، géothermique التي تقتنص الأبخرة الساخنة من النافورات الحارة « جيْزر » في منطقة بحيرة توپو ، مما سيزيد من إنتاج الطاقة والتي كانت لاتزيد عن ٧,٣ مليارات ك و س في ١٩٦٠ ، والذي سيسمح بالتوسع في **الصناعات التحويلية** كصانع الألبان والأجبان .

الزراعة وتربية الماشية في أستراليا

تنتظر أستراليا مستقبلاً اقتصادياً مشرقاً للغاية ، هذا على الرغم من الشروط

الطبيعية العسيرة . **فالمناطق الخضراء** « greens » تظل محدودة بسبب الافتقار إلى الماء ولقلة الرجال ، ومحصورة بنطاق ساحلي غير متصل ، يمتد من أستراليا الغربية إلى كوينسلاند ، ولا يشكل سوى ٧,٥٪ من مساحة أستراليا . وهنا نميز ثلاثة نماذج من المستغلات الزراعية :

١ ـ هناك **مزارع الزراعة المختلطة** ، التي تكون كثيرة على الخصوص في بلاد الغال الجديدة في الجنوب ، وفي ولاية فكتوريا ، في أقصى الجنوب الشرقي ، وفي جزيرة تسمانيا ، وتقوم هنا مزارع متوسطة الأبعاد ، تنتج الأعلاف الخضراء والحبوب من أجل **تربية ماشية حلوبة** ، ولتسمين الثيران والخنازير . وتكون هذه المزارع مختصة أحياناً **بزراعة الفاكهة** ، فقد أقامت كروم عنب واسعة في منطقة آديلائيد بشكل خاص ، تنتج عنب المائدة والزبيب والخمور التي تقارب ٤ ملايين هيكتو ليتر ، ولقد سمح التوسع في الري في واديي مورّاي ورافده مورومبيدجي على قيام مستغلات زراعة متعددة الإنتاج ، ولتربية ماشية حثيثة ، وقد أقيمت سدود كبيرة على الأنهار في جبال سنووي مما سمح بتوسع كبير في المساحات المروية .

٢ ـ **مزارع القمح** : وتحتل المناطق الأكثر جفافاً ، حيث تختلط زراعة القمح الواسعة والممكننة ، حيث يصل الإنتاج السنوي وسطياً إلى ١٠ ملايين طن ، أو عشرة أضعاف الإنتاج السوري ، مع زراعة البرسيم من أجل تغذية الأبقار والأغنام ، ويصل إنتاج الشعير إلى ٣,٣ مليون طن والشوفان إلى ٩٠٠,٠٠٠ طن والذرة الصفراء إلى ٢٠٠,٠٠٠ طن ، والبطاطا ١ مليون طن .

٣ ـ **المزروعات المدارية في كوينسلاند** ، حيث تعتمد على مساحات واسعة وعلى مكائن راقية جداً ، وتستخدم فرقاً من العمال البيض ، وهو أمر شاذ في مناخ مداري ، ولاسيا **زراعة قصب السكر** ، حتى إن إنتاج السكر فيها

أصبح يفوق إنتاج فرنسا من هذه المادة أو ٣,٤ ملايين طن ، مثلما تقوم بتجارب واسعة لإنتاج القطن وفستق العبيد (الفول السوداني) .

أما فوق **المساحات الكبرى القاحلة في الداخل** ، فلا نجد مزارع حديثة ولا مزارع بل **محطات التربية الواسعة للمواشي** ، التي تعتمد على المراعي الطبيعية التي تبذر بالبذور العشبية المحسّنة وعلى موارد **المياه** المصانة بعناية فائقة . وتتألف هذه من ينابيع ومن خزانات سطحية على الأودية ، وآبار في الحوض الأرتوازي الكبير . ويكفي وجود عدد قليل من الرجال من أجل مراقبة القطعان والعناية بها ، ويتألف كل قطيع من آلاف الرؤوس ، بيد أن فترات الجفاف تؤدي إلى فناء أعداد كبيرة من القطعان . وإجمالاً تؤلف الزراعة وتربية الماشية قاعدة الاقتصاد الأسترالي ، ويبلغ عدد رؤوس الأغنام ١٣٣ مليون رأس في ١٩٨١ ، مقابل ١٨٠ مليون في ١٩٧٠ من نوع **مورينوس** ، وهو أول قطيع غنم في العالم كمّاً ونوعاً .

أما في شمال أستراليا فتقوم محطات **لتربية الأبقار** من أجل اللحم والجلد . فانعدام الشتاء في المناطق المدارية لا تسمح بنمو الصوف ، ولهذا ينحصر نطاق الأغنام في المناطق الجنوبية . ويبلغ عدد القطيع البقري ٢٥ مليون رأس ، وقد أوجدت محطات تربية الماشية المراعي ذات الحواجز الشائكة . وتستخدم أحدث التقنيّات لوقاية القطيع من الآفات العديدة ، وهكذا استطاعت استئصال النباتات الضارة والقضاء على ملايين الأرانب التي تتلف الأعشاب باستخدام ڤيروس myxomatose وبالعناية بصحة الأغنام عن طريق إقامة مغاطس تقضي على الطفيليات . وهكذا يؤلف قطيع الأغنام الأوسترالي أول قطيع في العالم في إنتاج الصوف الممتاز ، وهي أصواف المورينوس الحريرية فضلاً عن الأصواف الناتجة عن الأغنام المهجّنة . وهكذا يصل إنتاج أستراليا إلى ٦ ملايين طن من الحليب و ٣ ملايين طن من اللحم و ٧٠٠,٠٠٠ طن من الصوف . وهي أول دولة

منتجة لهذه المادة ، ويعتبر الفرد الأسترالي أول مستهلك في العالم من اللحم ، إذ يصل ما يستهلكه الفرد بالعام إلى ١٢٠ كغم مقابل ٧٥ كغم في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية وإلى ١٠ كغم فقط في البلدان العربية باستثناء ليبيا ودول الخليج[١] .

ويبدو أن الأستراليين أنفسهم قد أصابتهم الدهشة من الثروة الخارقة التي تقدمها لهم أغنامهم ، التي أصبحت تقدم ٢٨ ٪ من الصوف العالمي و ٦٦ ٪ من أصواف مورينوس . وفي منتصف القرن الحالي كانت الأصواف تمثل نصف قيمة الصادرات الأسترالية ، بينما لا تمثل حالياً سوى ٨ ٪ من قيمة الصادرات . ولا تزال تؤلف محطات الأغنام بالداخل قطعاناً قد يصل الواحد منها إلى حوالي ٥٠,٠٠٠ رأس أو أكثر . أما في المناطق الخضراء greens فإن ثلاثة أرباع مزارع تربية الأغنام لا تحوي أكثر من ١٠٠٠ رأس . ويتطلب جزّ الصوف المزيد من الأيدي العاملة . ويعمل الكثير من القصاصين بالتعاقد مع مربي الأغنام ، ويكون هؤلاء العمال المتجولون فخورين بمهارتهم ، إذ يتمكن الواحد منهم أحياناً من جزّ صوف ٣٠٠ رأس غنم في اليوم . وبعد الجز تتم عملية الفرز ، وتوسم ثم تضغط في بالات تتعهد شركات خاصة ببيعها ، والتي تقوم مرتين في العام ببيع الأصواف في ملبورن وفي سيدني بالمزاد العلني ، ويأتي المشترون من سائر أطراف المعمورة .

النمو الصناعي في أوستراليا

لم تعد أستراليا ، كما كانت في القرن التاسع عشر بلد الباحثين عن الذهب والمغامرة ، فقد احتلت مكانها بين الدول الصناعية الكبرى . هذا ولم يعد لمناجم

---

(١) يرى الدكتور خوزيه كاسترو مؤلف كتاب « جغرافية الجوع السياسية » أن نقص التغذية لدى الأمهات يزيد قدرتهن على الإنجاب لعجز الكبد ولشدة إفرازه مادة الجريبين folliculine التي تزيد الخصوبة ، وهكذا تتصف الشعوب « النباتية » بالتكاثر المفرط ، بينما يقل ذلك لدى الشعوب « اللاحمة » وقديماً قال الشاعر العربي :

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلات نزور

وينطبق هذا على النباتات الرديئة التغذية أو العطشى ، فالليمونة العطشى تكثر بذورها على خلاف ثمرة الليمون الريانة التي تكاد تخلو من البذور ، هذا فضلاً عن أن الشعوب الجائعة تتصف بسرعة الانفعال لأنها تعاني من صوم مزمن ، فتكثر فيها الحروب الأهلية والثورات المتكررة وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي . وهكذا قيل : ماضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر .

الذهب بين **المصادر المعدنية** أكثر من دور ثانوي ، لأن إنتاجها الحالي لا يزيد عن ١٧ طناً ، مقابل ٣٣ طناً في ١٩٦٠ و ١٠٠ طن في مطلع القرن الحالي . ويعود ذلك لنضوب مكامن الذهب في ولاية ڤيكتوريا ، كما أن استغلال مناجم كالغورلي في أستراليا الغربية يكلف غالياً ، لأن الماء يجلب إليها من مسافة ٦٠٠ كم . أما في الوقت الحاضر فقد أصبح إنتاج **مناجم الحديد** يتجاوز من حيث القيمة إنتاج مناجم الذهب ، لأن إنتاج أستراليا من « معدن الحديد » يبلغ حالياً ٨٥ مليون طن من موقع يامبي ساوند ، بعد أن كان لا يتجاوز ٣ ملايين طن من خامات الحديد في ١٩٦٠ . وتقع أهم مناجمه في ولاية بلاد الغال الجديدة الجنوبية ، ومن خليج سپنسر ، ومن أستراليا الغربية . أما استخراج **المعادن غير الحديدية** كالرصاص فإنتاجه ٢٤٠,٠٠٠ طن وهي ثاني منتج عالمي ، والزنك ٥٠,٠٠٠ طن ، والفضة ٧٨٠ طن ، والنحاس ١٧٦,٦٠٠ طن ، فتقوم به شركات قديرة ، ولاسيما في ناحية بروكن هيل ، في ولاية بلاد الغال الجنوبية الجديدة ، وفي جبل إيزا في ولاية كوينسلاند . وقد دخلت مكامن هامة من أوكسيد **اليورانيوم** مرحلة الإنتاج في أستراليا الجنوبية ، وكوينسلاند ، وفي أرض آرنهم ويلغ ٢٦٠٠ طن . وفضلاً عن ذلك تنتج أستراليا ٢٦ مليون طن من البوكسيت و ٤٠٠٠ طن قصدير و ١,٥ مليون طن من التنغستين وثلاثة من الإثمد .

أما في مجال **الطاقة** فتضطر أستراليا قبل كل شيء إلى الاعتماد على مواردها الفحمية ، فقد أنتجت عام ١٩٦١ مقدار ٢٤ مليون طن من الفحم و ١٠٠ مليون طن حالياً من إقليم نيوكاسل ، وارتفع إنتاجها من الليغنيت من ١٦ مليون طن في عام ١٩٦١ إلى أكثر من ٣٣ مليون طن حالياً ، وقد أضيفت حالياً مناجم فحم في أستراليا الغربية وفي أستراليا الجنوبية ، كما يتطور حوض الليغنيت بسرعة في ولاية ڤكتوريا . وتقدم المراكز الحرارية الشطر الأعظم من **الطاقة الكهربائية** المستخدمة في البلاد ، وقد قفز إنتاجها من ٢٥,٤ مليار ك و س في عام ١٩٦١ إلى

١٠٣ مليار سنة ١٩٨١ . أما المراكز الكهرمائية التي توسعت كثيراً في منطقة جبال سنووي ، فلم تقدم سوى ٢٠ ٪ من الطاقة الاجمالية أما **البترول** فقد عثر عليه في عدة أماكن ، ولا سيما في مضيق پاس ، وفي شمال غرب أستراليا من أحواض بحرية وبلغ إنتاجه ١٨ مليون طن ، أي يقل عن إنتاج مصر ، ولكن طاقة أستراليا على التكرير يتجاوز ٣٥ مليون طن .

هذا وتتطور **الصناعة** الأسترالية بسرعة . وقد شهدت صناعة الحديد فيها نهضة سريعة . فبعد أن كان إنتاجها ٤ ملايين طن من الفولاذ في عام ١٩٦٠ بلغ ٧,٦ ملايين طن في عام ١٩٨١ . وتقع أهم مجّمعات **الصناعة الثقيلة** على الساحل قرب نيوكاسل وسيدني ، وفي خليج سپنسر و پرت ، حيث تتبعثر الأفران العالية ومصانع الفولاذ ، ومصاهر المعادن غير الحديدية ، والترسانات البحرية ومصافي النفط ومصانع الأسمدة والإسمنت . وتصفّي البلاد مقدار ٢١٩٠٠٠ طن من النحاس و ٤٣٣,٠٠٠ طن من الرصاص و ٥٠٠,٠٠٠ طن من الزنك عدا القصدير . وتقوم الصناعات التحويلية في العواصم التجارية ، التي أصبحت مراكز صناعية ، وتأتي في الطليعة ملبورن وسيدني ، وتتلوهما آديلائيد وبريسبان ومدن أخرى أقل أهمية . ويتم في هذه المدن تحويل منتجات الزراعة وتربية الماشية ، كما قامت في أستراليا صناعة سيارات أنتجت في عام ١٩٨١ مقدار ٣٥٨,٦٠٠ سيارة سياحية و ٤٠,٠٠٠ سيارة نفعية ، مثلما تبني أستراليا الطائرات والمكائن الزراعية والتجهيزات الميكانيكية والكهربائية . وتنتج الصناعات **النسيجية** الأقمشة من القطن المستورد ، مثلما تقوم بغزل ونسج قسم لابأس به من الصوف الخام الذي تنتجه .

وأخيراً فإن **الصناعة النووية** القائمة على مراكز أبحاث وتجارب تفتح أمام أستراليا تطلعات صناعية جديدة ، مثلما تمنحها دوراً سياسياً متنامياً باعتبارها قلعة الكومونولث .

التجارة الخارجية

لا تختلف أستراليا عن نيوزيلندة في أنها قطران جديدان في طريق التجهيز ، بحيث تلعب التجارة بالنسبة لهما دوراً حيوياً . وهكذا تلعب هاتان الدولتان دوراً هائلاً في المبادلات الدولية ، لأن تجارتها من أكثر تجارات العالم نشاطاً بالموازنة مع عدد سكانها .

وهكذا بلغت صادرات أستراليا عام ١٩٨١ مقدار ١٩,٣ مليار دولار أسترالي ، وكان الصوف يؤلف ٨,٧ ٪ والقمح ١١,٩ ٪ ، واللحم ٤,٨ ٪ فضلاً عن السكر والخامات المعدنية .

أما الاستيراد فقد بلغ في العام نفسه ١٧,٨ مليار دولار أسترالي ، وكان يتألف من المكائن والعربات ، والمنتجات البترولية والكيماوية . أما نيوزيلندة فبلغت صادراتها عام ١٩٨١ ٦,٤ مليار دولار نيوزيلندي ، وعلى رأسها الزبدة ، لأنها أول دولة مصدّرة لها في العالم ، والجبن والصوف واللحم . أما استيرادها فكان ٦,٦ مليار دولار نيوزيلندي ، وكان يتألف من سلع مصنوعة ومكائن وسيارات ومنسوجات . وتجد المنتجات الأسترالية والنيوزيلندية سوقها الرئيسية في بريطانيا العظمى وكذلك في أوروبا أكثر مما تبيع إلى الولايات المتحدة . وهكذا تكون العلاقات التجارية والمالية مع المملكة المتحدة أساسية على الرغم من النفوذ الأمريكي المتصاعد .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٨٧	المواصلات
٩٠	المناطق الطبيعية
١١١	الولايات المتحدة كدولة اقتصادية عظمى
١٣١	**كندا**
١٣٤	الموارد الطبيعية
١٣٧	الصناعة والمواصلات
١٤٠	الكنديون
١٤٤	الإنسان الكندي
١٤٧	**أمريكا اللاتينية**
١٥٣	**البرازيل**
١٥٨	المناطق الطبيعية
١٦٢	البرازيل : بوتقة عرقية
١٦٦	استيطان الرقعة البرازيلية
١٧٠	الاقتصاد والمجتمع
١٧٣	الفوارق الإقليمية وتنظيم استغلال الرقعة
١٧٩	مشكلة المواصلات والطاقة
١٨٣	البرازيل : زراعة مدارية
١٨٨	البرازيل والمضاربات الزراعية
١٩٣	البرازيل قطر حديث العهد بالتصنيع
١٩٧	**الأرجنتين**
١٩٧	البيئة والسكان
٢٠٥	الأرجنتين : اقتصاد قيد البناء
٢١١	**الفصل الثاني : الاتحاد السوفيتي**
٢١٤	أولاً ـ التضاريس
٢٢٠	ثانياً ـ المناخ
٢٢٩	ثالثاً ـ النبات
٢٣٣	رابعاً ـ الأنهار والبحار والبحيرات
٢٣٩	سكان الاتحاد السوفيتي وطريقة العمل فيه
٢٤٠	أولاً ـ شعوب الاتحاد السوفيتي

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الموضوع	الصفحة

الصفحة	الموضوع





تصميم الغلاف : السيدة فاتنة الطرابيشي
تم رسم الخارطة على أجهزة CTT السويسرية